تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

[رضى الله عنه]

الجزء الثانى

﴿ فى المنشئات ﴾

يحتوى على أهم مقالاته الاصلاحية التى نشرت فى الجرائد ولوائحه فى إصلاح التربية والتعليم الدينى ، ومدافعته عن الدين ، ورحلته إلى صقلية ، وعلى كتبه ورسائله إلى العلماء والفضلاء فى الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة

جامعه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

﴿ حقوق الطبع والترجمة محفوظة لورثته ﴾

(الطبعة الثانية — أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٤٤ ﻫ)

BOBST LIBRARY
3 1142 02367 1780

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE

ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO

DUE DATE
OCT 26 2010
BOBST LIBRARY
CIRCULATION
RETURNED
2 2 2010
BOBST LIBRARY

Bobst Library
JUL 21 1999
CIRCULATION
JUN 23 1999

Due: 09/23/2013
10:45 PM
Tarikh al-ustadh al-Imam al-Shaykh Muhammad \02BBAbduh :
31142023671780
Bobst Library

RETURNED
BOBST LIBRARY

DUE DATE
DEC 13 2012
BOBST LIBRARY
CIRCULATION
RETURNED
MAY 21 2013
BOBST LIBRARY

108385

فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام

(وهو جل منشآته الاصلاحية والاجتماعية والادبية)

باب المقالات

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وفيه مقالتان

صفحة

١ المقالة الاولى في (فلسفة التربية) وهي ملخصة من درس السيد جمال الدين الافغاني
٧ « الثانية في (فلسفة الصناعة) « « «

الفصل الثاني

(مقالاته فى السنة الاولى من الاهرام)

١٥ المقالة الاولى ـ تقريظ الاهرام
١٧ « الثانية ـ الكتابة والقلم
٢٣ « الثالثة ـ المدبر الانساني ، والمدبر العقلي الروحاني
٣٧ « ٤ العلوم الكلامية ، والدعوة إلى العلوم العصرية
٤٥ « ٥ التحفة الادبية

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ ش كامل صدقى (الفجالة) القاهرة

الفصل الثالث

(مقالاته الاصلاحية ، فى جريدة الوقائع المصرية الرسمية)

٤٩ المقالة الاولى ـ حكومتنا والجمعيات الخيرية
٥٢ « ٢ احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الامة
٥٦ « ٣ حب الفقر أو سفه الفلاح
٥٩ « ٤ «
٦٣ « ٥ «
٦٩ « ٦ المعارف (انتقاد على وزارتها تمهيداً لاصلاحها)
٧٣ « ٧ «
٧٨ « ٨ « أيضا
٨٠ « ٩ التربية في المدارس والمكاتب الميرية
٨٤ « ١٠ وخامة الرشوة
٨٧ « ١١ العفة ولوازمها

صفحة

٩٢ المقالة ١٢ـ القوة والقانون
٩٨ « ١٣ ما أكثر القول وما أقل العمل
١٠٣ « ١٤ منتدياتنا العمومية وأحاديثها
١٠٩ « ١٥ حاجة الانسان الى الزواج
١١٣ « ١٦ حكم الشريعة في تعدد الزوجات
١١٩ « ١٧ خطأ العقلاء
١٢٣ « ١٨ كلام في « «
١٢٧ « ١٩ « « « « أيضا
١٣٣ « ٢٠ إبطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية
١٣٦ « ٢١ بطلان الدوسة
١٣٩ « ٢٢ الدوسة
١٤٢ « ٢٣ ماهو الفقر الحقيقى
١٥٠ « ٢٤ وضع الشيء في غير موضعه
١٥٣ « ٢٥ الكتب العلمية وغيرها
١٥٧ « ٢٦ اختلاف القوانين باختلاف الأمم
١٦٤ « ٢٧ تأثير التعليم في الدين والعقيدة
١٦٩ « ٢٨ بقايا « « « « « «
١٧٢ « ٢٩ نيل المعالي بالفضيلة
١٧٦ « ٣٠ العلم وتأثيره في الارادة والاختيار
١٨١ « ٣١ الملكات والعادات
١٩٤ « ٣٢ الحياة السياسية
١٩٧ « ٣٣ الشورى
٢٠٠ « ٣٤ « والقانون
٢٠٥ « ٣٥ التمرن والاعتياد
٢١٠ « ٣٦ التمدن

الفصل الثالث

(مقالات العروة الوثقى الاصلاحية)

٢١٥ المقالة الاولى ـ فاتحة مجلة العروة الوثقى
٢٢٣ « ٢ الجنسية والديانة الاسلامية

صفحة
٢٢٧ المقالة الثالثة ـ ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها
٢٣٧ « ٤ النصرانية والاسلام (مقابلة بينهما)
٢٤٤ « ٥ انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك
٢٤٩ « ٦ التعصب
٢٥٩ « ٧ القضاء والقدر
٢٦٨ « ٨ الفضائل والرذائل وأثرها
٢٧٦ « ٩ الوحدة الاسلامية
٢٨٢ « ١٠ والسيادة ـ أو الوفاق والغلب
٢٨٨ « ١١ استعانة الفاتحين على الامم بامرائها ورؤسائها
٢٩٣ الامل وطلب المجد
٢٩٧ « ١٢ رجال الدولة وبطانة الملك
٣٠٢ « ١٣ كم حكمة لله فى حب المحمدة الحقة
٣٠٧ « ١٤ الشرف
٣١٢ « ١٥ دعوى الفرس الى الاتحاد مع الافغان
٣١٧ « ١٦ امتحان الله للمؤمنين
٣٢٠ « ١٧ أسباب حفظ الملك
٣٢٥ « ١٨ سنن الله في الأمم
٣٣١ « ١٩ الجبن
٣٣٥ « ٢٠ الامة وسلطة الحاكم المستبد
٣٣٧ « ٢١ الوهم
٣٣٨ استدراك على الفصل الاول
٣٣٩ « ٣ الدولة العثمانية والخديوية المصرية

الفصل الرابع

(مانشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية)

٣٤٢ المقالة الاولى ـ مصر وجريدة الجنة
٣٤٦ « ٢ كتب المغازي وأحاديث الأقاصيص
٣٥١ « ٣ مراسلات
٣٥٥ « ٤ رسالة صموئيل باكر في السودان ومصر وانكلترا
٣٦١ « ٥ مصر ـ المحاكم الاهلية

صفحة
٣٦٥ المقالة السادسة ــ اللغة الرسمية فى المحاكم الاهلية بمصر
٣٦٩ « ٧ الانتقاد
٣٧٤ « ٨ المسألة الهندية
٣٨٠ « ٩ بسمارك والدين
٣٨٢ « ١٠ آثار محمد علي فى مصر
٣٩٠ « ١١ انما ينهض بالشرق مستبد عادل
٣٩١ « ١٢ القضاء والقدر
٣٩٤ « ١٣ الرجل الكبير في الشرق
٣٩٧ « ١٤ الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر

الفصل الخامس

(بعض ماكتبه في المناظرات الدينية وغيرها)

٤٠٠ الرد على هانوتو
٤٠١ ترجمة مقال هانوتو
٤١٥ رد الاستاذ الامام عليه
٤٢٥ المقالة الثالثة في الرد على هانوتو
٤٣٣ الاسلام أيضا
٤٤٠ حديث مع المسيو هانوتو
٤٤٩ المقالة الرابعة ــ هانوتو والاسلام
٤٥٣ « ٥ « «
٤٦٣ « ٦ في الرد على هانوتو
٤٦٨ التربية التي يكون بها الانسان انسانا والجماعة الكبيرة أمة

﴿ باب الرحلات العلمية التاريخية ﴾

٤٧٣ بلرم ــ صقلية
٤٧٧ كنيسة موريالي وتساهل العرب وأين هم العرب؟
٤٧٩ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم
٤٨٣ المكتبة العمومية ودار المحفوظات
٤٨٥ حاجة السائح إلى معرفة اللغات وأيها أنفع
٤٨٩ مسينا ومقبرتها
٤٩٢ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم

صفحة

٤٩٣ رثائيهم ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين
٤٩٧ دور الآثار و بساتين النبات
٤٩٨ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها
٥٠٢ أمير وأميرة من الأسرة الخديوية

الباب الرابع

﴿ لوائح الاصلاح والتعليم الديني ﴾

٥٠٥ اللائحة الاولى
٥١٢ التعليم الدينى الابتدائي لطبقة العامة المسلمين
٥١٣ « « الوسط للطبقة المرشحة للوظائف
٥١٥ « « العالي لطبقة المعلمين والمرشدين
٥١٩ كلام في الدعاة والمرشدين
٥٢٢ اللائحة الثانية ـ في اصلاح القطر السوري
٥٢٤ حالة أهالي جبل لبنان
٥٢٦ « ولايتي بيروت وسورية
٥٣٣ اللائحة الثالثة لاصلاح التعليم في مصر
٥٣٩ المدارس الاميرية
٥٤٠ « الاجنبية
٥٤١ الجامع الازهر
٥٤٣ الكتاتيب الاهلية
٥٤٤ المكاتب الرسمية الابتدائية
٥٤٦ المدارس التجهيزية والمدارس العالية
٥٤٧ المعلمون والمدرسون ومدرسة دار العلوم

الباب الخامس

٥٥٣ الفصل الاول ـ كتبه ورسائله الاصلاحية السياسية والدينية
٥٩٢ « الثاني ـ طائفة من كتبه ورسائله الودادية
٦٣٣ نموذج من كتبه في التعازي
٦٤١ كلمة له في المنار
٦٤٢ خاتمة في بعض كلمه المنثورة وحكمه المأثورة

تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الجزء الثاني

﴿ في المنشآت ﴾

يحتوي على أهم مقالاته الاصلاحية التي نشرت في الجرائد ولوائحه في اصلاح التربية والتعليم الديني ، ومدافعته عن الدين ، ورحلته الى صقلية ، وعلى كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة

جامعه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ وحقوق الطبع محفوظة له ﴾

الطبعة الثانية في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤

OCT - 3 2013

BP
80
.M8
M8
1931
v. 2

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين * (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حي بآثاره ، التي هي مقبس أنواره ، مات الموتة الطبيعية ، ويحي الحياة العقلية الروحية فهو لايزال كما كان ، قبل أن يغيب عن العيان ، تنقل أقواله ، وتذكر اعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء والحكماء فى هذه الدنيا حياتين -- حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم الولادة وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر الناس بل سائر الحيوان — وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبتدىء بظهور ثمرات عقولهم النافعة لامتهم أو لكل من يجنيها من الناس وتدوم مادام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان ، وقد كان الاستاذ الامام من خير هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ، ومآثره المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن هذا النابغة العبقري وهو

لايزال تلميذا يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين، ويفيض منها على عقول المستعدين : بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الانشائية ، ويجلي المعاني العصرية في أثواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعيا الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثا على ترقية الامة ، حاضا على تجديد مجد الملة ، آمراً بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهيا عن التعصب الذميم بين المختلفين فى الاديان، فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدىء فى الكتاب بمقالاته التي كتبها وهو في عهد طلبه للعلم بالازهر الشريف وينتهي بحكمه المأثورة ، ودرره المنثورة

ثم يمثله لك في طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بعقائل الفضائل وأحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات، يهبط على الفلاح في حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه مالم يكن يعلم ، — وهذا هو المثال الاول بطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الاوربية ، متحدين على إرشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والاستاذ الامام

يكتب ويحرر ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تتجلى لك روح القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحييها حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، هنالك ترى الالهام الالهي يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القاريء مافي العروة من بيان حال المسلمين ، وأسباب ماأصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائهم وتصف من دوائهم ، الا وينثني أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والاركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة

ثم يظهره لك رابضا في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام باصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيما في الديار المصرية ، يبين لاولي الامر طريق الاصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ، ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكنين ، ويجمع بين مصلحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق القويم ، في نظام التربية والتعليم ، معرضا باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحا بضمان تحقيق الامل ، وفي ذلك مافيه من اعتماده على الله ، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراع مناهج الفلاح

ثم يبرزه لك في طور المبارزين ، للطاعنين على الدين المبين ، فيتراءى لك أن قلمه أمضى من الحسام ، وكلمه أنفذ من السهام ، فهو بهما يكر ويصول ،

ويجندل من المجادلين الفحول، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره، والباطل مغلوب يأرز الى جحره، وحسبك من ذلك رده على مسيو هانوتو فى قوله فى طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم رده عليه فى مسألة الجامعة الاسلامية

ثم يريكه يجوب الاقطار، ويقطع أجواز البحار، للنظر فى آثار الاولين، واستخراج العبر منها للآخرين، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ مانقش على الجدران بالعربية، لتحقيق المسائل التاريخية، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات، وينقب من المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته، فيما كتب عن رحلته

ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من علماء المسلمين، ما تخشع له القلوب، وتتحدر من وقعه الشؤون، فكأنك منه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت نفسك تتدفق غيرة على الدين، وتفيض حزنا على ماحل بالمؤمنين، فلم يبق لها هم الا أن تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك معه فى عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة، ويختلب الالباب ببلاغته الرائعة،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان فيمثل لك الادب الباهر، واللطف الساحر، ويصور لك الوفاء فى أجمل صوره، والاخلاص في أجل مظاهره، الصدق والحب على البعد والقرب، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته، المستغرق في عمل

الاصلاح لمتة ، أديبا ظريفا ، ونديما لطيفا . حسن الاماليح مليح الافاكيه

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وآونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية، أو المترجمين للكتب الاجنبية، مايرفع من اقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ، ويزجي ركاب عزيمتك الى أن تكون من زمرتهم، وتساهمهم في مثل خدمتهم وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ، ومواعظه للمرزوئين بالاقربين ، مايحلو به مرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والاجر ، ويترك القلوب مفثوءة الثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية بشذرات من الحكم المنثورة ، والايات المأثورة ، فترى اجمالا ينبيء عن تفصيل ، وقليلا لا يقال له قليل ، كانه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ، وانموزج من أعماله ، وإن اثاره في النفوس لاعظم من آثاره في الطروس فهو حي في الاخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل حياته هذا الكتاب الناطق وينشر خبرها الصحيح مريدة الصادق

محمد رشيد رضا

منشيء المنار

(تنبيه) تزيد هذه الطبعة على الاولى عدة مقالات ورسائل وحكم منثورة، وحذفنا منها رسائل الواردات لقلة من يفهمها ولرجوع الاستاذ عن كثرتها وقد بلغت الزيادة مع هذا ٩١ صفحة

باب المقالات

يدخل ماكتبه من المقالات ونشر فى الجرائد فى ثلاثة فصول (أولها) ماكتبه فى عهد طلبه للعلم بالازهر ولدى السيد جمال الدين الافغاني (ثانيها) مانشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لاصلاح الحكومة والامة بمصر وهو مانشره فى جريدة (الوقائع المصرية) الرسمية (ثالثها) ماكتبه بعد نفيه من مصر وتصديه مع أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغانى للاصلاح الاسلامي العام وهو مانشره في جريدة (العروة الوثقى) التى انشئت فى (باريس) (رابعها) مانشر بعد ذلك فى الصحف المصرية والسورية

الفصل الاول

ماكتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وهو أول عهده بالانشاء الذي عرف به في عالم الصحف: وعندنا منه مانشر في أعداد متفرقة السنة الاولى لجريدة الاهرام الاسبوعية من العدد الخامس الذي صدر في ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الى العدد «٤١» وهي السنة التى نال فيما يليها «أي سنة ١٢٩٤» شهادة العالمية من الازهر، وبعض مانشر في جريدة مصر التي كانت لسان السيد جمال الدين ومريديه وتلاميذه وهو مقالتان نجعلهما فاتحة المقالات وهما في الحقيقة للسيد وليس للشيخ منهما الا العبارة:

المقالة الاولى

فلسفة التربية

في ليلة الاحد الماضي (١) انعقد درس الاستاذ جمال الدين الأفغاني، وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم، وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين. بمحضر هؤلاء وأولئك، شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم أن يسلك من سبلها، ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية (٢) تعميماً للفوائد، وبياناً لما انطوى عليه من حسن المقاصد، قال ما معناه:

إذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها، تفاعلا متناسباً بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها، غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية، فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة، فان غلب أحد العناصر على سائرها، واضمحلت خواص بقيتها فيه، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال، واستولى المرض على الجسم، وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها. كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه، كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية، والحر الشديد الموجب للاحتراق، وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي اليه اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري، ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم

(١) كان ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونيو «حزيران» سنة ١٨٧٩م

«٢» نشرها في جريدة مصر التى كانت تطبع في الاسكندرية وكانت مظهر افكار السيد ومجلى حكمته وميدان اقلام مريديه

ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ، ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال إن خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى فى بقاء الانواع إلى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزليـة . فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ، ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ، ويوضحون مواد التسميد ، وغير ذلك مما لابد منه في تربية النباتات — وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج ، ومضار الاهوية ومنافعها ؟ ويقـفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ، ويرجع اليها إن انحرف عنها .

ولن يكون الطبيب طبيباً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ، ويميز نافعها من ضارها . وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ، وما يلائم كل واحد على حسبه ، وخبيراً بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف ، وتاريخها من قدم وحدوث ، حتى يعالج كلا بما يليق به . فان جهـل من ذلك شيئاً كان فقده خيراً من وجوده . فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت ، إذ بجهله يستعمل من الأدوية ماعساه يهيج المرض ، ويعين من الأغذية مايساعده على قسوته ، فيفضي ذلك الى هلاك المريض . وقد كان بدونه محتمل الشـفاء بمقاومة الطبيعـة لولا مساعدة الجاهل وعونه ، وكما يلزم للطبيب أن يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب أن يكون شفيقاً رحيماً صادقا أميناً ، لايكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة . فانه إن كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلا ، أو إهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني . وكذلك إن قصر همـه على ما ينال من الدينار والدرهم ، فانه إن كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله ، فان هلك فقد نال مايزيد عن مكافأته ، وإن امتـد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات ، فعدمه أيضاً خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من

تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى . كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة ، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان ، وعليها مدار حياته الفاضلة ، فان تغلب أحد الخلقين على الآخر ، فسد نظام الفضيلة ، واستحكمت الرذيلة ، وبات شقيا سيء الحال ، وسقط في مهواة التعب والعناء ، المفضيين الى الحين والهلاك .

ألا ترى أن النفس الانسانية لابد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ، ولم يستطع عن نفسه دفاعا ، وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته . ولو أن الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهوراً وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق، بدون تبصر ولا مراعاة حكمة ، فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلاطائل يعود على نفسه أو وطنه

وكذلك لابد من خلق الامساك والبذل ، وهما متخالفان متعارضان، يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء ، وهي البذل في موضع الاستحقاق إذا اعتدلا . ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لأمسك عن قضاء لوازمه الضرورية ، فلا يأتي باللائق من الأغذية والألبسة مثلا، فيضر ببدنه، ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده ، أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده ، فيقع الشقاق بينهم ، ويتأدى به الى شقاء دائم ، وغير ذلك من مفاسد البخل التي لاتنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيراً فلا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك

وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية إنما هي واسطة لطرفين متضادين لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك . وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس

يقع أيضاً بتغلب أمر خارج عن مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة ، وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لأعمالهم ، وتقلدها بعاداتهم ، أو باستماع إغواء ذوي الاهواء ، وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة ، المذيعين للافكار الرديئة ، المؤيدين للعقائد الباطلة ، التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة . فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج ، كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا — فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد ، وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها ، وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال ، بمنزلة الاطباء ، وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف ، كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والارواح إذا رقي منبر الارشاد أن يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضاً وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان ، وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ، ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أو قديم ، قوي في النفوس أو ضعيف ، وما هو العلاج اللائق بكل صنف ، وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تام بمنافع الاعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الاخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر الواقع ، وكما يلزم أن يكون الطبيب شفيقاً رحيما صادقا أميناً ، لا ينظر الى الدنايا ، ولا ينحط الى المقاصد السافلة ، كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم ، أولي مقاصد عالية ، لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ، ولا بالتقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة ،

وإن رزئت بمطببين لا أطباء، بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء، والسفلة والادنياء ، فأنذرها بالعناء والشقاء ، فان المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ، ويغرس فيها جراثيم الشر باسم أنها أصول الخير ، ولربما كان مقصده حسنا ولا يريد الا خيراً ، ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ، ويبعده عن اتخاذ وسائله ، فتقع الارواح في الجهل المركب ، وهو شر من الجهل البسيط ، فان ذا الثاني على باب الفضيلة لايلبث ان فتح له أن يلجه ، وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل ، واستتر تحت نقع الرذيلة ، واعتقد ذلك ظلا ظليلا ، فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل ، فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم ، وكذلك إن كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية ، فانه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية ، فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر ، صفت النفوس أو تكدرت ، ارتفعت الآداب أو انحطت ، صحت الارواح أو اعتلت ، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء، يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

ألا وأن القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين، قبيل الخطباء والوعاظ، وقبيل الكتبة والمصنفين ، ومنهم أرباب الجرائد ، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم ، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال ، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص ، وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم ، وإلا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ، ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذى لا يقتصر ضره على المبتلي به ، بل يتعداه بالسراية الى كل ماسواه

المقالة الثانية

فلسفة الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل ، والفيلسوف الكامل، السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة . فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية ، وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة ، غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة ، إلا أنها نبتت فروعها في المغرب ، واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ، ولم تزل في بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد(١) القوة الى الفعل — إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين ، وبسط الغربيين ، يجمع الى الاصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها ، والى المجملات تفاصيلها ، بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة . ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد ، جمة الثمرات للعموم . رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها ، وأنشر طيب وفدها في صحف (الجرنالات) لتعم الفائدة، والله يتولى التوفيق

بين حفظه الله وأثبت أن الانسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية (لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ، ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفيأ ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحرة والاوكار ، ليس له شعار ولا دثار (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية أجنبية ، ليس له من المكر والتحيل إلا مالا يداني فيه

«١» لعل الكلمة حيز بتشديد الياء فانها هي المستعملة في هذا المعنى ولفظ الحد صحيح فيه

الثعلب ، ولا من العلم والتدبير إلا ما يبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار، والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب . ولم يكن له من رفعة القدر مايجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، ويقيمه متحكماً في كل موجود ، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم الكون ، وأن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لأجله ، والكواكب السيارات إنما تتحرك لخدمته ، بل كان ضعيفاً عاجزاً جاهلا حافياً عاريا يزعجه كل حادث ، وتستفزه كل نبأة ، ويتهيب من كل شكل وهيئة ، والشاهد على ذلك ماتحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة (١) في قمم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف ، الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان ، فانهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة، لايفهمون خطابا ، ولا يحسنون جوابا ، إلا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة ، كجلب قوت بسيط ، ومدافعة عاد من الحيوانات ، وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالا وإنسانية فهم بعيدون منه ، عارون عنه ، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الانواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة ، حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه ، لاتحصل الا بالتحصيل ، وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء : وهبه قوة عاقلة كلية التصرف ، عامة القبول ، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي ، فكان لكل نبات وحيوان ، بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية وسابق الفضل على نوع الانسان ، فاسترشد بأعمالها ، واهتدى بآثارها ، والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً ، تارة يخطيء وتارة

«١» استمر الرجل : جاز وذهب واطرد ومضى على طريقة او حالة واحدة وهو المراد هنا

يصيب ، وطوراً ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب ، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن إدراك الحقائق والوصول اليها ، وأخرى تجذبه الجواذب اضطراراً للوقوف عليها ، حتى وصل الى ماتراه من أحواله الغريبة وآثاره العجيبة

ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقاداً في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر أمره ويتبع سيره ، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون وسلطنة الوجود بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع ، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام ، ويقذف به في جب الخرافات ، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة . ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة ، على أن جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة إنما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك ، مستشهداً في تبيانه بشواهد أحواله الآنيَّة المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية ، لتكون له عوضاً عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة . وليس ذلك بخاف على ذي شعور ، فان صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاوبار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره . وصناعة الحديد والاسلحة منزّلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور . وهكذا بقية الصنائع ، وما لم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كمالي على ما يتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب أن نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ما قرره الحكماء الاقدمون ، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون ، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول :

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات . فالقوة منشأ الأثر مطلقاً ، فعلا كان أو انفعالا . فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل ، والمتعلم ذو قوة الانفعال ، إلا أن قوة التأثر والقبول لا تعد صناعة ، ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة ، وليست كل قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم. فالقوة الحالية التي تعرض آناً وآنات ثم تزول ليست منها في شيء ، وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالافعال الطبيعية من إحراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك . فان لم يكن الفكر صحيحاً كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم ، أو كان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه أن لا يقر قولا لقائل أيا كان ، حقاً أو باطلا ، فليس له حد يقف عنده ، بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله . فان كان نافياً ، كان هو مثبتاً ، وإن كان مثبتاً كان هو سالباً ، فليس بصناعة

ثم ان من نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين إنه وأن وقع كثير من صوره وكمالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع ، أو قوى إحساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات ، أو الهرب مما يؤلم الجثمان ، إلا أن عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم . ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنياً على مراعاة الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس إنما ينظر الى الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وإن واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره ، وجعلها محور صلاحه وفلاحه ، إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية ، فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه ، كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه

ذلك ، فقد أضاع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلخ عنها ثمرتها ، وانحط الى درجات الحيوانات ، بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة ، وأما من حفظ نفسه من السقوط وأمسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل ، فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير ، فيعلم أن نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متمماته ، فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ، ويوقن أن نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب ، كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ، ويتحقق أن حفظ أشخاصه وأفراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن أن يأتى عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد ، كما تراه في مواد الاغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا . وجميعها أيضاً يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوهما ولوازم الاكتساء من العرى ، وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات ، كل ذلك لا يكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلا عن تحصيل غايته منها ، فكيف به أن يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوما بيوم ، بل ساعة بساعة ، فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر . فيكون المجموع الانساني كبدن ذي أعضاء ، يعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه . إذ لو طلب الاختصاص — مع أنه لا بقاء له الا في ضمن المجموع — فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر ، فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقيا وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولا من طريق كليتهم ، ويعود الى شخصيته ثانياً .

ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة ، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني ، ويعين على انتظام الهيئة الكلية ، فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته . فالاولى إبانته وقطعه ، بل إن كان لا يعمل ويسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالاباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض ، حيثما جاعوا أكلوا ، أو شبقوا

واقعوا ، ويبثون أفكارهم بين أفراد النوع ليقتدوا بأعمالهم ، ويسيروا بمثل سيرهم ، فيتركون الاعمال اتكالا على مابيد الغير حيث إنه مباح لهم ، فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب مابيد الغير وما بأيديهم، فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ، ولا يجدون فيهلكون (١)

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهري لابد من قطع العضو المؤف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ماأتى من أولئك فينبغي أن يعاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ماءمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أولا يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد أن يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفاؤهم فرارا من ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم، لما لهم من العذر القائم، اذ أن مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه، الا أن الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكاية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الانسانية، فهم مبغوضون في النفوس، مطرودون من زوايا القلوب ، ساقطون عن نظر الاعتبار، بل هم ملعونون من أنفسهم أيضاً اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند مايخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة، وان كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد، فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل، وتؤيد العاقل، ولكن أكثرهم لا يعقلون

وأما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلوا أنفسهم الى التوكل الكاذب

---

(١) قد ظهر بعد الحكيمين الافغاني والمصري صنف من غلاة الاشتراكية الشيوعية يسمون البلاشفة ويسمى مذهبهم البلشفي أو البلشفية تغلبوا على قيصرية الروسية فخربوا عمرانها وأفسدوا أديانها وقضوا على ارواح الملايين من أهلها ، ثم شرعوا يبثون دعايتهم فى العالم كله وهم اولى مما قاله الحكيم في الاباحية

اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قدخلت في عباده ودعوا ذلك تبتلا وانقطاعا عن عالم الظاهر، مع أخذهم لـكشكول التكفف، وخلعهم لجلباب التعفف ، فهم بمنزلة شعر الابط لاينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير، ويستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، فان بلغ من أمرهم أن يتخذوا ذلك أمراً يدعى اليه وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال، ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة، ويسربلونهم بسرابيل التمويه والتزوير، ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع، يودعون نفوسهم أخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (غير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم أنهم وأنهم وأنهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع أن يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم، كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ، ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معاً ، وبالجملة حيث تبين أن لاقوام للانسان الا بالصنعة ، فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد . فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية ، فعليها أن تطرده من أبوابها ، وتمحو اسمه من كتابها

أقسام الصنعة وشرفها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى أقسام ، إما نافعة ضرورية أو غير ضرورية ، واما أن تكون كثيرة النفع أو قليلته أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له ، فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية . والثاني كقصر الثياب مثلا . والثالث هو مايكون الغاية منه نفع الانسان لاغير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل ، وواضعة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والرذائل ، وبالجملة فهي قوام

الكمالات العقلية والخلقية ، ومن هـذا القسم الحـكومة العادلة ، والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة ، فان لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليـه . والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا . والسادس كصناعة الصـيد وما شاكلها . والسابع كعـلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها . والثامن كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم إن شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته ، وأن أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من أنها الباحثة عن كل مايلزم للانسان اتخاذه في أعماله وأفكاره وأخلاقه ، فهي أشرف الصناعات والحدادة ، وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الآمر اهـ

الفصل الثاني

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاوراً في الازهر وهو أول كتابته الانشائية في الجرائد ومن قرأ هذه المقالات وما يأتي بعدها يتجلى له كيف كانت بداية الاستاذ الامام وكيف ترقى الى تلك النهاية الحسنة الخاتمة. وعندنا منها . ولدينا منها خمس مقالات

المقالة الاولى

تقريظ الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الاولى من جريدة الاهرام الاسبوعية الصادر في ٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي:

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده احد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها :

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام

انه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الانسان ، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلا ، حين كان عند غيرها طفلا ، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب ، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حدب ، وأن ملوك الارض خدام عتبته ، وتيجان

الكيائين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلا ، ولكؤوس الراحة اجتلا ، فاقصته الى ممالك الغرب ، ليذوق مرارة الشغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب ، فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلما فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ، ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسي مستعصيات المصاعب ، الى أن بلغ بها أشده ، وملك رشده ، وسار فيها شرقا وغربا ، وخامر ألباب القوم حباً ، فعم انتشاره ، وبدت آثاره ، وتلألأت أنواره ، واذ تحلى بحلل الجمال ، وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السباحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيئته ، ورجع الامر الى بدايته ، وقفل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته ، فورد ديار مصر ورود الاهلي ، وتمكن بها تمكن الاصلي ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره ، واستردت ماكانت فقدت ، وأدنت ماكانت انأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سوداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفي شكر كرامتها ، فنظر الى ماكان أبداه في تلك الازمان ، من شواهق البنيان ، التي كم بلغت الاسباب ، وحيرت الالباب ، وانبأت بما فيها عن براعة بانيها ، ونطقت بفيها ، ان آيات الكمال فيها ، فلما أعجب بالمثال ، حداه حادي الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فانشأ لنا جريدة الاهرام المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام ، الكافلة بارشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والافكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم ، بين العموم ، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادي بمقالها وحالها : حيَّ على الفلاح ، وهلموا الى موارد النجاح ، لاتقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات ، نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شموس العرفان ، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهراً ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذي تفنيه الرياح

والامطار ، من الذي لاتوهنه توالي المدد والاعصار ، فان مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولها الفنا ، ولا يبتذلها العنا ، فبخ بخ بمنشيها ، وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ، فيبوؤا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضـل من الله ونعمة . فانه ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألذ من حكمة يصادفها ، هـذا ايجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها ، اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية ، تشير الى ماعرفنا من الغاية ، فالتصور يدل على استعداد الخيال ، وناهيك بمجاور أزهري للعلوم العصرية ميال ، لا ينكر منه المنتهي من إنشائه الآن ، الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان

المقالة الثانية

الكتابة والقلم

وجاء في اهرام السنة الاولى ايضا مانصه وقد نشر في عدة اعداد اولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر وموضوعها في أن فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي :

إن مما انبسطت به أيدي الضرورات ، وأنتجته مقدمات الحاجات ، انشاء لسان القلم ، نائبًا عن المتكلم فيما يتكلم ، وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهي أن يخلق الانسان محتاجا في أن يقوم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة ، الى أن يتخذ مما خلق الله له في الارض مالم يكن حاصلا ، وأن يكون منه مالم يكن كائنًا ، بحسب الخلقة الاصلية ، ركب فيهم القوة النطقية ، واللطفية الفكرية ، التي بها يكون ترتيب مايحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس والمسكن . فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع وآلاتها ، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها ، واضطرهم ذلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدده ، وانه وان صح أن يقوم كل شخص

بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية ، فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكراً لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية، أو الادوات التسهيلية ، أولما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات ، وفصل الامر بينهم عند الخصومات ، على مايقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضاً ، بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة، والفطنة النقادة

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لايكفي في ترتيب الأثر عليه ، بل لابد في ذلك من أعماله وتربيته وإعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه ، فان القوة الواحدة لاتكفي على البراعة لامور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ،ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من القوة الى الفعل ، فقام كل بواجبه ، واعتاض كل من صاحبه ، وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق ،والحفي الرفيق ، ليس لهم فكر الا في ترقيتهم ، ولا نظر الا فيما يكون سببا لاسعادهم وأساساً لراحتهم ، واذ رأوا ذلك منهم تحققوا مالهم من الفضيلة ، وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة ، فاشتغلت اذ ذاك أفكارهم ، وارتفعت أنظارهم ، واتسعت دائرة المعرفة، وغدت آيات الحقائق منكشفة، فعسر عليهم حفظ ماأسسوه، وعظم عليهم أن يؤدوه كما أبدوه ، لكثرة المقدمات، وتشتت الجزئيات ، وصعوبة ماتحتاج اليه القواعد ، مما لايقوم بحفظ الكثير فضلا عن الواحد ، فاحتاجوا أيضاً الى اتخاذ مابه تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ، ويذكرهم لدى البيان ، فطفقوا يتخذون صوراً من الاحجار ، وأخشاب الاشجار، تحكي بالمناسبة عما يريدون ، وتنطبق على مايقولون ، لتكون اشارة للعارفين ، وحجابا على أعين الجاهلين ، وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان ، وانتشرت المعارف بين بني الانسان، وغصت الارض بالعلوم ، وسيرت فيها سير النجوم ، صعب عليهم الحفظ بالتصوير ، والتبس الامر على السميع البصير ، فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية ، الحاكية عن الحروف اللفظية ، القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية

بدون أدنى التباس بين أشكالها، كما لا يحصل الالتباس بين الالفاظ عند تأديتها، فكان القلم لسانا آخر للمتكلم، الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال، وما نطق به القلم جوهر لا يزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم، وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل، على نحو ما نال من اجمال وتفصيل، فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة فى نقطة واحدة، وكذلك أفكار أهل زمان واحد، على ما فيها من الشوارد، بدون اشتباه في ذلك، فحصل لذلك التعاون في الافكار، وايقاد سرج الاستبصار، فان أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت، بمنزلة لجنة قد انعقدت، للارتئاء في حقيقة أمر خفيت، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال، ويرى بنور بصيرته ما اليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع، وكم من محال جاز وجائز امتنع، وكم من نور له بين تلك الآراء لمع، فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه، وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه، فوضع القواعد، وأقام الشواهد، ورمى بالقذى في عين الجاحد، فارتقت العلوم الى ذراها، وارتبط أولاها بأخراها، وركض العالم في ضوءها، واستقوا من هاطل نوءها، وعاد مثل الاول والآخر، في هذا العمل الفاخر، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك، وكافوا كلا على حسب حاله من المكنة والادراك، أن يأتي بما له بال في إقامته، أو دخل في استدامته، أو ما يكون موجباً لحسن الترتيب، أو اتقان التركيب. فمنهم من ميز زواياه، ومنهم من فصل جوهره عن خباياه، ومنهم من أسس قواعده، ومنهم من أقام شواهده. وهكذا كل يسعى لتشييده، واقامة حدوده، واحكام قوائمه، واظهار علائمه، الى أن يتم بيت المعارف، الذي هو أمان لكل خائف، وهو حرم الله الذي من دخله كان آمنا، وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قمنا، وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان مالم يعلم، وجمع الكل

في صعيد واحد ، ونادى فلباه كل قاصد . فهذا ايجاز في شانه ، ويسير من بيانه، في تسيير العلوم وارتقائها ، وتسهيل اقتباسها وابدائها

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة ، واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة ، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب والشعوب ، والتجؤا الى الاصلاح كيلا يبيدهم اللغوب ، وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات ، تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ، ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ماوقع اتفاق عليه ، على الوجه المرضي بينهم ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه ، فلم يوجد لذلك مستودع أمين ، ولا حصن مكين ، لايداع هذه المعاني ، الا ما يشيده القلم من المباني ، فكان القلم هو الشاهد العدل ، والحكم الذي عليه المعول ، ولولاه لم تحفظ حدود ، ولم يوثق بعهود ، ولم ينل المحق حقه ، بل يتسع المجال للمبطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم ، مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ؟ وان حفظ هل يقدر على تأدية مايريد ؟ بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الانفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، ولم يكن في كلام المرسل مايثقله بهذه الاوزار ، ولا من نفسه مايشعل شرر هذه النار ، فوقعت الندامة ، وضرب الويل خيامه ، فالتجؤا الى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الامر اليه فيما به يتكلم ، فكان مبلغاً أوعى من سامع ، وهاجعاً أسرى من لامع ، وقنوعا أغلب من طامع ، وصامتاً أنطق من ممانع ، فأدى القول كما سمع ، وحكى الصنيع كما صنع ، وأتى على المراد ، من فاسد أو سداد ، بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل ، وأحفظ للأمانة من المالك الحامل ، فهو حينئذ حقيقة اللسان ، وغيره مجاز عنه في البيان . فكم من معاتب

تنفر النفوس من عتابه ، ان هو أعتب في خطابه ، ولكن إن رقم أتى بالرقيق ، ونادى نداء الشفيق ، فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوفاق ، فهو ان تكلم كلم ، وان رقم شفى الالم ، وكم من مؤدب فهيه ، لايستطيع تحريك فيه بما يخفيه ، لايفيد المستفيد ، ولا يوافي مرام المستعيد ، ولكنه ان أجرى القلم ، نطق بالحكم ، وحج وأفحم ، وحل وأبرم ، وأسس وأحكم ، فهو وان لم ينطق بلسانه ، قد نطق بيراعه وبنانه ، فلم تعده فضيلة البيان ، وان عضلته عصبة اللسان . وكم من خطيب نجيب ، ورقيب حسيب ، ان تكلم أقلق ، وأطبق وأغلق ، وان كتب أعجب ، ورغب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع وأفرد ، وأوقد نيران الانفة ، وعقد روابط الالفة ، وأتى برقيق التشبيه ، ودقيق التنبيه

ومن أجل آثار القلم ، اذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم ألزم ، الجرائد (والجرنالات) التي هي أمل عظيم لترقي الملل ، وانتظام أمور الدول .

أما الاول فلأنها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لنقائصها ، وتوضح لهم أسباب الترقي ، وما به يكون التوقي ، وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم ، وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأي الامور لهم بالتمسك أحرى ، وتشوه لهم وجه القبيح ان ارتكبوه ، وتعظم لهم أمر الجميل ان تركوه ، فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها كالجهالة ، والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر ، مع التردي برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ، وشق عصا الوفاق ، وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق ، وتقدم لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار ، والتنقير على مافي العالم من دقائق الاسرار ، والحث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام في ترقي البدائع ، وطلب العيشة الراضية ، مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد ، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد ، كيلا يفوت كثير من الكمالات ، ويفقد عظيم من اللذات ، وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة ، وتطهير السريرة ، وتحرك فيهم حمية الغيرة ، فينتبهون بذلك من غفلاتهم ، ويستيقظون من سناتهم ، ويلتفتون الى مصالحهم ، ويقلعون عن

قبائحهم ، فيطلبون الخير ، ويجتنبون الضير ، ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل ، وتطلع فيهم شمس المعارف ، وينسلخ عنهم ليل الجهل ، وينالون من الراحة والرفاهية مالا يحصر ، ويستولون من عظائم الامور على مالا يصح أن يذكر ، وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة فتنبىء عن نتائجها في الآن بل في الآت ، وتوازن بين الدول وقواها ، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها ، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف ، وما في أفعالهم من الاعتلال ، ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ، ومواد الاصلاح ، وحفظ الارواح ، وارتياح الاشباح ، وما انثنت عليه صدور السلاطين ، من عدل يزين وظلم يشين ، وترشدهم الى مايجب أن يسلك فيما استولوا عليه ، وما يؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه ، وتغري وتحذر ، وتبشر وتنذر ، فاذ ذاك ينتبه الغافلون ، ويحترس المستيقظون ، ويقوم الضعف المتلافي ، ويطلبون الالحاق بالملاصق والمتجافي ، ويهرع المختلون لسد خللهم ، وابراء عللهم ، وتخفيف أثقالهم ، ويرتدع الظالمون ، ويغتبط المقسطون . وذلك كله مع تنائي الاقطار ، وتباعد الاسفار . فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان ، وكأنما القائل والسامع في مكان ، فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة ، وشفاء الغلة . وانما مثل صاحب (الجرنال) مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ، ونادى بالحقير والجليل ، فنفخة تحيي ونفخة تميت ، وعظة تصيب وأخرى تفيت . فمن الواجب على كل ذي دراية ، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ، ليكون على بصيرة في أمره ، ومصيباً في سيره ، نائلا لخيره ، حذراً من شره ، متحركا نحو المعالي ، طالباً ماتهتز اليه العوالي ، ويقف على خفيات الحقائق ، ورقائق الدقائق ، ويخرج الى فضاء المعرفة ، ويطلق من غل الجهالة والسفه ، إن هذا الا بامداد مداد القلم ، وجريانه في ميدان تربية الامم ، والا فأين اللفيانات ، من بلاد تبت . وأين فارس ، من بلاد هند وفارس ، إذ يقوم عليهم رقيباً ، وفيهم خطيباً ، يعظهم بالموعظة الحسنة ، ويحذرهم غرة السنة . ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره ،

وليس له مكنة أن يعدل عنه الى غيره ، بأن صار القلم محتاجاً اليه في أدنى المهمات، وأهون الملمات ، وخصما في جميع المنازعات ، وحكماً لدى المحاكمات ، حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة ، وموارد أخطارها غير جليلة ، فاقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

المقالة الثالثة

المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ مايأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

إن النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية، وائتلافها في الغايات النوعية ، ينبئنا بأن الحقيقية الانسانية تشتمل على مدبرين عظيمين (أحدهما) المدبر الحيواني مع مايستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة والباطنة (والآخر) هو المدبر العقلي الروحاني الكلي . ولكل واحد منهما — اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه — غاية يطلبها ، وحدود في سيره لايجاوزها . فالمدبر الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم ، والى زمن مخصوص ، فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ماتقوم به البنية ، ودفع مافيه مضرة أولها عنه غنية ، على قدر الامكان ، حتى يتقوم هذا المزاج سالما مدة ما من الزمان ، وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم. يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية ، وآثارها الحياتية . فان حيواناً من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته ، الى سوى مايقوم بدنه ، أو دفع مايعترى عليه مما يوهنه ، فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب

من قاصد ايلام ، أو للاستقاء من حر أوام ، أو ليوقع سفاداً، ليتخذ له من نوعه أولاداً ، بل لاشعور له بهذا الاخير ، وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ، ولا سكنت الا للاستراحة من تعب ، أو ليأوى حيث أعياء الطلب، ولا تحركمنه خيال ، لغير ماذكرنا على أي حال . فهذا مطمح نظره، وقصارى أمره في سيره . وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ، ومساعدتها باتمام تركيب العالم العنصري ، واستبقاء أنواعه ، واستكمال آثاره البسيطة . فقد علمت أن الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات ، وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

وأما المدبر العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعمى، وان بعد المرمى ، على وجه لايلحقه فيه الريب ، ولا يتطرق اليه أدنى عيب ، والتحلي بالملكات الفاضلة ، والتنزه عن الصفات غير الكاملة ، وذلك بأن يأخذ بالقسط ، ويقف على الحد الاوسط ، فيما يجب أن يقع من تصرفاته ، مع اغياره أو في حد ذاته ، وأن يفيض على الغير مما استفاد ، أو أن يضع النجاح ويرفع الفساد ، ويقرر قواعد الوفاق ، ويقلع أساس التفرق والشقاق ، وكل ذلك على مقدار قوته ، وما يملكه من مكنته . فهو السابح في بيداء الوجود ، ليميز الواقع من المفقود ، ويقف على أصول الكون ، وما نشأ عنها لوناً بعد لون، ويكشف عن وجوه الاسرار براقع الآثار . فلا يدع مدينة الا قرع بابها ، وطعم طعمها واستقى شرابها ، ولا حسناء الا كشف نقابها ، ورشف رضابها ، ولا عميقاً الا وقف على قراره ، ولا مرتفعاً الا أتى عليه بمعياره ، وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدره ، واكتفى عن مخبريه بخبره ، وأضحى خلقاً جديداً ، وعلى كل شيء بذاته شهيداً ، وانطوت في وحدته الكائنات ، واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فحينئذ يضع موازينه ، ليحكم قوانينه ، فقد عرف النافق من الكاسد ، وميز الصحيح من الفاسد ، فيأخذ بما استطاب ، ويدع ما منه استراب ، فلايدع

شاردة من الفضائل الا اقتنصها ، ولا ناشزاً من المكارم الا قص قصصها ، ولا دفيناً من المحاسن الا أبرزه ، ولا خليطاً الا أماط عنـه مايشوبه وأفرزه ، ولا نقيصة الا أولاها النفار ، وولاها الادبار ، فلا يدنيه ميله من السفاسف ، ولا يقصيه عزمه عن المعالي وان دونها القواصف ، فلا يكاف ثقـل العار ، ولا يستنكف الأخذ بالثار ، واذا دعت اليه داعية الحق ، وان جل الخطب واتسع الخرق ، وحينئذ يستميح مسامع أمثاله ، ليمدهم من نواله ، ويغرس فيهم أشجار النجاح ، ليجتنوا منها ثمار الفلاح ، ويجنبهم ريبة الاختلال ، ويضع لهم مايعبرون عليـه في لجج الاشكال ، وهذه هي الآثار التي قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات ، فلا ريب كان المدبر العقلي هو الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته ، الا أن سير الوجود قد اقتضى أن يكون مجموعهما طبيعة واحدة ، وهي الحقيقة الانسانية ، وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم ، حتى أن الاتحاد بينهما ربما يتوهم ، وأن يكون كل منهما محتاجاً الى الآخر في ابداء عماله وبلوغ كماله ، وهاك الشاهد: فانا قد بينا أن المقصد الاعلى للعقل ، انما هو استكشاف أسرار الوجود ، وابراز ما استتر في عالم الشهود ، وذلك مقام لايعلوه كعبه ، ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه ، عند استبداده بذاته ، وصرف الوجهة عن آلاته ، بل الطريقة المثلى في ذلك ، والمسلك الوحيد من بين المسالك ، هو استعمال هذه الآلات الجسدانية ، ليتوصل منها الى مايتطلبه من الدقائق الخفية . فانها تقدم اليه من صور الكائنات مالم يكن يحضره ، ولم يكن يبلغه خبره ، فانا لو فرضنا أن العقل قد فطر على أحسن الفطر ، ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ، ولـكنه لم يستعمل حس البصر ، فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء ، أو استطلاع سكان الفضاء ، حتى يحدد دائرة أو رانوس ، ويهاجم العقرب بالقوس ، ويجمع بين الاسد والثور ، على الجوار بلا تعـد ولا جور ، ويعين ما لبدرنا من المنازل ، وأين حوت ليالي وصـله وهجره نازل ، ويعين سير الكاتب ، ويستكشف ما نال المشتري من العجائب ، وينبي عن ذي الحلقتين ، ويحقق ما بين السماكين ، ويقف على ما لشمسنا من التدبير ،

في هذا العالم الكبير ، وكيف أن كل هذا العالم اليها فقير ، ومن مركزها الحقيقي يستمد التيسير في المسير ، ويقدر ما بينها من الابعاد ، وما تشمله كل كوكب من الامتداد ، ومن أين كانت تأتيه هذه الصور ، حتى تحدثه بما لديها من العبر ، وهل كان يقف على حقيقة الالوان ؟ وما للضياء من الاختراق والسريا ، وكيفية وصوله من النيرات الى الارض ، وانتشاره في الطول والعرض . وهل كان يدرك سير الأنواء ، وحوادث الهواء ، من برق يخطف الابصار ؟ ومدارات البان على بنات القفار ، حتى يقف بذلك على أسرار كبيرة ، ويقتني فوائد غزيرة ، وهل كان يحضره تراكيب الحيوانات على اختلافها ، وتناسب أعضائها وائتلافها ، وارتباط الأعصاب والعضلات ، وجذب طلمبات الشرايين مادة الغذاء الى جميع الجهات ، وغير ذلك مما تحار فيه الافكار ، وتعشى فيه الابصار ، حتى يقف على شيء من سر الخلقة ، وينال من الواقع حقه . وهل كان يستطيع إحكام آلات التحليل ، حتى يستيقن الاصيل في عالم التركيب من النزيل ؟ ألا إن فضائل البصر لدى العقل لا تنكر ، وفوائده المجلوبة منه اليه لا تحصر

ولو أنه لم يصرف وجهة الالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان أول ما يفقده من الفضائل ، الفضيلة التي ليس لها من معادل ، وهي تقطيع الصوت بالحروف ، على وجه معروف ، لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور ، وما هو وراء حجب الظواهر مستور ، فيقف كل من بني النوع على أفكار الآخر ، التي قد كابد عليها وثابر ، فتكون ميدانا تجول فيه فكرته ، ومحجة تمتطيها حجته ، فتكثر بذلك العلوم ، ويتسع مجال الفهوم . فان الأمر على ما بيناه في مقالة قلمية أبديناها سابقا وهو أن مثل أفكار كثيرة تقدمت أو تأخرت ، مثل لجنة قد انعقدت ، للارتئاء في حقيقة أمر خفيت ، والمستبصر الناقد كرئيس لتلك الجمعية يرجح بين الاقوال ، ويحقق بعين بصيرته ما اليه أمر كل ما آل ، فتدفع عنه وساوسه وتتجلى اليه عرائسه ، ويشرق له في نفسه شمس من البرهان ، ويأخذ بالالباب من آياته سحر من البيان ، فكان له مكنة أن يسير في ضوء مصباحه ،

وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه . فوضع الشواهد ، وأقام القواعد ، ورمى بالقذى من عين الجاحد ، وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشمومات ، وحاسة الذوق أنواع المطعومات . وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين . فأرشده كل ذلك للبحث في أسرار هذه الاختلافات وأسبابها ، وعللها الفعالة وعلاقاتها بها . وذلك باب من العلم عظيم ، وخطبه جسيم . ولو أن المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة ، واتخذ له متبوءاً على حدة ، هلا كان يفوته كثير من المعلومات ، ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات ، بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين ، والايغال في البون والبين ، والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين ، فتحتم عليه لنيل كمال الأرب ، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب ، والا فليس يدرك الا نزراً ، ولا يحمل الا وزراً . شعر

إن العلى حدثتني وهي صادقة فيما تحدث أن العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

فقد تنورت من هذا أن ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى ، ولا لأشجاره دون سقيها جنى

هذا هو الاضطرار العقلي الى الحيوان في كمالاته الادراكية ، وجدير بأن يكون كذلك في كمالاته العملية ، كالاقدام والاحجام ، لربط وئام ، أو تقرير نظام ، أو دفع عار ، أو تأنيس نفار ، أو وضع عدالة ، أو إنقاذ من ويل جهالة ، أو إغاثة ملهوف ، أو مواصلة مشغوف ، وغير ذلك مما يجب أن يكون العالم عليه ، ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه . وكذلك الحيواني في الانسان ، مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان . فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ، ودعته لوصلها: هلم قربا ، تنكب عن مقامه ، وأسرع في إقدامه ، فبرز اليها قبل أن تنسج له أيدي القدر لباساً يقيه ، أو تصنع له نعلا يحتذيه ، بها ترفده من حدة الناب ، وقوة المخلاب ، ما به يتخلص من مهاجمه ، وينتصف من مقاسمه ، ولم تهبه من القوة الطبيعية ، ما يتعيش معه بمطلق النباتية ، فكان

بادي البشرة ، حافي القدم ، مجرداً عن آلات الذب والدفاع ، معرضاً لصنع البلايا ، وهدفاً لسهام المنايا ، يوهنه الحر ، ويودي به القر ، ويلجئه الاضطرار ، لتناول ثمار الاشجار ، فهو عاجز فقير ، قد أعوزته القدرة والتقدير ، وليس في حسه الحيواني ، ما يفي بتعيشه الآني ، فاذن عرض على العقل حاله ، وقدم اليه ماناله ، فلم يجد العقل بدأً من أن يقيم هذا العرش على كواهل الصنائع ، يستديم حفظه بأنواع البدائع ، فأقبل نحو أمهات الاسباب يستدرها ألبان الارزاق ، فسكبت اليها ضروعها من جميع الآفاق ، ومخضها بأيدي الآلات ، فاستخلص منها ما للبدن من الغايات ، فالنباتات أضحت حاملة لمادة غذائه ، وملتحفة بما يكنه من درعه ودوائه ، والمعادن والاشجار والاحجار ، استقبلته بوجه لم تنله نائلة النفار ، قائلة ها نحن (إولاء) لك فاتخذ ماتريد ، من جلب ملائم أو دفع بأس شديد ، فاستخدم البعض ، وانبسط سلطانه في الطول والعرض ، فاتخذ منها آلات لجميع الاعمال ، جاعلا زائد الاحتياج قائداً له الى جميع الآمال ، فلبس لباس العزة ، بعد ما كادت مشاركاته في الوجود أن تستفزه ، واستوى على عرش الراحة ، وأطلق من قيد العناء سراحه ، كل ذلك بتدبير العقل الرشيد وتصرفه الوحيد ، فقد كان البدن محتاجا في قيامه ، الى مايقتضيه العقل من أحكامه . فحينئذ كان كل من الحيواني والعقلي مفتقراً في نيل غايته الى الآخر ، ومن ثم يرتبك الناظر في حالهما

فمن جهة يرى أن العقل قد أفرغ جهده ، وبذل غاية ماعنده ، في استيفاء لوازم البدن ، واقتناء لذائذه ماظهر منها وما بطن ، ويرتكب في ذلك المصاعب ، ويحتمل أنواع المتاعب ، ويرتب مقدمات الحيل ، للوصول الى ماقل منها وجل ، فيظن أن ليس وراء عبادان قرية ، وليس سوى هذه اللذائذ من بغية ، ويذهب الى أن الانسان يعيش لان يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، وهذا نظر أدنى

ومن جهة يرى أن كثيراً ممن لايحصى عددهم ، ولاتحصر أفرادهم ، يتجرعون كؤوس الشدائد ، ويتكلفون مخالفة العوائد ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وإن لذ العيش وعز المضاجع يكتحلون السهاد ، ويتمنطقون بطي الابعاد ،

ويكتسون ثياب النحول ، ويعترضون حد السيف المسلول ، يجوبون القفار ، راكبين متون الاسفار ، ، يتوسدون مالا يتوسد ، ويأكلون ويشربون مايزهد، وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال، أو ليستبين أن سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال ، أو ليعلم أن مقاطعة على كم تحتوي من أفراد الانسان ، أو أنهم يتدينون بأي دين من الاديان ، فهؤلاء قد هجروا أوطانهم ، وأتعبوا أبدانهم ، لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير ، وان كان مايترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ، ويبصر أن كثيراً من الناس قد امتلك خزائن من الاموال ، وتحصن بقلاع من فرسان الرجال، بحيث يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية ، واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ، ومع ذلك ينتحل نحلة الفكرة ، وينتف لحية نفسه كرة بعد كرة ، يتمثل اليه الحور والولدان ، فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان ، وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه الذي به دوام قوته واستحكام بنائه ، وانكب علي النظر فيما بين أوراق الدفاتر ، ليقف على أفكار الاوائل والاواخر ، وبضع قسط الميزان بين الآراء ، كأنما يحاكم بين الاسكندر ودارا، حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولهاحيرانا، وثملاسكرانا قد اكتفى بسلاف الشراب ، واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب ، وبقرع أقداح الكلام ، من قرع جامات المدام ، واذ قذفت به أمواج بحر الوله الى ساحل المعرفة، وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق، انتبه الى رمقه، واطفاء حرقه ، وحسبك ماروره عن نيوتن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استغرقته الفكرة ، مع أن الجوع كان قد بلغ معه قدره ، طلب الطعام فلم يجد فأمر أن يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتي له بقدر فيه ماء وأوقدوا أسفله النار وأتى له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر فألق البيض فيه فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي لدرسه ، فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظانا انها البيضة ، ثم أخذ ينظر الى البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ، ويكتشف الواقع من صفائها ، فاتت الخادمة وهي تظن أن الفيلسوف قد قضى عمله ، وبلغ من الغذاء أمله ، فوجدت

الساعة في القدر دائرة بين الهبوط والصعود ، والركوع والسجود ، كسكران أطربته ألحان القانون والعود، أو ناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود ، وأحوال غيره من أمثاله مشهورة ، وفي الكتب مسطورة ، وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور ، مما يشغل الانسان عن نفسه فضلا عن حسه ، أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لا يصح أن ينكر اذا لم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع أن من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل ، أو تبيان حق في مسئلة من المسائل ، ينتضل سيف لسانه ، ويستميل عقول الغافلين بسحر بيانه ، فيتعوذون من سحره بتمائم الانصراف ، ويغمدون عضب لسانه في اغماد الاجحاف ، قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا   نحو العلى والحق من يرشدنا

ويجرعونه في ذلك كؤوس الاحن ، ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء على الوطن ، وهو مع ذلك لا ينثني عنانه ، ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه ، وليس يهمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ، ولا استفزازه من مكان الى مكان ، ولكن أن يقبل المستعدون سجال فيضه ، وأن يرى أزهار غرسه في صالح أرضه ، ومن أولئك رجال لا يحصى عددهم ، ولم ينقطع الى الآن مددهم ، ويرى ويعلم أن كثيراً من الناس يريق دم جميع اللذائذ ، دون حماية لائذ ، ولا يحتمل ثقل العار ، وإن دونه جبال النار ، وحسبك ماتراه من لاعبي نحو الشطرنج والنرد اذ يصرف أحدهم فكرته ويبذل همته في أن يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة بحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم المماطلة ، وقد دعته داعية الرأفة للمواصلة ، لا يلتفت اليه ، ولا يعطف ميله عليه ، وكل ذلك حذراً من أن يلحقه عار المغلوبية ، مع أنها غلبة وهمية ، لا تكترث بها النفوس الابية فضلا عن الدنية ، فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ، ويذهب ببهائه ويكشف قناعه ، خصوصاً إن أودع بطون الدفاتر ، ليكون عبرة من الاول للآخر ، فهناك يخلع لباس حب الحياة عن نفسه ، ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه ، حتى يتخلص مما

لحقه ، أو يلحق بمن سبقه ، وهو في ذلك يتلذذ بطعنات السنان ، كأنها غمزات حور وغلمان ، ومن هؤلاء كثيرون ، وأنتم بهم عالمون ، فمن هذه الجهة يظن بل يوقن أن ليس المقصد الاعلى ، والغاية القصوى ، من هذه النشأة الانسانية ، سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية ، واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ، ولا محالة يذهب الى أن الانسان يأكل لان يعيش ، ويعيش لان يرى ، ويرى لان يعقل ، ويعقل لان يكمل ، وهذا هو النظر الادق ، والقول الاحق

فان قال قائل : أن جميع ماذكرته ثابت لاينكر ولكن جميع ما يرتكبه أولئك الذين عددتهم من ترك اللذائذ البدنية ، وميلهم نحو مازعمت من الخصائص العقلية ، ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها . بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها ، فان أرباب العلوم . قد علموا أن لاتنال الرفاهية والراحة . ولا يستوفى جميع مايتقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب ، فيشقون في تحصيلها ، ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها . وان الذين قد استتبوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم تكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ، ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة . وإن أرباب الهمم العالية لم يجيروا المستجير . ولم يحفظوا ذمار العشير . الا خوفا من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية . ومقتضيات حياتهم البدنية . وبالجملة مانشرته فهو إما لنيل لقمة ، أو دفع لكمة .

فأقول مجيباً : دقق النظر ياهذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم إما بفوت هذه اللذائذ الحسية . أو قطع عرق الحياة بالكلية . الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكارم والفضائل . وكل ما دون ذلك فهو له من الوسائل . فانه لو كان لهم غاية سوى تلك الكمالات لماتوا دونها ولم يتجاوزوها الى أضدادها ، بل في أحوال غيرهم . فانك قلما تجد انسانا لا يفدي بلذة بدنية لنيل روحية . والتي أن عددت لك أصنافهم الدانية التي لاتنحط درجة أفرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال .

نعم اننا لا ننكر أن كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي. ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي . اشربوا في قلوبهم عجل الشهوات، ووسموا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات . وتكالبوا تكالب الذئاب على الفريسة، وأن مثلهم في نيلها بما ذكر مثل المختلس، يتزيا بزي أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس .فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية ، لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية . الا من هم على مشربهم ، وارتضعوا من ثدي أمهم .

ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرة . ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظرة . فمثله كمثل الحمار يركبه كل راكب ، ليمده بعلف دائب .وهذا مع ما قبله سواء في المقصد . وشركاء في المصدر والمورد . لامنتهى لحركاتهم سوى مآرب حيوانية بل نباتية . فلا يصح لأحد منهم أن يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب .ويحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب . ومع كل ذلك لاتقبل نفسي أنهم مجردون من اللذائذ الروحانية ، وإن غلبتهم على ذلك دناءتهم ، وانحطت بهم طبيعتهم . ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ،وتستشيط نفوسهم والآلام غضباً أن أندادهم في أعراضهم جهلوا .بدون أن يلحظوا في ذلك تلك اللذات ، أو يكون لهم اليها التفات .

ثم إني أنشدك الله أيها الحكيم. الا ماتقلدت الانصاف في التحكيم .وانبأتني على من ترتبت الآثار التي توقن أنها من خصائص الانسان، كتمهيد دلائل العرفان ، التي قد استخدم بها ما في العالم من جماد وحيوان ، واستنقذ بها أبناء عالمه من ربقة التكليف ، الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف ، وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار ، تحكم ماتريد وتفعل مما تشاء وتختار ؟ لاشك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف ، وأجهدوا أنفسهم في بثها مع ماصادمهم من أنواع المخاوف ، وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حيثما ذهبوا ، ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا .قائلا كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظار الى جانب الغنى   اذا كانت العلياء في جانب الفقر .

وهل سمعت أن ملة قد ارتقت الى صلاح حال ، أو تنعم بال ، الا بعد أن خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء ، واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء النبلاء ، ثم بعد يرتعون في مروج حميتهم ، ويختالون في ثياب عزغيرتهم ، فهل كان ذلك يحصل الا بايثار لذة واحدة ، على لذائذ متعددة ، بل غير متناهية ، وهي لذة الفضيلة ، والصفات الجليلة ، فهي خاصة الانسان التي عنها ينشأ آثاره

فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخلد الى أرض الحيوانية فغايته غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لايبقى له أثر ، ولا يسمع له خبر ، وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فنهج المنهج العقلي الذي قدمنابيانه، وأيدنا برهانه ، فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية ، كان ميله نحو التصرفات العقلية ، ، يأنف الظلم ، ولا يجازف في الحكم ، ولا ينتحي نحو الغدر ، ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق ، بل تركض خيله في أرض العدالة ، لرفع آثار الجهالة ، ودفع معرة النذالة ، يأخذ بالبرهان ، ولا ينكص اذا استحكم البيان ، وذلك لاالى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص ، نعم الاقرب الى البحر أولى بمائه ، والسوى انما ينال من فضل استغنائه ، ومن ثم ترى أن أهل قارة أوربا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذراها ، و بلغت فيهم الكمالات قصاراها ، وألقت الرياسة اليهم زمامها ، وفوضت السياسة اليهم أحكامها ، وأصبح نور العقل في أحيائهم يتلالا ، وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى ، تسابقت هممهم الى بث مقتضيات الانسانية ، في نواحي الكرة الارضية ، واستئصال مادة التوحش ، وتطهير الارض من خصال التبربر ، وما استعصى عليهم في ذلك من عويصات الموانع ، أنفذوا اليه قامعاً من كتائبهم أي قامع

الا أن منهم من يتخذ هذه الفضائل اسماء ويتقلدها رسما ، لتكون آلة لاعمالهم ، وسلما لسوء آمالهم ، خصوصاً الملك الكبير ذا الارض الواسعة ، والاقطار الشاسعة ، الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية ، حتى إنه لايبيح لهم أن تدرس العلوم الفلسفية ، في مدارسهم الرسمية ، بل الاهلية ، بل إن أراد أحدهم أن يتبصر ،

اتخذ له كمينا وتستر ، وأولى أهـل ملته من مقتضيات الحنو والشفقة ، ماتنفطر منه قلوب أهل الرأفة والرقة ، خصوصاً أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ، ونفى كثيراً منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق ، وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها، ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها، كيف لاوقد تقلد رتبة البطركية ، التي هي مقدمة رتب الالوهية ، فقام بمأموريته المقدسة ، ليؤدي بعض مأأسسه ، وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق، على الوجه الاحق الاليق ، فأوقد نيران الفتنة في بيوت أهـل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة، ويلبسهم عز الضعف والمهنة، وينقذهم من ربقة الحرية التي قدنالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون ، وعلى أصلاح أحوالهم الداخلية متألبون ، يتدللون على دولتهم تدلل المعشوق على العاشق وينالون منها ما ينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق ، وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهـل مملكته ، وبحبوحة الحرية التي قد استعبد بها أبناء ملته ، وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة ، لما لكل واحد منهم من ساقطة ، ينتظر بها الالتقاط ، وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط، وهم في ذلك ينادون ياللانسانية ، وياللحقوق المدنية ، وتترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف، بتلاوة آيات الاقلاع عن الالحاد واقتناء شرف الانصاف ،

وإني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى أنبئهم أنه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل أبناء أوطانهم ، وهم بمرأى من ذلك ومسمع ، مالا يصح في مثل هذه الايام أن يسمع ، وقد سودت بذلك وجوه الصحف، ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ، ولا فتحوا في ذلك سجلات السياسة ، وان أمثال أولئك الكمل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة أن يجعلوا تلك الرأفة والرقة خاصة ببعض المقاطعات ، أو منحصرة في جهة من الجهات ، بل كان من الواجب أن ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند ، كما نظروا جهاراً الى الصرب والجبل الاسود ، فأني لو تكامت في هذا يطول أو يجيبني

مجيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال ، حتى يفعلوا أفعال الرجال ، ولا يتحرشون بحرش المغتال ، وللانسان كمال سوي ماهم فيه ، وتلك التي نتوسم فيها العظم مباديه ،

ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية ، فان العاقل يتفرس في ذلك أسراراً خفية ، تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة ، وتحكي ماكانت تفعله القياصرة بالاكاسرة ، والاكاسرة بالقياصرة ، حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر . فهذا حقد بالميراث ، جدير بالاكتراث ، الا أنه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين بحمى يثرب ، قويت من الغربيين المهاجمة ، وبطلت من الشرقيين آثار المقاومة ، فبات عدو بلا معادي ، ومبارز لاتصده الدواعي والعوادي ، فخفي الامر على غير بصير ، وذهب على غير خبير ، وما أوصل الشرقيين الى هذا الحد سوى تفرق الآراء ، واختلاف الاهواء ، حتى إن بعض الناس ممن لايبالى بهم ، يتهللون بسوء أحوالهم ، ويبتهجون اذا بشروا بتسلط أعدائهم ، وماذاك الا من تداني الهمم ، وتراكم الظلم ، والوقوع في حفرة الحيوانية ، والانحطاط عن درجة الانسانية ، حيث فقدت منهم الغيرة والحمية ، وذلك بدل أن ينبذوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية ، والاختلافات المذهبية ، لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة أعدائهم ، الذين لايرومون من الاستيلاء علينا معاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم ، والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم ، لنكون لهم خزينة عند الافتقار ، وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار ، يذهب بهاؤكم ، يتشفى منكم عدوكم وينهدم بناؤكم ، وينقطع من العزة رجاؤكم ، أنتم يامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد ، متشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد ، لايمس أحدكم خير الا نال الآخر منه مثل مانال صاحبه ، ولا توجه اليه خير الا وهو الى الاخر يتعاقبه ، فما لهممكم تضاءلت ، وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقربها النوى كما قرّ عيناً بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب

واذكروا إذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال، ويستقبل بها مايأتي من الاجيال، فان أنتم أبرزتم حميتكم، ورعيتم حق وطنكم، الذي منه ابتدئتم وفيه سكنتم، ودافعتم عنه ببذل الارواح فضلا عن حسن المقال، وبالجملة سلكتم مسالك الرجال لاتهوس الأطفال، ، فتلك مآثر انسانية، تنالون بها مجدكم وفخاركم، وتملكون سعدكم، وحلية يختال فيها من تعقبونه بعدكم، وإلا فالعار والشنار لاحق بكم، وليس إلا أن يحثى تراب الذل في وجوه أعقابكم، وانظروا الى أحوال سلفكم، لتكون مرآة لأحوالكم. فان قال قائل

ان الديانات ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العـداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه، لمخالفته له في مذهبه، ومناوأته إياه في مشربه، فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق، وجمع كلمة الاتفاق، والتخلص من خسة النفاق؟ فنجيبه: إن مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحـد وأصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية، والمناوشات المعاشيـة، فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية، ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل ذلك انهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته، ولا يحجم عن رد تبعته، فتلك العداوات الجزئية، لا يصح لدى العاقل أن تضر بمصالحنا الكلية، وعلى فرض أن لو عدت تلك المزاحمات شيئا يذكر، وأمراً يصح اليه النظر، فما أشنع حال من ينتقم بيد الغير، ويلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضير، أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ماصنع المكايد مع دارا وهزمه، وجاهد ماجاهد في حماية وطنه، أقصاه اليونانيون وطردوه، وأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، فالتجأ الى دارا يستنجده مما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه، ثم إن دارا طلب منـه أن يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان، قاص أو دان، سوى بلاد اليونان، فانها وطني ومقر تربيتي، لاترضى همتي، بان أقدمها لغير أمتي، وانه وإن كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان

ماصنع معي قبيحاً . فلما أغلظ عليه دارا في الطلب ، نادته هواتف الانسانية إن ذلك من الموت أصعب ، فاختار الموت على الحياة ، وتناول السم ومات ، ألا فانتبهوا من سنة الغفلة ، واتخذوا لكم من الانسانية ظلة ، ومن الفضائل خلة واحذروا ، وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

(جامع الكتاب) : ليتأمل القراء آراء هذا الرجل التي كتبها منذ ستين سنة وهو مجاور في الأزهر يجدها عين ماانتهى اليه بحث المحققين من عقلاء الشرقيين بعد مكابدة الاحداث واختبار أوربة بعد كتابة ذلك المجاور الازهري لها قبلهم بنصف قرن . أه من تعليقات الطبقة الثانية

المقالة الرابعة

العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية

نشرت في العدد ٣٦ وأعداد بعده من جريدة الاهرام قالت:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب ، ومنينا أنفسنا باننا صرنا في نشأة أخرى ، وتقدمنا الى الأمام بعد أن كنا الى القهقرى ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، في ليل الضلالة والاختلال ، وهمت أفكارنا ، بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الايام بان الازلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول ، بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل ، وتنثني آمالنا ، عن تقدم أهالي أوطاننا . فمن أعجب مارأيناه في هذه الايام ، أن بعض طلبة العلم الكرام ، الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل ، وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل ، وافتدوا براحتهم ، لتنوير بصيرتهم ، قد تحركت الى المعالي همته ، ودعته الى التفنن غيرته ، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية

والكلامية ، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية . لما أنه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين ، وتمييز الافكار غثها من السمين ، وتبيين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان ، وأي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف ويطرح . فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلوم ، والعلوم الكلامية ، إنما هي احكام لتأييد القواعد الدينية ، بالادلة العقلية القطعية ، حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين ، على وجه لا يكون فيه إثبات الشيء بنفسه ، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه . فلما سمع بذلك بعض أحبائه ، وأصفيائه وأقربائه ، الذين يؤثرون خيره ، ولا يرتضون ضرره ، اهتز لذلك واضطرب ، وأعجب كل العجب ، وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ماشاء الله أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ، ويالها من فضيحة أي فضيحة ، قائلا كيف تدرس علوم الضلالات ، حتى تقع في الشبهات ، الا فارتدع ، وبحالتك اقتنع ، وكن كما كان الاب والجد ، وجدّ فيما كانوا عليه فمن جَد وجد ، فأجاب الطالب المسكين سؤله ، وطوى سجل علمه ونشر جهله ، ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده ، المتأبين على عناده ، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام ورمي سهام الملام ، يقولون الى الان : إنه في ضلاله القديم ، لم يميز بين المنتج والعقيم ، والمخدوش والسليم . حتى إن بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده ، المخلصين في وداده ، الساعين في إسعاده ، وشوا بهذا الطالب الى والده ، وأفصحوا له القول بشأن ولده ، قائلين ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولدك يشتغل بالعلوم ، تتناوله أيدي الهموم (يقوم) ولا يهنأ له طعـام ولا شراب ، ويبيت ليله في اضطراب ، ويظل نهاره في اكتئاب ، أسفا على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ، ولم يعمل على مثالتنا ، ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهاده ، وبدا له رشاده ، يتزلزل اعتقاده ، فكيف بك وهو ثمرة فؤادك ، وأرشد أولادك ، فتحرك في والده عرق الحمية ، وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ، ليرى هل صح الخبر ، أو كذب الناقل وفجر ، فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من

الليل ، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ، ان كان لتلك الاقاويل صحة ، فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين ، وبغي الحاسدين ، واني من يوم سعيت في منعي ، وقطع نفعي ، لم تقرعيني بنظرة في رياض تلك العلوم ، ولم أشف قلبي بأخذ منطوق مهاولا مفهوم ، فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين ، وأحلفه بالله رب العالمين ، ان الناقل كذاب ، وانه في أمره غير مرتاب ، فحلف وهو الصادق في حلفه ، وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن خلفه ، فلما أيقن أبوه بكذب مانقل اليه ، حمد الله وأثنى عليه ، وأصبح من غده ، متوجهاً الى بلده ، فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله ، واحتياجه لساعة ينظر فيها الى أحواله ، كيف ترك الأهم ، وصرف الدرهم ، ونقض انقضاض السهم ، وأقدم إقدام الشهم وماذاك الا لحادث أقلقه ، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه ، وداهية دهياء قد استفزته من أرضه ، وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه ، فان سألت ماهذا الامر الفظيع ، والحادث البسع البشيع ، قال ان ولدي يتعلم المنطق والكلام ، ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام ، وانظر الى هذه الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر ، والنخوة التي قد حركتهم على التكاثر ، للتخلص من هذا الحادث الملم ، وانقشاع هذا الليل المدلهم ، بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية ، وخلوص نيـة ، فتباً لهذه العقول ، وبئست عواقبها وما اليه أمرها يؤول

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم يبـك ميت ولم يفرح بمولود

واني لأتعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن ، وأرباب البصائر والفطن كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط ، حتى آل أمرهم الى السقوط ، ويا عجبا اذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها ، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ، ففي أي شيء نصرفه ، فانه ان ضل عنا رشادنا ، وغاب سدادنا ، فهل بشيء سوى الدليل نعرفه

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان ، ويكل عن الافصاح به اللسان ، مع أن هذه العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها . وقد قال الاكابر من المحققين كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم : إن تعلم هذه العلوم من فروض الاعيان (١) وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية خصوصا في مثل هذه الازمان ، التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان ، فانه من البين أن ما يؤخذ عن الآباء ، وبلغناه ألسنة الاقرباء ، ان لم يؤيد بالبراهين ، نالته أقوال الملحدين ، وأدحضته شبه الجاحدين ، فيصبح وقدوهى بذيانه ، وانحط شانه . أو لم تطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام في استانبول الى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الايام إذ يقول له: نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ، ولا نقبل اعتقاداً يناقض العلوم المتعارفة (كالمبرهنة) في فني الحساب والهندسة ، من أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الشيء لايكون غير نفسه ، وأن الشيء الواحد لايكون واقعا وغير واقع في آن واحد . وأمثالها من العلوم المتعارفة ، وهي البديهيات الاولية أو الاولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث أو آية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لأولناه . اه

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي الاسلام وغذيت بلبانه ، وتربت في حجره ، وتقلدت في ايوانه ، من زمن يزيد عن ألف سنة ، وتناولتها أيدي الخلص منا ، وتناقلتها عنهم الألسنة ، فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان ، وكافة عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لابد لنا من اكتسابها ، وبذل المجهود في طلبها . فبالاولى نضع أصابعنا في آذاننا إن ذكرت ، ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت . وأن مثل

(١) لعل الغزالي قال ذلك في بعض كتبه المنطقية أو الكلامية التي الفها في بدايته ثم جزم بانها من فرض كفاية . وقد صرح اخيرا بان من آمن بظواهر القرآن وما كان عليه السلف ومات ولم يعرف شيئا من مصطلحات علم الكلام ودلائله لا يسأله الله عنها ولا ينقص من دينه شيء يجهلها الخ وكتبه جامع الكتاب للطبعة الثانية

هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي ، عند ما كانت الامة بغرور وسواسي ، وقوة متوهمة ، بحصنها من تعدي الامم المتقدمة ، أو في زمن المماليك والكولمان ، وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان ، حين كانوا في ذروة التوحش ، لايهتدون الى مابه يدبرون أمورهم في التعيش ، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاوهام ، وقد اخذ بجميع إحساساتهم جور الحكام ، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الامم اختلاط ، إذ كانوا في حفرة الانحطاط ، لكان(١) لا يأخذنا العجب ، بل نضيف ذلك الى السبب ، و نلتمس لهم العذر في ذلك ، إذ قد عميت عنهم جميع المسالك ،

وكنا نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر ، وأن هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر ، ويقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ، ويخرجون عما هم فيه اذا نادى بهم من يعظهم ، ولكن ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم ، حتى عم أنحاء الكرة على العموم ، وهم فيه غرقى من حيث لايشعرون ، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الامم المتمدنة ، ورأينا ما هم عليه من الاحوال الحسنة ، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا الاهجنة (٢) كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد ، وبها يعتد ، بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتجلي في الصور الجسدانية ، وفتح لنا رياضه ، وهيأ للغرس غياضه ، وأصبح يجول بيننا في علاه ، وينادي بأرفع صوت وأعلاه : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من فقير فأغنيه ، ألا من طالب سلطان فيناله ، ألا من محارب عدوان فنحدد نصاله ، ألا من حيران في غسق الضلال ، يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال . ونحن بمسمع من نداه ، ومرأى من سناه ، لكن صمت الآذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم*

(١) هذا جواب قوله : لو كانوا في عهد المتوكل الخ (٢) لعلها المهجنة من هجنه بالتشديد اي عابه .

ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وهل يليق بقوم أن تكون هـذه الجهالات أفكارهم ، وتلك المستهجنات آثارهم ، مع كل ما قد رأوه من صنيع مليكهم ، وحامي ذمارهم ، جناب الخديوي الاعظم ، لازال قضاؤه في الكائنات يبرم ، حيث قد بذل الهمـة في اجتلاب المعارف ، وتوسيـع دائرة الآداب والعوارف ، إذ فتح المدارس والمكاتب ، (وعـني) بالاساتذة من الاقارب والاجانب ، واجتـذب التلامذة من كل جانب ، حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب ، وخزائن الخيرات مفتحة الابواب ، وترعرع روض المعارف وأزهر زهره ، وبدا صلاحه وأينع ثمره ، ـ ولـكن لم يكن له مقتطف ولا مجتن ، ولا عان ولا معتن ، ـ وأطلق الـارية أيده الله في اقتناء هذه الخيرات ، واجتناء هذه الثمرات ، وافترش بساط العـدل ، ودعاهم بذلك الى دار الـكرامة والفضل ، فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم ، وانتكاس آمالهم . ولعمري أن ما فعل الخديوي في هذه البلاد ، من موجبات الاسعاد ، لو كان عند أمة أخرى لـكانت بلغت غاية الـكمال ، ووقفت على حد الاعتدال ، وأصـبحت مفيدة لامستفيدة ، وتقلدت سـيوف العز بدل القرعة والجريدة . فاننا لم نسمع أن ملـكا من ملوك أوربا الذين قد خلدت أسماؤهم في الصحف الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه ، فيالله سعيه إذ قد أتى بكل ما يمكن أن يؤتى به في سعادة أمته ، ولـكن ماذا تصـنع في همتنا الـكسالى * ياخيبة المسعى اذا لم تسعف * لـكن

على المرء أن يسعى الى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المطالب

فهلا ساعدوا هذا المليك في إسعاد أنفسهم ، وتخلصهم من بؤسهم (إن هذا لشيء عجاب) لا العواصف تحركهم ، ولا العواطف تجتذبهم ، ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي دواؤه ، وأعيا الطبيب شفاؤه ، نسأل الله العافية

ولعل قائلا يقول : إن هذه الحادثة تثني الامل ، ولا تنذر بخيبة العمل ، فانها جزئية من الجزئيات ، لايحكم بها على الـكليات ، فانه في كل زمان وفي كل

مكان يوجد الحمقى والأغبياء ، وأرباب الجهالات والاشقياء . وذلك لا ينافي حكم الغالب ، فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ، ولا أبدع واقعة وقعت ، ولكن ذلك أكثر من الكثير ، وأمره فاش بيننا شهير ، خصوصا من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة ، فانهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة ، تعود عليهم أو على أبناء ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى أننا أصبحنا في خلق جديد ، قد طرحتنا الايام بديننا وشرفنا في بادية ، قد غصت بآساد ضارية ، كل منا يطلب ثاره ، ويطلب شن الغارة . فان كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا ، والا فاما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا ، بسوء الجهل وضلال الطريق ، مع أن ملاك الامر بأيدينا ، فعلينا أن ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن حالهم الاول ، وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء اقوياء ، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل . فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك مافات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم ، فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فاذاً أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا أليس من البين أنه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب . فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم ، كيف لا وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم . وحضرنا زمان نضطر فيه إلى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والكروب ، وبنادق الابرة ، وغير ذلك

من الاسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد ، فان الشر الذي هو محط عناصر الانسان لايزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع ، فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص . وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا ودينا من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا مايماثلها إن لم نقل مايزيد عنها ؟ وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف ؟ كلا بل لا بد من أن تؤتى البيوت من أبوابها ، وتطلب المسببات من أسبابها ، فلابد من البحث عن وجوه الاكتساب ، من وجه الصواب ، والاستضاءة بنور المعرفة ، والتبري عن مرافقة السفه ، وليس من يرشدنا الى ذلك الا أبناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا ، وقائدو أشباحنا ، حيثما توجهوا توجهنا ، وفي أي وقت على أي شيء عرجوا عرجنا ، وان من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها ، وما يترتب عليهما من المنافع وعلى عدمها من المضار ، ووجه احتياجنا اليها ، ولعمر الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر ، فانه بعد زوال الرأس ، لا يبقى لسائر البدن الا الرمس ، كما هو بين عندهم ، وغير خاف عليهم .

ولا تظنن أني أقول : أن توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه ، لرقة في دينهم ، حاشا لله . بل إنهم لم يلتفتوا الى لزومه ، وأنه أهم مايهم ، وأوجب ما يجب . ولو أنهم التفتوا اليه ، وحققوا الامر على ما هو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق ، وضاقت المساجد بخطبائهم ووعاظهم . وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم ، على ما هو المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصولته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته . ومن لي بأن ينتبهوا الى هذه النكتة ، وأنه لابد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة ، كي يمنوا علينا بحسن النظر ، ويعينوا لنا حد الخير والشر ، فانا لا نسمع الا مقالهم ، ولا نرمق الا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بآذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بذائقتهم ،

ولا تتكلم الا بألسنتهم ، كيف لا وهم الارواح ، ونحن الاشباح . وهم النسمات ونحن الارواح . حيثما مالوا ملنا . وما مالوا مللنا . نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار ، وانفصاح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار ، بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه مالم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس ، مرموقا بعين البؤس ، تشمئز منه الطباع ، وتنفر منه الاسماع ، وان هذه المسألة أي ان العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لأرواحنا وأبداننا ، مسألة صارت عندنا من أدق النظريات ، يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات ، والحجج والبينات ، مع ما ينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب . والترهيب . والتمثيل والتقريب . والاجمال والتفصيل والايجاز والتطويل . على حسب اختلاف مراتبنا في القبول . وعلى الله تمام المسئول

المقالة الخامسة

وجاء فى العدد ٤١ من هذه السنة مانصه :

التحفة الادبية

انه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة ، والفكر الوقادة ، (من أهل العربية في أوج كمالها ، وأفلاك سعاداتها في منازل اقبالها ، كانت الامة تباهي سائر الامم برجالها العقلاء السياسيين ، وفلاسفها المستبصرين ، وتختال بينها عجبًا بما لها من الثروة والقوة ، والعز والفتوة ، وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم ، وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم ، حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها وإحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها ، وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من

سائر الفنون ، وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة وازديادها وانتظامها على
حسب مرور الأزمان (إذ) فترت تلك الهمم وتنزلت الى حضيض الانحطاط لموانع
قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفتهم (عند
حد) لم يتجاوزوه ، بل أرجعتهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه
تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان ، وبدأ أمرها بعد التمام في النقصان ،
وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلي والزينة ، وأمست للصغار والابتذال
رهينة ، وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت
هيئاتهم الاجتماعية، ونالوا من الثروة والرفاهية ، وتحلت ألسنتهم بالعلوم والمعارف،
وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف ، وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا، وباهت
رجالهم فى السياسات والافكار رجالنا ، فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام
الملام ، قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع
مافقدوه رغماً لتلك الموانع ، وقسراً لحركات هاتيك القواطع ، فنشأ فيهم من
بذل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية
الكتب من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من
الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليها ، وبدت ترفل فى ثياب زينتها
الا انه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة
العربية بأن يودعها دقائق معانيه، ويقلدها لآلىء مبانيه ، حتى قام بهذا الامر العظيم
جناب الفاضل الاديب، واللوذعي الاريب، الذي يغنيك رؤية أثره، عن عطر ذكره ،
الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا
الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، وهو ما ألفه الوزير
الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسيات ، ماتحار فيه ألباب أرباب
الرياسات ، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ، ومادة الحياة ، وهو الكتاب المسمى
بالتحفة الادبية . واني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده
حضرة الاستاذ الاكرم ، والفيلسوف الاعظم ، الذي تشرف بذكر اسمه مسامع
القاصي والداني ، جناب السيد جمال الدين الأفغاني ، وهاك ما قال :

« لاريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه ، وهارب من الشقاء بوسعه ، بجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه ، فانه عضو من أعضاء الملة ، ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ويتألم بآلامها الا أن يكون أشل عديم الاحساس ، فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في نقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء ، فكان من الواجب على كل انسان أن يأخذ الأهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل

ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيراً مايعرض له الخطأ بل قلماتقع منه الاصابة فأحسن الطرق وأولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان، وها نحن (أولاء) لا نشك في أنه قد حصل لأهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياساً صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب ، فلا بد لكل انسان ان يبحث عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها في إيصال أهالي ملته ووطنه إلى مثل مانا له غيرهم ، حتى يسعد بسعادة ترابه الذي نشأ فيه، والوزير كيزو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاورباويين والعناصر التي تكون منها ذلك المزاج اللطيف، بحيث ما أبقى شاردة إلا اقتنصها ، ولا خفية إلا إلى العيان أبرزها، وأحكم بيانها ، فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع البديع وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل، فانه قد بالغ في تهذيب العبارات، وتحقيق الاشارات، حتى أتى على المرغوب من إيضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق ، متسقة المساق ، تتسابق معانيها إلى الاذهان ، وتبرز دقائقها في عالم العيان، فكان حقيقاً بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية.

فعلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية أن يعرفوا له هذا الجميل الجليل، ويبذلوا الهمة في مطالعة هذا الكتاب العظيم الشأن ودراسته ، والاخذ بسيرته والسير على طريقته ،

حتى تستنير عقولهم ، وتندفع إلى المعالي هممهم ، ويعضدوا بذلك مقصد هذا الفاضل ، فانه لم يكن له بغية في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في أبناء هذا الوطن ، فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك ، وليقتدوا به في النهوض إلى مثل هذا الصنيع المفيد ، فان بيت السعادة محتاج إلى أركان كثيرة ومما يرشدك إلى أنه لم يرم شيئاً سوى نفع أبناء الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى ان بعض أهل العلم من الازهر قد نشر بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه علائم السرور والابتهاج ، وسارع إلى مدحهم والثناء عليهم ، وشكر ذلك اليهم ، فجازاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيرا ، وخلد له أحسن الذكرى »

محمد عبده

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداهة فوضعناها بين أقواس ، وسبق مثل ذلك في غيرها ، وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لا يزال مجاوراً في الازهر لم يصر مدرساً رسميا وهي تدل على انه أوتي من كمال العقل وسداد الرأي في بدايته مالا يزال كبار علمائنا وعظماء رجالنا قاصرين عن إدراكه ، ولو عمل أهل هذه البلاد بارشاده منذ تصدى للاصلاح ونشر آرائه في الصحف لكانت مصر الآن من أعظم الامم علماً وحضارة واستقلالا وقوة ، ولكن استعداد الامة كان ناقصاً ، وما نراه الآن من التنبه والتوجه إلى العلم والعمل للامة فله ولأستاذه السيد جمال الدين الفضل الاول فيه ، وقد صرح هو بأنه لا يرجو ان يعيش إلى ان يرى ثمرة عمله ، وانه ليس إلا معداً وممهداً لمصلح يأتي بعده .

الفصل الثالث

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

لما تولى الاستاذ رحمه الله ادارة المطبوعات في وزارة الداخلية ورياسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية ، أنشأ فيها قسما أدبيا لارشاد الامة لما تصلح به أخلاقها وآدابها ولغتها ، فنذكر في هذا الجزء أهم ما كتبه في هذا القسم

المقالة الاولى

حكومتنا والجمعيات الخيرية (*)

ان مما تثلج به الصدور ، وترتاح له النفوس، ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا، مانراه من إقدام أبناء قطرنا على الاعمال الخيرية ، وجدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة، وضم الشمل، واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي إلي ذلك وان سبقنا اليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة. وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف أشكالها ، وتتحد مقاصدها، وتتعدد أماكنها ، وطرق سيرها ، وتتفق غاياتها وفوائدها ،فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي أعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة ، ويزيدنا أملا وثقة مانشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات ، وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل مايوجب ثباتها وتقدمها وتشييد أركانها وتقوية دعائمها، بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها، حتي يظهر لجلي النظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة ، لطيف الاشارة ، يبث الغيرة في القلوب ويجذب الهمم من خطة الحطة ، ويدعو أفراد الرعايا إلى الهدى والرشد ، ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم ، وهو المحبة الوطنية، والالفة الانسية ، والتعاون على جلب المنافع العامة

(*) نشرت في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الذي صدر في ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٠ م

التي يشترك فيها كل واحد منهم ، ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية. وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريباً عجيباً إذا رجعنا إلى صفحات التاريخ في الازمان الماضية إلا أنه ليس بمكان الغرابة فى عصرنا هذا ، فان الجناب الخديو المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف ، وشدة الحب لها ، والسعي في تربية الأهالي وتهذيب عقولهم ، وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ، ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لأهل الخير ، ممهدة لهم طرق الوصول الى خير مايقصدون ، بعد ماذللت لهم المصاعب الكأداء التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة - بعناية خديوها الجليل وهمة دولتلو رئيس النظار (١)

وإن من أقوى البراهين على مانقول إقبال الجناب الخديوى ودولتلو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين ، الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندريه ، وجمعية المقاصد الخيرية بمصر . فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ، ووجه باش ، وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاما للجمعية المبعوث من طرفها ، وعند ماعرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الداخلية الجليلة أقره واستحسنه ، وبعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله ، وأصدر الأمر بتقرير كل من الجمعيتين ، وشكر صنيع كل من رجالها ، وحث على مساعدتهما في كل مابه تقدمهما ، غير انه لم يغض الطرف عن مايلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم ، وأن تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع مافي المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيها ، ونيل الشهادات الحقيقية على ماا كتسبوه من الفنون ، وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنيها من جانب الحكومة في كل سنة ، حيث إنها قرنت بين العزم والفعل

«١» كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير ، وكان قائما بضروب من الاصلاح جليلة وكانت الجريدة الرسمية هي الحادي والسائق لكل ضرب منها

وشوهد لها أثر في العيان . إلا انه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والايتام والاكثار منهم بالمدرسة قائلا : إن للأغنياء طرقا كثيرة في تعليم أبنائهم ، أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه ، وإننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والنقدية ، ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقياً راسخاً في القلوب ، ثابتاً في العقول ، لا أن يكون ظاهرياً على سطوح الخيالات والاوهام . فهذا الصنيع، الجميل من هذا الوزير الجليل، يستدعي انطلاق الالسنة بالثناء عليه ،وميل الافئدة بكليتها اليه ، وما كل ذلك إلا بعناية الخديوي وحسن مقاصده ،خلد الله دولته ، ومكن في الآفاق سطوته ، وسنرى من آثار هاتين الجمعيتين مايحمد أثره ، ويخلد ذكره ، وهذا محصل ماكتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالاسكندرية بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

« ليس بخاف مانهض اليه الموفقون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وإنشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة . وقد قارنوا العزم بالفعل إذ أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وحباً فيما يعود على الوطن بالخير . والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى ، ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ، ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية . وأن يكون من شؤونها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ، ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم ، وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم . وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد ، وهي مطابقة من كل وجه لأفكار الحضرة الخديوية،وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع، ملائما موافقاً للطبع ، فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ، ولزم تحريره لسعادتكم اخطاراً بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به

تقدمها وحسن سيرها ، ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه ، وحفظها أساساً لذلك بالمعارف

« وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها ، وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها، فعليكم إعطاء جميع التعليمات والأوامر التي تلزم لذلك »

المقالة الثانية

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

من سعادة الامة (*

إنما تسعد البلاد ويستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه، عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ، ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة ، فتخصب بها أرض الثروة لكون جميع الاعمال على اختلافها حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله ، وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة ، لانهم مصدر الاعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد ، فينالون من الثمرة على مقدار مالهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين حاوية لكليات الامور وجزئياتها ، ثم تهمل من النظر ، وتطرح عن الفكر ، ويستمر كل ذي عمل في عمله ، يتبع فيه رأي نفسه إن خطأ وإن صوابا . فان هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ، ولا فائدة في إبراز فصوله وأبوابه

*) نشرت في العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في ٢٦ القعدة سنة ١٢٩٧-٣١ اكتوبر سنة ١٧٨٠

من عالم الفكر إلى عالم اللفظ والكتابة ، بل يكون هو والعدم سواء ، وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي إلى أعلى درجة ، مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش ، فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء . وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن السابق باصدار اللوائح ووضع القوانين ، وتجديد النظامات ، وتنقيح الاصول الاساسية ، وسجلت ذلك في الدفاتر ، وخلدته في بطون الاوراق ، حتى كان الناظر في ذلك يظن أن بلاداً هذا نظامها ، وذاك قانونها ، لفي غاية من السعادة والراحة ، لكنها كانت تحنو أعناقها خجلا عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها مايضاد القانون الذي وضعته ، ويؤدي إلى شقاء البلاد التي حكمتها ، ولا تؤاخذ على ذلك . وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعنى أن يعمل على خلاف مايرسم ويحدد

أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ، ولا في مستودعات الدفاتر ، ولا تحت تراب الاهمال والاغفال ، بل لا تزال همة رجالها متوجهة إلى جعل القانون عنوان العمل ، فلا تصدر حركة من آمر أو مأمور إلا على طبق ما رسمته في أوامرها العالية ، فان بقي من تلك العادة السيئة (أعني إهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذوي المناصب ، وبلغ ذلك مسامع رئيسه الأعلى وجه اليه اللوم والعتاب ، وأنذره إنذار من يؤاخذ بالذنب ويعاقب على الجرم ، وأخذته الغيرة على قانونه الذي سنه خوفا عليه من الضياع ، وعلى ثمرته من الفقدان . فان تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد إحالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية ، وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح بلادها ، وبهمة دولتلو رياض باشا رئيس النظار ، وغيرته على الحق ، وتيقظه ، وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها ، علماً منه أن أسعد البلاد مانفذ فيها حكم القانون ، خصوصاً إن كان ذلك القانون عادلا ، يوافق مصلحة البلاد ، وانه لا فائدة في إجهاد النفس لوضع اللوائح ، وتأسيس المنشورات إذا لم يجر عليها العمل ، ولم تكن نصب أعين العمال في جميع إجرآتهم ينظرون اليها ، ويسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ، ورفع سوط المسوة الغير القانونية ، وإبطال عمله بالكلية . إذ لم يجعل لأحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي ، إلا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة ، كما هو شأن العدالة وحقيقة النظام ، وأعلن ذلك بالصراحة في منشورات الداخلية الجليلة مراراً ، ليعلمه الحاكمون والمحكومون معا . فيعرف الأهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة ، فلا يسمحون بخدشها . ويعتبر بذلك المديرون ،وصغار المأمورين . فلا يسخرون أحداً في عمل من الاعمال بغير حق ، وإلا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغبته . نعم لهم الحق في أن يسوقوا المتقاعدين عن الاعمال التي تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل ، الذي لا يرفع عن المهملين — وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية في هذا الشأن منبئاً بغيرة دولتلو ناظرها الأفخم ، وشدة محافظته على رعاية القانون

***

أول منشور من وزارة لداخلية تسخير الناس في اعمال الحكومة

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف : أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته ، وتوجه بهم إلى جهة شالوفة ، لاصلاح ماحدث من الخلل ، وترميم ما وقع من التهدم بجسر سكة الحديد ، في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس . ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو ؟ أجاب : بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم إدارة السكة الحديد . ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك ، مع تعهد إدارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار . ولا يخفى أن هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الأساسية المتبعة ، ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال إلا إذا كان عائداً عليهم بالمنفعة العمومية ، كري مزروعاتهم ، وحفظ أراضيهم وبلادهم من غوائل الغرق فقط . نعم أن منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة ، لكن لها دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها . فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها لاستعمال مأموريها

أنفسهم فيما يلزم لها ، وليس لها أمر ولا نهي على المديرين من أعمال الادارة ، ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ، ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أو غيرها إلى ماتطلب بعد ما علم هذا الاساس المتين ، خصوصاً إن أوامر الحكومة الصادرة إلى المديرين ، ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامتثال أوامر النظارة التابع هو لها . فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ، ولا غيرها من المصالح ، ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ، ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك إلا بأمر يصدر لهم منها . فعلى المديرين والاهالي عموما أن ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة ، ويراعوها حق المراعاة ، ويعلموا أنه لاسلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال ، إلا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط ، وهو مايتقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير ، وتقوية الجسور لحفظ البلاد عند فيضان النيل ، وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لاتجب عليهم ، ولا هي في منفعتهم العامة المقررة في جداول العمليات ، فقدأوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ، ومجازاته بما يقضي به القانون . وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ، ومن الجملة لسعادتكم تحذيراً من الوقوع في المخالفة ؟

المقالة الثالثة

حب الفقر أو سفه الفلاح (*

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الاراضي متنوعة متكاثرة تتجدد على الدوام ، بتجدد الاشهر والاعوام ، وحرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام ، لاتنتهي إلى غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم . ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم ، وإرادته الغير مرتبة . فتارة يجبرون على على أداء جميع أموال السنة بأنواعها ، في أول شهر منها . وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب البنوكة الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت ، وأشد أنصاره . فاذا رأوا حاجة الاهالي اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرباج وراءهم ، فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ، ولو موقتاً ، إلا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدي نقوده سلماً ، ولو قبل الحصاد بعشرين يوما إلا ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة

(* نشرت في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٨ تحت هذا العنوان ما ياتي :

أربعين أو أزيد في الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطي إلا بفائدة عشرة في المائة ، بل أزيد في كل شهر ، ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر ، وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون . فكانت تلك الايام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعاً ، وكانت سعداً وربيعاً للتجار وارباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام. فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكلية ، فأحاط بهم الفقر ، وصاروا في أسوأ حال

والحمد لله أصبحوا في هذه الايام ، وقد خففت عنهم الاثقال ، وألغي كثير من الضرائب غير القانونية ، ووقفت المطلوبات عند حد معروف ، وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة . فتوفرت على الاهالي ثمرات أتعابهم ، وصاروا الآن لاحاجة لهم إلى بيع شيء بأقل من قيمته ، ولا بفلس واحد . فان أوقات الأداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة . ومع ذلك فالمطلوب مقسط بأقساط خفيفة سهلة الأداء لا تلجىء صاحبها إلى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولا ، فنمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال ، وأيقنا ان الاهالي سيثبتون على املاكهم ، ويعتبرون بسوابق احوالهم ، فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى ، حتى يستردوا ماسلب من ايديهم قهراً ، ولو بأعلى قيمة واغلى ثمن ، وتأخذهم الغيرة على املاكهم واملاك إخوانهم التي اصبحت في ايدي غيرهم ، يتمتع بخيراتها ، ويتلذذ بشهي ثمراتها . فيطلبون رجوعها اليهم بدفع اضعاف قيمتها الاصلية ، كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة ، وذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة او دونها ، حرصاً على نيل الشرف الحقيقي ، وهو تخليص املاكهم ، او حفظها من تطرق يد الغير اليها

إلا إننا نأسف كل الاسف إذ لم نظفر بهذه الأمنية ، فان الحكومة لما

ارتفعت عن كواهلهم أثقال المظالم، وخففت عنهم أحمال المغارم، فتحوا على أنفسهم بابا آخر من الفقر يلجونه باختيارهم وإرادتهم بدون قاسر ولا قاهر ، وهو باب السرف والتبذير والاكثار من لوازم الرفاهيـة والزينـة ، وما يكسب الظهور الكاذب بلا طائل ، فرأيناهم يتفاخرون في إعداد الولائم وإتقان أشكال الزينة ، ويتنافسون في تشييد الابنية ، ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ ، لا يقفون فيها عند حـد ، ولا ينتهون الى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية ، ولكنهم من الجهل يشترون مايساوي عشرة بعشرين إن لم نقل بمائة ، فان ضاق إيراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البنوكة يرهن فيـه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة ، يلزم نفسه بأدائها أعواما كثيرة ، ويظنها سهلة الاداء مع أنهـا تحت شروط شديدة عليه لطيفة على صاحب البنك ، غير متدبر عاقبة الأمر ، ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني أن بعض الاعيان في بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور . أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ماأخـذ ، وهي ثمرة كسبه ، ونتيجة تعبه ، وما عليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه، ولعمر الحق أنه لو أنفق على قدر إيراده أو نصفه لقلنا إنه من المسرفين . ولـكن أبي حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الافكار بما لا يطيقون، كأنهم يبرهنون بأعمالهم هذه وتهورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة ، ولا مستحقين للغنى ، ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم ، بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء متربين لا يملكون شيأ ، وإن كانوا في صورة أغنياء مثرين ، ويرغبون أن يكونوا تحت ذل الدين وأثقاله إذ رسموا على ذواتهم أن تكون في قبضة ارباب الدين يتصرفون فيها وقت مايشاؤن ، ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش ، فربما اجتاحت زرع أحدهم جائحة سماوية (كالمعروف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته ،

أو نزلت به حادثة غرق ، أو شرق ، أو ماشاكل ذلك من المصائب التي لامندوحة عنها ، فيعجز عن الاداء فتباع أملاكه ويصبح من الخاسرين ، ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على مافرط في شأن نفسه . وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) أن ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ماينفعهم زمن الشدة، ويوفروا على أنفسهم شيئا من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة ، وإلا فقد دلت التجارب على أن عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب ، وحيرة تدهش اللب ، وسنعود الى هذا الموضوع مراراً إن شاء الله

المقالة الرابعة (*

﴿ عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٢)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة ، بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده ، وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وإمساك ، أعني أن الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لايبقي فيها شيئاً ، ولا يقبضها كل القبض حتى لايخرج منها شيئا ، بل ينفق من ماله على حسب حاله، يقدم الأهم فالمهم ، فيدفع الضرورة ويقيم البنية على قدر مايناسب درجة غناه وفقره، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض غير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لايشعر . فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لايلزمه ، والبذل فيما هو أحوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد نصف المعيشة » والمعنى أن المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين فان لم يحز الآخر وهو حسن

*) نشرت في العدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

التدبير ، فقد فقد نصف معيشته ، أي فقد انهدم أحد ركني المعيشة . فان حاز الامر والثاني هو الاقتصاد ، فقد تمت له المعيشة .

وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من اجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال، ولم ينفق منها شيئا على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو انفق منها قليلا جداً بحيث لا يفي بلوازمه، ولا يقضي واجبانه ، فهو وإن كثر ماله وغزرت مادة ثروته ، لكنه في الحقيقة ناقص المعيشة فقير جداً . وهذا الكاسب ليس إلا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ ، فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ، ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئاً ولم ينل الا التعب والشقاء لاغير . وكذلك إن تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الأمور ماليس بلازم وصرف جميع ماا كتسب أولا فأولا ، فانه يكون في غاية من الفقر وإن كثر الايراد جداً لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئاً، فهو بمنزلة من يصب ماء في حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقي شيئاً مما يصب في الحوض ،فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ ، فهو في الحقيقة فقير جداً ان ألمت به مصيبة أصبح متربا في غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً)

وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها فى انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل ، وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على مانطقت به الآيات والأحاديث — نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرة ، والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية ، اما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم . ثم يودعون جميع مايحصلون بطن الأرض ، وترتعد يد الواحد منهم عند مايقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود . فان وجب في ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم ، وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم ،ونحيط به الضرورات بأنواعها ، ولا يدفع شيئاً منها بشيء من

ماله ، بل إن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ، ولكنه لايرضى بذلك ، ويحب أن يدوم كما أودعه لايزيد إلا بما يضمه اليه من خارج ويقتر على نفسه فى كافة لوازمه ، فلا يحافظ على صحة بدنه ، ولا يبذل شيئا في تربية أبنائه وتهذيبهم ، وإن كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود ، وإن كان ذا عائلة أضربها من عدم الانفاق وأهمل واجباتها وتركهم يئنون تحت آلام الاحتياج . فمثل هذا السفيه أتعس حالا من الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقودا في بيته فاذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في اخفى الامكنة وأشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لا يملكون شيئا . فهذا الصنف من الناس خلق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات غير الشاعرة لا يدري لاي شيء يغدو و يروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار ويلتقي في نهاية سيره مع إخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب : إذا خفت عنهم المغارم ، وأقالتهم الحكومة من المظالم ، وتوفر لدي البعض منهم شيء من النقود وارتفعت أسعار المحصولات أو جاد موسمها ، ورأى بعضاً من النقود يرن في يديه ، قصد إلى سوق البضائع الافرنجية (التي يعد اقتناؤها تمدنا) يشتري أخسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته ، وزينة لابنته وابنه ، وبهرجة لنفسه ، يظهر بها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتبارا ، حتى يعود وقد صرف جميع ما توفر لديه ، وربما كان مع ذلك بيته مهدما يحتاج إلى البناء ، ومضجعه خاليا من الفراش لا يستر سوى الحصير البسيط ، وزوجته التي يحليها هي المنغمسة في الاقذار ، المكلفة بأداء جميع الاعمال الخسيسة ، وليس عندها من الاوقات ما تتجمل فيه بتلك الزينة ، اللهم إلا يوم المأتم والفرح ، وأبناؤه الذين حاباهم بتلك الزخرفة فاقدي التربية ، متروكين في زوايا الاهمال ، يسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الاتربة ، ثم إذا ازداد إيراده مرة أخرى رأيته يتفنن في الولائم وإقامة الافراح لأبنائه وأقاربه تحت مصاريف متى فتحها على نفسه ، أخرجته عن طاقته ، وأنفق

فيها المئين والالوف بجلب الاشياء التالفة التي لاقيمة لها سوى العدم ، ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئاً من الفضائل وكان الأليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معينا له في أعماله يخفف عنه بعضها ، فان ماينفق على المساعدين يأتي بالربح ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها ، أو يأتي لأهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئا من الراحة ، أو يؤدب أولاده ، ويهذبهم ، على شرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب ، بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث ، وينظر للعواقب نظر الحكيم ، ويكفيه من الافراح ان ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج إلى ماهو أزيد من ذلك ، فقد رأينا كثيراً من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيهم بالمحصولات الجيدة ، والارزاق الوافرة ، ثم ينفقونها عند ورودها في أمثال هذه الزخارف الباطلة ، حتى إذا مضت مدة السكرة التي أتى بها الايراد ، وطرقته نائبة من موت مواشيه ، أو فساد زرعه بجائحة سماوية ، أو خسران تجارته ، أو كساد صناعته ، أو حدوث امراض أوقفته عن الاعمال ، وكيسه فارغ وبيته خال (إلا من الزخارف التي لا أساس لها) عمد إلى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيراً معدماً ، وقلما مكنه الزمان من الرجوع إلى مثل حالته الاولى أو مايوازيها ، فيأخذ في الانزواء قهراً عنه ، ويخلع ثياب الفخفخة والزينة ، ويلبس رداء الخمول والفقر ، وترميه العقلاء بل وأمثاله من السفهاء - الذين ذاقوا مثل ماذاق او ينتظرون عاقبة - كعاقبته بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ، ويمسي ذليلا محتاجا بعد ان كان يظن نفسه غنياً عزيزاً ، فما أصعبها على النفس من حالة ، ويا ليت النقمة كانت خاصة بشخصه ، ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله . وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها ، وهذا كما يضر بهم وبحواشيهم يضر أيضاً بثروة البلاد نفسها . إذ تحصر الثروة في دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين ، لوازمهم ليست بالكثيرة ، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع ، أى لقلة القادرين على اقتنائها ، وتقل الرغبة في الأعمال الزراعية ، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك

وإن أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهاليها ، ويزداد الضرر إذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدي الغرباء والاجانب ، الذين لا يسرنا أن نراهم واضعي أيديهم على غالب الاملاك العظيمة والاراضي الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد ، بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل وإدراك ، ولا يغفل عنه إلا غبي دنيء ، محب للفقر والفاقة . وإننا لنخجل من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا ، خوفا من وقوع بصر الاجنبي عليها ، فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف ، لكنا نظن أنهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ، ولكننا ندعو النبهاء ، بل والعلماء أن يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ، ولا أراها إلا ناجحة . ونرغب إلى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين ، بل وفي المدن أن يلاحظوا ذلك ، وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة بأن يكفوا عنه ، وأن يعتدلوا في أحوالهم فذلك ، خير لهم من ضياع أموالهم

المقالة الخامسة (*

﴿ حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٣)

﴿ نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به ﴾

خلق الانسان ولوعا بالمنفعة ، حريصاً على إحراز الفوائد ، نفوراً من غائلات الاضطرار ، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبعيدها ، ويجهد النفس في توفير ثمرات الكسب ، توقياً من عوارض الاحتياج ، وطوارئ الافتقار ، وهذه فطرة ألهمه الله إياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة ، فهو يتعب الجسم ، ويشغل الفكر ،

(*) نشرت في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٢٨ – ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

ويواصل العمل ، وإن كان في ذلك مافيه من الآلام والشقاء ، ليعتاض من تعبه هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب ، وهي الاطمئنان على النفس والوثوق بصونها من التهلكة . فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال بياض نهاره ، ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل ، كأنما قهره عليه قاهر ، وفي الحقيقة لاقاهر له سوى علمه بأنه لو لم يشتغل لفقد اجر الاشتغال ، وهو مادة قوته ، وقوام معيشته في مسكنه وملبسه ، وكافة ما يقي حياته من الزوال ، فيستسهل هذه الاعمال البدنية ، في جنب ما تأتي به من الفائدة الكلية ، وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطرار الطبيعي ، وهو الجوع والعرى ، وتسلط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه . ومصداق ذلك مانراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموما على اختلاف أصنافهم ، ومواقع أوطانهم ، يشقى كل واحد شقاء جزئياً وقتياً لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه ، ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها ، كلذة الراحة والبطالة ، لتحصيل فوائد أعلى وأثبت . ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا ، فهل يرتاب في ذلك أحد ؟

لكننا من العجب نرى هذا الالهام الالهي (إلهام الدأب في السعي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل ، فاستتر عن النفوس ، فعاد الناس لاينظرون إلا للغايات الوقتية ، بل الآنية التى ربما لايكون لها امتداد أزيد من آن حصولها . وذلك بعد أن نذكره عاماً في غالب طبقات الناس ، كما يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات إلى البطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم ، استلذاذاً للراحة الوقتية ، وركونهم إلى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان ، لايحكم الواحد منهم قانوناً ، ولا يستفتى شريعة ، طلباً لمنفعة آنية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة ، نذكره كذلك خاصا في طبقة الزارعين من إخواننا الفلاحين ، فان لهم في ذلك شؤوناً غريبة ، وأطواراً عجيبة ، اقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم يعلم كل زارع علم اليقين أن الزرع لاينبت ، والنبات لا يثمر ، والثمر لايجود ،

إلا إذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ، ويوقن أن بلادنا ليست أقطاراً يكثر فيها نزول الامطار ، فتعم المزارع بدون عمل منا ، فننال حظنا منها ونحن رقود ، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار ماء السماء ، فان يبس الجومات النبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقا أن الله منح أراضينا ماء النيل روحا لنبتها وحيوانها ، وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار ، حاملا من الموادّ المغذية للنبات ماشاء الله أن يحمل ، غير أنه يحتاج إلى أعمال اليد في توزيعه على المزارع وحفظها من الزيادة المفسدة لها . فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها ، وإقامة الجسور والقناطر ، وما شا كل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً . ويتحقق كل فلاح أن هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان الترع غير عميقة إلى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة ، أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع ، إما بالغرق العام أو اليبس الكلي المعبر عنه (بالشرق) فتتعطل مادة الرزق ، ويسوء حال المزارعين على العموم

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم نراهم مع ذلك يفرون من الاعمال العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ماقدمنا فرار الفريسة من المفترس . وما هذا الفرار إلا ملاحظة للأتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلا ، وترك بعض أعمال خصوصية في البيت ، أو أرض الزراعة ، وصعوبة العمل نوعاً . على هذه الأتعاب لاتعد شيئاً بالنسبة إلى ماينشأ عنها من الفوائد ، وعن تركها من المضرات الكلية ، المؤدية إلى فقد الحياة وعموم القحط . فلو أن لهم بصيرة واعية لقسموها على أنفسهم بالتراضي ، كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر ، استجلابا لمادة رزقه بدون أن يحتاجوا في ذلك إلى سائق يسوقهم ، أو قائد يقودهم ، خصوصاً في هذه الاوقات التي توفرت فيها الأفراد توفراً تاما بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر ، فكان عدد البلد الواحد الذي لا يزيد عدد القادرين على العمل فيه عن مائة ، يؤخذ منه عشرون للعمل في (الجفتلك)

الفلاني المتعلق بالست الفلانية ، وعشرون آخرون للأوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني ، وعشرة لأبعادية أخرى وهكذا ، فربما أتى يوم من الايام لا تجد في البلاد إلا الشياب والعجائز والصبيان . أما الآن وقد علموا أن معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب ، والباقون يشتغلون بالاعمال الزراعية في الاراضي ، فلا يليق بهم التقاعد عنها ، بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة اليها بكل ما في قوته وإمكانه ، تعاضداً وتعاوناً واتفاقا تاما على جاب هذا الخير العظيم لأنفسهم عموماً . وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التي لا طريق له سواها ثم يتقاعد عنها ، ويحتاج إلى من يجذبه اليها بالقوة القاهرة

فان تعللوا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه ، ولكنهم ينفرون من الاعمال التي كانت تصدر من الحكام وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب الى مواقع الاعمال العمومية ، وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين إذ ذاك الى بعض الجهات لغرض ما ، وانحرافهم عنها فيخففون عن بعض البلاد ما يثقلون به كأهل البعض الآخر ، حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد ، لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب إذ يخف العمل عن الجميع بواسطة ما دفعوا من النقود ، فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون الى بلادهم بدون طائل . فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الأعمال العمومية كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها .

فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولا) إن تلك الايام قد مضت وانقضت ، وهي الايام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولا ، وكان يستعمل في الاعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار يعد جميع الاعمال لغيره لا لنفسه ، أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها ، وتقدمت اليهم بجميع الوسائل النافعة لهم ، وسارت أوامرها الشديدة في أنحاء البلاد سيراً حثيثاً ، ناطقة بأن لا سلطة لأحد من الحكام على أحد من الناس الا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين

أن كل من ينحرف في سيره رمقته عين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله، فتأخذه بجرمه أو تضعه تحت المحاكمة كائناً من كان ، وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا . أفيليق بالزراعين بعد ماراأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم ، وأنها تجد كل الجد في تيسيرها بأي الوسائل أن يتقاعدوا عن ماعلموه منفعة لانفسهم استحضاراً للصور الماضية ، وإن كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانياً) إن الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم إنما هو تباطؤهم عن منافعهم بتفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع ، فلو أنهم صدقوا جميعاً في تتميم مايجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم أن هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمله في مزرعته بلا تفاوت ، فهل كان يمكن لأحد أن يثقل عليه أو يخفف عنه ؟ كلا إنهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه وإظهار حاله الرديئة فلا يستمر قدمه بينهم . ولكن ظنهم أن العمل أجنبي للحكومة لا لهم ، هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل ، فيتداخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل مايمكنه ، فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل . وهذا جهل بين . فان الحكومة لاشأن لها في هذه الاعمال الا إيصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل ، فليس من العقل بعد ماتحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الحاضرة وأن سلطة الباشوات (والستات) والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا سلطة الحق والمساواة أن يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفيهاً يستحق الاجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمراً أغرب من هذا الذي قدمنا ، وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة ببلد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له ، فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه ، وتعطلت زراعتهم إما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها ، وأن المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلا أمر لا بد منه والا

اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ، ثم أن عملية التطهير ربما لاتحتاج الى أكثر من أربعة ايام او خمسة ، ومع ذلك ترى كثيراً من البلدان يهملون المساقي الخصوصية التي لاطريق لري المزروعات سواها . فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلايجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل ، يحتج كل واحد منهم بحجة أن له شغلا خصوصياً في بيته او غيطه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لاينفع . فان لم يكن في البلاد عمدة يهمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين ، فيلجئهم الى العمل قهراً لتعمهم الفائدة — وإن لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية ، لكنها أوصلت الى العمومية — فهذا حالهم . فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب ، وانقطاع التواصل بين النفوس ، فلايهتم واحد بعمل يشترك في منفعته مع آخر ، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كان اشتراك الغير في المنفعة صيرها مضرة ينبغي اجتنابها ، وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط ، فكانهم سلبوا الخواص الطبيعية الي لانسان الجبال والغابات ، وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية ، ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئاً في لوازمها الخصوصية . فكأن المأمورين يعاملون الفلاحين بما فى نيتهم ، لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنجيز أعمالها الخصوصية . فقد أزف وقت العمليات العمومية ، ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته ، وإن عاقبة السؤال غير مجهولة . نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المآل ويوفقون لخير الاعمال.

(يقول جامع الكتاب) لله در الاستاذ كاتب هذه المقالات فقد احاط في بدايته بما لم يحط به غيره الى الآن ، فان هذه المفاسد الاقتصادية لا تزال راسخة في البلاد ، ولو انها عملت بارشاده فيها لبقيت ثروتها فى أيديها ، ولما تمكن نفوذ الأجانب فيها ، ولا تزال محتاجة الى أمثال هذه النصائح ، وأين الناصحون ؟

المقالة السادسة

المعارف (*

(١)

كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات، وكأنهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية، وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال، وتقلب الاشكال، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء، أخذوا يلتفتون الى مابه حياتهم الحقيقية، ونموهيئتهم الاجتماعية، وظهور شأنهم بين الناس، وحسبانهم في عداد أهل العالم، وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم، وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره، موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانهاذات الشأن فيه. فقالوا كلاما كثيراً اذكره كما قيل(١)

قالوا إن المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها، ولكن تحت شروط لابد من استيفائها ـ ولسنا الآن بصدد بيانها ـ وقد افتتحت المدارس في ديارنا منذ عهد المرحوم محمد علي باشا، لكن كان اسمها غريباً على الآذان، وحشياً عن القلوب، يساق الناس اليها (كانما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون أن الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية

(*) نشرت في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ – ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠

(١) ان الآراء الآتية كلها للاستاذ رحمه الله تعالى وانما ذكرها باسلوب الحكاية عن الناس لئلا تقول نظارة المعارف ان رجال الحكومة يعيبونها و يشهرون بها في جريدتها على ان وزير المعارف متبرم من هذه المقالات وشكا الاستاذ الى رئيس النظار رياض باشا وطلب منه ان يامر بمنعها فقال بل لابد من اصلاح الخلل .. وكان ذلك سبب تاليف مجلس المعارف الأعلى للاصلاح وكان للاستاذ ما كان من العمل فيه كما بيناه في الجزء الاول من هذا التاريخ

والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم ، والبلاء المحتم ، وبعض الناس بعدالتذبه كانوا لايرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام ، والتصرف في الحقوق ، فا كتفوا بارسال أبنائهم الى الكتبة يعلمونهم ،حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم . وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم ، وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها ولكننا لانبديها ، وأما في أيامنا هذه ، فقد تنبهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف ، غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة ، أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الحالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش ، إما بالتوظف في الخدمات الميرية أو طلب الكسب من وجوه أخر ، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعلم في مكاتب الاطفال ، وتعطيل أسباب معاشهم ، فيود الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض مافاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن . حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ، ثم عارضتهم بعض الموانع ، فلم تساعدهم المقادير على النجاح ، وكانوا في انتظار توفيق إلهي يسوق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ، ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيقت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ، ثم انقبضت نفوسهم عند ماسمعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات وله تقدم فى اللغة الفرنساوية

وقالوا ياسبحان الله إن المدارس الليلية فى البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل فى التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم ، وذلك لفائدتين (الاولى) أن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادىء العلوم بهذه الطريقة ، فلا تقتر

همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم ، وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فهمه صعوبة ، ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) أنه اذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كاحدوثات تتسلى بها النفس، بل ألذ من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد ، فتنجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم ، فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب ، أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها ، أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها ، يهرعون الى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم ، ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية ، فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة ، وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتفنن منهم، ولا العامي ، والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية ، حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون، وهو مما يوجب الاسف خصوصاً وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قبلوا فيها أجانب (وإن كان ذلك غير صحيح ، فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون ، لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك فرقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ، أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئاً ، أو لاحظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها . فان كان هذا الوجه الاخير قلنا أنها ستجعل (مدرسة الخوجات) نهاراً فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ما تشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد ، فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها ، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات ، وإن كان الثاني قلنا إن الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم ، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا الى

هذا الحد ، وإن كان الاول قلنا الاولى أن لا نتكلم

وإنا وحق الحق لفي حاجة كلية الى أن يكون التعليم الليلي عندنا مستديماً آخذاً من البداية سهل الوسائل ميسر الاسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع التنافس في الفضائل ، ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلاً ، وتوبخهم الذمة ، وتلعنهم ضمائرهم اذا تركوه ، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها إذ ذاك انه لابد أن يكون هذا التعليم الليلي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام مايجب عليه في وظائفه إلا الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصاً بعد ماأعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين في الايرادات أو التحصيلات لابد أن يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك . وهذا الاريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة ، وذوي عقل وافر ، وهذا لايمكن إلا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لابد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتتحتها نظارة المعارف قريبا ، وربما كانت تلك الاقوال صحيحة ، لكن إن صح ماقالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ، ثم يجيبهم الى مطلوبهم إن رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات ، والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق ، ويريحون أنفسهم من الجدال ، ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام ، وربما نذكرها غداً إن شاء الله

المقالة السابعة

المعارف (*

(٢)

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئًا منها يقارن صحة فيصادف قبولا ، وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشوراً مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة ، قاضياً على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم ، مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة ، قد أظهرت أن في بعض المدارس قصوراً في التعليم وفي بعضها كمالا وزيادة . فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار ، وموظفو الثانية الشكر والثناء ، فعلى الجميع من الآن فصاعداً بذل الجهد فى ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصراً ، لاحفظا ولقلقة ، وبين فى هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم ، وأنذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤلية الديوان

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة ، والتعليمات المفيدة ، وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية أبنائهم فى مدارسنا التي يصرف بها آلاف الجنيهات من خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها ، فقد كانت النفوس فى ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ، ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ، ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ، ولم يكن ذلك الا لما أظهرته

(* نشرت في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

التجربة من نجاح التعليم فى تلك وقصوره فى هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الولدان والاقارب فى المدارس الاجنبية ، وإغفالها فى مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت . فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفيـة التعليم وتشديده فى أن تكون على وجهها الحقيقي مما يفيد الآمال ويقويها

ألا أنهم يتساءلون فيما بينهـم بسؤالات كثيرة منها قولهم : هـل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين ، وهي مكافأة الدينار والدرهم . فان مكافأة الشكر والثناء ، وإن كانت واجبـة وهي من أجل المكافأة وأجملها ، ولها تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم ، لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية . فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من إيراده لاتنفك عنه الوساوس ، ولا يبارح ذهنه الاضطراب ، وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ما سمع كلمة الثناء عليه . ثم ذلك ينقص من اجتهاده ، ويحط من همته ، بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه ، خصوصاً إذا رأى غير المجتهد مماثلا له في الرزق ، وأوفر راتباً منه . ولقد صدق القائل : النقص من الرواتب نقص من الاعمال ، لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة ، مع أن المسموع أن ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ، ونظارة المالية تسمح باستغراقها ، بل تود لو يزاد فيها

وقولهم : هل جميع من نشر عليهـم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الادراك ، وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتـدرب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه ؟ بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره ، أو أن الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها ، والبعض ربما لايمكنه ذلك ، حتى ولا التعلم . وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة ؟ وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط ، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ، ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق لتوجد الرغبـة الحقيقية أولا ، وتخشى عواقب الجهـل والاهمال ، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ، ويكون

كله خساراً على التلامذة المساكين . ولا نقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي يعلمه ، فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفا ، ثم طلب الالقاء والتدريس وكيفية التفهيم ، فرب عالم لا يستطيع البيان

يقول الناس : إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء ، عارفون بفنونهم ، قادرون على تأديتها بالوجه اللائق ، لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقه ، وتعودوا عليها ، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها ، وإن كانوا علماء بفنونهم ، والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ، ويعجز على تمرين المتعلم عليها عملا ، والبعض يوجد خالياً من الأمرين ، يهزأ به التلامذة ، ولا يوقرون أستاذيته ، كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ، ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لا يحب أن يجهد نفسه في التعليم ، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ماوقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف ، فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها ، واعترف للفاضل بفضله ، وعرف الناقص مقدار نفسه ، وأنزل كل منزلته ؟ هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية . ولا يكون لهم عمل سوى هذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلا ، ويقدموا جميع مايرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة ، فان رأوا نقصاً عرفوا سببه ، ومن أي الجهات منبعه . فان كان اعوجاجا في طريق التعليم أرشدوا المعلم بأنفسهم ، وبينوا له الطريق مرة بعد أخرى ، فان اعتدل والا اعتزل ، ويكون أولئك الاشخاص تحت مسئولية شديدة اذا ظهر فما بعد نقص ، ولم يكونوا نبهوا عليه ، فان ذلك يبعث الغيرة وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم ، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود بأقرب الطرق المؤدية اليه ، ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ

هل دققت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين

وضع الاطفال في كفالتهم ؟ يدبرون أمورهم، ويرشدونهم الى كمالهم ، وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة ، والافكار المستقيمة ، والعفة والنزاهة ، والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه ، وأداء ماوجب في ذمته ، حتى يكون حاله وكماله درساً آخر ، يعطى للتلامذة في كل يوم ، فتنطبع هذه الكمالات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم ، وهو المعنى المقصود من التربية ، وبين من لاخلاق له ، بأن يكون أحمق أو دنيئاً أو عديم الغيرة والذمة ، أو رديء الافكار، ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل ، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد ، فتميت أذهانهم ، وتكون عاقبة أمرهم ، إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب ، وإما علماً صناعياً مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ، وياليتها تكون قاصرة عليه ، ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة ، وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقباء النبهاء ، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم ، والامانة في الخبر ، والصدق فيه ، يميز الخبيث من الطيب ، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد ، لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان ، ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة ، أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة ، يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون : إنه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد ، وإنه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف ، وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيراً من الناس عن التعليم . فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب ؟ وان حصلت فبمن نيط تصنيفها ، وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ، ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ، ويكون لهذا المجلس حق في

تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون ، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق أن سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أموراً كثيرة تستحق الالتفات ، وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لا بد من تقريرها ، والاسعاف بها ، فهل أجيب طلبه؟ وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداها ، حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها ، وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك ، وأنها لا تغفل شيئاً مما تعلمه نافعاً ومفيداً . ومن اليقين أنها لا تشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة . فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل . إذ تعلم أن زماننا هذا لا يرى فيه الا الأثر الظاهر ، ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية .وأما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها . فقد مضى وقته ، وأن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء ، كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم ، والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري ، والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهمي ، وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الاوهام ، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخاً جديداً ، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها ، فعلينا أن لا نضيعها

المقالة الثامنة

المعارف (*

(٣)

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد ، يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهاراً عن التعليم مع رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها إذا افتتح مثل هذه المدرسة إلا في تعلم ما ينفعهم ويزيدهم نوراً وبصيرة ، وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا ، ويقرأ فيها درس باللغه الفرنساوية يكون قاصراً على تعليم اللغة لاغير ، يبتدأ فيه من الهجاء الفرنساوي إلى نهاية ما يلزم ان يتعلم في تلك اللغة . أما دروس اللغة العربية فمنها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة ، ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الامم ، وتاريخ طبيعي ، وبعض مبادىء الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر ما يقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك اجنبية ، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات ، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين ، وتلك لا نتوسم فيها ذلك إلا ببرهان ، وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لا تضر في المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في أذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ، ويهتم بشأنها ، مع أن اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ، ولا يصح أن تجعل غاية تقصد ، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية ، فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلا إذا لم تكن عنده مبادىء علوم

*) نشرت في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا يعد مصيباً في طلبه إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادىء حتى انه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليليين قاصرين على اللغات فقط ، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لا نزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون ، وتبطل حجة اللائمين، الذين أنصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها ، ومايعود على البلاد منها ،ونشر ناوجوه أنظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة ، فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعلياً لا جدلياً يقنع الناظرين ، ويفحم المخاصمين ، ويذهب بتعللات المتعللين ، ومطالباً لأصحاب تلك الافكار بالبرهان الفعلي أيضاً وهو توجه الهمم إلى التعلم ، وإفراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم، حتى تظهر فوائد هذه الأثر، وأنالعلى يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف إلى طلبها كما أجابتهم إلى طلبهم، ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الاخبار ، وأجر التنبيه، على الامر ومافيه

المقالة التاسعة

التربية فى المدارس والمكاتب الميرية (*

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، الى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها، أي يكون النور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الاشياء وخبائثها ،وهذا هو الركن الاول في المدارس والمكاتب ، ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس وترويضها عليها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة، حتى يكون المتحلي بها ناشئًا على مايوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني ، وإذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة ، أو قلت جداً ، ولنترك البرهان على ذلك الى علم كل انسان به ، فاذا اجتمع للشخص هذان الامران كان انسانا له أن يطلب ما ينفعه ، ويبعد عما يضره ، فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة اذا رآه موافقا لاستعداده وفي قوته النهوض به ،فيختار من العلوم والصنائع مايشاء ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة حتى يصل الى ماتمكنه القوة منه، ولا يتأتى منه الاهمال فيه لوجود الباعث من ذاته، وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه

وأما ان كان الشخص ضعيف الادراك ،أو فاسد الاخلاق ،وان كان عالمًا بجميع علوم الدنيا ،فلاريب أن يكون شقياً في نفسه ، وسببا في الشقاء لغيره ،ولا تغني عنه المعلومات شيئا بل ذهب بعض الحكماء إلى انه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة

*) نشرت في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ - ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠

الا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة ، والنفوس بالصفات الكريمة ، هو التعاليم الدينية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق وإرهابها مما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغيبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع بحيث لا تخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ويؤتى بالامر المنفور منه كذلك على وجهه ، ثم يقال ان ذاك يرضي الله وهذا يغضبه ، وذلك لا يتأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيما لجلاله ، وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي ، بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء ، خفق قلبه السامع ، واضطربت جوارحه خشية منه ورهبة ؛ فيكون ذلك سببا لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ، ونفرته عما يغضبه من الرذائل ، فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب ، فان الطفل في صغره ، بل والشاب في أول بلوغه ، يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصاً مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس ، وايداع مثل ذلك في القلوب إنما يكون بتعويد الأبدان العبادة ، وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة ، فهي الاساس لكل ذلك ، وطالما تشوقت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتمدنة في مبادىء تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاورباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد عن ست سنوات تقريباً ، ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لأسباب نضرب عن ذكرها صفحا

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك ، وطلبت تجويده والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار ، وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر ، وشددت عليهم في ذلك كل التشديد ، حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة ، ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين

وأما المسيحيون وغيرهم من ذوي الاديان الأخر فلا يكلفون بذلك أصلا ، بل هم على حريتهم ، فلها الشكر على هذا المقصد الحسن ، غير انه يلزم ان لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صوراً يابسة لا روح فيها كعبادة الجاهلين، بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تخرق حجاب الغفلة ، وتتمكن في باطن الادراك، وتبعث في الاشخاص روحا من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون ، وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التحريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء وءان كانوا في الحقيقة من أردإ الجهلاء فان ذلك يخل بالمقصود من التربية ، ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب

منشور نظارة المعارف

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المسامرة الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع ان معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ، ولا يجوز اغفاله في حال من الأحوال مطلقا ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة (خوجات) القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ، ويفهمون معناها فهما جيداً ، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور ، وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب، ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها حتى لا ينسوها ، واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها فى تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر فى الفرقة

التي هم بها بمعرفة (خوجة) النحو ، إذ من بعد الآن لا يرخص بترقي التلامذة من فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الا بعد التحقيق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما وعلماً وعملا ، ويكون من أخل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسئولية الشديدة ، ويشترك معه في هذه المسئولية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ، ويجعل لذلك (خانة) مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ويعطى فيها (نمرة) كسائر الدروس ، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة ، وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذين يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه ، وتحريضهم عليه ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة مع الحث منه للتلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجوداً ، فان لم يكن موجوداً ففي مسجد قريب ، فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة مع ارسال رسمه ومقايسه وتكاليفه ، ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتاً إلى أن يتم إنشاء المحل المطلوب . واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان المقياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً ، وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن ؟

المقالة العاشرة

وخامة الرشوة (*

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها ٥٠٧ أقة و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية بولاق الدكرور ، فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشاً وكسوراً على وجه الرشوة ، فورد المبلغ للخزينة ، وهاهو اللازم جار لاتمام التحقيق ومحاكمة الاشخاص ومبيع الحمير التي كانت حاملة للملح لتورد أثمانها للميري حسب المنشورات في هذا الشأن » اه

قد تقرر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها ، فيقدم الواحد منهم على مايخالف الاصول المتبعة ، أويخل بالامن والسكينة ، أو يهتك حرمات الحقوق ، اتكالا على مايضمره في نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة عن العقاب ، أو الحصول على غرضه بأي وجه كان ، وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لايصح أن يقضي أمراً في مصلحته لاحد إلا بالرشوة ، ولذلك يرون أنه من الوجوب على من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحته أن يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ، ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لاتشمئز منها طباعهم ، ولا يستنكرها أحد منهم ، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ، ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال

*) نشر في العدد ٩٨٤ في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

ولا يكتفي بذلك فى اقتضائها ، فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة ، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليـه فى قبولها منه لظنه أن لانجاح بدونها ، وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقربالذوي المناصب ، وتذللا خبيثاً لايجوزه الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه نفس كل ذي إحساس انساني، مع أن حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي ، وصرفها في وجوهها الضرورية كالمطالب الميرية والنفقات اللازمة ، أليق بفعل العـقلاء ، وأصون لحرمات القانون ، وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة ، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة ، إذ لو كف كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم ، وخضع للاحكام الحقة لتحصل على حقه بدون أن يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق ، وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتثبطه طمعاً في مايأخذه منه

على ان أي متوظف كان وإن بلغ ما بلغ من الزهد والعفة ، فلا أظنه يمتنع عن تناول مايقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصا اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له . فاذا مد يده اليها تعود شيئاً فشيئاً حتى يرتشي في الحـق والباطل ، وبالرهبة بدل الرغبة ، فالعلة الأولى فى فساد أخـلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل ، فيعودونهم على ذلك وحينئذفما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي ، وإن كان كل منهما مجرما لأن الاول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم عليه أمام القانون ، وأمال المرتشي لأخذ الرشوة ، وقوى طمعه ، ودله على الشره ، وكلف نفسه بما لم يكلف به

ومن غوائل الرشوة مارأيناه في الزمان السابق يحصل كثيراً بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم مايدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة مابلغت في سبيل إعنات خصمه والحصول على غرضه . وإن زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافا مضاعفة ، ومثل ذلك كثير لايمكن الشرح أن يأتي على

بعضه ، وهذه الحادثة المتقدمة تشهد بالتقريب لما قلناه . فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن الملح الذي كان معهم ، فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ، ولكان ذلك أقرب الى وفرة الكسب ، وأسلم للمال والنفس ، ولكنهم ظنوا أن الزمن الحاضر هو السالف ، والحكومة هي هي . فسهل عليهم أن يتعدوا الحدود ظنا منهم أن الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم ، وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهدو المندوبين وأمانتهم

ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الاسف أن الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجراآتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف ، وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة ، نرى البعض منهم بل الكثير لايزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان مالم يعوّد) أليس كان من الواجب على الاهالي أن ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنقيحها أولو الامر طلبا للعدل ورغبة في الانصاف ، ويتفق أهالي كل جهة على أن لايدفعوا لذي وظيفة شيأ من الاشياء ، بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه . فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث ، فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية إلا الى الحكم بالقانون . فان أخطأ ، فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في القضايا من أي نوع

لانشك في أن سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم وأفيد للعموم والخصوص وأحكم ، وأما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لانرى لمرتكبها نجاة خصوصاً في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديداً ومن توارى تحت التستر وقتا ظهر بعار الفضيحة في آخر نسأل الله الهداية والتوفيق لأرشد طريق

المقالة الحادية عشر

العفة ولوازمها (*

سبق أننا أدرجنا في جريدتنا فصلا معنونا بالرشوة ووخامتها بينا فيه أن هذا الداء المميت لروح العدل ، المفسد لمزاج النظام ، أزمن في طباع الاهالي من زمن بعيد ، حتى ظنوه صحة ، وحسبوه حالا لازمة لهم ، وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ، ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر ، وانتفاء الموجب والمقتضي ، ولا يقتصرون في أداء نقودهم وعروضهم لأرباب الوظائف (إن قبلوا منهم) على حالة الضرورة ، وربما يؤدون على طريق الرشوة مايساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه ، وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع . وكان من الواجب على أرباب الحقوق أن يعلموا أن الوظائف ليست للموظفين مجاناً ، بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته ، يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة ، التي هي خزينة الأهالي حقيقة . فلا حق لمتوظف أيا كان أن يأخذ (بارة) من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال ، بل كل ماأخذه فهو سحت . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم « كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به » أو كما قال . وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرتشي ، وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرد ، والخزي واللعنة على كليهما أيضاً

غير أن كلامنا في ذلك الفصل لم يكن موضوعه أن الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم ، بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذى ينهر راشيه ويبعده . وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين أن في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ؟ ولولا هم لما استقامت الاعمال ، وانتظمت الاحوال ، وهم معروفون بين الناس ، تشهد لهم أعمالهم ، وتنشرح صدورهم ، وتثني عليهم

(* نشرت في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

سرائرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة ، وسلامة الذمة ، حتى كأني بالرجل العفيف منهم عند مايخلو بنفسه ، ويدخل الى مخدعه ، يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم ، الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة ـ وربما كان محتاجا اليه ، ومع ذلك كف يده عن أخذه ، وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه ، حفظا لشرفه ، وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء إذا ذكر عنه أنه ارتشى ، ومراقبة للأحكام الالهيه ، والعهود الانسانية . فعند مايرى لنفسه هذه المزية الشريفة يطير فرحا وهو وحده ، وتكون صداقته سميراً ومحدثا له ، ينسر بموافقتها وملازمتها ، ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار ، الحق الذي لايعارضه فيه أحد فأمثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك ، وقوام النظام . وإن دوائر حكومتنا متشرفة بهم ، بخلاف أولئك الساقطي الهمة ، الفاسدي الأخلاق ، الذين يقبلون مايقدم اليهم من أرباب الحاجات ، قليلا كان أو كبيراً ، أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم ، أو بتعطيل أشغالهم ، إذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة : إن شاء الله يكون قضاها . فاذا جاءه مرة ثانية قال : اذهب إلى غد ، فان جاء في الغد عبس في وجهه وقال : إن عندي أشغالا أهم من شغلك ، ونحو ذلك من المماطلات ، وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد ، حريص على نيل مقصوده . فان كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوّح ويعرض ، حتى ينتبه الطالب الى الغرض ، فيبذل مايقصر به على نفسه مدة الطلب ، ولولا جهله مافعل . فهؤلاء الأشرار ، وإن استتروا تحت ذيل الحيل والخداع يوماً ، فلا بدّ أن تنتشر في الجو روائحهم الكريهة ، وربما غضت عنهم الأبصار زمناً ، لكن لابد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر اليوم فاذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التي لاتفلت ، ولعلمهم بقبح سيرتهم ، ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة ، وشدة حرصهم على إخفاء هذا الأمر الشنيع ، تراهم إذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماصنعوا من الحيل لالتهام الأموال ، وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة ، فربّ صاحب حاجة ذكي نبيه ، يشكو

أمره لمن فوقه ، ورب رقيب من طرف الحاكم اليقظ يطلع على وجوه حيله ، ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائراً الى بيته ، ورب حر غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعلل نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين ، وذاك كان خفياً على المراقبين ، وهكذا تستولى عليه الأفكار السيئة ، والأوهام الخبيثة ، فيبيت مضطرباً خائفاً مرعوبا ، لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع الى قبيح صنعه ، فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير ، يحاسبه ويعاقبه على ما فرط منه ، خصوصاً وان قلبه وعقله في كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية ، منافر للطبيعة ، إذ لولا ذلك لما حافظ على إخفائه كالسرقة والنصب ، بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك ، فان عاره أشد ، وجرمه أعظم ، وكفى بهذا عقابا وعذابا لو كان له عقل وبصيرة ، طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا ، وقطع من الكون دابرهم

وإنه ليسرني ويملأ قلبي ابتهاجا ما سمعته من أن كثيراً من المتوظفين تكدروا من قولنا في ذلك الفصل ، على أني لا أظن أن المتوظف وإن بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ ما يقدم اليه بطريق الرجاء ، خصوصاً مع ظهور الحق لصاحب التقدمة الخ ، خوفا على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكلية ، فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذا الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان ، فان تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعفتهم ، وحبهم أن لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولو في مفهومات الألفاظ على وجه بعيد ، وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من أن يتصف به ، لكني أقول : لو دققوا النظر لما تكدروا من هذه الجملة لوجهين (الأول) الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق (والثاني) أن منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ، ويسكت حتى يحصل الرجاء ، وإنني أعلم أن العفيف لا يتجاسر أحد على أن يقدم اليه شيئاً متى اشتهر عنه ذلك ، ولو اتفق أن أحدا بذل له رشوة ولم يقبلها ، فلا يصح له السكوت عليها ، بل عليه أن يخبر في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي ، وتضاف الرشوة

الى جانب الديوان ، فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها . وأما إن سكت على ذلك ، واكتفى بالمنع من جهته ، فاني أراه موضعاً لقولنا في الجملة السابقة : فان كثرة الرجاء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة . فما ظنك اذا كانت في اتصال منفعة الى المرجو . وإنه ليعجبني جداً ما ذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم ، الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه : المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أو وعده بشيء ما لأجل التوصل الى الغرض السابق ذكره (أداء عمل من أعمال وظيفته ، ولو كان العمل حقاً أو لامتناعه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فوراً جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اهـ

على أن هذا الانذار لو لم يكن مثبتاً في القانون لوجب أن تثبته الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيوراً وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين (الوجه الاول خصوصي) وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء في هذا المتوظف ، بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه ، فهو حقيق بأن ينتقم منه (والثاني عمومي) وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف ، وشاع ذلك بين الناس ، يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من أن يقدموا شيئاً لمتوظف خشية أن يخبر كما أخبر ذلك ، فيقع الراشي تحت العقاب ، فيكف أرباب الحاجات عن البذل خوفاً ، حتى لو مد المتوظف يده طالباً الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لايقاعه في الخطر ، هذا من جهة ذوي الحاجات . وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا أن فلاناً أخبر براشيه ، وظهر اسمه ، وانتشر ذكره ، خصوصاً إذا ترتب على ذلك رفعة قدره ، اقتدوا به لينالوا مثل ما نال في ظهور الشرف والفخار ، فيمتنعوا عن قبول الرشوة ، بل يتسببون في إضافة أموال جمة الى بيت المال ، ويقع التنافر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة . وقد بلغنا أن بعضاً من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك ، لكن بمبالغ زهيدة ، ربما

يسمح بها الخاطر لاظهار العفة ، فينال شرفها بقيمة زهيدة ، ولم نسمع بأن موظفاً أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التي كنا نسمعها ، وهي التي يعد التعفف عنها تعففاً حقيقيا ، ومع ذلك فانا نشكر المتزهد عن القليل والكثير

وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة أن في الأخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له . فالستر عليه أولى ، فهذا الوهم خطأ صرف ، لأن الله تعالى جعل فى العقاب حكمة بالغة ، وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر ، حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم فى القصاص حياة ياأولي الألباب) والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ، ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس ، إذا لم يعلموا أن جزاءهم القتل ، فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة ، فكان فى القصاص الذي هو موت حياة ، وأن الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة ، بل مخالفة لأمر الله . فقد قال فى سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع فى طبيعة النوع البشري يرشدنا إلى ذلك أي أن الواجبات الانسانية تطالبنا بأن من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة ، وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة ، وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه ، فان فيه صلاحا له بعدم عوده ، وردعا لغيره . وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة أن يكونوا قدوة للناس ، ودعاة الى مثل أخلاقهم ، وذلك لا يكون الا بظهور آثارها وإجراء مايوجب التنافس فيها ، والمسابقة في ميدانها ، وان داء الرشوة وإن كان لاريب يظهر أثره على المبتلى به ، فيكون ممقوتا ، وإن اجتهد فى إخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العهود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت ، لكن لايظهر رسما على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه ، وتعرف عند العامة والخاصة ، فتتعود الأنفس تصور عاقبته الا بطريقة اخبار المتوظف بمن يرشيه ، فانها تظهر لنا شطر المقصود ، والمراقبة والتيقظ يظهران الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى أن يكثر فى بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء ، ويمحق أولئك المجرمين الأشقياء .

المقالة الثانية عشرة

القوة والقانون (*

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلقى اليه بعد، فلا يخطىء الغرض، ولا يجاوز المرمى، ولا تلحقه شبهة توقعه فى ظلام الحيرة وغيهب التردد

أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ودفع المكروه، سواء كان من شخص واحد، أو جماعة متآلفة، أو شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها، كما تراه فى السباع الضارية، والحيوانات الكاسرة، أو هي منضمة الى السيوف القاطعة، والآلات المحرقة، وغير ذلك مما يستعمله الانسان فى مواطن الغلبة والصيال

أما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الامم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية، وهيئتها النفسية أعم من أن يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلائقها، أو منوطاً بالسياسة الداخلية، كالادارة المدنية، والتدابير المنزلية، أو باحثاً عن الأخلاق الفاضلة، وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها، وما يجب أن يبتعد عنه من أضدادها، وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن. أما القوة فكانت شرعة الامم الغابرة، والشعوب السالفة، وقت ان كان الانسان جبلي الطبع، لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات إلا بالفصل المميز، أعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف، وشعار التمدن، فكانت له الحاكم الفيصل، يرجع اليها فى تحصيل غرضه ونيل مطلوبه، وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً، وتقدماً وتقهقراً،

*) نشرت في العدد ١٠٣١ الصادر فى ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ - ٧ فبراير سنة ١٨٨١

كانت يختلف الأمم وقتئذ فى الشرف والضعة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها ، فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجراءة ، وكثرة السلب والنهب ، والبتك والفتك ، وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل فى هذه الصفات تعرف بالمجد الأثيل ، والشرف الباذخ ، والمكانة العالية ، فيدين لها مجاوروها ، وتخضع لسطوتها كل أمة قرع أسماعها ما هي عليه من علو المنزلة ، وشدة الأنفة ، وقوة الشمم ، وتساق اليها الهدايا من تخوم الأقطار وشاسع البلدان ، وتأتيها الغنائم أفواجا ، يقتادها رجالها الأبطال ، من ساحات الصدام والنزال ، ولم تزل الأزمان الغابرة محكومة بسلطان القوة ، تقلب الأمم على جمر الخوف والاضطراب ، وتضرب بصولجانها جراثيم القلوب الضعيفة ، فتلقي بها فى مهاوي الذل والهوان ، حتى خضعت لها الأمم ، ودانت لها الشعوب ، وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء ، فاذا تمت لقوم تبعتها السلطة التامة ، والحكم المطلق ، فيتسلطون بقدر مكنتهم على ماشاء الله من الشعوب والقبائل ، ويتخيرون واحداً منهم سلطانا أو ملكا قد امتاز بالتهور والجراءة ، وجلالة المنظر والنضارة يملكونه زمام الحكم والسلطة . ثم ينتخبون من عشائرهم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة ، والنصرة على العدوّ ، والعدّة لفتح الممالك والأمصار ، ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقساوة ، لئلا يتملصوا من ربقته ، فيذعنون لملكهم قهراً لا طوعا ، وينظرونه مقتاً لا حبًا ، ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون ، وذلك دون مراعاة طرق عادلة ، أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة ، واستعمال الشفقة والرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء ، وذللت الشعوب ، وانتهكت حرمات الأمم ، وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد

هذا ما ولدته القوة في تلك الأعصار الخالية ، التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة ، مسربلة بجلابيب الغباوة ، مغمورة في بحار الوحشية . وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الأمم ، أو صنف من أصناف البشر ،

بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه ، وتباين مواطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة ، تجول فيها يد القوة ، ويحكمها مجرد الرهبة ، ويطويها الخوف ، وينشرها الفزع ، ويشملها الاضطراب والاختلال ، وتتبادلها أيدي السلب ، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ، ويصبح أقوياؤها غير مطمئنين على حياتهم ، فانبعثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصا القوة علة الضعف ، ودبت فيها سخائم الحقد ، فاختلفت الأغراض ، وتباينت المشارب ، وتفرقت القلوب ، وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع ، لايجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق ، وتبدلت فطرته السليمة الى أخلاق لامناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب ، وارتسمت صورها في مخيلاتهم ، وانسحبت معانيها الى ذاكراتهم ، وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم ، قائمة نصب أعينهم ، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال ، حافظ القوى والأكوان ، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدبير النوازل والكوارث ، فاحتسبوها المدبر في المكونات بأجمعها ، وصوروا تماثيل على صور مختلفة وأنواع متباينة ، تشير ظواهرها الى القوة ، وتؤدي هيآتها معاني العظمة والسطوة ، ووضعوها في أماكن عباداتهم ، ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والعجم ، وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين ، المصنوعة على أشكال الحيوانات العادية ، والملوك العانية يشرح التاريخ أحوالها فلاداعي الى الاسهاب فى تفاصيل شؤونها ، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له أن القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية وبددتها وأحدثت به من القبائح ماأحدثت ، ولولا أن القانون كسر سورتها ، وذلل صعوبتها ، لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ، ولا تمتع الانسان في الازمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة ، فالحق للقانون لاللقوة

وبينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد ، والجور والعبث والفساد ، ليس له حق يصان ، ولا عرض الا ويهتك ويهان ، اذ أشرقت عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل ، وعرفوا بمناهج الخير ، فأبصر من طلائع أفكارهم مايهديه الى سبيل الرشاد ، ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من أبواب السداد ، فعلم أن القوة هي منحة جليلة ، ونعمة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته الضرورية ، ولوازم معيشته المرضية ، قد عززها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف ، حتى اذا عجز الفرد الواحد عن مالا طاقة له به من نفائس المطالب ، وجلائل الرغائب ، استعان بعشيرته ، ثم بقبيلته ، ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ، ثم بجميع أفراد نوعه ، وأن القوة إن لم تكن على قانون لاتتعداه ، وخط لاتتخطاه ، بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لاينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة ، فأسف على ما كان ، ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون ، فكان نوراً يهتدي به ، وقائداً رشيداً يسلك بالانسان الى ماأهله له من الكرامة والنعيم ، فاتبع سبيله المهتدون ومال عن سننه الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لأحكام القانون فانه حفظه باطنا وظاهراً ، وتمسك به غائباً وحاضراً ، حتى صار ركنا من لوازم حياته ، وعدة لمقاصده وغاياته ، وملهج لسانه فى بكره وعشياته ، الى أن عرف به واجباته الحقوقية ، وفرائض معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، والجور وغوائله ، واطمأن به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد الاضطراب ، وقرت عينه برياض الامن والامان ، وتولد فيه أمل حمله على إدمان العمل ، فأعمل فكرته الخامدة ، وأجرى حركته الراكدة ، ولازال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ، ويقتنص بحبالة الاستكشاف كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المبهمات ، ويستطلع ببصيرته ما خفي من مجهول الكائنات ، الى أن حداه العلم الى معترض الاختراع والابداع ، فطار على جناح البخار بدل الشراع ، واستخدم النار لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد الديار رسول الأخبار ، وجعل

المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه ، وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبساً ومسكناً ، إلى غير ذلك مما أتيح له من محاسن الحضارة ، ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في تخوم البلاد ، ويذلل بقوة عزمه أخلاق العباد ، الى أن أصبحت البسيطة في قبضة زمامه . ولا غرو فان فائده الاتحاد والائتلاف ، وباعثه الوفاق لا الاختلاف ، وهو الآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقلته ، ويصرف في حراسته مايدخل تحت قوته ، فانه ملاك سعده ، وأساس مجده ، ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحاً ، وطوى عنه كشحاً ، فهو هو على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغة تحت أضراس الظلم ، ويمسي كرة لصولجان البغي ، فليحيي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيأيها الذين ينحرفون عن القوانين ، ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقتي ، ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية ، وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ، ورفعوا شأن الحقوق ، فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهضوا لمجاراتهم في الصدق إن كنتم تعقلون ، وإياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة ، فللايام تغلب وتقلب ، لكن صراط الحق واحد وسالكه لايضل ، إن عثر يوما استقام أعواما . وأما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة الغوائل ، سالكها معارض لمدبر العالم سبحانه وتعالى في أحكامه ، فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ، ورتب لكل شيء حدوداً هي سور بقائه ، وسياج دوامه ، فان خرج عنه انحدر الى مهاوي العدم والفناء ، ومن تأمل الكون الاعلى وما فيه من الكواكب والشموس والاقمار ، ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان ، يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصاً في سير وجوده ، تقوم البراهين القاطعة على أنه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الآلهي بالعدم والانقلاب ، وأنه بباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدوداً عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته الخاصة نفسه ، أو معاملته مع غيره ، وقد أودعها العلماء والحكماء بطون

كتب التهذيب والتربية البشرية بعد أن نطقت بها الشرائع الآلهية ، وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الأمم الماضية ، والمشاهدة الحالية في الاوقات الحاضرة ، أن من تخطى حدود هـذه الحقائق رماه القهر الآلهي بسهام لا يخطىء مرماها ، فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الأمم . وأن القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية إلا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه

فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة أن يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته ، أو يعجب بصولته ، ويدع الأمور لأرادته ومشيئته ، ويزدري ما للقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت إمرته ، فيفعل ماتسول له نفسـه ، ويأتي كل مايسوقه اليـه حسه ، فيسري الاهمال في طبقات رجاله ، ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه ، وتصير الأموال لديهم مباحة ، والحقوق مبتذلة ، والاعراض منتهكة ، ووسائل الربط والضبط معطلة ، وعقـد المواثيق والعهود محللة ، فيكثر فيما وليه غوائل الخسران ، وتنمو به جوائح البهتان ، حتى تصير أفراد المحكومين أخلاطا رعاعا لا فرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات ، والتمكن من وسائل اللذات ، مع توافق في الفطرة ، وتشابه في الغريزة ، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء ، يتجاذبونه بايد طالما تقدته من خزائنها ماظنه نزراً يسيراً في جانب أسرافه وتبذيره ، وهو على كاهل الاهالي حمل ثقيل العبء لا تقدر أن تقله ، وتمسي عمارية البلاد تنعي محاسن صبحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الأطراف ، ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام ، وحينئذ لا تسل عن العاقبة ، فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك مايولده الغرور بالقوة والاعجاب ، بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد . فاذا أرادت تلك الامة التي تصرف ذوو البغي والغرور فيها على خلاف القانون أن تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول ، فلا بدلها من إعادة شأن القانون فتشيد منـه ماهدمتـه يد الغرور ، وبددته سطوة الفجور ، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ، وتتابعه رشده

وهداه ، ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض ، وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد ، والتعمير بعد التخريب ، ولكنها باعت القانون بثمن بخس ، فكان جزاؤها أن تشتريه بنفوسها العزيزة ، ودمائها الشريفة، حيث عرفت ماهي القوة وهو القانون . ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(يقول جامع هذه المنشآت) ان إنشاء هذه المقالة أعلى من كل ما قبلها ، وان السجع فيها غير متكلف ولا ملتزم ، فارتقاء أسلوب الاستاذ كان سريعاً ولكن قد سبقه ارتقاء معارفه وأفكاره كما يرى القاريء من أول مقالاته

المقالة الثالثة عشرة

ما أكثر القول وما أقل العمل (*

إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الانسان مالا يفعل ، وأن يدل غيره على ماضل هو عنه ، وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه، وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر . وخبيث المقصد دنيء الهمة من الوجه الثالث .

أما جهله فلأنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى أنه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلا ينتفع به عموم الناس، ويعترف بنفاسته مافيه العقلاء والمبصرون من أي أمة، ولم يكشف حقيقة، ولم يحل مشكلة، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه ، فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر ، فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها ، فتنقلب دعواه مقتا عليه ، ويسقط من قلوب الناس أجمعين ، إذ لم يروا له أثراً

*) ونشرت في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ - ١٥ يناير سنة ١٨٨١

يفيدهم سوى أنه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقيقة لها ، وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها . ويظن أن الناس يسترشدون بارشاده ، فهو لامحالة مطبق الغفلة ، مركب الجهل ، إذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ماتؤثر الاقوال . فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب ،فتتردد في مفهومه ، فلا يقودها الى العمل إلا بعد تكرار وتذكار . أما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع فى النفس أشد انطباع ، فتندفع اليه خصوصاً إن كانت فيه لذة معجلة ، وإن عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه ، فقد جهل أن ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه . فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره ، فقد ذم نفسه من حيث لايشعر ، فهو جاهل بنفسه ، وبما يعود عليها وهو ظاهر .

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلأنه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه ، وترغيب الناس فى مالايرغبه لنفسه ، أي فيما ليس بمتصف به ، بل هو منحرف عنه وماذكره لمثالب الغير وهي فيه إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله ، يظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه ، وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته ، حيث علم أن الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع ، وكأنه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئاً ،لأنه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره ، شاهدة بعلو مقامه ،سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع ، وسواء نقص غيره أو كمل ، ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره ، بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها ،فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الأوصاف الفاضلة أو رام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذلك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة ، فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك .

وأما خبث مقصده ودناءة همته فلأن من هذه صفته لا يريد أن يكون ذافضيلة قط . ولا يبتغي الوصول الى كمال ، ولكنه يطلب عيشاً حيثما اتفق . فاذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقرر في نفوسهم

أنه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد اليها ، وأنه خال من العيب الذي يسب به غيره ، ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض أغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من أبواب نهمته وشرهه . فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين أو المختلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة لجلب الأموال . ولا يختلف عن هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال إنه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من اردإ الأوصاف وأقبحها لأنه يشعر بوجود أوصاف تشهد البداهة بقبحها . ومن الأسف أن هذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا ، بل في الغالب منهم ، بل لا يوجد القائل الفاعل إلا قليلا جداً (وإننا نخجل من تسجيل مثل ذلك في الجرائد . ولكن أي فائدة في إخفاء عيب فينا عرفه الغير منا؟ فحق علينا أن نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

اننا إن طرقنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لا نعدم قائلا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ، ووقف على المباحث الجليله ، وكشف بواطن الدقائق الخفية ، واستطلع الاسرار . وكان مع ذلك مشهوراً في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء ، وتوقد الفكر وقوة الحافظة ، ونحو ذلك ، وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل ، والافحام عند المخاصمة ، وتفهيم الطالب عند الاستفادة ، حداً لا يصل العالمون الى غباره ، وإن له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها ، وإنه يحيي بكلامه الاذهان الميتة ، ويحشر اليها صور المعلومات ، ويودع فيها أسرار الكائنات ، ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ، ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا أن التآليف والتصانيف مفقودة وإن وجد منها شيء كان ناقصاً إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ماقصد منه فيكون كعدمه . والطالبون للعلوم على

اختلافهم قاصرون عن إدراك ماأضاعوا عمرهم فيه . ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها ، فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها ، والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضار ، والوسائل المؤدية الى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة ، وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ، ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر ، واستنكف عن المساواة ، واستهجن معنى العدالة ، وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها ، وسار مع أغراضه وشهواته ، وجعلها قانوناً يتبع ، ويعد كل ذلك حقا ، وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولم يتلعثم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ، ولو أن أحداً عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ، ويود أن يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ، ويهدي اليه نصحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد ، وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية ، وعدم الاكتراث بمنافع العامة ، ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة . ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعياً أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والائتلاف . وانما تأتي النفرة من غيره ، ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمراً كبيراً ، وإن كانت بغاية من اللطف والانسانية ، والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو دعي الى اغاثة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعالل ويتعذر . أو يتمنع ويستكبر ويقول : ليس هذا من خصائصي : ولو طلب الى تأسيس أمر خير يفيد الزراعة أو الصناعة ، أو يساعد على التربية الحقة ، وجدته يستصغر ذلك

ويسفه آراء الطالبين ويقول : ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامة؟ دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري. كأن جنابه يظن أن المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب أن تكون له من الغير لافي مقابلة منفعة ، ولاجزاء لدفع مضرة ، بل لابد أن ينفعه الناس وهو لاينفعهم ، وما أجهل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف . ولكن اذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الى غايته . وكأنه يعد ذلك من طريق الانصاف الذي يدعيه ، أو أضرب عن النصح والارشاد الى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم ، وفاسدي الادارة ، وسيء التدبير ، ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير ، كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادراً عن سواهم ، وأما اذا كان صادراً عنهم ، فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة . فامثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحاً ولا حسناً ، ولا صحيحاً ولا فاسدا ، وانما هي ألفاظ ورثوها نطقا ولم يتفهموها حق الفهم ، وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة ، فهم يستعملونها كما سمعوها بدون أن يعلموا لها حقيقة ، أو يقفوا لها على مرمى وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء أنذال عديمو الشرف الانساني حقيقة ، ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها ، وهم في رتبة الحيوانية الاولى لايعترفون بالحقائق الثابتة ، بل لايرون حسنا الا مايصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية . فاذا مضى وقتها ذهلت أذهانهم عنها ، ولايتنبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا . ولا يرون قبيحاً الا مايصل الى ادراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك ، فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم . فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ، ولم ينظروا اليها نظر الاسف المستنكر ، فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى . وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ، ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار ، وانما هي أهواؤهم يعبرون عنها بالالفاظ المطنطنة

كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية ، والحقوق الوطنية ، وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلوكونها بألسنتهم ، ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر مايقولون وما يفعلون ، فجهلهم لامحالة يعود عليهم بعاقبة بئس العاقبة

ولكنا لانحب ذلك ، ونود أن يكون الفعل أكثر من القول ، وأن يكون، كل شخص من أبناء بلادنا صغيراً كان أو كبيراً مجداً في نيل الفضيلة الثابتة ، التي يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها ، حتى تكون بذاتها شاهداً عدلا على أهلية صاحبها لما يقول : وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين، فتسير المصالح على صراط مستقيم ، وينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أتعابه الآتية على وجه منتظم ، فيعود النفع على العامة والخاصة . وأما الفخفخة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لاتعيد ولا تبدي. وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة إن شاء الله

المقالة الرابعة عشرة

منتدياتنا العمومية وأحاديثها (*

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الأحاديث وما عكفنا عليه من الأقاويل في مجامعنا الاعتيادية ، ومحافلنا المتتابعة ، مما هو عقبات في طريق تقدمنا ، وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية ، وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد ، وانتهاج خطة السداد ، وإن خاله الكثير منا تمدنا ، وزعمه السواد الأعظم من شعار الأدب ، وعلائم الذوق والترف . وقد أردنا الآن أن نتكلم على هذا الموضوع ، وفاء بما وعدنا فنقول :

إن أحاديث الأمم تدور على محور أفكارها ، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها ،

*) نشرت في العدد ١٠٣٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٩ فبراير سنة ١٨٨١

وتنوع فنونها . فباختلاف صنوف البشر في المعارف والأمزجة ، تتباين مفاوضاتها وأحاديثها ، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها ، وان تواريخ الأمم الغابرة ، وحوادث الملل الحاضرة ، لترشدنا الى ذلك بأجلى بيان . فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله ، لما مال عنصرها الى التحبب في خلق الجراة ، وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح ، قصرت أحاديث رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ، ومعركة آتية ، تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها ، شارحة معايب الأقواس وأوتارها ، منتقلة الى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار ، وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس ، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز ، وبقيت هكذا أحاديثهم ، الى أن ضعفت تلك الحواس ، واستعيض عنها بالميل الى الراحة والانغماس في النعيم ، فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ، ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس ، وبنعت الحاجبين والخصر ، بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر

وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ، ومطلع شموس العرفان ، دارت أحاديث قومها فى المجامع على تحديد العلوم ، وتبيين مهايا الأجناس والفصول ، يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية انتاج الأقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها ، فيطول بينهما الحديث ، وهما بين مثبت وسالب ، ومعترض ومجيب . وهذا فى حال كون المجالس الاخرى غاصة بجماهير النبلاء فئة تغوص فى البحث عن أمزجة المواد وعناصرها ، وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الأفلاك ومراكزها . فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ، ودعتهم أوقات أحاديثهم ، شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل ، وإماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات ، واستقبلتهم الأيام بوجه باش وثغر باسم ، فرحة بما سيكون لها فى بطون التواريخ ، مرسوما بمداد الثناء على صفحات الأعصار والدهور ، لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة ،

وهذا مع محافظتهم وقت المحاورة والجدال على رعاية الآداب ، وحرمة قوانين المباحثة

وهذه أمم أوربا تشعبت مجالسها ، وتنوعت مواضيعها ، تحمل الينا الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدقه ، لولا علمنا بوفرة معلوماتهم ، وكثرة مخترعاتهم . فيوماً نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لانشاء بنك مالي ، يكون مركزه فى احدى الممالك الاسيوية مثلا ، فتطول بينهم المخابرة فى ذلك ، ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها ، فمنهم من يرجح إنشاءه فى الأملاك الفلانيـة من تلك القارة ، محتجا بأن فلاحي تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشدة فقرهم ، فتكون الثمرة أجزل ، والربح أوفر ، مما لو أنشىء هذا البنك فى احدى الديار الافريقية التي أصبحت لخصب تربتها ، ووفرة حاصلاتها ، وأخذ الأموال الأميرية منها بتقسيط عادل لاتحتاج الى استقراض من مالنا ، بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقتدر بها على انجاز مشروعات عمومية ، حتى تصير بذلك معادلة لأعظم ممالك أوربا فى الثروة واليسار ، فيجاوبه الآخر قائلا : ان الأجدر بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه فى أي مركز من مراكز آسيا مطلقاً الى اتخاذه بديار مصر . وأما ما قيل من أن تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلانها غنية عن الاستقراض ، فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه ، والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبداً مثقلا بديوننا ، يقرع أبوابنا آناء الليل وأطراف النهار ، ولو أثمرت أرضه ذهباً ، وعوفي من جميع الضرائب سرمداً . فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها مايجاوز العشرين في المائة من أطيانها ، تأميناً على ما أخذ منه من النقود في مدة لاتزيد عن العام كثيراً . فيستحسن الحضور بيانه ، وتختم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ، ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئة أخرى تتروى في مد سكك حديدية في احدى الايالات المشرقية : وإنشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها تسهيلا للمواصلات التجارية ، وإحكاماً للعلاقات الدوليـة . وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلا

يكون رسولا من قبلها عند رجال إحدى البلاد ، فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة ، وأراضى فسيحة ، ومياه عذبة ، ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزامه .

وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة ، وجماعات متضافرة ، يحسنون صنع الخطابة ، ولا يجهلون تاريخ الخلقة ، يقلبون العالم بين أصابعهم ، ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون ، يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة ، أوذلك الأقليم ، يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبثين في أنحاء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذللون المصاعب ، ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح . ونحن عن كل ذلك غافلون ، نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب ، بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغاً جسيما حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة . وصارت تلك الأخلاط الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب الأرواح والأشباح ، تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات ، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان . ويصرفون ثلثي الليل على قهاويهن (كذا اصطلح . والا فهي مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدراً لاتسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكاسرة . وفي خلال ذلك يتشاقون ويتخاصمون حيث إن كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ، ويعدد أوصافه ، ويذكر محاسنه . ويشرح مزاياه : من حورعيون ، ورقة خصور ، وعذوبة منطق ، وما شاكل ذلك . ويحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك المخدع . ولا يطأ ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيهاً وما شابه ذلك . والآخر يناقضه وينافسه ويروم اقناعه في مقام الجدل . ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية ، أو علاقة مجاورة منزلية . أو لا هذه ولا تلك . وانما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته . فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس

يأنف من سلوكهم، ويرمونه بغلظ الطبع والتقشف ويسمونه (نطعاً) وهم في خلال ذلك يهزؤن ويسخرون ويضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء ، واستحضار كل ماقبح وخبث من الألفاظ ، وهو المسمى عندهم (تنكيتاً) فقسموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولا ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة ، حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع ، واذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثر ، وهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج ، فمن عجز منهما قبل صاحبه أوسعوه توبيخاً وصفقوا للمنتصر اعلانا بظفره ، وأجلسوه مكانا عليّـا ، ويسمونه المعلم الماهر ، وهذه فئة غير قليلة في المدن ، وأكثرها من أبناء الأغنياء عديمي التربية

وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن ، فانها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر ، فهي لاتخلو عن حشو ، فانه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس ولو زمناً قليلا بحلول الغيبة أو النميمة المرافقتين لنا ، مرافقة الشخص لظله الا اذا سمحت الصدفة ، وكان زمن المجلس قليلا جدّاً لايسع سوى التحية دون ردها ، وأنهم لن يستطيعوا أن يبرهنوا على خلاف ذلك ، فاني قائل : اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت ، ومنصرفين كذلك ، فبماذا ينطقون ؟ هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه ؟ أم بعلم صناعي وقد عادوه ، أم فن طبي وقد تناسوه ، أم حديث عن منفعة عمومية وقد أغفلوها ، أم استفسار عن حوادث سياسية وقدزعموا الاشتغال بها عبثاً . فاذاً لاسبيل الا الاشتغال بألعابهم المعتادة كالشطرنج والنرد (الطاولة) وغيرهما من أصناف الملاعب ، وإنها دون ريب لتحملهم الى أسوأ ممـا فروا منه كما هو مشاهد . نعـم يوجد بيننا بعض الأذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة ، ولكن فضلا عن كونهم نزراً يسيراً ، فان أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون ، لكونها جملا حفظوها من غير أن يعقلوا لها معنى ، أو لكونها أموراً اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاوى الشعراء أو الحشاشين المحرفين فلا

نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والأحاديث الجنونية لكثرتها ، وتشعب مسالكها ،سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين ، أوخرافات المعاتيه والمجانين، كما اننا نكتفي في الكلام على منتديات الأرياف بأنها وإن قيل فيها ما يتعلق بالزراعة ومصالحها . ولكن لاتخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم ، وأن العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم ،بحيث يعسر زوالهما ، وهذا مع مساواة غالبهم لأهل المدن في البغي والفجور ، وأن بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسنا ، وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم، سردناه لذوي النقد والبصيرة ، معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا ، ولعلنا نذكره وقتاً ما، اذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة ، وثماراً طيبة . فيقوى فينا ضعيف الأمل ، ويحيى ميت الرجاء ، ونشمر عن ساعد الاجتهاد ، ونطلق لسان العظة داعين الى طرق النجاح . وإنا لنخشى أن تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به أخواتها من قبل ، كأن يقول زيد : ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ، ويظن مثله عمرو ، فيصرفونها عما وضعت لأجله من خالص النصح ومحض الارشاد من غير أن تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة . فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالأفراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواعظ والنصائح العمومية، لا المرء المخصوص المتصف بتلك الأخلاق حتى تكون تنديداً وطعناً . فعسى أن لا نسمع بعد بمثل تلك التصورات من أحد من الناس . ويعلموا أن ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الأخلاق ما استطاعت ، ويسرها أن ترى أبناء الديار رافلة في حلل من الكمالات ، متحلية بالعزة والفخار ، حقق الله آمالنا ، وختم لنا بحسن ما لنا

المقالة الخامسة عشرة

حاجة الانسان الى الزواج (*)

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية أن نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن . فالآن نوفي بما وعدنا ، بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول :

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران ، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة ، يستحضر بها ما شهده في الماضي ، فيطلبه إن كان لذيذاً ، استحصالا لمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه . ثم إن هذا التميز العقلي دعاه لأن يطلب من الأزواج ماهو أبهى في المنظر ، وأنعم في الملمس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيرة أن يشاركه فيه ، ويدفع ذلك بكل مايمكنه ، حتى القتل والجرح ، وهذا بخلاف باقي الحيوانات ، فانها وإن كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها ، لكنها لحيظات وتنقضي ، فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة . والانسان لفكره ليس كذلك ، بل يلازم الحرص في جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الأفراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ، ويدافع الغير عنه لما

(*) نشرت في العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ - ٧ مارس ١٨٨١

قدمناه من الأسباب ، وزد على ذلك ان الانسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر إلى التعاون بجميع أفراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ، ويكفل سلامة نتيجتها ، لاختل عقد نظام الانسان ، وفسدت أركان سعادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء ، وذلك من وجوه :

(الأول) ان النسوة اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال ، وأبيح لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر ، وسارع كل إلى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات

(الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصاً في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها ، والمدافعة عن حقوقها فتضيع وتضيع ذريتها

(الثالث) وهو أعم من هذا : أن الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد ، طلباً للحصول على وسائل المعيشة ، إلا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مآربهم ، يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم اذا كبروا ، يعوضون عليه أتعابه السالفة ، وتسوءهم مصيبته ، ويفرحون بثروته وسعادته ، بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته . فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والأبناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني ، فهو يجتهد للايجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الأنساب ، وجهلت الأصول ، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعي في تربية ولد ، فيستأصل الموت أفراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ، ثم يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته ، وكل زوجة وبعلها ، فيسعي كل لخير من اختص به حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن ، بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري ؛ وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر . وإن اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الأمم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار ، ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج وتيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تخل بهذا الاختصاص وطاب العقد عليها والاجابة منها ، أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الأمر لتنكف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها ويدرأ عنها أي مكروه ، وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ، ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه ، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها ، وحسن الاقتصاد في المعيشة ، وأن ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية ، وبعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم ، وينقلها من خطة الشقاء الى درجات السعادة والهناء

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها ، كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة الذي يعد من اقوى الروابط الانسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمرة كما هو ظاهر ، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح بالاجماع أن يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لأنه يضيق تلك

الفوائد ويقلل من الثمرات فضلا عن كونه في نظر الاطباء يوجب العقم وانقطاع النسل . فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لابد أن يقع الاقتران من بيتين (١) ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ، ووخامة البغض والعناء . وأما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ماأتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ماجاءت به شريعتنا من إباحة الزواج باربع من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق مع بيان ماكان عليه السلف الصالح في معاشرة زوجاتهم وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن وعدم العدل بينهن وحصول ضد المقصود إذ يكون الزواج موجباً للعداوات وتفريق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

---

(١) لاندري أكان الاستاذ (رح) يفرق بين كلمتي البيت والعائلة في هذا المقام أم يعدها مترادفين ولاحد كل منهما وحكم الشريعة في الزواج من غير الحلال من الاقارب الاستحباب عى الاكثر بل ماروي فى الاعتراب في النكاح والنهي عن القريبة لايصح مرفوعا بل هو أثر عن عمر (رض)

المقالة السادسة عشرة

حكم الشريعة في تعدد الزوجات (*)

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فإن الرجل اذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة ، والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لا حق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن . فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الاخرى إلا باذنها

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ، ولم يرض بالاقامة في بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند احدى نسائه سأل في أي بيت أكون غداً ، فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذنّ له في المقام عندها مدة المرض فقال « هل رضيتنّ » فقلن نعم ، فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم

(*) نشرت في العدد ١٠٥٦ الصادر في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

لاتكلفوهم مالا يطيقون . الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقال « من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى — وفي رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في البيات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهن اذا أراد سفراً

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيتوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه . وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى إلا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بحجرتها ولا يذهب إلى ضرتها إلا لمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لافرق في ذلك بين فحل وعنّين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً إذ لاتفاوت بينها ، وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضي وجب نهيه وزجره ، فان عاد عزّر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الأصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة : وحسن السلوك فيها .

أفبعد الوعيد الشرعي ، وذاك الالزام الدقيق الحتمي ، الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة للشرع الشريف ، فانا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها وتحلف بالله انها

اصادقة فيما اقترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها أخلصت له النصح لفرط ميله اليها ، ويوسع الأخريات ضربا مبرحا وسبا فظيعاً ، ويسومهن طرداً ونهراً من غير أن يتبين فيما ألقي اليه ، اذ لاهداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولانور بصيرة يوقفه على الحقيقة ، فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل ، وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأيّاً ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن تزرع كل واحدة فى ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لأخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز . فكل ذلك وما شابهه ان ألقي الى الولد حال الطفولية يفعل فى نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفوراً من أخيه عدوّاً له (لا نصيراً وظهيراً له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل ما لفظ ان كان خيراً أو شراً لكونه صغيراً انتصب سوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الأخرى بما فى وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كنّ من المخدرات فى بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد فى كثير من الجهات خصوصاً الريفية واذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمعن له أمراً ولا يرهبهن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الأسباب أو غيرها التي أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق الطبع فتقوده تلك الأسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً أو طلاق من هي عنده أقل منزلة فى الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل

سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الأطفال عديداً فتأوى بهم إلى منزل أبيها ان كان. ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده إلا وتراه سئمها فلا تجد بداً من رد الأولاد إلى أبيهم، وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوإ مما عوملوا به من عشيرة أبيها، ولا تسل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوي اليه، فان شرح ماتعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسلم به صبيتها من الطرد والتقريع يئنون من الجوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال إن ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كافت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانة إن خرجت من عدتها وتزوجت — فان الزوج وإن كلفته الشريعة بذلك، لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هـذا الأمر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبوراً. والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج، وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالتزامه بالدفع لها كل شهر ماأوجبه القاضي عليه من النفقة من غير أن تقبض منه مايسد الرمق، أو يذهب بالعوز، ويرجع الزوج مصراً على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية، أو حياء من شكاية الزوج. فان كثيراً من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيعاً، فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنيها على الشكاية التي توجب لها العار، وربما لم تأت بالثمرة المقصودة. وغير خفي أن ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فساداً وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكمالها، ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الأمور الى أن تبقى أيما مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل، وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق، فلا يكون في الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدراً من بعلها السابق، أو كلما قلت رغبة النساء فيه،

ويمكث زمناً طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف . فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء إن فعل ذلك ، كأن مطلقها يريد أن تبقى أيما الى الممات رغبة في نكالها وإساءتها ان طلقها كارهاً لها . وأما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لا كثاره من الحلف به عند أدنى الاسباب ، وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حنقه وغيرته عليها ، وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم . وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئاً من ذلك فانهم ينفقون مالا لبداً على مطلقاتهم وأولادهم منها ، وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم ، فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا أرادوا ، بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة » وأما مايقع من سفلة الناس فلا يصح أن يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) لم تنسخ بالاجماع . فاذاً يلزم العمل بمدلولها مادام الكتاب

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن فتربى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم ، وكثيراً ما رأينا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديدات ، ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع حتى إنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا إرادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لا يمكننا الا أن نقول كما هو الواقع إن انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجاته . فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء

في أن كلا قد ارتكب ماحرمته الشرائع ونهت عنه نهياً شديداً ، خصوصاً وإن مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب . فان المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين ، بل ثلاثا ، بل خمساً ، بل عشراً لايقربها الزوج خشية أن تغضب عليه (من يميل اليها ميلا شديداً) وهي مع ذلك لاتستطيع أن تطلب منه أن يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه ، فتضطر الى فعل ما لايليق . وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم ، بل وأبيهم أيضاً موجودة عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة في إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي ، وتطاير شرره في أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من اغنياء وفقراء في حالة التزوج بالمتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيتـه ، بل اتخذوه طريقا لصرف الشهوة واستحصال اللذة لاغير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه . وهذا لاتجيزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم (١) وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال غير اللائقة . ولا يحملونهن على الاضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العـدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة . فهؤلاء الافاضل الاتقياء لالوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً . وهم وإن كانوا عدداً قليلا في كل بلد وأقليم ، لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم ، والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

المقالة السابعة عشرة

خطأ العقلاء (*

(١)

إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جليلة ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع الى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها ، ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ماعلموه — هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والالفاظ من أسماعهم ، فيطلبون من الناس طلباً حاثاً أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم . وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات ،المفكرين أشخاصاً معدودين ، ويظنون أن أفكارهم العاليـة اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ، ووضعت أصولا وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة ، وتتبـدل العادات وتتحول الاخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادي على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر في حـد ذاته وارتفاع الهمة ، وانبعاث الغيرة ، لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث إنهم لم

(* نشرت في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادي الاولى سنة ١٢٩٨ - ٤ ابريل سنة ١٨٨١

يقارنوا بين ماحصلوه ، وبين طبيعة الامة التي يريدون إرشادها ، ولم يختبروا قابلية الاذهان ، واستعدادات الطباع للانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها. ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده ، بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب . وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا أن الأمم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية ، بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية . وليست الامة مثلا إلا مجموع أفرادها : وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد إلا مجموع أحوال هاته الافراد فعلى من يريد كمال أمة بتمامها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده ، وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادىء العلوم تلك الافكار العاليـة التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد أن يجعل شخصاً من الاشخاص على مثـل فكره احتاج الى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادي الفنون السهـلة التحصيل ، ثم يتدرج به شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعـد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ، ثم هو في خلال ذلك محتاج الى أن يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ، وأن يراقب حركاته في أعماله خوفا من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار ، أو المائلين الى الكسالة والبطالة، أو ورود موارد الشهوات، ونحو ذلك من الملاحظات التي لابد منها . فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلا ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله، اختلت التربيـة وذهبت الاتعاب سـدى ، واستحال صـيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا إن الذي تمـكن في العقل أزمانا لايفارقه إلا في أزمان ، فلابد لصاحب الفكر أن يجتهد أولا في إزالة الشبه التي

تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ، وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ، ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرقى منه ، وبعضها خطابي ، والآخر برهاني ، وما شابه ذلك - فان لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جرّه نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد . ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا يخالط في خلال تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم . فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم ينجع فيه الارشاد . وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره مع أنه يسهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصافه ، ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه . فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتتباين شعوبها ؟ فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكلية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد اليه سبيلا

وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها ، لا تبعد منها بالمرة . فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون — أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلفوا من العمل ما لم يعهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يعودوه ، رأيتهم يتخبطون في السير لخفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن يمرّ على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى ، لكن الى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها

ومجالسها ، وما شا كل ذلك . ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخاب ، وإنما رؤساء الجمهوريات ، وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة ، لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلا ، حال كونها على ما نعهد من الخشونة ، فانه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لايرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ، ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أو نسيباً أو قريباً ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لاينتهي الانتخاب إلى المرغوب أصلا ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول . ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة ، لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع الهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية مصالحها لايمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة ، وإلا فسدت . فاذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السكاية ، حتى ينشأ في البلاد مايسمى بالرأي العمومي ، فعند ذلك يحسن لها مايحسن لأمريكا

وياعجباً هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ، ومرن عليها من مهده إلى كهولته ، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره ، يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلقى اليه زمام مصلحته ؟ وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا لخطأ ظاهر

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا — وهي هي — كبلاد أوربا — وهي هي — لاينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ،

فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم ، وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه ، فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ، ولا اجهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

المقالة الثامنة عشرة

كلام في خطأ العقلاء

(٢)

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة ، تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الأمم المتمدنة ، وجعلوا الوسيلة الى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد ، وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم ، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية ، وتشبهنا بهم في الأطوار ، كاف في أن نكون مثلهم ، وأن استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الأمم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتقدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد ، بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية ، مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ، ومقاساة مشاق ، وسفك دماء شريفة ، وثل عروش ملك رفيعة ، وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ، ويبعدون عنه أخرى ، كما يرشدنا اليه تاريخهم ، حتى بدلت الحوادث الدهرية

*) نشرت في العدد ١٠٨٢

طبائع الأهالي ، وغيرت أخلاقهم ، ونبهت الضرورات أفكارهم ، وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم

إن بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا: علمتهم الحروب الصليبية سير البر والبحر ، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالا وطمحت أنظارهم لمغالبتهم ، فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ ذاك) وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة ، وفيما بينهم أفكار سامية ، ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً ، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية . ولذلك كان الغنى والعز مستوكراً أقطارهم ، فأخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقليدهم ، لا في البهارج والزخارف ، بل في أسبابها والموصلات اليها ، وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب ، فكان ذلك أساساً للعمل ، وقر في النفوس ، وثبت في العقول ، وبنوا عليه ماشاؤا

ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوربي لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد ، وهو إحساس نفوس الأهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب ، ونفرة دينية(١) على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس . وهذا الاحساس هو الذي دعا الأنفس الكثيرة العدد إلى الخروج من هذه الآلام ، فطلبوا لذلك أسبابا متنوعة ، أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب ، وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف له الجمعيات ، فكان جرثومة تقدمهم أمراً منبثاً فى غالب الأفراد ، ومحرزاً في أغلب العقول ، وهو نشاط الأهالي في اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ، ورفضهم لتلك التقييدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ، ثم تدرجوا فيه ، ينتقلون من حال الى

«١» النفرة بالضم من نفر «كضرب» نفراً و «كقعد» نفوراً يتعدى بعن اذا كان بمعنى الاعراض والانقباض كنفرت المرأة من زوجها والاسم النفار — وبالى اذا كان بمعنى النهوض الى الزحف للقتال . فقوله النفرة على المسلمين اما اصله من المسلمين او محرف في الطبع عن النعرة بالعين المهملة وهي بضم النون وبالفتح ما للعجب والكبرياء فى النفس من الشعور

حال-والأصل ثابت لا يتغير- حتى عم التغير جميع العوائد والمشارب والقوانين . ولم يكن ذلك كله الا من حرص الأهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها فى كل لحظة من حياتهم ، ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والاهالي على غير علم منها بأنفسهم، فاستلفتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختياراً أو ألجأتهم اليه اضطراراً وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها أشخاص مختلفون في الافكار والأحوال إلى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذى يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه، بل جلبوا اليهم كثيراً من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية ، وترى عليهم آثار النعمة ، يتكلمون بما لا يفهم ، ويتفكرون فيما لا يعقل ، فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة ، وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ماراق منظره ، وطاب مخبره ، لكننا لم نشهد مصنعه ، ولم ندر منبعه ، ورأيناهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ، ويتنافسون فيها ، فأعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم ، والحقوا بهم في هذه السعادة ، ثم صاروا أئمة لنا في العمل ، فأخذنا نتشبه بهم ، لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا

ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائما عند مايجد فرصة الاقتدار موجهة إلى تشييد الأبنية وتجويد وضعها ، وإتقان ترتيبها وتزيين بواطنها وظواهرها ، والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها ،والتفنن فيها ، وجلب ما هو أغلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس ، والتأنق في الملابس ومحاذاة الأوربيين فيها ، ومحاولة ان تكون على النمط الأعلى عندهم ، وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه ، وارتفعت عن الطاقة قيمه ، وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد

وتملك الحصون ، وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم ، فأسرفنا في الانفاق ، وصار الناظر لملابسنا ومساكننا والذائق لمطاعمنا ومشاربنا ، يشهد بأننا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن ، أي ما ينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع باللذائذ وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الأمر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الأوزة تبيض بيضا كبيراً فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ما انشق ، وتمزق منها ما تمزق ، فان افراطنا في تقليد الأوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الأغنياء منا فعلا غريبا صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم ، وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتنشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الأمنة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الأمم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع انهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير ، وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل أن يجدوا عقلا يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفهية إلى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسنا وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ، ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات ، أبقيناها على بساطتها ، وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد اليها الأيدي ، وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ، ورتبنا في مدار كنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ

علينا ماوجدنا ، وتجذب الينا مافقدنا ، وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ، ورفق بالملهوفين ، وغيرة على البلاد ، وأنفة عن الصغار

لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب الخائف ، أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل ، وكانت معيشتنا البسيطة أوقع فى نفسه من معيشته الرفيعة ، وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقي والتقدم ساروا بنا من البدايات ، وحجبونا عن النهايات ، حتى لانراها إلا من أنفسنا فنطلبها لا لأنها أعجبت النظر ، ولكن لأنها بنت الفكر ونتيجته ، وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين فى أصول أعمالهم ، لافى زوائدها ، فكنا بذلك نصل الى ماوصلوا اليه فى زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه مانالوا ، لكن مافات الوقت ونحن الآن فيه ، فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الأمل

المقالة التاسعة عشرة

كلام فى خطأ العقلاء (*

(٣)

لسنا ننكر ان بلادنا كانت فى الأزمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين لا يعلمون للخلقة غاية إلا وجودهم الشريف ، وكانوا يعدون أفراد الأهالي انعاماً خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحوا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سداً حصينا بين كل شخص ومنافعه ، فاستأثروا بجميع ثمرات الأعمال ، فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله ، فانه عندما تبدو الثمرة يسرع حاكمه إلى قطفها ، وكانت حياته معقودة بغضب ذلك الحاكم ورضاه ، فان رضي عنه فهو في أمن عليها ، وان غضب عليه فهو

*) نشرت في العدد ١٠٩٢ الصادر فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨١

ان عاش كمريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة ، فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لأحد من الأهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة ، بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم ، وكان يعتقد أنه وما ملكت يداه حل للآمر عليه ، وليس لتصرف ذلك الآمر حد يجب ان ينتهي اليه ، وهذه حالة يصعد بها تاريخ هذه البلاد أجيالا كثيرة إذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لانصل ، وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنيت الارادة ، ومات الاختيار ، وطفىء نور الفكر بالمرة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الأعمال والأقوال الشخصية ، حتى كانوا من شدة التضييق ، يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو : أن يهجم رجال الضابطة على بعض الأماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق ، كفحش بالنساء ، أو شرب للمسكرات وما شاكل هذا ، فان وجدوا شيئاً من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقابا أليما . وكذلك وضعوا في الأفواه لجاماً من الرهبة ، فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي ، أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة ، أو طعن في حاكم ، وله عند ذلك الويل الذي لامخلص منه ، كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا أن ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها ، فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأمم المتمدنة ، وطالعوا أحوالها ، ورأوا ما عليه أهلوها من إطلاق الارادة وحرية الاختيار ، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة ، لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا (ما أقبحها من إباحة) لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بارادته ، ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره ، وشرطوا في ذلك شرطاً (ما أنفسه من شرط) وهو أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه ، فان كانت كذلك فدونها ضرب

الرقاب ، أو سكن الحبوس ، أو الجلاء عن الأوطان ، وسموا تلك الاباحة حرية ، ونادوا بها على الألسنة الظالمة ، فكان حاصل تلك الحرية أن لاجناح على من ارتكب أي جريمة ، وتطبع بأي خلق ، حسناً كان أو سيئاً ، وذهب الى اي مذهب ، صحيحاً كان أو فاسداً ، وإنما عليه أن يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوبا ، أو يستقضي منه مسلوبا أيا كان ، فلم يجعلوا للسلطة حدّاً معيناً ، وهو الذي نسميه بالقانون ، الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده ، بل أبقوها علي ما كانت عليه ، وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد ، فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في إطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة ، فهذا خطأ من وجه إن كان لهم مقصد إصلاح ، وظلم إن كانوا متعمدين هذا التقييد ،

ثم إنهم قلدوها في الأحوال الجزئية الشخصية ، مع علمهم أن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها ، فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات ، وهتكوا حرمة الوقار ، وتهالكوا على شرب المسكرات في بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه إلا الأوربيون في بلادهم الباردة ، وكثرت لذلك الخانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والأبدان ، ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب ، وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات ، واتسع الأمر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع ، وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يبتغين ، وافتضحت بذلك بيوت شريفة ، وكلما طلبت لذلك منعاً ، أو رمت له دفعاً . قال المولع : هـذه حرية ، فضاع شأن الآداب ، وانحطت قيمة الشرف والوقار ، حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الأحوال الرديئة ، ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعا خاصاً) وكاد فساد الأخلاق يسري الى كثير من طبقات الأهالي — هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات

والمشارب الدينية ، فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه . فان قيل له : خفض من صوتك ، وأجمل في قولك ، فما كل الناس برضاه ، قال : إننا في زمان الحرية . على أن أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادىء ربما يقال إنه اتخذها مشربا ، بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير ، والتجأ الى التهوّس ، ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافقه على مشربه الفاسد . ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ، ذريعة لاستباحة القبائح ، واستحلال المحظورات . ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعياذ بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ! ومنهم من ينكر النبوات ، ويعتقد بالشياطين ! وما أشبه ذلك . فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلوهم فيه حيوان فضلا عن إنسان .

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً يحمد . وإن كان الأوروباويون يحرصون عليها ، فان استعداد بلادنا لم يكن ملائما لمثل هذا الاطلاق ، الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد . فان الجاهل الذي لم يتعود على تصريف إرادته وأعمال اختياره إذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية . نعم إنه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء(١) ولكن شهواته الخبيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل ، وجميع أنواع الشرور ، وتودعه سجن الفقر ، وتغله بطوق الذل والعار . ويا ليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية . فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص زاجر من نفسه ، فترتفع الكبسة بذاتها ، ويذهب الناس أحراراً بطبعهم ، وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل . وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها فتلك الحرية التي سموها إطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل

«١» المراد بالضابطة شرطة الحكومة وبالجزاء عقوبتها

وأسلمته الى الجهل الأعمى ، فهو يتصرف به كيف مايقتضي من المضرات ، ولو أنه بقي تحت سيادة العقل ، يسوسه المهذبون ، ويقوده المتبصرون ، حتى يعلم من أين تؤتى الأفكار ، وبأي الوسائل يوفى العقل حظوظه الحقيقية ـ لكان ذلك خيراً وأبقى ، ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين ، وتعيين دائرة منتظمة ، يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول ، فتضرب لنفسها حدّاً تقف عنده ، ولكننا طلبنا أن نكون على مثال الأوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وياليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الأزمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة ، حيث بدأوا بالمجالس البلدية ، فكان يمكنهم أن يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من إدراكاتهم ، ثم يفوض الى أهل كل بلد أن تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ، ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ، ويذهب أشخاص من العارفين الى القري والمدن ، ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ، ويدربوهم على كيفية العمل به ، ثم لايزالوا على المراقبة أزماناً ، فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الأهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم ، فتنمو فيهم القوة ، وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ، ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الأهالي ليعلموه فيقفوا عند حده وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لايفهمها إلا الراسخون في العلم ، وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النبهاء ، لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعوا هذه القوانين لهم غير عالمين بها ، فكيف يطلب منهم أن يعملوا بمقتضاها ؟ (إن هذا لشيء عجاب) ! غير أن العقلاء منا يقولون : لابد أن نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لأحكام بقعتنا ، وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ، ولن يكون ذلك أبداً

وأننا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الأعمى، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا ، وأن يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضاً فلا يفيد ، لكن الوقت لم يفت بعد ، فعلى من يريد بنا خيراً أن يذهب بنا طريقاً قويماً ، ولا أراه الا نشر القوانين (وإن كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا ، وما لا يدرك كله لا يترك كله) (١) إنما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد ، فان قارئيها قليل، ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد ، فان كثيراً منهم قلما يفهم اذا قرأ ، ولكن لابد من تشكيل جمعيات في القري والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والاضاعت الحقوق ، وكثرت المشاكل ، وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراآت المضرة بالحكومة والاهالي معاً . ثم وضع حدود قويمة للأعمال الشخصية والأخلاق والتصرفات ، فان إصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد ، وبدونه لايمكن إصلاح شيء من أمورها ، وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر في جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها ، فعليهم إن كانوا صادقين فى الوطنية أن يبذلوا الجهد في طلب ذلك ، والقيام بما يلزم ، وإلا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

«١» المنقول المحفوظ : مالا يدرك كله ، لا يترك قله .

المقالة العشرون

ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية (*

عرض الى نظارة الأوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ ذي القعدة ما مفاده: أن مجلس ذكر السعدية الذي ينعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لا يذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما في ذلك من تشويش الأسماع، نبهنا عليه مراراً بابطال هذه العادة وأن يذكروا الله ذكراً مجرداً عن الطبل فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة، وحيث إن الزائرين لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون: إنها من المحرمات شرعاً، ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الأمر بابطاله، فكتب من نظارة الأوقاف العمومية الى حضرة فضيلتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه:

قد تبين من إفادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ماذكر نهاه وحيث إن النظر في ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لافادة الحكم الشرعي فيها.

فوردت إفادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لا يسوغ شرعا فعلى ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه، ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية رقيمه أن ذلك ليس مختصاً بالباز، بل هو عام في كل ما أوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله في المسجد اذا ترتب عليه التشويش. وكذلك كل ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن في المساجد المحترمة.

---

*) نشرت في العدد ٩٥٨ الصادر في ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٧

فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه ، وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونبهت عليهم بالاطلاع عليه ، وفهم ماأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه ، وأخذت التعهدات القوية على خدمة المساجد وأم المراقبة والتيقظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين ، أو اخلالا بحرمة المساجد اتباعا لنصوص الشريعة الغراء اه

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة ، وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة ، إذ وجه أولوا الامر مناظرهم الى تخفيض شأن البدع وإزالتها . فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسيء الافعال . ونثني كل الثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لاتأخذه في الحق لومةلائم ، ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين . فلقد نسمع بعضاً من الجهلة بل عدداًوافراًمنهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آبائنا ، وأخذ العهود علينا باتباعها أشياخنا ، وطبعت على حبها قلوبنا ، وتمرنت على القيام بها أعضاؤنا . فكيف يصح أن يحكم علينا بتركها، إن هذا لشيء عجاب : تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين يهدرون دم الشريعة طوعا لأغراضهم وتنفيذاً لأحكام عاداتهم ولبئس ماكانوا يصنعون، ويأبى الله الا أن يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لاتغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف أن المنع خاص بالباز وطريقة السعدية ، أو بالطبل على العموم ، بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أو اخلالا بحرمة مسجد ، فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً وافتراء) ومن شعائر أبناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة ، بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً ، وبعضها مستدير (يعرف بالطار) الا أنه كبير

ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان ، ولا يجتمعون للذكر الا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت . فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة يجأرون بألفاظ لامدلول لها ، وعند مايشتد خمر الاوهام في عقولهم يهيمون هيام المعاتيه، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ، ويأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه ويلامس بها بدنه إظهاراً للكرامة وحاشا أن تكون — من الكرامة — كل ذلك مع حركات شديدة واختباط غريب . ومن عاداتهم أن يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده ، فيجتمع عليهم الناس ، ويزدحم المتفرجون ، ويشوشون أذهان الزائرين . وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجريها الجهلة في بيوت الله المعظمة ، ولا يخرجه من حكم المنع أيضاً مايفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وإن لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب في حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء ، خصوصاً وأنه لايشك عاقل في أن قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها إنما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم في نفس محافلهم الموقرة ، وتهافتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ، ولو كلف أحدهم أن يهتف بذكر الله مرة ، وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ، ولكن يحركه الى هذا الذي يسميه ذكراً حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم أن طاعة شهواتهم هذه طاعة لله نعوذ بالله من الزيغ .

ولا ريب أن علمائنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحا شديداً ويرجون من عدالة الحكومة إزالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ، ويعاب على العقول السليمة أن تقره ،ويشمل حكم المنع أيضاً الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً ، ويجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره . ولا يدع الازدحام مكانا لمصل يصلي فيه ، ولئن وجد المكان

فقلما يستطيع أداء الاركان بدون تشويش فيها . فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلا لمنع كثير من البدع ، وقد فتح به باب من الخير لابد من الوصول الى غايته إن شاء الله وسيسري ذلك من القاهرة الى بلاد الارياف ، فعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن يمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين

(يقول جامع الكتاب) كان الاستاذ رحمه الله يسعى لدى الحكومة بابطال هذه البدع والمنكرات ولطلب الفتاوى التي يعتمد عليها . ثم ينوه بذلك في الجريدة الرسمية ويمدح العاملين

المقالة الحادية والعشرون

تنبيه رسمي (*

بطلان الدوسة

أطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة وللسيد البكري على عنايتهم بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء ، بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم . ومن أفظع تلك البدع بدعة الدوسة ، وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم ، وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعي ، بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بني آدم على سائر الحيوانات مطلقاً . فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع ، وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته

* » نشرت في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

«١» كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر أبطال الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

سبحانه وتعالى فقال : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعدهذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم ، وقدنهت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا (سيادتلو)شيخ الجامع الازهرومفتي الديار المصرية قدوقع لديه هذا الأمر — أعني ابطال الدوسة— موقع الاستحسان لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية ، وكان يتمنى التفات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على إزالتها ، ولما عاد الجناب الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بيّن حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كاهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لايؤمن أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة فترض عضواً يابساً أوتبتك عضواً رخواً ويكون فيه تلف المصاب ، وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب ، فأمره الجناب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليبينوا ذلك للعامة ، حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة ، وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين ، وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر ،ويوقفوهم على ان أمثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على ان أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر ، وهي مرة واحدة ، فكيف تبدل الزجاج بالانسان ،وصارت عادة مستمرة؟ نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الأعلام أيدهم الله ،فانهم متضلعون من الأدلة النقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهانهم خصوصاً ، وان الدوسة وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى انها من الكرامات فهي باطلة عندأهل السنة والجماعة ، فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لاتصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب إرادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة

ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيّا كان فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الحيل المذمومة ، ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ، ولا يميزون الحسن والقبيح من ان هذه عادة قديمة ، فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لاطائل تحته ، فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع الله او يرومون ان العلماء يتحاشون عن إنكار البدع خوفاً من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ماكاد يذهب بهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعاً لأهواء الأمراء السالفين ، وان العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين ، أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته إلى الاصول الدينية بعين الاحترام ، فلا يخشى العلماء لومة لائم في إنكار المنكر ، وإقرار المعروف ، فليس على الجاهلين بالأصول الشرعية إلا أن يتعلموا خيراً لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء ، وغضب الله ورسوله على كل من خالفها ، فان المصائب لم تصب علينا ، ولم تصل أيدي الغدر والفجور الينا ، إلا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهريا ، ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده القويمة ، بل زادوا فيه أموراً ظنوها منه ، وهي ليست منه في شيء ، وان بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحاً لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئاً فشيئاً حتى يرجع الأمر إلي الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة الراشدين ، هدانا الله للاقتداء بهم ، وسنعود إلى الكلام في أمثال هاته البدع مراراً أخرى ان شاء الله تعالى

المقالة الثانية والعشرون

الدوسة (*

تقدم لنا الكلام على مايتعلق بهذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ماشملنا من الافراح وما عمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي إلى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المنابذة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الاستاذ السيد البكري فاعلن أمره في السنة الاولى من تولية نقابة الأشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كلياً من جميع الموالد والاحتفالات، وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة في العاصمة وجميع مدن القطر وبنادره. فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات، وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات، ورجونا أن يثل عرش كثير ممن أعماهم الجهل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبراً ينبيء بابادة تلك البدعة، او يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المخرفين. إذ سمعنا الآن أن نفراً ممن ألفوا تلك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية، وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه أن الزجاج صف أمام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعتريه اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلا عن أنها

*) نشرت في العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٣ ابريل سنة ١٨٨١

من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ، ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ، ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف ، فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ، ومحافظة على العادات والمشارب .

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا ننتظر ماسيكون من إجابتهم وترددنا بين أن ندحض ماقام بمخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي ، أو نقتصر على ماشرحناه من ذلك في بعض الاعداد السالفة ، ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وما شابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة وبسطاء الادراك ، فلابد وأن يكون طلب تلك الفئة ملائما لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم، ترجح عندنا أن نذكر شيئاً مما يتعلق ببطلانهم دفعا لأوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على إعادة البدع وإن كنا على يقين من أنهم لايجابون لما طلبوه فنقول

اذا صح ماعزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر ، فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل ، وذلك لايفيد إباحة الدوسة بمعنى أن تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقي الاكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ، ولم نتبين من حافره منهاج الصالحين ، ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطؤن بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ، ولكن سوت بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ، ولو توسعنا في تلك الرواية غير الموثوق بها ، وقلنا إن ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ، ولم يلحقهم من ذلك ضرر ، فهذا انما كان (لو وقع) إظهاراً لأمر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ، ولا يستلزم جواز وطيء أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان . فانه لا يكون من باب الكرامات في شيء فضلا عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعريضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها . وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات . فان كان وجودها مخالفاً لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها مايخالفها كانت من المحرمات ووجب نهي فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهي عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم إذاعة النهي عنها وإلا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث إن هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعاً ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف ، سيما وإن عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء ، فهي لهذه الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على إزالتها من صفحة الوجوه وإن أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين ، بل التي طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ماأمكن من الوسائل خشية أن تعتقدها العامة من المعالم الدينية ، ولا يخفى مافي ذلك من المضرات التي توجب اشتباه الحق بالباطل ، والخبيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن إزالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الخالية فليس ناشئاً إلا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة ويأسهم من أن تساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع . فلو طلبوا إذ ذاك إزالتها لم يجدوا سميعاً لدعوتهم ، ولا ظهيراً يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلا عن أن عامة الناس تسلقهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الان وقد رزقنا أميراً يهمه أمر الدين ويسعى مااستطاع في تشييد معالمه وتثبيت أركانه ، فلا غرو اذا رأينا الفضلاء من العلماء والاتقياء من الصلحاء

يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل ، والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضر اتهم هذه الفعال المكافين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم يثابون عليها إثابتهم على الفروض العينية والواجبات . (وقد نشرنا من مدة ماكان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة ، وكفى بهذا إقناعاً للمتعصبين)

فلتعلم اذاً أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسمهم قد أفلت ، واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق ومصابيح الارشاد إلى طرق الدين القويم ، فليريحوا أنفسهم من طلبات لاتعود عليهم إلا بالخيبة والنكال ، وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق . فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة ، فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ، ولا يعبؤن باعمالهم الشعوذية ، ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسراً ، بل متعذراً

ولنا أمل قوي في أن غيرة حضرة السيد البكري وميله إلى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائمه لاتسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس ، بل يحثهم على العدول عن هذا الأمر الذي لايوافق مذاهب السنة ، ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

المقالة الثالثة والعشرون

ماهو الفقر الحقيقي فى البلاد (*

(١)

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة ، وهواؤها ونباتها في غاية الجودة ، يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية ، وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذوو صبر على العمل وجلد على التعب ، فهي من هذا الوجه عالم برأسه ، غنية مثرية ، لاتفنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها ، وأنها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها ، بل أن تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار أخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة والشوكة وان كان من كليات أسبابها ، بل لابد أن ينضم اليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة ، ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي ، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها ، فان ضلت الآراء وساء الاستعمال ، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه ، وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له . وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟ كلا فما فقر البلاد الا قلة الراشدين فيها ، وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا وجدوا ، وهم فقرها اذا فقدوا . قلت : مع الأسف :لا،إنهم قليل ، نخشى اذا انقضي دورهم أو قضى أجلهم أن لا يوجد بدلهم ، والبرهان على ذلك أن الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الأقل أجيالا وأحقابا ، وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا التي أثمرت ثمراً جناه أبناء الأوطان ،

*) نشرت في العدد ١٠٧٣ الصادر في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ — ٢٨ مارس سنة ١٨٨١

ويمتعوا بلذته مع المشقة بدوامه ، هم قليلون جداً ، بل ينحصرون في أوائل مراتب الأعداد ، وأن النفوس الطيبة تعرفهم ، وهم أيضاً يعرفون أنفسهم

الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات أو تسهيل العمل وتخفيف المشقة ، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الانواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة كالكتان والسمسم وغيرهما ، والاقتصار على بعض أصناف قليلة ، والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة ، وأظن هذا لايحتاج الى البيان ، والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصراً ، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائها قليلة جداً ، إن لم تقل مفقودة بالنسبة لبلاد أخر ، ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم إلا قليلا ، إذا أردنا أن نعددهم لانحتاج الى زيادة عن عقد الأصابع ، بل ربما تقف دونها بكثير ، والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية التي هي أساس العمران ، وأداؤها حق الواجب لها على وجه العدل ، وطريق الحق الذي لايخامره الباطل ، اللهم الا خطأ نادراً هم أيضاً كسابقيهم ، نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم ، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان

على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والادارة إن كانوا في هذا الوقت كثيراً ، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم من بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين ، بل إن كانوا وجدوا فبالصدفة والاتفاق ، ثم ينثرهم الزمان ، فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم ، وهيهات أن يأتي هذا التراب بأمثالهم . فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء (إن كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر ، فوجد فيها كنزاً يكفي لنفقته مدة معينة ، فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لأحكام الصدف ، والغالب على حاله أن يموت جوعاً ، فيكون فريسة لذئب أوطعمة لكلاب

والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل إحساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته ، إن لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني ،

وتزيد في إحساس الانسان بمنافعه ومضاره . ولا أتكلم فيها الآن ، فان لي في مقالي هذا مقصداً سواها . فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم ألعوبة ، وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله) — إن جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه ، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال ، والدليل على ذلك أن غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلحقوه ، فهذه منهم شهادة على أن الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل : هل من مانع يحول دون وضع ذلك الأساس أساس المجد والعزة ؟ أعني به أساس التربية الحقة . وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط هممم الأفراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت : لا إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في إغفال مصالحنا وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق في ذلك ، فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجباً من الرعب والخشية ، فان غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة ، واستيفاء الاغراض ، وقضاء الأوطار الذاتية لايمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائهم حتى لايعرفون حقا فيطلبونه ، ولا باطلا فيدفعونه

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر واللوائح ، وما شاكل ذلك ، إلا أنها كانت بدون مسميات ، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازاً بعيداً ، وانما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما ، فلم تكن في تلك الأيام سعة لفاعل خير أن يفعله ، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيري أصبح لا يجد نفسه ولا ماله ، فهذه كانت أعذارنا في الأزمان

السابقة ، ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا ، فكيف الاعتذار ؟

لكنا فى هذه الايام والحمد لله قد أصبحنا في مأمن من هذا . لو تحققت حكومتنا أن لأحدنا كنوز الارض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله ، ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ، ولئن طلب الانفاق جهده في الأعمال الخيرية لجدت هي في مساعدته ، وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ، ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمساً منيرة ، وإن تنشط أقوام من رعيتها الى الاجتماع والتآلف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو إذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الألفة أعمدة ، وتوطد له أركانا ، وتحيط به سوراً منيعاً ، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة والاسكندرية ، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية ، وبالجملة فان الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح ، فليس من جهة الحكومة هذا المانع ، فبطل ذاك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه تحوم عليهم الأفكار وتتوجه نحوهم القلوب ، وتنجذب اليهم النفوس ، ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الأعمال الجليلة ، التي تكون عنواناً لمجدهم ، وسياجا حافظاً لناموسهم ، ورفعة شأنهم ، فتحركهم الغيرة ، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم إلى بعض ، وبذل الزائد من فضلات أموالهم فى سبيل حفظ الشرف فى أبنائهم وأعقابهم على ما هو شأن العقلاء فى سائر أقطار الدنيا

قلت : إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء الله وإن غداً لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار ، وهم المتمتعون بخير البلاد ، وهم الذين ينبغي لهم أن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب ، لأن الأعين الغادرة محملقة اليهم ، طالبة انتزاع ما بأيديهم ، وأن تسلط الدخلاء (٢) عليها ،

«١» جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية «٢» يعني الاجانب

وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها، يضر بأولئك الأغنياء أولا وبالذات ، ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانياً وبالعرض ، بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلا ، فان الأنظار لاترمق الا ذوي الاعتبار فهم منتهى الاطماع

فان سأل سائل: ألا يحب أولئك الأغنياء أن يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم؟ ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم ؟ ألا يعلمون أن الزمان قد انقلب وضعه ، وتغير طبعه ، فصارت السلطة الخشنية لادوام لها ، وأن الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ، ولا لتحصيل ما فقدناه . أو لم ينظروا الى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلباً لاختلاس أرواحهم من أبدانهم ؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ، ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة؟ ألا يعقلون أن التغالب فى هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الأفكار والآراء ؟ فالامة ذات البسطة فى الأفكار ، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطاناً ، والأقوم سياسة ، وهي الغالبة على سواها من الأمم . أفلم يبصروا أنه لامعنى لشدة البأس في أيامنا هذه ؟ ألا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء؟ ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لنيل أعلى مراقي المجد في أوطانه ؟ ثم اندفع الينا لاندري ماذا يريد أن يصنع بنا ؟ فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون أنهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر؟

قلنا : بلى أن اختلاطنا بالأمم الاوربية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة ، وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة ، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم ، كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لاتتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار ، وطلب ماعلموه صلاحا بالفعل دون القول ، كل واحد منهم يطلب الخير ، ولكن لايحب أن يكون

البادىء به ، بل يريد أن يبدأ الغير ، ثم هو يتبعه ، فان كانوا كذلك فلا بادىء ولا تابع ، وكأني بهم على احدى حالتين اما أن جميع الحوادث التي مرت على رءوسهم لم تكسبهم معرفة ، ولم تحرك فيهم غيرة ، فذلك غاية الجهل نعوذ بالله واننا ننزههم عنه ، واما انهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء ، فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الأماني صادراً من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها ، فيعز عليهم منالها . يروم كثير من الناس خصوصاً من ذوي الاقتدار أن يكون ميزان العدل منتصباً لا يميل حبة ولا مثقالا ، ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم ، وان لا يكافوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ، يودون أن تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها لكن على شرط أن لا يكون لهم فيها مدخل لا ببذل نقد ولا تجشم عمل ، ويرغبون أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ، ومراعاة المصلحة العامة ، لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة ، ولم يخطر بباله ماهي المصلحة العمومية ، ولم يجد من نفسه إحساساً بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين ، وبالجملة فطالب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله ، بل يحب ان يأتيه الاصلاح ساعياً اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها ان تخلق خلقاً جديداً ، مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى أفراد الأمة ونبلاؤها في جمع الكلمة وبذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الأيدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يتألفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك ، وتنمو روح الحق والصلاح ، وتتهذب النفوس ويشتد الاحساس بالمنافع والمضار ، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من

الأمم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة ، لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا ، وعلى الحكومة في جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم ، وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين

أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوربية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزارعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات وبعضها أكثر وبعضها أقل ، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون ، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى ابناؤها بحلاها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الاصلاح بأموالهم وأنفسهم وأنشأوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف

ان شأن الحكومة ليس الا أن تطلق للناس عنان العمل فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيراً لها ، فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها إلا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة ، فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهمه أمر مصلحته ، وبقاء شرفه وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة مالا يطلبه هو لنفسه من نفسه

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الاغنياء الذين يتكلمون كثيراً فيقولون : لو ياليت : لوما كان : وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بأنفسهم لهواً وفخاراً كاذباً ، ولا يبذلون درهماً أو ان بذلوا فشيء يسير جداً يقدر عليه أفقر الناس في المطلوب الذي يعدونه عظيما

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم ، فان صدر منه بطريق الصدفة لا عن مقصد ، فلابد له من الخبط فيظلم ، وان غناه فقر ، فانه أتى من البخت الاتفاقي ولابد يوما ان يختل سيره فيفتقر ، وان كمال الجاهل نقص ، فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم يهدم

فقر الجهول بلا علم إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح ويعرفون خير

أنفسهم وبلادهم ، بل ولا يصدقهم أحد أبداً إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل فحينئذ نعترف لهم بكل مايدعون ، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون ، أما الكلام فقد شبعت منه الآذان وأفعمت به القلوب والسلام

المقالة الرابعة والعشرون

وضع الشيء في غير محله(*)

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أو عدم الاكتراث بما يترتب عليه من المضار ، واننا نذكر من أمثاله بعض الأوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمتها، وأرشدنا بالفطرة إلى فائدتها ، ثم أقام لنا من الحوادث برهاناً على المضار التي تأتي من سوء التصرف فيها ، والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ، ذلك لان تكون هذه المنحة عدة لصاحبها ، وآلة للوقوف على مخبآت الامور ، والوصول من المقدمات الى النتائج ، ومن المشهودات الى ماوراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ماشاء الله أن يحرز ، ويحذر من المضرات ماربما يكون خبيئاً له في ضمن مايتصوره نافعاً فيعيش بهذا النور سعيداً يعلم الخير فيقتنيه ، ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الأسف ان كثيراً من أرباب هذه المنح مع احساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة القريحة) ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضاً ، فترى البعض من أولئك الأذكياء يعمل فكره ، ويقلب نظره ، ليدبر حيلة في استمالة غيداء ، واستعطاف هيفاء ، أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قدّ يهزأ بالأسل ، وأعين غنية عن الكحل بالكحل ، ويبذل هذا الجوهر النفيس في منافسة الأنداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين

(*) نشرت في العدد ١١٠٥ الصادر في ١ جمادى الثاني سنة ١٢٩٨ - ٧ مايو ١٨٨١

طالبيه ، وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر ، كما يشهد بذلك المجربون ، غير ان هذه الأمور مع دقتها لاداعي اليها ، والاتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها، وهي معلومة بخجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك

وزيادة عن الاتعاب التي هي خسارة محضة لاربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عاليّ القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه ،وهو في غفلة عنه بهذا اللهو ، بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه ، فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه ، فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لاتعود اليه قاطبة . هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت إلى ماضيه فيجده خالياً من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ، ويعدها العقلاء منفعة أو شرفا حقيقياً ، ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه ، فيتقلب على جمر الاسف خصوصاً اذا طرقه الزمان بمطرقة المصائب ، فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه، ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أوهنها في أعمال باطلة الى ماأعدت له من الاعمال الحقيقية . فاذا طلب لنفسه بعد ذلك مايطلب العقلاء من أسباب السعادة رأي تلك القريحة قد صدأت ، والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة ، فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه ليخلص من ظلماتها المكدرة . وكأنه لايستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ، ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل مايكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك مافاته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ، ويرشد مع الراشدين

خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء ، أو موظفي الحكومة ، أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكانتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجد ، وأقربهم الى الحق ، وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعته ، والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ، ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرهما . فهذا الوجدان منه يبعثه على أن يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف

الاحوال وتقلب الهيآت وهو الكمال الادراكي ، والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك . فهذا هو الأمر الثابت الذي يمكن للانسان أن ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت ، بخلاف من يفوته هذا الكمال . فان أمره موكول الى اختلال الاحوال وفسادها ، فما دام النظام مختلا ، والعدل ضائعاً ، والحق مستوراً ، فهو يؤمل التقدم وعلو المنزلة ، فان لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام ، وأخذ في التصرف بالعدل ، اصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال ، وأهدر شأنه وعد في الآحاد السافلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضوعها ، وبقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القوة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعياً في إطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخدرة من أنواع الخمور والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك . فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه ، وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه . فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات ، فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه . فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سراً ، أو يفهم خطاباً أو يرد جوابا ، فليعلم أن ذلك ماهو إلا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة ببدنه المعتل ، وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف مايجده من نفسه بكثير ، وإن الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلا فجعله نزراً قليلا

خصوصاً وان الانهماك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب ممايستدعى زيادة للسهر بالليل ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوخامة بالنهار ، ويقتضي تماديا في الملاهي والهذر ، ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ، ويستلزم رفع الحجاب عن السر ، وكشف ستار الحياء ، وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ، ويستوي فيه الضار والنافع ، فيختلط به الأمر ، ويكتسب صاحبه ذكراً سيئاً بما يفعل من الامور الخسيسة التي لايشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكرة ، ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى

حد يهدم الشرف ، ويحط من القدر ، حتى عند أدنياء الناس وأخسائهم، وذلك أن يفرغ مابقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الحاضرين وحركة تطرب الناظرين ، وبدل أن يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الاذهان ، وتنوير الافكار بما يبتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة يخيل حال عالم أوصفة فاضل ، ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة ، فيعجب ذلك جلساءه ، لكنه يغضب ذمته وسريرته ، ولا يرضى به مابقي من عقله

فان تمادى به هذا الحال أزمانا حتى عرفته العامة ، ووقف عليه الخاصة ونظر اليه بعين الازدراء ،من الفضلاء والعقلاء (وإن بقي مبجلا في أعين أصحابه فهذا لاينفعه بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه . فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته ، وانقلبت فطرته، وعميت بصيرته ، حتى لايدرك هذا الذي نقول أيضاً، فبئست الحال حاله، فعلى حكومة البلاد أن تقتفي أثره ، وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانونا صعباً يخيف القلوب وإن لم تكن واعية ، ويزعج الخواطر وإن لم تكن حاضرة، ويؤثر في العقول وإن لم تكن سليمة، وإلا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة، فانها لاتلبث أن تسري فيما بين العامة

المقالة الخامسة والعشرون

الكتب العلمية وغيرها (*)

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارىء التربية وعوارضها . وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء ، وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ، ومحافلهم الخصوصية والعمومية

(*) نشرت في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادي الثانية سنة ١٢٩٨ - ١١ مايو سنة ١٨٨١

فمنها الـكتب النقلية الدينية وهي مابين فيها مسائل الدين سواء كانت من الاصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبادات والمعاملات . ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث ، وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعدالدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي ، وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عدداً كثيراً نبغ منهم الافاضل والاماثل وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

(ومنها)الكتب العقليـة الحكميـة وهي مايبحث فيها عن الحقائق الوجودية، وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية . وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا الانزر يسير من فروعه كبعض كتب في الطبيعـة والكيمياء والطب والرياضة غـير صحيحة العبارات والـكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها ، إما بالنسخ وإما بالطبع الاجنبي ، ولا تشترى إلا بالثمن الجسيم

(ومنها) الكتب الادبية ، وهي مايبحث فيها عن تنوير الافكار ،وتهذيب الأخلاق . ومن هذا القبيل كتب التاريخ ، وكتب الاخلاق العقلية ، وكتب الرومانيات ، وهي المخترعة لمقصد جليـل كتعليم الادب وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، ككتاب كليلة ،ودمنة ، وفاكهة الخلفا ، والمرزبان ، والتليماك ، والقصة التي تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات . وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ، ويكثر في أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته ، العاكفين على مطالعته

(ومنها)كتب الاكاذيب الصرفة وهي مايذكر فيهـا تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة . ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عبس ، وابراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الـكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها،ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى

الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم فى ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لامناسبة بينها وبين مازعموه ناشئا عنها ، وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف . ومن هذا القبيل مايعرف عند الناس بعلم الروحاني وعلم الكيميا (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايرجات وذلك ككتاب أبو معشر ، والكواكب السيارة ، وشمس المعارف الكبرى والصغرى ، وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهتية وشرحها والخلخلوتية وشرحها ، والجلجلوتية وشرحها ، ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها ، وكتب المنادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض ، وعقد الرجل عن الجماع وإرسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لايحصيه القلم . وهذا القسم قد اشتغل به فى ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا مايخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان ،

واذا تمهدت هذه المقدمات فنقول :

قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الأوامر بأن لايطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحجر في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس إلا ، وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الأخيرين (هما كتب الاكاذيب الصرفة ، وكتب الخرافات) على أنهما ليسا مما يخل بالدين ، ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر ، واشتغل بمطالعتها كثير من الأهلين ، فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد أمامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشيب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل ، ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات فى تأخر البلاد وبقائها في حفر

الهمجية والاخشيشان . ولهذا قد وجهت الحكومة السنية عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال ، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول ، المخلة بالآداب ، وهي كتب القسمين الأخيرين . فمن الآن فصاعدا لايرخص لأية مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئاً ، ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء . وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن ، فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر أن يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة . فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (أبو زيد) وما معها من الكتب كعنتر عبس وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ المسعودي وتاريخ (إظهار أنوار الجليل)لحضرة رفاعة بك ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ، وتاريخ الدولة العلية ، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد الاهرام والقصة التي طبعت في مطبعة العصر الجديد ، وهي المعنونة بالانتقام ، وغيرها من بقية الرومانيات العربية الأصل ككتاب (كليلة ودمنة) وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات ، وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالريحاني أوغيرها من كتب الوفق والتنجيم أن يقلع عنها ، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة ، وإلا فأي فائدة عادت الى من صرف نقوده وأباد بصره وأراق ماء وجهه فى طلب الكيميا الكاذبة ، وهو لم ينظر منها مايجعله عوضاً لهذه المصاريف وتلك المشقات . وأي عائدة رجعت على من حفظ العزائم ، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين ، وأتعب عقله وبدنه فى الخلوة لاستخدام العفاريت ؟ إنا لم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة ، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ، ويعدون مع المحتالين ، وأن العاقل لايرضى لنفسه أن يشار اليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ، ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين . وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية ، ويتباعد عنها على قدر الامكان وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ، ككتب الديانة المطهرة ، وكتب

الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق ، وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية ، فانها أنفع للنفس ، ويرى المشتغل بها فائدتها فى أقرب زمن على أسهل وجه بدون أن يلحقه جزء من مائةمن تلك المشقات ، ولا أن يلتجىء إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد

وفى ظني أن كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان ، فان كل واحد منهم يذهب الى ماذهبنا اليه ، ويرى مارأيناه .

وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال ، ثم نأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ، ونبين تأثيرها في النفوس ، ودرجتها عند أهل المدن والأرياف ، ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة ، وبالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد إن شاء الله

المقالة السادسة والعشرون

اختلاف القوانين باختلاف أحوال الامم (*

﴿ عدنا إلى الكلام في القانون حسبما وعدنا ﴾

إن المبدع الأول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به ، وربط إحداهما بالاخرى ، فجعل كمال الاولى متوقفاً على كمال الثانيـة ، فصار الانسان مفطوراً على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل أن يباشر عملا ما ، فان العمل لا يقصد إلا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته ، وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتقد بها ، بل لا بد أن يكون على نهج مخصوص — ولا جرم أن تصور النتيجة ، ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر ، فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه ، وكانت الفائدة أعظم ، والغاية أكمل

ومن هذا صار كل إنسان حريصاً على استكمال النظريات أولا وبالذات

*) نشرت في العدد ١١٤٢ الصادر في ٢٢ رجب سنة ١٢٩٨ - ١٩ يونيه سنة ١٨٨١

ليهتدي بها الى مناهج أعماله التي يقارفها للحصول على كمال حياته ، ويميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بإزاء كل واحدة منها عملا مخصوصاً ، مرتباً على وجه معلوم ، أقرب فائدة ، وأسهل تناولا ، وأحكم وضعاً

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ، ويضبط بها طرق الأعمال الموصلة الى تلك الفوائد ، حتى لا يخبط في سيره ، ولا يختلط عليه النافع والضار ، فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث إن أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول ، فهي انما تتخذ لأعمالها حدوداً ، وتختار لأوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر ، بحيث لا تخرج وقتاً من الأوقات عما تسنه سجيتها من التقاليد والأخلاق ، الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت القوانين مناط ضبط الأعمال لتكون منتجة لجلائل الفوائد ، وهي ثمرة الأعمال النظرية ، وخلاصة الأبحاث الفكرية ، صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان ، واختلفت القوانين باختلاف الأمم في الجهالة والعلم

فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى ، تباينها في درجة العرفان أو تزيد عليها فيه ، لأنه لا يلائم حالة أفكارها ، ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها ، والا لاختل نظامها ، والتبس عليها سبيل الرشد ، وانسد دونها طريق الفهم ، وحسبت الصحيح فاسداً ، والصواب خطأ ، وحرفت الأوضاع ، وبدلت وغيرت ، فيقلب عليها دواء غيرها داء ، وذلك لقصر نظرها ، وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين ، وما هي الداعية لها والحاجة اليها ؟ فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الأول ، متى علمها الانسان حق العلم صار حريصاً عليها ، مقيداً بها ، فلا يخالف مادعت اليه وقضت به . واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها ، فلا تسمح لهم ظروف الأحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات ، فلا لوم عليهم اذا نبذوها ، ويكون تكليفهم بها من قبيل التكاليف بالمحال ، بل الأجدر بهم أن

يعلموا أولا ماهي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية، ويتحدوا معهم فيما يترتب عليها

وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان أن يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم ، حتى لا تكون مبهمة عليهم ، فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها ، وأن يلاحظوا العوائد والأخلاق ملاحظة تامة ، فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف ، فربّ طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ، ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين ، اذا كانت طباعهم سهلة الانقياد ، ونفوسهم شريفة ، وحواسهم سريعة التأثر ، فهؤلاء لايسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقاً على أحوالهم ، فلا يكلفون بالقوانين الصارمة لأنها تضر بهم ، شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص

مثلا اذا فرض أن واحداً ممن وصفناهم فعل مايستوجب العقاب ، وكان السجن بالنسبة اليه أمراً يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على مابها من العزة ولطف الحاسة ألما شديداً ، ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه أن يقال : فلان سجن لجناية كذا ، بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب الذي وقع منه ، فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك ، كالنفي والطرد والأعمال الممتهنة الشاقة ظلما بيناً ، لأن ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ، ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته انقباضاً مستمرّاً ، وحقداً أبدياً ، لعلمهم بخطأ الحكم ، وظلم الحاكم . وليس بعد ذلك الا أن تتقد نيران الفتن ، وتلتهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس ، وتكون عاقبتهم شرّاً ، أو تخمد النفوس وتذل الطباع ، وتنعدم الشهامة من الأفراد ، وبئست العاقبة هذه

وربّ أمة فطرت أفرادها على الغلظة ومجافاة الرقة ، وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة ، ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف . فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم ، ولا يصدهم عن موارد بهتانهم ، الا القوانين الصارمة ، المؤسسة على الجزاآت الشديدة ، فمن الخطأ البين أن يعامل مذنبهم بالسجن مثلا اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقابا . فان الغرض من وضع القوانين انما هو

مجانبة مايخل النظام ، ويبدد هيئة الاجتماع ، ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية ، فاذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض ، فليست الا مجرد تكاليف ألقيت على كواهل الناس ، بل لاتعد الا توسيعاً لدائرة المفاسد واكثاراً للمظالم

وانا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل ، فقد مرّ على أهلها زمن كانوا فيه همجاً لايعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجهل منها وقتئذ ، فكانوا لايعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها ، وصلاحية الأراضي لها ، وكان الملاك لايعرفون قيمة مايمتلكونه منها ، فيودّ الواحد منهم أن لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لايكلف بأداء مافرضته عليه الحكومة من المطالب ، ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكام ، فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفا على نفوسهم من الزراعة ، والأخذ بوسائل الغنى والثروة ، فاضطرت الحكومة وقتئذ أن تلزم الأهالي أمتلاك الأراضي وزراعتها ، ورتبت على المخالفين قوانين صارمة تشتمل على مواد العقاب الشديد ، فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطالب الأميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد ، وراج سوق الكرابيج ، فكنت ترى الأهالي كافة مابين فار من بلده ، ومودع في السجن ، وموجع بالضرب ، وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتتعداها ، واستمرت على هذه الحالة السيئة أمداً طويلا الى أن توطدت نفوسهم على العمل ، وتمهدت لهم طرق الزراعة ، ودخلت في دورجديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها ، وثبتت الأهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحة أراضيهم ، غيرمبالين بمطاليب الحكومة لكونهم ابتدأوا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ، ويتنافسون في حاصلاتها ، فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لزجر الفلاح عن الفرار ، وإهمال الزراعة ، والتقاعد عن الآداء نوعا من التبدل ، ثم تبادلتهم الأيدي الظالمة أمداً ليس بقصير ، ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم ، فسئموا سوء المعاملة ، واشتاقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الأداء ، فساقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لها قانونا عادلا في هذا الشأن دخلت به مصر

في عصر جديد ، وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج ، وبدل جزاء التأخير عن أداء المطاليب بما لا يحط من شرف الانسان ، ورتبت المصالح العامة على قوانين لا تخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغاير القوانين السالفة ، وذلك مرتب على تغاير الحالتين ، وتباين المشربين أولا وآخراً ، فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الأرض من يد مالكها ، لكان احب شيء اليهم هو التأخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك ، وكان هذا الجزاء ثوابا عندهم في الحقيقة لا عقابا ، لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا أن تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة ، فتختار منها مالا يصعب فهمه ، ولا تحتمل عباراته معنيين أو جملة معان ، ولا تكون مواده من قبيل القواعد العمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزاآت لكثير من الجنايات المتباينة ، حتى لا تكون القوانين نفسها ذريعة لأرباب الأغراض الفاسدة ، فيلعبون بالحقوق كما يشاؤن ، مع أن من بأيديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الأمر والواقع ، على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة ، فربما أساؤا الظن بمن يكون بريئاً عن الخطأ والخيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية ، وعدم انكشاف النص منها ، وذلك يؤدي الى حرصهم على استئناف التحقيق أولا وثانياً فيطول الأمر وتتعطل المصالح ، وتزيد النفقات ، وتشتد الضغائن ، وتتسع أبواب المفاسد مع كثرة الوقائع والمشاكل ، كما هو حاصل في بلادنا الآن . فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجملة غير بينة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس ، بل بعضها يعرف بالقانون الهمايوني ، وبعضها يسمى باللوائح ، وبعضها يدعى بتعليمات الحقانية والبعض يقال له قرار الخصوصي ، والبعض الآخر منشور الأحكام ، والبعض

الأمر العالي الصادر في تاريخ كذا ، وهكذا مما لا يحصى عدده ، ولا يمكن لأحد ما حصره ، فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التشتيت) قانوناً يقف العالم عند حدوده ، على أنهم لو علموه لما تصوروه ، لكونه غريباً عن أحوالهم ، بعيداً عن مداركهم

فمن الواجب إصلاح هذا الخلل البين الذي أضاع الحقوق وأضر بالأمن ، ومن اللازم الاسراع به ، وعدم تفويت الوقت وإضاعة الزمن في الاقوال التي لاطائل تحتها ، ويلزم أن تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ، ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح ، تسهيلا لضبط الأحكام وتطبيقاً لها على مقتضى الحال ، وأن تكون منطبقة على حالة الأهالي ودرجة إدراكهم ليمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه ، وإلا كانت حبراً على ورق ، فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق أن المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائما الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع ، بل ان أحوال الأمم بنفسها هو المشرع الحقيقي ، والمرشد الحكيم النطاسي ، وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها ، فلا تخطو الاولى خطوة إلا اذا كان لها من الثانية سائق الى ماخطت اليه ، نعم لا ننكر أن اعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة ، فهي تلزم بها رعاياها كرهاً أو اختياراً لكن على قدر طاقة المحكومين ، فاختلاف هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي في الحقيقة حالة الرعية . فان انتقال حكومة فرنسا مثلا من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولي الحل والعقد فقط ، بل المساعد الاقوى حالة الاهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه إحساساتهم لطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تحول بينهم وبين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة إلا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها إذ بدون ذلك لا يمكن أن تنال الغاية ، ولا يدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت

معرفتها ، والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة ، فربما يقع في وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لأن ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والنظامات القانونية — وليس الأمر ماتوهموه — فيتقهقروا الى الوراء بأن يعمدوا الى جعل التشريع حراً والمشاركة في التأسيس مباحة ، وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ، ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الأمر ، فيفشو فيهم داء الاختلاف ويلحقهم دخل العناد فلا يهتدون إلى الصواب ، ولا يبرمون رأياً ، ولا يبتون حكماً ، ويمضون الزمن فى قيل وقال ، فتفوتهم ثمرة الحزم ، وتضيع مصالحهم ، ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)

وبالجملة فليست هيئة النظام المدني لأمة من الناس سوى صورة للمادة الملكات التي اكتسبتها أفرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة ، وان اختلاف قوانينها فى معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شئونها وهذا ماجعل عقلاء الناس يجتهدون أولا في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند مايريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكماً فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية ، بل يجعلون في نفس القوانين النظامية فصولا وأبواباً تضبط الاخلاق ، وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حداً تقف عنده النفوس في أعمالها ، وتلتزمه الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة ، وتسير الأمة في طريق الاستقامة إلى خير غاية .

المقالة السابعة والعشرون

تأثير التعليم فى الدين والعقيدة (*

من المعلوم الذي لايشتبه فيه أن أرباب المذاهب والاديان على العموم، وإن اختلفت عقائدهم، وتنوعت مشاربهم، يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها وينزلونها من العلو أعلى منزلة، ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال، وفناء الارواح، حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعاً، وبالنار حرقا، وبالحجر رضّا، ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر. فان كل دين يرشد متقلديه الى أن الدنيا فانية، وأن هناك داراً باقية، نعيمها يفوق كل نعيم، وشقاؤها يهون دونه كل شقاء، وكلاهما أبدي لاينقطع، فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أى وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها، والجحيم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها ودحض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته، والهلاك معقود بمخالفتها، وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب، وتثبيتها في النفوس لأحد أمرين

(الاول) سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخونه من أن يسعى في ضرره لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما، فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة فى الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والأمن من المضار، وأن صاحب العقيدة لهذا السبب لايألو جهداً، ولا يؤخر سعياً،

---

*) ونشرت في العدد ١١٨٦ الصادر في ١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ — ٩ أغسطس سنة ١٨٨١

ولا يترك وسيلة توصله الى الاكثار من الموافقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ، ويكونوا له عونا على دفع الأخطار

(الثاني) الشفقة الانسانية ، فان الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية ، وأن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدي ، ويعلم أن بني الانسان كلهم إخوة ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الآخر ، كل هذا يحمله على أن يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة ، فيدعوهم الى أن يكونوا على مثل اعتقاده لينجوا في الناجين ، ويستعمل كل حيلة لانقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرة بهم مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة ، ضاربين في كل أرض ، يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل ، فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ، ومنهم من ينشىء المدارس والمكاتب للتعليم ، وهذا القسم الأخير هو الأكثر عدداً ، والانجح سعياً . فان العقول في سن الصغر ساذجة ، والأذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد اليها من الأفكار ، قابلة للتأثر والانفعال ، بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال ، خصوصاً اذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي ، فمتى وجد الولد صغيراً في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فأيّاً كان آباؤه وأسلافه الأولون لا يحفظ عقائدهم ، ولا هيئات أحوالهم ، بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه أيّاً كانوا ، فان خالفت مذاهبهم مذاهب آبائه وأسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير أحوالهم عليه خصوصاً وقد بينا فيما سبق أن كل ذي دين يميل بالطبيعة الى بث دينه ، وإعلاء كلمة اعتقاده . فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو

رؤساء مذهب ، بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب ، فلا شك أن حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ، ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم ، لافرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب ، وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب ، فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر ، وإما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقيناً لاريب فيه ، بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد يحصل بدون قصد من المعلمين ، بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب ، وانما الغرض منها نشر العلوم ، وبث أنوار التمدن (على مايقولون) كمدارس الفرير الامريكان والانكليز وغيرها . فاننا وان فرضنا أنه لاغرض لهم في إنشائها ، وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط ، لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية ، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتباً خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ، ولا أن يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لايعرفها ، وإن عرفها فربما لايفهمها ، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر ، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتباً توافق مشربه ، ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني ، فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يقرؤنهم ما يوافق مشربهم وهكذا — فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرؤن كتباً واحدة ، توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة ، فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت

مثلا ، فلا شك أن عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ، ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك ، أو فى المكاتب الدينية الاسلامية ، كمكاتب الفقهاء مثلاأو مدرسة الأزهر ، فان المتعلم فيها إن كان صغيراً لاشك تحول عقائده أيا كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه ، فضلا عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر ، وكل هذا لالوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلا ، فانهم لم يعملوا شيئاً الا بحسن النية وصدق القصد ، وليس لهم من غرض سوى إفادة العموم على حسب اعتقادهم

غير أن عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء ، فاذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول ، طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشاً في العموم وقلقاً في الأفكار . ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات : أن أحد أولاد مصطفى افندي المنشاوي ـ واسمه أحمد فهمي ـ كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البرتستانتية ، وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة ، وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم تزل يتحدث بها الناس حتى اليوم ، وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أمريكا ، وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده ، حيث سافر الولد الى جهة لا يعلمها والده ، وهو باق في حسرة فراقه ، يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصاً مع ما يراه فى هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالا

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع ، وقعت فى هذه الأيام ، وهي : أن أحد أولاد حسن افندي الحكيم من رجال الحقانية كان تلميذاً في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ، ثم انتقل منها إلى مدرسة الطب ، غير أن المودّة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة ، وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع ، ولم يعلم أين ذهب ، ولم

يهتد والده الى السبب، حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المتغيب ، يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة ، وبعد البحث والتدقيق علم أنه في مدرسة الفرير في الاسكندرية ، غير أن المسئلة لم تتضح حتى الآن كل الوضوح

فهذا أمر أفزع والده وعائلته ، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم ، غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة ، حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم ، ويقيمون بينهم الأزمنة الطويلة ، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه ، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهوديا ، وسواء كان قبطياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانتياً ، أو غير ذلك من المذاهب أن لا يبعث بأولاده وهم صغار ، لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أو دينه ، ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد أبنائه ، وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومن إلا نفسه

وأما من لا يلتزم اعتقاداً خاصاً ، ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً، فله أن يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة ، إذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها ، فجميعها لديه سواء

وبالجملة فانا نقول : إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ويحرص على بقائه ويحب ذلك لأولاده ونسله - فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة ، وهم في سن الصغر ، فاذا بلغوا رشدهم ، وعقلوا عقائدهم ، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم ، فلا بأس باطلاق سراحهم ، يعاشرون من شاؤا ، ويستفيدون العلم ممن يريدون ، ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته ، العديم الغيرة في حفظها . وسنعود الى هذا الموضوع عند ما يرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة، وما انتهى اليه الامر فيها

المقالة الثامنة والعشرون

بقايا مسئلة تأثير التعليم في العقيدة (*

نوهنا في أحد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته ، وفيما يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب ما يوجهونه ، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجحد إحسانهما اليه بالتربية البدنية ، وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكميل تربيته النفسية ،وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ما أصابه توجه الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه ، فرجع إلى المحروسة في حالة اليأس ، فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لا يخصه بل يعم العائلة بتمامها كما وقع لسابقه ، فحرر تقريراً بذلك وذهب إلى الاسكندرية لهذا الغرض . فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى أن ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيما يفيد أن الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة :

إن نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكره فى أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الوابورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) أنه كان متغيباً جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية . وأنه لما

(*نشرت في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨)

علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الاسلامية، وحضر قاصداً خاله، ولم يكن له علم بان والده بالاسكندرية . ولما قيل له انه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة، وأبان له أنه حريص على دينه المحمدي، وأنه لايرغب عنه ولم يحمله على التغيب إلا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به، ثم ان والده أخذ يلاطفه ويعده بما يميل اليه، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدها من الجهات الاوربية حتى آنس منه الامتثال ؛ وقد حملته الغيرة على أن يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي مانسب اليه إلا أن والده رغب إليّ أن أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير أني كنت أحب أن يكتب إليّ هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره، وأرجو أن يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل، ونؤدي له على ذلك الشكر

ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول : ان عبارة هذا الرقيم فى الحقيقة وافية بكشف الواقع، وأنه لم يخرج عن حد مانوهنا به سابقاً إلا أنا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحاً . فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الآلهية بارضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف، إذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه وبعده ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ فى فكره أو خطر بباله حالة أبويه، وما وصل أمرهما اليه، إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره، كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع إساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان، فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية، بل الحمية الانسانية، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى فى الرتبة تالية للاقرار بربوبيته ووحدانيته إذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا) وقال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وبأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيراً وهو فاقد القدرة والارادة ووالياه بالبر، حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب، واختيار وإرادة في الخير والشر، فقد قرن الله شكر الوالدين

بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب أن هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الأمر على ضدها ، وفقه الله تعالى لحسن الطوية ، وفقه عقله بنور المعرفة ، ليسعي في إرضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه ، على لسان جميع رسله

والأمل بعد هذا أن لا يتغيب عنهما إلا باذنهما سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصاً على برهما ، ثم اننا نعيد انذار الآباء هداهم الله بأن لا يسلكوا بأولادهم فى التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر ، وتشويش البال ، وأن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه . وهذا خصوصاً في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة . على أن ماسبق منا نشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر فى العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان الشخص المعتقد ، واستوى جميع الاعتقادات عنده ، وهذا محال مادام الدين ديناً ، فليتنبه من ينبه ، وليتنبه الآباء ان كانوا يعقلون

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ رحمه الله نبه الغافلين عن مدارس دعاة النصرانية بألطف العبارات وأبعدها عن اثارة تعصبهم وتعصب أنصارهم وتلاميذهم واحتجاج ساستهم وجرائدهم في زمن لم تكن الحرية فيه راسخة فى البلاد ، والصواب أن جميع مدارسهم ومستشفياتهم لم تنشأ الا لأجل نشر دينهم وجذب الناس اليه والمسلمون لايزدادون إلا غفلة وعمي عما يكيد لهم الكائدون ، ولا يزالون يلقون بأفلاذ أكبادهم الى مدارس الدعاية والتبشير فان كان من يتنصر منهم نادراً فمن يخرج ملحداً أومعطلا ليس بنادر ، وكلاهما يكون ممزقا لشمل أمته مقطعاً لروابط ملته وبهما يكون خادماً لأعدائهما من حيث لا يشعر

المقالة التاسعة والعشرون

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكي تاريخ الجنرال غارفيلد رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا . فكان هذا التاريخ شاهداً على ما للرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة ، وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده، ودليلا على ما لبلاد أمريكا من التقدم في المدنية ، حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم به فلا يحول بينه وبين مايؤهله له استعداده وضاعة أصوله ، أو خمول عشيرته ، أو فراغ يده من النقود ، أو حقارة مسكنه ، أو خشونة مأكله ، فجميع هذه الظواهر التي لادخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة ، وقد استفيد من هذا التاريخ أن هذا الرجل لم يصل الى ماوصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ، ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ، ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ، ولاحسن تركيب الخلق ، ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته إلى أوج رفعتهم . وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة ، وسعة المعلومات ، وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد في كسب الفضائل الحقيقية ، واستعمال العقل الانساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين ، وسلوك طرق الرشاد ، واستخدام جميع الوسائل الآلهية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ، ووهب لهم إدراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

*) نشرت في العدد ١٢٢٣ الصادر في ٨ القعدة سنة ١٢٩٨ - ١ اكتوبر سنة ١٨٨١

فأرباب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون أن المناصب وارتفاع الشؤون انما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم اليها على لسان من اختصهم بمزايا الادراكات السامية ، ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التى هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية ، والنفوس البشرية ، وجعلها قواما لسعادة المعيشة ، وركناً شديداً لبيت الحياة ، وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء ، وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ، ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة ، أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ماينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كمصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع عموم نوع الانسان ، ولا يجلب ضرراً على أحد من المجتمعين لافي العاجل ولا في الآجل ، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ، ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها ، وكل واحدة منها أصل لفضائل لاتنحصر إلا بالذوق الظاهر ، والفكر الدقيق ، ويلزم لنيلها كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ، ومقارنة الحوادث بعضها ببعض في السير المدني ، ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطلب على النحو الذي بيناه ، ويتبع هذا الواجب نشاط في العمل المفيد للفرد والمجموع ، واحتمال لكثير من المشاق المتعبة في أوقات ، وإن أعقبها راحة دائمة ، ثم يعقب ذلك تحلٍّ بصفات كثيرة ، وتخلٍّ عن أغراض جمة . تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل . فاذا تيقن الأعلون من الناس أن لارفعة ولا ثروة إلا بحوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها ، وبذلوا الجهد في المحافظة عليها ، فيسعدون بما يستفيدون ، ويسعد غيرهم بما يفيدون ، إذ يحرصون على التفنن في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم ، فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم ، وجميل فعالهم

وأما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لااسم لهم فانهم يعلمون أن هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة ، وأن من لاقدر لهم ولا تعلم أسماؤهم

لخمول ذكرهم ، وحجب ستارة الفقر ، والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين
يعلو ذكرهم ، وتتوجه الافكار الى معرفتهم ، والقلوب الى احترامهم ، وتطلبهم
المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الحقيرة ، فيجـدون ويجتهدون في اكتساب
مايؤهلهم ويعدهم للحاق بمن سبقهم فى الاعمال النافعة والاوصاف الفاضلة لينالوا
من رفعة الشأن مثل مانال السابقون ، وبذلك تكون الأمة على اختلاف طبقاتها
فى حركة صعود دائما . فان الغني وذا الجاه لايريان لحفظ غناهما وجاههما أو
الاستزادة منهما إلا المحافظة على منابع الخير من ذاته ، والبعد عن قواذف الشر
ومطارح الضر ، والفقير وخامل الذكر لايجد سبيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا
المبادرة الى أسبابه الحقيقية ، وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة
والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية فى التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلا وجيهاً
مثلهم ، فتقوى فى الأمة دعائم العمران ، وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها
الله تعالى لتحسين حالة الانسان فى حياته ، ووقايته من الخطر الذي يتوقع أن
يحل به ، وعند ذلك تكون للأمة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة
والقوة والشوكة والغنى والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات
التي تمدح بها ويعلو شأنها

وهذا بخلاف مايوجد في كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل
فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ، ولكن أهاليها
ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية ، ويعدون الاعراض الساقطة في
المنزلة الاولى من الاعتبار ، فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت
له من أبيه أو من متبوعه جهة الشرف ، ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع
لايسقط من مقامه . فان جاهه هو الحافظ له ، وشأنه هو الذي يقـدم أبناءه
وحواشيه الى مثل مقامه ، وإن كان فاقداً لكل فضيلة وخالياً من كل صفة
إنسانية ، فتكون الطبقات في مثل هـذه البلاد على الدوام ثابتة أفرادها على
حال واحد في أزمنة كثيرة . فالفقراء يبقون على فقرهم ، والأغنياء يدومون
على غناهم ، وقليل أن يصير الفقير غنياً ، ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في

نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى ، وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين ، وآحاد الناس ، ومن لاشأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ، ولكن لامن أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه ، ولزوم أعتابهم ، والوقوف على أبوابهم ، أو بأن ينتصب لجلب منافعهم الخاصة . فاذا داوم على ذلك أزماناً رقوا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراقي الشرف سلماً بعد سلم حتى يلحق بهم ويعد في حاشيتهم ، فيشرف بمثل شرفهم ، فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة ، ويدخل الناس في هذه الطرق فتنعدم الرغبات في الفضائل ، بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه إلا الى تلك الرذائل

غير أن هذه الوسائل وإن أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها ، لكن لايمضي زمن قليل حتى تسقط الأمة بتمامها ، وينتهي بها الحال الى الخراب ويعم الشر جميع الافراد

فهنيئاً للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لأربابها ، ويدخل لها السعادة(١) من أبوابها ، وإنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

«١» لعل الاصل: ويدخل لها السعاة ـ جمع ساع ـ اوتدخل لها السعادة ـ الخ على ان تذكير فعل السعادة جائز هنا

المقالة الثلاثون

العلم وتأثيره في الارادة والاختيار (*

﴿ لأحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال : ﴾ (١)

سألني أحد الأفاضل عن سلطة الفكر والتعقل عن الارادة ، وسلطة الارادة عليهما ؟ فلم أجد بدّاً من المذاكرة معه في هذه المسئلة ، وتوضيح ما وصل اليه عقلي نقلا عن العلماء المحققين ، واستنباطاً من كلامهم ، ولظني أن في ذلك نوعا من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء ، وما أداهم اليه التدقيق في هذه المسئلة ، ولا بدّ قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ، ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الانساني ، وشمس وجوده ، وروح حياته ، وأنه وسيلة التقدم في المدنية ، وكمال الحقيقة الانسانية ،وهو سيف القوة، وينبوع الثروة ، وما شابه ذلك من الاوصاف الحقة التي أجمع عليها العقلاء، بعد أن صدر به النطق الالهي على لسان الرسل والأنبياء ، والصديقين والأصفياء. فان هذه الأوصاف إنما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ، ومثال للحقائق الثابتة ، وحاك عن الأوضاع الالهية في عالمنا الوجودي . أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ العلم، فمنهم من قال: أنه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر . ومنهم من قال : انه انفعال النفس بتلك

---

*) نشرت في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ المحرم سنة ١٢٩٩ - ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١

(١) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

الصور أي التأثر الذي يحصل فيها بورود الصور عليها . ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم ، مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم ، الى غير ذلك من الأقوال التي لاحاجة بنا الى ذكرها ، لكن القولين الاولين هما الأقرب الى العقل ، والأشهر في النقل ، ويكاد الخلاف بينهما يكون لفظيّاً ، لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور ، فهي متأثرة بها ، إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها ، أو تأثر النفس وانفعالها بها ؟ والأقرب للحقيقة هو الرأي الثاني ، وهو مايرشد اليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال في هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته ، لكننا نعرف آثاره ، وهو الروح الحيوي ، والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان ، أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان . فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلا ، ليس المراد أنه ينقل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه . إذ هذا من المحالات الأولية . فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة ، بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها ، فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر ، وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ، ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ، ينعكس الى البصر بشكله ، فيؤثر في الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك بمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه . وهكذا يقال في تموج الهواء بالنسبة الى المسموعات ، وفي الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث فى الأعصاب الادراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به ، فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته

فالعلم والادراك أثر فى الجوهر الدرّاك يحدث فيه من المؤثرات الأخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث فى الأشياء من اتصال بعضها ببعض ، وانفعال كل منها بما فى الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها

كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها ، والماء يكتسب شكل الأناء عند وضعه فيه ، وما شابه ذلك.

وهذا الأثر بحكم الوضع الالهي الذي لا تصل الى كنهه العقول يثبت فى جوهر المدرك ، مستتبعاً جميع لوازمه التي لاتفارقه ، فصورة الانسان مثلا يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء ،وهي فى مكانها المخصوص ، ووضعها المعين ، فكما صارت تلك الصورة فى الروح يكون فيه أيضاً حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ، ومقدار البعد بينها وبين الأشياء التي أحاط بها الضياء وأتى بها معها ، وبالجملة فان الشيء يكون فى العقل كما هو فى الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل ، وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري ، حتى ذهب كثير من المحققين إلى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج لما رأوه من التماثل التام بين صورة العلم والمعلوم ، فكأن عالم الادراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه . وكما أن حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو الى اتصال بعضها ببعض ، فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها ما لم يكن لها قبل التألف ، فان حركة الاجزاء الغذائية مثلا وانضمامها الى البدن الانساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة ما لم يكن لها قبل اتصالها بالبدن ، كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي الى انضمام بعض الاشكال الادراكية فيه الى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقلية في ذلك الجوهر مالم يكن للشكلين الأولين ، ونريد من الاشكال أنواع الحركات الحادثة في جوهر الروح فان انضمام بعضها الى بعض يحدث أنواعا أخر من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود أن بعض أجزاء العالم يجذب بعضاً وبعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما ، كذلك بعض المعلومات في العقل اذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر اليه أو انفصاله عنه ، وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثراً جديداً ، ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود

ما يلائمه أو يضاده بالكلية ، وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ، ومع بطء تارة أخرى ، كما يحصل ذلك في الموجودات المشهودة بلا فرق ، ومعنى هذا أن تأثر جوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثرين ، سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل أن هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على الأبدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهراً لآثاره ، بمعنى أن حركات هذا الروح في أجزاء الأبدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له ، فهذه التأثرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه ، توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها ، شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية ، وبحكم حركة هذا الروح تتحرك الأجسام والأبدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها ، وهذا ما نسميه بالحركة الارادية ، وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أو الهروب منه عند العلم بملائمته أو منافرته ، أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن ـ يتحرك في الأجزاء المعدة لحركته فيها ، فتتحرك هي أيضاً بحركته ، إما طلباً وإما هربا (جذبا أو طرداً)

وقد يتعارض أثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح ، وبعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل (إحداهما) تقتضي اندفاع الروح ، وحركته نوعا من الحركة (والأخري) تطلب نوعا آخر منها فيقف ، وهي حالة التردد ، فاذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلمية ما يقوي أحد الاثرين تحرك الى ما يوافقه ، وإلا فهو في مركز الوقوف ، ويبقى أثر ضعيف في الادراك للصورة المرجوحة عند ما يغلب على الروح أثر الصور الاخرى

فالارادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الادراكي أو هي صورة أخرى لذلك الأثر ، بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها إنما هو ظهور الأثر الادراكي في الروح ، فيكون حاصل القول أن المتصل

بالروح أثر فيها أثراً وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البـدن ، فكان عنها حركة البدن نفسها ، وإن شئت قلت : تشكل الروح ، وهو في الاجزاء بشكل ما اتصل به ، فظهر ذلك الشكل بعينـه في الأعضاء بالحركة الفعليـة ، وهذا ما يقول العلماء إن الارادة تنزّل العـلم ، والفعل تنزّل الارادة . ومعناه أن حقيقة الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الادراك في أعضاء البدن وأجزائه والمواد التي يتركب منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالارادة ، وذلك كفعله في الدم عند ما ينتقش بصورة فعل منافر ، وفي الامكان دفعه ، فيفور الدم ويغلي ، وينتشر في جميع العروق ، ويدور فيها دورة غير اعتيادية ، فاذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنـه الفعل غير الملائم ، وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب ، فان تأثير الأمر المغضب في الدم ليس في حد الارادة والاختيار ، وإن كان التحرك للايقاع واقعا تحت الارادة ، لكن ربما اذا أمعنا النظر نجده خارجا عنها ، وإنما نعده داخلا تحتها عند ما نلاحظ أن عندنا أثراً علميّاً آخر يدافع طلب الانتقام ، ويرد النفس عنه ، وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرها ، فلوجود هذا الأثر عنـد الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية ، وإلا فالغضبان يحس من نفسه أنه مغلوب لادراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق ، فانه يفـعل في الدم حركة وفي القلب خفقانا ، خصوصاً إذا كان المعشوق بمرأى منه ، وبمشهد من أعماله ، ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الأعصاب والأربطة البدنيـة ربما يفضي الى الرعشة ، وليس هذا التأثر داخلا تحت الارادة ولا هو منها في شيء ، ولكن قد يتبعه فعل إرادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب ، وإنما يعتبر الفـعل إراديا ما إذا كان ناشئاً عن إدراك آخر ، سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة ، ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده ، وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الادراك في الدم وقفة وانقباضاً ، ربما يؤدي الى الجمود وفقد

الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه ، أو تصوّر خطراً وخطباً جسيما . فان قوة هذا الأثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تتسلط على الدم فتبرده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه ، أو توقف دورته ، وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس ، ويتبع ذلك من الأعمال الارادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم . وقد يؤدي إدراك من الادراكات — كتصوّر أمر مخيف — إلى ذهاب الادراك ، وسلب الشعور بالكلية ، وهو مايعبر عنه بالاغماء والغشى ، وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة على الجوهر المدرك في البدن ، فلا يسعه سواها ، فتضمحل جميع الانفعالات المعبر عنها بالادراكات ، وتفنى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد

وهذه الأحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة إلى أن التأثر الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرهما ، وإن ماينشأ عن التأثر الادراكي إنما هو كيفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثر الذي عرض عليه أي مانسميه علماً وإدراكا

المقالة الحادية والثلاثون

الملكات والعادات

إن هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل اليه وينفعل أشكالا من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثرات هيئات مخصوصة تثبت فيه ، مستتبعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته لكثرة ما وردت عليه ، وهي التي نسميها ملكات إدراكية وعلوما ثابتة في النفس لا تزايلها ، ويتبعها السجايا والطبائع والأخلاق النفسانية ، الملائمة لتلك الملكات الادراكية ، ويلزمها الأفاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الأخلاق والعادات إلا توابع ومستلزمات للعلم والادراك الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي ، فان عرض للنفس مؤثر أو وقف

على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة ، وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن إدراكه ، وتعسر على النفس فهمه ، ومانعت الأعضاء البدنية أثره ، فهذه الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد ، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها ، كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية ، فسجية الكرم مثلا ثبتت في نفس الكريم ، لكثرة انفعال عقله وإدراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم ، والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال ، أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين ، فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل ، وصدور الأثر الارادي عنها ، وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة إدراكية ، وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ، ويتبعها انطباع النفس بالنهي (كذا) التام لحركة الاعطاء ، وإيصال الخير إلى من يحتاج اليه . فاذا أخطر ببال الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير ، رأيت عقله يبعد عن إدراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضاً وتعاصيا عن الانفعال به ، بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه إحدى الحواس ، أو يذكر به راوي العمل وحاكيه ، فاذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء ، رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطا بدنيا وارتباطا في الأعضاء حتى كأنه يجد عاقداً يعقد كل طرف بآخر ، ومانعاً يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته ، بل يحس من ذاته كان القوة المحركة إلى هذا العمل الخبيث ، فاقدة (كذا) بالكلية .

وهكذا يقال فيمن تعوّدت نفسه إدراك غوائل الفقر والحاجة ، وتكاثر عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب ، وتهيأ جوهره الادراكي بصورة الانخذال والانهزام من صدمات الحوادث ، فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات ، تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات ، وانطبعت نفسه ، ومبادىء الحركة فيه على الميل إلى مايلائم إدراكه الثابت ، فهذا الراسخ

هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده ، وهذا المنطبع سجية البخل ، وعنهما تصدر الارادة بالأفاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية ، ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان ، وما ينشأ عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما ، رأيته ينفر من ذلك نفور الوحش، ويطلب سد أبواب الادراك على نفسه حتى لا يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة

من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والنجارة ، وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترتسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من إحدى الحواس ، مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها ، وتارة لا تأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ، ولكن يضطره الاحساس المؤلم العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه ، فيندفع إلى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ ، فينفعل بصور منها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال الأصلي ، أعني طلب الخلاص من الألم ، فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام ، ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الأمر ، ثم يلجئه ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ، ولزوم الحاجة لمداومة الأعمال فيها إلى جبر الأعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ، إن كانت الصناعة بدنية حتى تلين تلك الأعضاء ، وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك ، أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح أثراً خاصا ، وبه سرى في الأعضاء على هيئة وكيفية خاصة ، ويصعب أول الأمر أن تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ، ولكن باستحكام الأثر ومداومة العمل تنطبع الهيئة بتمامها في الأعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ، ومثل ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلا من الاعمال الفكرية التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع، ويمكن

بالسهولة الاجراء على مثالها وهو مانعبر عنه فى اصطلاح الحكومة بالتنفيذ، فملكتها إنما تثبت فى العقل ، وتنطبع في الروح ، حتى تكون كهيئة فطرية له كما فى سائر الملكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والأشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ، ثم يوجد عنده انفعال وتأثير بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلاب لوازمها الكامنة فيها . فاذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلمية أمواجه، أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ، ثم يفرق بينها ، ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ، ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع ، وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له ، أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطابها بحكم ذلك الانفعال . وفى مبدأ الأمر لاتأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة ، لكن متى استحكم في الروح الأثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تحاذي الغاية ، وأخرى تنحرف عنها ، فتحفظ للانحراف أثراً يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه الى وجهة الطلب كطبع جبلي فيها . وهذا إجمال في القول ربما نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شؤونه ، وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان ، بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه ، بل اذا تنزلنا إلى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد ، هذا يستحسن شيئاً، وذاك يستقبحه ويستهجنه ، ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على أن هذه الاحوال الادراكية التي تتبعها الملكات والاعمال التي نسميها بالعادات . إنما منشؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ، ومن يكتنفه من أبناء جنسه ، وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، وما يطرق أذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة ، وما يراه من الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض ، وما يذهب اليه إدراكه من جميع

ذلك مستعقباً ومستتبعاً لوازمه . فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك ويكون هيئة فيه ، وما تكرر منه ثبت شكله فيه ، أي انطبع الروح بطابعه ، أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو ما نعني من تقرر الملكة وثبوت العادة . وما لم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه

ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية ، وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية أنها غير إرادية بالمرة ، أو أنها رمي بدون رام ، تارة يخطيء ، وتارة يصيب ، ولكن مرادهم أن الروح ينطبع عليها . فالارادة موجهة الى ما يكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض ، وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر أن يتحول الانسان عنه إلا بقاهر تشتد وطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات ما يؤثر فيها أثراً قوياً يلويها عن الأثر الأول ويقودها الى الأثر الجديد ، ثم يستمر ذلك أزماناً وإن شئت قلت أجيالا حتى تضمحل الهيئة الأولى ، وتثبت الهيئة الاخرى . ومن ذلك الحديث الشريف « اذا سمعتم أن جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا » (١) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون أن يضطرها لذلك قاسر أو زاجر ، وهيهات أن ينال المطلوب مع ذلك

ومما يرشد الى أن تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥

---

١) تتمته « فانه يصير الى ما جبل عليه » وهي نص في مراد الاستاذ رحمه الله تعالى ولعله كان نسيها عند الكتابة او وقف عند المتداول على الالسنة . والحديث عزاه السيوطي في جامعه الى احمد عن ابي الدرداء وسكت عليه على ان سنده منقطع فهو من رواية الزهري عنه وهو لم يدركه . واني اراه لا يشبه كلام النبي « ص » وان كان معناه صحيحا

هجرية في مصر أن شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع ، وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى إن بعض الناس انزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ، ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئاً فشيئاً حتى صار من المألوفات أن يأكل الرجل أحد أقربائه ، والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها ، وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان . فانظر إلى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام ، وانقلب القبيح حسناً ، إلا أنه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حالته الأولى على وجه الكمال إلا بعد أزمان

نظن أنك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة إلى أن العلم والادراك الذي يستولي على الارادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الدرّاك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ، ملائمة لذي الروح أو منافرة ، ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثاً في الاعضاء أو ما تجافى مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة ، إلا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح إلى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات ، إذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس ، ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الأخرى ، وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح إلى الحركة كما مر بك بيانه . وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوما وأرى لهم في التسمية حقاً لأنها نوع من التأثرات النفسية الادراكية ، وإن كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها أشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير ، وهي ماتخيله التعاليم والالفاظ الموضوعة بازاء معان يمثلها المعلمون للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرّاك بتذكير بعض المألوفات ، فيحدث منها في

المخيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات ، أي يتشكل الجوهر الدرّاك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات إلى بعض . وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ، ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات (١) كمحيط الغربال إلا أنها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفيـة كذا الخ الأوصاف

وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه ، وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد ، ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك . فانه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه ، وإنما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا أنها لا تجاوز المركز الادراكي ، فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم . فان تواردت عليها الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ، ويقال لمن هي عنده أنه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده . ومن ذلك كل ما يتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعلقها أي أن توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف ، وترجع الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو، وعلم العروض مثلا، أو فن الاخلاق والسياسة

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة ، لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام ، وإنما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج ، فربما ينتبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور ، وليس من نوع البعض الآخر . ويكون لصاحب هـذه الملكة أنه يولد في عقله من هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ، ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لا يراعي فيه الانطباق على الواقع ، أو عدم الانطباق ، فان لاحظ ذلك فهو على شريطة أن لا يباين الأصل الذي تلقاه ـ فهذا إنما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو

«١» أي فى أطر «جمع إطار» مستديرات

متعاكسة . ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية ، وذهبت عقولهم خلفها ، فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبين حقيقة ماقلنا ، فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الارادة شيئاً سوى أنه يحولها الى إجابة الفكر فيه ، فلا يكون له هم الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها ، وهذا نوع من تسلط الارادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد أن صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب ، وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق ، وجرت به الاعمال العضوية ، ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة ، وحفظ جميع ماحوته الكتب الشهيرة في هذا الفن . فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الادراك وأشكالها ثابتة فيه ، لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل ، وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه أن يعلمه ويلقيه كما تلقاه — فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط . فاذا انضم الى ذلك غايته وهي أن يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه ، وتضامت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له ، وتكون الارادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا لقصد العمل ، ولكن لقصد أن يتكلم أو يكتب مايدل على تلك الاعمال وفروعها ، فالارادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة . فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انضمام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام تجاوزت الى هذه الغاية ، وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئاً يعتد به ، وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيهاً لعلومهم بأشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها إلا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لايراعون شيئاً مما يقولون ، وما ذلك إلا لكون تصوراتهم إنما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الاشكال المؤلفة منها في حد ذاتها . فانبسطت نفوسهم لاستثباتها ، وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الارادة إلى ذلك فلم ينالوا سواه . وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب إلا أنه اذا قرأ لايتذكر شيئاً منها ، واذا كتب جال قلمه خارجا عن دائرتها ، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم . ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحوي مثلا قواعد النحو حق العلم ، أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الدراك على النحو الذي أسلفنا لتبع ذلك الانفعال غايته . فان الغاية من الأصل المدرك التي ماوضع الأصل الا لها من لوازمه لانفارقه ، فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها ، ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعوج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الأصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء ، فتصدر لذلك الأعمال تابعة للأصل الثابت بدون عسر وهنالك تمام العلم وكماله ، أفلا يرى أن مدرس السياسة عند مايقبض على زمامها لاجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لايدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده ، أليس هذا جهلا بنفس الاصل حيث لم يتمن على نوع جزئياته ، لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فتح له باب جديد من العلم ، وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الادراك قبل تمكن الملكة النفسية والاعمال التعويدية وكماله بعد تمكنهما . ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً ويعلمونه حق العلم ، بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعملون على خلاف مايقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه ، والهلاك في العدول عنه ، وقد تبين أنهم في الحقيقة لايعلمون

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها ، وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لامجرد الأثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد، لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله ، والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به ، وما عدا ذلك هو المخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته ، وموجبات انفعال النفس به ، فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه إلى وجهته ، وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن، وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطي فأثر في انحرافه عن المخروطية فاذا قويت الشعلة حتى أحرقته عادت الى تمام الشكل ، ولا يحصل انحراف الشكل إلا عند عروض عارض آخر ، فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية ، وما دونها لا يؤثر فيها أثراً حقيقياً ثابتاً ، وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » (١) ولست أريد تفصيل ذلك

تأمل إلى من جلس أمام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل إنصات ، ويهز رأسه هزة الهائم بجمال مايسمع ، وتارة يذرف الدمع من عينه لما خاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ، ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة ، وأن كل طويل فيها قصير ، وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور ، وأن لاغنيمة فيها سوى مايقدمه العاقل بين يديه من طيبات الأعمال ليكسب بها نعيما مؤبداً ، حتى إذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق، رأيت ذلك الباكي وهو يتقرب إلى موارد الشهوات، ويدنو من مساقط الدنيئات ، ويستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعتها في جوهر إدراكه فواعل الاحتياطات التي ألمت به ، أو وردت عليه صورها ملمة بغيره

«١» هو جزء من حديث رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما ، وفيه تقييد النفي بقوله « لا يزني الزاني » حين يزني وكذا حين يسرق وحين يشرب أي الخمر

مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ ، ويتفق مع إرشاد المرشد ، فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده ، حيث إن هذه الطرق لم تألف إحساساته ، ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الأعضاء ، فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة .

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للادراك أن الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائما أو في بعض الأحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لا تعد في الحقيقة معتقدات ، وإنما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط . ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية

تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات ، سواء كانت مطابقة للصواب ، جالبة للسعادة الحقيقية ، مانعة من الشقاء أو لم تكن كذلك ، وان ذلك لتابع لما يصل إلى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيها آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ، ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية إلا من حيث الكيفية والنوع المخصوص ، فاختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني ، تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الأكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها ، وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث ، وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الخلقة الأصلية والوضع الالهي . وإما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول التأثرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الادراك ، فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني ، والعناصر الداخلة فيه ، والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه . فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه ، وكيفية تأليف الأعضاء ، ونسب الأجزاء بعضها لبعض — مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره ، وبعبارة أخرى

في شدة انفعاله بالمؤثرات الواردة عليه وضعفه ، وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها ، وضعف تلك القوة ، وغير ذلك من صفات الادراك التي لاتخفى على مدرك. وهذا الدخل مما لا يشك فيه

وأما الوجه الأول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث ، وتخالف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك ، فهو يظهر من اختلاف العادات والأخلاق والادراكات باختلاف الأقطار والبقاع ، وتنوعها بتنوّع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه ، ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش ، وطرق اكتساب الرزق ، ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الألم التي تستدعيها طبيعة الأراضي . فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري ، وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية ، أو يبعث اليه التأثر من شدة البرد ، ويبوسة المنشأ ، وجدب المكان ، كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة ، والفرار من المهلكات بالاستكنان في بعض الأكواخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات ، وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة ، وتوسطها في الحر والبرد ، وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الارزاق ، فان تأثر الجوهر الدراك بالأخطار الأولى يبلغ من الشدة مبلغاً يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على أنحاء توصل إلى المطلوب أعنى التخلص من تلك الأخطار ، وبتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الأعمال على ذلك النحو المتقدم. مثلا إذا نشأ الانسان في أرض جبلية كثيرة الغور والنجد ، غزيرة الغابات ، وعرة المسالك ، قليلة الخصب ، تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ، ومع ذلك تكون في جو شديد البرد كثير الصواعق سريع التقلب . فلا ريب أن الانفعالات التي تعرض على إحساساته من هذه الأشياء المكتنفة به ، وكثرة ماتدعوه إلى المقاومة والمصادمة ، واحتمال المصاعب في دفع المصائب ، وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك — تجعل في الأعضاء قوة على العمل ، ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام ،

وتتجه بذلك قوة الادراك إلى البراعة في الكر والفر ، وفنون الدفاع والهجوم ، وتثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ ، وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة ، وملكة الثبات في العزائم ، وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة . وملكة القسوة والتهاون بالدماء ، وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وإزهاق الأرواح . وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام . وملكة الغدر التي تتولد دائماً من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث . ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى . ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها

وهذا بخلاف ما إذا نشأ في سهولة العيش ، وخصب الأرض ، وهشاشة التربة ، وخلوها من الغابات ، واستواء سطوحها . واعتدال هوائها . وصفاء جوها . وخلوها من الحوادث المخيفة . فان ذلك لايحدث في النفس إلا صوراً لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن . والبعد عن الطمع . والرضا بالقليل . وما يتبع ذلك من الصفات التي لاتتخلف عن مناشئها الواقعية إلا بالطوارىء العرضية التي نذكرها فيما بعد فانتظرها

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ : إن الاستاذ وعدنا باتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد . وقد تصفحنا سائر أعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التتمة . ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العرابية التي نجمت في تلك الأيام ، واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ، ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

المقالة الثانية والثلاثون

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف أن لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه ، ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو والسكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ، ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لا برويير الحكيم الفرنساوي : لاوطن في حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ، ومناصب سمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لاينقض قولهم : لاوطن إلا مع الحرية ، بل هما سيان . فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق . والواجبات السياسية وإن وجدت فلا بد معها من الواجب والحق ، وهما شعار الأوطان ، التي تفتدى بالأموال والأبدان ، وتقدم على الأهل والخلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان

أما السكن الذي لا حق فيه للساكن ، ولاهو آمن (فيه) على المال والروح ، فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لايجد إلى غيره سبيلا ، فان عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لابرويير السابق الذكر : ما الفائدة

*) نشرت في العدد ١٢٦٧ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٩ – ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١

من أن يكون وطني عظيما كبيراً ، إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيء الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في مثل هذا المقام : إن ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر ، والفرنساوي على فرنسا ، والانكليزي على انكلترة ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان في الأمر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً (الأول) أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد (والثاني) أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان (والثالث) أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل ، وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت في الأهل أميناً ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعييراً ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية

وللحب على أهله شروط محفوظة عند الأذكياء ، مجهولة عند المدعين الأغبياء ، فما تنفع فيه الشكوى ، ولا تقدم لصاحبه دعوى ، إلا ببيان من الواقع وشاهد من الفعل ، وما أحسن ما قيل :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

وله مراتب مناسبة لموضوعه ، موافقة لمنشأه ، فهو في الكرامة كريم ، وفي النبالة شريف ، وفي المآثر حميد ، وفي العز والمجد رفيع ، وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات ، فان قيل في حب الحسان

أحبك حباً لو تحبين مثـله أصابك من وجد علي جنون
لطيفاً مع الأحشاء أما نهاره فدمـع وأما ليـله فأنـين

فقل في حب الأوطان :

أحبك حباً لو تحبين مثـله أصابك منه يا ديار تغير
شديداً مع الاشواق أما نهاره فسـعي وأما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لايزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفساف القول ، من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ، ولن نهتدي سبيل الحرية ، كأنما هم لايعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا في قـديم الأيام على ضروب من الرق ، وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين أحراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون . أولم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات . أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لايزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وإن يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبداناً أرقاء ؟

ولئن كان من فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف . فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاما

المقالة الثالثة والثلاثون

الشورى (*

نتكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معاً فنقول : خلق الانسان محاطا بالشهوات ، مكتنفاً بالاميال ، مقيـداً بالأغراض ، فهو أسيرها تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها ، فلا يتصوّر حسناً إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلا الاما تستجمل. وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطريا ، لايمكن الانسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه . وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ، ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذه من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد. وليس من وسيلة إلى ذلك الا مشاورة العارفين العاملين بطرقها ، فان للرأي العام في مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام

(*) نشرت في العدد ١٢٨٩ الصادر فى ٥ صفر سنة ١٢٩٩ – ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١ ونشرنا فى الطبعة الاولى مقالة قبل هذه عنوانها « الشورى والاستبداد » ثم أخبرنا صاحب الدولة سعد باشا زغلول الذي كان من محرري جريدة الوقائع انها له وانه لم يضع اسمه فى آخرها لأن الاستاذ كان أمر جميع المحررين بترك وضع امضاآتهم فى ذيول مقالاتهم

لا يستحسنه . وأيضاً فالانسان الواحد قاصر وان بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً اذا كانت مصالح أمة كبيرة ، فانها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الانسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيها اطلاعا

وقد يتنبه بعض الناس من أنفسهم لهذا الأمر ، ويعلمون أنهم لو تركوا أنفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ، ومالت مع أغراضها ، ووقفت دون الصواب حجابا ، فيجتهدون في منع ذلك بأن يستنصحوا الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم ، استعانة منهم بآرائهم على كشف الحجاب ، ورفع النقاب عن وجه الصواب . وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم ، فلا يرون حسناً إلا ما وافق الصواب ، ولا جميلا إلا ما طابق الحق . ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم

وأما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول: قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علوّ الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً ، قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت اليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها ، فليس من الانصاف أن تلقي على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه . ثم اذا رأت ما لابد منه من التقصير وجهت اليه سهام اللوم ، بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم ، وكما لا يصح أن تتخلى عنه في الأعمال البدنية العمومية مثل حمى البلاد ممن يريدها بسوء ، بل لابد من مساعدته فيها ، وإن لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها ، كذلك لا يصح التخلي عنه في الأعمال الفكرية العمومية ، فان كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها . وهل من العدل أن تترك الأمة حاكمها بين أعمال مهمة مختلفة الانواع ، متشابهة الألوان ، يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم بأعبائها ثم اذا رأت منه تقصيراً بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت إلى تعنيفه ؟ لعمري لو فعلت ذلك انها إذاً لمن الظالمين

وأن لنا على صحة ماقدمنا من الأدلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم ، حيث قام بينهم خطيباً فقال : أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه الخ(١) إذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا إلا التنبيه على الحق، والارشاد إلى الطريق المستقيم ، فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه ، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو إجابة الصحابي بقوله : والله الخ . فانه لايجوز استعمال القوة الا بعد الاعذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديوينا الأفخم حفظه الله مثل ما رأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور ، وأن بلاده قد كثرت بها خصوصاً في هذه الأيام مواد الاعمال ، واختلفت مواضيع المصالح ، وتنوعت أسباب المنافع . إذ لا يخفى أن هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الأعمال الداخلية المختلفة اختلافا كليا بحيث يناسب بعض البلاد منها مالا يناسب البعض الآخر، فندب رعاياه الى التشاور حرصا منه على الاقتداء بالسلف الصالح ، كما هو شأنه حتى في الأمور الجزئية الخاصة ، فضلا عن الامور الكلية العامة ، وعلماً منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة ، والمنافع الجزيلة

وكأني بمن يقول : ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية . فأقول في جوابه: ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القويّ في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطاً للعدل ، ومظهراً للاستقامة في سائر الممالك . وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لاتترتب الا عليها . وأما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض

« ١ » تتمة الاثر : فقام رجل او اعرابي فقال : والله لو وجدنا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمدلله الذي جعل فى المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه ولم يكن عمر «رض» هو السابق إلى مطالبة الامة بحقها فى السيطرة على الخلفاء والامراء بل كان السابق الى ذلك ابو بكر «رض» فى خطبته الاولى بعد المبايعة بالخلافة اذ قال فيها : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني ـ وكتبه محمد رشيد رضا

لما أنها هي المستعملة في زمنهم . على أن هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مقصودة لذاتها . فاذا انقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهملة غير مقصودة ، وتحوّل القصد الى ما صار بينه وبين الغاية ارتباط ووفاق

المقالة الرابعة والثلاثون

الشورى والقانون (*

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الأمم ، وبينا الأسباب الموجبة للاختلاف ، وضربنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الأذهان ، وأن ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها ، أعني ضبط المصالح ، وفتح سبل المنافع ، وسد طرق المفاسد . والآن نريد أن نبين أقربها للغرض ، وأبعدها عن مساقط الاهمال ، وأمنعها عن عبث الجهل والأغراض ، فنقول :

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا . وبيانه : أن الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها ، فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله الى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك شدة الطمع والشره ، وجر الأمر الى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم في مكان واحد ، متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب

(* نشرت في العدد ١٢٩٠ الصادر في ٦ صفر سنة ١٢٩٩ – ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١

الاشتراك في الوطن ، وتناول أشدهم عضداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ، ولا قصدين متطابقين ، بل لانرى الا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرم ، فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذا مانزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبلبل الألباب ، جعل لكل منهم شأناً خاصاً به فلا يفكر يوما ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره ، فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم

واذا استمرت بهم هذه الحال زمناً طويلا فسدت طباعهم ، وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل ، وتكلهم الى الآمال العاطلة ، والأماني الكاذبة ، وتورثهم الخمول والذل والفتور ، فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الأخبار طرفا من سير الأمم . تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع مايسوقهم الى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الاتضاع ، فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، فتمانعهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل ، فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن(١) الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة ، وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية ، فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده

---

(١) انما ينفض الغبار وأما الدرن وهو الوسخ فيغسل غسلا فالظاهر انه سقط من الكلام مشبه بالغبار كالكسل لسرعة زواله فاعل اصله : تنفض عنها غبار الكسل وتغسل درن الملكات الخ

ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة ، إذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وان تلبست بصورها ، وانما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأي العام ، وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد ، وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدما والمتأخرين من السياسيين ، حيث يتفرقون أحزابا ، وينصبون حلبة الجدال في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنوّر ، وأصبحوا جميعاً على رأي واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً الى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم ، ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانونا عادلا لائقاً بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كافلا بمصالحهم ، يرجعون اليه في أمر المساواة والأمن على العباد والبلاد ، ولا يعجبهم أن يكلوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه ، إذ الواحد لا يتأتى له أن يشخص مصالح الجميع مع تباينها . وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليها من الفوائد ، ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعاً إذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك ، فلم يبق إلا أن ينتخبوا منهم نوابا بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ، ومن كل ذوي حرفة ، ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكليهم عموما وطبائع أمكنتهم .

فاذا أتموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق — وإن استغرق عملهم أمداً — كان هو القانون المعول عليه علماً وعملا . أما علماً فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعاً لأن من وضعها هم نوابهم . ولا يخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم ، يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدال في كل مبحث ، ويعلموا ما تم عليه الرأي فيه على أن صحف الأخبار ، التي لا يخلو منها قطر من الأقطار ، تتكفل بنشر

المفاوضات والأحكام في كل مسئلة ، فتكون هي السفراء بين مجلس النواب وبين الرعايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لأفراد منها كالسوقة والرعاع والعملة وإن كثروا ، فانهم كالآلات الصماء ، الموقوفة على الأعمال البدنية ليس إلا ، فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جملة النواب لابدّ أن يتحقق بين الأفراد ، فبعد إتمامه لا يحتاج الأمر إلى المدارسة فيه الا لمن هو حديث عهد به . وأما عملا فلأن القانون عادل منطبق على المصالح ، ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب ، خصوصاً وأن واضعيه هم النواب ، والنائب لسان المنوب عنه ، فكان من وضع الأمة بتمامها ، وتلك حجة عليهم بأنهم جميعاً متعاهدون عليه ، سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الأخذ بالأحسن من كل شيء نافع ، وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام ، وأنهم جميعاً سائرون إلى غاية واحدة ، فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبراً على ورق بدون علم ولا عمل؟

فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الأمة العامّ أعني المؤسس على مبادىء الشورى ، وأن الشورى لاتنجح إلا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعاً طالبين تعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها . فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه ، فلا يلتبس عليهم بالباطل ، ولا لوم عليهم اذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال . فان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة ، كما قضت حكمة الله تعالى في خلقه أن الشيء لا يبلغ حده في الكمال إلا بالتدريج ، بل اللوم كل اللوم أن يضرب الطالب صفحاً عن مطلبه ويقصر في السعي ويرضى بحالته فيقف عندها وقد هيأ الله له الاسباب ومهد له الوسائل ، إذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبيح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وأن استعداد الناس لأن ينهجوا المنهج الشوري غير متوقف على ان يكونوا متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله ، بل يكفي كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق

لمصالح البلاد وأحوال العباد ، ولا يتوهم أن القانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي يكون منطبقاً على الاصول المدنية ، والقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقا تاماً ، فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك ، فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر بهؤلاء ، إذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضيهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له أن يحدد مصالحهم ، ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد ، وتسد عليهم أبواب المفاسد ، وحينئذ لا يسوغ لارباب الشورى أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين ، بل عليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيء لهم حينئذ أن يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة . فاذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير ، وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب ، انفتحت لهم عيون المسائل ، وسهلت عليهم صعاب المطالب ، وحومت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطوراً بالبال ، فتغلغل أفكارهم في ما وراء ذلك من الامور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يصلوا على مباد أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث ، كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاورتهم بعد أن صارت لديهم من المسلمات الاولية ، وقد كانت في بداية الأمر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى نظر وبحث ، وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ، ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بديهية المبادي إلى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت قدمهم في الشورى كل الثبات

ومما تقدم سرده تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الاهمال ، ويستيقظون من نومة الاغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ،

حتى اشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ، ويلم الشعث ، ويجمع المتفرق من الامور، ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد في الرأي . فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة ، والآراء الصائبة ، فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة بشؤون البلاد ، وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ماقضت به نواميس الحرية ، وانشرحت صدور الناس عامة بهذا ، واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحا تاما لما يؤيد شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن . ولنا أمل لا يخيب في أهل البلاد وحضرات النواب فهم أجل من أن يعدلوا عن طريق النجاح، أو يكون سعيهم إلا في حب الاصلاح ، وهذه هي خطوة نعدها إن شاء الله في سبيل تقدمنا فاتحة الالطاف

المقالة الخامسة والثلاثون

التجرد والاعتياد

حصول صورة الشيء في النفس علم، وميلها الى طلبه أو تركه إرادة، والتصميم على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك، والترك لا يحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها النفس تكليفاً ضرورياً أو كمالياً كان من الامور المباحة أو المحظورة . فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافاً

وأما الطلب فهو أحد الأمرين الذي يحمل النفس عنائين أحدهما يتعلق بها

نشرت في العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادي الآخرة سنة ١٢٩٩ - ٤ مايو سنة ١٨٨٢

من جهة قوتها الفكرية ، والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن، والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايفين لايوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء مايعود منه على الطالب أو غيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة ، وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الاعمال البشرية ، أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله إنما يكون بعد أن تعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لايلزم على الشروع فيه الترجيح بلامرجح. هذا شرح حال العناء الاول . وليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فنتائجه كذلك ، ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق والطالب لايستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الاوقات ، وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أو الكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل ، وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هـذا أمراً من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه أن يكون دائم العمل بقدر الحاجة ، وليس احتياجه كافياً لهـذا الاقتضاء ، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل ، وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها. على أن الحاجة متفاوتة ، فما كان منها في الدرجة الاولى درجة الاضطرار البحت فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ماكان منها في الدرجات الثانوية فما فوق، والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتياد

وبعبارة أوفق بالغرض : إن مالا تدعو اليه الحاجة أصلا في زمن من الازمان قد تدعو اليه في زمن آخر لا لسد الاضطرار البحت ، بل لمازاد عنه من الحاجات

الثانوية كالكماليات والمحسنات ، وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطرار البحت ، فلا يجد الانسان عنه فراراً فيتكافه مقهوراً مقسوراً يتصور المنفعة على بعد ، ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكافها يوماً من الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور في يدي الطفل ، فلا يزال يحس بالالم ويدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً إلى أن يزول الألم بالكلية ، ولا يجد إلا عملا بدون ألم . فاذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) ويجد منه باعثاً طبيعياً اليه ، وهكذا يزداد الميل ويشتد العشق حتى لايميل به الكسل يوماً ما الى إهمال العمل ، وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد .

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت ، فالأمر فيه وإن كان على ما أظن لايحتاج إلى البيان غير أني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول :

إن الانسان من حيث هو مفكر لايقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك ، بل يكفيه مايسد الرمق من القوت ويقيه الحر أو البرد من اللباس ، ويكنه وقت الايواء من البيوت ، غير أنه لما تأنق في هذه الضروريات بعض التأنق ، ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً أخذ على نفسه أن لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له جأش ، حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ماتتأدى اليه فكرته ، فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له فتسلط عليها بصفة التحليل والتركيب حتى فتح أبوابا للتجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ماوصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالا على أثقال كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريباً ، فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود ، إذ كل نادر

عزيز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكلّ ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه على هذه الغرائب زمنا استزاد منها حتى يبلغ بها حد الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ، ولا يخص بها وقتاً دون وقت ، الى أن تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغني عنها بحيث يعتبر كل ماكان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير جائز الاستعمال ، ويتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف ، ويحط بمقداره الشريف ، ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقتات بسائط النبات ، ويستتر بأوراق الاشجار ، ويأوي الكهوف والأغوار ، فبان بما ذكر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر نقول انا اذا سيرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً أن الهيئة الاجتماعية البشرية ماوصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة ، بل لابد كما يشهد العيان أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية . فاذا نظرت إلى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قتل الانسان ماأكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره ، فتفاخرها بما يدهش العقول ويبهر النواظر من صناعاتها الغريبة ، وأوضاعها الجميلة ، فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش ، وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنقبض نوعاً من الانقباض . فاذا توسمت هذه فيها الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء ، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد ، فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر إلى أن يرشدها التأمل إلى أن هذه ماوصلت الى ماوصلت إلا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد ، فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار ، حتى تصل الى ماوصلت اليه أو تكاد ، غير أن تلك أيضاً بعد أن تذوق لذة التقدم ، وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ماكانت تعامل به في مبدأ

الأمم حتى تضطرها كذلك الى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها . وهكذا كلما دخلت أمة من باب كافت به من يجاورها من الأمم حتى تنتظم الأمم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ، ولكن حيث إن حب التسابق طبيعة في الناس ، فلا تراهم يقفون لدى نقطة ، بل متى وصلوا إلى حد مامن حدود التقدم ، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت بابا من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الأموال والانفس والثمرات ، وبأن مجاوريها يخشون بأسها ، ويرقبون حركاتها ، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى يتساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون. فبان أن الأمم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر ، فصدق القول أن الشيء قد يكون ضرورياً وقد لايكون

وما ذكرناه من التقلبات والتنقلات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم أن تفرقت شعوباً وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق ، فيتنافسون ويتحاسدون على النقير والقطمير ، ويغلب عليهم حب الذات والميل إلى الخصوصيات ، فيدعون أنهم أجناس شتى ، ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء ويعذبون بعوامل البغضاء ، فتارة ترمي بهم الاطماع في مخالب التكلف، ومشاق التنقل من حال الى حال ، فيضطربون لهذا الأمر اضطراباً ، وينقبضون منه انقباضاً ، وآونة يلقي بهم الجهد الجهيد بعد أن يروامن الصعوبات ألوانافي بوادي الراحة عند مايصلون الى نقطة التمرن والاعتياد ، ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية ، فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي ، فيلتئمون بعد التفرق ، ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

وياليت شعري ماهو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمه الطبيعية، وبدل أخلاقه السلمية ، وحل رابطته النوعية ، وإلا فعهدنا به — إن لم نقل إنه من أم وأب تسلما جدلياً — فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان

من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ، ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكيد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتآلف — الى هذا السر المكنون ، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظاً لحقوق الانسان وصوناً لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى وكلما قربت إلى المركز زادت سرعتها شأن كل حركة طبيعية ، ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا إلى خدمة الانسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب . فاذا رجع الانسان إلى مركزه الطبيعي لاترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء، ويجدون من بركات الارض مايكفيهم مؤنة التعب ويكفهم عن الشقاق والعناد ، اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال . واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل إلى انقاذه مما ألمّ به ، وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان، يهديه اليه من علم الطير النياحة، ومرنه على السباحة ، ثم لاترى فيهم إذ ذاك مايحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لاترى إلا أعمالا جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتياد

المقالة السادسة والثلاثون

التمدن (*

ما رصلت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الأتعاب والبلايا، والاضطهادات والرزايا ، ولا رقي اليه شعب إلا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف ، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء ، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء واللابس حلة الاسعاد ، نقول ولا مغالاة في الحق : إنه هو الضامن لتوطيد

*) نشرت في العدد ١٠١٧ الصادر فى ١٩ صفر سنة ١٢٩٨ - ٢٠ يناير سنة ١٨٨١

أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع . كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات ؟ من غير فرق بين أن يكون أدبياً أو ماديا ، حسياً أو معنويا ، فالتفنن في الصنائع فصل من فصوله . والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه ، والتجافي عن مواضع النقيصة جزء منه ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة نبذ من جواهره . فاذاً لابدع إذا قلنا إن صاحبه هو السعيد ، والواطئ بنعله غرف النعيم ، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الأمم ، فجنى ثمره اليانع ، تراه يتقلب على بساط العز ، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال ، عمرت دياره بعد أن كانت قاعا صفصفاً بالأبنية العالية ، وتزينت بالأسواق الفسيحة ، والصنائع العديدة ، وصارت محط رجال السياسة ، ومطمح أنظار النبلاء ، ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات ، فطار على جناح العلم يستطلع بتماعا ربتها الجهالة ، وثلمتها يد البغي ، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيها ، يستخرج منها الكنوز بحكمته ، ويفجر منها الينابيع بقدرته ، ليجني وأهلها الغارسون ، ويقضي وهم المطيعون ، تسمع أهل تلك الديار صدى صوته في العشي والابكار ، والغدوّ والآصال . ولكن يغالطون الحس ، ويكابرون بانكار البداهة ، ويسلون أنفسهم بأن هذا الأجنبي لا سطوة له ولا حكم ، وإنما هو غريب دعته الحاجة للتجول فى البلاد لطلب الرزق . ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأناً من أولئك الغرباء ، وأسبق منهم يداً في المدنية ، ولئن تأخرنا عنهم حيناً من الزمن لكنا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك ، وهذه قصورنا المشيدة ، وثيابنا الملوّنة ، وقدودنا المجملة ، وأطعمتنا المتنوّعة، تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف ، وحظينا بالثروة ، ونهجنا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار ، والعزة والكمال ، اعتماداً على كونها سنة الأمم المثرية ، والشعوب المتنوّرة ، وأيم الله إنها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر . وإن هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق ، يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ، ويحيي الموات ، ولكن اذا حل الأجل

أمطرت ما يذهب بالحياة ، ويبـدد الأجسام . وذلك لأن الأمم المتمدنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور ، وتزيين الملابس ، وتحسين الأثاث ، إلى غير ذلك من المصارف ، فإنما يكون على نسـبة مخصوصة من ايراداتهم ، الحائزين لها بالكد والتعب في إبراز المصنوعات الجميلة ، والمخترعات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسـعة ، وقدراً رفيعاً ، ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لامحيص عنها . ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم ، ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم ، فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ودفع الحاجة . تدخل منزل الرجل منهـم فترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعته وبضائعـه ونقوده ، وليس فيها قدر شبر عمّـر لغير حاجة حتى حديقته ، ولا يشتري ثوبا له أو لزوجته وأولاده إلا بقـدر العوز ، وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس ، مهما كثرت ثروته ، وليس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب ، لايجمع بينهما الا نادراً ، وفرشه وغطاؤه لايخرج عن نوعي القطن والصوف كثيابه

وأما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط ، وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة ، يصرف الواحد منهم آلافا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة ، وربما كفاه مالا يبلغ العشر من مساحتها ، ويفرشها من أعلى أنواع الفرش ، ويزينها بأبهج أصناف الزينة ، فتبقى غرف المنزل بلا ساكن ، يعلو التراب على مافيها من الأثاثات والفرش المغطاة بالفضة والذهب حتى يبيدها ، وربما لايستعملها مرة في العام ، يتختم في أصبعه بما تجاوز قيمته عقد الألوف من الفرنكات ، ولدى زوجته من الألماس والجوهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد ، لو استعمل ثمنه في شيء يتجر به (اذا كان ممن يفقهون) الى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها ، وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات ، والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون . فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع ، وتخفيف أتعاب المعيشة ، وتحسين وسائل الاكتساب ، رأيناهم واقفـين على

نقطة واحدة من آلاف من السنين . فايراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الأخضر، المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة(١) بقضبان شجر (الجميز) وجذوع النخل ، مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ، ومن الطعام بما يذهب النهمة ، فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام لم تتغير أشكالها ، ولم تتبدل أصنافها . نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري، ولكن هذا النموّ لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد ، فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات ، وغيرها من الأقمشة والمأكولات ، ويربحون من ذلك أجراً عظيما ، أما بعد ذلك فلا ترى بنيهم الا يتضوّرون جوعاً ، ويئنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها ، واختصاصها بيد النزيل . ويتبع ذلك سقوط صنعة التجارة والحدادة والحياكة ، وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين ، وربما ينتهي بهم الأمر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلوّ أيديهم من الزراعة أيضاً ، لوجود من يحسنها سواهم ،

ولا عجب بعد هذا اذا رأينا هؤلاء السفهاء واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال، يئنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الأملاك ، وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد ، فيلاقون منه شمما لا تقدر على تحمله النفوس ، ولا تستطيعه الطباع ، وربما كان الدائن من سفلة قومه ، والمدين من أعيان بلاده ، ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالية ، ولا ثيابه المزركشة ، ولا أثاثاته الخزية والحريرية ، فضلا عما يعتريه من البلبال ، وكثرة الوساوس والأفكار ، يبيت ليله يتقلب على الفراش ولا تقلبه على جمر الغضا ، يقدر محصولات زراعته قبل بذرها ، وينسبها لمقدار المطلوب في ابان الحصاد ، فاذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ، ذاهلا عما عساه يحدث من الغرق أو الشرق أو الأندية

«١» تكرر هنا لفظ المفروشه ولعل إحداهما محرفة عن المعروشه أو المسقوفة

المتساقطة من الجو ، حتى اذا حل" الاجل ولم يجد لديه ما يفي المطلوب لاصابة الزرع بأحد الأسباب التي ذكرناها ضرب كفاً على كف ، واسود وجهه ، وساءت حالته ، وتسوّل الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يف ما عنده بازهن ، فلا يجد مجيباً ولا نصيراً . لعمر الحق إن المفترش للحصى المتوسد لحجر الصخر ، المستكن في منازل الحيوانات ، المتكفف في معيشته ، خير من هؤلاء الناس ، الذين لا يقر لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوءنا ان نراهم أكثر من الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبوه تمدنا ، وزعموه نعيما مقيما؟ بل أنه هو الشقاء الابدي" ، الجالب للفقر المدقع والعذاب الاليم

هذه مشاربهم في الأحوال المعاشية ، تحزن المحب ، وتفرح قلب الرقيب ، ولعلمنا بأن تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون ، لم نقصر في النصح فيما مضى ، ولم نقصر في البيان الآن -- وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا عليه سابقاً ، مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدنا ، وتتبعه إن شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الأفراح والمياتم ، والموالد والضيافات . وبيان مانتحادث به في منتدياتنا مما هو عقبات في طريق تقدّمنا ، ونمو" ثروتنا ، مفردين في البيان كل موضوع على حدته ، إنذاراً من سوء عاقبته ، لعلنا نعتاض بما هو خير منه ، فنستبشر بانتهاجنا صراطا قويماً ، وطريقاً مستقيما ، وما ذلك على الله بعزيز

﴿ **يقول جامع الكتاب** ﴾ قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة (ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) وهذا ماعلمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الوقائع المصرية الرسمية . وله فيها كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث ،

الفصل الثالث

مقالات العروة الوثقى

الاصلاحية

أنشئت جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني، وهاؤم فاتحة العدد الاول منها وهو

المقالة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ماتمده العناية الآتية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل، في نجاح العمل،

خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لاتنكرها الانفس ثم التوت، أوغل الاقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتي تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن انفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حداً لاتحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى مايسوله الوهم، ويغري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت

آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه ان ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امّحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لاقتراق في الكامة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ،فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأثلقتها آلامها فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ماتكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ،ترشدها إلى ان لاحاجة لها إلى ماوراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة مابلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ،واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها والتمست خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة لكن مايصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك مافرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها ،لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ،فان العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكافها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وان كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه، وكلما بتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة. أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب مايصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في ابنائه بل ما يجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً، وذووا حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلماً، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقاماً، وأسود تحولت أنعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت

ألبابها ،وألزموها ماليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة العرابية العشواء ،فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب ، على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة أخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين ،بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة . وربما يوجد من يدري أن مسببيها في حيرة من تلافيها ، نعم إنهم غرسوا غرساً إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوماً . لاجرم هذه هي العواقب التي لامحيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغلغل في حرصه ، ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، أواقتناء فائدته ،لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم ،أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط ،وغرهم ماوجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء ، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى مافيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لايحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين .فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت

أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية

إن الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكامت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين ، فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم ، وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيراً ، بل نفيراً عاما ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان، متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقي مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

الا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير(١) الممتد

١) الكرير صوت في الصدر كصوت المختنق او المجهود وقد استعارها هنا للمراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقعا وأشد تاثيرا فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

من مصر الى مكة ، ومن مكة إلى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ماهم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن في الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها ، وإلى الله عاقبة الامور

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع، لاينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ،يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ،بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم . واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون

في مدينة حرة كمدينة باريس، ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيهاً للغافل، وتذكيراً للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشىء تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم، فلبي رغبتهم، بل أدى حقا واجباً عليه لدينه ووطنه، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال

الجريدة ومنهجها

سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك مافات، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومناشىء العلل التي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتاه فيها الخرّيت (١) وضل المرشد، حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين، ولبست عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العناية بلغت حدها

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح، ويكفي في الوصول اليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة

١) الخريت بكسر الخاء وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقها

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها (١) ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة الا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف . وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات

وتهتم بدفع مايرمي به الشرقيون عموما والمسلمين خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لاخبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون .

ولا تهن في تبليغ الشرقيين مايمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لاتميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لاتظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا غوروا . وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب

« ١ » يريد الدولة الروسية التي جمعت كلمة شعوبها وعنيت بجعلهم امة حربية مسلحة بأحدث آلات القتال وآخذة بأحدث نظمه اقتباسا ومحاكاة لمن سبقوها بالعلم والاختراع والصناعة

يحول الله مواقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق

المقالة الثانية

الجنسية والديانة الاسلامية (*

إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم، وأن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث فى علة هذا الوجدان ، حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم مانراه فى حال طفل ولد في أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى أن عقل ولم يذكر له مولده فانا لانرى في طبعه ميلا اليه ، بل يكون خالي الذهن من قبله ، ويكون مع سائر الاقطار سواء ، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه ، والطبيعي لايتغير . ولهذا لانذهب إلى أنه طبيعي ، ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات . فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة ، وفي أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان ، فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابا طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة

*) نشرت في العدد الثاني من العروة الوثقى بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١

حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر . ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بأنه لابد أن يكون جائراً اذا حكم، ولئن عدل فان فى قبول حكمه ذلا تحس به النفس ، وينفعل له القلب ، فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب ، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى ، وتتضاءل لعظمته القدر ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام ، وهو مبدأ الكل ، وقهار السموات والارض . ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه ، مساهماً للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكم أحكم الحاكمين . فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به ، اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فمحي أثرها من النفوس ، والحكم لله العليّ الكبير

هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبتهم الاسلامية . فان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة ــ وهي علاقة المعتقد ــ لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة . فيكون

وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الآلهية التي لاتميز بين جنس وجنس، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخار تكسبه الانساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الارواح والاموال والاعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية »(١) والاحاديث النبوية ، والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى ـ اتباع الشريعة ـ (ان أكرمكم عندالله أتقاكم) ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لاشرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ،ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه الى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع ، وعنايته بالمحافظة عليه .

وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امتثالهم للأحكام الالهيـة واهتدائهم بهديها ، وتجردهم من الاعتلاء الشخصي ، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أبهته ورفاهة معيشته ، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد، رجعت الأجناس الى تعصبها ، ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ماأرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لايعتدّون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس . وانما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذاترى العربي لاينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الافغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لايأنف ولا يستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى

(١) رواه ابو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعا

قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . نعم اذا نبأ في سيره عنها ، وجار في حكمه عما نصت عليه ، وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم ، أشنع حالا من الاجنبي عنهم (١)

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عند مايسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان . وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة . ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة .

أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ، ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم ، وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة . وهو المعبر عنه فى الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين ، وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الاجناس المتباينة ، والأمم المختلفة

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ، ويضيق منهم الصدر ، لجور حكامهم وخروجهم

«٢» آخر امثلته رجوع العرب الى عصبيتهم الجنسية وانقباضهم من الترك حين شرعوا يميزون أنفسهم من حيث انهم ترك ... بعد ان ظلوا قرونا لا ينفرون من سلطة الترك اذ كانت باسم الاسلام لا باسم « الحاكمية التركية الملية »

في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجؤن للدخول تحت سلطة أجنبية ، على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالألم رجع واسترجع . وإن بعض مايطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين . فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مايكون ضررها بالسلطة العليا ، فاذا رجع الوازعون في الاسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وفقنا الله للسداد ، وهدانا طريق الرشاد

المقالة الثالثة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (*)

(سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فاذا هي بجملة كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة بعد ماثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ،

(*) نشرت في العدد الثالث من "العروة الوثقى في ٢٩ جمادي الاولى سنة ١٠٣١

وأحست مشاعر سواها من الامم بان لاسعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

وبعد هـذا كله وهي بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الاهواء، وانشقت العصا، وتبدد ماكان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عري التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عن حفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لايلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا، وذبول يظنه المغرور زهواً، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فابادها، وحدثت فيهم قناعة التهم، والرضا بكل حال، والئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه الى مايكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجداً، عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الاسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس، فتغل يداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل مافيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ماأتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ماقام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ماكسبوا، وقيما على ماأورثوه لاعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى وأسفاً ماأصعب الداء، وما أعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج!

كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه؟ استغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به، ولكنه صرف اشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه، نعم ربما التفت كل الى ماهو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لايدري من أي وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ماسكنت زمانا غير قصير إلى ماليس من معاليها؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه، خصوصاً بعد ما استدبر المقصد، وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الحظوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه، المبتهج بأحلامه، وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر؟

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها، وتتناءى أطرافها، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة، وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ماتراكم جهل وران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر؟ أيم الله أنه لشيء عسير، يعيا في علاجه النطاسي، ويحار فيه الحكيم البصير. هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء، وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فان كثيراً من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر، ثم لاتظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

كلا إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنّه وعمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو

ارجاع شرفها ومجدها اليها ، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين . وكما أن المتطبب القاصر في الامراض البدنية لايزيدعلاجه المرض إلا شدة، لولامساعدة الاتفاق والصدفة ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت - كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ، ومكانتها الاولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين . فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء ، والوجود فناء ، فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي، لايجرأ على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح مافسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علماً أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء

ظن أقوام في هذه الازمان أن أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل أنهاض الهمم، وتنبيه الافكار، وتقويم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الاغراض؟ فبعد ماعم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون . لاتجد لها قارئاً ، ولئن وجدت القاريء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل مايجده على غير ماراد منه لضيق في التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبه غذاء لايلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً . على أن الهمة اذا كانت في درك الهبوط . فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيها مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث؟ إن هذا وحقك لعزيز .

ويظن أقوام آخرون أن الامة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلادها إلى مادون رتبتها بدرجات لاتحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان

خاضعاً لسيادتها ، راضخاً لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا ، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب . ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون ؟ فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر ، يحمل الأمة على ماتكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ، ثم يكون فيها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة . وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر ، وثروة تغني ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين .

فان قالوا : يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، وانفقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لايدعون لهم سبيلا ، لأن يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ . على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد ، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن ما يصيبه البعض منها يهيؤه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته ؟ واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ! ؟ وكيف بذرت بذورها ؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت ؟ وبأي ماء سقيت ، وبأي تربة غذيت ؟ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات ، وإن وصل اليها طرف من ذلك ، فانما يكون ظاهراً من القول لا نبأ عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها ، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها ، يقوّم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم . لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم — وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام

المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم — يكونون بين أمتهم كخلط غريب لايزيد طبائعها إلا فساداً

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيـه حالهم ، يؤدون ماتعلموه كما سمعوه ، لايراعون فيه النسبة بينـه وبين مشارب الأمة وطباعها ، وما مرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام إلا من الكبير ، وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ماتعلموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ؟أو يزيدها على مابها أضعافا ؟ وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها ، وإنما هم لها نقلة وحملة . فهؤلاء الصادقون إلا من وفقه الله منهم بعنايتـه الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لهـا غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة ، وسنه سن اللبان لايقبل سواه ، فيسرع اليـه المرض ، وينتهي به إلى التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقيـة الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

شـيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل مايسمونه تمدنا ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا

أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطات ماينجئهم اليه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حدًّا يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ؟ فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها ، وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم

نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود مايكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم . وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحوّل الى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعوّد على الصنع الجديد، وثروتهم لاتسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوّه وجهها ، ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤمًا على أبناء أمتهم ، يذلونهم

ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتي يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

أقول ولا أخشى لوماً : لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكليز؟ لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك ، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون في تطمين النفوس ؟وتسكين القلوب ، حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم

***

فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخامدة ؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها ، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منغضة إلى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ، ولكني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل : أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ،وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها ، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم ، وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها ، إنما هو دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منوّر للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعتها،ولها وردت ، وعنها صدرت. فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا، وحدوث بدع ليست منها في شيء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ . فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها . . . . فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفي زواياها نور خفي من محبته ، فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت . فاذا قاموا لشؤونهم ، ووضعوا أقدامهم على

طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني . . . . . . ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحساً ، ولا يكسبها الا تعساً .

هل تعجب أيها القارىء من قولي إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية !؟ ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد ! ! هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ، ونوّر عقولها ، وقوّم أخلاقها ، وسدّد أحكامها . فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف . وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوّعة والتبحر فيها . ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس ، وهندسة أقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وارسطو ، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها . .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها . ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا في عدد آخر إن شاء الله وهو الموفق للصواب

المقالة الرابعة

النصرانية والاسلام وأهلهما (*

﴿ مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة نشرت بالعنوان الآتي ﴾

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه . بل جعله ركن وجوده ، ودعامة بقائه . فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبدٍ وحضارة ، صنيعة أعماله : أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً ، وأكنانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره . وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده . فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل . فصنعته أيضاً من صنعه . فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل. هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه. دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالما صناعيا:

(*) نشرت في العدد الرابع من العروة الوثقى الذي صدر في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ الموافق ٣ ابريل سنة ١٨٨٤

شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى . وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم، ومرامي أفكاره ، ومناهج تعقله ، ومذاهب ميله ،ومطامح رغباته ، ونزوعه الى الاسرار الالهية ،أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية . وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء ، أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية۔إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات،والاقوام والعشائر والمخالطون وأما هواء المولد والمربي ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية ، والصفات الروحانية ، إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية ،على ضعف في ذلك الأثر . فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع . نعم إن أفكاراً تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ،وصفات تسمو ، وهمما تعلو ،حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين . ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أن ثمرة ماغرس ونتيجة ماكسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعا . فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي

هذا مما لايرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لاتحتاج فيه الى تذكير ، لأنه مما لايعزب عن الأذهان — إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكراً يجحدها :

إن الدين وضع إلهي ،ومعلمه والداعي اليه البشر ،تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ في الأفئدة ، وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن

الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها . وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخط فيه رسم الدين . ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ،حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

*

وبعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية ، وهو بحث طويل الذيل . وإنما نأتي به على إجمال ينبئك عن تفصيل : إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية — ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر — ومن أخباره أن الملوك انما ولايتهم على الأجساد وهي فانية . والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده.

فمن يقف على مباني هذه الديانة، ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثراً في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه . يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي ! المنتسبين في عقائدهم اليه . فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فنا جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم

عن العناية بحفظ أملاكهم ، فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل، يحكم حكماً لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابدّ أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون — كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها — ومن تأمل في آية (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها ، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه . ومن لاحظ أن الشرع الاسلامي حرّم المراهنة إلا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها . ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوّة ، ويتساهلون في طلب لوازمها . وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم . واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ، ورضخوا(١) لأحكامها . ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الاولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الأولين ، قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لايحار الحكيم وإن كان نطاسياً ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه

« ١ » وضع هذه الكلمة هنا مما سبق الى قلم الاستاذ من انشاء الجرائد ، والصواب أن يقال خضعوا أو خنعوا — وأما الرضوخ فمعناه العطاء القليل

الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحوّل مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الأرواح ، أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال ، أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس. وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة، ويتقاربون في الأنساب الدانية ؟ أينسب هذا إلى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الألباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، فزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها — ذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس أن محموداً الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع ، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه (سنة ٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها . فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة

وموضع للعجب ! ويظن أن لابدّ لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول . ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي انما امتدّ ظله وعمت دعوته في الممالك الاوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ماورثوه عن أسلافهم . ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوربا ، وافترقوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادا وميض ماأودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسخ لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم مانالوا ، وأخذوا من كل كمال حربي حظا ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ماليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال . هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع ، وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ، ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ، ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ،

وإن مايلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم ، وفتوراً فى العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصاً بعد حصول النقص فى التعليم ، والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه . فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه

إلا إن هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لاينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلابد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان . وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل لايعين لها وجهاً ، ولا يخصص لها طريقاً ، فاننا لانرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ماسلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم ، وضناً بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع ، والى الله تصير الأمور .

المقالة الخامسة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك (*

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

إن للمسلمين شدة في دينهم ، وقوة في إيمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وإن في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ في نفوسهم أن في الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم ، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا أن واحداً ممن وسم بسمة الاسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لايتمالك قلبه من الاضطراب ، ودمه من الغليان ، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية مارأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن

---

*) نشرت فى العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى في ١٤ جمادى الاخرة سنة ١٣٠١ و ١٠ إبريل ١٨٨٤

فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطر، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التماص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الايمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململون، وإن جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً واياباً تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملا منه: إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم أن الانسان انسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الى مرايا عقله من

مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ،فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار ، مادامت الارواح في الاجساد ،وكل قبيل هو للآخر عماد .

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ماتبعث عليه الضرورات ، وتلجىء اليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية ، كالاحساس بالجوع والعطش والري والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الاوقات إلى مايمكن تلك الصلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ماذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجىء الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة ،والنظر فيها بعين الحكمة ،يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ماهم فيه مع شدتهم في دينهم ،والعلة في تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ،وانقطع التعارف بينهم

وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لاتواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركي فى غيبة عن حال العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم ،والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم إلا مايكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لاأنساب بينهم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لاتكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لاتكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لاعلاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد الا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، لكنه لضعفه لايبعث على النهوض لمعاضدته . كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ماأضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف

الأندلس . تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس،وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولايرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً، وانفرد كل بشأنه وانصرف الى مايليه، فتبدد الجمع الى آحاد،وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما الى ملك أو مذهب،فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة،وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي خزائن النفس من المعلومات،ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان،وماهو الا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الاموات من الأقارب، لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ،ولادفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ،ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبط الروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ،ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الي معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ،حتى يتمكنوا بذلك شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها

بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع ، فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين مايتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع مايغشاها من النوازل

الا إنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة هي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد دارستهم التجارب ببيان لامزيد عليه ، وماهو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو مايخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير

المقالة السادسة

التعصب (*

(اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد المشرقية تلوكه الالسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع ، حتى صار تكأة للمتكلمين ، يلجأ اليه العيي في تهتهته ، والذملقاني في تفيهقه (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا

*) نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى في ٢٨ جمادي الآخرة سنة ١٣٠١

(١) التكأة بضم ففتح كهمزة ما يتوكأ عليه كالعصا والعيي الذي لا يبين فهو فعيل من العي وهو العجز عن الكلام والتهتهة ضرب من اللكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفيهق في المنطق التوسع والتنطع فيه

وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماه علة لكل بلاء، ومنبعاً لكل عناء، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للرذائل. والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤس ويعبثون باللحي ويبرمون السبال واذا رموا به شخصاً للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصباً، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشمخوا بأنوفهم كبراً، وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور. ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ؟ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدراً لكل نقيصة ؟ وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبة، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء. فالتعصب وصف للنفس الانسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً، كبدن تألف من أجزاء وعناصر، تدبره روح واحدة، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص. وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتغالبتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ الكلمة. والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ماتسعه الطاقة

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد

حواسه ومشاعره ، فاذا ألمّ بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وإن استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه ، وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلي ، وتبطل هيئة الأمة وان بقيت آحادها ، فما هي الا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حدّ اعتدال ، وطرفا إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه ، والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء . فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الأجنبي عنه كما ينظر الى الهمل ، لا يعترف له بحق ، ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة ويذهب بهاء الأمة ، بل يتقوّض مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الأمم . وكل قوّة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال .

وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية »

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس ، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات، لايختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين مايصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض ، اذا وقف عند الاعتدال ، ولم يدفع الى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصاً ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط . فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل مابينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد ، وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم — هذا الاثر الجليل عهد لقوّة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد

اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه

ثغشغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني . وزعموا أن حميـة أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المدنية . ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعـدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأي أولئك المثقفين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العـقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون،إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ، ويقيمها على جادة العـدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ،خصوصاً دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة ،وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة ،وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثـل مايعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي الى قيام أهـل الدين لابادة مخالفيهم ومحو وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية اندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ماحصلت الشوكة للدين المسيحي ، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم ،إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مـدة ،ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعـد السلم والرحمة والعدل .

أما أهـل الدين الاسـلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال

الماضية إلا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ماتجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على ماتقول ،وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ،إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان . ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم إلا مالا تخلو عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة . وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ماكان . وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدينهم والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة ، وانما كانت لهم دعوة يبلغونها، فان قبلت ، إلا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ما كانوا يطأون أرضا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين أولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية، بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده — هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة . لأخال عاقلا يرتاب في صحة ماقررناه ، فما لأولئك القوم يهذرون بمالا يدرون ؟ أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟

ثم إن الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لاتكون إلا بالعصبية الاعتقادية . ولأولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ،فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ،فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لايعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته

من هذا ماسلك الانكليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفي دينهم مايبعثهم على الحركة الى استرداد ماسلب منهم ، وأرشدهم البحث في طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية . وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ،

ويلبسون لباس المسلمين ، وفي صدورهم غل ونفاق ، وفي قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجربة أي الدهريين فاتخذهم الانكليز أعواناً لهم على افساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين المذدين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانكليز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة — تعس من يبيع ملته بلقمة — وذمته برذال العيش (١)

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرهما من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيداً من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنيـة الجديدة ، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هـذه الاهواء الباطلة ولكننا نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين مع بقائهـم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنيـة الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهـذا يشقون عصاهم ، ويفسـدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفي محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونهـا مادامت الارض أرضاً والسماء سماء . والله ماعجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من

«١» كان السيد جمال الدين الذي أملى هذا الكلام على الاستاذ المحرر« رحمهما الله) سيء الظن بمدرسة عليكرة ومؤسسها ولاشك في الانكليز كانوا يساعدونها لما ذكره ولكنها كانت نعمة على المسلمين وتخرج كثير من كبار الوطنيين الصادقين

العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة ، الافرنج أشد الناس في هـذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه . ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، واذا عدت عادية مما لايخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلا، وهيعات ونبآت تتلاقي أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية وينادي جميعهم : ألاقد ألمت ملمة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها، حتي لاتنخدش الجامعة الدينية، وتراهم على اختلافهم فى الاجناس ، وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وإن كان فى أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كانما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية . وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوربيون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لايعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ماتجاوزوه . أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلادستون وأضرابه ، ثم لاتجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب(١) بل لاترى روحه إلا

«١» هو داعية الحرب الصليبية وموقد نارها

نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة)

فيا أيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشنكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ، حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم ، فلا توهنوها ، ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لاربابها ، وحسن المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة ، فان مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه باشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)

المقالة السابعة

القضاء والقدر (*

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية، فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على مابينا في بعض الاعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة. ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً، بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب. وكثيراً ماكان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير. وهذا مايحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان، أو عقيدة من العقائد الحقة، استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة

(*) نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى بتاريخ ٤ رجب سنة ١٣٠١ أول مايو سنة ١٨٨٤

الاسلامية الحتمة . كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: أن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، الامراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة . كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره ، فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية وضعفا قاتلا ، فينال من بلادهما مالا يكلفه عدداً ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة ، الى ما يلحمون به الأمم في العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، واذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية ، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار ، وزعموا أن لا منشأ لها

إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر ، وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل . ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق . ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم ، وافتروا على الله والمسلمين كذبا — لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وإسماعيلي (١) وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختياريا في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية ، والنواهي الربانية ،

« ١ » عد الاسماعيلية من المسلمين سبق قلم يظهر وعد الوهابية فرقة تقابل باهل السنة جرى على المشهور عند العامة والذي عرفناه من الاستاذ أنه يعد الوهابيين سلفيين ودعاة إصلاح في الاسلام

الداعيـة الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكاليف الشرعي ،.وبه تتم الحكمة والعدل

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الانسان مضطر في جميـع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضـغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقـدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضـيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ، وسهل على من له فـكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سـبب يقارنه في الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ماهو حاضر لديه ، ولا يعـلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقـدير العزيز العليم . وإرادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الارادة إلا أثراً من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات ، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره أبله ، فضلا عن عاقل . وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزاء له ، خصوصاً في العالم الانساني

ولو فرضنا أن جاهلا ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم ، فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية ، فهـل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنّة التي سنّـها الله في خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين — وإن بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجؤا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في إثباتها . ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بآرائهم

إن للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والافكار، بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول، أو فناء بعضها واندراس أثره

هذا الفن الذي عدّوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ،والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف للحادثات . ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة . ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء . ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء . كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الآلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى المهالك

والأقطار يفتحونها ، ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوّخوا الدول وقهروا الأمم . وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا الى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوّعة ، أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات .

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريضة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها القضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ، وردّوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم ، كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة ؛ وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ؛ وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الأولاد مهابة

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم

فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

(بكائي على السالفين وتحيتي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروة، وشوامخ القوة؟ أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الامجاد الأنجاد القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ، ومن ينتحل نحلتكم ! ! انحرفوا عن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعاً ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل؟ (انا لله وانا اليه راجعون)

أقول وربما لا أخشى واهما ينازعني فيما أقول : إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ماوجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات، ثم رقي بهمته في أعلى الدرجات ، فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله ! ! الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة ، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ؟ وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ، ولا أثر لهول المظاهر؟

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر فى فتوحاته الواسعة ، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة . وأن الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة .

وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت. نعم اننا لاننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر. وربما كان هذا سبباً في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الأعصر الأخيرة. ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ماأثبته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منافي العمل، لافي البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ماأوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم، وترد اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

وأما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه مايكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة الى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوربية بأسرها على ديارهم، وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الامر فيهم الى غير

أهله، وولي على أمورهم من لايحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لاتتجاوز لذته الانية ، وأخذ كل منهم بناصية الاخر ، يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلة صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة ، فآل الامر بهم الي الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه .

ولكني أقول - وحق ما أقول - ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح في أذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم ، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ، ويعود الأمر كما بدا وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم ، وارهاب الامم الطامعة فيهم، وايقافها عند حدها ، وما ذلك ببعيد ، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم ، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوّخوا البلاد، وأرغموا أنوف الملوك ، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية ، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم ، وحركة في طباعهم ، أحدثها فيهم ماتوعدتهم به الحوادث الأخيرة من ردائة العاقبة وسوء المنقلب . حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الانحاء شرقًا وغربًا ، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع ، والسعي بغاية الجهد لبث افكارها ، وجمع الكلمة المفترقة، وضم الاشتات المتبددة ، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية ، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض مايضمره الاجانب لهم ، وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها ، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عمومًا وللمسلمين خصوصًا ،

المقالة الثامنة

الفضائل والرذائل وأثرها (*

(وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين)

قالوا للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى اليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل، فما هي الفضائل وما هي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل، فان من سجية كل منهما البذل في الحق، والمنع إذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية. والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات، فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة، وفي طبيعته الايثار بالرغائب، وهكذا إذا استقريت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشيء عن تلك الفضيلة، فاذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلها، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما وعلى هذا النحو يكون الأمر فى الاشخاص الكثيرة ، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية، وعروة الاتحاد بين الآحاد، تميل بكل منهما إلى الآخر، وتجذب الآخر الى من يشاكله، حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم، يتحرك بارادة واحدة ، ويطلب فى حركته غاية واحدة

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان

(*) نشرت في العدد الثامن من جريدة العروة الوثقى في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ ١٥ مايو سنة ١٨٨٤

وقف بكل من آحادها عند حده في عمله ، لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فبه يكون التكافؤ والتوازر

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية الآلهية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الانسان ممتازاً عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد ، والافراد فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال ، وإنما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي ، كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول ، وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها الابصار وتمييز الأشكال والألوان ، وليس من وظائفها البطش ، والكل حي بحياة واحدة ، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب الدافع ، وجميع من يدبر أمورها ، ويسوسها في شؤونها ، إنما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها (من الأعلياء أو الأواسط ، بل سائر الأطراف) ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل ، ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى إلى غاية تميل به عن غاية الكل ، ولا يهمل عملا يتعلق بالأمة ، حتى يكون الجميع

كالبنيان المتين لاتزعزعه العواصف ، ولا تدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الاغيار عليها ، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق

إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغايرون إلا للاتحاد ، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ، ومثالهم في تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما في منفعة الآخر . أما ان مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وأنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم أن ماتبتهج به النفوس البشرية ، وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة ، إنما يمكن نيله إذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا ، فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله ، فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هيئتها العامة ، وإلا فقد خان نفسه ، لأنه أبطل آلة من آلات عمله ، وقطع سبباً من أسباب غايته ، ولا يحتقر واحداً من الآحاد ، ولا يزدري بعمله ، ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه

عليك أن تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيناه : التعقل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة (لين الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة

والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — ألا ترى لو عمت هذه الصفات الجليله أمة من الامم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام ؟ هل يوجد مثار للتنافر والخلاف بين عاقلين حرّين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين ؟ أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها ، أو قفراً لأنبتتها ، أو جدبا لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لها من الوحدة سياجا لايخرق ، وحرزاً منيعاً لايهتك ، وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق »(١) الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها ، كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام) والسفه والبله والطيش والتهوّر والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق ، فأي صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لايبقى أمل في الوفاق . فان طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق ، وإما السقوط الى مالا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة ، أو بأي نوع من أنواع

«١» هذا الحديث ذكره الامام مالك في الموطا بلاغا عن النبي «ص» وقال الحافظ ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا . وذكره السيوطي في جامعه بلفظ «صالح الاخلاق» وعزاه الى ابن سعد والادب المفرد للبخاري والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وعلم عليه بالصحة

التعامل ، والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعـدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها ، وإن شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين (كل يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحس الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هـل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباذ كل من صاحبه وإن لم تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قويا للتنابذ

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعـة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبيـة عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر . فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، ولا بدّ من قوّة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة .

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبي عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم ، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل منهم حقيراً ، اذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدّوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم ، واذا غاص أحـدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشفت لهم دقائق الاسرار عدّوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهـم : ليس في الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد بيننا خبير ، ويغلب عليهـم حب الفخفخة والفخر الـكاذب ، ويتنافسون في سفاسف الامور ودنياتها ، يرتابون في نصح الناصحين ، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين ، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم وجمع كلمتهم ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون في طريقة العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ، لا تنتظم

لأعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم ، فتنفلت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط ، فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلاب ، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلي بجنون مطبق، أول مايفتك بمربيه ومهذبه ، ثم يثني بطبيبه ومعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الامة قطعاً وجذاذات بعد مايشوهون وجهها ويشوّشون هيئتها ، أولئك قوم يسامون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم ، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الاعداء الألداء ، من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى في أمة أو ملة أخرى ، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقتنى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ انى يكون لهم حظ منها ، وقد كانوا ناشئين على مثل مانشأ عليه وليدهم؟

يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها. أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في

النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى، فحشدت الى الانفس أوفاد الرذائل ،فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ماأشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لاتحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على مافتكت به الرذائل فيهم بعد مابدلوا وغيروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة « ياريا » (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض، وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلب عليهم، فكشف هذا عن نوع من الضعف، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وقد يكون ذلك، وربما لاينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن صحت عقائدهم من حيث ماتعلق به الاعتقاد إلا أنهم لاينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء . وهذا مما يحدث ضعفاً في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .)

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ماطرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لايبقى وحالا لايدوم.

انظر نظرة انصاف الى ماأودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم

الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله، تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الالهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة ، لرأيت الامة الاسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع ، كل ذلك في أقرب وقت ، ولن تكون إلا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة ، فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوي فيهم إباءة الضيم والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الانفة ، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنية في دينه ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

المقالة التاسعة

الوحدة الاسلامية (*

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الارض إلا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الاشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران، تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها، بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم. وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا. ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة

---

*) نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى الذي صدر في ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ — ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ في بيان مفاسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة

«١» كلمة فغفور بوزن عصفور لقب ملوك الصين ككسرى وقيصر لملوك الفرس والروم

مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان العثماني ، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لاتبارى في البحر الابيض والأحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد إلى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم يملؤن تلك الاقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لاينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل،جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام،ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات، وأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلاوأنبه ذهناًوأشد استعداداً لنيل الكمالات الانسانية،وأقرب إلى الاستقامة في الاخلاق، وبما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف ،وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون، لايرغبون بسلطة لغيرهم عليهم: ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه ، ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا ، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم،ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع ،بعد ان كانوا فيها أساتذة

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد تبين أخيراً انهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون

العالم وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة فى شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لا لا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاكمة فى اراداتهم، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأنا بينا ان لا جنسية للمسلمين الا في دينهم ، فتعدد المملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدّت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها ، والاغسار دون الترقي في عواليها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ، وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغي، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

---

١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعا لها فى جنسيتها ودينها او حكمها ولكن الاوربيين ينقمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وهم يعملون ويسمونه منا تعصبا وما التعصب المذموم الا هضم حقوق المخالف فى الدين وايذاؤه لانه مخالف أو اكراهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل

هذا الذي أباد مسلمي الاندلس، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون. أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا مسير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة، بما غلوا من أيدي بنيها.

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات، وسوء ذكر لاتمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن وأسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه، وتباينت الرغائب الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لايحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر.

ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الاهواء، ولولا

وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لايحتاجون في صيانة حقوقهم إلا الى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الاخطار . ألم تر أمة الروس هل تجد فيها مايزيد على هذه الاصول الثلاثة ؟ هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا ، وليس في ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك مايستفيضها من الاعمال الصناعية ، فهي مصابة بالحاجة والاعواز ، غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوربا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ماعليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الاخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف وحملة تخشاها دول أوربا

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا فيما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟ ما رد الافكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين في المضجع ، وتطاول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون في حرصهم مابعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ، ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد ، وهز الرءوس وثني الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها ، بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لاحول ولا قوة إلا بالله

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ! هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . إن من أدرنه إلى بيشاور دولا إسلامية ، متصلة الأراضي ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لاينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون إخوة) فيقيمون بالوحدة سدّاً يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه . ألا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات ،

هذا آن الاتفاق . هذا آن الاتفاق . ألا أن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . إن البكاء لايحيي الميت . إن الأسف لايرد الفائت . إن الحزن لايدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح . إن الوجل ، يقرب الاجل . إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون * ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . احذروا أن تقعوا تحت قول الله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون) إن القرآن حي لايموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب بسهم من مقته

فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه، وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله بغافل عما تعملون)

ولعل أمراء المسلمين، قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين، وهموا بملافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزىء به المفرطون من قبلهم، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث الى الوحدة، وتوقظ من الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة وأقواهم شوكة . ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف، والله يهدي من يشاء، ولله الأمر من قبل ومن بعد

المقالة العاشرة

الوحدة والسيادة — أو الوفاق والغلب (*

﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ﴾

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي اليهما الدين تارة أخرى . وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل الى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لاتوضع . واذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقي بوانيه (يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع في ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقاً سويا، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلا بد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت الى الذبول والنحول، ثم أفضت

*) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ شعبان سنة ١٣٠١ و ٥ يونيه ١٨٨٤

إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لامة أن تحفظ قوامها ، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم — اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما فى أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا الا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته ، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً عقيما حائراً بين جدران المخيلة، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويخترطون سيوفاً من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونوادّ من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده

لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده. وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

اذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذي بيناه ، رأيت في الدهماء منهم والخاصة هما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل بطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الاول تدفقاً من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر .

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. جاء في قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (١) وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر (٢) وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخواناً » (٣) وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهي (إنما

---

(١) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان » الخ رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما

(٢) لفظ الحديث في هذا المعنى « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه أحمد ومسلم في الصحيح

(٣) لفظه في الصحيحين « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا » الخ ماذكره وله ألفاظ أخرى عندهما وعند غيرهما

المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد في وجوب الاصلاح وإن أدى الى مقاتلة الباغي فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) وانما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم ، فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ماتولى ، ويصله جهنم وساءت مصيراً .

وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن « يد الله مع الجماعة »(١) وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه ، وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين ،وعد جحوده مروقا من الدين ،وانسلاخا عن الايمان (٢) ومن عناية الشارع بامر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ماكان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم ، وسمي حلف الفضول لانهم تحالفوا على أن لايدعو عند أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه . هذا

---

(١) رواه الترمذي بلفظ « مع الجماعة »

٢) اجماع الامة الاسلامية كلها بالعمل على أمر من أمور الدين المراد هنا غير الاجماع الاصولي الذي هو اتفاق المجتهدين وان قل عددهم في اي عصر بعد عصر النبي (ص) على امر — فهذا من المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف من عدة وجوه . والاول يستلزم كون المجمع عليه معلوما من الدين بالضرورة لعدم خلاف احد فيه وانما يعذر في جهله حديث العهد بالاسلام ومن لم يعش بين الامة

إجمال الادلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنـة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعي لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجـد آية من آيات القرآن الشريف ألا وهي داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه . ومن الأوامر الشرعيـة أن لابدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ماجمعه العلماء في مجلدات يطول عددها - هـذا حكم ديننا لايرتاب فيـه أحـد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على مانرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينيـة موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميـل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لايتم الواجب إلا به ؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لاتنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شيء علينا إقامتها وعديدنا مئتا مليون أو يزيد ؟ هـل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهلّ بها ألسنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الاعداء إلا وأقدامنا في صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله

عليه في ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

لا . لا . إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية ،فاين المفر ؟المبصر بنور الله يعلم أنه لاسبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على مابقي في أيدينا ثم لانبدي حركة ، ولا نجتمع على كلمة، وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام.

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ، ولكن دهاهم بعض ماأشرنا اليه في أعداد ماضية فألهاهم عما يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانًا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جوّاب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة ،كل يطلب عونا وهو معه ولكن لايهتدي اليه ، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من

بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم ان يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهـم من تعديات الأجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلا وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيء لهم فوزاً ونجاحا بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

المقالة الحادية عشرة

استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها ورؤسائها(*

(ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار)

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذللها للعمـل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفـكار ووجود المقاومة الطبيعية فضلا عن الارادية . ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة وظن كل فرد انه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحريمه فلا يتسنى للقوة المغيرة ان تذل الامة إلا بافنائها عن آخرها أو افنـاء الأغلب حتى لا يبق إلا العجزة والزمنى . هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة . نعم يسهل للقوة الأجنبية ان تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر ان كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها و تدين له رقابها لمنزلة له في افئدة أبنائها ولمـكان ابائه من الكرامة في

*) نشرت في العدد العاشر ايضا

نفوسهم فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لايقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ماتحكم به أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالأماني والآمال فيذعن لما تقضي به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف أو يملكونها بالخدعة وتزيين الأماني فينالون بغيتهم ويأخذون أراضي الأمم. وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري فى الهند ولولا ماكان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز أول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة .

هذه قبائل الافغان عندما انحلت ثقتها بأميرها وصار الامر إلى الأمة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ماتمكنت عساكر الانكليز فى قلاعهم وحصونهم واستولت على قاعدة ملكهم وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم وهي ستون الفاً من الجيوش المنتظمة مسلحة بالأسلحة الجديدة واضطر الانكليز ان يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لاريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو أشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ويتيسر له أن يقف على طباعهم ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه نفوسها فى وحشة منهم اللهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا نجد الملوك العظام لايرهبون الاشتباك في حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الامة عنهم ، وما هذا الا لأن قوة المغالبين داخلة تحت الضبط

واما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاولتنا اذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها

وهبوطها وانحلالها، وانا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله ان يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم فانا لله وانا اليه راجعون

المقالة الثانية عشرة

الامل وطلب المجد (*

(انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرن * ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبيء عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ، ورفعه به على سائر الاكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد في وجدانك ميلا قوياً وحرصاً شديداً يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك، ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو في آحادها، تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً : ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعزاً في السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا ، ويعاني صعابا ، حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنم شاهق العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء . لو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل الى غاية العامل

(* نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٥ شعبان سنة ١٣٠١ و ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤

منه ، رأى أن معظمهافي طلب الكرامة وعلوّ المقام ، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الأمر والنهي ، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من ضعته فيهم ، ويحرص على ما يحله في قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ، ونافس أهلها في الجاه ، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بسيط الارض ذلك لأن الكمال الانساني ليس له حدّ ، ولا تحدّه نهاية . وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حدّاً ليست بعده غاية

سبحان الله، ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان،وماذا ملكت من أهوائه ؟ يعدّه ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه - أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لايؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها ، فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت ، وأن القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه في مبيته — آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوّعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك ، وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد — جل شأن الله لايهنأ للانسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع ، إلا أن يلحظ فيه أن مانال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة . فما ظنك بسائر اللذائذ ؟

كم يعاني الانسان من التعب البدني ، وكم يقاسي من مشاق الأسفار ، وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات ،وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ما أجل عناية الله بالانسان ، لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل

لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد ، وفي نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه ، آسف الفؤاد على ماقصر عنه .

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الالهي ، ويخوض الاخطار في طلبه ، ويقارع الخطوب في تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتذعن له بالاعتلاء ، وتلقي اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته ، فتنفذ كلمته وكلمة المتصلين به ، والملتحمين معه في شؤون من سواهم ، وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة ، يبارك فيه مدبر الكون ، فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها ! تلك حكمة بالغة : اذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الامة حظها من السؤدد . نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الآحاد منها (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع الجاهد وحده ؟ وماذا يكسبه من سعيه، إن لم يكن له أعضاء من بني قبيله ؟ فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيئ نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكمالا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الالهي ! وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به ! وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع ! ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ، فضلا عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل، وهذا الموجب الفعال هو :

الأمل

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق في يهماء الكروب ، وعلَم هادفي مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة ، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون ، ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الملك وكذا من الفضل ، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوق اليه ما يهجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة . إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل للنفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو اذا لم تغذّ بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد ، فضلا عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون . وكما كان الميل للرفعة أمراً فطريا ، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة ، غير أن ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات ، فان كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر ، فكلٌّ طالب مطلوب ، ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملا تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس ، غير مايكون به للآخر مثل تلك المنزلة ، حتى يكون جميعهم امجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم ؛ ولكنهم تزاحموا في الأعمال ، كما تزاحموا في الآمال والأهواء ، ومسالكهم ضيقة ، ومشارعهم ضنكة ، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري ، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين — فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف

وأصابها انحطاط ، وحصل الفساد في هاتين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية . وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ؟ يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير ، بل يوطنون أنفسهم على قبول مايوجه اليهم من ذلك أيّاً كان، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام، فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بحاجات قبقبهم وذبذبهم ، ثم ياليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم، فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم،فيكونون كالنمال الحمالة لاتستفيدمماتحمل شيئاً، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرهاويستريح ، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد ممـا يدأب العامل لنفسه ، ثم لاينالون مما يعملون شيئاً . ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم(هذا الذي يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فان السائدين يشعرون بحكم البداهة أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانيـة ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لايصح أن يكون من شأنها و كفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وإيداعهم ما أودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لايعاملون به مايقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب ....

ونظن أن يوجد أقوام أخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن مالا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة و كيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس

حتى لا تطلب رفعة ، وكيف تقنط حتى لايكون لها أمل ، والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان ؟ بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع، فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .

أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقاً ، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب، فلا يملّ ولا يكلّ ، ولا تدركه السآمة، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء، ويلقي قيادهم الى الاذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء ، من نواصي الاقوياء ـ وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ؟ — فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الاولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لاريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ، ومن أين

يطرق اليأس قلباً عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا [١] للذل ويرضوا بالضيم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الأمم ، فان لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الارض ، وإن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وإن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائماً تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على مايقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر مايكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي ؟ (فماذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبي ، ومشنع دني ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الاعلين في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض ؟

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح مافسد من ذات بينهم ؟

---

(١) الوجه ان يقال يخضعوا أو يخنعوا

لم لا يأتون على مافي الطاقــة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لاتخلف لمن صدق في طاعتــه واليقين به ، وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟ بلى إن قوماً شرح الله صدورهم للأيمان قاموا بهـذا الأمر في مواقع مختلفة من الارض، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ،إلا أن أملنا في بقيـة المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيـدهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

المقالة الثانية عشرة

رجال الدولة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا (*

(ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صـدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة،والقلاع المنيعة،والجيوش العاملة ، والأهب الوافرة ، والاسلحة الجيدة ، قلنا نعم هي أحراز وآلات لابد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لاتعمل بنفسها ، ولاتحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولوا رأي وحكمة، يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحـذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ،يوطئون طرق الأمن ،ويبسطون بساط الراحة،ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها، بل يحملوها

*) نشرت في العدد الحادي عشر ايضا

على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لهاء وان يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤن الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها ، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم ، يجدون في أنفسهم منبها على مايجب عليهم ، وزاجراً عما لا يليق بهم ، وغضاضة وألما موجعاً عند مايمس مصلحة المملكة ضرر ، ويوجس عليها من خطر ، ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة . يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات؟ ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم: عقلاء رحماء ، أباة أصفياء ، يهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم ؟ لابد أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الطبيعة ، فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق ، وقلما يخطيء في رأيه أو يتأوّد في عمله من أخذ به دليلا ، وجعل لهمن هديه مرشداً . واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لايجد لها من علة سوي الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية ، والنعرة على الملك والرعية ، انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها . هذه فطرة فطر الله الناس عليها: ان الملتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لاتخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أودينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أومصري ينتقد السوريين) هذا الى مايعلمه كل واحد من الامة أن ماتناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه ، خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها ، وفى قبضته زمام التصرف

فيها، فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر، ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار مايؤمله من المنفعة أويخشاه من المضرة.

فعلى ولي الامر فى مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه.

وأما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أوجرفه السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه مايبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على مايعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه. هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة، وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا، وسواء راعوا الذمة أو خانوا، أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد

لأنهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب فيها الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد، لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى، وان ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه اونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها، ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في

بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد مارأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة ، وبعد ماعلمتهم التجارب أنهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخديعة أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لاتنقص ؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وأيدي أعدائهم .

ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم (ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا الى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير . اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ، ألم تعلموا ، ألم تحسوا ، ألم تجربوا ؟ إلى متى إلى متى ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون .

المقالة الثالثة عشرة

كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة (*)

العالم الانساني كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة، ولنا في كل ماخطه القلم الالهي عبرة،

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة، فنرى أمماً علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث. ومنها أجيال كانت في ثني العدم، ثم اكتست حلية الوجود، وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم. ومنها مانراه الى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه، وينقبض للآخر اذا أنكره، وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها. فان سئل عن السبب قال: سبحان الله! هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الاشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ويعلم أن ماسيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا، وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع،

(*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ رمضان ١٣٠١ و٣ يونيه سنة ١٨٨٤

ومكانة من القلوب تحمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة، وهم لم يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم وإنما تقدموهم بهممهم ، وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة ، ورءوس مجذوذة ، وأشلاء مبددة ، وشعور منثورة ، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ، ولا محيص له عن سلوكها ، وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ، ولا بد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة، المخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، ويضعف همه ، فينكص على عقبيه ، ويرتد الى أسوإ حاليه ، ويرتع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه الاولى به وهو العدم ، وتارة يوحي اليه الالهام الالهي ، أن الشخص في خاصته والأمم في هيئاتها ، ونوع الانسان في مجموعه، تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى، ومغالبة الاهوال والغوائل، وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية ، والخواص السامية، أكبر مساعد على ماتندفع اليه الهمة ، وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لايزداد إلا حرصاً على قهرها، كما أن صاحب الشمم لايزيده الخصام إلا حدة في الجدال واصراراً على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هـذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان في ابراز مزايا الانسان

إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانة من الرفعة ، وتقصر عنه يد المتناول . وأمامن أخلد الى السفل فحظه من الحيـاة خوف لا ينقطع واشفاق لايزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل. مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما

أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رئموا الخمول ، ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد، فاما وصل وإما مات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر ، سواء في العلوم والمعارف، أوالآداب والفضائل،أوالقوانين والنواميس العادلة ،أوالعسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلكوا تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأممهم، أقصى مابلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العانون في خدمة الأمم أو النوع الانساني ، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع ؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً ؟ أليس من سنة الله في عباده أن لاتتجه الارادة البشرية إلي حركة تصدر عن المريد الا بعد تصوّر غاية تعود الى ذاته ، وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية . فماذا يقصدون من أعمالهم ؟ إن كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ، وصدّهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع، والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة ، فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم ؟ لا لذة تجتني ، ولا ألم يتقي . فما هذا الباعث القوي الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع ـ وهو حب ﴿ المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق ﴾ أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من أي وجه حقا كان أو باطلا، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأخيار ، مع تبطن سرائر

الأشرار ، فان هذا من أسوأ الخلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمدة هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات ، وازدرى اللذائذ الحسية ، وقوي فيه الميل الى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمل ، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين ، أقصاهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني . وغاية هذا الأجل عند ما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ . فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ، ووجود في جميع الأبدان ، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل . ولا ريب أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذلك الأجل القصير ، والوجود الكزّ [١] وحقيق بالانسان أن يبيع ماهو أدنى بالذي هو خير

يطول بى الكلام فأقصر . إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبلة البشر ميلا الى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة، أو كمال في فضيلة، أو تقدّم في علم أو صنعة، ويرسمونه فى الألواح ، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ، ويرفعون لها الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم ؟ إذا جحدت الأمة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقلّ السعي فى المصالح العامة ، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها ، فهبطت شؤون الامة ، فافترقت وماتت

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفا ، ولم تنكر

(١) الكز اليابس والمنقبض . وكز اليدين بخيل والمراد هنا مالا خير فيه

منكراً ، سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت إذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها . وأما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم لاعقبى له الا الموت والهلاك

كيف لا تكون المحمدة الحقة نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى لها الأعلون من بني الانسان . وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ؟ كما سوّغ ذلك لنبيه في قوله (وأما بنعمة ربك فحدث)

قلب طرفك في تواريخ الامم أقصاها وأدناها، تجد برهانا قاطعاً على أن الامة متى بخست قيم الاعمال العالية ، وازدري فيها بشأن الفضيلة ،فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس . ولا جرم إن الكفران مقرون بزوال النعم

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت فى هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعي فى توحيد المسلمين . ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المقالة الرابعة عشرة

الشرف (*

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون : فئة ترى الشرف في تشييد القصور ، والتعالي في البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات . وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلي بحلي الجواهر الثمينة ، مرصعة بالاحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلوّ أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية . حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بني ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً ، ويرفع ويزخرف بيتاً ، ويقيم له حراساً من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبديا وفخاراً سرمديا . وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الاول ليكتسي برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلي ، أو ليكون له من ذلك مايفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لايداني فيها . ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه — ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحا . وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وإن

---

*) نشرت في العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بتوقيع محمد نجيب الاسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته . وعنده أنه رقي الذروة من معنى الشرف

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ، ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك خطتهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ؟ ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره ، وولدانه وحوره ؟ ألا يحس من نفسه أنه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبي عنه . وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء في تحصيله ؟ ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فان لم تكن على جانب من الكمال الانساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ؟ أولا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور فى ميدان واحد ؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر أنه لو سلب الوسام أو نزع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار ؟ فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به ؟ ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسما ظاهراً لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سُبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلا عليه أو مشيراً اليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام واللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما اجترم .

انظر وتدبر ولا تخطي فما أنت من الصواب ببعيد . إن عثمان الغازي الذى لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ، ومنح لقباً ، وحظي بمكانة رفيعة بين

الطبقة العليا من العظماء في دولته، بعد ما دفع بروحه الموت في المدافعة عن ملته، وجاهد في إعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء — وأن بعض الامراء في ديار اسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكليز جزاءلهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم، حتى مكنوا الانكليز من ديارهم. وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها — أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدر أولئك المخدوعين، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه.

ماذا غرّ أولئك الواهمين على اختلافهم؟ ألا يعلمون أن الثياب المعلمة بالدم، الموشاة بالنجيع، الملونة بالمهج، هي التي حفظت للابسيها ذكراً حسناً لا ينقطع، وأثراً مجيداً لا يمحى. إن الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد لملتهم، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب. ألم يصل اليهم أن الذين قضوا نحبهم في غيابات الجب، وانتهت حياتهم فى ظلمات السجن، لطلب حق مسلوب، أو حفظ مجد موجود، هم الذين سما ذكرهم الى شرف الشمس الأعلى، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء. أظن أن الذين كانوا في الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا، لم يبق لهم ذكر، ولم يكن لهم في حياتهم شأن، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم. ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفة ويكتسون حلل الخز والديباج، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم، وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا إلى الدنيا، ومتى انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحداً يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا؟ نعم يقولون: علم وعمل، وأعطى وبذل، ورفع ووضع، وجاهد وكافح، وأباد وأبقى، وما يشاكل ذلك من الاعمال التي لها أثر ثابت. إذا ذكر الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولا؟ أي أبله يطالب سيرة

نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها ؟ وهل بلغ عظماء العالم مابلغوا من مقامات الشرف بعد ماشيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا، أم كان جميع ماينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي؟

خدع قوم بالاحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التي لامسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدّها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم مايحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

— لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذراريهم لطرحوا الوشاحات ، ونبذوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي

— الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر . وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

— الشرف بهاء للشخص ، يحوّم عليه بالأنظار ، ويوجه اليه الخواطر والأفكار ، وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار .

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه ، يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الانساني عامة ، كانقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق ، وسؤدد سلب [1] أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم ، أو تحذير من شر يغم ، أو

«١» في الاصل سلق باللام فهو محرف عن سُلب أوعن سمق بالميم بمعنى علا وارتفع وهذا اقرب الى اللفظ وذاك اليق بالاسلوب

تهذيب أخلاق ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة وتجديد رابطة، أو إعادة قوة ، وانتشال(١) من ضعف أو ايقاد حمية أو حضو لغيرة.

من أتى عملا من الاعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب القفر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربا والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدي اليه ضالة الألباب ، وتائهة الافئدة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه . له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لايكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستتر حتى يبصر ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين . حياة طيبة في القلوب ، وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله . ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدّوها شرفا ، وحسبوها مجداً . وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء . وانما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القذر . لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم ، أو يقصده بالاضرار من لاذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزؤن ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها . ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة وحافظ الثمرة ، وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في

«١» الانتشال اخذ اللحم عن العظام او نشله من القدر بالمنشال « حديدة معقوفة لأجل النشل » واستعمله المتأخرون من الكتّاب بمعنى الانتياش وهو الانقاذ من التهلكة . ومعنى المادتين في الاصل متقارب

نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندم على الخطيئة ، وأسف على السيئة ، وألم في قلوبهم تهيجه ذكرى ما قدموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا . فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات . نعم انه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم في الأفئدة ، شاهد على الألسنة ، حي يرزق عند ربه ، ونعمت الحياة حياته . ولمثل هذا فليعمل العاملون

المقالة الخامسة عشرة

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان (*

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ، ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين ، واستلفاتا لعقولهم الى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصاً جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الاقطار الاسلامية ، فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم ، الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم اليه عقولهم العالية ، خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية ، واحياء الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانيين .

*) نشرت فى العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ و ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٤

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الاصل الفارسي القديم . وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الاسلامية، ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هـذا التغاير الخفيف سبباً في تخالف شديد.

ليس ببعيـد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية ، وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه ، وكشف أسراره . وما قصروا فى خدمة الشرع الشريف بأي وسيلة .

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم اراضي ايران .

أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران،أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وأبو اسحق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه، نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين .الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس

أن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ،منهم سيبويه وأبو علي الفارسي والرضي ،ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية . وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروزآبادي من إحدى بلدانهم

الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس .

الطبري أول المؤرخين ، والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس

الشبلي كان من نهاوند ،وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام،والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة، وكلها بلاد ايران هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس . من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندركسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس (١)

أي فضل كان، ولم يكن لهم فيه اليد الطولى،أي مزية من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس » (٢)

---

(١) أن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد وتربة لا جنس ولا لغة ، وكان منهم الفارسي المعروف الاصل كسيبويه والجوهري ... والعربي المعروف النسب كعبد القاهر الجرجاني والسيد الجرجاني والمجد الفيروزبادي وابو الفرج الاصفهاني وأبو اسماعيل الهروي الانصاري ... ومنهم المجهول النسب كالغزالي. وذلك ان الاسلام مزج بعضهم ببعض فكانوا أمة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالعلم والعمل الصالح . ثم فرقت السياسة بين العرب والفرس . وستجمع بينهم السياسة التى جملت الجميع مهددين باستعباد الافرنج لهم

(٢) الحديث مروي عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ « لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس » هكذا ذكر في الجامع الصغير وعليه رمز اتفاق البخاري ومسلم (ق) ورمز الترمذي و بجانبه الاشارة إلى ضعفه وهي غلط من الطبع . ثم ذكره عنه بلفظ « لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس » وعزاه إلى الحلية لابي نعيم والالقاب للشيرازي مع علامة الضعف . وسبب ذلك انه من طريق شهر بن حوشب وهو مختلف فيه وثقه جماعة وضعفه آخرون . ولعل أعدل الاقوال فيه ما ذكره الترمذي عن البخاري قال عنه : شهر حسن الحديث ، وقوى أمره اه وروى عنه مسلم وأصحاب السنن الاربعة . وأما الحديث الاول المتفق عليه فروي بلفظ الدين و بلفظ الايمان وروى فى سببه انه لما نزلت سورة الجمعة وقرأ النبي (ص) قوله تعالى بعد آية بعثته في الاميين — أي العرب — (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال أبو هريرة الراوي قلت من هم يارسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا (قال) وفينا سلمان الفارسي وضع رسول الله (ص) يده على سلمان ثم قال « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء »

فياأيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية .

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ماكان لكم في فتوة الاسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لايخفي عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانيين، والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين .

أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانكليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الافغانيين .....

هل يخفي عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم معاخوانكم الافغانيين . ؟ حصلت لكم تجارب كثيرة ،وشهدتم من مظاهر الحوادث مافيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة .

هذا آن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الاعداء ببلادكم ،شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ،حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم ، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لاتصادفونها في غيره. الانكليز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على مانعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للانكليز ، وبينه وبينهم حزازات لاتزول ، بل نقول إن عداوة الانكليز سارية في عروق الافغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية ، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة ،وتتجدد لهم آمال جليلة ، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت تنبهت فيه أفكار الافغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسئلة المصرية ، وتحركت

فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم هذا عمل من أجل الاعمال وأجزلها فائدة ، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين ، وإن لذلك لأثراً عظيماً في النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الاعلام ،والمجتهدين الكرام .

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم ، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا ، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلا لهم النجاح .

أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ، ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لايأبى المبادرة اليه والسعي فيه . إن البادىء بالعمل في هذا المقصد الاسمى هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجني ثمرته في وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو مايختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية ، وكثرت عليها عاديات جيرانها ،ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربا ، وعند مارجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية،وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع اليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكام أوربا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية، أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحاً فى جرائدهم وينشروها فى بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين . وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .

المقالة السادسة عشرة

امتحان الله المؤمنين (*

آلم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين

من الناس بل أغلب الناس يقول : آمنا : وللايمان آثار . ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم احسن عملا ،حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس ، وغرت بها الأماني ،وأنهم تائهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء ،وهم خلو من كل شيء، ولما يدخل الايمان في قلوبهم . ألا انهم في حسبانهم لخطئون ،فلن يدع الله المغرور في غيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين. ولئلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ، ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ،أن يجازي من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدي . إن المغتر بزعمه الحائر في ظلمات أوهامه، الذي لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق ، تجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم

---

*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس في ٦ ذي القعده سنة ١٣٠١ و ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤

الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يتّرددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدقت كتبه ورسله ، إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال ، وتأثيراً في الأفكار والارادات ، لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره ، له خواص لاتفارقه ، ونزعات لاتزايله ، وصفات جليلة لاتنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لاتباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانو يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً ابريزاً صافياً من كل غش ، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيما مقيما . ماأصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات ، وبذل الأموال ، وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان ، فكل تهلكة فيه فهي نجاة ، وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي ، وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر ، وإن كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل مافي أيدي المؤمنين . ان للمؤمن حياة وراء هذه الحياة ، وان له لذة وراء لذتها ، وان له سعادة غير مايزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله

إن الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدي . لاسعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الأعناق . ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان

محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن انه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى ، واول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ، ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلة ، مادامت الرجل تمشي ، والعين تنظر ، واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، إلى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد ، فان يطيعوا يؤتهم الله أجراً حسناً ، وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليما . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة ، وهنالك الجزاء الأوفى ، فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان ، القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ، ان عدل الله يتركهم وما يظنون . كلا انهم في كل عام يفتنون ، فلينظر المفرطون في دينهم ضناً بأموالهم ، أو صوناً لأرواحهم ، ماذا يكون موقعهم من علم الله ؟ هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين ؟ أرشد الله المؤمنين إلى وسائل خيرهم ، وبصرهم بعاقبة أمرهم .

المقالة السابعة عشرة

أسباب حفظ الملك (*

أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

أهلك الله تعالى شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين * حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً ، (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثا * أمر الله عباده بالسير في الأرض فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه في كتابه المنزل يحكم حكماً لا يخالطه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء ، وما مسها الضر في شيء ، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الاهواء والشهوات ، كما أن للأغذية واختلاف الفصول والأهوية أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده

(* نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤

تحديد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في اطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . وأما تأثير أحوال بني الإنسان في هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك،إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف،وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيئاً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمي البصيرة، أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهيه في قوله (ولا تفرقوا — وقوله — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعلو كامتكم

ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به ،سبباً في اختلال الامن وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس في طبعه مايبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا مايحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ،ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله ، وإن كان ملكا ضاع ملكه ، أو أميراً بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة. فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى فى قوله(لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق)وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويعدلها ما لا صالحاً في الآخرة. وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه فى شيء فاته سائر الاشياء ، فلو توغل فى الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطر فيما أنعم عليه ، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحلّ به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته ، أو يواطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لايعجم إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لايخفى الا على بصيرة كمهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (١) * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لاتجأروا اليوم أنكم منا لاتنصرون (٢) * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) (٣) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ماأوتي الانسان من العلم إلا قليلا . لايمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، خلق الانسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لاريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة

---

(١) الآية من سورة القصص (٢٨ : ٥٨) (٢) هما من سورة المؤمنين (٢٣ : ٦٥ و٦٦) (٣) هي من سورة غافر (٤٠ : ٧٤) والاقتباس لايشترط فيه الترتيب

من آراء العقلاء ، وهو أشد افتقاراً الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشاداً فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوغ عن هـذا الصراط المستقيم ؟ وأي بصيرة لاتهتدي الى هـذا المنهج القويم؟ (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين)

ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضـة لاطماع الطامعين ، وأن الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم ، وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم قوام الملك ، أن يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعـداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوي شوكتهم ، بأي وجه كان ، ومن أي نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار

هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليـه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب مايقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هـذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الاشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ، ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض ، وثبت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله

تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله . كذلك الجور فى الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل، وكثر النهي فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي فى هذا الباب . العدل هو الحكمة التي أمتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ،فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار فى الأرض ،وتتبع تواريخ الأمم ،وكان بصير القلب،علم أنه ما انهدم بناء ملك ،ولا انقلب عرش مجد ،إلا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الاجنبي، أو استبداد فى الرأي ،واستنكاف عن المشورة ، واهمال في اعداد القوة ،والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الاشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في النظام ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ،واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان ،(ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ،ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم)، ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره (فأذاقهم الله

الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)
على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة العلماء الراسخين ، وماهم بقليل بين المسلمين ، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ، ووكل الى ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحملة الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ، وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بارشادهم .

المقالة الثامنة عشرة

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*

إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق والى طريق مستقيم ، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم ؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً ؟ هل افترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلقوا عليه أفكا ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لايدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج ، وفصل فيه كل أمر ،

*) نشرت فى العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقي في يوم الخميس فى ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ و ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤

وأودعه تبياناً لكل شيء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. هو الصادق في وعده ووعيده، ما اتخذ رسولا كذاباً، ولا أتى شيئاً عبثاً، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون — ويقول — ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين — وقال — وكان حقاً علينا نصر المؤمنين — وقال — ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) هـذا ماوعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا، ولا ينال هـذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه. هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده، وعدها بالنصر والعزة وعلو الـكلمة، ومهد لهـا سبيل ماوعدها إلى يوم القيامة، وما جعـل الله لمجـدها أمداً، ولا لعزتها حداً.

هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها الى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير فى سببه كل عقل، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الاسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر في همتها اختلاف الاهوية، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة. كانت تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها، ويستهينون بها، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة

وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يختلج بصدر أن هـذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك، الأمة المرحومة على ضعفها مالم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ماعاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا، وسعادة في الآخرة .

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس،وأراضيها آخذة من المحيط الاتلانتيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الاجانب على شعوب هذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعدقطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة ، ويمسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم

هذه هي الأمة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يدوهن صاغرات، استبقاء لحياتهن ، وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية . يالمصيبة ويالرزية !!

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل ماسبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالعهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعـد ماأكده لنا ؟ حاشاه سبحانه ! لا كان شيء من ذلك ولن يكون،فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ماسقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لايغير مابقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتي يغير اولئك القوم مابأنفسهم من نور العقل

وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنّة ثابتة لاتختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدّل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى في الخلق والايجاد ، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال .

علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان ؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح ؟ هل غيّر الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه، وبدل في أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا مايحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً ، فبدّل عزنا بالذل ، وسموّنا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهريا ، وتخاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل الى النجاة والانابة اليه . كيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكا؟

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة،

كل واحد منهم يودّ لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يحنّ أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاًّ ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا .

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ، ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً ، ويقولون في اقدامهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ؟ ممتع بالسعادة الأبدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

فلينظر كلٌّ إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتيَ يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الايمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ، إن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل في صيانتها من الأعداء أهمّ فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، وإجماع الأمة سلفاً وخلفاً ، فما لنا نرى الأجانب

يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي ، وتتخذوه إماما لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح. ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرؤا منه (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم . هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غرّ كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أقول ولا أخشى نكيراً : لايمس الايمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان ، لايراعي في ذلك عذراً ولا تعلة ، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول : إن الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول ، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ماعليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم الى عهد الله الذي لايخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهر الأبصار ، وأعمالا تحار فيها الأفكار . وإن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعدّ النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريباً ، فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، صحت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة

المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)

المقالة التاسعة عشرة

القضاء والقدر (*)

(أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة — قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم)

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات ، وان لم تكن في أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من تحدي الرسالات ، وقد ينسبها الغُفل الى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن درك الأسباب وفهم الصواب . وأما من أتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل مكسوب بعمل . وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية مايدل على تقارب العقول ، بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر

(*) نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ، ومنحه مايكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لايظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق ٥

هناوقفة الحيرة: استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان.ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار، ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لايخيب طالباً، ولايرد سائلاً،اذاصدق القاصدفي قصده ،واخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول الى ماأعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزي، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة مصدقة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزي كل نفس بما كسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا ردت المسببات الى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها، وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل : الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذي قطع روابط الامم فحل نظامها ، هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق ابواب الخير في وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد،ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلا ، وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيما .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم

يبق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء، واحساس لا يلم به الا ألم اللاواء. هـذه حياته: اضاع كل شيء، في القناعة بلا شيء، وهو يظن انه أدرك البغية، وحصل المنية

ماهو الجبن؟ انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الامراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعيـة، وله أسباب كثيرة لو لوحـظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت. الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح. ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم، ولكنـه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدرُ الآجال جل شأنه (وماتدري نفس ماذا تكسب غـداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغـفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجـله. نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ماجعله واقياً للحياة ـ وهو الشجاعة والاقدام ـ سبباً في الفناء. يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً، ويتوهم أن في كل خطرة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف انما هي أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته، ومن كل خير حرمته.

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام، لتغتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لاشقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الاعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن؟ ماذا يبسط أيدي الادنياء لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر، يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسنا ومقاما كريماً .

ينبغي ان يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن اداء ما يرضي الله، وانهم لا يبتغون إلا رضاه . يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب؟) الخ الآيات، الاقدام في سبيل الحق، وبذل الاموال والأرواح في إعلاء كلمته ، أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الالهي ، بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن في قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلاص لله والتخلي عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنيين ، اما أن يعيش سيداً عزيزاً، وإما أن يموت مقرباً سعيداً، وتصعد روحه الى أعلى عليين، ويلتحق بالكروبيين، والملائكة المقربين،

من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء . كل

آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . هذا نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطىء والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف واحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقوداً ، ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

المقالة العشرون

الامة وسلطة الحاكم المستبد (١)

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها فى منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم مايشاء ويفعل مايريد . فتلك أمة لاتثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل مايعرض عليها من

«١» نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ و١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤

هذه الاحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكمها عالما حازما ، أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبوابا للتفنن في الصنائع ، والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة ، وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير

وإن كان حاكمها جاهلا ، سيء الطبع ، سافل الهمة ، شرهاً ، مغتلماً ، جباناً ، ضعيف الرأي ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان ، فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس ، فتمتد اليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة ، عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه ، وغرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وجددوا لهم بنية صحيحة ، سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة ، وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يصرفها ، فأنذرها بمضض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الأمم ، جزاء على مافرطوا في أمورهم ، وما ربك بظلام للعبيد

المقالة الحادية والعشرون

الوهم (*

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء عن عين البصيرة ، لكن له سلطان على الادارة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا .

الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدري ما ذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، اذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ، لايهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق اهـ المراد منه

---

*) صدر مقالة سياسية في مسالة السودان ومصر نشرت في العدد السابع عشر من العروة الوثقى الذي صدر بباريس في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ولم ننشرها برمتها لالتزامنا في هذا الفصل نشر مقالات العروة الاصلاحية من دينية واجتماعية ، دون السياسية ، كهذه المقالة وجميع مقالات العروة الافتتاحية ، وتلك سياسة السيد جمال الدين رحمهما الله تعالى

استدراك على الفصل الاول

(جامع الكتاب) إننا بعد أن طبعنا ما كان لدينا من مقالات الأستاذ الامام التي كتبها قبل دخوله في أعمال الحكومة الرسمية، و بعد طبع مقالات الوقائع المصرية أيضاً أرسل الينا الأديب العصري الشهير سليم بك العنحوري الدمشقي صاحب ديوان (سحر هاروت) مقالة من قلم الأستاذ الامام نشرت في إحدى الجرائد في ٣١ يوليو سنة ١٨٧٩ الموافق ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ موضوعها انتقاد رجال الدولة العثمانية على ما كانوا يرومونه من العبث باستقلال تونس الاداري ، ومن محاولة إبطال حقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط اسماعيل باشا التي أفضت الى تدخل الدول وإلجائها الباب العالي الى جعل فرمان تولية توفيق باشا كفرمان والده ، وفيها الثناء على توفيق باشا ووزرائه ، وبيان مايجب على حكومته بأسلوب بيان مايرجى منها

جلس محمد توفيق باشا على كرسي الخديوية في رجب سنة ١٢٩٦ وكتب الأستاذ هذه المقالة في تأييده وتأييد حكومته في شعبان ، تنفيذاً لخطة الحزب الوطني الذي أسسه السيد جمال الدين وهو الذي سعى لاسقاط اسماعيل وتولية توفيق إذ كان مشايعاً له ومنتظما في سلكه ، وصدر أمر توفيق في رمضان بنفي السيد جمال الدين من مصر باغراء قنصل الانكليز ، وبعزل الشيخ محمد عبده من وظيفة التدريس في مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وإلزامه الاقامة في قريته (محلة نصر) لايفارقها — كما شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا التاريخ . فقد كتبت هذه المقالة بعد كتابة مقالة التربية بشهرين فقط وقد رأينا وضعها هنا استدراكا

ولما كانت قصاصة الجريدة التي نشر الشيخ فيها هذه المقالة خالية من العنوان وضعنا لها العنوان الآتي

المقالة الثالثة

الدولة العثمانية والخديوية المصرية

لم يكف رجال الدولة ما ألمّ بها من الضعف والاختلال ، حتى راموا تجريدها عن الأولياء والنصراء ، بما يتخذون من تنفير النفوس ، وأسباب إفساد القلوب . فمن ذلك ماروته بعض الجرائد من محاولتهم إزالة الاستقلال الاداري عن تونس وإرسالهم الى فرنسا من يستميلها الى ذلك القصد ، فان هذا الأمر (ان صح خبره) يوجب لامحالة انقباض الحكومة التونسية ، ويبعثها على الالتجاء الى الدول الأجنبية ، تلتمس منهم المساعدة ، وترجوهم الحماية، فيسومونها بذلك ما يرومون، فلا تعصي لهم أمراً ، ولا تخالف لهم رأياً .

ومن ذلك مابدا منهم في المسألة المصرية مما أوجب أسف المصريين عموماً وحكومتهم خصوصاً ، فانهم قد راموا في بادىء الأمر أن يبطلوا ماتقرر لها من الحقوق ، وما ثبت من الامتيازات ، غير ذاكرين ما تقدم لها من الخدمة ، وما سبق من المساعدة والنجدة ، فدعتهم الدول الى العدول عن ذلك ، فلجأوا الى المماطلة والمدافعة شأنهم في غالب الأمور والأوقات ، على علمهم بماينشأ عن ذلك من تعطيل المصالح وتأخير الاصلاح المالي والاداري ، وما يترتب عليه من تداخل الاجانب فيما لاينبغي لهم التداخل فيه من أمورنا الخصوصية، وأحوالنا الداخلية حتى وقع ذلك بالفعل، اذ تداخلت الدول في الأمر بالصورة الرسمية، وألجأت الباب العالي الى اصدار الفرمان ، مثبتاً لما تقرر في الفرامين السالفة من حقوق مصر وامتيازاتها — أفلم يكن الأجمل بالدولة أن تفعل اختياراً ، ما ألجئت الى فعله اضطراراً، فتستبقي بذلك ولاء قوم فدوها بالاموال، وأهرقوا في مساعدتها دم الرجال؟ على أن المصريين لايعدلون عن ذلك الولاء ، ولا يطلبون به بديلا ، علماً منهم بأن تلك المعارضه لم تقع من الجناب السلطاني ، وانما صدر بها عن رأي الصدر السابق (يريد به خير الدين التونسي) فان هذا الوزير على سعة علمه ،

وحسن نظره وذكاء نفسه ، لم يستطع مقاومة ميله الذاتي في هذا الأمر ، بل أخذته فيه المودة الخصوصية لمن اصطنعه ، وكان علة رفعه الى ذلك المقام الأسنى ، فبذل المجهود في القيام بأمره والانتصار له ، على علمه بأن ذلك لا يغني عنه شيئاً ، لوجود القوّة فيما يخالفه ، فان القوة لا تقاوم مع الحق ، فكيف ترجى مقاومتها بغير حق ؟

ولقد استعفى الوزير المشار اليه من منصبه كما أنبأنا التلغراف ، وكتب الفرمان السلطاني مثبتاً لفرمان سنة ١٨٧٣ فلم يبق لنا في هذا الأمر مايدعو الى النظر فيه . ولكننا نرجو أن يكون من آثاره انتظام أحوال الدولة العلية ، وترتب شؤون الحكومة المصرية

فأما الأول فلا يكون إلا بالاصلاح المستمر ، مبنياً على قانون يحفظ نظامه ، وترعى أحكامه ، ليستقيم به أمر العدل الموجب للنجاح ، وتنحسم أسباب الظلم المؤذن بخراب العمران ، ولا يحصل ذلك إلا بالحرية الذاتية ، والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس ، فلا ينقبضون عن السعي في الاكتساب والمصالح فانه لا عزّ للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا تحصل العمارة الا بالعدل ، وما العدل الا الحرية والمساواة . قال أحد الحكماء : كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقا لم يفرضه القانون ، فقد ظلمه ، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والناهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو علة قوتها ، بل مادة وجودها ، فاذا سلمت الدولة من هذه المعايب ، أمنت المصائب والمعاطب ، ولا سبيل الى ذلك الا برفع الاستبداد ، وتقرير أمر الشورى

وأما اقامة أمور الحكومة المصرية ، فهي الآن في عالم القوّة ، تعدّها معدّات حسن القصد وصفاء النية ، وسنراها بعناية أميرنا الجديد ووزرائه الكرام ، بارزة الى عالم الفعل ، يتقدمها نظام الشورى ، معيناً للأمة حقوقها ، مبيناً لها واجباتها ، فتنتظم بذلك الأحوال المالية ، والأمور الادارية ،

وتنجوبه من ربقة التداخل الأجنبي ، الذي جعل في كل مملكة شرقية دولا مستقلة ، وحكومات مختلفة ، وألجأ أهلها الناطقين بلغتها ، المستظلين بحمايتها ، النابتين في أرضها ، المسترزقين من خيرها ، الى الانحراف عنها ، والانتماء الى غيرها ، يتفاخرون بذلك ولا يحسبونه عاراً ، بل يعدّون البقاء على ولاء الحكومة المالكة عجزاً وضعفاً ، لما هو ظاهر من امتياز أهل العقوق بالسطوة والقوة والمنعة ، وإن دولة المطيعين صارت لهم كبتاً وعاراً وذلا وصغاراً ، وللأجنبي عزّاً ورفعة وسعة ومنعة

وكيف لانرجو ذلك وقد علمنا علم اليقين أن أميرنا الفتى منزه النفس عما يوجب هرم الدولة من الترف والاستبداد ، بدليل تعففه عن معظم الراتب المعين له ، وإثباته لقانون شورى النواب ، الحاسم لأسباب الاستبداد ، فلا شك أن سيكون من أعظم سيرته ، وأفضل رغبته ، ما كان لله رضى ، وللحق قواما ، وللأمة عدلا ، وللدولة نظاماً

الفصل الرابع

﴿ما نشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية﴾

المقالة الاولى

مصر وجريدة الجنة (*

(كتب الينا بعض أهل الفضل ممن له مزيد اطلاع في أحوال مصر بما يأتي)

وقفت بالصدفة على نسخة من جريدة (الجنة) الغناء المؤرخة في الحادي عشر من شهر رجب ، فاذا فصل في فاتحتها يبحث في شؤون القطر المصري وعلائق سكانه مع حضرة خديويهم المعظم ومعاملتهم لذوي المصلحة فيه من الاجانب فأنحى على المصريين بالتقريع والتعنيف ووجه اللائمة عليهم في ذنوب كأنهم كانوا اقترفوها، ودعاهم الى طاعة خديويهم كأنهم معه في عصيان، ونبههم على مزايا الجناب الخديوي وفضائله كأنهم عنها في غفلة . وكنت رأيت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى مثل ذلك من قبل بأيام فشكرت لصاحب القلم ما أخلص من نصيحته وحمدته على عنايته بأمر المصريين

غير أني وجدت حال المصريين في ماضيهم وحاضرهم ينطق بخلاف ما تفهمه عبارته من أنهم منحرفون عن الخديوي المعظم وأن حضرته نزل في أعينهم عن المقام الذي يستحقه من الاجلال . والحوادث المصرية شاهدة على أن أسباب المشاكل في القطر المصري غير ماذكره حضرة الكاتب . والسجلات الرسمية والاعمال الثابتة حاكمة بنقيض ماأثبته من جناية المصريين على الاجانب أو تطاولهم إلى مس المصالح الدولية . وجميع السياسيين من أهل المسكونة (ماعدا بعض

*) نشرت في العدد ٥٧٨ من جريدة ثمرات الفنون التي كانت تصدر في بيروت بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٠٣ من غير عزو - وهي مما زدناه في الطبعة الثانية

رجال الانكليز) في اتفاق على خلاف ماذكره من أن دولة الانكليز مستمسكة بالحق في تعرّق الديار المصرية . لهذا رأيت أن أكتب اليكم بمجمل من القول لتنبيه من لم يقف على الحقيقة أو طال عهده باخبارها فنسيها ، فان رأيتم الفائدة في نشره فذلك اليكم

الجناب الخديوي كان أعرف الناس بأهل بلاده ودرجة استعدادهم فنظر اليهم بعين المرحمة ، وافتتح ولايته الميمونة بأمر كريم أصدره في أوائل رجب سنة ١٢٩٦ هجرية بعد استوائه على كرسي الخديوية بايام ووجه به إلى دولتلو شريف باشا ، وكان من فصوله مايحدث عن مقاصد سموه في حكم بلاده فجعل منها توسيع نطاق الشورى وتخويل النواب حق النظر في برنامج المالية ولم ينسخ هذا الأمر بغيره . وثابر دولتلو شريف باشا على انفاذه وسعى لذلك سعياً بليغاً حتى في زمن انعزاله عن الحكومة إلى أن عرف برجل الحرية ، ثم إن جناب الخديوي هو الذي أصدر الأمر بانتخاب النواب وباجتماع مجلسهم في سنة ١٢٩٩ ونفذ الأمر بتأييد من شريف باشا . وأشد الناس كانوا حرصاً على الحقوق الوطنية وتوسيع دائرة الشورى هم أكرم الناس منزلة لدى الحضرة الخديوية في هذه الأيام ، ولو أراد مريد أن يصرح بأسمائهم لفعل ولكن ظهور الأمر غني عن البيان . فلو قال قائل إن طلاب تلك الحقوق أخفض شأناً من أن تناط بهم الأعمال في أقل الأمور كما أثبته الكاتب لكان ذلك تطاولاً على الجناب الخديوي وعقلاء رعيته مثل دولتلو شريف باشا ، ولو كانت إجابة طلب أولئك الطالبين تعدُّ مشايعة للفساد و تغريرا بالبلاد لما صدرت به الأوامر الخديوية مع تقرر ماللخديوي من أصالة الرأي وحسن الرعاية لمصالح بلاده . ودعوى أن البلاد صارت حكومتها إلى الفوضى جرأة على المقام الخديوي بنسبة الضعف اليه، ورمي له بعدم القدرة على تلافي الأمر في بدايته ، وإنا نجلُّ مقام الحضرة الخديوية عن مثل هذه الظنون ، ومن ظنها به فقد مسّ مقامه بأشد مايقدح به في حاكم من جهة كونه حاكماً . برأه الله مما قالوا

فقد كانت منزلة الخديوي في نفوس رعيته هي المنزلة التي نالها من يوم

توليته ورعاياه كانوا من أشد الناس محبة له ومن أخشعهم خضوعاً لأوامره، وجميع نظامات الحكومة وأعمالها التي نفذت وأجريت فيما بين الخامس عشر من شوال سنة ٩٨ والسادس والعشرين من شعبان سنة ٩٩ كلها باوامره العلية ولم يدرك سلطته أدنى ضعف . وأما ماتقدم ذلك من حركات الجند فلم يخرج عن حدّ نزاع خاص بين بعض كبار الضباط وبين بعض رجال الحكومة لكن الجناب الخديوي كان في منزلة الاجلال من نفوس العامة والخاصة ، ولولا خيفة التطويل لسردت كل قول شاهداً على التعضيد

غير أن الحكومة الانكليزية على عاداتها في اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير في بعض نظامات الحكومة الخديوية سبباً للمناوأة ، واندفعت لتسيير مراكبها إلى مياه الاسكندرية تهديداً لحكومة الخديوي وعدواناً عليه ، ثم نفخ بعض رجالها في أنوف ضعفة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انكليزية ، وأقامت منها حكومة انكلترا حجة في العدوان على الأراضي الخديوية ، ولو أن بصيراً نظر إلى أحوال القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ما كان قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ماكان بعده .

المصريون لم يتطاولوا لمس المصالح الدولية ولا في وقت من الاوقات فقد قرروا في مجلس نوابهم أن يكون العمل على قانون التصفية الذي أسسه دولتلو رياض باشا في سنة ١٢٩٧ بالاشتراك مع وكلاء الدول ، وأخذوا على أنفسهم بالقول والفعل أن لا يبحثوا في أمر رابطة من روابط الحكومة مع الدول العظيمة مما تقرر في عقود الحكومة ، وقد مضى ذلك الزمن ومخصصات الديون تؤدي مستوفاة في آجالها ، وحقوق الاجانب في مكانها من الرعاية ، إلا أن الحكومة الانكليزية تهيأت لها فرصة للتقدم إلى بعض ماكانت تنزع اليه من زمن طويل فتجنت على المصريين بما لم يجنوه

ولم يزل المصريون على وفاق في تعظيم خديويهم وتعضيد سموه في رعاية المصالح الدولية مع المحافظة على حقوق البلاد إلى أن حال الانكليز بحربهم الظالمة بين جنابه العالي وبين رعيته فساءت ظنون قوم من كبار ضباط الجند لبعدهم عن حقيقة أمر خديويهم ، فاستمروا على المقاومة ظناً منهم أنهم لا يقاومون إلا الانكليز ، ولا يدافعون إلا جيشاً أجنبياً يغير على البلاد ، ووافقهم على ذلك عامة المصريين لهذا الظن نفسه ، فلما طالت المدة وفشا ما كان من أوامر الجناب الخديوي وإرادة الحضرة السلطانية فيما بينهم كان ما كان من تراجع الناس ، وتسليم القيادة الى حاكمهم الشرعي ، وخضع له المصريون كافة خضوعاً غمر أفئدتهم ، وخالط ألبابهم ، وهذا شأنهم الى اليوم . ثم حالهم مع المسيطرين عليهم من الانكليز لم يتعد حدود المسالمة والامتثال لأوامرهم ، رجاء التخلص من غوائلهم ، وانتظاراً لوفائهم بوعودهم ، ولو كان المصريون قوماً شرس الطباع صعاب المراكب ، جفاة الجوانب ، لما سكنت لهم ثائرة ، ولما جنحوا الى مسالمة ، ولما رسخت قدم الانكليز فيهم على قلة جيشهم ، وشدة ما لاقوا من عنتهم ،

أما فضائل الجناب الخديوي من العفة والاستقامة والشفقة على الرعية والسعي في مصالحها ، فهو مما ذاق المصريون لذته ، ووجدوا فائدته ، فلا يرتابون في شيء منه ، والتنبيه عليه اعلان لخفائه على أعين مشاهديه سنين عديدة ، فهو إلى الطعن أقرب منه الى المدح . ورضاء الحضرة السلطانية عن الخديو المعظم وإقامة الشواهد على الرضاء باهداء النياشين والتحف مما نشرته الجرائد المصرية وشهد المصريون رونق الاحتفال له وبلغ شاهدهم غائبهم ، فأيُّ أثر للاحتجاج به بعد سبق علمه بأزمان عند من تقام الحجة به عليهم؟

وبالجملة فالمصريون قوم عرفوا بالطاعة لحضرة سلطانهم المعظم أمير المؤمنين أيده الله ، وعلموا أن الجناب الخديوي نائبه في بلادهم ، ومظهر سلطته عليهم ، فهم له خاضعون ، وعلى محبته متفقون ؛ فان نقل ناقل خلاف ذلك فهو إما طالب فساد ، أو منخدع بوسوسة أجنبية ، فقد تبين أن من حظ الانكليز ايقاع النفرة بين الخديوى ورعيته ليتم لهم ما يريدون منهما ، كما مرنوا عليه في كل بلد دخلوه

هذه هي الحقيقة التي ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء ، فلم تكن أسباب المشاكل ماذكره حضرة الكاتب وإنما سببها الجشع الانكليزي كما اتفق عليه سياسيوا العالم . ولم يكن تداخل الانكليز حقاً مفروضاً في بداية الأمر ، ولا حلولهم اليوم يعدّ من حسناتهم ، فانا لم نسمع بأن الديون تخول للدائن حق التغلب على الممالك ، وأمم العالم بين أيدينا تهتف بنا أحوالها

ولو شاء حاكم أن يحكم بحق لأحد في التداخل لأصلاح أمر من أمور مصر فليحكم به للدولة العلية فهي حاكمة البلاد ، ولا تعجز عن تقرير النظام فيها بالكلام ، فضلا عن تجريد الحسام ، ورحم الله أمرأ عرف حده ، فوقف عنده ، والله الموفق لما فيه الصلاح

المقالة الثانية

كتب المغازي وأحاديث القصاصين(*

سألني سائل عن الرأي فيما يوجد بأيدي الناس من كتب الغزوات الاسلامية وأخبار الفتوح الاولى ، وعما حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والى كبار أصحابه رضي الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شيء منها ، ثم خص في السؤال كتاب الشيخ الواقدي الموضوع في فتوح الشام ، وذكر لي أن بعضاً من معربدة هذه الأيام المعتدين على مقام التصنيف ،قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم ، ومثابة يرجعون اليها في رواياتهم، ليتخذوا منه حجة على مايروّجونه من تشويه سيرة المسلمين الأولين ، وليسلكوا منه سبيلا الى إذاعة المثالب ، ونشر المعايب وأن بعضاً آخر من ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من أنفس ما ذخر الأولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز في خزائن الكتب السياسية ،وحقيق أن ينقل من اللغة العربية إلى غيرها من

*) نشرت في العدد ٥٨٧ من جريدة ثمرات الفنون البيروتية في ٢٦ رمضان سنة ١٣٠٣

اللغات، فأجبت السائل بجواب أحببت لو ينشر، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر لم يُرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى، حتى عرف ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم، بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، حتى خطب في الناس قائلا: «أيها الناس قد كثرت عليَّ الكذابة، ألا من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أو كما قال(١)

إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حقَّ على الناس بلاؤه في دولة الامويين، فكثر الناقلون، وقلَّ الصادقون، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه، خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم، حتى سئل عبد الله ابن عباس رضي الله عنه: لم لاتحدّث؟ فقال: لكثرة المحدثين. وروى عنه الامام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال: مارأيت اهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث(٢) ثم اتسع شر الافتراء، وتفاقم خطب الاختلاق، وامتدَّ بامتداد الزمان، إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين، والعلماء العاملين، ووضعوا للحديث أصولا، وشرطوا في صحة الرواية شروطا، وبينوا درجات الرواة وأوصافهم، ومن يوثق به ومن لايوثق به منهم، وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الاسناد، وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد، وامتاز الحق من الباطل، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها، وثبت علم ذلك عند كل ذي إلمام بالديانة الاسلامية.

وقد روي عن الامام مالك رضي الله عنه أنه كان قد كتب كتابه الموطأ

---

(١) لا أذكر انني رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر انه مروي بالمعنى بقوله أو كما قال (٢) روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحه عن يحيي بن سعيد القطان بهذا اللفظ وبلفظ الصالحين بدل أهل الخير ولم يذكر ابن عباس وأوله بان الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدون الكذب يعني يرون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم نقدهم

حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع حديث « قد كثرت عليَّ الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن، فان وافقه والا فاطرحوه» عاد إلى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء لم يخف على أهل النظر في التاريخ أن الدين الاسلامي غشي أبصار العالم بلامع القوَّة ، وعلا رءوس الأمم بسلطان السطوة ، وفاض في الناس فيضان السيول المتحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولي الألباب عليه آيات بينات. فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام: قوم اعتقدوا به إذعاناً لحجته واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون. وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه، واتسموا بسمته ، إما لرغبة في مغانمه ، أو لرهبة من سطوات أهله ، أو لتعزز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الاسلام على ظواهر أحوالهم ، إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم ، ويضارعون المسلمين في ظواهرهم . وقد قال الله في قوم من أشباههم (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فمن هؤلاء من كان يبالغ في الرياء، حتى يظن الناس أنه من الاتقياء ، فاذا أحسَّ من قوم ثقة بقوله أخذ يروي لهم أحاديث دينه القديم ، مسنداً لها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو بعض أصحابه ، ولهذا ترى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق ، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية ، وفترت الهمم عن الانتصار للحق ، كالاحاديث الدالة على انقضاء عمر الاسلام (والعياذ بالله) أو المطمعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا . كل ذلك يضعه الواضعون قصداً لافساد المسلمين ،

وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم ،ويضعف حولهم .

ومن الكاذبين قوم ظنوا أن التزيد في الاخبار والا كثار من القول يرفع من شأن الدين ، فهذروا بما شاؤا ، يبتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث . ويريد بأهل الخير أولئك الذين يطيلون سبالهم ، ويوسعون سربالهم ، ويطأطئون رءوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بها في الحركة سبحهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : منقادون لحملة الحق ، لا بصيرة لهم في أحنائه ، ينقدح الشك في قلوبهم لأول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون . اه فهؤلاء قد يخيل لهم الظلم عدلا ، والغدر فضلا ، فيرون أن نسبة مايظنون إلى أصحاب النبي مما يزيد في فضلهم ، ويعلي في النفوس منزلتهم ، فيصح فيهم ماقيل : عدو عاقل ، خير من محب جاهل . ومن هؤلاء وضاع كتب المغازي والفتوح وما شاكلها

أما الشيخ الواقدي فكان من علماء الدولة العباسية ، ولاه المأمون القضاء في عسكر المهدي ، وكان تولى القضاء في شرقي بغداد . قال ابن خلكان : وضعفوه في الحديث وتكلموا فيه اه أي عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نص الامام الرملي من علماء الشافعية : على أنه لا يؤخذ بروايته في المغازي [1] فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود في أيدي الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على أني لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه ، لم أكن مخطئاً

---

(١) أقل ماقيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعي وأحمد وروى البيهقي عن الشافعي انه قال كتب الواقدي كلها كذب ، ووثقه آخرون ولا خلاف في كونه من أعلم علماء الملة . كما في تهذيب التهذيب

وذلك لأن الواقدي كان من أهل المائة الثانية بعـد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هرون الرشيد ، ويواصله ويكاتبه ، وصاحب هذه المنزلة في تلك القرون إذا نطق فى العربية فانما ينطق بلغتها ، وقد كانت اللغة لتلك الأجيال على المعهود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ ، وبداوة التعبير . والناظر في كتاب الواقدي ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين في أساليبها ، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبي عبيـدة وغيرهم رضي الله عنهم لا ينطبق على مذاهبهم في النطق ، بل كلما دقق المطالع في أحناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين في الديار المصرية من أبناء المـائة الثامنة والتاسـعة ، ولا يرى عليـه لهجة المدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدني المنبت عراقي المقام ، ولولا خوف التطويل لأتيت بكثير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينها وبين مناهج أبناء القرون الاولى في التعبير ، على أن ذلك لايحتاج الى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية

فهذا الكتاب لاتصح الثقة به ، إما لأنه مكذوب النسبة على الواقدي وهو الأظهر ، وإما لضعف الواقدي نفسه في رواية المغازي كما صرّح به العلماء ، فلا تقوم به حجة للمتحذلقين ، ولا يصلح ذخراً للسياسيين ، ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي ، وكثير من الكتب المتعلقـة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة إلى الشيخ السـيوطي ، وقصص روايات تنسب إلى كعب الأحبار أو الأصمعي ، وما شاكلها ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة اليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك ممـا لا اعتداد به عند العلماء ، ولا ثقة بما يندرج فيه . والعمدة في النقل التاريخي كتب الحديث كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفدا وأمثالهم . وعلى أي حال فلا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ماينطبق على الواقع وما ينبو عنه

هذا ماأردنا اليوم إجماله ، فان دعا إلى التفصيل داع عدنا اليه ، والله الموفق للصواب

المقالة الثالثة

مراسلات (*

(ملخص خطاب له كان القاه في المدرسة السلطانية ببيروت وكان من مدرسيها وكان بعض جواسيس فيها بلغ السلطان طعنا فيه وفي الاستاذ ، وكتبت جريدة ثمرات الفنون ثناء عليه تبغي به الدفاع عنه فأرسل اليها رحمه الله تعالى ما يأتي :)

طالعت في جريدتكم جملة تتعلق بالخطاب الذي دعيت اليه وألقيته في احتفال المدرسة السلطانية ، ولقد مننتم بذكر صفات أثبتموها لهذا العاجز ، وعندي أن نفسي تقصر عن القليل منها فضلا عن كثيرها ، فليشكركم الأدب ولتحمدكم الفضيلة . ثم إن أحد الادباء سألني أن أثبت ما بني عليه الخطاب بالكتابة لينشر ، فرأيت أن أكتب به اليكم ، فان رأيتم الفائدة في نشره فدونكم وما تشاؤون

قمت بين يدي الحاضرين فحمدت الله وصليت على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعترفت بالقصور ، واستجديت العفو من الحاضرين ثم قلت ما معناه :

أفتتح كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، السلطان عبد الحميد خان ، فمقام هذا الخليفة الأعظم فينا ، هو الحافظ لنظامنا ، والحامي عن مجدنا ، والآخذ بميزان القسط بيننا ، وهو هادينا إلى أفضل سبلنا ، فهو ولي النعمة علينا ، ولو أفرغنا جميع أوقاتنا في الدعاء لعظمته ما أدينا أدنى حقه علينا ، فاللهم أيد شوكته ، وأبد دولته ، ومتع بوجوده رعاياه الصادقين . ثم أتبعت ذلك بالدعاء لوزرائه الذين فوّض اليهم النظر في شؤون رعيته ، والقيام بتنفيذ إرادته . ثم أثنيت على حضرة ملجأ الولاية السورية ، وعلى سعادة

(*) نشرت في عدد ٥٩١ من جريدة ثمرات الفنون في ٢٥ شوال سنة ١٣٠٣

متصرف بيروت ، وذكرت فضل دولة الوالي الأفخم ، وسعادة المتصرف الأكرم في ترويج سوق العلم ، وتعزيز جانب الفضل . ثم شكرت الحاضرين على الاحتفال في ذلك المعهد العلمي . وقلت : إن الحامل لهم عليه انما هو تعظيم المعارف ، واجلال مقامها ، علماً منهم بأن العلم عزيز ، والعزيز اذا حلّ دار قوم فلم يجلوا منزلته هاجرهم وارتحل عنهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . فليحمدهم العلم ، ولتفض عليهم بركاته ان شاء الله

ثم أعقبت ذلك بما معناه :

إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في نفوسنا ، فاننا اذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم احساساً بفقد شيء كان له فهو آسف على فواته ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول اليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهتدي اليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً مخالطتنا لاقوام يدعون أنافي المنزلة المتأخرة عنهم ، وسواء أصابوا فى دعواهم أم أخطأوا ، فان الجمهور مناقد صدقهم ، ولم تزل الحيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادي على الأمة أن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه ، وكان الحق فيكم ، وكان المجد معه . كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم . ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكاتب ، وحملت رعاياها من كل طبقة على الدراسة ، وطالبتهم باقتناء العلوم ، فاستجاب لها أقوام منحتهم الفطرة قوة فى الاستعداد ، وسيتبعهم غيرهم ان شاء الله

أما العلم الذي نحس بحاجتنا اليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة وما به اصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلا . وهذا ظن باطل فانا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها ، وإن المنفعة قد تهيأ لنا ثم تنفلت منا لشيء في نفوسنا ، فنحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الايدي ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما

نشتكيه ، فمطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يمسّ النفس ، وهو علم الحياة البشرية

إذا نفخت الحياة في جسم نبهته لجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته ، واستحفظته مايصل اليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه ، والعلم المحيي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو في الدين ، فما فقدناه هو التبحر في آداب الدين ، ومانحس من أنفسنا طلبه هو التفقه في الدين ، ولا أريد أن نطلب علماً محفوظا ، ولكنا نطلب علماً مرعياً ملحوظا . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ، فاذا استكملت النفس بآدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق في صلاح العالم ، فانتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركيها في الوطن والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهي مايعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة ، ولا نريد من الحب ميلا خيالياً ، ولكنا نريد منه ميلا يبعث على العمل ، كما يرشد اليه الدين والأدب ، فمتى تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها فاندفعت إلى طلبها ، وطرقت لها كل باب ، لاترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل

أما دعوى أننا فقراء فهي باطلة ، فانا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجاتنا ، ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغني يبذل أموالا جمة في زخارف زينة لامقام لها في نظر العاقل ، ولا يرى فى بذله هذا مغرماً ، ثم اذا دعي الى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ، ويعطي وهو كاره ، ولو كان حي القلب بحياة العلم الحق لجعل الأفضل من ماله ونفسه مبذولا فى تأييد دولته ورفعة أوطانه ، (ثم أتيت على ذلك بشواهد وضربت له أمثالا كلها يرجع الى هذا الأصل) ثم قلت :

واننا فى تحصيل هذا العلم الحيوي لا نحتاج الى الاستفادة من البعداء عنا ، بل يكفينا فيه الرجوع لما تركنا ، وتخليص ماخلطنا ، فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب ، وليس فى كتب غيرنا مانزيد عنها الا بما لاحاجة بنا اليه ، وكما وصل الينا وجودنا بالتناسل عن آبائنا ، فلتصل الينا حياة

نفوسنا بما أورثونا من علومهم وآدابهم ، ولا يتيسر لنا ذلك الا بعلم اللغات التي أودعوها معارفهم ، وأهمها لدينا لغتان : اللغة التركية لأنها لغة دولة قامت بشأن الممالك الاسلامية مايقرب من سبعة قرون ، وقد تكلم فيها من الأفاضل والعلماء جم غفير نحن فى حاجة الى الاستفادة من معارفهم ، ثم هي اللغة الرسمية فى الممالك العثمانية ، فبها حياتنا السياسية ، وبها نقف على هدي مولانا الخليفة الاعظم أيده الله بنصره ، واللغة العربية وهي لغة القرآن الشريف ، وكتب الشرع المنيف ، فعلى الناس أن يطلبوا البراعة فى اللغتين ، لا لأن يقال كاتب ومنشىء ، ولكن ليدرك أسرار ماأودع فيهما ، ويتمكن من افادة ماقد ينكشف له . أما اللغة الفرنسوية وغيرها من اللغات فالحاجة اليها خاصة ، والاشتغال بها ولا بدّ أن يكون منحصراً فى طبقات من الناس ، إما عالم يطلب ترجمة مافيها من العلوم الطبيعية مثلا الى لغته ، واما متهيء لأن يخدم دولته فى معاملة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية ، واما تاجر يحتاج الى معاملة أناس من غير جنسه وما شابه ذلك . وليس بمحمود في نظر العقلاء أن تطلب اللغات الأجنبية لذاتها فان اللغة طريق الى ماأودع فيها ، وليس في علمها نفسها أدنى فضيلة .

ثم استطلت الكلام وطلبت الوقوف عند هذا الحد ، وختمت كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وطلبت من الحاضرين أن يؤمنوا ، فارتفعت الأيدي بالدعاء لعظمته بتأييد الملك وتخليد السلطان ، هذا ماوسع الوقت إجماله ، والله الموفق للصواب

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان في بيروت يخدم الاسلام والدولة العثمانية والشعب السوري الذي أحبه وعرف له قدره ، وكان كبار الطوائف من جميع الملل والنحل تجله وتكبره ، وما كان يمكنه أن يقيم في البلاد العثمانية متمتعاً بهذا الاحترام إلا إذا لهج بمثل هذا الثناء والدعاء للسلطان

المقالة الرابعة

رسالة السير صمويل باكر في السودان ومصر وانكلترة (*

وردت الينا الكتابة الآتية تحت العنوان المذكور أعلاه ونصها :

أبعث اليكم بسطور أظن في نشرها مايسر مطالعي جريدتكم ، فان رأيتم كما رأيت فاليكم الاختيار في درجها بصحيفتكم

طالعت في إحدى الجرائد رسالة بعث بها السير صمويل باكر الانكليزي الى جريدة التيمس موضوعها السودان ومصر وانكلترة ، فأجللت مقام الرجل من الخبرة بأحوال السودان ومصر ، ومن الاحاطة بمنزلة دولته الانكليزية من قلوب المصريين والسودانيين ، وبمكانة الدولة العثمانية من نفوس الفريقين ، إلا أنني وجدت ضعفاً في رأيه عند ما أخذ في بيان الوسائل التي يظنها موصلة لحل مشاكل السودان ، وتخليص مصر من الاضطراب العارض أو ما سيعرض في مستقبل الزمان، قال :

« عظمت رزايا السودان من فقد الرجال وإشغال الأفكار والأيدي بالمحاربات وسفك الدماء عن تعاطي أعمال الزراعة والتجارة ، حتى أصبح أهاليه في فقر أعوزهم معه حفظ الحياة ، وأصيبت مصر بالافلاس ، وابتلى أهاليها بالفاقة وضيق المعيشة . ولم يكن نصيب الانكليز من الرزية أقل من نصيب تلك البلاد ، فأنفقوا أموالا وافرة ، وفقدوا رجالا من أعز أبطالهم ، وأشجع رجالهم ، وهتكوا أستار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالخيبة والفشل ، ولصق بهم عار الهزيمة وسوء المفر . فهذا الذي أصاب البلاد المصرية ، والأقطار السودانيــة ، ونال رجال الانكليز كله من عواقب تدخل انكلترة فى المسائل المصرية ، فكان مثلها كمثل من « سقط العشاء به على سرحان » ثم قال :

« إن القبائل المنتقضة على الحكومة المصرية من أهالي السودان لا يحتمل

*) نشرت فى العدد ٥٤٤ من ثمرات الفنون المؤرخ فى ١٤ ذي القعدة سنه ١٣٠٢

خضوعها لسلطة الانكليز ، وإن ساقوا عليها من القوى ما ساقوا ، أو دخلوا عليها من أبواب الحيل ما دخلوا . أما الحيل فلا تروج على تلك القبائل بعد ماعرفت ختل الانكليز ، ومماطلتهم فى المواعيد ، وقعودهم عن نصرة من يلتمسون ولاءهم من غيرهم ، بل عن إغاثة من يتولاهم من بني جنسهم ، كما فعلوا بالجنرال كوردون ، والسودانيون والمصريون فى اتفاق على أن الانكليز قوم متغلبون ، معتدون على البلاد ، طالبون لتملكها ، وهم مخالفون للأهالي فى الدين ، فلا يسوغ الخضوع لهم ، وإن أقاموا العدل ، ونصبوا ميزان القسط . وأما القوة فقد شهدت التجربة الماضية بعدم نجاحها فى مراغمة السودانيين ، ولم ننس ما كان من الجيش الانكليزي فى كل المواقع الحربية حيث فشل فى جميعها ، ورجع بالعار عن كل موطن ، ولا قدرة لدولة على تطويع السودان ، وتقرير سلطة نظامية فى إغاثته إلا للدولة العثمانية . فهى صاحبة السيادة الدينية على مصر والسودان ولها الحق الشرعى فى الولاية عليهما ، فان صح أن السودانيين لا يميلون اليها (ولا صحة له) فمن المحقق أنهم يهابونها ، ويخشون بأسها ، لما تعودوه من سيادتها عليهم ، ولما عرفوه لها من الحق الشرعى . والتاريخ شاهد بأن العثمانيين هم الذين دوّخوا بلاد السودان بعد المعارك الدموية ، ولم يؤثر عنهم أنهم تقهقروا فى معركة مع تقارب الأسلحة فى تلك الأوقات . وأماعساكرنا (الانكليزية فقد انهزمت بمدافعها المهلكة ، وبنادقها المفنية ، وأرغمتها رماح العربان وحرابهم على الرجوع القهقري »

هذه معلومات السير صمويل باكر فى هذه الحوادث ، وانا لانخالفه فى شيء منها ، بل لايوجد ذو عقل صحيح الا ويرى رأيه فيها . أما وسائل الخلاص من هذه البلايا فنذكرها منقولة عنه ، ونأتي مع كل وسيلة ببيان الصواب فيها ، وان كنا لانتبع ترتيبه فى رسالته لغرض لنا فى التقديم والتأخير

رأى هذا السياسي كما رأى غيره من أبناء جلدته الانكليز أن من الواجب الحتمي لتقرير الراحة فى مصر وحمايتها من غارات الأجانب إلغاء الجيش المصري المؤلف من الفلاحين المصريين ، وتأليف جيش من الأرناؤط ونحوهم ، وفي

ذلك مسرة للجند الملغى بذهابه لزراعة الأراضي كما يشتهى

أما المصريون فهم كغيرهم من العثمانيين لا يفرقون بين طائفة من الطوائف العثمانية وطائفة أخرى لتكون حامية البلاد ، ومانعة لها من اضطراب داخلي أو عدوان أجنبي . ولكنا لم نعلم ما حمل هذا الرجل وغيره على التفرقة ، وهو يعلم أن المصريين هم طبقة من طبقات العثمانيين ؟ وما اعترف به للعثمانيين في تدويخ السودان يصيب المصريين منه حظ وافر ، فانهم كانوا ولم يزالوا منهم ، والجند المصري كان فرقة من العثماني في الفتوحات السودانية ، وقد كان للجند العثماني المصري وحده عمل في فتح أقاصي السودان على عهد الخديوى السابق ، ولهذا الجند يدٌ في حفظ بلاده داخلا ، ومدافعة المغيرين عليها زمناً طويلا ،وهذا الجند هو المحاصر في كسلا وسنار والتاكلا ، فان كان المصريون وهم عثمانيون لم لم يصيبوا ظفراً في بعض المواقع لهذه الأزمان الأخيرة ، فليس من ضعف استعدادهم للمغالبة أو من جبن في طباعهم كما يتوهمه المتوهمون ، وإنما كان لنقص في بعض قادتهم ، أو لكون الصدمة كانت أعظم من القوة ، أو لشيء في طبيعة الحادثة ، وقد أوفى الزمان لهم بأمثالٍ أصابهم مثل ما نزل بهم . فالجنرال غراهم انهزم في سواحل البحر الأحمر مرتين وجبن جيشه ، أو ضعف عن مقاومة أشباه من العربان ، واللورد ولسلي فشل بجيشه في السودان الغربية ، وخسر في كل مشاهده مع عراة السودان . والمصريون لم يزالوا في مواقفهم — سنار والتكلا وكسلا — يهاجمهم الموت ولا يفرون ، فان كان هذا لم يؤثر نقصاً في الجيش الانكليزي ، فمن الحق أن لا يؤخذ على المصريين مالا يخلو منه جيش في أي أمة ، على أن الألبانيين وأمثالهم إن كانوا قزما يجلبون من الأطراف على غير نظام فمن المتعذر أن يتألف منهم جيش منتظم يقوى على مايريد حضرة الكاتب ، وقد جرب ذلك في حملة السودان الأخيرة ، وإن لوحظ في تأليفه النظام المعروف في الممالك العثمانية ، فذلك جيش عثماني وأهلا به وسهلا . ولعل الكاتب رأى من الواجب أن يبدل جيش عثماني مصري بجيش عثماني تحت اسم آخر ، ويكون حلوله في مصر عوضاً عن حلول الجيش الانكليزي ، فان كان ذلك وافقناه في رأيه ؛

ورجونا أن يعجل الله بتنفيذه

ثم أشار على حكومته (الانكليزية) بأن تأخذ بأنجح الوسائل وأقربها لحل مسئلة السودان، وإرجاع تلك البلاد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة، فانه لاغنى لمصر عن شمول الراحة في تلك الأقطار، ولا أنجح من توسط الدولة العثمانية، وسوق فريق من جنودها لمحاربة السودانيين، وكسر سورتهم. فمن الواجب على دولة انكلترة أن تسعى في اعداد جيش عثماني ينزل من بلاد السودان على سواكن، فاذا وصل اليها انقسم الى فرقتين، تتوجه احداهما من طريق كسلا لاخضاع الأقطار الشرقية، وانقاذ الحامية المصرية، والأخرى تزحف من طريق بربر. والجنود الانكليزية والمصرية تحل في وادي حلفا ومديرية دنقلا، ويكون ذلك الزحف من ٢٠ أكتوبر الآتي

ولما كانت الدولة الانكليزية قد غاضبت الدولة العثمانية بالعدوان على حقوقها في مصر أخلص لها النصيحة بتجديد الوداد بين الدولتين، وطلب من دولة بريطانيا أن تعرض اخلاصها على الدولة العلية، وتؤكد لها المحافظة على المعاهدة المنعقدة بينهما على يد اللورد سالسبوري، ومن مقتضاها أن تكون انكلترة عونا للدولة العثمانية بالسلاح والرجال اذا تعرضت دولة أخرى لشيء من الممالك العثمانية. فاذا تجددت المحالفة بين الدولتين في هذا الوقت تصبح انكلترا حامية للقطر المصري، ومتفرغة لمسئلة أهم من المسئلة المصرية: «المسئلة الأفغانية»

أما نحن فنخال الدولة العثمانية تقول: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟» ان المعاهدة التي يشير اليها ان صح القصد فيها لحماية شيء من الممالك العثمانية، فأهم مقصود منها هو مصر، فانها هي البلاد التي يمكن لانكلترا أن تشترك مع الدولة في الدفاع عنها لاكتنافها بالمياه من أغلب جوانبها. وأما سائر الولايات الاسيوية فهي بعيدة عن البحر ولا قدرة لانكلترة على سوق جيش في الأراضي اليابسة اللهم إلا عدداً قليلا يمكن للدولة أن تستغني عنه. وإذا وصلت أذناب الحرب إلى البحر فاتت فرصة المدافعة. فالبلاد التي يصح التحالف مع انكلترة

على صيانتها قد أغارت عليها انكلترا نفسها فصار الحليف على صون شيء هو السالب له ، فكيف يوثق بمحالفته ؟ فان قيل نقض المحالفة كان من وزارة غلادستون فلتحافظ عليها وزارة سالسبوري . قلنا الدولة التي تكون عهودها تابعة لهوى رجالها لا يعتمد على محالفتها فلتترك وشأنها ، وان الدولة العثمانية أحرص من أن تسهل لانكلترا طريق حمايتها لمصر كما زعم حضرة الكاتب في آخر نصيحته فان ذلك أعظم الضرر على سائر ممالكها

وليس من مصلحة الدولة العثمانية أن تسير جنودها لاخضاع السودان - وعساكر الانكليز في مصر - فان الجند العثماني إذا ظفر بالسودانيين وألزمهم الطاعة ، فلا يخلو حاله إما أن يرجع بعد ذلك ويسلم البلاد لطلاب الحلول فيها من الانكليز والمصريين القائمين بخدمتهم ، فتكون الدولة قد استعملت سيفها في رعاياها قصد ادخالهم في قهر غيرها ، ومحال على الدولة أن تفعل ذلك . وأما أن يبقى الجند العثماني في السودان ، وتكون البلاد ولاية عثمانية ، وجيش الانكليز حال بمصر ، فهذا غير ممكن من وجهين ، (الأول) ان رضا الدولة بها بذلك اختيار لأخس القسمين وأبعدهما عن مركز القوة الحربية العمومية ، خصوصاً وطريق مواصلة الولايات السودانية مع قاعدة الملك لا تكون إلا من البحر ، فتكون عرضة للنزاع في أي وقت تتفرغ انكلترة من منازعاتها الاسيوية ، وتلتفت لاستخلاص السودان . (والوجه الثاني) ان انكلترة لا تأمن أن تكون قوة عثمانية دائمة الجوار لقواها الحربية في مصر ، وهي تعلم ان المصريين والسودانيين على وفاق في الميل للدولة العثمانية ، وقرب المكان يقويه وطول الزمان يظهر أثره في الاجماع على طرد الجيش الانكليزي من أرض مصر وماحله من مواقع السودان ، فلا واحدة من الدولتين ترضى بجعل السودان ولاية عثمانية مع العزم على استمرار الحلول الانكليزي زمناً طويلا

فلم يبق من الوجوه الممكنة إلا وجه واحد وهو انجلاء الجنود الانكليزية عن القطر المصري ، وحلول الجيوش العثمانية فيه ، وسوق فرقة منها إلى أطراف السودان ، وهذا أيسر الوجوه وأدناها من الصواب ، فانه لما لزم الاعتراف بسيادة الدولة العلية على السودان ومصر ، وان المصريين والسودانيين ينظرون إلى الانكليز

نظرهم إلى الأعداء المتغلبين ولا يخضعون لهم خضوعا ثابتا — وعلى هذا لا تستقر الراحة في مصر ولا تتأيد سلطة الخديوي ماداموا فيها — وجب أن يطلب الى الدولة تقرير الراحة في الديار المصرية كما يطلب ذلك منها السودان، وهذا أسهل على انكلترة ان تتفق مع الدولة عليه وتقنع من أعمالها السابقة ببعض الامتيازات في إدارة المالية أو فيها مع ادارة أخرى وبعض الخصوصيات في قناة السويس، هذا إلى أن يتألف جيش عثماني مصري ثم تعود مصر إلى ما كانت عليه ان كان لابد من ذلك، وبهذا تفرغ انكلترا من أعمال مصر الى أعمال أهم منها في آسيا لما تم لها من محالفة الدولة العثمانية على وجه صحيح ثابت

أما ما أطرى به على سعادة حسن باشا خليفه من انه الرجل الذي يجمع بوجهاته كلمة السودانيين، وانه يعسوب القبائل متى رأته التفت عليه، وانه هو الذي يسل بغض الانكليز من قلوب عرب السودان، وينشىء فيها ثقة بهم، فهو المثل المعروف (ترى فتيانا كالنخل، وما أدراك ما الدخل) فان حسن باشا خليفه ان كان رجلا فى قبيلة فليس رجلا فى قبائل، وبرهان ما نقول ما كان من أمره أولا وآخراً. ولولا خيفة ان أمس بأحواله الشخصية لذكرت من أعماله مالا وقوف للحكومة المصرية عليه (ولا ينبئك مثل خبير)

هذا ما قصدنا ايراده في هذه الأسطر والله يهدينا جميعاً طريق الرشاد

(م. ع)

(جامع الكتاب) هكذا يكون الدفاع واقامة الحجج: أرضى رحمه الله به الدولة العثمانية — وهو نزيل بلادها — ودافع عن الجيش المصري وعن حق أهل مصر فى تأليف جيشهم منهم، وكشف الستار عن دسائس الانكليز ومحاولتهم استخدام الدولة لتذلل لهم السودان بجيشها فى الوقت الذي كانوا يريدون فيه توجيه قوتهم الى الافغان، حتى لا تتسع النفقات عليهم. ومن أصول سياستهم قطع الشجرة بفرع منها، والاستعانة على الرعية بحكومتها، وضرب بعض الأمم ببعض،

* كالسيل يقذف جلموداً بجلمود *

المقالة الخامسة

مصر — المحاكم الاهلية (*

(وردت الينا الرسالة الآتية من أحد الفضلاء في مصر تحت العنوان المذكور)

رأينا بين عدة من الجرائد المصرية منافسه في هـذا الموضوع وكنتم ألمحتم بشيء من الكلام فيه رواية عن مكاتبكم في القاهرة فمن حقوق الانصاف أن تقبلوا مني ماأبعث به اليكم مما خطر ببالي ولكم بعد ذلك الرأي الأعلى

أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل في المحاكم الأهلية بمصر ، وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه في الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتـعلق به من لاأهلية فيه لاجادة العـمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد نظروا الى هذا التصرف بعين الناقم. فعارضتها جريدة أخرى ودفعت ماادعته من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عنـد الشدة ، ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوراث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد وحرب الحبش والمواقع السودانيـة ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويوازرونهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم ، وسلماً لمن سالمهم ، وأن الخلاف المذهبي لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الازمان . ولهذا لانرى للقبط في مصر مسألة سياسية تعني بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل .وأيدت هذه الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية، وما وصلوا اليه في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلا فيمن عهـدت اليهم وظائف في المحاكم الأهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم فكان أعضاء المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من

*) نشرت في العدد ٦٥٨ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنه ١٣٠٥ وذكر فيها انها رسالة من مصر للابهام ولم يكن الاستاذ قد عاد الى مصر

عدد كثير من النواب ومتعلقيهم والكل في قولها من أهل الاستحقاق لايغمز على أحد منهم في العلم بما وليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ماعهد اليـه عمله ، ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتلو شفيق بك منصور انما هو الخـلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك و بين الاصلاح. هذا إجمال مارأيناه فرويناه

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغي أن يتخـذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ،فان ذلك اعتداء على غير معتدومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفـعه ان كان له نفع ، فانه يثير الساكن ، وينطـق الساكت ، ويؤلب القـلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ومخالفته الى عكس مايريده ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، أو ينسبوها الى شائن من العمل ، تعللاً بأن رجلا أو رجالا منها قد استهدفوا لذلك، فانه مما يرسل العداوات إلى عمائق القلوب ، ويدلي بالضغائن الى بواطن الافئدة، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كلٌّ منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحـد تأديباً له أو استصرافاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدتين الحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ماأهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي صلى الله عليه وسلم فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهراً لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على

البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما مالاتخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لايتعدى إلى أوصاف خاصة لاتفيد في البحث . نعم إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه

أما بطرس باشا غالي فهو رجل ذكي حاذق في عمله ، بصير بأمره ، تقلب في وظائف الحكومة من عنفوان شبيبته ، ورقي به اجتهاده الى ماوصل اليه من سامي وظيفته ، وكان (باشكاتب) الحقانية زمناً طويلا ، ثم صار وكيل الحقانية من نحو ست سنوات ، ووثقت به الحكومة الخديوية في كثير من أعمالها المهمة ، ونال منها مكافآت على ماأدى من الاعمال التي نيطت به ، فمن الظن به أن لاتضيق معرفته عن الاحاطة بما توجب عليه أحكام وظيفته ، وأن لايصدر عنه مايبعث عليه لائمة من مصيب في رأيه محق في حكمه . واننا إلى الآن لم نر الناقدين ذكروا عملاً مما أخذوا عليه يستحق أن نبحث فيه سوى الخلاف الذي وقع بينه وبين شفيق بك منصور وافضاء هذا الخلاف إلى استعفاء البيك المومى اليه ومحاباة الباشا لبني طائفته : أما الاخيرة فدفعتها الجرائد المحامية بما لاسبيل إلى معارضته إلا باثبات نقيضه ، وهو مما لايتيسر لنا التهدي اليه حتى نرى مالاترتاب فيه من الادلة ، وأما الاولى فالخلاف قد يكون بين عاقلين ومستقيمين ومختلفين في الصفتين ، ولا طريق للحكم بخطأ أحدهما إلا النظر في مواد الاختلاف وأدلة كل من المختلفين، وهي الآن لم تحضرنا بوجه ظني فضلا عن قطعي ، على أن الذائع على ألسنة البصراء من المصريين أن النيابة العمومية لحرصها على تقوية نفوذها

وإعلاء سطوتها ،قد تتجاوز الحد المحدود لها عند الاجراء في بعض دوائر المحاكم، والانتقاد عليها كان أشدّ من الانتقاد على القضاة ، حتى قيل ان سبب استعفاء الاستاذ العلامة الشيخ العباسي من الافتاء كان عدوانًا من بعض خدمة النيابة ممن لاخلاق له اضطر الشيخ للمداخلة في دفع عواقبه فلم ينجح ، ولا ريب أن هذا كان معروفا لعزتلو شفيق بك منصور وكان الظن به وهو في وظيفته أن لا يغفل عن ذلك ، وأن يردّ الاعمال إلى حدود أحكامها ، ولا نظنه أهمل فريضة العمل فيه ، لكن ربما كان الأمر أصعب من أن يلافى دفعة واحدة ، والرجاء في حميته أن يداوم على إرشاده لأهل القضاء وعمال النيابة بما ينشره من آرائه في صفحات الجرائد ،فوطني مثله لايحجب فوائد أفكاره عن أبناء وطنه حاجب

وأما تأدية الخلاف الى استعفائه فلا نعده جريمة لبطرس باشا لأن الاستعفاء عمل اختياري لا يؤاخذ به المتسبب فيه ، على أن جريدة الأحكام ذكرت أن سبب الاستعفاء تعيين أحد الباشجيكيين في وظيفته كان من رغبة البيك أن لا يكون فيها وهو أمر يتعلق بدولة ناظر الحقانيــة لابوكيلها ، وعهدنا باخواننا المصريين أن يوجد بينهم من أهل المعارف الشرعية والادارية من يمكنهم بسعة اقتدارهم إصلاح محاكمهم وتقويم ماتأوّد منها ، وأن لايكون تخلي رجل أو رجلين من وظيفة من النوازل المهمة ، أو الخطوب المدلهمة ، فان ذلك لا يكون إلا في بلاد بلغت من فقر الرجال غاية قصوى ، ونسأل الله تعالى أن ينير بصائر أهل الحل والعقد في بلادنا المصرية حتى يعرفوا للمصيب إصابته ، ويلزموا المخطيء خطيئته ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويجمعها على مصالح بلادهم

كنتم ذكرتم في بعض أعدادكم أن أمين بك غالي انتقل الى وظيفة أرقى من وظيفته راتبًا والحقيقة أن ذلك لم يكن والراتب واحد والوظيفة مؤقتة ، وكنتم ذكرتم أن باش محضر محكمة مصر الابتدائية عزل برأي وكيل الحقانية في اليوم الثامن لاستعفاء شفيق بك وعين مكانه أحد أقارب الوكيل ، والحق أن عزله كان بناء على طلب رئيس المحكمة ولم يعين بدله أحد إلى الآن ، ويؤدي أعماله أحد المحضرين الموجودين بالقلم .هذا ماسافنااليه العدل والله الهادي إلى الصواب

المقالة السادسة

اللغة الرسمية في المحاكم الاهلية بمصر (*

كتب الينا من مصر تحت العنوان المذكور ما يأتي

انظر إلى المادة ٢٣ من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تجدها صريحة في أن اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية هي اللغة العربية ويجوز أن تنقل خلاصة المرافعة وحجج الدعوى إلى لغة أخرى كتابة وتقدم الى المحكمة ، فمن الواجب بناء على هذه المادة أن لا يتكلم أحد الخصمين أو وكيلهما إلا باللغة العربية ، فاذا شاء أحد المذكورين أن يؤيد ذلك بترجمة ما قال إلى اللغة الفرنساوية مثلاً تحريراً لم يمنع من ذلك ، ونظرت الحكومة المصرية في إيجاب التكلم باللغة العربية في المرافعة عند تلك المحاكم إلى تقرير حق لو أغفل بطل المقصود من تشكيل هذه المحاكم بالمرة ، وانقلبت المنفعة المطلوبة بها مضرة ، فان الغرض من تشكيلها الفصل بين الأهالي فيما يقع بينهم من المخاصمات والزام كل جان عقوبة جنائية على وجه هو للعدل أدنى منه إلى الظلم ، وجعلت جلساتها علنية لتكون مدافعة كل من الخصمين عن نفسه معروفة عند العامة والخاصة ممن يحب الوقوف على مآخذ الحق ، ويكون في ذلك حكم عام لا يخفى أثره فيما يصدر عن الحكام من الحكم الخاص . والمتخاصمون (من أهالي مصر) لسانهم واحد وهو المعروف (باللسان العربي) وكذلك المأخوذون بتهمة الوقوع فيما يوجب العقوبة ، فاذا ترافع المتخاصمان الى المحكمة أو وجهت الحكومة تهمة على جان وطلبته للمدافعة عن نفسه كان من الضروري أن يفهم كلٌّ من الخصمين ما يقول الآخر حتى يتمكن من دفعه وكذلك يكون حال وكلاء الخصوم فان تكلم متكلم منهم بلغة لا يفهمها الآخر تعذر على غير الفاهم أن يلم بحجة ومعارضة أدلة خصمه . ثم إن أعضاء المحاكم لم يشترط فيهم العلم بلغة أجنبية البتة فلو كان في المترافعين من يتكلم بلغة غير

*) نشرت في العدد ٧١١ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦ وذلك بعد عودته من سورية الى مصر في هذه السنة

العربية لكان القائمون للفصل في المخاصمة غير عارفين بوجوه الحكم إن لم يكن عندهم علم بغير اللغة العربية ، فمن هذا يظهر أن وكلاء الخصوم (الافوكاتيه) عند المحاكم الأهلية يجب عليهم أن يتكلموا باللغة العربية لاغير سواء كانوا عرباً أو عجماً ، ولا يجوز لأحد منهم أن يخاصم بلغة أخرى

فان قال قائل اذا كان الخصمان عارفين بلغة أجنبية ورضي كل منهما بأن تكون المخاصمة بها ، فلمَ لايجوز أن تسمع المحكمة مرافعتهما باللغة التي اختاراها؟ فجوابه أن ذلك لو فرض وقوعه يكون نادراً ولا موقع له في نظر القانون ، على أنه لا يكون هـذا الفرض سائغ القبول إلا اذا اتفق أن أعضاء المحكمة جميعاً من العارفين باللغة التي تراضى الأخصام على المرافعة بهـا حتى يتمكن كل منهم أن يحكم في الخصومة كما هو شرط النظام ، وأن رؤساء المحاكم وأعضاءها الذين هم حفاظ القانون والقوّام عليـه لأيصاله إلى الغاية المطلوبة منـه يجب عليهم أن يراعوا حكم هـذه المادة حفظاً لشأنهم ، وصوناً للقانون ، وتأييـداً لقصـد الحكومة وحياطة للحقوق

في مثل هـذا اليوم من الاسبوع الماضي ٢٣ ربيع الاول انعـقدت جلسة الجنح الاستئنافية تحت رئاسة صاحب العزة أمين بك سيداحمد وكيـل المحكمة ووجد في وكلاء المتهمين رجل أوروباوي لا يعرف اللسان العربي ومعه ترجمانه فلما أفضت النوبة اليه طلب أن يتكلم باللغة الفرنساوية فوضع طلبه هـذا موضع المداولة في الجلسة . وكان حكم الاغلبيـة أن لا يتكلم إلا باللغة العربية فأعلن له الرئيس ذلك فأخذ في الكلام بالفرنساوية فمنعه الرئيس فانتصر للفرنساوي أحد القضاة الوطنيين ممن يدعون نجباء ، أو فضلاء ، أوماشاكل ذلك . وسأل الرئيس أن يدعه يتكلم فاحتد الرئيس وقال : بصفة كوني رئيساً قضائياً أطلب منـه أن يتكلم بالعربية ، فان لم يفعل أمرت بطرده من الجلسة ، وكان كما قال فانصرف الابوكاتو وعادت المحكمة لأعمالها . أما الرئيس أمين بك سيداحـمد فقـد أدى الواجب عليه للقانون ، وللحكومة ، وللأهالي ، ولنفسه من جهة أنه مصري عربي وأن عرف الفرنساوية ، ولو تساهل مع الفرنساوي وأجاب طلبه لجاز لغيره أن

يطلب مثل طلبه واندفع الاجانب ينوبون عن بعض الخصوم على رغم من البعض الآخر ويضيع قصد الحكومة ، وتبطل حقوق الأهالي بعماء المخاصمة على من لم يعرف لغة المخاصم منهم ، ولا يجوز للرئيس ولا لغيره منع الطالبين مما يطلبون إلا أن العادة تكون قانوناً وهي عند الاوروبيين تثبت بمرة

بقي الكلام في ذلك القاضي النجيب : هو مصري ولا يعرف له صلة بالفرنساويين برأه الله من ذلك ، غاية أمره انه يعرف الفرنساوية كما يعرف كثير من أمثاله - هو حاكم مصري يجب عليه مراعاة مصلحة المصريين والمحافظة على مابه صون حقوقهم - هو قيم على القانون وبحكم القانون صار قاضياً ، ولولاه لم يكن شيئاً ، فمن الواجب عليه شكر القانون واحترام مواده والمحافظة على أحكامه بما استطاع - هو موظف للحكومة المصرية ، يفرض عليه الامانة في خدمتها ، وموافاة مقصدها الصالح ، وغايتها النبيلة - هو انسان والانسان ، مجبول على حب وطنه وترجيح مايؤيد جانبه ، فلو فرض أن القانون جوّز أن يكون الكلام بغير العربية ، لوجب عليه أن يستعمل الجواز موجباً للخطر ، فيقول يجوز هذا ويجوز غيره ، ولي الخيار في القبول ، فلا أقبل إلا لسان بلدي — هو متعلم قرأ الكتب ودرس الفنون ، وهو أجدر أن يسبق الناس في صحة الاحساس ، ليكون قدوة حسنة لهم - هو معدود في نجباء الفتيان المصريين ، فكان الواجب عليه اذا وجد من نفسه ميلاً إلى سماع الفرنساوية في المرافعة ، الذة له في رنتها ، أن يكتم ذلك الميل المضاد للقانون ، ولما يوجبه الحق الاهلي ، كيلا يؤخذ عليه . ومع ذلك كله فقد بلغني عنه أنه يحب أن تكون المرافعة بالفرنساوية ، وانه قد سبق له عند ماكان رئيس جلسة إباحته ذلك لمحام فرنساوي ، وانه يتمنى لو أن الحكومة تلغي مادة ٢٣ من القانون حتى يكون القانون مسوغا للفرنساوي أن يترافع بصفته انه نائب عن المصري باللغة الفرنساوية ، وحكي أنه لما شاع (وغالب مايشاع كذب) أن الحكومة من نيتها أن تسمح للاجانب بالمخاصمة عن الاهلين بغير العربيـة فرح ذلك القاضي حتى شرب في أحد مجالس لهوه على سرّ تلك الاشاعة على نحو مايفعل الاوروبيون ولا أقول انه شرب مسكراً ولكنه قلد الفعل تقليداً ، كذا يقال . ولما سئل عن

سبب ميله إلى ذلك أجاب بأن المحامين الفرنساويين يعرفون الحيل الشرعية ويجيدون في نسجها ، فكان ذلك مثار تهمة عليه بأنه يود أن يكون للفرنساويين مثلا حق في المخاصمة ليصح له الاتفاق معهم في محاولة القانون ويكون في حماية من ألسن الوطنيين وسلطة الحكام بميل الأوروبيين ؛ واني أعيذه من ذلك وإن قامت القرينة من كلامه عليه ، وغاية مايمكنني أن أقول في سبب هذا الفرح ، وعلة ذلك الميل ، انه طيش شبيبة يسوّل له أن في سماعه كلام الفرنسوي والاقبال عليه عند المخاصمة — والمتفرجون مزدحمون — والتفاتهم إلى انه عارف بما يقول الفرنساوي ومدرك لدقائقه بما يلوح على وجهه عند ذلك من علامات الفهم ، وأن في معرفة المتفرجين انه من المدققين في اللغة الفرنساوية لذةً بما يناله من الشهرة عنده مايتناقل الحاضرون حاله . لكن خفي عليه أن من لم يعرف لايصح حكمه ولا قيمة للشهرة عنده ، وقليل من الحاضرين من يعرف اللغة التي يميل إلى الاشتهار بمعرفتها

وقد بلغني أن ذلك الفاضل على ذكائه وسعة اطلاعه في القوانين كثيراً مايعتمد على شدة فهمه فيلهو عن سماع المخاصمة اكتفاء منه بالاشراف على الضمائر بغير سماع ، وأحياناً يأتي ببعض القضايا يلخصها في الجلسة ويترك المترافعين يناقض بعضهم بعضاً ، وهو مع ذلك يُدِلُّ على المحامين الوطنيين ، ولو كان بين يديه محامون أوربيون لما سهل عليه إتيان شيء من ذلك ، ولكان خوفه منهم إذ ذاك أشد من ميله اليهم الآن ، فعليه أن يعقل مايفعل ، وعلى الناس أن ينبهوه عند مايغفل ، وأملنا في نجابة المصريين أن لايكون هذا الميل شائعاً في كثير منهم

ثم بلغني بعد ذلك أن مرافعة وقعت في المحكمة الابتدائية في مصر باللغة الفرنساوية وأن رئيسها مع أنه من أهل التقى والاستقامة وذوي الدراية قد أذن في ذلك ، ولم أعلم كيف كان منه هذا الاذن ؟ ثم لم أدر كيف سكتت نظارة الحقانية على ذلك ، ولم تصدر أمرها بالتحذير من تكرر الوقوع في مثله ؟ ولعل نشر ذلك في جريدتكم ينبه غافلا ، أو يستلفت من يجب عليه الالتفات . وأملنا أن هذه الوزارة الرفيعة الشأن تراقب مايقع في المحاكم من مثل هذه الهفوات ، وتنبه الاعضاء والرؤساء على مايخالطون منها ، وتعرفهم مواضع الخطأ فيها ، فانها

قد تكون في نظر بعض الناس جزئيات ، لكنها في نظر العارفين منازع لكليات، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه صلاحنا ، ويرشدنا إلى سبيل فلاحنا ، اه

(جامع الكتاب) ليتأمل القارىء غيرة الاستاذ رحمه الله على وطنه ولغته ومقاومته لتيار التفرنج ، وكبحه لجماح المتفرنجين الذين كانوا وما زالوا يفسدون عليها جميع مقوماتها الملية والقومية ، وأعلاها الدين واللغة - وجميع مشخصاتها الوطنية كالعادات والازياء مثلا . وأين تجد مثل هذه الحمية عند غيره كما كانت عنده؟

المقالة السابعة

الانتقاد (*

(ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم)

الانتقاد نفثة من الروح الالهيّ في صدور البشر تظهر في مناطقهم ، سوقاً للناقص إلى الكمال ،وتنبيهاً يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به.

الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب،وتنفتق به الألسنة ، لتقريع الناقصين في اعمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى منتهى مايمكن لهم

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقليّ سلطان وجوده العقل ، فان صلح السلطان ونفذ حكمه ، صلح ذلك الكون وتم أمره . إن الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه ، أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه إلى الهرب ، وكل منازل العقل صعود إلا أدناها ، فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الادنى دنوٌّ من الكمال ، غير أن

*) نشرت في جريدة ثمرات الفنون البيروتية وكنا ظفرنا بنسخة منها فنشرناها في المجلد الرابع من المنار ولم نقف على تاريخ نشرها في الثمرات

مايسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتجع الكمال الى مقام إلا ويرمي بطرفه إلى أبعد منه ، ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل ، كلما التفت اليها راعه هول منظرها ، فتحفز عنها ، الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف ، وتطير به الرغبة ،حتى يدنو من رفرف السعادة الأعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها مُنيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها منيتها ، فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور ، ويغبى عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ، ولا يشعر بما أعد له صائده ، فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيباً لا يهمل ، وكالئاً لا ينام ، يزعج الواقف ، ويحثحث المتريث ، ويمسك الواجف ، ماسكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ماتطلب أمامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه، ولا أوضع موضع الى مايضره ، إلا صاح به : تعست الجدود، وأضرعت الخدود، فخفض من سَيرك ، وقوِّم من سِيرك ، وإلا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ،

ذلك الواعظ الحكيم ، والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ، يثبت في الفؤاد، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان ، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، (فطرة الله التي فطر الناس عليها) : أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ،

وجعل الله الناقدين أقساماً فمنهم ناظر إلى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص

وجواسيس العيوب، يروون المساآت، ويسكتون عن الحسنات، وفيهم الحساد، وأهل الاحقاد، ومنهم ناظرون بالعينين، عارفون بالوجهين، يذكرون للكمال نُبله، ويلزمون النقص ويله، وهؤلاء في أعلى المنازل، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون، ويهرفون بما لا يعلمون، وهم في أخس المنازل. وليس في الناس إلا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه. وما جعل الله بشراً يسلم منها، ويحرم من بعضها، فكأنها التي قال فيها (وإن منكم إلا واردها) وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى، ينادي الكاملين أن يستزيدوا، والناقصين أن يستجيدوا.

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقييضه لنا؟ أو لواهم أن يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك، وأنت غربي مثلا أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه، أو استصفى أموال رعيته، أو كلفهم مالا يطيقون احتماله، أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها، أو جبن عن حادث ألمَّ به، وكان يستطيع دفعه، ألا ترى من قلبك امتعاضاً عليه، ومن نفسك ازدراء لعمله، وفي لسانك لهجة بلومه، وهو منك على بعد المشرقين؟ ولئن وصلت اليك روايات عدله، ورعايته حقوق بلاده، وحفظه لذمامه، وجدت اليه من فؤادك ميلا، ومن رأيك لعمله استحساناً، ومن لسانك عليه ثناء —.

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك، فان مثل لك النظر فضلا في سيرة، أو خزية في جريرة، ألست تجد من نفسك انبساطاً الى فواضل الغرر، وانقباضاً عن مخازي العرر، ثم انطلاقاً الى نشرهما وجدت، ثم رأيت عضداً منك لأحدهما، كأنه قائم يستنصر فانت تنصره، وتغيظاً على الآخر، كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله؟

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين، وكل نقد فحشوه لوم، حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة، فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير، وازعاج المحمود، وزجر له عن ملابسة

الاعياء، فكأني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا. ويا أيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، في ألسنة الخلق ، لا يصم عن نداءها إلا أصم ، ولا يغبى عن انذارها الأيهم (١)

على ذلك قام النظام الانساني، فلولا الانتقاد ماشب علم عن نشأته ، ولا امتد ملك عن منبته ، أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء ، وأهملوا البحث في وجوه المزاعم ، أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم المحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد ، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلاً ، والنظام خللاً ، تلك سنة الله في الأولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عند هؤلاء أجود ، فانهم يرفعون المعايب أعلاماً بينة ، حتى لا تعود فيها شبهة لناظر ، وأحجى بالعقل أن لا يمج من الانتقاد شيئاً ، حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح ، تقام في الثغور زمن السلم حذراً مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها ، وأقل مايكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره ، فقد أفسد نفسه لصلاح

(١) الايهم المصاب في عقله

عدوه ، ولله مايقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير ، فلولاهم مانزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس . (*

هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد ، فظنوا صنع الله فيه عبثاً « نعوذ بالله » ففروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم في صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجباً ، وأقاموا دونهم استاراً وخيل لهم الجهل أن صممهم عنه ، يقيهم منه ، وأن قبوعهم في أهب الغفلة (٢) ، يدرأ عنهم سهام اللوائم ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ، ظناً منه انه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم ، وتخبط في أعمالهم ، قد لزموا خطة من الهون ، لو أبصر عقلهم بعض أطرافها ، لماتوا جزعاً من هول مافيها ، كل ذلك وأسلات الالسن واسنة الاقلام ، لا تألوا في تقريعهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لأنفسكم لو كنتم تعلمون ، وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا ، بل لا يشعرون أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ، فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية ، فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول ، حتى يذشرهم الله في حياة أخرى ، يخضعون فيها للأحكام الكونية ، ويعملون على السنن الالهية ، فلينتظروا وانا معهم من المنتظرين

---

*) في معناه قول الشاعر :

عداتي لهم فضل علي ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هموا تجنبوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

(٢) الاهب بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

المقالة الثامنة

المسألة الهندية (*

وردت الينا هذه الرسالة من أحد أفاضل الكتاب البلغاء فنشرناها بحروفها كما ترى

أكسبني الاطلاع على جريدتكم علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر ماتقفون عليه منها خدمة لأوطانكم وتأييداً لاعتدال سيركم وهذا مابعثني أن أكتب اليكم بعض ماوصل إليّ في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية ، وربما ترون من المفيد نشر ماأقدم لكم من ذلك

كأني بالحال في بلاد الهند وقد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عند ماتضطرب راسياتها ، وتهتز ثوابتها ، وتتنفس صوامتها ، اعداداً لزلزال يوجب الانقلاب فيها ، غير أن المألوف في تلك الاحوال أن تكون متألف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه ، وفوائده وثمراته غنيمة للأوربي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله . والمنتظر في الهند على خلاف المألوف فقد تسقط بتبدل الاحوال فيه دولة من أعظم الدول الاوربية ، وأحذقها في السياسة الخارجية ، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية . هذا ماتفترق به هذه المسألة عن سائر المسائل

لايفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد والاخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها اجناس متباينة ، غير أن هذا الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية اذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها مادامت خصائص الطوائف محفوظة . ولما دالت الدولة للانكليز

---

*) نشرت في العدد ٤٧٣ من جريدة الاهرام الاسبوعية الذي صدر في الاسكندرية في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٢ و ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٥ وقد وجدنا هذا العدد في محفوظات الاستاذ رحمه الله

فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به ، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرها فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيغار صدور كل طائفة من الاخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجالة بين الوثنيين وبين المسلمين ، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض . والاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن الهنديين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربيـة التي تقع فيها انكلترا ، ولا تكون بينهم وبين الأوربيين صلة سياسية يلجأون اليها اذا هموا بمثـل عملهم السابق ، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مماهم فيه . قطعتهم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لاقوة إلا بانكلترا ، ولاملجأ منها إلا اليها ، ولا حيـلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها ، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى . وهـذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب ، وليس في نظر العـقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الالهية مما لا يطاوله بناء ، ولا يعاجله دهاء

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة . لم يكن في حسبان أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان ، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله ، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قمم جبال الهند ، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين ، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير فى كتمانه ، فتراجعت العقول من غيبتها ، وانطلقت الآمال من محابسها ، وخيـل للنفوس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم مايضارع مصلحة الدولة الحاكمة،فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً . ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت متشابهة الا ان من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين الى أمد حتى يتمكن من السلطة ، ويكون من أحوال البلاد على خبرة ، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم الى أسمى من ذلك فظنوا أن لا طاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة ، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابه من أهالي البلاد وتمدهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها ، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم ، وفي هذا متاع من الاستقلال الى حين ، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون مايصل اليهم . هذا مايرتفع اليه الخيال في رءوس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون ، ولا تجد طائفة منهم عوناً على ماتؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى

وقد ضعف الأساس الاول فيوشك أن يتضعضع البناء . همدت نيران الضغائن التي كان يسعرها الحكام في البنجالة بين المسلمين والوثنيين ، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم الى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الا بدين ، انعطف كل في سيره الى مايقارب الآخر فلا يمضى كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين .

لا يفتر الحكام عن امداد اللهيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء باردا فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً . وقبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم هذه من أقوى قبائل الهند وأشدها تمسكا بعوائدها وأحرصها على الاستقلال . أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية ، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج ، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً الى حاكم انكليزي ، واتفقت على

أن يكون تدبير شؤنها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع ، وما كان عاماً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتمدنة ، وما كان خاصاً كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لا ينازع في حكمهم ، ولا يدافعون في قضائهم ، ولو أن مرتباً رفع أمره في خصومة الى القاضي الانكليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدراً لا يطالب به أحد . كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الانكليز أن يقف على شيء من أحوالهم الداخلية . بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوربا وثبتوا على صنائعهم وروجوها بينهم ، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الاوربيين في كل نوع ، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الأبية النفس أخذت الاهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها . ولست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها وكتبها الى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها

حكومة حيدر آباد ملت سيطرة الانكليز عليها ، ونظرت الى قوتها العسكرية واجماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها ، الآخذين على يديها ، وجاءها خبر الزحف الروسي ، فشدد عزيمتها ، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الانكليزية ، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان ، ليعيدوا مجدهم الأول ، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم ، وفتك بأشرافهم . ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى ، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه

أحست حكومة الهند بمبادىء الاضطراب ، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال ، منعاً للمواصلات بين الهنديين والروس ، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية ، وصدت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدر اباد لكثرة أبناء العرب فيها ، واشتدت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند ، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود

الشمالية ، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي ، وأنطقتها قهراً بما يغشي وجه الحقيقة ، ويصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد وتحويل مراكز الجند ، وحشد الجيوش ، وتوفير الذخائر في مواقع المخافة ، وأرسلت عيونها على موارد البريد ، ورسمت بفتح المغلقات ، وأخذت بكل احتياط . ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة ، وقطع طرقها الواسعة ، وتسوير حدودها الممتدة . فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة ، وقد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧ (*) حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة ايران ، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء الفتنة ، حتى تمّ الأمر لحكومة انكلترا في اخماد الثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها . أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند ، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد . أما مازعموا من أن بعض النوابين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة انكلترا عند ما طاش ميزانها مع الروسية ، فذلك مما يعجب خبره ! ويضحك معجبه . فان رجالا من الانكليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها ، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم فانقلبوا على أعقابهم . ولو فرض صحة مازعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي ، فاذا حم الصدام كان أول خاذل له ، خصوصاً اذا أحسّ بل توهم الانقلاب بالهزيمة

بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تتميما للبحث وهو : أن للدولة العثمانية شأناً في المسألة الهندية لايسوغ إنكاره ، فان لها عدّة كافية ، وقوة وافية ، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت ، ويسهل عليها أن تستفيد منها اذا

(*) يعني سنة ثورة الهند

أقبلت عليها بشيء من التدبير . تلك قوة خمسة واربعين مليونا من المسلمين
أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة ، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي
الأجانب ، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكميهم ، وأوصال أعمالهم
معقودة بأوامرها . ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي
في هذه المجاراة . ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدّة ربما تتبدد ، وتلك
القوة تضمحل ، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا مايكسبه باذل ماله لعدوه
وفقهم الله للسداد في آرائهم ، والصلاح في أعمالهم

(يقول جامع الكتاب) لم نعثر للاستاذ رحمه الله تعالى على مقالة
في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية وترك جريدة العروة
الوثقى الا هذه المقالة ، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي
كانت من نفثات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ . وكان الحكيمان
يرجوان من تحرش الروسية بالهند فى تلك السنين أن يفضي الى ترك
الانكليز لمصر والسودان فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش

*

هذا واننا رأينا أن نغير فى هذه الطبعة ترتيب ما نشرناه في الطبعة
الاولى لهذا التاريخ فنقدم ما كتبه من المقالات العادية في الصحف ،
ونؤخر اللوائح الاصلاحية والمناظرة الدينية السياسية ، ورحلة صقلية

المقالة التاسعة

بسمارك والدين

﴿ نبذة نشرت في العدد ٤٤ من السنة الأولى من المنار وكانت جريدة اسبوعية في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ – ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ ﴾

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتم أسراره مسيو بوش كلاما جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شبانا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة، والظهور بالمحافظة عليه معرّة، وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الالهي إلى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر، ولا ضلة عن صحيح العلم، ولا عيباً في الرياسة، ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه: « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً، كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل فى الأجر والمكافأة، ذلك لما استكن فى الضمائر من بقايا الايمان، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا مهيمناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت، وان لم يكن قائده يراه » فقال بعض المرتابين: اتظن سعادتكم ان العساكر يلاحظون فى اعمالهم تلك الملاحظة؟ فأجابه البرنس:

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وانما هو شعور ووجدان، هو بوادر تسبق الفكر، هو ميل فى النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها، ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل، وأضلوا ذلك الوجدان. هل تعلمون انني لا افهم كيف يعيش قوم؟ وكيف يمكن لهم ان يقوموا بتأدية ماعليهم من الواجبات؟ او كيف يحملون غيرهم على اداء مايجب عليه؟ ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد باله يحب الخير، وحاكم ينتهي اليه الفصل فى الأعمال فى حياة بعد هذه الحياة » ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال:

« لو نقضت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان .
اذا لم اضع ثقتي فى الله لم اضعها فى سيد من اهل الأرض قاطبة ، لكن انظروا الي
تجدوني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا
مطمع بعده ، فلماذا اشتغل؟ ولم اجهد نفسي فى العمل؟ ولم اعرضها للهموم والآلام؟
لا يبعثني على شيء من هذا الا شعوري بأنني فى جميع ذلك اعمل عملي لوجه الله.
لو لم يكن لي ايمان بالعناية الالهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية
شأن كبير، وأثر في الخير عظيم ، لطرحت لساعتي ما احمله من أثقال وظائف الحكومة.
«ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف ،
لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها في نظري ، لولا يقيني بحياة بعد الموت
ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريا . نعم أنا
جمهوري بالفطرة، يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر)
رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين ، من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ
من القوة أعلاها ، حتى حملني بقوته على أن أكون ملكيا ، اسلبوني هذا الايمان
تسلبوني محبتي لوطني . اعلموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لكم وزير
كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري
جميع الحاشية ، ولو وجدتم لي في الغد خلفاً يكون أخلص مني فى يقينه لانفلت
من المنصب في الحال . ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . إني أحب
المعيشة فى القرى والحقول ، أحب الآجام ومناظر الخليقة ، انزعوا مني هذه
الرابطة التي تصلني بالله تجدوني من الغد رجلا يأخذ اهبته للسفر الى (وارزين)
ليشتغل بحراثة ارضه وتنمية غرسه ، إن لم أكن خاضعاً لأمر الهي فلم أضع نفسي
تحت طاعة هذه العائلة المالكية ، مع انها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبل
من الأصل الذي تتصل به عشيرتي؟ »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظائم أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه ،وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى مالم يدركه فيه مفاخر ،ولم يكثره مكاثر

المقالة العاشرة

آثار محمد على فى مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس المؤرخ في غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٠ ـ ٧ يونية سنة ١٩٠٢ ﴾

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك[١] والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء ، وماذا حمل القادح على الهجاء ، غير انه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئا في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع ، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع ،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الأشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما

«١» سبب ذلك الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي للدولة المصرية . وكنا كتبنا في الجزء الرابع الذي قبل هذا الجزء مقالا انتقدنا فيه جعل الاحتفال في المساجد وبينا سيئات محمد علي وأكبرها قتاله الوهابية وقضاؤه على ذلك الاصلاح ومن اللطائف أن الخديو أرسل جزء المنار الرابع الى الاستاذ الامام مع بعض رجال حاشيته وأمره أن يشكونا فيه اليه راجيا منه أن ينهانا عن العود الى القدح فى جده وكان قد صدر الجزء الخامس الذي فيه مقالة الاستاذ فلما بلغه الرسول ما أمر به قال له الاستاذ : يظهر ان أفندينا لم يطلع على الجزء الخامس فان فيه مقالة شرا من تلك المقالة التي يشكو منها (!)

يريد ،فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ،وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافي يد جاره من الأمراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وان يكون الجميع دائما في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع . ولكن الأمراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم، وأن يتخذوا من الأهلين أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم ،

أحسَّ الأهلون بحاجة الأمراء اليهم فزادوا في الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة، وانتهى بهم الأمر ان قيدوا الأمراء والملوك معاً ، ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة مايسمح له بمد يده إلى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته، فالخصام كان دأبهم، والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم مايحتاجون اليه فاتخذوا بيوتا منها أنصاراً لهم عند الحاجة ،وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل مالهم أو مايقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد

المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلوجاههم

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد مايستطيع من قوة لحفظ مافي يده، والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفا من تعدي أعوان خصمه عليهم ،فوقعت القسمة بين الأهالي ، ولاتزال أسماء الاقسام معروفة إلى اليوم : سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شمماً ، وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنيـة والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنساوي والبلاد في هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر ،فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي ، وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

ماالذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم مابلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهـل البـلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذي أسد له الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي

أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها، ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها، حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى .

ما الذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعـدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا حتى اذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيـلا لجمع السـلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقي فى البـلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أي وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البـلاد المصرية جميعها أقطاعا واحـداً له ولأولاده ، على أثر أقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الاوربيين ، فاوسع لهم في المجاملة ، وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل . وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الاجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها ، وانقلب الوطني

غريباً فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ،وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل الى مايريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم عني بالطب لأجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الأحيان عند مايراد إيقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الري حتي يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل أقطاعه الكبير .

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة عربية ، أو تركية ، أو أرنؤدية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك. بل كان رجال الحكومة إما من الارنؤد ، أو الجراكسة ، أو الأرمن المورلية ، أو ماأشبه هذه الأوشاب، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهوون لايرجعون الى شريعة ولاقانون . وإنما يبتغون مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها القدم السابقة في إدارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها ،مع كثرة ماكان في مصر من البيوت الرفيعة العماد الثابتة الا وتاد ؟ ! !

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد مااستفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له مايريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير ، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم مايلزم له من الأعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج، فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر

القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ فهل هو من المصريين ؟ عدوا إن شئتم أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب . ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب إلى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش ؛ فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً

ضخماً تثقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار، فهل علم المصريين حب التجند، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلاب، وحبب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها؟ لا بل علمهم الهروب منها، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء، ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك، وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها إلا بالموت! هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه. كذلك كان بعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر. ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر — أثر كله شر في شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند ماجاء الانكليز لاخماد ثورة عرابي. دخل الانكليز مصر بأسهل مايدخل به دامر (١) على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين الى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الاخير، وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول أن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين. أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي؟ دين التحصيل؟ دين الكرباج، دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية. وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على

(١) الدامر هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

الدين للدين . نعم أن الوهابية غلوا في بعض المسائل غلواً أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ماكان مما هو معروف

نعم أخذ ماكان المساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى «فائض رزنامة » لا يساوي جزأ من الألف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر مالو بقي له اليوم لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك مايساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد، لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك ،وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل مانراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره ، وحمانا من شره ، والسلام

المقالة الحادية عشرة

انما ينهض بالشرق مستبد عادل (*

مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجىء الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لايخطو خطوة إلا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه ، فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه

يكفي لابلاغهم غاية لايسقطون بعدها خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولي الصالح ، ويشتد حتى يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكيُّ إذا اقتضت الحال ، وينشىء فيها نفوس الصغار على ماوجه العزيمة نحوه ويسدِّد نياتهم بالتثقيف ، يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره بضم أعواد مستقيمة الى سوقها لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الاصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينظرونه ، وآخرين وهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه

حتى اذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الاهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقه من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لاعلى أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار . ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية ، نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد

*) نشرت في السنة الاولى من مجلة الجامعة العثمانية التي كانت تصدر في الاسكندرية

هذا الأمر من بدايته إلى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها ، ويكفي لمدها خمس عشرة سنة ، وما هي بكثير في تربية أمة فضلا عن أمة

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله ، عادلا في قومه ، يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرنا ؟!

المقالة الثانية عشرة

القضاء والقدر (*

حضر صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، حفلة الامتحان لتلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية يوم السبت الماضي . وقد جرى ذكر (القضاء والقدر) على لسان أحد التلامذة في مقولة ألقاها ، فرأى فضيلته مناسبة للكلام على هذه العقيدة بين مئات من الناس ، جلهم إن لم يكن كلهم يخطىء في فهم معناها ، وربما كان أصل هذا الخطأ أصل بلاء الاسلام والمسلمين فقال حفظه الله :

جرى في كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر ، والاتكال على الله في نيل الارزاق ، وأن الحيلة في ترك الحيلة ، والتدبير في ترك التدبير ، ونحو هذه الكلمات ، مما عساه أن يؤثر في النفوس الأثر الذي يجدونه دائما في التماس العذر للكسل ، وترك العمل ، والامساك عن البذل ، ونحو ذلك ، تعللا بالمقادير ، ولكن ترون أن التلامذة من جهة أخرى كما ذكروا ذلك ذكروا الحزم والعزم والجد والنشاط في الأعمال ونحو ذلك ،

عقيدة الاذعان للقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموما ، وعند المسلمين خصوصاً ، لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إلى الكسل ، انتظاراً لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدي أغنيائهم في الاسراف اتكالا على مايسوقه عالم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة .

*) نشرت في العدد ٣٣٩٧ المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر سنة ٣١٩ من جريدة المؤيد

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ، ويذلل لك إلى ما ستعمل — خلق الانسان وخلق معه عدو يلازمه ، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها ، ويكافح عزائمه حتى يمحقها . فعلى الانسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع . ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ماقدر ، فان غفل عنه طرفة عين أحل به الحين . ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب

ذلك العدوّ الطبيعي هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتمس الوسائل ، وتمهد الاعذار لمساعدة هذا العدوّ الخداع ، فكلما وجدت وسيلة للانتصار له أخذت بها وهي لا تعلم أن في نصرته هلكتها . فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للايمان بقضائه وقدره ، ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت النوائب ، مثبتاً لها عند ملاقاة المصائب ، وتجشم المصاعب ، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدوّ المحبوب . فاذا هاجم اليأس قلب امرىء من مطلوب يطلبه ، أو قامت العقبات دون مرغوب يرغبه ، قام الايمان بالقضاء والقدر ، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة ، يفتح له الأبواب المغلقة ، ويذلل المصاعب الشديدة ، فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها . فالتاجر الذي يخشى الخسران ، أو تلف البضائع في البحار ، أو يخاف الخطر في الأسفار ، أو ما أشبه ذلك . إذا تصوّر أن كل شيء بقضاء وقدر ، وأن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، نهض إلى العمل ، بعد أن يهيء وسائله . ويسأل عما يجهل منها من له علم بها . ويتبع سنة الله سبحانه وتعالى في استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له ، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل ، وينزع الى العمل.

وكذلك من يخوّفه الشيطان من البذل في سبل الخير ، ويعده الفقر ، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيراً على الشيطان ، يلهمه أن الأرزاق محدودة ، وأنه لا ينقص مال من صدقة ، ونحو ذلك ، فتفيض يداه بالعطاء مع مراعاة مايثمره الجود من الفوائد ، وما يعود به على العامة من العوائد.

الانسان عامل بالطبع ، فانه مادامت له حياة فهو في حاجة الى تقويمها ، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره ، فانه لا يستقل بما يكفي لحفظ بقائه ، ولا

بدّ له من الاستعانة بغيره ، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله مايعود عليه بمنفعة ما . وإنما يخرجه عن سلطان هذه الفطرة ذلك العدوّ الذي أشرنا اليه ، فهو في حاجة الى مايعينه عليه ويرجع به إلى فطرته : ولا معين له أفضل من الاتكال على الله والاعتماد على قوته ، بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته . فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثر ما في أنفس المعتقدين بها إلى فساد عظيم . وليس العيب فيها ، ولكن العيب في الأذهان التي تلقتها . كما قال جلال الدين الرومي : كل مايتناوله العليل يتحوّل إلى علة ، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلا فانه يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الآكل

فان كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا اليه، من أثر المقال الذي جاء على ألسنة التلامذة . فأرجو أن ينفي عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الذي جاور الكلام الأول في مقالهم أيضاً . ومن شرع ليسلي نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول ، رجوت أن ينشط بها الى البذل في سبيل الخير بما تحققه من القول الآخر . وأسأل الله أن يوفقكم جميعاً لأعمال الخير ، وكل عام وانتم بخير اه ملخصاً

المقالة الثالثة عشرة

الرجل الكبير في الشرق (*

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان (رجال الشرق) كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنغ تشنغ) رجل الصين، وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب، ومثله في عقله وهمته يوجد في أرض الشرق، وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده، فيكون شمساً في الفائدة والشهرة، وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس مافيه من نور، ويخمد ما يطويه من نار، ويموت غير معروف، أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع، ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي، لولا أنك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد، فهجت ساكناً، وأثرت كامناً، فطارت اليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك مايحملها إلى من ظننت أنهم يقرؤن كلماتك

حقا ما قلت، فهل لك فى شيء من تفصيل ما أجملت ؟ إن الكبار من الرجال هداة في أممهم. وإنما يظهر أثرهم في إرشادها، والسير بها فى الطريق المؤدية إلى الغاية التي تطلبها، وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت. وإنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره إلى المطلب، وعرف أنه أبعد عما هو فيه، فتهيأ للسفر، وتحفز للرحلة، وأخذ لأمره أهبته، وأعدّ له عدته، واستقام على أول الطريق، فاذا السبل متفرقة، والأعلام كثيرة، والصُّوى متعدّدة، فيقف المسافر، وقفة الحائر، فيأتيه البصير بالمسالك، فيدله على خيرها ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته، ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها، والطريق التي يختارها لها، وبقية الطرق

*) نشرت في العدد ٣٥٠٩ من المؤيد في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت إلى «أحد أفاضل الكتاب المجيديين» لتنكير الكاتب

على جوانبها ، فرأى الدليل قويما ، والصراط مستقيما ، فيسير والرجل الرشيد أمامه ، إلى أن يمس الغاية بيده ، ويلمس الطلب بأصبعه ، نعم : الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحيي الموتى ، ولا بمسمع من في القبور.

فان كانت الأمة في منخفض من المنازل ، قد ضاق أفقها ، فلا تعرف جوّا غير جوّها ، ولا دوّا غير دوّها ، ولا بوّاً غير بوّها — بوُّها رئيسها — فان كان هواء منزلها وبيئاً ، وكان مسكنها وبيلا ، فهي تتململ في مكانها ، وتعتقد أن لا منقذ لها من هوانها ، وإذا هاجمها الطامعون ليستصلحوا لأنفسهم ما أفسدته ، ويستجيدوا لها ما استوبأته ، تقلصت من الاطراف ظناً منها أن لا متسع لها في الأرض ، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض ، فاذا وجد فيها الرجل الكبير ، فأول ما يخطر له أن يفعل هو أن يمد بصره إلى ما وراء أنفها ، حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة مما هو فيه. وكيف يمكن لطبيب أن يحدث في البصر امتداداً ان كان قد خلق قصيراً ؟ وكيف يتيسر له أن يجد له حدة ان كان قد جبل حسيراً ؟

الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم ، بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد في قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدوه عدواً لهم ، وكلما دعاهم إلى الحركة دعوه إلى السكون ، وكلما أخذ بهم إلى الفزع جذبوه إلى الركون ، وهم أكثر منه عَدداً ، وأوفر عُدداً ، فلا يمضي طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الاصلاح ، وتضعف عزيمته ، وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدوهم ، وقد خدعهم بوُّهم ، وأحسوا بشدة الصدمة ، صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس الصعداء : وحسرة تصعد إلى السماء ، مع القعود في المساكن ، والخلود إلى أخس المنازل ، فينتهي بهم الأمر إلى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال .

إن كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه . وانما هو خدر شلت به الأعصاب ، وذبلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير ؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ، ويستعمل ما لديه من قوة في

معالجة الداء ، وهيهات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك المستهزىء ، وأخرى يبكي بكاء اليائس، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه، أو بيديه ورجليه . حتى يقضى عليه

هذا اذا ذهب الطبيب نحو الأمة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه إلى صاحب السلطة عليها ، والحكم النافذ فيها ، لعلمه انه يتمكن من ازعاجها عن موطنها ، وسوقها إلى ماينجيها من هلكتها – وذلك قد يكون – فان الملوك والرؤساء لهم في الأمم مالالجهل فيها ، فكما أن للجهل فيها حكماً لامعارض له ، فللسلطان عليها قول لايرد، فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها. والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها إلى الشر ، يمكنه أن يستعمله فيها ليقودها به إلى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى، يسهل عليه أن ينوط بها ماير يد من وسائل المنفعة الثابتة، والمصلحة القائمة — اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد مالا سبيل إلى شرحه الآن ... (*

اذاً فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، باكيًا على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أمم المشرق بمثل امبراطور اليابان ، أو الأمير عبدالرحمن خان ، إن صح ماجاءت به الانباء ، وصدق ماروت عنه صحف الأخبار ؟

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجبًا عليه ، وعلى الله ماوراء ذلك والمرجع اليه .

أكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ماأبث به ماأجد، فان سمح لي الحال بأوسع من دقائقي هذه، فسأوافيك بأوسع من هذا ،في بيان أسباب ماالشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار

*) قد حذف المؤيد ههنا كلاما من الاصل في وصف أمرائنا هو أبلغ ما كتب في سوء حالهم على اجماله وسبب حذفه له انه كان يؤيد الامير والسلطان ويدافع عنهما ولو بالباطل ، ولكن فاته اطلاق لقب البو عليهما أو أغمض فيه

المقالة الرابعة عشرة

الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر (*

﴿ وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات ﴾

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بحادثة ميت غمر من بعض الأفواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادي مايصهره من لحومهم . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناي إلا قليلا . وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجم من اخوة وأخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء . أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يغني من الحاجة ، ولا يكشف البلاء . ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزي خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر .

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل إلى سعادة السر تشريفاتي ، فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد أن الجناب العالي قبل ذلك . سبق السابقون من أرباب الجرائد الى الدعوة ، وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله أفضل الجزاء . ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر إذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز

(*) نشرت في العدد ٣٦٥٤ من جريدة المؤيد فى صفر سنة ١٣٢٠ — ١٢ مايو سنة ١٩٠٢

الجمعية الخيرية الاسلامية أن يكتب إلى حضرات المكتتبين الأولين بالانضمام الى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم الى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤا. شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم، وسيكتب الى غيرهم من أعيان المديريات الأخر.

ليس الحادث بذي الخطب اليسير، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم، ويتعذر عليهم أن يبتدأوا الحياة مرة أخرى، إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون اليه، ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة. لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الأمر أن يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين. كتبت الى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة، ولغذاء الناس، وستر عوراتهم، ووقايتهم من الموت؟ ثم طلبت إحصاء وقتياً لأصناف المصابين وطبقاتهم، حتى ذلك يكون التوزيع على قاعدة صحيحة. وسنرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه، وأفاد بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة

سيودع ما يجتمع في خزينة محافظة العاصمة حسب ما رآه المجتمعون بالاتفاق، وفي ذلك ضمانة من الضياع، وبعد عن مرامي الظنون، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ما تراه بعد.

هذا ما رأيت أن أكتبه عن سبب الاجتماع وخبره، وأختم ذلك بالمنشور الذي أوجه به الى أهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة، من بذل مال وبذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ماعليه أهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم، فهم بلا قوت، ولا ساتر، ولا مأوى، فليتصوّر أحدكم أن الأمر نزل بساحته، أفما كان يتمني أن يكون كل الناس في معونته؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به ما نزل بهم، ولينفق من ماله وهمته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر، ان شاء الله (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان، وثقوا بوعد الله، فكلكم يؤمن الله، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين، وأقدر القادرين. فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة اخوانكم، وأن تبذلوا ما في وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل، وترسلوا بما تجمعون الى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) كان من عناية الاستاذ رحمه الله بالسعي لهذه الاعانة انه كان يطرق أبواب الأغنياء بنفسه ويطلب منهم التبرع للمنكوبين، وقد جمع لديه ألوف كثيرة من الجنيهات وبلغ من عنايته في توزيعها على مستحقيها ان سافر إلى الجهة التي وقع فيها الحريق وأشرف على التوزيع بنفسه مع مساعدة رجال الحكومة له. وقد قال له صديقه المرحوم حسن باشا عاصم بعد عودته وكنت معهما: لو أعطيتني هذا المال الذي جمعته لأجل مدارس الجمعية ... قال: ماجمع لشيء وجب صرفه فيه، واننا نفترص الحوادث الموجعة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ومتى اعتادوا البذل في بعضها هان عليهم البذل في سائرها

الفصل الخامس

﴿ بعض ما كتبه في المناظرات الدينية وغيرها ﴾

أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو ـ أحد وزراء فرنسة وكتابها ـ في الاسلام والعقائد السامية والآرية، وما يتعلق منها بالاسلام والنصرانية، ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وإنا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى لأن الثانية قد نشرناها في المنار ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مراراً .

الرد على هانوتو

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤبنون الغربيون والشرقيون ، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الراثون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كتب في جريدة الجرنال الباريسية مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الأستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في القطار بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدواً ورواحا فلما كان رائحا بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر في المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه في القطار والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله إلى الدار أن شرع في الرد على ماقرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها إلى المؤيد صباحا فنشرت فيه. واننا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه ليفهمه القاري حق الفهم وهو:

ترجمة مقال هانوتو

بقلم محمد مسعود (بك) اذ كان أحد محرري جريدة المؤيد ونشر فيها سنة ١٣١٧هـ

قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى ، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم ترامو بها على أوربا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب في الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى افريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ولكن كان لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسوية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي إلى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابوليون الأول) فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنسويون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لاتني في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قوانا الآن إلى أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطن الخبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل)

(وباما كوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكد لهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانغا) و (تجاوندرة) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شؤونها وأن وابوراتهم (في الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفها ، عندئذ كان يطرق الا ذان صوت اليائسين وقد جلسو أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدراً مقدوراً)

اذاً فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت بجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهي تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ، ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدنية التي كانت القارة الافريقية منبتاً لثمارها اليانعة

ان شعباً جمهوري المبادىء يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونا لا مرشد له الا نفسه ، لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات

غير التي نعنو لها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الأصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنيـة ، نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا في (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التي يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد في الغموض والاشتباه - قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسـلامية في باطن القارة الافريقية - قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الاقطار الهندية ، وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائما في (بيت المقدس) وناشراً أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه في قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت منه شعبة في بلاد (الصين) فانتشر فيـه انتشاراً هائلا حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونا مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لسا كياموني) وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففي البقاع الافريقيـة ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادىء السلوك في هذه الدنيا كما كان أمثالهم في القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامي ، ثم هو - أي هذا الدين - قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا أعني في الأستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

في باحات قصر يلديز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أو في (مراكش) في أرجاء آسيا أو اصقاع افريقية من بدو كانوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين : اذا حانت الصلاة يتوضؤن أو يتيممون بالتراب ، موالين وجوههم جميعاً شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة ، او يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد ، هي الأرض المقدسة ، هي الأرض التي تكتنفها الصحراء ، هي الأرض التي عاش فيها محمد ، هي الأرض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لايجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الأرض التي جاء منها الاباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدي الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ، ولا يجدون لذة في الحياة إلا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة وحدة بها يدبرون أعمالهم ، ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها . وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه إنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم

للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً ، وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين في تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

لا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وإن كانت البلاد التي يحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار إسلام » وإنما هي « دار حرب » فانها لاتزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون ، مدثراً بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راوياً حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، إنما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

إن العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم ، حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة . هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ مايدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار مانجبيه من

الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لايتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف مايخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت
علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن مايرام . وما ذلك إلا
لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التي
أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم . ولكن توجد طوائف غيرها
بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيما لأنها مؤسسة على مبدإ كفاح غير المؤمنين
وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة
عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ، ومقر
هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها
هيكل البرجيس آمون ، وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد
في رعاية القواعد الدينية . وقد لبثوا زمناً مديداً لايرتبطون بعلاقة مامع الدولة
العلية بسبب مابينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم
الشديدة قد تلطفت ، فتقربوا أخيراً من الدولة العلية ، غير أن هذا لم يمنعهم من
طرح حبائل الدساس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في
افريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد
بالاستانة نفسها وبالشام ، وبلاد العرب ، ومراكش عصابة خفيـة ، ومؤامرة
سرية تحيط بنا أطرافها ، وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أنها تفترسنا
اذا غمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حـديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوامر
سرية تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة
أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ ممـا تقدم أن جراثيم الخطر لاتزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي
أفـكار المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم.
نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة
لأفراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة في مسألة علائقنا مع الاسلام تجد

المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض،وهذا مايجعل حلها صعباً ومتعذراً كما سنبينه

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها مع أنها من الأمور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . إن الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدي الخالق (اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعداداً للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه ؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه إرادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته ؟أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه؟

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل، مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث إذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة إلى الآن انه وجد مذهبان تشاطرافيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ، ويذهب الثاني إلى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربي من الذات الالهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه ، وبث القنوط في فؤاده وتثبيط همته ، وايهان عزيمته ، بينما

تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني إلى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد إذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية . وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية، والثانية بشرية، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف في التناقض . أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين، والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية، وإن كانت مشتقة منه، وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الآلهية، على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان إلى أسفل الدرك وترفع الآله عنه في علاء لانهاية له »

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الاساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الالوهية . أما المسيحي فيذهب في هذا الأصل الى الثالوث أي أن الآله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً — هذا الثالوث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ، ويفديه من الخطيئة التي اقترفها، يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة، إذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التي تقربهم الى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لايتحول ، ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ، و لفظة الاسلام

معناها « الاستسلام المطلق لأرادة الله »

نرى الديانتين (أو بعبارة أخرى) المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ، ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب ، فهما اذاً متداخلتان من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة ، من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية البشرية.

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي ، فرأى في الاسلام العدو الالد ، والخصم الأشد ، قال المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الاسلام) إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح في القبائح ، وما قبر محمد في مكة (؟) إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحاني ، والليمانيا ، أو الماليخوليا ، وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضاً) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) .... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري .. أليس كذلك ؟ . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب

أنه يوجد نحو (١٣٠) مليون مسلماً ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي إلى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقاً) معترفا ومقراً بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوَّراً، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ، ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم إلى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كردينالا حيث قال « أن الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسيطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائداً لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وإن افترقا متصل بعضهما ببعض ، وموجودان في حيز واحد ، وقد لوحظ كثيراً أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا ، أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين ، وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين، طبقا لامياله[1] نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد باحدهما المتطرفون، وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما

وتلك الأميال[1] المتعاكسة التي برزت من مكامن الاعتقاد إلى مجالي الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية ، والسياسية والادارية، وأدت إلى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم وابرام مانقض ، إلى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ، ولا سيما في البلاد الافريقية ، من عدم السير على وتيرة

«١» المراد بالاميال أنواع الميول أي جمع ميل بالفتح وهو مصدر مال يميل

واحدة . هـذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ، ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لايصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة أو خمسة ملايين فقط ، بل يسري على نصف قارة بأكملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عـددها بامتداد رواق الامان على الأهالي، وإبطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً، ولابد من الاعتماد على أمر واحد في حلها، إذ لا يكفي للوصول إلى هذا الحل تنميق عبارات ، وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأي العام ، مبيناً أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب، للوصول إلى نتيجة فعلية ، وموردا شيئاً واحداً هومن ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطاً به

قد سبق لي وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما أن سألت — ولا زلت أكرر هـذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثاً علنياً في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين ، وعلماء عارفين، لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

إن الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر ، أو تونس ، أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي، أو بعبارة أعم مع المسلم،إذ منه يشتري الأرض التي يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ، ومعه يدبر شؤونه المعيشية، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل ، وتكون عواقبه أكثر خطراً اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف ، أو الحاكم ، أو القاضي ، أو الضابط ، أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وبين وزارة مستعمراتنا ، أورجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيراً ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع أن الواجب — متى رضينا باحتمال هذه المسؤلية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة — أن نطيل البحث ونمعن النظر في طرق استخدام هذه السلطة ، وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ، ونستمد من معلوماتهم مانستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامي . إن فريقاً كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين — قد كانوا ولا يزالون فى اتصال بالمسلم ، وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم ، ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤننا بما نجهله من يقين أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ، ولم يفكر أحد في الأمر الذي نحن بصدده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الانوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ماتم التحقيق والبحث ، حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين ، وتنتشر بين الطلاب في المدارس ، فتنمحي بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية ، يجري على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه ، وتجتني ثماره ، وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لارابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء في النـدم والحسرة من عواقب هفوة هفوها ، أو زلة سقطوا فيهـا ، وكانت كلمة واحـدة كافيـة لأقالتهم من عثرتهم ، واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحداً يرتاب في نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هـذا الفصل ، أورد بعض اعتبارات إخالها ضرورية للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها : أشرت سابقاً إلى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي ، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم

مبهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنيـة أو الوطنية، إذ ينحصر الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالوهية ، فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم،ولم تدخل في رءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ، فكان ذلك سببا في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هـذه البلاد ، فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء، نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس، والمحافظة على مركز الباي ، وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ماأدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الأمور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد، والقبض على أزمتها ، بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة وليس،فلم يتألم منه الاهلون،ولم تنخدش له إحساساتهم، إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها ، وتركت أزمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الاهلية إلا برضى وتصديق من الاهالي ، وربما كان بطلب منهم، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل ، وهذا النسخ والتحويل ، عدد قليل من الموظفين، أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حصل بدون أن يجر وراءه ألماً أو توجعاً أو شكوى، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدي ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر .

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى ، بل انفصم الحبـل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، اذاً توجد أرض

تتفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة انبتت في قضائها ، وادارتها ، وعاداتها ، وأخلاقها . أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ونموذجا ينسج على منواله، ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد، إذ حكمت فيها قرطاجة، ورومية وبيزنطية ، والعرب ، وسان لويس ، وشارلكان . فأصبحت الآن مهبط المسالمة، ومعهد التصالح والوئام، ففيها الديانتان، بل المدنيتان متلاصقتان، بل متداخلتان، حتي تأكدت نقط التشابه بينهما ، وانحسرت فرجة الخلاف ، وارتفعت الاحقاد من الصدور، رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الأراضي الخصبة ، والسماء الصافية الاديم، التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها . ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ماتعاقب في الاقطار التونسية من المدنيات القديمة لم تندثر تماما ، ولم ينمح أثرها، كي تهتز لاستقبالنا، ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضي والزمن الغابر

إن مسجد القيروان الجامع، شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجري الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها (تانيت) وخلاصة القول أن مزيجاً من التاريخ يركب في هذه الأرض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش في خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه للرتوع في واسع رحابه اهـ

هذه ترجمة مقال هانوتو وقد نشرت في عددين من المؤيد ، والعبر فيه كثيرة ، وقد أتى الامام أحسن الله جزاءه على أهمها كما نرى

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق

بحثه السابق، وشيء من تتمته، إنما هو دافق من غيرته على شؤون دولته، يريد أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم في ممالكهم . وذلك لا يتم على مذهبه إلا بالبحث في طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضل المسلمون سلطة إسلامية، على سلطة فرنساوية . فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ماوقر في نفوسهم ، وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا، وطاب الجوار في قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام ، والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنساوي في طبقته، صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض ، والاوجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة ، أو تجليهم إلى قارة أخرى

ولهذا جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي ، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه ، ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في نفوس معتقديه

أما غايته من البحث، وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنساويين ، لتثير عزائمهم إلى حرب المسلمين ، وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة، فذلك أمر نكل فائدته اليه وإلى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ، ونلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ويتجملون بآداب الأمة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنساوية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين، ماحركت قلمي لذكر اسمه، وكان حظي من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار - حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها — حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به في التحكك بأصول الدين، فهو الذي أغمزه بما أكتب اليوم.

يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد في العقائد ، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها إلى ذهنه . ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم

أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما ، وأن أحدهما قهر الآخر، وأن التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي، وما يشبه ذلك

إن مهد التمدن الآري - ومنبت غراسه (الهند) - لا يزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب أنحائه ، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها ، بل يدوم تباينها ما دامت الارض أرضاً ، ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة ، ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة مافوقه الى انقضاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة ، حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبنى عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي ، وهو لم يعرفهم إلا فى آخر الزمان ، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم، كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها

بمخالطة الأمم السامية، كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين، وهم أساتذة الاوربيين الآخرين، كما يزعم مسيو هانوتو

ماهذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ماانتقص أطرافها المسلمون؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم!!! هذا هو الذي كان معروفا عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس، وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ، وذهب به أبلج ناصعاً، يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال، والتفصيل لايجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا. واليوم يرعى أهل أوربا مانبت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدنيــة السامية التي جاء بها الاسلام، وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ماأودعته هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الأذكياء. والعارف بطباع الأمم لايعسر عليه

أن يقودها الى مايضمن لها الفوز على جيرانها . وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الأديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لاعلاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا، والزهادة فيها، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الايسر ، وأن يفنوا بكليتهم في الآب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط ، أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية، التي تليق برسول إلهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني، ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل مالله لله ، وما لقيصر لقيصر ، كما أوصى الانجيل ؟ وهل رأى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي؟ العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية إنما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرا (الفرنك) عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لايشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم، فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لايحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول

المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة . فان كانت هذه هي المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامي فانا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته

من الساميين الفينقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لاتنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية لافرق عندهم بين آري وسامي متى مست الحاجة إلى تناول عمل ، أو مادة ، أوضرب من ضروب العرفان ، لدفع ضرورة من ضرورة الحياة ، أواستكمال شأن من شؤونها . وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل ، عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين ، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعنى به مايقابله

واني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب ، وفينقيين ، وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللا وأسباباً أدته اليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني . وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالنا غداً إن شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هـذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه أني إن صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخيـة فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منـه ، ولأنه لاأمير في العلم إلا العلم والسلام .

المقالة الثانية

في الرد على هانوتو

(وفيهـا تحرير الـكلام في مسألتي القدر والجبر عنـد الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين)

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه ، وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً ، وأنهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبـد مسير بقدرة الله لاعمل لارادته في فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختياراً يتصرف به، فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال إن الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثاني يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصـل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي ، والثاني بمذاهب اليونانيين القـدماء الذين يدينون بتشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية ، وأن الاول قعـد باهـله ، والثاني ارتفع بمعتقـديه الى مراتب الـكمالات الانسانيـة ! ! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر . وأن الأولى ربانية ورثت ماترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ماترك الساميون ، وأن الأولى ترقي بالانسان إلى المقام

الالهي ، والاخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً بيناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما . فأصل الأول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان إلهاً بشراً واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين وردهما إلى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما، الى آخر ماأطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر ، وخلل في المقال ،يشبه ماجاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل مشبهين أومنزهين، ولادخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك ، بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام ، واستمر الى هذه الأيام ، ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أوالدومينيكيين وهم جبرية ،وأشياع (لويولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف إلى جزائر بريطانيا) أنه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتماداً على مايسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك في الاديار وبين الرهبان ، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الازمان ،وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على

صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة — ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله ،وهو مذهب القائلين أن الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف ـ وهو الكتاب المنزل بالاسلام ـ يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنامن شيء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرُصون) وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فانما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسئلة اختيار العبد في أفعاله و بين أثر القدرة الالهية في أخلاق الأمم ، أو في تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد في أفعاله مما يقرر به الوجدان ، ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ماعليه الأمم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار ، بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذي لايكلّ ، والدائب الذى لايَملّ ، والساهر الذي لاينام ، والجادّ الذي لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته قائلا : الذى كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين ، و كانوا أكمل الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من

قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي، ومثلا في الدأب والكسب، حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية، أو الدعوة المحمدية ، أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت ، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل ، مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها ، وكشفوا ما كان مستوراً عندها ، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وا أسفاه! نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به فى الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره .

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان (١) ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد، وخالفوا الله ورسوله فى النهي عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً ، والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل ، وصدق الايمان ، وأخذه عن المسلمين فى أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم

(١) أي وكلاهما من الآريين

بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاماً لا نسبة بينها وبين أصول دينهم ،فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ، ولكنها وساوس قد تملك الجاهل ، وتربك العاقل ،اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل ،بين المسلمين يفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ،ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطعام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأ دوا فرضهم،واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القـدر ، وأيقنوا فى صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوي من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وبحول هذيانهم حكمة وعلماً

هـذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسئلة القدر عنـد المسلمين . أما التنزيه والتشبيه فانا نوفيـه حقه فى تتمة لهـذا المقال ، ونشفق على القارىء اليوم من الاملال . والسلام »

المقالة الثالثة

فى الرد على هانوتو

(وفيها تحرير القول في التوحيد والتنزيه ، وتجسد الالوهية والتشبيه)

اليوم آتي على آخر القول لكسر شِرَّة هانوتو فى توثبه على الاسلام ، وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام فى الثاني ، ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً فى أحوال الأمم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت ولا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها ، مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط ، تبتدىء من وثني أفريقية وتنتهي إلى بوذي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان فى العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله فى أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى ، على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه مسيو هانوتو وأمثاله ، لأن مالا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم : نشؤا وثنيين ، ولا زالت الوثنية ترقُّ وترثُّ بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم ، باذلين الوسع

في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت إلى العربيـة أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون مابقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة ، والعادات الرديئة، التي كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة ، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى ، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه ،استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط. وقوة العقل ، ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم ،تصعد باهلها إلى مشهد الوجود الأعلى ، وتشرق بهم من هنالك على العالم بأسره ،فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول، والفروع والأصول، وما ظهر للأبصار ، وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدَّرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة ، فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ،مافصل منه في فهمه ، وما أجمل في كليات علمه ، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو ربّ العالمين، وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الايجاد ولافي الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصـل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وأن يستمد منها المعونة في كل شؤونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة ، ويقف منهـا عند مايعتقد منها . والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر في بعضها

أما الأولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان

فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم ، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ماشاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى في شؤون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ، ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون في إرضائها بما يعن لهم، وكما تشرعه لهم أهواؤهم ، ومن ذلك كانت ترتكب القبائح في هياكل الآلهة ، وتنتهك حرمات الفضائل في محاريبها ، وتقدس الذبائح الانسانية، بين يدي التماثيل الحجرية ، وأي درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف في التاريخ ، ولا تزال مشاهده إلى اليوم معروفة

وأما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أوشجاعة ، أوصدر منه مالا يألفون من الاعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ، ظنوه مظهراً للوجود الالهي، فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته ، فسلبهم كل ماكانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ماداموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعاً في استعبادهم . وكم قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ماقدروا الله حق قدره، فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم، فظنوا أنه في ملكوته ، كملك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه، ويستصنع عمالا للتصرف في شؤون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى إلى الله ، أو صدر منه مايظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه ، رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون — فاتخذوه شفيعاً لديه ، يلجؤن اليه في مهمات أعمالهم ، ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا

عما يفعلون ، وما به يدينونا ، قالوا « مانعبدهم إلا ليقربون اليه زلفى »

ماذا أصاب هؤلاء من شر مااعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن، والزعماء ووارثيهم ،واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ، وافهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على مايستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ماقاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد ،والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب إلى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وماجاورها لاينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة، بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل طمعاً في نيل مرتبة الالوهية، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم .ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل إلى مقام الالوهية ، ولا إن الالوهية البشرية تركت فيهم أثراً صالحاً ، بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . وأما السعي إلى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

وأما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه إلى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول إن المسيحية بذلت وسعها في بداية أمرها لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم إلى الاله الواحد . وكان التنزيه قوام دعوتهم، كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند أهل التاريخ وغيرهم لاحاجة إلى تفصيل ماكان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم، وخسيء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ماسبقه ، واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم،

وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحداً من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون إلهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثراً لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها، فلا مكنة له في أن يحتذيها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين مالا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان ، وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والأب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم

اني أرفع أدبا من أن أطعن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي أحسن ، ولكني أرجع الى الكلام في الآثار التي عني هانوتو باتخاذها دليلا

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بان دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله ، وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام ، وكانت أكثر عدداً ، وأوفر عُدداً ، وأعظم قوة ، وأشد بأساً ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجاً من كل ملة من هذه الملل ، فاعتقت الهمم ، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال

مايُعدُّه له استعداده الممنوح له من واجب الوجود . وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم ، حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان ، وجلوا صدأه وأبرزوه للأنظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه . ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفي مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض ، وأتوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو

اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم : أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد . وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لايعدّ ذلك طعناً في أصول الديانة المسيحية ، وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ولكنه وهم في ذلك ، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد ، يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لايمكن الرقي اليهما ، مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان ، وينالها استعداده ، لايحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله ، أو قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلا ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا

هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه (مسيو هانوتو) فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية ، وفي هجرة عن التوسل بالاسباب إلى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون . ولو استشمَّ مسيو (كميون) الذي استشهد(هانوتو) بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، ولا حاجة إلى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه،وفي عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس ؟ وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط:

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم،وطارحوهم الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم،وباؤا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس الى حيث يُصَبُّ عليهم ما استفرغه (كميون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه مافقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ماهداهم الله اليه في تنزيله ، وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم ، وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان مايلقاه(هانوتو وكميون) من دين صحيح ،شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى(كميون)أن يخلي وجه الارض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما :أن يظهرا ضِغنهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة ،فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« إنه يمتد في أفريقيا ومعـه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم . وقال « إنه يختار إسلاماً لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر » ثم هو لايزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا . وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ماترجو ان شاء الله

لو أسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها وفي مقدمتها مسـيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على مانعهده في الجزائر ومدغسكر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها ، وأن لاينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسـمعون قصف هذا الرعد ، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجد في اهلاكهم ، والدأب في افنائهم

إن العدل ورعاية الحقوق ، واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب ، وتدنو به منـه ، وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنساويين لايعرفون شيئاً من هـذه الأركان الثلاثة ، ولا يزالون يهرفون بما لايعرفون ، حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون ، فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اهـ

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ لما نشر هـذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه ، زاعمة أنه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية أن الترجمة صحيحة ، ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع مسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها ﴿ الاسلام أيضاً ﴾ وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر فى ٢٢ المحرم سنة ١٣١٨ (٢١ مايو سنة ١٩٠٠) حاول فيها الاعتذار عما رمي به من ناحية السياسة التى تغري دولته بالمسلمين ، ولم يستطع الجواب عما خطأه به الامام من المسائل الاعتقادية والتاريخية

ثم زاره صاحب الاهرام (بشارة باشا تقلا) الذي تولى الدفاع عنه أو تخطئته الامام في الرد عليه فيما ذكر آنفا ودار بينهما حديث في هذا الموضوع نشره في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الذي صدر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠

وقد رأينا أن ننشر المقالين ونتمي عليهما برد الامام الاخير وهذا نص مقال هانوتو :

الاسلام أيضا

من المسلم أنه يتعذر عليَّ الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد اليَّ بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكراً جزيلا . وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به عليّ وأبانوه لي محفوظ فى مخيلتي ، ولا يبرح ذاكرتي . وانني أجد في تبادل الأفكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع . وبالرغم مما يخالجني من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لامندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسئلة الاسلام . والحق يقال انني أصبحت بسببهما — كما يقال — بين نارين . فالمسيحيون ألحوا عليّ بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بالميل للاسلام ، واتخذني المسلمون خصما لدوداً لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصوّر والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل كان الجهل بلغتنا — وهو في نظري أكثر تأثيراً من سوء القصد — سببا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لهـا وسيرها على سننها . فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين

كتبتهما على الاسلام . ولعل القراء يذكرون أنني أوردت فيها آراء (كيمون) التي أبداها في كتابه (باتولوجيا الاسلام) وان ايرادي لهما كان على سبيل الحكاية والنقل، اذ اشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من اقوال كيمون التي اوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (انا انقل، انا انقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للالتباس ومنعاً للشك بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت إليّ تلك الأفكار التي عمدت إلى دحضها ، وإظهار فسادها ، حتى إن أحد كبار أئمة الدين الاسلامى كلف نفسه مؤنة الاجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري ، بل هي نقيض ماذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثي . ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من الترجمة ، إما أنه لم يفهم مرادي ، وإما أن الترجمة كانت فاسدة ، لم تتوفر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ، ومسالمة وتوفيق، على أن احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي ألا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايراده به فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسوية قد اقتفى أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ، ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله . على أنني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهي أن منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء التفاهم ، والخطأ في معرفة بعضهم مقاصد بعض إذ كثيراً ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة ، أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأي ، أو مرامي حيلة من حيل المناظرة ،

سبباً في جر" مالا يحصى من المصائب ، بل سبباً في انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ، ورابطة الجوار ، وكانوا إلى الائتئام والاتفاق أقرب منهم إلى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محوما تراكم شيئاً فشيئاً حول مايقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة ، والشدائد التي لافائدة منها ، وتيسر العود الى النقطة الأولى التي كانت مبدأ النزاع ، وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة في تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيما ، ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل إن العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغاً عظيما تافهة ، وأسبابها بسيطة الى هذا الحد ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه عما اذا كان في الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم بعضهم مقاصد بعض على فرض أن تبادل المودة فيما بينهم لم يكن من الأمور المتاحة لهم

ومن الأمور التي كان لايزال خاطري منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ولو كانت من أهم المسائل وأخطرها ، تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها ، والمطابق للانصاف والسلام . وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد في المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار بانه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما في التجرد عن الأهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما ، وتتطابق رغائبهما

اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ، ولا ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضاً . وأما الاعتماد على القوة والركون الى العنف

الذي هو أخص مايلتجيء اليه القوي ، فهو من أخريات الوسائل وأحطها، وهو حيلة من لاحيلة له

ويظن الناس في الغالب أن الواجب التخير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق، وهو خطأ بين وغلط ظاهر ، إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها . وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضاً على المناقشات الفلسفية والدينية ، إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته، لأننا اذا نظرنا في أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بني الانسان بعضهم مع بعض بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم ، وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة ، بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية، وقد انتهت إلي رسالتان غريبتان في هذا الباب احداهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (احمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني ، واستشهد في خاتمتها بكلمات قالها الكردينال لافيجري وهي: «أجاهر علانية بانني اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي إثما من الآثام وضرباً من ضروب الجنون» وانه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لايحدو بنا الى الغاية السامية التي نقصدها ، وأن الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام

ووردت إليَّ رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة (احمد افندي مدحت) أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر ، وأني آسف شديد الأسف من

عدم إمكاني نشر مضمونها بأكمله في هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ، ولا ريب في أن القراء الفرنسويين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية صحيحة،غير أن في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفهرار والتجهم .

على أن هذا لايمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهاهي ذي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لايقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم تسمح له فرصة رأي فيها لنفسه حتماً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى ، وهو مايؤخذ منه أنه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام ؟لاجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لاتهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء — إذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشري »

ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامي يراه أرقى وأحسن مايدافع عنه به ، وأخذ يعتب عليّ لكوني اختصرت البحث في المسئلة الفلسفية ، ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وأنني اعترف بأنني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القاريء لايمل حديثي ،فانني أورد هنا بالايجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة،وقصر مباحثي مؤقتاً على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ (الكردينال ريشليو)وصلت إلى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله ، واستلفتت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في إبان

استلامه زمام الأحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية ، وسوف أورد كيفية حله لها . ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت : في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء (الكردينال ريشليو) الذين أخذوا بناصره في خطاه الاولى ، ووالوه بنصائحهم وسطوتهم . ومنهم (الدوق دي نيفير والأب جوزيف) صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالباً حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة ماري دي متديسي — الذي أجلس ريشليو على منصة الأحكام و كان يسمى بحزب الكاثوليكيين — حزب من الصليبيين

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه ، رافضاً أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ، ثم ولى وجهه عن الاسلام فحارب — كما هو مشهور — الأسرة النمساوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصباً ، فانه قبل أن يأتي بما عمل به بنى عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن . وأن هذه الأسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وايقاف غيري عليها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في أسبانيا وأفريقية إلى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الأصقاع باحثاً ومفكراً ، شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أي أطلالها في عهد انيبال والقديس أوغستان ، وفي عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطلول أن الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضاً مهبط السكينة والسلام

وأما الأسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف

أبينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر، قد توصلت إلى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فاشرت إلى السلم الناشيء من الحماية ، ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لايظن أنهما يجتمعان في وئام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ،إذ الجميع لم يفهموا مرادي ، ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ، ومهما يكن من الأمر فان من الامور المهمة قيام الأفكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية ، وطهارة الضمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق ،لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشارة باشا تقلا يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ، ثم سافر الى باريس ولقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث قال :

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس أن أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت أن أنشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أروبا ان أممها ماتقدمت علماً ومدنية واختراعا إلا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطني الفرنسويين ولم أستشهد بكيمون وهو يوناني الجنس إلا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله ،وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد ،لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء واحدة وهي: انه كلما تقدمت أروبا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر مايسير الماشي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أروبا علما ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ماكانت عليه في السنين الغابرة، وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه ،لاعتقادي ان الاسلام لايحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالي وسياستي . هذه هي روح كتاباتي السابقة ، وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني إلي ذلك ماكان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الأعصر الخالية ، وما دفعهم في

الأيام الأخيرة إلى ذلك إلا الحوادث الأرمنية وغيرها ، ولما كنت قدوقفت نفسي لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير ، وسرت في أكثر أعمالي و كتاباتي على منهاجه، وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي و كردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ـ سياسة الصليبيين ـ وحال دونها بدهائه المعروف ، مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوروبا معا ، فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه في تلك الأعصر أي السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ؟ لا لعمري فلهذا عارضت بالأمس ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ إن الرأي العام إذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الأعمال

على ان معارضتي لأمثال هؤلاء الكتاب أي تقضي لأقوالهم لا يمنعني عن أن أقول لكم الحقيقة لأنه يستحيل عليَّ أن أقول ان شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية كما انه يستحيل عليَّ أن أقول ان في حالتكم الحاضرة ضمانا لمستقبلكم السياسي ، فاعلم ان أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد بل لتفصلها عن السلطة المدنية فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله

واعلم ان الذي أيد هذه السياسة أيضا في بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة رومة وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسة الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، إذ ايد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات ، وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينيـة أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسويين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق

للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ماسرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية

واني لا أكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أو ككاتب حر الضمير لاشأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أدبيات كل دين ومعتقد ، وأقدر تلك الأدبيات قدرها ، ولكن الماديات غير الأدبيات ، والأولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لابد أن تموت إذ لا حياة بلامادة ، والهكم أنتم الشرقيين آله أوروبا وآله أميركا إذ ان آله الجميع واحد، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربي منه على الاميريكي ، فالشرقي بل ان الشرقيين عموماً أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا ان أوروبا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أميركا تزاحم أوروبا وكثيرا مافاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأميركي منه إلى الأوربي أو الشرقي ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حي ، هذا يشتغل مجتهداً وكلما زادت أرباحه زاد نشاطا وإقداماً ، وذاك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الاوربي وتأخر الشرقي ، وضيق أوربا بأهلها دفعها إلى الاستعمار في كل صوب ، فصادف أبناؤها ارضاً واسعة ، وشعوباً لاحراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : إذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في اهل الجزائر ؟ ولماذا لاتسأل الحكومة الفرنسوية ان ترى في احوال هؤلاء

قال : أما التونسيون فلاخلاف في انهم مسرورون بحالتهم (١) ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزق شملها أفراد حكموها ، وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية، ولم نسألهم إلا أمراً واحداً أي احترام سلطتنا السياسية، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع

«١» هذه الدعوى ينكرها التونسيون

الحماية كما هو في تونس، لا أضم المستعمرة إلى فرنسا كما فعلنا في مدغسكر بالرغم عن معارضتي ذلك، وقد رضيت به منقاداً لأوامر أكثرية دار الندوة، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر، وقد شرعنا في ذلك، وسأكتب كثيرا في هذا الموضوع لأني ذهبت بنفسي إلى تلك البلاد ودرست أحوالها، وأملي أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي، وشرعت حكومتنا في انفاذه(١)

قلت إني أعرف ماسردته لي عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية في أروبا وعن أحوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولا سيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الأجانب ليسوا إلا خصوماً للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطتين ضعفاً ترومه أروبا لتنال بغيتها منهم

قال هانوتو : أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل مايشاء ولكن اعتقد ان أروبا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما اني أعتقد أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في الحروب الماضية، واعتقد أيضاً أن صاحب السلطتين ولا سيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانكلترا من التهام الهند، وروسيا من أخذ خيوه وغيرها إلى حدود أفغانستان، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والمملكتان اسلاميتان، فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيداً سياسياً يستحيل أيضا توحيد سلطتها الدينية، وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن اعتقد أنا مثلكم أيضا) انه لا يحول دون التقدم العصري، فما بالكم متأخرين ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على اولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أروبا تحول دون تلك الاصلاحات، أجابوكم ان أكثر الدول

(١) هذه دعوى يبطلها الجزائريون

كانت دائما معكم الى سنة السبعين و بعدها ، فلمَ تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ماوصلت اليه اليوم ،فأصبحت أروبا تقدرهاقدرها في جميع مسائل الشرق الأقصى؟

واذا قال لكم اولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة في أروبا والقريبة من أوربا كسورية مثلا ،سألتكم هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ أيظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين؟

وأنا أعرف ان أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قد حان لكم أن لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي ما دام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها ، كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذي قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وانا في منصة الوزارة الخارجية في ايام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير اوربي ان يرتئي مثل تلك السياسة ، ولا اقول هذا من باب العداء بل لما نراه من تعديل اروبا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه ؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة اجنبية او اروبية ، والذي ينفر الشرقي هو ظلم اروبا في سياستها هذه ،وعتبنا على فرنسا اكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لاتنطبق على حالة اوربا في هذا الزمان فهي بعد ان كانت لاتهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لاتقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة ، واني ارى كتابكم وافراد امتكم يجهرون في غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألماني لنكاية الانكليزي ، وينتصرون للفرنسوي على الألماني ، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين ، لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية ، وهي سياسة قديمة العهد لاتعتد بها أوربا اليوم ، وأنت تعلم ان ألمانيا اكثر الدول في اوربا استقراراً وأبعدها استعمارا هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدلكم على ان اوربا لاتسعى الا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها اوصعب على طبعها

ثم قال لي : انت تقول إن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها او بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما وان اكثر الدول طامعات في املاكهم ، وحضرتك اكدت ذلك في كلامك الآن عن سياسة اوربا

والمسلمون يعتقدون أيضاً ان مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد أدى بهم نقدان هذه الثقة الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل أوربا في أعمالهم ومن افعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة او في سفاراتها ، وانت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين في الآستانة وباريس ، ولكن تفنيده امر سهل واليك البرهان : لا يسعك والساسة

المسلمين ان تنكروا ان بعض دول اوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى اوربا فان هذا حصل قولا وفعلا في حرب القريم فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول اوربا عن نيل أغراضها فى المسألة اليونانية ،وهذه الدول الثلاث خدمن سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الأرمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الأوربي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن. وإذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً أن فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على أن ضالة أوربا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين . أولم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكثوليكي من أن تحالف روسيا ومذهبها أرثوذكسي؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الالماني ، والكثوليكي النمسوي والايطالي ، وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا ، وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني ، وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها ، كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة ، تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق ، وإذا وجب أن يلوم المسلمون سياسياً مسيحياً يخدمهم ، فكم يجب أن يلوم ساستهم العديدين . أفي مراكش مسيحي موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين (* ?) فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه ، أو أن رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقي عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الأعظم ؟ وهل قام ولاتكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الأمة ومصلحة الوطن ؟ نعم لا أنكر أن تداخل أوربا أو بعضها نفركم ، ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

*) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفرائها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين اه من حواشي الطبعة الاولى

واني أتساهل معك وأقول إن بعض دول أوربا يريد لكم سوءاً ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها ، وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام لان أوربا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ويمنعها عن انفاذ مايتهمها به المسلمون وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما ؟ أم تقبل به فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ، أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ مايطلبه كيمون وغيره من كتبة أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ، ولاستمالة الرأي العام الاوروبي اليهم

أما ماكان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة ، أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ، ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها ، — فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وأن يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا إقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أي كما فعل اليابانيون في السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذي نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل ياباني بتحقير الأجنبي لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا ، فالسياسة ثانياً ، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتي منذ حرب القريم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة

الاوربية سواء في اوربا او في الشرقين الاقصى والاقرب لكن دون شك حظ دولتكم العثمانية اضعاف حظوظ اعظم دولة أوربية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ماقصدته من تفنيد مايزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم ، لاأن يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لي إن النهضة العلمية بدأت في مصر ، وإن بعض الافراد انشأوا المدارس ، وإن الجناب السلطاني قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح ، ولكن الطفرة محال . وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لأني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط في إقامة المدرسة، بل في وضع البر وغرامات المدرسية، كما أن العلم وحده لايكفي ، وقد يضر اذالم يمزج بالتهذيب ،فاني لاأجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضاً ، ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ،ولعلنا نراها يوماما لأني أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لايجمع إلا عنصراً واحداً ، وأنت تعلم أن الفرنسوي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكي الفرنسوي ، والفرنسوي الكاثوليكي ، أوالكاثوليكي أو المسيحي لايشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية، وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ماأردت أن تعرفه مني عن رأيي في الشرق اه

هذا آخر مانقله مدير الاهرام عن هانوتو ويليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

المقالة الرابعة

هانوتو والاسلام (*

(وفيها بيان عناصر القوى فى أوربة وهى سبعة)

ألقت إليَّ المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة فى القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام ولم أشك فى أن كثيراً مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا، وكثير من أحوال المشرق. ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه، يعد ظلماً له وجوراً عليه، خصوصاً ونسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس أثراً لا يحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم، وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق. فلا يليق بذي غيرة على الحق، أن لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق، وأرجو أن يترجم ما أكتبه في جريدة المؤيد الفرنساوية، وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء، ويعتبرون بمثال، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو، فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال،

«١» نشرت في العدد ٣٩٢٠ من جريدة المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٨

وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأماني ، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ المطلي ، وهو من روح قائله خـلي ، حتى اذا دهموه وهو في غفلته ، وأخذوه في نومه او يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهـذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة «حاربهم بمثل مايحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح»

ولا يخـفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسـة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيـه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة.

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد . فان قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسـهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق ، واستبدّ القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل الا بما يجري فيها اندفعت الى الاستعمار ، ولا يردها عنه الا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنيـة ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وما أعدّت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد أذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها

برهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فقد دعته الآية الكريمة إلى الاعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه امة إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له . واطلقت له القوة ، وهي كل ما يقوى به على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ماحفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل المتنافسين عند حدّه ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر ، هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة ، لأن مسيو هانوتو لاينكر أن أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ماينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها . وهو من الأمور المسلمة التي لايجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة في بيانه ، غير اني أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيراً من آدابهم ، وطالع عدداً من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد . ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنساويين ، ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، وتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر . ورأى أن من

الزلفى عند الحكومة الفرنساوية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد اذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنساوية ، وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل مايرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكي سعيه . ثم عاد الى صاحبه وقال له : إن ما تخيلته ضرب من الوسواس . وإن الحكومة الفرنساوية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة . ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت ، وإعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد إنشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملك في المساعدة قريباً . وإلا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ماأقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهداً الحديث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ماضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ، ولقول الصديق رضي الله عنه ، ومستحقاً للوم مسيو هانوتو . ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة .

بقي عليَّ الكلام مع هذا الوزير في أمرين الأول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً فى عمل من أعماله ، وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اهـ

المقالة الخامسة

هانوتو والاسلام

(شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية)

أؤكد لموسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ماهي عليه لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة ، فضلا عن أن يبني عليها حكمًا ، وأن ماعلق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ، ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسيي المغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي ، لايغشاها ستار من تمويه ، ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ، وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدهم ، حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ، ولا من السكون شغبًا

لا أنكر أن طائفًا من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الارض . وأن نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم ، فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه . وأن منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون . ولا كلام لنا في هذه المقلدين . وإنما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجرداً ، ولا جسدانياً جامداً ، بل إنسانيا وسطا

بين ذلك ، أخذ من كل من القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوّه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنيـة . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا ، فهدى ضالا، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلاً، واقدر عليه وَكِلا ، واصلح من الخلق فاسداً ، وروج من الفضيلة كاسداً . ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، واصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن الامم التي دخلت فيه نظاماً ، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك عند اهله كمالا للشخص ، والفـة في البيت ، ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم . ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قائل ان يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصـناعة ، ولا تفصيل سـياسة الملك ، ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر انه اوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، واوجب عليهم ان يحسنوا فيه ، وإباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملـكة . وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخلة بوادي الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش » — أي خشونته — يريد بذلك ان يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان . وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازاً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار ، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من امرهم وامره ما هو معلوم

افبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته ؟ ايدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائغاً في دينه وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد ؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجةضرورية ينساق اليهاالأمر بنفسه ،بحكم سنة الله في خلقه

وآسفاً !! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه . أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرّم الله وجهه «ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكراً لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه، وتسرب فى عقائده من حيث لايشعر مالا يتصل بأصلها ، بل مايهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع فى العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[1] أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه ، فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفي ، وكان سواء فى علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفى طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما، وبماتحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعدعلى تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله ، وعمل الصالحين من بعده ،حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان .

(١) الحديث رواه ابن ماجه وغيره من طرق كثيرة ضعفها بعضهم ولكن قال الحافظ العراقي قد صحح بعض الائمة بعض طرقه وليس فيه لفظ مسلمة ولكن المعنى يشملها بالاجماع

ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظنّ الرجل أن غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها ، أما مايتعلق بسر الاخلاص فيها ، ووسيلة قبولها عند الله ، فذلك مما لا يخطر له ببال إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح ، واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات ، وثمرة الاعمال الصالحات ، فهو مع انه اهم علوم الدين مما لاتتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض لاترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة

أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا إلى فريقين الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قلّ أفراده في معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لايكاد لايدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة ، فانما حظ الذكيّ منهم وقليل ماهم أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق أن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم ، سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثاهم مثل من ورث سلاحا همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه، ولا يمد يده اليه يستعمله او يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ، ويفسده الخبث ، ويزعمون أن الدين يصدعما وراء ماعرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأي هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لايساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ، ولا يخفى ان مايحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى اثر في صلاح الأمة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه اولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق إن كثروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد مابه ينال المنصب الذي يعده له والده على ان مايحصل إما لفظ يحفظ او خيال يخزن والمدار على الوصول إلى ورقة

الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون إلى اوربا لاستعمال التربية فيها ، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها ، فاذا ملّ الانتظار او تقضي زمن العمل وجدته في قهوة او ملهى يسرف في اوقاته ، أو يفسد في ادواته ، والصالحون منهم -وقليل ماهم- لا يهمهم شأن العامة شقيت ، أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة ، وأستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم ، يرجى أن ينمو عددهم ، وتجني الأمم ثمار أعمالهم ، هذا شأن الرجال مع العلم

وأما النساء فقد ضرب بينهنّ وبين العلم بما يجب عليهنّ في دينهنّ أو دنياهنّ بستار لا يدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة ، أو يؤدين فريضة ، سوى الصوم ، وما يحافظنّ عليه من العفة ، فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء ، وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهنّ الخرافات ، وملاك أحاديثهنّ الترهات ، اللهم إلا قليلا منهنّ ، لا يستغرق الدقيقة عدهنّ ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً ، يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل ، وقعد عن العمل ، ووكل الأمر إلى الحوادث ، تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ماورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظنّ أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه ، وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة ، أو حلت به رزية ، تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ماعرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم ، فالقى مقاليده إلى الحاكم ، ووكل اليه التصرف في شؤونه ، ثم أدبر عنه ، حتى ظنّ أن

الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه . ومن رأى حزن الآباء اذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها ، حكم بأن مايعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لايمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادراً على كل شيء ، بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة إلى الادبار والتخلي عنه من حيث إنهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذي يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم منه ؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم إلا مايمس شخصه منها

وأما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتياش الأمة مما سقطت فيه ، فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم ، لايرعون في ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم ، وما يتبع ذلك من الخصال التي مافشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ماحدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد ، وطرق متخالفة في السلوك ، وأراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه ، لاينظر إلى حق ، ولا يفزع من باطل ، وإنما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو مايدعوه أخا له في الاسلام ، في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك — وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم — وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لادواء له ، وأن ما

نزل بهم من الضر لاكاشف له ، وأنه لايمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه: مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم، وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار، أو خطائهم في فهم ماصح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكاً بالارواح والعقول ، وكفى في شناعتها قوله جل شأنه (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هُزال في الهمم ، وضعضعة في العزائم ، وفساد في الاعمال ، يبتديء من البيت وينتهي إلى الأمة ،ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة، خصوصاً من دوائر الحكومات،ومايرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فانما عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة، على أنني لا أسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية ، والتاريخ شاهد لايكذب

هـذا ماأصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم ، بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله ، وجهلهم بادنى ابوابه وفصوله ، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها، وينزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه، إلا اذا تداركهم الله بلطفه، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب،ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعـده حجاباً بين الأمم والمدنيـة ، بل يعـده منبع شقائهم ، وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند و بلاد العرب ، ثم في مصر،وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم، ولعلهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية إن شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال إن الغرض الذي يرمي اليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد . واستضاءت

بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينيـة ودنيوية . وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم إلى الأمة . فاذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده . أو منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه . او صائحاً ينكر ماعليه المسلمون من المفاسد فتلك غايتـه . وهـذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لامندوحة عنها ، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ،يحوجه إلى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجـد من عماله أحداً ، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق ، وصـلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهـله من الثقة به مابيناه ،وهو حاضر لديهم ، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره !!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أوغيرها أن يثير فتنة على الاوربيين ،أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ،غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين اعرض عن فهمه ، وانشأ لنفسه غولا من خياله يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، و بعضهم يظن أنه لوانتبه المسلمون إلى شؤونهم ، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم ، لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن ادخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه، فانه بظنه هذا يعتقدانه غاش مغرر ، وسالب متلصص،وسوءظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحدلا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم، وعظم اقتدارهم على الاعمال . وغاية الأمر أن ماكان ينال اليوم بدون حق،يصبح وهو لاينال إلا بحق، والاجنبي الذي كان ينفق الواحـد ويربح المئة يرجع إلى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب في استيراد الربح.وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها . والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها ، وهي في ارفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة إلى الدين على هذا اوجه،أن يلتمس مسلم بمصر

معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين، فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر . وأما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم . فلم يمر بعقل أحدهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ، ويقول : إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ، ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم . فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق . لكن لاينبغي أن يفهم على غير وجهه . فان الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح مافسد من عقائدهم ، أو ضل من أعمالهم . وفي مدافعة ماينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد ، خصوصاً عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمته،[1] وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له ، وهذا أمر لاينبغي أن يدهش ، فان هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ مابين يديه من المسلمين لما حلّ بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية . فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو : إن أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح . ولكنه لايدري مامعنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر . تلك السلطة الدينية التي

«١» كانت الآمال فيه بقية الى عهد كتابة هذا المقال ولم تلبث أن زالت قبل زواله ثم أسقطه رجال دولته ثم أسقطوا الدولة نفسها دولة آل عثمان الكبرى اهـ الطبعة الثانية

كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى ، وهوالخليفة أوالسلطان ، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية . وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية ، والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم ، وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم إن أمكن . وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها . وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم . ولا دخل لشيء من ذلك في الدين . فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو . ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين ، بل كان الأمر معكوساً ، فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين ، لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم ، والمغالاة في وضع المغارم ، والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين ، وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق ، وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معاً ، فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟

لا أظن أن موسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بينّاه ، وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين . فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الاوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم إن شاء الله

المقالة السادسة

فى الرد على هانوتو

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة[1] ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس . ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية.

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ؟ ومن ابلغه أخبارهم؟ أهم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد، حتى إن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي

هل هم الأفغانيون ؟ واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ولا ينفي إخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس؟ واستنامتهم الى السياسية الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة ، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً شغل بعضهم ببعض ، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه .

هل هم التونسيون وقد أثني عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ما أطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه ، وكما يفيده قوله أن

لا يأتمنوا مسيحياً عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم . فأما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعيـة الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم في غاية الوفاق ، خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبـة في الفريق الآخر . ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحيـة ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين ، وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهـم ، لا لشيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد ان كان على المسلمين اثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن اتى ما اتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه ضديقهـم ، والساعي في خيرهم ، كما افتخر بذلك مراراً في جريدته ، وإن كانت له اليهم هنات لاتزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث . فأين فقـد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحي عثماني ؟ هل حرم أحد حق المحاماة ! أو إنشاء الجرائد أو المطابع ؟ أو إقامة المصانـع ، أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسـيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

وأما حالهم مع الاوربيين ، فاننا نراهم إذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهـم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمتـه انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهـم . وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كروم ، وهو ليس بحاكم رسمي ، فأي دليل على الثقة أكبر من هذا؟

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ، ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيراً ماأغرى الأوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شـباناً من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية ،

وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا كبد والديه . ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون اولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم واولاده يتربون في مدارس الجزويت ، وكثير من ابناء الاعيان في مدارس الفرير . فأيّ ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين ، خصوصا في المعاملات ، حتى اساء اولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها فسلبوا كثيراً من اهل الثروة ما كان بأيديهم . ومع ذلك فهم لايزالون يأمنونهم ويغالون في الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟ !

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل مايشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص او غش ، من صدق او كذب ، من امانة او خيانة ، من قناعة او طمع ؟ حتى آل الأمر بالناس الى ما آل اليه من خسارة المال وسوء الحال . فهل هذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا إلى الدولة وسلطانها أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أوفوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة مالم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين (*

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات

---

*) كان قبل هذا العهد جميع سفراء الدولة أو أكثرهم من النصارى ولا سيما الارمن حتى انتقد ذلك وزراء تلك الدول : أخبرني الغازي أحمد مختار باشا ان البرنس بسمارك الشهير قال له انهم متعجبون من ذلك وانه هو لا يعتد بتمثيل رجل نصراني لدولة اسلامية يعد سلطانها خليفة بين المسلمين وقال له أنا أطلب سفيراً مسلما أعرف منه شعور أمته بل أريد سفيراً معمما !!

الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برقيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد ، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه ، وقبله في مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين ، إثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هي الثقة إن كان هذا فقدها ؟

وأما سياسة الدولة الخارجية، فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا، وهي دولة مسيحية، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية، وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون، فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة، ثم انا نراها اليوم تتراجع، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة، وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوربية

امبراطور ألمانيا جاء إلى سورية للاحتفال بفتح كنيسة ، فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الأمراء المسيحيون من الأوربيين إلى الآستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته مايفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا

ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها، فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل: ان حوادث الأرمن لم تزل في ذاكرة اهل الوقت وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني بل يقولون إن أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب: أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها، ومع ذلك فان كثيراً من الأرمن في خدمة الدولة إلى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني، فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا، ولو أنصف الأوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يغث عليّ أن أقول إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً، واني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم، وقوله: فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم؟ فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق إلى فهمه: لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من

جهة ماهو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد، وبيـّن رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبيـّن سوء ماجرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت ان المسلمين لايزالون منحطين مادامو امسلمين، وهو مالا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم، واكتفى بتعنيفهم على أهمالهم لشؤونهم، وغفلتهم عن مصلحتهم، كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحته ، والسلام.

***

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم إلى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الأسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهماءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم إنها على ماكان من حسن تأثيرها ، ولهج الألسن بها ، وطبع الألوف الكثيرة من نسخها ، لم تحمل المسلمين على اصلاح خاص في تربية ولا تعليم ولا إدارة ولا سياسة ، وإنما كان ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة وظهور حجته في العلم والدين والسياسة على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الأمة في طفوليتها: سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ،لا يبعثان لى عمل من الاعمال !!
ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى خيرا من نصيب رجال الامه الاسلامية الجامعة من هـذه الآيات والعبر فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية وان ادارتها غير اسلامية ، وأشار الى دابة الالحاد التي تأكل منسأتها فلم يعتبر أحد من رجالها فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم ان اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها !!

التربية

التي يكون بها الانسان انساناً، والجماعة الكبيرة أمة

خطاب في احتفال الجمعية الخيرية الاسلامية

(ظفرنا بعد الشروع في طبع الفصل الخامس بهذا الخطاب الذي ألقاه الاستاذ الامام في الاحتفال السنوي للجمعية الخيرية الاسلامية ونشر في المؤيد ماخصه في ربيع الاول سنة ١٣١٤ فاستدركناها هنا)

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة لأن ذلك فوق استطاعتها ، بل وضعت لها قانونا اتفق عليه جميع أعضائها، وهو قد اشتمل على شروط معينة يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء

ثم جعلت كما قدمت أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من اولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب ، إذ الواجب علينا أن نعتني قبل كل شيء بما تعتني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره ، وهي لم تعتن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة ، وها نحن أولا نرى فساد الأخلاق عاماً ومصائبه مشاهدة للجميع

إذا رأينا مجالا للفخار افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الاولين، وإذا حاسبنا أنفسنا رجعنا بالملامة والذم على آبائنا الاقربين، وفي ذلك الفخار كبير العار ، وفي هذا اللوم عظيم اللوم . لاننا نحن قد أهملنا وقصرنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية . أهملنا فتركنا ذلك الفخار التالد يذهب هباءاً منثوراً . فلم نتدارك من آثاره شيئاً، وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الاقربين بلة بإهمال آخر فقوضنا ما كان باقياً من آثار ذلك الفخار ، فكان لنا ذلك العار ، وهذا الشنار

ان الانسان لايكون إنساناً حقيقياً الا بالتربية وليست هي الا عبارة عن اتباع الاصول التي جاء بها الانبياء والمرسلون من الاحكام والحكم والتعاليم . وهي عبارة عن السعادة الحقيقية . تعلم الانسان الصدق والامانة ومحبة نفسه فاذا

تربى الانسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.

إذا تربى الانسان أحس في نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا الا بأنه شقي بوجود غيره، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة المولدة للوساوس والأوهام، ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان

ولكن لو كنا متربين لانبثّ فينا احساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجاتنا وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولغيره

ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال، ولا بلاد البرد القارص المميت، ولا بلاد الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم. بل نحن في بلاد رزقها الله سعة من العيش، ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة. ولكنها ويا للأسف مُنيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر: فقر العقول والتربية

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات هي التي تربي الأمم وتصلح من شؤونها. فان القوانين لم توضع في جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات. وأما القوانين العامة المصلحة فهي نواميس التربية الملية لكل أمة

ونحن على نموذج هذه التربية قد جرينا في خطة التعليم بمدارس الجمعية الخيرية،(١) ونتمنى أن يصبح هذا النموذج يوماً ما عامّاً بين جميع أفراد الامة المصرية. وإذا لم توجد التربية على مثل هذا النمط فلا حياة للامة ولا سعادة

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جامعته، فهو إذاً يعلم الانسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة هي ما يسمونه بالاتحاد

وسنة الله في خلقه ان توجد الروابط في العائلات ومنها الى الفروع ومنها الى الاصول القومية ومنها إلى مجموع الامة التي هو منها ؛ اذاً فلابد من الوقوف على

(١) كذا كان يريد رحمه الله ولكن لم يتم له ما يريد، لقلة الرجال وقلة المال

كنه هذه الروابط ومعانيها ، واذا تمكن هذا العلم من نفس الانسان تعلّم كل شيء وبحث عن طرق النجاح في كل شيء ، ولكن كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاما في أخلاق الامة ـ وقد انعكست آية الوجدان فاذا الانسان أجفى مالديه الاقرب فالقريب فالبعيد فالابعد ؟

ألاان الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الاخلاق الفاضلة بمراتبها ، فعلى المسلمين اذا أرادوا الاتحاد أن يربوا أنفسهم تربية اسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل ، وكل الاماني أحلام أو أوهام ، وكل احتجاج بغير سعي عجز

الناس في كل الامم أكفاء في التمثيل ، ولا نقص فى الدنيا الامن جهة العقول والأخلاق ، وهي لا تكمل الا بالتربية ، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير اللقلقة والهذيان

وان الجمعية الخيرية الاسلامية قد شرعت فى طريقة ابتدائية للتربية ، ولديها أمل أن تصل الى الطريقة الانتهائية طريقة العمل ، لا طريقة العلم المعيبة التي نرى مثالها فى الذين يأتون الينا كأساتذة عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين وليس لديهم مايؤهلهم للتربية والتهذيب . ولست أقول ذلك قدحا فى طريقة التعليم الجارية بين ظهرانينا ، ولكنني أقول بالاجمال انها غير ملائمة لمنهاج جمعيتنا التي تحسب ان تصلح شؤون الناشئين من الطبقات النازلة

نحن نتمنى تربية بناتنا فان الله تعالى يقول (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية . فكان بذلك ترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلا اذا أرادت أن تمنحه شيئا : خذ هذا وأخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك . فكم من نقيصة علمته بمثل هذا القول؟ علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات : الأثرة والدناءة والسرقة . وربما توصيه بانكار ماأعطته اذا سأله أخوه ، فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد

وهو الكذب، وقد لا يتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة ، فيشب الطفل متعوداً على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح، لا يعبأ بماذا ينطق، ولا يبالي بما يقول

وانني أذكر حديثاً شريفاً أو اثراً بمعناه هو ان الرجل لينطق بالكلمة لا يرى لها بالا فيهوى بها في النار اربعين خريفا(١)

فتأملوا في فظاعة الاخلاق التي يشب عليها ابناء وبنات العامة من الامة ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة الا بالتربية الكاملة الشاملة للابناء والبنات وان النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تتكون من بينهما امة ولا جمعية وعلى الخصوص اذا اصبحت العلائق والروابط الطبيعية مهددة بين الناس كما نشاهده بيننا الآن

ولقد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضياً في احدى المحاكم الجزئية ان نحو (٧٥) في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقيعة والنكاية ، فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية الى هذا الحد من التصرم، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية؟ هل يمكن اننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات نبحث عن الروابط للجامعة الكبرى . أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ما جذ أصولها وجذورها، وقطع أوصال عروقها ، وغادرها مجرد قطع أخشاب يابسة

اللهم ان كنا نريد الحياة الطيبة والسعادة الدائمة فلنعمل لاصلاح شؤون الناشئين بالتربية المثقفة المهذبة ، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الاخلاق الفاضلة . وكلما زدنا في سبيل ذلك سعياً توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية ونمت ثروتها فأدت وظيفتها للامة كما ينبغي . ونسأل الله أن يصلح ما بيننا من فساد، وان يوفقنا جميعاً إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا . اه

(١) روي هذا المعنى في عدة أحاديث أقربها إلى هذا اللفظ « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا بسند صحيح . ومنها مارواه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا ليضحك القوم وانه ليقع بها أبعد من السماء »

باب الرحلات العلمية التاريخية

(فصل من رحلة الاستاذ الامام الاخيرة إلى اوربة وجزيرة صقلية وتونس والجزائر سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٢ م دوّن فيه مارأى فيه الفائدة والعبرة من الآثار العربية في بلرم عاصمة جزيرة صقلية . وكنا ننتظر فرصة فراغ منه نطالبه فيها بكتابة فصول أخرى من تلك الرحلة فلم تسنح)

بالرم — صقلية

﴿ نشر هذا الفصل في أجزاء مجلدي المنار السادس والسابع ﴾

« أفلمْ يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور »

قضت المقادير أن أغير خطة سفري عن طريق مرسيليا إلى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببالرم ثم يصل إلى نابولي ، ثم تكون الاقامة في نابولي نحو أربعة أيام ويعدو المركب بنا إلى مسينا ومنها يذهب إلى الاسكندرية ، والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الاقامة خمسة أيام نذهب بعدها إلى مسينا(١) كذلك، وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلداناً كثيرة ، وآثاراً عظيمة، تزيد في علمي كثيراً مما لم أعلم إلى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي أن بلرم هي عاصمة صقلية ، ويوجد فيها من الآثار العربية مايهم العربي أن يراه ، وفيها داران للكتب، لاتخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمناً مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه إلى يوم السفر إلى مسينا : ففضلت النزول إلى بلرم ولا أذكر الآن شيئاً مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود اليه

(١) كانت العرب تسميها مسيني . قال الشاعر * من ذا يعسيني على مسيني *

بعد أن أخذت مكاناً في نزل سنترال بشارع رومية خرجت لا يصال بعض رسائل التوصية إلى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني ، وكان أحدهم موصي بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية ، والتمكن من رؤية مايكون فيها ، فوعدني المجيء في الغد لمرافقتي إلى المكتبة

قصر الملك في بلرم وكنيسته

ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولا حاجة بي إلى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ما أقول أنه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوربا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية، مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب ، ولا شيء منها من كد الملك أو الامير . وانما هي من أموال الرعية وكسب الحفاة العراة الذين لايجدون مابه يستترون ، ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها — ماأنا بذاكر شيئاً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ، ولكن أذكر مارأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه اما لعبرة واما لفكاهة .

ذهب بي حارس القصر أولا إلى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة إلى وصفها كذلك — إلا لو كان الله يحب أن تزين له معابده ، وتنقش لمجده مساجده ، كما يحب ذلك ملوك الارض — فوجدت في الممر الموصل اليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها ، وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) النرمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب ، وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . وأما ميله في البناء والزينة فكان إلى الرسم اليوناني . ولهذا

الملك آثار كثيرة في بلرم ، ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه . ويقال أن العرب كانوا في زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة في اقامة شعائر دينهم وتصرفهم في شؤونهم ، وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدتها الجميلة إلى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ، ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندي كان عندما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ، ولم يحتقر ماوجد من آثار العلم ، فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ، ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقا عربياً في طول نحو ثلثي ذراع ، وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع ، من نحو ثمان مئة سنة على مايقول الحارس ، وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجمل ماتراه عين الآن ، وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ، ورأيت في أحد بيوت القصر بابا من الحديد مطلياً بطلاء أصفر جميل من أجمل مايصنع من الابواب ، وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم

ورأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك في عهد البربون بعد النرمنديين ، ومع كل نائب منهم كردينال كما كان الملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم في كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع اليه في أمور دينه ، وفي أعماله السياسية أيام كانت الاحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المفتي أو شيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لاتسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون اليه من علماء الدين . غير أن المفتي وشيخ الاسلام انما يجيب عما يسئل عنه ، أو يؤدي ماكلف به . وأما الكردينال فكان يبتدىء المشورة ، ويقترح المطلب ، ويقيم نائب الملك على المذهب ، ويكف يده عن العمل الذي لا يرضاه ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لافصل فيه بين السلطتين . وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال الكثلكة على ارجاعه ، لأنه أصل من

أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان يذكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لايدين بدينهم

الكنيسة الكبرى والأديار

وكان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الأمكنة التي يرغب في رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القبب فذهبت اليه واذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى (كاتيدرال) رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أو الولاية ، وهي من عظمة البناء وبهجة الزينة على مايطول شرحه . وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ماهو عليه حتى بابه الخشبي الجميل ، غاية مافي الأمر أنه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنسية . ويمكن للناظر أن يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لأن رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد .

وزرت بعد ذلك ديراً يسمى دير سانت جواني ، وهو مما كان قد كتب في جريدة الاماكن ، ولم أر فيه شيئاً سوى أن أسفل الدير كان مسجداً . فلما جاء النرمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار ونقل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدتها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي . ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية ، سألته عن ذلك فاخبرني أن الاسبانيين عند ماغلبوا على صقلية سلبوا ماكان في هـذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجمل مايزين به الاماكن والادوات تصنع من قطع دقيقـة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصوّر بها جميع مايمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك إلى بلادهم وقال انهم لم يقتصروا على ذلك ، بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

وعرفت قسيساً حلبياً معلماً للعربية بمدرسه دير الكبوشيين في بلرم — وسنأتي على ذكره — فمما أرشدني اليه رؤية بقية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ، ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون إلا تلك القاعة، وأما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناء الملك راجار النرمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس أنها مسجد عربي ، فاخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه ، وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب لينادية ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة . وكلما طردنا فوجاً أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، إلى أن جاء رجل قيل أنه هو حارس البستان ،وبعد قيل وقال في فتح الباب واحتياجه الى اذن من صاحب البستان، رضي بالفتح . طمعاً في النفح . فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فدللناها القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الأولياء اوالامراء على خلاف ماياًمر به الدين . وأظن أنها على قبر من هذه القبور وليس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

﴿ كنيسة موريالي ، وتساهل العرب ، وأين هم اليوم؟ ﴾

مما رأيته في بلرم (صقلية) كنيسة موريالي ، وجميع سقفها والأغلب من جدرانها مغشي بالموزاييك ألوانا وأشكالا من أبهى مايبهج الناظر، وأجمل مايسرح فيه الخاطر . وفي ناحية منها قبة تعرف بمعبد الصليب ، فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكر من شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي ، فيكون لها نحو الف وثلاث مائة سنة ، والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجرأ السوس على قرض

شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف . وأما مايقول به بعض الحذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات، وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صوّرت في تلك الأخشاب، وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية ، فلا يباح لها قرض الخشب المسيحي . ثم أن اعتقادها بحرمة القرض حملها على العمل ، فخالفت شهوة الأكل قياما بالفرض ، فلا أظنه في غاية الصحة ، بل ولا في أولها كذلك . ويقال إن الكنيسة من بناء الملك كيليولمو الثاني وقبره فيها ، صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في سيسليا ، وتلمح من هذا أن العرب — وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم — فروح الدين الاسلامي كانت تنوس في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مربضاً لشر يخشى خطره على الدولة ، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ، ولم يصنعوا بها ماصنع غيرهم ممن جاء بعدهم ، ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ، ممن كان يهدم مساجدهم، ويخرب معابدهم ، فحيا الله أيامهم . لاجرم أن الاسلام عربي، وأحق الناس برعايته ، والوقوف عند حدوده ؛ بعد فهم حقيقته ، هم العرب فأين هم ؟ يمكن أن يقول قائل: انهم في جزيرة العرب أو في الشام أو في العراق أو في مصر أو في تونس والجزائر أو في المغرب الأقصى ، فلم يكفك كل هذا العدد ، في أكثر من الف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكني أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم، فان كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم ،فليسوا بهم فلي الحق أن أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

﴿ وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة ﴾

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لايحتاج الى الكلام عليه ، ولا يختلف عن غيره من المعابد . وأما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون الدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ، ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الأقطار النائية كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية وأستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي ، وهو من حلب ، وتعلم العربية فى بيروت ، وأخبرني أن من أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) فى اللغة . لاقيت ذلك الراهب وحادثته في شأنه ، والزمن الذي قضاه في ايطاليا ، والداعي الى الاقامة فيها ، فتبين لي أنه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة — تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلادالعرب مثلا . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد أنه انما تعلم العربية لينتفع بها في منطقه — وان كان في بلاد ايطاليا — وعمل بما اعتقد . وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية ، والتونسي بالتونسية ، ولا يبالي أكنت أفهم أم لا افهم ؟ كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغاية التي ذكرناها ، ولا حاجة الى ذكر مافيها من العلوم ، فان ما تحتاج اليه للبراعة في نشر الدين ، والدعوة اليه معروف عند من يعرفه ما هو الدين ويتصور معنى الدعوى اليه . اما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفا واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلمن تكتب ما تكتب ؟ قلت . ان فقد الفاهم فانني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا — وكل منا يدعي الغيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة ان يخلصوا ارواحهم باعتقاده والأخذ بأصوله

ـ ان ننشىء فرعا من فروع التعليم لنشر الدين وتقويم اصوله بين اهله؟ فضلا عن نشره بين من ليسوا من أهله أريد من أهله أولئك الذين ليسوا ارداء، واعترفوا أن الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته، وهم في غنى عن الدعوة اليه ، أو جهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد ، وأشدهم افتقاراً الى من يحول اليه نظارهم ، ويعطف عليه اختيارهم . هل مرّ ببالنا أن نهيىء لهذا الفرع من التعليم مايلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون ، كما يهيىء هؤلاء ما يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم ؟ ما كان أحوجنا الى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف ارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين ، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين ؟

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل أن يفكروا في هذا الأمر ، ويقوموا بما يجب عليهم منه إن لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم ، فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم، وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكيناً لحرمتهم في نفوس الدهماء ، وتسجيلا لسيادتهم عليها ؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالأمر الالهي ، إقارع للقلوب، المزعج للهمم، في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ ، فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب ، ولا يخشوا أن يكون التصامّ عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب ، ومشعراً بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به ؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك ، وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر في إنشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الأمم، ان كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق ، فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل . أولئك الملوك والأمراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم ، واخضاع رعاياهم لسلطانهم، مثل فضل الدين ، لم لا يقتطعون شيئاً من مالهم وقطعاً من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين ، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفه الدين؟ أفلا يجب عليهم أن يسعوا في زيادة تمكين قوتهم ، وتعزيز سلطتهم ؟ اللهم الا

اذا ظنّ هؤلاء وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين ، يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويغدو الى مرعاه من النفوس متى اشتد الجوع عليه . فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما اثمه على نفسه لا عليهم

ربما يقول قائل: ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة «اللهم» وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة ، وربما طلبوا الدخول في أثواب حماة السنة، بهذا الظن الذي تستبعده ، وما عليهم في ذلك الا أن يقولوا : نحن سنيون لا نقول باستحالة شيء ، ونفخرنا أن نجوّز المحال ، ونذهب الى جواز تجسم المعاني ونعتقد أن الاعمال والعقائد ، وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن أن تنقلب أشخاصاً حيوانات تمشي ، وأناسي تتكلم . أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلا عاقلا ، أو ميكروبا متنقلا مفيداً لاقاتلا ، يفعل لنفسه ما كان فاعلا ، ويدعنا نتمتع بالنسبة اليه، وإن لم يكن لنا عطف عليه ، فنجيب القائل بأنهم مغرورون ، وأن السنة بريئة مما يزعمون ، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب أستاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين — يضع القاعدة العربية ، ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان . وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية ، وإن كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق ، وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليـه من لغته ، لكن ما أشق العمل ، وما أوعر الطريق ، وما أكثر العقبات فى طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه ! ! يفني عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق . أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطالب وتيسير المذهب في تحصيل ماتدعو اليه الحاجة من لغتنا، حتى نستطيع فهم ماأودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ، ونحب أن نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ، وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا ، فنحيا بما كان قد أحياهم ، ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحداهما فى بناء متسع الأرجاء تحت الأرض ، ينزل اليه بسلم ، وفيه نوافذ يأتي اليه منها الضياء ، وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتي ، فمن الجثث ماهو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ، ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الايطالية السابق ، فانه في ذلك المحل في صندوق مغلق ،ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرائي من داخل الصندوق على الهيأة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هيا كلهم ، ظاهرة وجوههم ، على أتم مايحزن له قلب ، وتعتبر به نفس . وهذان القسمان من الأموات إنما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الأغنياء الذين يتمكنون أن يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث محنطة قائمة فى في جوانب المكان ، عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها ، وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون أن يودعوا في هذا المكان ليسعدوا ببركته ، ولهم هيئات تنقبض لها النفس ، ويضيق بها الصدر ، ولا حاجة بنا الى تعداد ذلك . ويكفي القاريء أن يتصوّر ميتاً في أشد ماتكره النفس مما يصوره الموت في البدن

وأما المقبرة الأخري فهي كسائر المقابر على ظهر الأرض ، وإن كان الأموات في بطنها ، وهي من أجمل الأماكن وأنظفها . والقبور فيها نظيفة البناء ، بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع ، وقيل لنا : إن الذين يدفنون فيها هم الأمراء والأغنياء . أما الفقراء فلهم مقبرة تليق بفقرهم في مكان آخر . وكأنه قضي عليهم بأن لايساووا الأغنياء حتى في الموت مع أن الموت قد سوى بين الأغنياء وبين أدنى طبقة من الأحياء ، بل جعلهم طعمة لأقذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان

قيل : إن الحكومة بعد أن استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الأولى على تلك الطريقة ، وأمرت أن لايدفن الميت إلا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها . وإنما حفظت الحق فى الاستيداع فى المعابد للبابا وللملك دون سائر الناس . فهما وحدهما توضع جثتهما فى صندوق وتودع فى الكنيسة ،

وقد أحسنت الحكومة فى ذلك ، فان من كان محجباً بعظمته عن الناس فى حياته يجب أن يكون عبرة لعامتهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتي - ويثقل عليّ ذكر إسمه لطوله - فذهبت معه الى تلك المكتبة ، وهو أخو مديرها وله احترام فى نفوس خدمتها ، وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية ، فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية ان كانت ، فطلب ذلك فبدت حركة شديدة فى الخدمة وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآئب ، ولغطت الألسن ، وارتفعت الأيدي بالاشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لاأفهم أسباب هذا الاضطراب . وآخر الأمر جيء اليّ بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة ، وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه ، وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره . والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات ، كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدّس الله أرواحهم جميعاً وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتابا في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الا أنه لايمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة ، لأن خطوطا قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الأصلية ، وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه ، فعجبت لذلك وسألت عن السبب ؟ فقيل لي : ان قسيساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه يريد قراءته ، وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة مافيه . وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف ، وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية ، ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخري . أما القطعة من

شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم والكتاب الفرد الكامل الذي رأيته فى المكتبة هو كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني . وهو صغير فى نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح . قرأت منه عدة صفحات . ونقلت منه عدة فقرات فى تفسير قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها) الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله . ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل . وليس في بلاد الشرك منه شيء . فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعده عن صحة الحكم في طبائع العمران . وان كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقي تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة « ٣٩٤ » وقد بلغنا أنه طبع في المانيا . وكان الأجدر به أن يطبع في مصر . ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل المانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها

***

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية . بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة ما في الأوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الألسن الشرقية . حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الأوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها . خصوصاً اذا كان غير متعوّد على قراءة الخطوط العربية المختلفة ، فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على اوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية . أو النسخ القديم . أو ما عفى بعضه القدم لتتم فائدة حفظ هذه الأوراق والانتفاع بها إن شاء الله

من العادة في المكاتب وديار حفظ الاوراق أن يجعل لها دفاتر يكتب فيها

الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة ، وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفلوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا ، لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا أن تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه ، فجدوا في البحث والتنقيب ، وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتتزايد ، على نحو مافعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر ، فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ، ووضعت إمضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين : إما قلة الزائرين لهذه الأماكن العلمية من الاجانب ، وطلاب النظر في الآثار العربية ، وقلة الدراسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها . وأما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار ، وقد يتيسر لك الجمع بين الأمرين ، ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ماوقع في مكتبتي بلرم .

حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع

ومن الأمور التي لاأجد بدأ من نقدها أن موظفي هاته المكاتب لايعرفون من اللغات إلا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ، ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه أن يؤدي بها مراده ، وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عند ماكان معي في المكتبة العمومية ، لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزوم الصمت ، وعدم الفائدة في الكلام ، وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ، ولا يوجد السبيل اليه إلا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك أن الاشارة إنما تصلح للافادة والاستفادة من الاخرس اذا

كنت والدة له على مافي المثل « أم الاخرس أعرف بلغته » فلا بدّ من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني أن أستفيد شيئاً فيما ينبغي أن يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية، كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . وبعد طول الكلام بفرنسية لايفهمونها ، وإيطاليـة لاأفهمها ، انصرفت وأنا من الجهل على مثل مادخلت به ، لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ماأقول ، وأمكنني فهم مايقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر مايقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوربا ويتيسر له الفهم والافهام لأنها لغة عامة لاتجد نزلا ولا مكاناً يرغب في زيارته إلا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت أن هذا القول اضمحلت صحتـه في مكاتب بلرم ، ولم ألق مايقوي صحته في مكتبة مسينا ، والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الأجنبية ، ولا ينبغي أن تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت فى أكبر نزل فيها يسمى (كبيرافنور أوتيل) فيه مايزيد على ست مئة بيت للنوم ، ولم أجد فيه من يعرف الفرنـسية إلا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد ، فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهنّ . اذا طلبت ماء أو لبناً أو قهوة ، أو تهيأة حمام أو نقل متاع من مكان إلى مكان ، أو تصحيح منكسر ، أو كسر صحيح ، لم تجد من تطالبه إلا أولئك الذين لايعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدة الأخرس يسهـل عليهم أو عليهنّ فهم الاشارات بدون اتعاب شـديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لايخفى عليك أن من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة ، فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية ، وعرض لك مثل هـذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لايسعك إلا الاقرار بأن

ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لاتصلح أن تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة فى فنّ المنطق

أزيدك شيئاً في هذا وهو أنك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم ،يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم ،فهم يكلفونك من النفقات مايشاؤن ولا يجدون في أنفسهم دانقاً من الرأفة بك ، أو الرحمة لغربتك ، ولايمكنك أن تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لايفهم ماتقول ، وأنت لاتفهم مايقول ، فينتهي أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك ، وغاية مايمكنك فعله أن تتنفس الصعداء، وتهز رأسك، وتلوي عنقك ،علامة على غضبك ، ولكن هذا كله لايوفر عليك مانقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني أن من أراد أن يسافر إلى بلد لايعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد مايكفيه للتعامل ، ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك ، وأجرة الاستاذ المعلم لاتصل إلى نصف مايخسره ببركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر إلى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه أن يجدّ لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ، ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم ، وإلا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه ، أو مايؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية، يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون ، ويتجاذبون متاعه وثيابه ، كل يأخذ قطعة ،فان كان لايعرف اللسان ، كان ماكان مما لايسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع . او أصابه من ذلك مالم يفد فيه الدفاع . وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله . وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قعطة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة فى هدايته الى المحل الذي وصل اليه . مع أنه وصل برجليه . ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس أنهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع اجزائك لفي خطر من مجاذبتهم ،اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة إلى السفر إلى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر ، خصوصاً أيام الربيع

فعليك أن تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقـه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت أن الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا . فانك لاتجد نزلا في البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها . ويدهشون بالذهب صغارها ورجالها فاضطر الفرنسي الى ترويج الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين وليستكثر من الناثرين

ويل لك اذا اقمت يوماً أو يومين في نزل بمسينا من اكبر مايقصده السائحون رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها أن يفهمك ان أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ، ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة ، وإن كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك ، وانما العمل على مافهمت انت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة إلا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده ، فتفتح الباب وتقول كلاما كثيراً يفهم منه انك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل إلى النوم ، فيقال لك ماتفهم منـه ان هؤلاء مسافرون جاؤا إلى المحل من جديد ، وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ، ويأخذون فراشك من محلك الأول إلى محلك الثاني ، فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ، ثم تلقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بثقله ، ثم لايمضي نصف ساعة إلا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك ، واليسرى تحك اليمنى ، واليمنى تحك اليسرى ، ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ، ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك إلى حيث تبحث عنه ولا تجده ، ولا يبقى لك إلا الحك والحكة ، وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروعك حمرته ، وتقلقك عضته ،

بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص ، وماذا تصنع ؟ مضت مدة من الليل نام فيها الصاحون ، فتعود إلى محلك الأول وقد نام الخادم ، فتعود إلى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزل : طلبت منه ماء بارداً فلم يفهم ، فأشرت الى فمي ومثلت بيدي صورة اناء الماء ، فاذا هو يفتح الباب وينظر اليّ كأنه فهم اني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبفمي الى فتحه ، لأنه فتحة من فتحات بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة ، ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبحثت عن كوب وأشرت به اليه ، ففهم اني أريد ماء لكن لم يفهم أني أريده بارداً ، وما أشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده ، فرفع في وجهي كرسيا طويلا اشتريته لأجلس عليه في المركب ، ففزعت لذلك وظننت انه يريد رميي به ظنًا منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند مارأيته ينظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه أن يبدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوروبا ؟

مسينا ومقبرتها

نسيت أن أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا ، وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة ، وانك اذا قلت لصقلي : اني ذاهب الى مسينا : يقول لك في الحال : لابد أن ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والأعيان ، مبنية على أجمل نظام ، وأقربه الى السذاجة ، وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم .

وطريقة الدفن في تلك الأماكن تختلف ، فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الأرض ، وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا تمكن سرقته على ظهر الأرض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر ، وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية مايرام من النظافة والانتظام ، وهي أنظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم انها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ما تنظر عيناك من اللألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها – أعوذ بالله – يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول ، وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان ، الجاثمة على بقايا الجثمان . لا أزال في وصف المقبرة كما لايزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الأدب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر . بديعة المداخل . بعيدة المخارج . الداخل فيها أكثر من الخارج منها . وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار لأنه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن أرواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الأجساد . فهو لايزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع . مدينة زينها الأحياء في حياتهم . ليعدوها لاقامتهم – فيما يزعمون – بعد مماتهم . وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطيب له المقام .

ولا يقلق به المكان ، لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقراً لجثتك وأنت لاتدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه إذا مت ؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات ، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات . أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت ، وينغصك فيه غمر من الغبار وتلول من التراب، تتذكر بها انك من التراب والى التراب

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الأيام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ، ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون . تلهو بالقيل والقال، وملاعبة النساء والأطفال، وربما أقمت في المقبرة ما تسميه بالموالد وجلبت بذلك اليها من المغنيين والمطربين والعازفين، ونصبت فيها الخيام وصنعت من لذيذ الطعام، ماتدعو الى تناوله العلماء الأعلام ، والأتقياء الكرام ، فليلبون دعوتك زرافات ووحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى أن يصلوا الى حيث نصبت خيامك ، وهيأت طعامك، على ظهور الأموات ، وبجوار تلك الرفات . وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك وكره جوارك ، وفرّ من بين يديك ، مشمئزاً مما يرى لديك . وأما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا شاربا . وإنما ترى الزائرين في سكينة ووقار لا يتكلمون إلا همساً ، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرساً (١)

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من أهالي سيسيليا ، وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحواً من مئتي سنة ، وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة ، وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه ، كما كان في العراق والشام والأندلس . وقد ترك العرب آثاراً في البلاد ، منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ، ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية ، وكالقبة والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها ، وإلى البلاد التي حملت منها . ولا أظن أن الصياح والصخب الذي اختص به أهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله . فان أصوات السيسليين أشد قرعا ، وآلم في الأذن وقعاً . وإني لأشك في أن حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (١) أو سكان عرب يسار . وأما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد ، ويسكتون عند الرجوع إلى البلاد . ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك فى الحرب ، كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سورية . وأما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك اذا عُرفت بأنك غريب ، فانه يتبعك السائلون الملحفون ، والمكتدون المجدون ، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ، ولا فرق في حالك بين ان تجلس في قهوة أو تكون في زيارة معبد ، أو في تفقد مكتبة أو دار آثار ، تجد من ذلك مالا تجده عند المتبولي ، ولا عند ضريح الاستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون ، وانما يتقرب الى الغرباء من يظنّ القدرة فى نفسه على أن يفترس منهم فريسة ، لكن يمكنك إن

(١) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين أن لاتعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل فى حكاية ماوقع فى فهرس الكتب العربية فى المكتبة العمومية ، ودفتر الاسماء فى دار المحفوظات ، وازيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام ، لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض أكابرنا [1] فان التشديد يجعل الكلمة موضعاً للملح الذي يوضع على الطعام ويتناول أحياناً للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح ، وأظنّ اللفظ يرجع ايضاً الى رفيقه ، فان في البحر ملحاً ايضاً لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلا تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينازع بعضاً ، فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمدّ يده اليك لطلب المبلغ ، فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشلّ بجانبه وأنت تنظر اليه ، وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف ، وهو ينظر اليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده ، أو تمل الانتظار ويأخذك الوقت فتتركه له ، وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر حرسها الله ، فان العمال عندنا حتى فى زمن الصيف لا يسمحون لأعضائهم أن تتعود هذه العادة الرديئة

﴿ رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

أما رثاثة الملبس عند الفقراء ودنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون ، فذلك مما تجد له مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير الذي نزلت فيه — رفع الله عماده — كنت أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية حرفة الملاحة في البحر ، و يضبطها هكذا بفتح الميم وتشديد اللام

للكاتب المؤرخ الفرنسي رنان ، ألقاه في بلدة رنان التي ولدفيها ، وكنت مستغرقاً فيما يقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم ، وعن الاحرار اطال الله في ألسنتهم، وما يرونه في فلسفتهم ، واذا بخادم النزل دخل عليّ وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريباً ، وقد علا الوسخ وجه الصبي ، وهجم القذر على عينيه يريد أكلهما ، وانفه وفمه يسيلان ذلك بما تعرف وهذا بما لايخفى عليك ، وبيده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه ، اذارأيته امكنك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان امكن ان هـذا من ذرية (الشيخ الدعكى) رحمه الله ، أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف ، واذا كنت واحداً من بعض الأعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين تعهدهم أقسمت في الحال انه وليّ من الأولياء مجذوب من المجاذيب . فاذاذكرك مذكر انه ايطالي قلت لايبعد على الله أن يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ، ورزقه من ذلك في صغره ، مالم ينله الدعكيّ في كبره ، وإلا فكيف تسيل سعابيبه إلى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على أن تذهب إلى المحل الذي تعرفه ، وتستخرج من بحر الانساب مايصل نسبه بمن لايصح لأحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق ، والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه ، وبين مافاجأني من هذا المنظر الكريه . هل يمكنك أن تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة؟ دفعت فرنكا واحداً رميته على الأرض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الأرز وكرّ راجعاً لايبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان اتبعه لأخذ الفرنك منه . لانظنّ أني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

أما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج إلى الملح تنبهت إلى الملاحة (هـذه المرة بتشديد اللام لأن فيها ملحاً) كما سترى . نظرت إلى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر

من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحة وانشأت انكت مافيها من النقط السوداء نكتة نكتة ، وأصعد نظري في وجه الخادم واقطب وأظهر التقزز ، ولا زلت كذلك حتى فهم ان هـذا شيء من الوسخ لاأستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحة بغاية الكسل ، ثم ذهب وأطال الغيبـة ، وبعـد ماكدت أغضب مع سعة حلمي في السفر جاء بملاحة أخرى اوسع من الأولى وأطهر منها ملحاً ، فكأنه يفهم أن الوساخة مما لا يليق ، لكن لايتم له هـذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر إن النظافة خير منها ، وأن الوسخ شيء تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحس ،

أما مثال هذه الواقعة الثانية فمما يكثر في خدمنا ، بل في بعض ساداتنا رفه الله حياتهم ، فانهم ينظرون بأعينهم الى الخبث والخبائث ، وربما حكموا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه ، بل ربما لا ينزهون انفسهم عن التلوث به الا اذا امرهم بذلك آمر ، فعند ذلك يمتثلون الأمر بغيرة المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك احدهم بحسن مايصنع مما أمر به ، كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الأمر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه ، وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به ، وقبحه هو النهي عنـه ، وانه لاحسن ولا قبح للشيء في ذاته ، فاني على يقين انهم لايعنون به مايجده أولئك الآلات في انفسهم . وما عليك الا ان تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه اونفيه ، فاني الآن لا اكتب كتاباً في علم الـكلام ، ولا أكتب اسطري هذه للافاضل من أهل الفن" فانهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة امثال هذه القصص ، أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً ، وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسـباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الأمم التي طال فيها زمن الاستبـداد ، وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع مايطرأ على تلك الارادة الواحـدة من الاختلال وفساد المزاج ،

فتأمر بالشيء اليوم لأنه من هواها ، وتنهى عنه غداً لأنه لم يبق من مشتهاها، وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخالفته إضاعة أي إضاعة، فتتعوّد الأنفس على تعاطي الأعمال لا لأنهاهما تختاره ، بل لأنهاهما تؤمر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح ، لان تعوّد على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته ، وسهولة المقارفة إنما تنشأ عن عدم الاحساس برائحة القبح ، ولو بقي نتنه في شامة النفس لعافته ، ولما أمكنها تعاطيه — وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضده ، كما لا يخفى عليك إن كنت من المدققين ، خصوصاً في علم أصول الفقه الحنفي ، وقرأت ما كتبه العلامة الغزي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية التوضيح على مختصر البزدوي .

إذا سألتني عن العلامة الأول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن ، وإن صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن . الأفضل لك أن تسأل شخصاً آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني ، فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين ، وتحديد الفرق بين العلامتين — وربما قال لك : إن الأول هو القطب الشيرازي ، لأن سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الأول — وإن شئت أن لا تشتغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الأفضل . ويكون أفعل التفضيل الأول على غير بابه والسلام .

وإنما المهم فيما نحن بصدده أن الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة : يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ ، وتعتني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الأمر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح ، كالنحو ملح العلم ، والعلماء ملح العالم . وهكذا كل ما يحتاج اليه في إصلاح الأغذية بدنيـة كانت أو روحية ، دنيوية كانت أو دينية . وأما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

﴿ دور الآثار وبساتين النبات ﴾

لا تبخس أهل سيسليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها ، وأظنهم عرفوا ذلك من اخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقية الاوربيين ، وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة . أما القديمة فتحفظ بذواتها ، وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعباً في بلرم ، فصنعوا له مثالا من الخشب ، ووضعوه فى دار الآثار . مدينة بلرم لها مثال مجسم ، رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة ، مصغرة بألوانها الطبيعية وألوان الأرض نفسها . وذلك المثال في دار الآثار ، حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية ، وهو زي يشبه الازياء الاوربية مع ساتر للوجه ، يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً ، وان كان ذلك قد يغضب قاسم بك أمين ، فانه يجد له أضداداً في مسلمي أوربا ، فضلا عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل مايوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ، ولا يدخرون جهداً في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلا ، أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق ، أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة ، وتتحقق صحة الوصف والتعريف ، فما استعمله الأقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك ، تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف ، أو في قصر من القصور ، أو في كنيسة من الكنائس ، أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها الا من يسمع اسم اللامة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات ، وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ ، وقد يتخيل صورة لامناسبة بينها وبين الحقيقة ، وهو جهل باللغة فاضح ، وكثير منا يأكلون اللوز والجوز ، وينطقون باسمه في البيت

وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منـه ، وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لايميزون بينها وبين شجرة الجميز أو الفلفل . وأما الجماعة فعنـدهم في بساتين النبات جميع هذه الانواع من الاشجار ، وما لاتناسبه درجة الحرارة فى الهواء يحدثون له جواء تناسـبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش فى جوّ مثل جوه ، ولـكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم . ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة فى تلك الكتب . أما اذا قال لك صاحب القاموس : الجوز شجر (م) أي معروف ، فماذا تستفيد من هذا وأنت فى مصر ، وليس فى قرب الأزهر شيء من شجر الجوز (م) بل ولا فى الازبكيـة نفسها ، فكيف يصير هذا عندك معروفا ؟ وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيباً أو عالما أو أديباً ؟

﴿ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها ﴾

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد فى دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصـغرى كالصقليين مثلا ، يحققون تاريخ رسـمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى إن القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوي مئين من الآلاف فى بعض المتاحف ، ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وانما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهـذه النقوش ، وعدّ ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم للمتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينـه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية . وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر

ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ماتستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً ، باهراً ، يصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان في المعنى ، ولم أجمعها ههنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفزع ، ومتى يكون الجزع ، وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك : رأيت أسداً — تريد رجلا شجاعا — فانظر الى صورة ابي الهول بجانب الهرم الكبير ، تجد الأسد رجلا ، أو الرجل اسداً ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي ، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين ، أو الشعراء المفلقين ، ليوضح لك ماغمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ماحكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز ، او مكروه أو مندوب او واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الاذهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو

يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو مافي معناه مما ورد في الصحيح . فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين: الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات . وقد صنع ذلك في حواشى المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة لصور فمما لانزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعاً فى ان الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لايدخل محلا فيه صور كما ورد فاياك ان تظنّ ان ذلك ينجيك من احصاء ماتفعل ، فان الله رقيب عليك . وناظر اليك . حتى فى البيت الذي فيه صور . ولا أظنّ ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب

(١) ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها إكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصاري كانوا يصرحون بأن تعظيم الأيقونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمي تعظيمها إكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة . هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وايقاد السرج عليها والاحاديث الصحيحة في حظر هذا كله ولعن فاعله مشهورة وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتفاء علة النهي عنه أفنؤمن بظاهر بعض الدين ونكفر بحقيقة بعض؟

(وكتبه محمد رشيد رضا)

وبالجملة انه يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية ابعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لاخطر فيها على الدين لامن جهة العقيدة ولا من وجهة العمل. على أن المسلمين لايتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لايتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ماسماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لاتعرف لهم سيرة. ولم يطلع لهم أحد على سريرة. ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع. وهم يخشونها كخشيه الله او أشد. ويطلبون منها مايخشون ان لايجيبهم الله فيه، ويظنون انها اسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى. لاشك انه لايمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد. ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية.

هل سمعت اننا حفظنا شيئاً حتى غير الصور والرسوم، مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة، ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجوداً بين أيدينا؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة مايصرف في زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل، وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف. أظنك توافقني على انه لو حفظ درهم كل زمان، وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفاً عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لايقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان احمد بيك الحسيني يخطيء بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الآصع والامداد، وما أصعب التخطئة والتوفيق، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق،

لو نظرت إلى ماكان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً

لايحصى عده، ولم نحفظ منه شيئاً، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ، ولكن ماتقول في الكتب وودائع العلم ، هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها ، أو أضعناها كما لاينبغى أن نضيعها ؟ ضاعت كتب العلم ، وفارقت ديارنا نفائسه ،فاذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر ، أو مؤلف فاخر ، أومصنف جليل ، أوأثر مفيد،فاذهب الى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها . وأما بلادنا فقلما تجد فيها الا ماترك الاوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية ، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلا ، وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كمبردج من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره ،وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا

نحن لانعنى بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ،ولو خطر ببال أحدنا أن يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشدّ الناس كفراً بتلك النعمة، وأخذ في اضاعة ماعني السابق بحفظه له ، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا ، وانما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد ، تنتقل من الآباء إلى الاولاد، حتى تفسد العباد ، وتخرب البلاد ، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد .

﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادىء والهواء عليل ،وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر،وأنا محبوس في هذا المكان الضيق، لتحرير هذه الاحرف ،اجابة لطلب بعض الناس، وبودي لو استنشق الهواء ، لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره ، وبينا انا كذلك واذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح، فنهضت للسلام عليه ،وتساءلنا عن مراحل اسفارنا ، وفهمت منه ان معه حرمه، وهي من أعضاء

العائلة الخديوية كذلك . فقلت : أمير جليل ربي على الطريقة الاروبية ، وتعوّد السفر الى بلاد اروبا مع حرمه، وهي كذلك قد ربيت على العظمة والحرية ، فلا ريب ان نرى الأميرة مع الأمير ، ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منهما ،فان الأميرات المصونات قد يرين الناس من حيث لايراهنّ الناس ، لا لأنهنّ من عالم غير عالمهم ، ولكن لأن الناس يغضون الطرف احتراما لهنّ ، ولا حظر عليهنّ في رؤية من لايراهنّ . لكني مكثت مع الأمير الى وقت العصر ، ثم تركته وذهبت الى محل الأكل لاتناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت ، فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدؤني بالكلام ،فتكلمت ،وامتد بي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقه عنهم فقال قائل : أو قالت قائلة : ماأسوأ ماصنعت الشركة مع البرنسيس، فانها وضعتها في قمرة ضيقة لاشباك لها، وهي ملازمة لها ليلها ونهارها ، ولو كانت ممن يخرجن ويستنشقن الهواء لسهل الأمر ، ولكن الأميرة لاتخرج قط من يوم ركبت المركب ، ومن القمرات ماهو أفضل من قمراتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت؟ فقيل لي : لا، الظاهر أنها في غاية الصحة وكمال العافية ، غير أنها لاتحب أن تخرج والقمرة مقفلة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لاوله ، فعلمت أن الأميرة كانت في أوربا تسدل على وجهها نقابا أزرق ،على نحو مايسدل نساء الاستانة أو سورية بحيث لايميز الناظر شيئاً من وجهها، ومتى ركبت المركب لزمت قمرتها، وأغلقتها عليها ، إلى أن تصل إلى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصاً منها على كرامتها ، ومحافظة على المعروف من عوائدها، من حيث هي أميرة مسلمة ، فقلت مثل صالح لابدّ من ذكره والثناء عليه ،حتى يتعلم أولئك المقلدون أن من أمرائهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده . وأن خيراً لهم أن يقلدوا أميراً مصرياً من العائلة الخديوية الكريمة، من أن يقلدوا جماعة من الاوربيين غير معروفين لهم ، ولا يحسون بتقليدهم ، ولا يستفيدون من حذوهم حذوهم إلا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون ، واختفاءهم في غمرة أولئك الاوربيين لا يتميزون

عن عامتهم في شيء ، وسريان مايشكو منـه القوم من الفساد إلى أنفسهم ،أو انفس نسائهم ، فبارك الله في الامير وفي الاميرة ، وأرشد الله شباننا إلى التأسي بهما إن كان لابد لنسائهم أن يذهبن الى أوربا لمداواة علة ، أوايناس في غربة،

لعلك تسأل من هذا الامير ومن هذه الاميرة ؟ فاني أقول لك الامير هو الامير عباس باشا حليم ،والاميرة هي الاميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي . ومما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ،أن الامير لاينفق في سفره ان كان وحده أكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيهاً ،واذا كان مع الاميرة فلا ينفق أكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف ، وهو يعيش عيشة الامراء

تقول : لعله يقتصد ليكتنز ، ويوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الآستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العالية في المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة ،فما قولك فى نفقة مثل هذه بدل النفقة فى الشهوات،وفوائت اللذات ؟ ألست ترافقني على أنه من أفضل الأمراء عملا، ومن أنبلهم قصداً فانه يربي أناساً يقومون بشؤون بيوتهم ،أعرف بعضهم وأجهل بعضا . ألا يكسب بهذا حسن الأحدوثة وتخليد الذكر خصوصاً إذا استزاد من هذا الخير ،فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الأصل الذي نحتاج اليه لاسيما إذا انضم اليه حسن التربية ، كما هو مقصد الأمير ،ولو اقتدى به الامراء لأصبحنا في ثروة من العلم، ولم تصب حضراتهم بالافلاس من المال ، بعد الافلاس من الكمال وفقه الله وأرشدهم والسلام .

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلرم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس ، وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت ، وأهمها رأيه في التصوير والحجاب وأخبرني أنه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول اصلاحية بهذا النحو من الأسلوب ، وقضى قبل أن يجد فراغا لذلك ، ولم توجد تلك المذكرات في أوراقه الى هذا اليوم

الباب الرابع

لوائح الاصلاح والتعليم الديني

﴿ اللائحة الأولى ﴾

كتبها في منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وأنها لو عملت بارشاده وصدقت أمله ورجاءه الحسن فيها لاحيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية . وهذا نص ماكتبه رضي الله عنه وأثابه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وبه الحول والقوة ، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة بما نشر في جريدة (طريق) من أنه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام ، بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة ، أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى ، وحسني أفندي رئيس مجلس المعارف ، وصاحب العطوفة عبد النافع افندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق افندي وأن يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية[1] وتقويمها ، حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين ، وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي ، وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب . وأن حضرة مولانا شيخ الاسلام ، وحضرات أعضاء اللجنة الكرام ، وإن كانوا في غنى بآرائهم

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العثمانية على المدرسة النظامية وان كانت عالية كمكتب الحقوق ومكتب الطب

القويمة ،ومعارفهم الواسعة ،عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ، ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط مايلوح بخواطرنا الى أولياء أمورنا،مع الاعتراف بالعجز،والاقرار بالقصور ،عملا بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم » وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ،وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ماحمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي ،يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ،فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصونًا وأسواراً ، وان أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ،إلا ما أتاهم من قبل الدين . ومن ظن أن اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضلّ سواء السبيل

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد ايمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس فى الطبائع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون، ويتنافسون في اللذات البهيمية، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته ، أوكانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون ، وسكان ماوراء النهر ، وقبائل التركمان وأشباههم ، يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ، ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ، ولكن عمت بها البلية ، حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث، لولا أن تدركها قوة مولانا أمير المؤمنين [1] خلد الله ظله

(١) انها لم تتداركها وما كانت أعمال دولته كلها الا مظاهر صورية لاروح فيها

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين ، واستمالة أهوائهم الى الأخذ بدسائسهم ، والاصاخة إلى وساوسهم فخلبوا عقول عدد غير قليل . ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الاسلامية ، حتى العثمانية لتضليل المسلمين ، فلا نرى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمريكانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير ، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية ، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم الى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الأوربية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم . ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال ، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم ، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية ، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة ، وغرارة الصبا والحداثة ، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ، ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي ، بل لا يطرق أسماعهم إلا مازري على دينهم وعقائد آبائهم ، ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول ، لأنه من أساتذتهم ، القوَّام على تربيتهم باذن آبائهم ، ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين ، فلا تنقضي سنوّ تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي ، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسم الاسلام ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل تعقد قلوبهم على محبة الأجانب ، وتنجذب أهواؤهم الى مجاراتهم ، ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم ، ثم ينفثون ماتدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل ، فيصيرون بذلك ويلا على الأمة ، ورزية على الدولة ، — نعوذ بالله — ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم مايجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ماجلبه الجهل على الأمة الاسلامية ، وأن غائلته لمن أشد الغوائل . وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو

لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين (١)

أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت اما خالية من التعليم الديني جملة ، واما مشتملة على شيء قليل منه ، لايتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لايعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها (٢) خلوا من الدين ، وجهالا بعقائده ، منكبين على الشهوات وسفاسف الملذات ، لايخشون الله في سر ولا جهر ،ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكلب في الكسب ، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لايلاحظون فيه حلالا أو حراماً ، ولا طيباً أو خبيثاً ، فاذا دعوا الى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا الى الراحة ، ومالوا الى الخيانة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة .

وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . نرى غيرهم من الأمم يتسابقون الى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس مانرى في سائر الأمم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون الى جامعة يلجؤن اليها ، وتقطع مابينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون) ولا حول ولا قوة الا بالله

هذه أحوال نذكر منها القليل ، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير،

---

(١) لقد حلت البوائق بالدولة ولم تدفعها عزيمته بل غلبه المتفرنجون حتى أضاعوا الدولة وهم يدعون انقاذها (الطبعه الثانية)

(٢) ليتأمل القراء هذا الذي كتب منذ جيل كامل أي ٤٠ سنة وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم ؟

نذكرها مقرونة بأنفاس الأسف وصُعداء الحزن ، لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم ، وأغلبهم شاذة ، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة ، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة ، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ، وإن عواقب ذلك لتخشى ، ولا حول ولا قوة الا بالله

واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانجد الا سبباً واحداً ، وهو القصور في التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد وإما بالسلوك اليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر . أما الذين أُهمل فيهم التعليم الديني . فجمهور العامة في كل ناحية، لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ، ولا يعتبرونها ، فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من نحو أنه لا اختيار للعبد فيما يفعله ، وانما هو مجبور فيما يصدر عنه جبراً محضاً . فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ، ولا اجترام السيئات ، ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنباً حتى تشمله بالغفران قطعاً ، لا احتمال معه للعقاب ، فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات ، وليهمل مايهمل من المفروضات ، فلا عقاب عليه ، وما شاكل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم ، واستل الحمية من قلوبهم ، ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم ، وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله .

وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة ، وفرائض الصلاة والصيام، وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ، ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه، فقد أقاموا الدين ، وان هدوا كل ركن سواهما ، ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة، ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات ، متخذاً ذلك آلة للكسب ، وصنعة من الصنائع العادية ، وأولئك الأغلب من طلاب الافتاء والقضاء ووظائف التدريس وماشاكل ذلك .لا ينظرون الى الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة ، فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك ، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا ، وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم ، ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة

وأطوارهم . فهـذا القسم أعظم الأقسام خطراً ، وأشـدها ضرراً في العامة والخاصة ، وما أفراده بقليل

نعم لاينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ما حدّ الكتاب ، واستمسكوا فى الدين بالعروة الوثقى وأضرم الدين في قلوبهـم نار الحمية ، واستفزّ اليقين هممهم للنصرة الملية ، الا أنهم قليل، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأمة . وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ، ولولا مالطف الله بهـذه الأمة ، بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الوبال ما استحقته بسوء أعمالها ، ونبذها أحكام الله وراء ظهرها ، وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزّه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبـه ، فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فياللنعمة العظمى ، وياللرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، وبشت لورود بشراها وجوه الصادقين ، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته

وانه بعد التأمل في الأحوال المتقـدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم ان أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلاميـة بعض الكتب الفقهية مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء ، فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لاتلبث أن تضمحل ، ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات ، وخاوية من سر الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عـدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه ، فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكار مستحفظاً لما يصل اليها منه ، ثم إلى فن الفقه الباطني وهو ماتعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك

منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل ، والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل . ويضم الى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ماهو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم إلى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعدها مستندين الى الشرع الشريف ،بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة ، وماصح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله ،فالمقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعهما ركن من الاصلاح ،والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمُّل ، ثم يتبعهما فن آخر يقوي على الغرض منهما وهو فن التاريخ الديني ، خصوصاً سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ماالية الحاجة من العلوم الدينية إلا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية ، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لاقوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به

فلهذا تقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون . فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعيـة ، وحماتها من ضباط العسكرية ، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهـم ، ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربيـة ، ولا نريد بهذا القسم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ، ثم إن الله لايضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

﴿ الطبقة الأولى ﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادىء الكتابة والقراءة ، وشيء من الحساب ، يعلمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها ، وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية ، والمكاتب الخيرية الاهلية . فهؤلاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة ، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها ، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها ، محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين . ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ إلى قلوبهم ، فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ، ومعاصم الانفة الملية ، كما كان ذلك فى نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العثمانية ، وكما هو معروف الآن عند الأمم الاورباوية مما تعلموه من أسلافنا ، ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا إلا بعقيدة صادقة ، واستقامة ثابتة ، ومحبة خالصة . ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي :

أولا — كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقاً ، مع الاستدلال عليها بالادلة الاقناعية القريبة المنال ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ومع الالمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى ، وبيان شبههم في معتقداتهم ، لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الانجيل المنبثين فى كل قطر

ثانياً — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال ، وبيان الاخلاق الخبيثة ، والصفات الطيبة ، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ، ولا في السنة أثرها ، وظهر في العامة ضررها ، مستدلا فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة ، مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ، ولا بدَّ أن يكون مدار الكتاب تقرير أن الانسان إنما خلق ليكون عبداً لله ، فكل شيء دون

الله ورسوله مبذول

ثالثاً — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة ، وفداء الدين بالارواح والاموال ، مع الالمام بالسبب في تساط الاسلام على الامم في وقت قصير ، مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم ، وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة . ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين ، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية ، ومن الترك تركية ، ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا ، ومايذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة الثانية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها ، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها ، حفاظا لما استحفظوا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل المخاصمات ، قابض على ميزان العدالة ، ناظر الى كفف النظام ، يرجح مارجح فيه ، ويسقط ماسقط منه . فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم أمراً في ادارة أمور الرعية ، آخذ لمنظار الحذق والدراية ، ليستبين مايخفى من مصالح رعاياها ، وما يدق من مسالك أهوائها ، ليضبط الاعمال ، ويلزم الحدود ، ويوفر وسائل العمران . فهو يقيم للدولة ماقامت به مصالح رعاياها ، الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدأ التعليم الديني يزاد لها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي :

أولا — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر ، وشيء من آداب الجدل

ثانياً — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط ، وإتيان الطريق الأقرب ، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضاً ، إلا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لايضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح ، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية في تقويم المعيشة المدنية ، فضلا عن غاية السعادة الاخروية

ثالثاً — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام ، وأبواب الفضائل والرذائل ببيان أكمل مما في البداية ، وتوضيح لأسباب الاخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل ، وتطمئن به النفس . ثم بيان الحكم لبعض الأحكام الدينية ، وفوائدها في الحياة البشرية ، مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ، ويكون مدار الكلام في الكتابين على ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النفوس الى مقام لاتطلب فيه الا معالي الامور

رابعاً — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه ، والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة ، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ، والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض . فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ، ويودع فيه من العبارات مايحرك القلوب الى طلب المفقود ، فضلا عن حفظ الموجود . ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم ، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ؛ ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا من اللسان العربي الا مايفرض عليهم في العبادات ، وما يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير ، حتى يكون كل قائل عارفا بمدلول ماينطق به ليترك الذكر أثراً في الفكر كما هو مطلوب الشارع ، وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية ، اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية

والعفة ، ومحبة الدولة ، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف ، مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات ، وتمييز ماهو من الدين عما ليس منه وان خالف أوهام العامة

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ماتقدم من كتب الطبقتين السابقتين ، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها . فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل ، حتى يكونوا عرفاء الامة ، وهداة الملة ، فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية ، بل والابتدائية اذا كثر عددهم ، وبهم يناط التعليم لأهل طبقتهم فهؤلاء لايكفي لابلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية ، بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة ، يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ، ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم . فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد مايكفي للمسترشد ، ولأجل هذا نقتصر في بيان مايحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرّض لأعيان الكتب الا قليلا . فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن ، وهو أهم مايحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ، ولا حيلة في تلافي أمرهم الا ارجاعهم اليه ، ومالم تقرع صيحته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بدّ أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ، ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم ، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ، ومذاهب العرب في الكلام ، وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ، فان احتيج الى وسيلة أخرى ، فأولاها : مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب

تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف [١] وتفسير القمي النيسابوري ، ومن أخذ طريقهما

ثانياً — فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً — فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن ، مبيناً له ، مع إطراح مايخالف نصه من الأحاديث الضعيفة ، والاجتهاد لارجاع الأحاديث الصحيحة اليه إن كان ظاهرها يوهم المخالفة

رابعاً — فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ماسلك الامام الغزالي في الاحياء ، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً — فن أصول الفقه من وجه مايمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ، ويوقف على كليات الشريعة ، ليستأنس بها في فهم الأحكام . ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب الموافقات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس

سادساً — فن التاريخ القديم والحديث ، ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ، وسير أصحابه ، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وما كان منها في إنهاض الاسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية ، مع التوفيق في أسباب ما وصلت اليه الملة في هذه الايام ، ليتبين أنه لاسبب لذلك الا الجهل بالدين ، والانحراف عن أحكامه ، وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً — فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل، لغرض التمكن من تقرير

---

(١) كنت سألت الشيخ في أول مرة رأيته فيها بطرابلس الشام أيام طلبي للعلم فيها عما يختار لطالب العلم من التفاسير ليفهم القرآن فهما صحيحا – فقال الكشاف – قلت ان فيه كثيراً من نزغات الاعتزال فيخشي ان تعلق بذهن الطالب فيشذ عن السنة . قال بل تلك مواضع قليلة معروفة يمكن الاحتراز منها

المعاني في الأذهان ، وتثبيت العقائد في النفوس ، وإلزامها الاخذ بمكارم الاخلاق وفضائل الاعمال ، والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الامور

ثامنًا — فن الكلام ، والنظر في العقائد ، واختلاف المذاهب ، والبحث فى أدلة كل،لا لتحصيل العقيدة ، ولكن لزيادة البسطة في الفكر ، والسعة في الرأي ، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحكمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة مايلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل ، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات ، لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة ، وفي المعاملات يشترك فيطلبه المسلم والذمي والأجنبي ، إذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ، ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه .وأما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات ، وكل ماحددته نظارة المعارف العثمانية ، فهي على رسمها ،كل مدرسة تتبع قانونها ،لا يضر شيء منها بالدين ، بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون إدارتها تحت عنايته فيسلك مخصوص، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها ، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكا ، وأذكاهم أخلاقا ، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها ، وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدّمة ، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله ، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات انما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره ، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم ، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين، وتأييد حافظه الأعظم ، المدافع عن بيضته ، حضرة مولانا أمير المؤمنين ، فتكون الملة ملة مهيبة ، يخشى بأسها ، ويخاف بوائق غضبها ، ويؤول بالدولة الى علوّ الكلمة

في سياستها الخارجية، بعد ما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الداخلية. وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول انما هو احياء الملة ، وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله (١)

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة - خصوصاً في الاخلاق والآداب - أشبه شيء بالخطابة ترسل فى المعاني الى القلوب لتهزها وتستفزها من مقارّ الخمول والغفلة، الى مقامات التنبه والبصيرة. ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ، ومؤاخذة لهم اذا خالفوا حكما من أحكام ماتعلموه ، أو قصروا فى عمل من لوازم ما اعتقدوه ، وتذكيرهم في ذلك يؤثر فى قلوبهم ، ويحرك الساكن من خواطرهم . ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية ، وأفضل الاعمال النفسية ، يراعي فيهم ذلك بقدر الامكان وان ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا..) وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الأمم الاوربية ، والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية ، كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين ، بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت إلى توحيد كلمة الاسلام ، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية رغماً عن أنف كل مخاصم ، ومنه رأي هؤلاء العاجزين أن لا حافظ للدولة ولا واقي للملة سواه ، وأن جميع ماصرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي ، فانه لاسياسة إلا بالقوة ، ولا قوة إلا بالنجدة ، ولا نجدة الا بالوحدة ، ولا وحدة الا بالطاعة ، ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة ، ولا عقيدة إلا بحياة الدين ، ولا حياة للدين الا بالتعليم ، حتى يجري على أحكام التجربة ، وليس ذلك الا ماعرضناه

(١) رحم الله الاستاذ فماذا كان يقول لو عاش إلى زماننا هذا

وأن جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم فى الأقطار العثمانية ، بل وفى غيرها لايرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم ، وأن يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك . فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم ، وتحقيق أمانيهم

هذا مانرفعه الى مقام شيخ الاسلام ، فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون ، وان كانت الاخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته الى تقرير ماهو أعلى من أفكارنا ، وأنجح منها في اصلاحنا . وانا في جميع الأحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأييده وبقائه ظلا لله ورحمة لعبيده آمين

كلام فى الدعاة والمرشدين

وبقي في موضوع الاصلاح الديني كلام هو كالتتمة له ، فنتقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ، ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين ، فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الاهالي ، فان الجمهور الاعظم من سكان القرى ، والأعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لايرون ضرورة لتعليم أولادهم ، ولا يقدرون التربية الحسنة حق قدرها . فاصلاح جداول التعليم في المدارس لاتصيبهم فائدته ، بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم ، وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الاعمال يطالبون بأدائها ، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا . والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا . فمن الواجب الالتفات اليهم باصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبههم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم ، وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ، ثم تخدعهم عن أطباعهم ، وتلين من قساوة قلوبهم . ثم أنهم لو رغبوا في التعليم ، وكلفت الدولة بانشاء مكاتب لتربية أبنائهم ، والانفاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة مايلزمها

من المصاريف في إدارة شؤون المملكة ، فلا بدَّ أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ، ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتدبيره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم . ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والمجامع ليذكروا الناس ما نسوا من دينهم ويعرفوهم ما جهلوا منه ، ويشربوا قلوبهم حب الدولة ، ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليقفوهم على أمور دينهم ، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماً وعملا . وبالجملة فلا بدّ أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية ، وأوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس ، وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصلحها . ثم يكونوا أقوم الناس سيرة ، لايخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه ، وقدوة لهم يتبعونها . ثم لابدّ أن يكون في كل قوم بلغتهم ، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع

ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة ، وتوليتها قوما يحسنونها ، ويدرجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ، ويبنون لهم مضار الفساد ، ويهدونهم الى سبل الرشاد : كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة ، وهذا باب عظيم من الاصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير

فان سأل سائل : أين الكتب التي توضع للطبقة الاولى والثانية من المتعلمين؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية ؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة وتبثهم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ؟ ثم كيف شرطت في أهل

الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الايغال فيها ، والوصول الى حقائقها ، وذلك يستدعى زمنا طويلا

(فالجواب) أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كاف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الاولين وفي الثالثة أيضا والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم إن تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق في البحث والاختيار . وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الامراء ، أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم . فهؤلاء لايعرفون إلا بعد التفتيش عليهم . ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الأمر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية ، يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة ، بل وعشرين زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم . ومن المقرر عندنا أن مايشتغلون به هو الباطل ، فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه ، حتى يتمكنوا من نصره وتأييده

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء ، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة ، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم ، فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل ، وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله متى فوض الأمر لأهله . فاننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال إخواننا المسلمين ، وطول ممارسة لأخلاقهم .

والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين ، وفي التفاصيل مايطول به القول أضعافا مضاعفة ، فان دعينا اليه لم نتأخر عن بثه ، والله الهادي الى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ؟ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد في مصر للسلطان بأنه يبغض الدولة فليأتنا أحد بمثل نصحه للدولة في هذه اللائحة ، وفي اللائحة التالية لها

اللائحة الثانية

فى اصلاح القطر السورى

قدمها الى دولة والي بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

أرفع إلى مقام دولتكم السامي أن للدولة العلية أدام الله سلطانها ، وعزز مكانها ، حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبيعة الحياة الملية ، ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق. وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها ، وأقصدها بذل ما يستطاع من السعي لدفع مالا يلتئم مع مصلحتها ، وأعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وإنني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثماني المشرب وإن كنت عربي اللسان ، لا أجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وعندي أني إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بايماني فانما الخلافة حفاظ الاسلام

ودعامة الايمان ، فخاذلها محادّ لله ورسوله ، ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون . فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريباً عن أهلها مفكراً في مجاري أعمالهم ، ومآخذ مشاربهم ، وضروب مذاهبهم ، من وجه مايتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ماألممت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علماً ، وأرجحهم حلماً ، وأقومهم سيرة ، وأشدّهم حرصاً على تعزيز عرش الخلافة ، وأصدقهم إخلاصاً في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره . وأرفع إلى عليّ نظركم مالو ألقي بين يدي سواكم لخشيت إغفاله ، وتوجست إهماله ، ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار ، وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة ، فان كان مارجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم . وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز ، وقصور الفكر ، وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام ، وموقعها من سائر البلاد العثمانية لايخفى على نظر دولتكم ، وقد توهم بعض من تولاها من خدمة الدولة أن في نفوس أهاليها ميلا للاستقلال ، وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة نعوذ بالله ، فهذا وهم لاأساس له ولا يمس جانب الحقيقة ، فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لاترى من أجل أحوالها مايؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية ، وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ، ولا همّ لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ، ولو فرض أن خيالا باليًا مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الأماني المستحيلة ، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة ، أو تعقد على التسليم له العزائم ، نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السذّج الذين لامقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة ، لتسامحه فيها ، وعدم مبالاته بها ، وهي قذفات لامكان للقصد منها ، وطائشات كلم لاشمة للرأي فيها ، وهي بما يصدر عن الاطفال ، أشبه منها بما يكون عن الرجال ، ولهذا لم يكن أثرها في

أنفس العامة فوق وصول ألفاظها إلى أسماعهم ، ثم ترد على قائليها ، ويحثى بها التراب في وجوههم ، ولكن ممـا يوجب الأسف أن بعض الظانين بالرعية هـذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخمـد أفكارهم ، وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الاسلاميـة على قيام أمثالها في سائر الطوائف

على أنه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضرراً من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه ، وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولا إلى قسمين الأول سكان جبل لبنان ، والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

حالة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويليها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة، وعدد قليل من الشيعة، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنساوية وصغاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم، والواقية لحقوقهم ، وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل ، والحكومة الفرنساوية لاتني في تمكين هـذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل . وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربيـة الفرنساوية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لايعلم من أحوال وطنه ودولته إلا مايعلمه بعض السياحين وطرّاق البلاد من الأجانب ، ثم بعد استتمام دروسهم لايرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في إحدى دوائر الاجانب إما ترجماناً لقنصل ، أو كاتباً في شركة ، أوماشاكل

ذلك . ورؤساء هـذه الطائفة لامفزع لهم يلجؤن اليه إلا قنصل الدولة الفرنساوية ، وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلاغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ماصار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوة البأس لاتوصلهم إلى المناصب كما كانت في سابق العهد . واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض مابقي لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم ، وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاطية ويزبكيـة . فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا ، وأخص علائقهم مع قنصل الانكليز ، واليزبكيون وهم أقرب الفئتين إلى الدولة مالوا إلى المشرب الفرنساوي وكرعوا منـه حتى عموا ، غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولا وبالذات وتربية غيرهم ثانياً وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة سذّج كأنهم في بدايات البـداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر وانما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسي إلى دولة الانكليز

وأما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم ، وانمـا هواهم هوى جيرانهم ، فالمخالطون للموارنة طوع لهم ، والمخالطون للدروز تبع لهم ، وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم ، فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا ، وليس يخاف ماتأتي به هذه المسابقة السياسية ، بعد ماظهرت آثار مثلها في بلاد أخر ، والدولة أعزها الله مع أن البلاد بلادها ليس لها من يروج سياستهـا ، ويؤيد كلمتها ، وأمرها يتبع ميل المتصرف إن صدق في خدمتها كان لها وإلا

صار الى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولى، وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الاجنبية على مايحفها من عناية المتذرعين بها تخشى عواقبها ، وترعد بوائقها، اذا جاء المستقبل على أثر الماضي لا يعارض فيه السمي بمثله ، ولا تقطع الطريق على السالكين فيها ، وأما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها ، وتطهيرها من تلك الأغيان الطارئة عليها ، فما أيسر أن يتم لها قصدها ، وتذهب تلك المساعي هباء منثوراً. ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم ، فلا بدّ من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني ، ولئن دعيت الى تفصيلها بذلت مافي الوسع للفكر فيها

حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القرويون وأهل الحضر ، أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ، ومنهم الدروز في حوران ، ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ، ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ، ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ملكيين، وروم ارثوذكس وبروتستانت

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهباً واحداً في تربية أبنائها وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي ، غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم فى المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان ، واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت، والملكيون في المدرسة البطركية بها ، ومنشآت أخر في أطراف البلاد ، فلا يضعونها إلا على قواعد فرنساوية ،واللسان الأول فيها الفرنساوي، والهوى والميل فرنساوي ، ومنتهى أمرهم في التحصيل على مابينا في الموارنة .

ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة ، وهكذا يعلمون أبناء البلاد إلى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجلّ شيء يفتخر به الناشؤن في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية ، وما من مكتب من هذه المكاتب إلا ولفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشربهم انكليزي ، ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشؤن فرنساويين وتارة الى مدارس أخر منهم ينشؤن على المشرب الذي نموا عليه ، وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها فى أعين اخواتها من بقية الطوائف فاختارت ما يوافقها فى المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير أن الروس لم يوجدهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد ، وقام بادارته رجال متبصرون حذاق فى إصابة الاغراض والرمي اليها لبزت تربيته جميع تلك التدابير ، واجتثت أصول تلك المفاسد ، وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

﴿النصيرية﴾ قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب . فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة ، وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة . ولهذا كثيراً ما انتقض أولئك القوم على الحكام ، وشقوا عصا الطاعة . وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الأجانب

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشيء المدارس في سورية والقدس ولبنان

وبث الوساوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب ، حتى أنه من نحو ثلاثين سنة اشتدّ أمرهم في الشقاق ، وكان راشد باشا واليًا على سورية فذهب بنفسه لاخضاعهم ، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين ، فالتمس من الباب العالي تقرير ستين الف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانيـة في قرى هـذه الطائفة ، وصدر الأمر بذلك ، إلا أنه لم يجر العمل به حتى الآن . ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة ، وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت إلى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة ، بل لو اعتني باخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم ، وبني على قواعد الحكمة والدربة ، وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية ، والاستقامة النفسية

﴿ الشـيعة ﴾ لايقرون بالخلافة إلا للقائم المنتظر . ولهذا وجد الأجانب سبيلا للدخول على قلوبهم ، لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم . فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب، يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغـيرهم من مخالفي الاسلام ، ولهذا لايلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ، ولكن وكلاء الأجانب وشـياطينهم يصوّرون لهم عمال الدولة في صورة مشوّهة ، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين . وكثيراً مايخيلون لهـم الاحتماء بدولة أخرى ، وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف مايرغبه الصادقون في محبة الدولة ، ولا تؤمن غائلة ذلك ، واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم الا نفوراً . ولكن ماأسهل سدّ تلك المنافذ على أولئك الأجانب بانشاء معهد للتربية العثمانية ، بل ماأسهل تذليل شدتهم المذهبية ، واستصفاءهم للدولة باقامة مهـذبين من أهل الأفكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم ،لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم . لاريب أنهم بعـد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها ، فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

﴿ الدروز فى حوران ﴾ لم يخف حالهم على رجال الدولة ، غير أنه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم ، حتي إنهم عينوا أسقفاً في القدس بمعاش الف وخمسمائة ليراً في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية ، وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

﴿ المسلمون من أهل السنة ﴾ هم عماد الدولة وركنها الشديد ، وهم قومها الحقيقيون ، وفيهم عصبتها الثابتة . ومن البين أن قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين ، لأنها دولة خلافة ، فعاملها في القلوب سلطان الدين ، فكلما قوي الدين في الأفئدة ظهرت آثاره في الأعمال . فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة . وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ، ولكل وسيلة خلف منها . أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق ، وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها . ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ، ويستدعي دقة النظر ، وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعد ما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح ، وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام . وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد فى نظر السلم ، فقد تسابقوا ركبانا ورجالا متطوّعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة . ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد مالا يسر ، وفى هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل مالديه للفرار من الخدمة العسكرية وإن جاءت لاقدر الله حرب ذهبوا اليها كارهين ، بعد أن كانوا يذهبون راغبين ، كل هذا والجهاد من فرائض دينهم ، يفيض به كتاب الله في أغلب سوره ، وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين ، وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليو لتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه

على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين (لابدَّ أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان. فكما أن كل دولة تخمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها، يسرع اليها العدم، ويقضي عليها الزوال بحكمه، ويستحيل عليها أن تدوم. كذلك كل دولة لاتسند عقائد رعاياها، ولا تعينهم على التمسك بها، لايتسنى لها الى النجاح سبيل اه) فهذا إنكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتتثبت محبتهم. فما أجدرنا بالعناية بذلك، والملة ملتنا، والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه (الآونة) لسوء حالهم من نيف وعشر سنين، وضارعوا سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية، كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينية في قلوبهم، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم. وجدّ أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير، فساء ذلك الطوائف المسيحية. فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال، حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية، وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه، فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات، وتحويلها إلى مجالس رسمية، ثم محي أثرها بالمرة، والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون، ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات، فخمدت أفكارهم، وتقطعت آمالهم، ورجعوا الى جاهلية، إما لارغبة لهم في العلم أصلا، أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية، وبعض مبادىء علوم لا تفيد في إصلاح الأنفس شيئاً، ولكن تؤثر في إفسادها

فالزاعمون أنهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساوية أو ألمانية أو انكليزية، أو وطنية بالاسم، أجنبية بالحقيقة، ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين: تحويل العقائد الى المسيحية، وامالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين فى الاعتقاد، مسلمين

بالاسم ،أو دهريين لاعقيـدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لا وضحتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها، حتى لايذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه،

وأول مايلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت ، من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد ، وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم ، وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم التعليم بالتركية بعد ذلك ولابد ان يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه في باديء الامر حتي يقبل الناس عليه، وان يكون في درجة لاتنقص عن مكاتب الاجانب في شيء، وثالث شروطه أن يكون أساسه على إحياء الدين وحب الدولة، ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص، ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في أخذ راتبه الشهري ، وأن يكون حكيما في تصرفه، وفي حال يجلب ثقة الناس به، والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس، لافرق الا بالدنوّ والعلو . والتربيـة فى جميع الأحوال لابدّ أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة، كما هو جار في ممالك أوربا . وكما كان عليه أسلافنا. وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق فى النفس ، حتى لايحوله محول من فقر أو غنى او ايثار او حرمان أو ظلم او عدالة . وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة ، واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين، والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة في اطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ،ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلٌّ عليها، ضررهم أكثر من

نفعهم، ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم، حتى انني رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرة رسائل من بعض مشايخهم توددا وماذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم ، واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لاتنقص عن التركمان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وماقبله يحتاج إلى نفقات لافضل لها في خزينة الدولة، فاجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على الفقراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولاتحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى ان تصرف شيئًا في هذا السبيل، وطريق الصواب واضح لاهله ، متى ثبتت العزيمة ، ولا أطيل القول في هذه العجالة ، فانما الغرض سوق ماتنبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم، والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الأعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لأجل اقناع أولي الشأن في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سورية وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتتحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به ﴾

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم، فما حاجة الحاكم الى صلاحهم باخف من حاجتهم الى صلاحه، فان السلطة سلطتان جيدة ورديئة ، فالجيدة ماكانت على المحكومين للمحكومين ، والرديئة ماأخذ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

أما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها ، التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل، وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي، وهو مجموع الروح والبدن، فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك، تحتاج الروح الي سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وماشابه ذلك، وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته ، فصاحب السلطة صانع ، والمحكوم آلته في الصنع، فهو كاتب مثلا ، والمحكومون قلمه، أو هو حارث والمحكوم محراثه، وكما ان الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآلته. وكما يجب ان تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة ، يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل، فان فقد أحد

الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته — فكل من السلطتين في حاجة إلى صلاح المحكوم ، فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه، كذلك يطلب صاحب السلطة في أي منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل مايحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

أما مارسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الاوربيين من أن صاحب السلطة قوته علوية ، والمحكوم طبيعته سفلية، ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مقهور، وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيما وأن الأول لاحاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لاتدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم وتصرفهم فيهم على خلاف مايجب أن يصرفوهم فيه، وتغافلهم عن استطلاح طباعهم بما يؤهلهم للعمل على مايريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته. فقد يكون ذلك حقاً لكنها آلة ذات شعور وإرادة وماله شعور فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما ، فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له ، وصلاحهما بان يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار ،وبين النظام والاختلال ، ليكون مايقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية، وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة ، كانت الاحلام طائشة، والاهواء متحكمة، ومداخل السوء كثيرة ، فويل لذي السلطة من تلك الرعية ، وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار ، وكل ما يتخيله اصلاحاً لهم أو له فيودعه في أصول حكومته، فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لاتزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة وليس فيها من الغابات مايعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التى كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولايمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت ، فاذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين، كل قادم اليهم امتزج بهم، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم، وانتسب نسبتهم فصار مصريا ، واحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر، فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه، فلا يبيدون من حاجة، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته، فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض، وهو ممر اهل المشرق

الى المغرب، وأهل المغرب الى المشرق، وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الامم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الامم مثل هذه البلاد

الامم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضاً على التمكن في أرض مصر، أو الفوز باحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لا تنقطع نفثاتها من أولئك الاحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم. وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) ان يقال أن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم، كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم، فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم، ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحياناً، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن، ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله، فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال إن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم، وأثبتهم قدما في المواطن، ولا يعلم متى يوجد القائد، ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد سبيلا للاندفاع، ثم هم لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغاً من الصلاح، ولا يبالون به، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين، بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة، إلا اذا أخذوا بتربية صحيحة، فهناك تنضبط أحوالهم، وينشىء النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة إلى طريق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثها الحق ينشآن عند المصريين من أمرين، الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح. والثاني حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة، والتؤدة، والتبصر في العواقب، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة، وظن ماليس بواجب واجباً

وظن" الواجب غير واجب ، فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة، فلا يصلحون بدنًا لرأس ، ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر ، وتنفذ بصيرته الى هذه الحقيقة ، فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنًا يعتد به ، وكل اصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء ، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة، تكون قد فتحت في نفوسهم فتحًا جديداً ، وظفرت ببغيتها منهم ظفراً مبينًا ، وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

أهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر ، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهي أن البذرة لاتنبت في أرض إلا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ، وانما ألقيت على الباذر

أنفس المصريين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربية التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم ، فان المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فساداً — وإن قيل إن لهم شيئًا من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا أتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر ، فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده إلى مظان الفوائد ،والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنًا لرأس، أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة

إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور ، وأطهر قلباً من التعصب الجاهلي ، وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على مانقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لايختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة، ولم يروا مربياً يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا مافيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين، وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام الله، وأنه ينبوع الدين، ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان، المدارس الأميرية ومدرسة الأزهر الدينية . وليس في الجهتين مايهديهم لما يجعلهم رعية صالحة، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول مايصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لايجد أقل مقاومة من العامة ، ولا أغلب الخاصة ، وفي مصر فرصة لاتوجد في غيرها لمن أراد ذلك ، فان بلاداً غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لاغير، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ، وينتدبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على صرف الاذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين، لأنهم لايهتمون بما لايقع تحت نظرهم مباشرة ، ومادامت الأصول

محفوظة ، فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ماتقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس ، على مافيه من مباينة الدين والانتهاء إلى خلعه بالمرة

المدارس الاميرية

المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية، ولا التربية الصحيحة، هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا باشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد الأرنؤط والاتراك والمورلية ، ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة اليها ، ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطالبه في الوظائف ، ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبراً ، وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لاقوة لهم من الفقراء . وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة ، حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها ، وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة والقضاء ، وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير أن جميع ماأتاه من ذلك كان صورياً ، ليقال إن له في حكومته مثل مالاوربا في حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ، ولا تهذيب النفوس ، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة .

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس، ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة، يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ، ومن الفقراء الذين لايجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس

ليستربحوا من نفقتهم ، ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال ، إلا أن يتعلم التلميذ مايؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين ، أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه ، يحسن القيام بالعمل الذي يفوّض اليه في الحكومة أو في غيره ، فذلك لم يخالط عقول المسلمين ، ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون مايجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته إن كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ، فيخرجون ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد؟ ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ؟ وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لاغير . ولهذا لايكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة ، ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم ، إلا من كانت له فطرة سليمة ، وله موهبة طبيعية ، فأولئك تؤدبهم الأيام ، وتهذبهم التجارب . وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال ، فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه ، فلا يؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

المدارس الاجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها ، فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية . فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها . ومن أرسل بولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى مايقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده . ثم ذلك يحدث من

الاضطراب في طبيعة الفكر ، والتزلزل في الأخلاق ، مايكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثراً سياسياً أو أدبيا في مصر ، بل قد أحدثت بعض النفرة فيقلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم . ولذلك تاريخ فى البلاد معروف ، فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغماً مما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك ؛ فلا يصح الاكتفاء بها فى التربيـة عن المدارس الأهلية على اختلافها

الجامع الازهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة فى تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً فى بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لانظام لها فى دروسها ، ولا يسئل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عنده فى الدرس أم غاب ، فهـم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح فى دنياه أو دينه ، وإنمـا يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته فى الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل مايسمع ، اذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهـم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها . ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية ، وطرفا من العقائد على نهج يبعـد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهـم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم ان المعروفين بالعلماء ، وهم الذين يتممون دروسهم فى هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب الى التأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة ، وأسرع الى مشايعتها منهم ،

وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء، والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح ، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها

إصلاح مدرسة الازهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز ، وكل أستاذ يسأل عن طلبته ، ثم يجعل ماينالونه من المنافع الطفيفة منوطا بالفهم لا بالكتب ، وتغيير بروغرام الدروس، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ، ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك ، ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه ، وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا توجه الأذهان الى شيء خلاف المصلحة ،وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به .

وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية أن إصلاح الأزهر لا يمكن، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم ، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه، فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء ، فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم، فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر ، ولم يكن بالتدريج اللائق . أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح، وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه ، وما يعجز عنه من ذلك . فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوّض ذلك اليه على أن العناء في ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الاميرية . فان الناس لا يختارون

الازهر الا لسوء ظنهم بالمدارس ، أو لاعتقادهم أن الازهر أحفظ للدين منها . فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه ، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ، ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الاهلية

المدارس الاميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ، ولا يتم لها إحسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن ، فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر ، فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ، ولكن من الوجه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي . والثاني هو اهم مطلوب دون الاول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظا بغير معنى ، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون الأصل النافع ، وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على أن الكتاتيب يرد عليها أبناء الأهالي جميعاً إلا القليل ، ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم ، فهي منابت للعامة أيضا ولكنها لا تنبت الا ن إلا جهلا

ولا يمكن إصلاح تلك الكتاتيب إلا باصلاحهم (أي الفقهاء) وإصلاحهم مرة واحدة أو ابدالهم بخير منهم متعسر ، ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين . ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث إن أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب ، فلا بدَّ أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان ، وهو يقتضي سعياً حثيثاً ، وتدقيقاً شديداً ، وسيراً في أرض مصر أجمعها ، ونظراً في كل قرية من قراها، وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين، متى وجهت العناية لذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما زاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب ، حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعراً بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة . فاذا دخل المدرسة أو الازهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس ، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة ، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير ، بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الامور القريبة من الأذهان والمكان الذي يتعلمون فيه ، والوقت الذي يخصص لذلك ، والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الأوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لايزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ماقصدوا أم لا ، الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدّ لذلك ، فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب ، عارفا ببعض مبادىء العلوم التي لايجد لها موضعاً تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها ، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ، ثم إنه يعود بأخلاق أشد فساداً من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ، ويجد في نفسه نفرة وعجزاً عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله ، فيقضي عمره في البطالة ، أو ما يقرب منها ، فتزداد أخلاقه فساداً ، وأفكاره اختلالا ، ويقف نفسه على عبادة الاوهام ، وخدمة الدسائس التي تنبهه الى طلب مايغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضواً نافعا لها.

فأول مايجب لاصلاح هذه المكاتب ، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى فى البروجرام ادخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على

المعاملات الجارية في البلاد . فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف فى المعاملات التجارية ، وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم ، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال فى الأوراق والدفاتر ، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك . ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل ، وان كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة فى البلاد أو على أفضل منها ، وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية ، والمشارطات المتداولة بين الاهالي ، حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة مايرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة ، أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة ، وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فان لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة . ثم يضاف الى البروجرام مبادىء العقائد الدينية على الاصل الصالح ، وأصول الآداب الدينية على مايجمع الألفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة ، وشيء من تاريخ البلاد ، وما كانت تعانيه في سابق زمنها ، وما صارت اليه من الراحة فى هذه الأوقات ، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ، ليعلم التلميذ أنه من أي جنس وفى أي شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه . ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب ، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك ، وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوّض اليه مراقبة أخلاق التلامذة ، وملاحظة أعمالهم . فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ، ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعلم رجع اليه بشيء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفكار الحسنة ، وانطبع قلبه على الخير والسلامة ، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ، ونبت في

قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ، ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لاأتكلم في بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لاقامة تلك المدارس ، وانما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر ، وغرس مبدأ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ماتعلموا

قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس لايخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية ، وانما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة ، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينيـة على الأصـل الصحيح — تعليم الآداب الدينيـة على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ماتعلموا — كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كلٌّ في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون ، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيـل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم أن القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين ، وأن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة ، بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الأدلة على ذلك وهي كثيرة لاتعد ، حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به ، وائتمن على عمل يفوض اليـه ، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعلمه أن للنظام علاقة بحياته الروحانية ، كما له علاقة بحياته الجسدانية ، فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعـمل وهو في رضى عن النظام المحيط بأعمال وطنه ، فيكون بذلك عضواً صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس

حجاب منيع من الاستقامة الفكرية والخلقية، حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لاتتبدل بتبدل العقيدة

المعلمون والمربون ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها، ولم يدقق البحث في مصالحها، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر مايتصورونها كما أن كثيرا مثلي لايرون ذلك

أما اولا فلأن بلاد واسعة مثل مصر لاتعدم أفرادا متفرقين في أنحائها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان مايلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها، كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الأطراف ليعرف الصالحين لتوليها، على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل، فان لم يكن الموجود بالغاً الغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها — وأما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي، على أن في الرسم نقصاً يجب تتميمه، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس، ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروسا لجميع ماكانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتمموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافا من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ، وقدر غاية الدراسية أن يكون التلميذ المتمم لدروسه فيها صالحا لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية، ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي

كانت تنبغي لها، ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التى كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام فيها، ولهذا كان يخرج تلامذتها على مايخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لايمتازون عنهم الا قليلا، وان كانت مع ذلك أنشأت أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة، ولكنهم أقل عدداً مما كان ينتظر ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع أنه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لايقيمون عليها من النظار إلا جاهلا بالدين واللغة العربية، بل غير معتقد بالدين بالكلية، كما فعلوا سابقاً، ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم، وفيهم من لاتجوز معاشرة التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه، وفيهم من لايحسن أداء ماكلف به، وليس فيهم أهل بوظيفته الاشخصان فقط والكل لاعناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها، وتعليمهم الدين على ماهو المعروف في الأزهر لايغيرون منه فاسداً، ولا يزيدون عليه صالحاً، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب، لايبينون للتلامذة الغاية من تعلمها. وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم، ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم في تعليمهم، ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين، ولم يقم على تلك القاعدة خبيراً بالبناء عليها، عارفا بالغاية التي توجه المدرسة اليها، حكيما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنوياً حقيقياً يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده.

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري، والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر، ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة

في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير مايلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفنّ أصول النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلى المقصد الذي وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثوقا به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها إلى مايسع مائة تلميذ

(السابع) أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم مايجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون للموظف منها في مدرسة ماسلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وطباعهم ، وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

نفقات الاصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج إلى زيادة على أنه لو احتيج اليها لا يثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس ، او آلة لعامل ، وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه فى جميع السبل ، فان كانوا يصرفون آلافاً من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار . فان التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ، ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح فى مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان فى الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكانته فى نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون إن هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل إلى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد ، فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر ، فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

إن من يزعم العجز إنما يلجأ اليه لأنه لم يتصور مايرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ، ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً ، فان أبى إلا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ، ولم يعجز عنه ، والتجربة مشرق الحقيقة

إن شاء الله تعالى . على أنه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع، وأكفل أن يكون له من النفع ماهو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر

واني لاأزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة ، وأن فوائده ربما نقلت الى أقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه، وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة والمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لاعلى طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كون لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته ، وعرض نفسه لغير الزمان، وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اه

***

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولامعروضة للنشر كما سبقت الاشارة، بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وحسن العبارة وان كنت اجزم بأنه لو بيضها ، لغير وبدل بعض كلمها . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت ، على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول . ذلك أنه لايرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها باقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته ، مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلى له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني الذي يحيي امته حتى في دنياها واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد باقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو مايجعله موافقاً لمصلحتها ولو في الجملة ، وتلك هي الحكمة البالغة، والبلاغة السابغة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الاستاذ

الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، مالم يتم له مما كان يريد أن يعمله في حياته، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

على أنه لو فاز بما كان يريد من كتابة هذه اللائحة ـ وهو جعله ناظر المدرسة دار العلوم مستقلا في تربية تلاميذها ـ ، لربّى لمصر فيها من الرجال من تصلح بهم جميع المدارس الاميرية وغيرها ، ومتى صلح هؤلاء صلح الشعب المصري كله وصلح به الشرق الاسلامي كله، ولكن لم يكن في الحكومة المصرية من الوزراء من يسمو به عقله لفقه هذه اللائحة ، ويسمو عزمه لانفاذها ، واما أصحاب النفوذ الفعلي في هذه الحكومة من الأجانب فهم أجدر بفقهها ، وأجدر بمعارضة العمل بها لو طلبته وزارة المعارف وهي قد ترجمت للسر أفلن بارنج يؤمئذ (لورد كرومر) فنبذها وراء ظهره طبعا . ولم تستمله تلك العبارات التي قصد به استمالة.

وأما الخديو توفيق باشا فقد أبى صاحبها مديرا ومعلما في مدرسة دار العلوم، وعلل ذلك بأنه يربي الطلاب فيها التربية التي يخشى سموه عاقبتهما على بلاده (؟؟) وأمر وزير الحقانية بأن يجعل الأستاذ قاضيا في احدى محاكم الأرياف ليكون بعيداً عن القاهرة مركز الحركة الفكرية والتعلم (؟؟) فهو قد بقي على رأيه الذي وسوس به اليه قنصل انكلترة الجنرال عقب توليته من أن السيد جمال الدين وحزبه الوطني يريدون سلب سلطته الشخصية بحكومة نيابية . فنفى السيد من القطر المصري ، والشيخ محمد عبده من القاهرة كما بيناه في الترجمة . وقد سلب الاحتلال سلطته وسلطة الامة معاً ، وظل هو خائفاً من التربية الملية الاسلامية التي كان يريدها الشيخ رحمه الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار)

الباب الخامس

كتبه ورسائله

الفصل الاول

في طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من أعضاء العقد الرابع من جمعية (العروة الوثقى) وغيرهم

(١)

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك على ماوفر لك الحظ منهما ، ماأبطأ بي عن مواصلتك غفلة عن ذكرك ، أواهمال في الواجب عليّ لحقك ، فلي من همتك منبه لايغفل ، ولديَّ من مروءتك جميل لايهمل ، لكن صرّفني القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفني الى حيث سبقت مشيئته ، تعاظمت حوادث الشرق ، خصوصا مامال منها نحو الجنوب ، فشغل الاهتمام بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فتلقيت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادّخر لها العمل ، وتلحظ أبصار مادنا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول ماحضر لديها ، وابراز ماكمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصافحونها ، وغطيط من الغفلة لا يسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف على حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وماتوفيقي إلا بالله وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، وإني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي وأول أرض مس جسمي ترابها

(١) المحفوظ من المصراع الاول * بلاد بها نيطت علي تمائمي

غير انه لايراني من أهلها الا المخلصون،ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك بينهم ذكراً يليق بهمتك ، ومكانة تجددها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر صنيعك ماوفر لك شكره .وأخلص لك سعيه،ورجائي ان يوافيني من لدنك مايطمئن به القلب على صحتك ، ومايتروح به الفؤاد من أنباء مساعيك بين الاخيار من قومك ، أحيا الله بك موات الهمم ، وأقرّ بك نواظر الفضل ، وسلامي عليك وعلى أنجالك وآل ودّك ، والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد على فراقك ، ولم يجر القلم بمراسلتك ، حتى خيل مكان للظنة ومثار للريب . أستغفر الله ، لي من شمائلك روح بروحي ، ومن همتك قلب بقلبي ، فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفسي ، ولكن حوّلتني مهمات الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث المتتالية ، تخليته عونا لنا حيث هو ، وتحوّلت الى مقربة من معاقد العروة ، ومكامن القوة . فكانت المدة من يوم فراقك متبدّدة في أسفار ، متلاشية في هواجس أخطار ، واليوم أكتب اليك من وراء ستار ، فلا تهملوني من التذكار ، ورجائي أن يرد إليَّ من قلمكم ، مايرجوه القلب من ودكم ، وسيدي السيد يهديكم أتم التحية ، والوسيلة تصل اليكم ، وسلام الله عليكم، وعلى كل مخلص ، والله يحفظكم

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٣

فارقتك ولم يفارقني مثال من كمالك ، وضياء من عرفانك ، واني على البعد عنك،لم أنس ما أفادني القرب منك ، ولي في كل لحظة شوق اليك ، وفي كل بقعة حللتها ثناء عليك ، ورجائي أن أنال حظا من الاطمئنان على صحتك ، وسلامي على حضرة السيد أخيكم ، ومن سعد بمحبتكم، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادي الاولى سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك، حرماني من محاضرة آدابك ، والاقتباس من أنوار فضلك ، وتعرُّف الصواب من صائب رأيك ، وإنما يخفف ألم البعد عنك أن أكون بمكان من فكرك ، وأصيب حظا من مراسلتك . وجدير بكرمك أن تصل واصلا ، وتجيب سائلا . وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين ، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق ، وأعانك على العمل بما وهبك ، عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك ، وترد به جماح الغاوين من عشائرك ، ويقين في الدين ينهضك اذا قعد المرتابون ، ويشدّ عضدك إذا ضعف الواهمون ، ومكانة في قلوب أشياعك تمكن الثقة بك ، والاستمساك برأيك ، وسعة في البيان ، تقطع بها طريق الشيطان . فوجه عزمك للنصيحة ، وجادل بالتي هي أحسن ، واذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ، ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه ، وصل حبالك وحبال المهتدين بحبل الله ، وكن على ثقة من الفوز ، ويقين من النجاح ، ما دام هدي النبي هديك ، وسعي الأصحاب سعيك . وإن أشكل عليك أمر أو اشتبهت لك المنافذ ، فاخوانك كثيرون ، وهم بمعونة الله في عونك ، كما أنه لا غنى لهم عن الاستعانة برأيك . ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب اليه ، وإن كان أوفر لهفي عليه . ولكن مكاتيبك تصل إليّ إن شاء الله بالطريقة التي تراها صحبة هذه الأسطر ، وسلامي على قلبك الطاهر ، وشوقي للاجابة وافر ، والوسيلة تصل اليك والسلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الودّ ، وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق ، وبودّي لو أن عبارة تحمل ما في نفسي اليك ، ولكن حكمة الله في قصور العبارات أن يكون الفضل لثقة الكريم ، وفراسة الحكيم

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك .
وحاشا أن يكون تساهلا في الحق ، أو تغافلا عن فريضة الودّ ، وإنما هو
أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها .
من يوم فارقتك ما استقرّ بي مكان حتى الآن . ذهبت إلى باريس فما عبّدت أن
تلقيت من الرأي الجديد أن انحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق
الذاريات . فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على
احكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شبيبتي ... وطرحت في كف الخطوب عناني ﴾

وأنا اليوم فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون . وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الأمل
ان لي في حميتك رجاء عرفه المخلصون ، وهم لتحققه منتظرون . فادع الى
سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . فان فناء في الحق لهو عين البقاء ، وإن
نعيما في الباطل لهو الشقاء . فاستكثر من الاخوان ، ونقهم من الخوان ، واثبت
بهم على أصول الشريعة ، وارجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم ،
وليكن القول من مولاي الصادق تأسيساً لا تدريساً ، ولا تكونن كلمة الا وغايتها
عقد يبرم ، ورباط يحكم . أستغفر الله أن أنبه يقظان ، أو أهدي البيان لمعدن
العرفان ، ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي ، وخطاب قلبي لقلبي ، ومنّ عليّ
بأنبائك ، وما يكون من آثارك . ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك ،
فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك ، لتثبت في صحائفي ، ذخيرة لي وللخلائف .
واذا رأيت ... فنبئه أن قوّة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في
الشمال ، وأن نيران القلوب أذابت مدافع الكروب . وما النصر الا من عند الله ،
يؤتيه الصادقين ، ويوليه المخلصين (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)
أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل ، فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ،
ولكن (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)
السيد يهديكم السلام ، وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض مذهب
الطبيعيين ، وعند تمامها أبعث اليك بها ، فان حسن لديك طبعها في حاضرتكم

فذلك لكم ، والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم ، وسلامي على روحكم الزكية ، وعلى كل نفس صادقة ، ورجائي سرعة الاجابة والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٧

تهيبي من جلالك، يمنعني الدنوّ من كمالك ، وكل ماعددت من فضائلك ، فهو دون الحقيقة من حالك ، وغاية ماأعددت لك من نفسي مقامالم يحله سواك ، ومنزلة لم يسم اليها غيرك ، وما أنا بالمختار في ذلك ، وانما فضلك أنزلك حيث شئت ، وصرفني فيما اخترت ، لا أذكرك بما اقترفنا عليه ، ووجهنا وجوهنا اليه . فذلك الدين وما اقترض ، والحق وما اقترض ، (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم) إن الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ، ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة ، وأجدر بك من التهمة ، وإن كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك ، وتتلى فيها آيات ذكرك . وإن هذا الداعي والمخلصين في السير على طريقك يؤملون ورود الخبر من جانبك . وأرجو أن يكون فيما تكتب إليّ شيء من حال الشيخ . . . والشيخ . . . ومن وصل اليه سعيك ، وكتبي سرّ لديك ، وسيدي الاستاذ حيث تركته يهديك أزكى السلام ، والله يحفظكم برعايته

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ماقترحب" أثارته صنائعك ، ولا خمد شوق هاجه ذكرى شمائلك ، ولكن تعس زمان شغل يدي ، وأخذ بأصغري وأكبري ، حتى أبطأ بي عن مواصلتك ، وقصر بي عن مراسلتك . هذه مدة من فراقك نهبتها الأسفار ، وغالتها مقارفة الأخطار ، حوّلتني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق ، حيث يقصد احكام العروة ، وتأييد القوّة بالقوة ، ولي في ذكر حضرة الوالد

شان ، وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان ، وسيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام ، وأنا في انتظار لنبأ منك عن صحتك وصحة السادات أشقائك ، والوسيلة واصلة اليك إن شاء الله ، وسلامي عليك وعلى سيدي ...... وسيدي الشريف ومن تودون ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

لله ما أودعت نفسي من الودّ لك ، وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ، ذلك أثر من كمال روحك ، وجمال صفاتك ، زادك الله قربا اليه ، وتعويلا عليه. لم أكاتبك من يوم فراقك ، لأن المدة تقضت في سفر وانتقال ، وهذه أول فرصة سنحت لأداء حق المودَّة ، وفريضة الاخوَّة . ورجائي أنه لايزايل فكرك ماتفارقنا عليه ، وسبق الكلام فيه مراراً ، وأن يرد لي من سيادتك مايبشرني بسلامة حالك ، ومجمل الحاصل من سعيك ، قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين ، وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان شاء الله ، حوَّلتني الحوادث من الغرب الى الشرق ، لتكون المواجهة أشد أثراً من المكاتبة ، وهذا ماعاقني عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الأيام ، ولكن الحمد لله على وحدة القصد ، وسلامة الغاية ، والله يسمعني عنك أفضل ما أحب لك ، والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب رقم (٢) من الكتب السابقة جوابا

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وبه الحول والقوَّة

السلام عليكم ، تحية أخ يهزه الشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك ، فشممت منه ريح الحمية ، والنعرة الدينية . وأرجو أن تصل بك بدايتك إلى ما يختار الله لك من حسن النهاية ، ولم يكن ظني في همتك ، دون ماتبينت من عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحركة ميلك للأخذ بيده ، وتقويم أوده . فانما هو الدين المتين الذي أطلق العقل من قيده ،

وأخذ على الوهم في كيده ، وهزّ النفوس إلى نيـل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء ، وذلت لسلطانه الأقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لأهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا بصرف همومنا اليه ، وتعويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا، الا ما نبذله في تأييد ديننا ،ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى مايشخصك القرآن اليه ، واحمل بنفسك على مايحمل عليـه ، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفاً عنـد الصحيح المعقول ، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبذول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ماتعلم من درجة قربهم إلى الله ، وغفرانه لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر . واجعل عيشك للآخرة، واستعد لما وعد الله، فان سعادة أبدية، لاتنال إلا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك ، إن صرفتها لاعزاز دينك كانت لك ، وإلا كانت عليك، وأرجو أن يكون كل سعيك خيراً ، يجعله الله نوراً يسعى بين يديك ان شاء الله .

أما ماذكرت من مسألة الشيخ الصغير فبودي لو توجه إلى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ماذكرت ، ومن علو المنزلة على مابينت ، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل اليه ابتداء من طريق لايعرفه ، وتلطف له في القول ، وإن شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى ، فاذا انتهيت به إلى مايعرف ، وآنست منه الميل والرضاء ، فاما أن يكتب إليّ ، وإما أن يستعـدّ لتلقي كتاب مني ، ثم سراع إليّ بالخبر ، ثم نبئني عن الشيخ ... واسأله أن يكتب إليّ بالعنوان الذي به تصل اليه كتبي ، فانني قد أذنت أن أبعث اليه ببعض المواد الأصولية، التي يجب اعتبارها أساساً للبناء ، كما

اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر، ليتحد المسير، وإلى الله المصير، ثم أنني الآن في بيروت وأقيم بها زمناً، فاذا كتبت فليكن العنوان ... ولا حاجة لما يزيد عن ذلك، فانه يصل إلي بمجرد هذا العنوان، وبادر للكتابة والسلام

١٥ ذي الحجة — سنة١٣٠٢

١١

(وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جوابا)

لا إله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم، وعين الله ناظرة اليكم، وبعد فقد وصلني اليوم كتابك يحمد منك اخلاصاً طويته، واختصاصاً بالله حويته، ويشكر منك استعداداً لمالأة الله على أمره، ومظاهرة لاقامة الحق ونصره، ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول، وما رزقك من الطول، ونزوعك لشكرك إياه على ما آتاك بالعمل فيه لآخرتك ودنياك، ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنـة» : الآية : ولا بقوله «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا، إلا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعـملون» ولن يعجز مؤمن وإن ضعف حاله وقل ماله أن يأتي واحدة مما ذكر الله، فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم، وتهذيب عقولهم، وردهم إلى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم، وتنبيههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة، وعدها أفضـل ذخائر السعادة، وإن لله يدا عندك بما آتاك، ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك: ان أمنت ذلك لنفسك، إلا أن تؤدي حق الله فيها، ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفا لاعزاز دينه وإعلاء كلمته، والجهاد للحق حتى يظهر، وفي الباطل حتى يدحر، فأوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله أمامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له، فلم يكلفهم الله دوننا، ولم يسامحنا

دونهم ، وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في فريضة فرضها ، أو سنة سنها ، وإياك وتعلات النفوس وأهاويل الأوهام ، فانها من مضلات العقول، ومداحض الهلكة ، وجند الشيطان ، وليس بينك وبين الحق إلا أن تهم وتخلص لله همك ، فتكون يد الله على يدك ، يؤيدك ويأخذ للحق بك ، والله لايعين خاذله ، ولا يضيع عملا أخلص له .

ألا أيها الشيخ الجليل ! إن الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض، لقيامها على قواعد الاتعاب، وقوائم الأوصاب، بدايتها ضعف، ونهايتها عجز ، وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر، مافات من لذاتها يولد الأسف على فواته ، وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه ، واللهف الدائم على تحصيل مايؤمل منها ، فليس فيها حال تخلو من آلام ، وقد وعدنا ديناً حقاً أن يعوضنا عنها سعادة أبدية في حياة أبدية لايشوب لذتها ألم ، ولا يمازج صفوها كدر ، وذلك عند ماتسلم له السلعة تامة في نهاية الأجل ، فان لم نقبل بيعة الله في ذلك كنا المغبونين ، وإن لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين ، حياتنا ذاهبة إلى الفناء رغماً عنا ، وليس لنا من امكان للخلود فيها ، فانظر إلى رحمة الله في شرائها منا، وأجزال العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا، وفي سعتنا أن نستبد به عليه ، ونمنعه مراده منه ، جلت عظمته ، ووسعت رحمته ، ألا فلنتق الله ولا نبخل عليه بما هو له ، ولا نغر باملائه لنا ومطاولتنا عليه . فشمر عن ساقك ، واحسر عن ذراعك ، واذهب إلى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين ، وتأليبهم على تلبية داعي الايمان ، والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال .

أما حادثة الشيخ فقد مسنا منها مامسه ، ولم يكن ماوجدنا منه أقل ماوجده ولم يغب عنا شيء من أطرافها، وقد جهدنا فيها مااستطعنا ، وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريز في المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على مافعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك، ولقد تنازعني في هذه الحادثة مسرة وحزن أما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاختبار الالهي ماتلقوه

لينال من رضاء الله اذا احتسب ما نالوه ، وأما الحزن فلماعسي أن يكون قد خالط قلب من ألم المحنة والأسف على المصيبة، والحمد لله على رجعة من غيبة، واسأله وقايتكم جميعاً من كيد الغادرين ، وعدوان الظالمين ، وأن ينزع بخواطركم اليـه ، ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هـذا فنبئني عن العنوان الذي به أكتب اليك ، وأخبر الشيخ أن يكتب لي بعنوانه ، فقد أذنت بأن أبعث اليه ببعض القواعد التي ينبغي أن يرفع البناء عليها ، واذا كتبتم إليَّ فليكن بعنوان ... وعجـل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب إلى ش.ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله إلا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد إليَّ كتابكم والحمد لله على صحتكم ، وكنت أود المبادرة باجابتكم من يوم وروده، لولا أن رقيمكم صادفني على علة في عيني، كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ، ولله الحمد على ما خف منها . اشتد أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله له من رحمته ، ونفعنا بطيب نيته. أسفاً على فقد حميٍّ لدينه، مخلص في يقينه، وإن كان لا أسف على من يلاقي ربه بمثـل ما لاقى الشيخ ، انتهت دنياه بغضب الشيطان ، وافتتحت أخراه برضى الرحمن ، ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون ، لضاقت بنا منازل الحياة ، وغصصنا باهنأ لذاتها ، وشرقنا باعذب كؤوسها . أما ما ذكرت عن الشيخ الصغير فقـد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك، في تعليق الأمر بك على أنه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما اخطأت الظن فيما كلفتك ، ولم أستسمن ذاورم ، بل على الملي. به سقطت ، وإن ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر ، وأخبرني عن اسم الشيخ المشهور به ، واسم بلده ، والقطر الذي تغلب إقامته فيه ، واكتب ذلك بالحرف الفرنساوي الواضح ، وأستعين الله في مخابرته بنفسي بأسلة قلم أو لسان رسول ، ولا تبطئوا عليَّ في الافادة، والسلام عليك وعلى اخوانك الابرار، والله يتولى اعانتكم والسلام ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣٠٣

١٣

وكتب إلى س . س صاحب الكتاب (رقم ٦)

لا إلـه إلا الله وحده لاشريك له ، وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون* وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)

كتبتم إلي بأنكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا ، والأخذ بما يرضي إلهنا ، ويقر عين نبينا ، ثم حدثت بعد ذلك الأحداث ، وتلك سنة الله في الأولين والآخرين عند بداية كل عمل صالح مقبول لديه ، محفوف بالعناية منه ، ولم يمنعني حدوث ماحدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ، ثقة مني بهمتك ، وصدق عزيمتك ، فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وإرسال بعض القواعد التي يبتدأ بها العمل . واليوم أبعث بها اليكم ، وأملي أن تكون في حرز الصيانة ، وأن تكون مرجع الأعمال ان شاء الله ، فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور ، وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيتم اليه ، وفصلوا أسماء من معكم وألقابهم ومواضع اقامتهم وسموا لنا رئيسكم . وكتمان السر أول وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم ـ رسالة الرد على الدهريين أشرفت على نهايتها من الترجمة . وستطبع في بيروت ان شاء الله ومتى تمت ارسلنا اليكم منها

١٤

وكتب الى (ش) صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخاطبك بالأخ الصالح أو بالابن البار ، ولكني أعلم انك مؤمن بلادك ، هيأك الله لرشادك ، تلقيت بيميني يمينك ، وضممت إلى يقيني يقينك ، بارك الله في عزيمتك ، وحاطك باليمن في نيتك ، ولقد أتيت في عملك

هذا سنة المؤمنين من قبلك ، سارعت إلى مغفرة من ربك . ممتثلا أمر كتابك المنزل على نبيك ، وسابقت إلى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ، ولكني أرى رأيك في استبقائه ، والارجاء باليأس منه ، فلعل بارقة من العناية الالهية تنزع به الى ماهو خير له ان شاء الله

(ومنه) والله انا لنتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضالة ، لعلنا نصيب من قلب حكمة ، أو نستفيد من عقل بصيرة ، وانا لنتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه والآخذين بسنته ألحقنا الله بهم . فما باله يرحمه الله يضن بما يراه ان كان للحق طالبا ، ولكن لاتحزن ان الله معنا (ولاتيأسوا من روح الله ، انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرون)

ان أخلد مغرور الى حضيض الجبن فانما رضي لنفسه درك العدم ، وانحدر عن أدنى درجات الوجود ، ولم يزد في حاله أن يكون كأشباه جبناء ، يفوقون عدد الحصباء ، عاشوا في أغلفة من الخمول لا يهتدي اليهم الذاكر ، ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر ، هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من المقت الالهي الكامن في قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم) واني لأشح بمثله عن هذه المنزلة هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نحبه فلم تذكر ناسيا ، ولم تنبه لاهيا ، زاد بذلك أسفي ، واشتد على مثله لهفي ، وهمل دمعي ، وغشي على بصري وسمعي ، أمطره الله غيوث الرحمة ، وتوفانا على مثل نيته ، فذلك كان من الصابرين (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قم على مذهبك (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وذكر بآيات الله ، فلأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم .

١٥

وكتب اليه أيضا هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية الاصلاحية ، بل من أبلغ ما قال أو كتب أئمة الدين، وعرفاء الصديقين، من المواعظ والنذر، والآيات والعبر ، التي تنير البصائر، وتطهر السرائر، وتزيل بين المؤمن والكافر ، وتفرق بين البر والفاجر ، فهي ميزان الايمان ، ومسبار العرفان ،

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة

سرني ما نقل الي كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه بقوله(قل سيروا في الارض) وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه ، ولقدحمدت الله أنك لم تجعل سيرك سير الغافلين ، ولم تمر على ما لاقاك مرور الذاهلين ، بل استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس، لتعلم ماذا أبقت الحوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق، والميل للرجوع اليه ، وما أظنه ذهب عليك أيام كنت تقلب عين اعتبارك في أطوار أولئك المحجوبين ، ان ماهم فيه لا تختلف عن عواقب المكذبين ، الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة أمرهم ، وما أحل الله بدارهم من بوار ، وما ألحق بعمرانهم من دمار ، وما ألصق بذكرهم من عار وشنار، وكيف يختلف الخال عن الحال ، وانما التكذيب أثر غين يغشي عين القلب ، فيواري عنها وجه الحقيقة ، فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف تعلو وجه القمر ، فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان إنسانا فقد أظلم الانسان كله ، وذهبت قواه تخبط في أفاعيها على غير هدي ، وتعسر عليها أن تلزم طريق الحق والصراط المستقيم ، وهذه الحال كما تراها فيمن ينكر الحق بلسانه ، ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه . تراها بعينها في هؤلاء المخدوعين الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ، ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد الناس عن سننه وسُننه ، وأشدهم التواء على أمره ونهيه ، وقد علمت أن الله لم

ينظر إلى قوم يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، وإن اليهود لم ينفعهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء ، وبما جاؤا به من الوحي الالهي إيمانا يحا كي مايدعيه المسلمون في هذه الأوقات : كان اليهود يعرفون موسى نبياً لهم ، والتوراة وكتب الأنبياء هدايات من الله لعقولهم، كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ، ولكن الله نعى الينا أحوالهم في مزاعمهم فقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لايهدي القوم الظالمين) فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها إلى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت اليه تكذيباً بآيات الله ، وجعل نقضهم لما حملوا من أحكامها مروقا منها حيث قال (لم يحملوها) وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لأسفار، فهو في عناء من ثقلها، على بعد من فائدة ما أودع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن احوال المتحلين اسم الاسلام في هذه الايام ، وأنهم حُملوا القرآن ثم لم يحملوه ، إلى آخر الآية ؟ ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجمودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لايهدي القوم الظالمين » ؟ وأشدّ الظلم ظلم النفس ، بعدولها عن سنن الحق . ألا يصدق عليهم أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون؟ الا ينعى حالهم (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ؟ ألا يحكي جهلهم (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون) ؟ أي أنهم لايعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم ، فان طلبوا شيئاً من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظناً .

اني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصا في شهر رمضان، ثم يطفقون يلوكونه بألسنتهم ،ويزعمون انهم يتقربون الى الله بترنمهم ، ويصعدون إلى منازل القرب عنده بنغماتهم ورنين أصواتهم ، ويجعلون كل همهم في هز رءوسهم، والتوفيق بين الهزات، وتموج النغمات وماشاكل ذلك من لواحق الصور والهيئات، مما قد يعجب له عرفاء الدين، ويستغرب حدوثه في المسلمين أهل اليقين لبعد النسبة بينه وبين دينهم ، والمنافرة الثابتة بينه وبين مقتضى

ايمانهم، حتى اذا انصرف أولئك القارئون، والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا، أو عظة مما سمعوا، لم يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا، بل رجع كل منهم الى هواه، وأوى الى قعيدة نواه، وما كان قد انصرف عن وساوسه، ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه، الا في ظاهر ما يرى للناظر. واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ماقرأه التجأ الى الجهل، أو خبط في مضلة من الوهم، واذا قيس عمله الى أحكام مايقرأه، وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر، فبالله الا ما اجبتني هل تجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله (ومنهم أميون) الخ ؟ الا تجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل، متعذر الذرائع ؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بمثلها ووضعتها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءاً على أحوال أولئك الضالين ؟

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره، وفتنة له يضل بها عما أقام الحق من أعلامه، فاذا قيل ان الاسلام خير الأديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوا فضربهم بأنواع من عذابه في الدنيا، واستبقى لهم مالا نهاية له من الشقاء في الآخرة، ظهر فيهم بصور مختلفة، ثم جاء في أكمل صورة ببعثة خاتم الأنبياء، مستتما لنوره، مكملا لأمره، لتقوم به الحجة، وتتضح به المحجة، وأصحب هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس، وأنفى للشك من ضوء البدر لظلام الليل - رأيت علة واحدة تهدم كل مابنى من الأدلة وهي: لو كان الاسلام دينا صحيحا ماوجدنا أهله المستمسكين به (في زعمهم) على مانرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول، هكذا أيها الحبيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله ينبهنا على ماصرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) وماكان تعليمه الدعاء الا لنتوسل بالعمل الى مانطلب منه، ثم ندعوه المعونة على مانقصد من موافقة رضاه. فلو فقه المسلم لا بتعد جهده عما يجعله فتنة للكافر، وجعل ورده ليله ونهاره (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين

كفروا) ولكان همه في أن يكون بكماله قذى في عين أعدائه ، لا أن يكون حقيراً في أعينهم ،ضحكة لهم في محافلهم .

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة أن قسيسا انكليزيا[1] هداه البحث الى شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يبث ماعلم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكلترا ، الا انه يصعب عليه أن يعلن اسلامه ، ويصرح بحقيقة إيمانه لأنه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لا يخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها ، وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا ، وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ، ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره ، وله معارضون كثيرون من الانكليز وغيرهم ، واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لا تجد في مقدماتها الا مايكون راجعاً الى ماعليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والافكار ، وكلما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين ، رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ، ويعولون عليها في أعمالهم ، وهي مقصية لهم عن الكمال ، ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال ، فكلما ردهم الى الله ورسوله ردوه الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم ، وهم عاره ، وبهم يهدم مناره ، وتخفي آثاره ، لو بقي في أيديهم أمره ، غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا على أنفسهم ، وانقلبوا فتنة لغيرهم ، ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - وان تتولوا يستبدل قوما غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) فهنيئا لمن أعد نفسه ، وسبق تعسه ، فشحذ همته ، وطهر نيته ، وقوَّم ارادته واستجمع عزيمته ، للقاء ركب الله الذي سيفد عليه ، فيكون اما راجلا في مشاته ، أو فارساً من كماته ، أو خادما في حاجاته ، أو سيدا في رياساته ، ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه ، وحاشا كتاب الله أن يشهد الا لمن لبى دعوته ، وقبل شهادته ، ونصبه اماما في محراب الوجود يتبعه بصره ، ويحذوه في سيره ، يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم ماعظم ويحقر ماحقر ويطلق

(١) هو اسحق طيلر الذي سيأتي في هذا الفصل بعض مكتوبات الاستاذ له

ماأطلق ويقيد ماقيد ، ثم أقام له من زواجره خطيباً على قلبه ، وواعظاً يصدع بأمر ربه،على منبر لبه ،يعلمه اذا جهل ،ويوقظه اذا غفل ،ويذكره اذاذهل ،ويحثه اذا كسل،ويسرع به اذا أبطأ ،وينهضه اذ تلكأ ،ويستلفته الى الصواب اذا أخطأ ، يهديه اذا تحير ،ولا يعدو به الخير اذا تخير ،يرد جماحه اذا جمح ،ويكف من غربه اذا طمح،حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلي، و كيف يستعمر القرآن قلبا تشغله الاهواء الباطلة؟ وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لايجاور الا طاهرا ،وقويم يأبي أن يساكن جائرا ،زكي لايأنس للأرجاس علي يأنف من مقاربة الادناس .فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركها وشياطين الوساوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

ياعجبا لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمراً لو جاءه من أصغر الحكام عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة ، ولا اطمأنت به نفس ، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بمترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والا راجع ثانيا وثالثا طلباً لدقائق المعاني لا يفوته شيء مما حواه امر آمره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكلما عظم مكان الآمر اشتد الحرص على استجلاء مراده ، خشية الوقوع في حداده ،أو ما يبعث الظن الى التحرش بعناده ،وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه، ويخفضه ولا يرفعه، كل ذلك للبعد عن مساخطه والارتياح الى مراضيه—هذا وهو يزعم الاعتقاد بان القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان إرداته . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال ،رب الارباب ومخضع الرقاب،قهار السموات والارض ، الذي لاترد مشيئته ، ولا تخالف إرادته،

الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة،ويستفيض من ديم النعمة،ويقيم به على السعادة أعلاما ، ويضع لاجتناء ثمر الكرامة أحكاما ، ويعد المستجيبين لأمره هذا —وهو القادر على كل شيء— أن يمكن لهم في الأرض ، ويخدمهم أهلها ، ويجعلهم الأعلين فيها ، وأن تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله ، وأن لا يبيد سلطانهم ، ماثبت إيمانهم ، ولم يَشُبْهُ كفرانهم ، كماقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وليس في المواعيد السماوية أصرح مما وعد الله في كتابه المبين ، ولا أقطع للشبهة منه . ثم زادهم على ذلك نعيما أبديا ، وأوعدهم في المخالفة خزيا دنيويا ، وشقاء سرمديا ، والذين يكفرون ، وسجل عليهم أنهم الفاسقون ، هم الذين تبطرهم النعم فتستنزلهم عن مقامات الشكر . ثم تنتابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ، ومن فسق عن أمره ، أحلّ به غضبه ، وأنفذ فيه عامل انتقامه ، وسلبه ملابس إنعامه ، اما بشقي مثله ، أو وليّ من أهله . ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة ، وأخلده فيها مهانا ، إلا أن يتوب فيغفر له ما قد سلف . ويعلم المخدوع أن صاحب هذا الأمر العليّ مطلع على السرائر ، بادية لعلمه صفحات الضمائر . ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ، ولا يتبع اعلامه، وينبذه وراء ظهره، كأن لا علم له بنهيه وأمره ، ويمني نفسه أن ينال ما ادّخر الله لأوليائه إذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة ، شهوة تحول دونها أعماله ، وأحلاماً تنافي صدقها أحواله . وما أعجب حال من يزعم الايمان بالله ولا تفني أهواؤه في إرادته ، ولا تضمحل نشزات طبعه لمهابته ، ولا تتضاءل عزائم نفسه لعظمته ، ولا يجعل القسم الأعظم من حياته للسعي في مرضاته ، ولا يبذل من نفسه وماله ما لا يخسره في مآله

حدثتني عن اليائسين من علية (ق) [١] — وأشباههم فهؤلاء لم ييأسوا من الله، حتى ساء به ظنهم ، وما ساء ظنهم حتى انتقض ايمانهم ، فحالهم حال القائلين (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ورويت لي عن أهل النفرة سكنة (س) [١] فهؤلاء بقيت فيهم بقية لا بدّ أن يؤيدوها بالعمل ، ولا مكمل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله، ولن يرجعوا اليه حتى يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله ، يهزون به هممهم، ويلمون به شعثهم ، ويشهدون الله أنهم نصروه في الأحوال والأعمال ، فينصرهم في مواطن الجلاد ومواقع الجدال

(١) اقتطعت القاف والسين من اسم بلدين من قطر المخاطب. (جامع الكتاب)

إن كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته فخذ العهد عليه ، وسق اليه ببعض كتابي هذا أو بكله إن رأيت ذلك ملائما لحاله ، والا فزدني فيه بصيرة فأكتب اليه بما يلهمه الله

وافني بكتبك بما أمكن من السرعة ، ولا تبطىء عليّ بعد الآن والسلام

(يقول جامع الكتاب) أجدر بهذا الكتاب أن يسمى ميزان الايمان . وتجعل نصائحه عنوان الاسلام وان يكون تدبره المرقاة إلى مقام الاحسان والله المستعان

١٦

وكتب اليه أيضاً

لا إله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوّة

أيها الأخ الصادق أيده الله

طال عهدنا بك ، لم نر منك كتابا ، ولم نتلقَّ عن لسان اخلاصك خطابا ، وإبطاؤك عنا ، مما يقلق الخواطر منا ، لاخوفا على ايمانك ، ولا ريبة في درجة إحسانك (نعوذ بالله) ولكن خشية أن يكون عرض لك من العوارض الجسدانية، أو خالطك في الأحوال المعاشية ، ماقبض من يدك ، أو فت في عضدك (حماك الله) فرجاؤنا أن لاتفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها ، فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتك قيمة علية في نفوسنا ، فقد لايخفاك أنكم في مكان مخافة ، ومحل مضيعة ، تضطرب عليكم منه القلوب ، وتذهب وراءكم فيه النفوس ، وأن صادقا مثلك لجدير أن يحرص عليه ، وأن تعنى الأرواح بالتطواف حواليه

كان لكتابك المفصل وقع جميل ، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر الجزيل ، فليكن العمل على ذلك المذهب ، حتى يصفو المشرب ، ويتضح المطلب، ان شاء الله . أما وصيتي اليك فأقتصر منها اليوم على ماأوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه ، اذ قال له « أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ، ورحمة

اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل (في الدنيا) وقصد العمل، ولزوم الايمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وإياك إن تسب حليما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، أو تعصي إماماً عادلا، أو تفسد أرضاً. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر. وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية» اه

هذا جماع من مكارم الأخلاق يعم مانحن فيه وما وراءه، والخير في جمعه. فالدين بناء وهذه اعراقه، ولا يتم أعلاه حتى يتم أدناه. ثم لاتنس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن. فقد أبقى الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والأبصار. ثم حددها في كتابه، وهذبها في محكم خطابه، تعليما لأمته، وإرشاداً لتبعة ملته. فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق بأخلاقه، والتماس خلاقه، واقتفاء أعلاقه. هذا صلاحنا، وهو سلاحنا (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، ويعلن سره. وإياك والملل فالخطب جلل، وقضاء الله أجل. ومع هذا كتاب من الأمير أوصله الى صاحبه حسب رأيك. والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان ٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين. م. ت

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم)

الحمد لله وبه الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام

على سر العناية ، وحقيقة كنه الولاية ، وآله حماة الدين، وأصحابه الهداة الراشدين
أما بعد فان من نعم الله عليّ ، ولطف احسانه اليّ ، ما أودعه في فطرتي ، من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا أزال لهم طالباً ، وفي الصلة بهم راغباً ، خصوصاً من تجمعني بهم وحدة التربة ، وتضمني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت الي شهرة عرفانكم ، وما رفع الله في مقامات القرب من مكانكم ، فألهمت أن أفتتح اليكم باب التعارف ، وشنشنة المؤمنين التراحم والتعاطف . قال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » وأما الاخوة التي عقدها الله بين المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من الغافلين ، الا أنها لم تزل والحمد لله تلحظها بصائر العارفين ، وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين . فانما الاخوة مظهر سر المحبة ، والمحبة تجلي سر الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين الى حضرته القدسية — هذا الى ماناط الله بها من قوّة التعاون . قال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحا ، ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه » وكما يكون التعاون والأماكن دانية ، يكون والأقطار نائية ، وخير المعونة ماعاد على الأرواح بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم تستفيده أو نصح تستجيده . أو صلة بين متحابين تأنس اليها ووحدة بين متواصلين تعوّل عليها . وأرجو أن يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء الله . فسركم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة مأمول . واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب . . . . والله ينفعنا بالتواد ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليك وعلى من يرتبط بعهدك ورحمة الله

١٨

(وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه أنه فهم من قسم الجمعية (١) أنها تدعو الى مذهب الظاهرية)

لا إله الا الله وحده لاشريك له وبيده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل (م . ش . ف) وقد آسفني والله يعلم مابلغ الأسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم إلا أن ذلك مصير لابدّ من الانتهاء اليه ، وإن عظم الاسف عليه ، وفيما عندالله سلوة الابرار . أما ماذكرت في كتابك من اسم الظاهرية ، فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليـه ، فان المذكور في القسم تحكيم كتاب الله في الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل [٢] ومن الظاهر البين أن المراد من الاعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده ، وبيع النفس في مرضاته ، والسعي لاعزاز دينه ، والقيام بحفظ أوامره ونواهيه ، التي يكفر جاحدها ، ويفسق الحائد عنها ، ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق ، فكيف ذهب خاطر سيدي إلى العقائد أو أعمال الفروع ، وليعلم سيدي اننا سنيون أشعريون أو ماتريديون [٣] واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الأربعة ، فمنا المالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، والحنفي . وفي المعاملات على مذهب حاكم البلاد إن وافق واحداً منها ، فان كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا ، وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) وليمتاز المؤمنون بالكتاب عن الذين يزعمون الايمان به ، ولا يأخذون بشيء من أحكامه ، إلا صوراً من الاعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك

---

(١) يعني جمعية العروة الوثقى (٢) العبارة المرادة من القسم هنا هي « اقسم بالله العالم بالكلي والجزئي والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لا حكمن كتاب الله في اعمالي واخلاقي بلا تأويل ولا تعليل الخ (٣) كان اكثر أعضاء الجمعية من المالكية والشافعية وهم من الاشعرية ومن الحنفية وهم ماتريدية ، والاستاذ نفسه كان اشعريا صوفيا ، ثم صار بالتدريج سلفيا

قوم عرفناهم وعرفتموهم: يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذله، ولا يعملون لحمايته، ويتعللون باليأس، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله، ويسألون المعونة على مانهاهم عنه، ويركنون في ذلك إلى التأويل والتفسير، ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتهم يطيلون الأحزان، ويحشدون الاشجان، ولو عنّ لهم حطام من الدنيا رأيتهم يشدون المآزر، ويشمرون عن السواعد، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعلّ في بياني هذا كفاية، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بما تملك تلاوته، وأما ماذكرته في أمر المواد من أنها لاتوافق بلادكم فلم أعرف له سبباً، فانها مواد عمومية جرّب العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحا. فان كان ذلك كما ذكرتم فابعثوا بها إليّ في أول بوسطة، وأقسم عليك بالله الآخذ بناصيتي وناصيتكم الا تنقلوا لها صورة، ولا تنسخوا من موادها مادة، لأردّها من حيث جاءت، ثم ابعثوا إليّ بما تجدونه موافقاً لكم لنطلع عليه، فان رأيناه موافقاً سألنا لكم اقراره. والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

(وكتب الى بعض اعضاء الجمعية في بعض الاقطار الاسلامية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق العليم اللسان، وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لا يتبين منه علمكم بحاله، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس ويسعه من السيد لين جانبه، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده، فأقصيته من السيد، وباعدته عنه، وبعد أن كان يترجم لنا بعض الأخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعاذة

من خبث سريرته فتعوذوا منه تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه

أما قولكم في كتابكم اني كاتبت الشيخ بتوبيخ فقد راجعت له نسخة الكتاب التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الا عزيت الشيخ أولا ، ثم كشفت له عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني لصادق — انه ماكان يخطر ببالي توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه ، وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولا لوماً ولكن نبهت على ماأعلم وليس وراء ذلك غاية ، وفي الحق أني لو كنت اعلم أن العبارة توهم مااستفهم عنه ، لكنت وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه الى الاستفهام،هذا ماأردت ، ولعلّ تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم ولست منه في شيء . نعم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها وهذا مايوجبه عليّ عهدي الذي أنا فيه

وأما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فما له الحق فيه ، وهكذا أمر هذه الامة في جميع أقطارها ، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار،ومقاساة الاسرار،والاستخفاء بما أمر الله أن يعلن ويظهر ، غير أن القليل ممن يكون على الشرط كثير ، وقد صرحت تلك المباديء بان الرشـد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين بأمر الحق ،لتستعد النفوس ، وتتهيأ العقول . وليس في هذا حرج على المتعاطي، ولكن أهل العقد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لا بدّ أن يكونوا على الشروط المعروفة عند أصحاب الرابطة .فسلموا على الشيخ سلاماً طيباً، وأكدوا له انني لم أقصد في بياني السابق شيئاً مما أوهمته العبارة ، وأنني أعيذ نفسي من توجيه اللائمة على من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح ، وأعود الى تحذيركم من الجاسوس الجديد ،فلا يتسقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠
(وكتب الى (ش) وهو من أجل كتبه وأحاسن مواعظه)

لاإله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيمك على قلق من تباطىء أخبارك ، فقر خاطري بالاطمئنان على صحتك ، تأكد الثقة من خلوص ارادتك، وما كنت لأرتاب في عهدك بعدما أعطيت ميثاقي بيمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلا . لو عرض لي الشك في وفائك لكان غمزاً مني على ايمانك ، وأعوذ بالله أن أغمز على مؤمن وهو مخلص في ايمانه . أما حنوي عليك ، واحفائي السؤال عنك ، فهو مما توجبه عليّ صلتي بك والارتباط بميثاقك، بل ذلك أيسر الحقوق عندنا، وأوجبها في ذمتنا، وما أنا بالمتفضل في أدائه ، وما انا بمنجاة من اللوم ان قصرت في ايفائه ، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنّي الله لعصابته أن تظهر ، وأذن لها أن تسفر.

بعد هذا هل أنت على ماأوصيتك سابقاً من مداومة النظر في كتاب الله ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ماقبل ألف وثلاثمئة سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين ، وهو يتلو كتاب الله على خلص المؤمنين . فسمعت كما سمعوا . وفهمت على مثال مافهموا ، وزججت بروحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته ؟هل خرقت حجاب المحدثات ومزقت ستائر البدع ، وخالطت أهل النور ، وصافحت قوماً صدقوا ماعاهدوا الله عليه؟ إن لم تكن فعلت فاليك أن تفعل والوسائل متوافرة لديك ـ عقل وحسن يقين، وكتاب الله فيه تبيان كل شيء ، وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم * انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه ، فوالله اني لأرى المؤمن في جيش من يقينه ،وحصن من ثقته بربه ، يثبت بهما في المزالق ،ويدرأ بمنعتهما غائلات المهالك ،وانه لفرح به اذا حزن الناس ،ومبتهج فيه اذا اشتد البأس ، واستحكم

اليأس ، واني لأرى المنافق في مزعجات من وساوسه ، وموحشات من خسائسه

كريشة في مهب الريح ساقطة لا يستقر لها حال من القلق

وانه لسريع الهزيمة، قليل الغنيمة ، وما كنت لآتي في وصفه شيئا بعد ماقص الله عنه في كتابه ،و كتاب الله حي لا يموت، شاهد على الأحياء كما شهد على الاموات، وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات ، عن أشباههم من أهل هذه الاوقات ، فتوخَّ من نفسك ماأثنى الله عليه ، وتنح بها عما وجه اللائمة اليه، واياك والاعاليل ،وفاسد التأويل ،فانها حبائل الشيطان ، ومذهبة الايمان . نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي ، فأشرت اليك ان تبعث به الينا في بيروت ، ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد ، واني أعيذك من الضن بيسير مثله في سبيل ربك ، ترجو ثوابه ، وتكتفي حسابه ، وأبعدك عن مرامي النداء الالهي في خطاب قوم (ها أنتم أولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) ولكني ألتمس لك من نفسي أعذاراً تخيلها الثقة ، وتمثلها المحبة ، فلو علمت الحق فيما أبطأ بك، أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكث فانما ينكث على نفسه ، غرّته الحياة الدنيا ، وغرّه بالله الغرور ، فقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووادّ من حادّ الله ورسوله ، وباع نفساً شريفة بثمن بخس ، وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر ، والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من مأمنه ، ويزلزل من مسكنه ، ومن أعان ظالما سُلط عليه ، ومن يخذله الله فلا ناصر له ، ولئن أمهل أياما فوالله ما أهمل ، ولقد كان خيراً له لو ابتعد ولم

يعد ، وباعد قبل أن يعاهد ، ولكنه أقبل ثم ولى ، وأمسك ثم خلى ، فلصق به عار النادرين ، وحقت عليه جريمة الناكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لو سالم القوم بظاهره ، وبقي مع الله بباطنه ، فأخذ حظا من دنياه ، وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والأرض ؟ أم أنهم أنفذ إلى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة ، فأعطى للقوم قلبه ، وجعل لله سلبه

لمحت من آخر كتابك بروق الأمل من جمعية أهلك هيأ الله لهم الخير فيما ولوا وجوههم شطره

ان لنا صلة تامة بآل البيت الذي أشرت اليه . وأحكم الصلة بيننا وبين أرشدهم رأيا . وأسماهم همة . وأقومهم هديا صاحب عهد أبيه ... وهو الذي تفرد بينهم بالثبات على عهود دينه بعد انتقال أبيه الى الدار الآخرة . وأبى الخضوع لشريعة المتغلبين عليه . الزاعمين القيام بحمايته . وقد قامت بينه وبينهم مخاصمات شديدة كانت نهايتها قطع العلاقة بهم . ووصل الحبل بينه وبين الدولة العثمانية أيدها الله . فأحنت الدولة عليه . وانعطفت اليه . وعدته في مقدمة الرجال الصادقين . ولم ينضم اليه إلا اثنان من اخوته . والتصق الباقون باعداء دينهم . رغبة في حطام يسوقونه اليهم من فضلات مالهم . فليس في أحدهم أمل . ولا يليق أن يناط بواحد منهم عمل . إلا ذلك الشهم الذي نظر ماأعده الله في غيبه فلم يبع يقينه بريبه . وقد كان له فكر يسمو إلى ما أشرت اليه . وهو على مرقب الحوادث يرصد الفرص للعمل فيها بما يرشد اليه الدين . وتبعث عليه الحمية له

وأما صلته مع مشايخ الطرق والزوايا فكانت قاصرة على آل بيت السنوسي ولم يتوجه خاطره إلى ابن التيجاني . وقد شكرنا لك التنبيه عليه ، وتوجيه الفكر اليه الخ

٢١

(وكتب عن السيد المشار اليه في آخر الكتاب السابق الى الشيخ (م. ت) يجذبه إلى الاصلاح الديني المؤسس على تحكيم الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح في الاعمال والاخلاق ــ الكتاب التالي) ثم كتب اليه باسم الكتاب رقم ٢١٧ الذي تقدم في ص)

مولانا مهبط أنوار العرفان . وحجةالله على أهل الزمان . السيد الشيخ .... حماه الله . وأيد به أهل تقواه

أحمد الله على ماألهمني في مخاطبتكم . ووفقني للمبادرة الى مكاتبتكم . وهي أحق نعمة بحمد . وأولاها بتقديم شكر . فلم يبق في الزمان لأهل هذا الدين إلا عمل يتزوّدونه . أو عرفان بالله بالمعاونة يستزيدونه . وقدكنت بعثت إلى مقامكم الطاهر بكتاب قبل هـذا رجوت أن يكون وصول جوابه إليّ على إثر اطلاع سيادتكم عليه . لعلمي أن الاخلاص كان يرجى من سطوره . وسرّ المحبة يجلل أحرفه بنوره . وما بعث على خطبـة مردتكم إلا طلب الفوائد من ارشادكم . والرغبة في الاستعانة بمعارفكم، لتعود علينا بركة (وتعاونوا على البر والتقوى) ويحفنا لطف (واعتصموا بحبل الله جميعاً) فيزداد للهشكرنا على الألفة،ويزداد احسانه الينا في نعمة المحبة .

وما كنت لأذكر السيد الجليل بان هذه حال المؤمنين الموصوفة على لسان سيد المرسلين يعلم عالمهم جاهلهم ويذكر عارفهم غافلهم ولا حدّ ينتهي اليه العلم، ولا موقف يقف دونه الرشاد، فعباد الله في كل لحظة يتوسلون الى مرضاته بعلم يستفيدونه، أو عرفان الى القلوب المفتقرة يسوقونه، أو عمل من أعمال الخير يسترشدونه . وقوام كل ذلك المعاونة ، وحياته روح المعاضدة والمساعدة ، والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه .

وليس بخاف على السيد الكريم أننا في بلاد أقفرت من العلماء،وأمحلت من

الصلحاء ، فنحن على بعد الدار . وتنائي المزار . نتوجه اليكم بالخطاب لعلنا نشفى بموافاة الحق صدراً . ونزكي بمجاذبة أحاديث العرفان سراً . واني أعلم أن سيادتكم أجلّ من أن تأبى إجابة طالب رشاد . أو تقصر عن امداد لمبتغي سداد . فشأنكم عندنا بما سمعنا أرفع من أن يتوهم فيه مثل ذلك . لهذا عوّلت في سبب تأخير الاجابة على عدم وصول كتابي الى جنابكم . وان شاء الله أنال بهذه الاسطر ماطلبت . وأحقق ماأملت . والسلام .

٢٢

وكتب إلى أحد أمراء المسلمين في بعض الأقطار ، عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الخطير سعادتلو أفندم حضرتلري

السلام على نفسك الزاكية ، وهمتك العالية ، وأفكارك السامية ، انني عهدت فيك مالا أتوسمه في سواك ، لهذا وجهت اليك روحي في هذه الأسطر تندب همتك ، لماهو من أحكام ذمتك ، لا أنبئك بما فرض الدين ففي علمك به أصدق الأنباء ، ولا أنبهك لماغفلت عنه عين سواك فاني أجلّ نظرك عن الإغفاء ، ولا أعرفك بما أوجب الوطن في صراحة نسبك ، وعلو حسبك ، مايلهمك الاحاطة بحقوقه ، ولا أذكرك بمانسي غيرك ففي شهامتك أنفع الذكرى

ساق اليقين جماعة من المسلمين إلى السعي في خير هذه الملة المغلوبة ، واعتصموا بالله ، وليس على الله بعزيز أن ينجح سعيهم ، يسعون في إرجاع الوحدة الملية ، وتنبيه الحاسة الدينية ، ليمكن للملة أن تتقي الضيم وتخلص من الذل ، ولهم في هذا السعي طرق عديدة منها ماندبونا اليه وقد علمت خبره ولله الحمد على ظهور ثمرته في أقطار كثيرة ، أفلا ترى من الواجب أن يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم وتعضيدهم في سعيهم ؟ أنت تعلم أن الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج إلى التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عليه ، ولست أخشى أن أقول لك انك سيد القادرين على الامرين ، لا يخطر

على بالي أن يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه يأس ، كيف وأنت مؤمن، والمؤمن لاييأس ، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الاوربيين ووقفت على حقيقةلا يكابر فيها أحد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل ، فان لم يكن يقيننا بالله كافياً في حياة آمالنا انه يكفينا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقة وغاية ماعندهم انهم لايحقرون عملا ولا يقطعون أملا ولا يأخذ أحدهم رهبة في أداء مايوجبه عليه دينه أو وطنه

لا أتوهم خيبة في سعيي إلى همتك ، ولا تقصيراً منك في القيام بخدمة ملتك ، بعدما رأيت مانزل بها، واستطلعت ماسيطر أعليها ، والله لا يضيع أجر العاملين ، انني اليوم في لندرا ، دعيت اليها مراراً فتمنعت ، وبعد الالحاح أتيت والمأمول أن يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده مانالها ، يحاول الآن أن يعود اليها ، ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر ، وأحب أن أقف على رأيكم فيه ، فان جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخابرة تكون بالعنوان الآتي : الى باريس ومنها يصل الي . سيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام ، وسلامي عليكم وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٣

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندره مبينا محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزاً باقر ترجمة خطابته وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد المنار الرابع (ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق الناطق بالصدق ، حضرة القس المحترم اسحاق طيلر أيده الله في مقصده ، ووفاه المذخور من موعده

وصل الينا من خطابتك ماألقيته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلمع من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة

وتشيمه أعين للعقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعتـه السليمة ووقفت عليـه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل مابعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجمـل صورة يمكن ان يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بانظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم وبين المسلمون وصدقتهم النصيحة أن لايحنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولاتكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدتهم ان قبلوا نصحك باصابة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذاً بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وانا لنهنئك على هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك و نستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغفلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة فتنغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الالباب ليجدون في قولك مواقع للصواب وان هذا الامر الذي قمت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحداً فكل شيء مبـدوه الواحد ثم يكثر حتى لايحصر ، وان كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع ، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة وصحفا متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله فى ارضه ويظهر دينه الحق على الدن كله واني لاأشك فى أن لك الرغبة التامة فى نسر مذهبك هـذا وترويجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا فى ترجمة خطابك ونشره فى الجرائد العرية فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونسرها بين

أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك فى المشرب الصحيح لينشؤا مدارس فى البلاد المشرقية خصوصاً بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف فى النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتنمو بركته وتجزل ثمرته واني على عجزي مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب مابين الملتين بكل مايمكنني والسلام على من اتبع الهدى

٢٤

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب أرسله اليه وفيه يدعوه إلى الاسلام والى الدعوة اليه فى انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر

كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثه وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها أغصان متعددة لايضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها مايرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجذورها فهو فذلكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لأنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو إلى التوحيد المحض ، والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى مايفوت الحصر ، ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك ، ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق ، وتعدد الزوجات والرق وتظنون أنها أهم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع أن أمثال هذه المسائل لايعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ماتحبون من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الاسلام ، وللمسلمين فيما دوّن في كتبهم ماليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لامقام له في موضوع بحثنا وبحثكم

أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وأن محمداً رسول الله وان القرآن كلام الله ، فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا التصريح

من حضرتكم بقبول ذلك ، والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقية ، وأن يروا علامات التصديق في الاقوال والافعال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ماتظنه من المصاعب يذلل ، وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوماً مر أو يمر على الانكليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد ، إذ يصبح العالم خادماً لهم ، وجند الله الاعظم ناصرا لأهله منهم ، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد ، وإرضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامي على أتم الوجوه وأكملها . فهلم بنا ياعزيزي الى الاتفاق على الاصول ، ليتيسر لنا الوفاق على الفروع ، والاتحاد في الأب ، ليتسنى لنا الاتحاد في الابن ، فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ، ولا تؤتى المقدمات من نتائجها . وقد سرني كل السرور مابلغني من أنكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر ان شاء الله تجدون مايسركم اذا داومتم مكاتبته إن شاء الله ، والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جوابا عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال إن لفظ الرحيم في البسملة توكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن ألفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك ، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك ، ووفقني الله وإياك للعمل فيما يفيد الأمة ، التي نهكتها البدع ، وقتلها الزيغ عن الطريق المتبع ، واني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين ، بقية صالحة في نفوس مستعدة ، تنشد الحق وتتلمسه ، فاذا عثرت عليه ، حنت اليه ، أمدها الله بالسعي الدائب ، والغذاء الصالح ، حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها

في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشراك ، وغرور اليأس والأمل ، وجراثيم التواكل، ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه ثم بالصبر على ما يقول المقلدون ، ويهذي به المتكبرون ، ممن يلقبون بالعلماء وهم لايعلمون ، ففي مثلهم يقول الله: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب ، وتظهر في سرابيله هذه التماثيل التي ينحلها الناس ما ليس لها ، ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان ، وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ، ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وأما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لا أراه ، لأنه لاعلاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ، ولو ذكر جميع الالفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً فى نفي التعدد ، ولم يسبق في التاريخ أن أحداً ذهب الى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر ، حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد . ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد ، مع أنها واحد . فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان ، الاول ذات ، والآخران صفتان . فلفظ الجلالة هو الذات ، وهو يقابل الآب عندهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم ، وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات . والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الاقدس ، وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد ، وباعتبارها يصدر ويتجدد ، وهو يقابل روح القدس ، فانه عندهم الصلة بين الآب والابن، وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات . فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف

نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس ، وهو معنى الرحمة ، وافاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة ، والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ، ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامي اشارات الكتاب ، فأتوا من عند أنفسهم بما ليس من معناه في شيء

لا أجد وقتاً لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره . وأظن أن فيما كتبته كفاية لذكر مثلك وأرجو أن لاتنقطع عن مراسلتي والسلام

(أما مسئلة التأكيد) فالامر فيها سهل ، وتعلم أنني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظا من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حسابا ، ولا أزال أستعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته ، وأعرف موقعه من كلام غيري ، وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه ، وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ إن واللام ونحوهما

ثم من الالفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر ، فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم ، كل هذا لا أنكر شيئاً منه ، ولكني أنكر الذي يلجؤن اليه بدون بيان صحيح ، فيقال كلمة كذا توكيد ،بدون بيان وجه التوكيد ، أو لفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد — تعالى الكتاب عن ذلك — فالجلال والصبان قالا : ان الرحيم توكيد، لظنهما أن لا معنى في الرحيم سوى ما في الرحمن ، واني أنزه القرآن عما ظنا ، حتى لو قصد التوكيد ، فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن ، وانما غاير اللفظ للتحلية ، وهذا ما أبرىء القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري ، فقد صرح بأنه لايوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود ، وهو الذي عنيته

٢٥

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الأديب

وصل إليَّ رقيمك ، ان كنت لم أعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على أن في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك ، كثر الله من أمثالك ، ووفقك الى العمل بما تعلم ، والدعوة الى ماتفهم

لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر ، فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ، ونفي الاضطرار ، فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان في حكم من أحكام هذا الاختيار . ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً ، وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ، ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم ، تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي ، وليست مما يصل اليه من طريق الفكر ، فاذا كبح العقل جماح الوهم ، وقف عند حدّه ، وذاق حلاوة الايمان الصحيح ، والا وقع فيما لامخلص منه من الريب والشكوك

أما اختلاف الامم بل الاشخاص في الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر ، مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه في العقل ، ولكن ذلك لايرفع التبعة عمن كان خلافه الى باطل ، لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها فترى الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر . كتوارث الاخلاق السيئة . وليس الوارث مختاراً فيما يرث ، ولكنه ما دام شاعراً بفعله ، وأنه يريد أن يفعله ، فاختياره هو صاحب السلطة عليه ، وتبعته لازمة له ، ولو أنه طلب الأدب لتأدب . والكلام يطول في تفصيل ذلك ، ولكن يكفي أن العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول

العلم الالهي ، ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه ، وفي هبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك يكفيك ، ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسئلة خاصة ، ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

١٥ شعبان سنة ١٣٢٠ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحد علماء حيدرأباد الدكن (الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشرية في الهند فأجابه برسالة الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل ، بقية الافاضل ، وتذكرة الاوائل ، العالم العامل ، مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ، ولا فضل مكاتبتك ، ولكن تجلت لي أوصافك العلية ، وفضائلك القدسية ، في قول أصدق الناس لسانا ، وأثبتهم بيانا ، حضرة أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته ، فكنت بذلك أشد الناس تعلقا بمزاياك ، وأشوقهم لنيل الحظ من مرآك ، وقد كنت حفظك الله كتبت إلى عارف افندى ابي تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية ، وأظنه كتب اليك بميلي الى ذلك وترقب الفرصة للمسير اليه ، ورجائي أن يسعدني التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ، ولو لم يكن لى في بلاد الهند سوى رؤية مثلك ، والآخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك أقوى باعث على السعي اليها وأحث داع للاقبال عليها ، وقد يلوح بخاطري ان أهيء نفسي لذلك في الخريف الآتي من هذه السنة ، فمتى عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله

أن مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الأمة الاسلامية الى تلافي امرها ، ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن التهلكة وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك علي إن شاء الله ، وقد رأيت ان أتقدم

لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ، ثم ماساق الله اليها زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة النبي وخلفائه الأربعة ثم أختم الكلام . وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو بها الى الألفة ، ونزعج بها عن الخلفة ، ورجاؤنا في كل ذلك نجاح أعمالنا ، وصلاح أحوالنا إن شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية ، وبدأنا في طبعها ، وقد ترجمنا كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم ، وقدمناهما في صدر الرسالة ، ومتى تمت نبعث بها اليكم إن شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب طلبكم . نبعث بها الى بومباي ، ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد ، وثمنها يرسل الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوط هندي ، حيث إنه لا يتيسر الارسال بطريقة أخرى ، ثم ليكن في علم حضرتكم ان أثمان هذا الكتاب مخصصة للانفاق في طريق خيري ، والاعانة على أمر عام اسلامي ، لانريد منها ربحاً ، ولا نطلب كسباً ، والله الموفق ، ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة ، بتواتر المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٧

وكتب الى عالم من الهند كان يطلب منه أن يجيزه بما رواه وما تلقاه وفيه بيان رأيه في الاجازة بالكتب وتناقل الاسانيد

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد ابي الخير حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد سرّني ان أعرف لي أخا جديداً في بلاد الهند يقدر العلم قدره ، ويحب بثه بين الناس ونشره ، يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ماتلقيت وما رويت ، ويطلب مني ان أرسل اليه سندي في رواياتي

واني أقول لحضرتكم انني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء، لم يكن لي فيه أثر بالنسبة اليه ، كيف أجيزك بشيء تقول أنك ترويه عني ولم تروه في الحقيقة عني ، ثم ماقيمة سند لاأعرف بنفسي رجاله ، ولا أحوالهم ، ولا مكانهم من الثقة والضبط . وانما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا الى البحث فيما يقولون

أحب ان أكشف لك رأيي في هذه الشؤون : هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على مافرطوا في جنب الله . وانماشأني الذي كلفت به هو ان أعلم وأقول وأبين وأكتب مااستطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبته فله أن يرويه عني وأن يؤديه على مافهمه بعد دقة البحث والتحري ، والاخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فاذ وصل اليك شيء مما أقول او أكتب وفهمته كما أحب ان يفهم فاليك الاخذ به وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة وأكون لك من الشاكرين ، اسأل الله أن يوفقنا جميعاً الي خدمة دينه الحق انه وليُّ العاملين والسلام عليكم ورحمة الله

١٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ مفتي الديار المصرية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه تعالى اقترض هذا الطلب ليبين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة :عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصل لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما . كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة مافيها إلى أصحابها وذلك من وسائل حفظها ، ولم يبق في الاجازة شيء من هذه الفائدة ، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم وان لم يكن له أدنى حفظ من عظمته في علم ولا هدى ، ولا ملك ولا غنى

الفصل الثاني

طائفة من كتبه ورسائله الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة متهماً بالاشتراك في الحوادث العرابية إلى احد أصحابه في تاسع المحرم سنة ١٣٢٠ (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢) وهو من أصدق الآيات على علو أخلاقه وسلامة صدره، وسعة حلمه، وحسن نيته، وأسلوب هذا فلسفي تاريخي شعري، وهو يشبه إنشاء بلغاء الافرنج ولا يتسع غير هذا الاسلوب لتصوير ذلك الكرب الذي أثاره في قلبه ظلم الحكام وخيانة الاصحاب اللئام، وتجهم الايام، قال:

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر، فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى، واعترضت مابين المشرق والمغرب، وامتدت الى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة، فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتثرت نجوم الهدى، وتدهورت الشموس والاقمار، وتغيبت الثوابت النيرة، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام، ودارت الافلاك دورة العكس، ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هذا، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع، وبدلوا الخلق، وغيروا خلق الله، وكانوا

على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ركاما ، لا أرى انسانا ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيبا ، أسمع ذئابا تعوي ، وسباعا تزأر ، وكلابا تنبح كلها ، يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين *

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ، وشهوات تقضي ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *

ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها في معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين *

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالتهم الغيلان فيمن هلكوا باسباب مادية تجوزاً مبينا على المعروف من خرافات العرب . و يعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » — راجع البيضاوي وغيره وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو باسلوب الحكاية اثبات لها كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية واستقلالا ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل مايسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — أنني برىء من كل مارموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين

نعم خنقني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن قلبي ، وسكن جأشي عند مارأيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابا لا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان [١] تقريرين جعل فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم يتركا شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أراهما من المجانين * ولم أتعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب ، بالغ ماشئت في عجبي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه سعيد البستاني الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إليّ ، انما فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبين * هذا اللئيم الذي كنت أظن انه يألم لألمي ، ويأخذه الأسف لحالي ، ويبذل وسعه ان أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الساكنين * كم

(١) هما : رضوان : و ـــ ه

سمعني أقاوم هجاء الجرائد ، وأوسع محرريها لوما وتقريعاً ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم لم أنقض له عهداً ، ولم أبخس له وداً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفا ، فما باله أصبح من النا كثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الأحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الأولياء ، ما أثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الأصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب عن الايذاء ، ولو للأعداء ، ما أشد رعايته للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ، ما أقواه إقداماً على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بصالح قوم وكانوا عنها غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحا بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزمانا ـ خصوصاً هذا اللئيم ـ أفنشرح الصدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحها وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين *

آه ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأحبة ، وان جاروا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، إذا اتصل بذي الود وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ، ولو مزقته خشونته ، وان هذا

القلب في علاقته مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة، أيما حادث يحدث، وأيما كيماوي يدقق، لايجد للتحليل بينهما سبيلا، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللئيم، فقرأته بأول نظارة ووجدته كما بلغني، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

* * *

رددت على التقرير، وكان كل مافيه الغش والتغرير، وذكر فيه فلانا بأشنع مايؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ولكن دفعت ماقاله في جانبه ايضا، وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم، فماعليكم ان سئلتم إلا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية، ومن كانوا لها من الطالبين * إلى هذا الحد فقفوا، فان سئلتم فقولوا مانحن بتأويل الأحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشراً ببقائكم في مركزكم، فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين * يا عزيزي أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم، فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم، فقاموا ينطقون بما لا يعون، ويتكلمون ولا يفهمون. ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم، وأمرّ من الصفراء، وكأنما جرعوا جرعةً من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث مايحملون* مابال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت؟ تقذف بسائلات

بشعة الطعم خبيثة المنظر كريهة الرائحة تضطر معانيها للفرار منها، لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون *

هل بطل ياعزيزي ماجاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافا ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟*

هل أتأسف أن كنت سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنت مقداماً في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعاً في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أبياً أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل أستحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون*

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزدد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولأبينن لقومي انهم كانوا في ظلمات يعمهون *ولأظهرن الصديق في أجمل صوره، ولأجلونه للناس أبهج حلله، ولأثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا أغسق دجى الهموم تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل؛ ومن المفلس عن حرية التصرف، وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن، فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد

عن نيل المطلوب ، ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ، ويسئمهم ان طال من معاناة العلاج فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل ، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طباع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ، ههنا منال الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وأن هذا الشرف سوف يُردّ ، ولئن أبت طبيعة هذه الارض بخستها أن يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها . ولأجذبن الى المجد أحبتي ، ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى والا كانت المراسلة أجل وأعلى ، ولا تجزع ، فليس في الامر ما يفزع ، وهو أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

٢

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الاغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعريات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لاستاذه من الدعاوى التي لم تعهد منه البتة – قال :

ليتني كنت أعلم ماذا أكتب اليك — وأنت تعلم ما في نفسي كما أعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادّنا صورها الكمالية ... فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ...

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، وأعقل العقول ، وأذل بها شوامخ المصاعب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت من لدنك عزمة أتعتع بها الثوابت ، وأصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق . وكنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدودة ، فاذا أنا من الايام كل يوم في شأن جديد ، تناولت العلم لأقدم اليك من روحي ما أنت به أعلم ، فلم أجد من نفسي سوى الأفكل ، والقلب الاشل ، واليد المرتعشة ، والفرائص المرتعدة ، والفكر الذاهب ، والعقل الغالب ، كأنك يامولاي منحتني نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك حصرته في الافراد (١) فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل ، هذا مع انني منك في ثلاث أرواح لو حلت إحداها في العالم بأسره وكان جماداً لأحال إنساناً كاملاً ، فصورتك الظاهرة التي تجلت في قوتي الخيالية ، وامتد سلطانها على حسي المشترك

(١) العبارة غير مفهومة لخفاء كان في الاصل صوره الناسخ بما تخيله

— وهي رسم الشهامة ، وشبح الحكمة ، وهيكل الكمال — ردت اليها جميع محسوساتي ، وفنيت فيها مجامع مشهوداتي ، وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا ، وأنرت بها عقولنا ، وألطفت بها نفوسنا ، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا ، فكنا أعدادك وأنت الواحد ، وغيبك وأنت الشاهد ، ورسمك الفوتغرافي الذي أبقته رقيبا على ما أقدم من أعمالي ، ومسيطراً علي في أحوالي (١) وما تحركت حركة ، ولا تكلمت كلمة ، ولا مضيت إلى غاية ، ولا انثنيت عن نهاية ، حتى تتطابق فيه أحكام أرواحك — وهي ثلاثة — فمضيت على حكمها سعياً في الخير ، واعلاء لكلمة الحق ، وتأييداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ، ولست في ذلك إلا آلة لتنفيذ ذلك الرأي المثلث ، وما لي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مربَّعاً ، غير ان قواي العالية تمثلت عني في مكاتبتي اليك ، وخلت بيني وبين نفسي التزاماً لحكم ان المعلول لا يعود على علته بالتأثير ، على ان ما يكون إلى المولى من رقائم عبده ليس إلا نوعا من التضرع والابتهال ، ولا أحسب فيه ما يكشف خفاء ، أو يزيد جلاء ، ومع ذلك فاني لا أتوسل اليك في العفو عما تجد من قلق العبارة ، وما ترى مما يخالف سنن البلاغة ، بشفيع أقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك ، واطراق الفكر خشية منك بين يديك وأي شفيع أقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك لأرحام الحياء

اني يا مولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك ، فقد تكفل ببيانه أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك ، وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم ، وشدة بأسهم ، فأرغموا

---

(١) قد أخذ هذا الرسم شرطة الحكومة عند تفتيش بيت الكاتب في تهمة الثورة كما سيأتي ثم اننا كنا نرى رسما آخر للسيد في خزانة كتبه من داره التي يجلس فيها على الارض للمطالعة والكتابة كانت على منضدة يوضع عليها بعض الكتب في الجهة الشمالية فكانت تكون قبالته حيث يجلس فكان يتذكر تلك الروح العالية التي ربته تلك التربية الجديدة الممتازة التى دفعته الى الجهاد طول حياته في سبيل الله تعالى

العقول على الاعتقاد بالمحال ، وألجؤها بالتصديق بما لا يقال ، حتى إنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة ، ركن فيها للعمل بالشدة ، والاخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه ، وجلوت الامر عليه ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة ، حتى زال مالبس المبطلون ، وبطل كيدهم ، وما كانوا يعملون ، ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والامراء ورجال الحكومة ، وقعدت من كل أمير مصعد النفس ، فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ، ولا يعمل الا ماتشاء إرادتك ، فكأنك وحقك كنت بين أظهر المصريين ، ساعياً فيهم الى مقاصدك العالية ، طالباً بهم أوج السعادة ، وذروة المجد والفخار . وهكذا ضممت اليّ كل من كان ينتسب اليك صادقا في الانتساب أو كاذبا ، حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الادنياء (١) . . . . وأمثالهم من اللئام ، تحسيناً للظن ، وايثاراً لجانب العفو . فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة ، لكنهم لم يرعوا وداً ، ولم يحفظوا عهداً ، ولا حاجة الآن الى ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤماً (٢) . . . . . وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل ، يجلون قدرك ، ويعرفون لك فضلك ، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي (اللقاني)

ولكن هذا لم يلهني عن طلب الانتصار لك ، وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ، ومذهب معروف ، ولكن غلبنا على الامر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الانبياء ، السالكين مذاهب الجبارين : انتحلوا طريقتنا في في الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق ، وحماة القانون ، وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصباً عليك وعلى تلامذتك ، واشتدَّ معهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند ما رأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ، ويمدهم في بعض

(١) هم : أ . إ ـ س و ن ـ س . ب و : ـ هـ

(٢) حذفنا سطراً فيه كلمة شديدة في نصارى الشوام وفي المصريين معا

غيهم ، ولم يدم ذلك الا قليلا ، حتى محصنا من قلوبهم ، وجلونا عن بصائرهم ، فكادوا يشيمون ضياء الحق لولا أن أدركتهم ظلمة الغي والغرور ، ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، الى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال . فطلبنا بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء ، وينقذ العباد من طول العناء ، ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء ، وكدنا ندرك به خلاصاً حسناً ، وانتصاراً شريفاً ، لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ما وصف الصابي أبا تغلب بن حمدان عند ما قاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والاضاعة . ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة . المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة . ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي . ولا الفاجر القوي . بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره . وفضيحة جبنه وخوره . قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد » اه

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب ، وتفتح الابواب ، وظهور الامر للعيان ، وانجلائه لأذهان الصبيان ، واجتماع جميع القلوب عليه ، ونزوع الاهواء على اختلافها اليه ، فكان ما كان من العاقبة السوءى ، ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يامولاي أن أقدم اليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً فأنا رهين الاشارة . ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لا لذنب جنيناه ، ولا جرم اقترفناه ، فقد قضت حكمتك اقامتنا منا مقام الالهام فى قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة ، والذمة الطاهرة ، وانما ذلك أثر الحق القديم ، ونتيجة الرأي العقيم ، ووالله ياسيدي لو فصلناله من جلودنا ثيابا ، وصنعنا له من لحومنا كبابا ، وصببناله من دمنا شرابا ، لما كان لنا مفرٌّ من غدرته عند قدرته ، قاتله الله . فها نحن سالكون فى سُننك وعلى سَننك ، وكنا كذلك ولا نزال ، الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رُضّع ، ونساء لنا طوّع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم هنا ، الى حيث أقمنا ، لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس ، لأسعد بالاقامة فى خدمتك ، وأفخر بذلك على العالمين

ولما اعلم من نفسي ، وما أتيقن من يقينك ، وما أبدته أعمالي وأعمالك ، واقوالي وأقوالك ، لا أتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى ابي تراب ، حيث طعنت في ثقتك بالناس اجمعين ، وبالغت حتى سحبت الطعن إليّ والى ابراهيم افندي ، وزدت في الطعن ، فأنفذت طعنك بالداهية الزرقاء ، والبلية الحمراء

أما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا ، فقد نقضوا عهدك ، وحالفوا عدوك ، فاستبقوه للوجود وأنت موجود ، أرغم الله أنفها ، وجعلها طوع يدك ، ترمي بها من تشاء من أعدائك

وما حكم به سيدي على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتضافر عليه الأدلة ، وتشهد لك ولنا به الحوادث ، غير أنا لسنا أولئك ، فقد اخرجتنا عن طباعنا ، وحوّلتنا نبتاً غريباً لا يتغذى بغذاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ، وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره مايقوي به قوامه ، ويزهر زهره ، ويحلو ثمره . والا ذبل ومات ، أو استأصلت جذوره ونفي الي خارج البلاد

واني اعلم أن كلامي لايزيد في يقين مولاي شيئاً ، وعدمه لا ينقصه ، فلنعد عن هـذا ونستميح كرمه الواسع أن يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتوغرافي جديدة ، فقد كان عندي نسختان احداهما كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت ، والأخرى استجدانيها سعد افندي زغلول ، فأما الاولى فقد اخذها أعوان الضبطيـة عند ماأودعت السجن ، وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سيئاتي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق ، والأخرى تركتها عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع إلينا ارسال ماينشره من الفصول السياسية والادبية في الجرائد أيا كانت ، فقد اعددنا دفاتر كثيرة لنقل مايوجد منها في أي جريدة ، وكتبنا مانشر في النحلة ، وأول مانشر في البصير ، وانا نبحث بغاية الدقة عن مقالة « الشرق والشرقيون » ولم نجدها الى الآن ، ثم نرجو أن تمنّ علينا بأسطر من قلمك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ، ونودعها حيث أودعنا محبتك ، والله يحفظك ويتمم مقاصدك ، والسلام

٣

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ولعله الشيخ علي الليثي ، وفيه من التكلف ما كدت أشك في انه له، وقد وجد بين مسودات اكثرها له

سيدي الاستاذ الأجل

لله حالي مع الشيخ !! وجد به مستحر ، وشغف بحبه مستمر ، وعهد وهوى اليه مستقر ، وهو بي لا يستقر ، شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ، ومكارم غر ، ومروآت حدر ، وفضائل غزر ، ذلك الحسن الذي لا يكسف ، والجلال الذي لا ينكشف ، فاذا عشقته (بقلبي) فلست بالغالط ،وإن لحته[1] بحبي فما أنا بالخابط ، تعلقت بهاء الأنفس،وهو لدي الأعز الانفس ،ومشربي في ذاك أصفى المشارب، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، أنآني عنك تباين الديار ، وأدناني منك دوام التذكار ، كلما خلوت بنفسي ، تمثلت لباطن حسي ، فروحي اليك انسة ، ومن قرب اللقاء غير آيسة ، فان فاءت من غيبة الفكر ، وأفاقت من سكرة الذكر ، عاودتها وحشة الفراق ، وانتابها قلق إلى التلاق ، فان تحفتها عنايتك ، وثقفتها رعايتك ، بكتاب تلحظه ، أو خطاب تحفظه ، كان ذلك أشفى لدائها ، وانجع في دوائها . وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره ،وجميل احسان اذكره ولا أنكره . . . لكن لا يسوى بقومي قوم ،ولا كيوم وطني يوم ، ذلك الوطن الذي أنبتك ، وغذت عناصره نبعتك ، لاريب أنه منبت الكرم ، ومخيم لأطهار الشيم ، الموت فيه بقاء ، والحياة في غيره فناء ، ولكن كان حالي كما قال الأموي

أعز الممات وذل الحياة وكلا أراه طعاماً وبيلا
فان لم يكن غير احداهما فسيرا الى الموت سيراً أجميلا

هذا الى أن ينجح الله سعيكم ، ويؤيد في أمري رأيكم ، فيماط الأذى ، ويلقى القذى ، وتمحص الصدور ، ويبر أبرقيا كم المصدور ، هنالك يعرف النخيل أهله ، ويصل الفرع أصله

---

(١) الكلمه خفية في الاصل

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه يذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه ، وما أكرم الكرم من مناشئه ، وما أكبر التواضع من الكبراء ، وما أعلى التنازل من الأعلياء ، جلت مكارم مولانا عن التقدير ، وفاتت فواضله حيطة التحرير ، توجهت عنايته الى ضعيف في وجده ، عارف بقدره ، واقف عند حده ، فأحسن اليه بأمر كريم من رفده ، يكسوه من الوصف حلة بهاؤها بمسديها ، ويوليه كرامة سناؤها بمهديها ، وما هي إلا كمالاته تبدو مظاهرها ، وكرائم سجاياه تظهر على المخلصين مفاخرها ، والا فليس لهذا الداعي مايستلفت نظر دولته ، ويستقبل وجه كرامته ، اللهم الا الاخلاص في ولائه ، والاحتساب على آلائه ، وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبتي اليه ، ويقوي استنادي عليه ، فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى مايؤمل لمثله ، بمثل فضله ، حتى يعم فضله المتعرفين الى جنابه ، والعاجزين عن التقرب من رحابه ، وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر ، واني فيما أرشدني اليه على نحو مايقول سابقي الى مثل حالتي .

تعودت مرّ الصبر حتى ألفته ... فأسلمني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توفيقي للأخذ بارشاده . ووقوفي عند حدّ مراده . فلا زال يحيي القلوب بحكمته . كما يحيي نظام الأمة بعدالته ، والله يتولى مثوبته على احسانه ، كما يكفل له في العالمين اعلاء شأنه ورفعة مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب اصديق

لك في قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك . وفي مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك، وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك . ما بيننا من المودة ، لاتحده مدة . ولا تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد . واستدعاء للمزيد . فلا المواصلة تربيه، ولا المماهلة توهيه . نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك . ومثال علائك ونبلك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقي في تفاني الاشباح

تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة . وينشر طي الصداقة ، فيه تبيان وجدانك مما وجدنا . وتأثرك على ما فقدنا . فكان نبأ عما نعلم . وقضاء بما نحكم ولكن شكرنا لك فضل المراسلة . وأريحية المجاملة . والله يتولى ايفاءك ، مثوبة تكافىء وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله اني وان فارقت عطوفتكم ، لم يفصلني البعد الجثماني عنكم ، وان بانت بي الاماكن ، ونبت بي الأقطار لم أبن منكم . فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة فلن تصل اليهم آثارها . وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أوضارها . فتأخذ الارواح حكمها ، وهي اذا تعارفت جواهرها ، تواصلت سرائرها . ولم تبال بالاجسام ومصايرها .

لم يزل يلمع لي بارق من سر ذاتكم الطاهر ، ويذر آنا بعد آن شارق من مطلع يقينكم الزاهر ، ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ،

ويبدو لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم ، فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ، ألهو بها عن هـذا العالم عالم الخيال ، اراكم بين من رأيت من حكام الزمان ، كوكبًا بين أجرام اكوان ، ان كان لها ضياء تضاءل اضياءه ، أو كان لها سناء تساقط دون سنائه ، فالله يحقق نسبتكم اليه ، ويمتعكم باخـلاص الاقبال عليه . فتلك السعادة ، لا تفضلها زيادة . ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء ، مثل ما أرجوكم في النظر لاصلاح قلوب الاهالي بالتربية الزكية ، على أصول المعارف الصافية . فلا بقاء للدين الا بها . ولا وقاية له الا بنفوس أربابها . ولا سعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية . ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على أنظار عطوفتكم في المدة الماضية ، فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها ، وأنتم أكرم من قبل العذر ، واستقبل بالعفو جزيل الأجر ، والله يمدكم بامداد توفيقه ، ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من أكرم وفادته ، وخطب مودته

لو كان في الثناء وملازمة الدعاء ، وحفظ الجميل ، والقيام بالخدمة جهد المستطيع ، مايفي بشكر من يفتتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون فى ذلك وفاء ، والمحبة سرّ نظام الاكوان ، والاحسان قوام عالم الامكان ، والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض ، والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه ، فليس لي إلا أن ألجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ، ثم أسلي نفسي عن عجزي بما أخيل ان كرمكم سيروي

سيكفي الكريم اخاء الكريم ويقنع بالود منـه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبة لأني شغلت

بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد، وانما للمؤمن كل يوم بربه عيد، فنهنئكم برضاء الله عنكم، وتقبل صالح الاعمال منكم، وسلامي على نجالكم، ومن ينتمي اليكم، والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جوابا عن كتاب منه

ان خدمت الملة في هذه فما هي أول خدمة، وان وفقك الله للنجاح فيها فليست بأول نعمة وان شحذت عزمك لاصابة الغرض منها فما هو ببدع منك، وإن طالت يدك لبلوغ المأمول فيها فما هو ببعيد عنك، فالله آخذ بعضدك، وممدك الى مقصدك، خصوصا وأنت مخلص النية، مشرق الطية، صادق العزيمة، شهم الفؤاد، أليف السداد، أيدالله رأيا أفردك في علوه، وبارك لك في عزم ميزك بسموه وحقق الرجاء فيك، وبلغ الامل منك ! ! حار قلمي، لا أدري بأي بيان يذكرك، وعلى أي فضل يشكرك، على صدق في خدمتك، أو اخلاص لدولتك، أو حمية لدينك، أو ثبات في يقينك أو بعد في همتك، أو علو في مروءتك، أو تنازل لاجابة هذا الداعي فيما رجاه، وتقريب أمله فيما تمناه، كيف يوافي شكر ذلك بيان، أو تصيب الغرض منه أسلة لسان

وافاني كتابك يفوق الغيث في بركته، والربيع في نضرته كيف لا والحق في طيه والفضل في ثنيه. وأين مانربو به الاشباح مما تنعش به الارواح واين نضرة الحقول، من بهاء العقول، هز مني بعد السكون وأظهر مني بعد الكمون وفتح لي الى الامل بابا، وكشف عني من الارتياب حجابا، فلا زلت يقوى بك العزم ويؤسى بفضلك الكلم أما ماسبق اليه رأيك من تقديم رسالتي (١) الى حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الافخم فكانما رددت غريبا الى وطنه وأرجعت نازحا الى عطنه ولئن وقع ماعرضت موقع القبول عنده فانما ذلك تجلى فضله في مرآة علمه، والا فعلائم القصور ظاهرة فيما كتبت

(١) هي لائحة اصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفثات رسمت في صفحات على استعجال خيفة الفوات ، ومادفعني اليها ـ والله أعلم ـ الايقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها ، وتصحيح ملكاتها، حتى تستقيم بذلك اعمالها ، وتصلح أحوالها، وان سعيي في هذا من فرائض الذمة، بل مندفع مني بباعث العقيدة، آتيه مجبوراً في صورة مختار، أو مختاراً في صورة مجبور

وانني أحمد الله على قوة لا أجدلها مادة، وهداية لاأرى لتسيير الناس فيها جادة، فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح، ورأيك الراجح كانت أعمالي كلها شكراً لصنيعك،وكان الله من وراء ذلك خير مكافي لك على جميل سعيك ، وأما استشهادك بفلان وفلان فاني أعده تفضلا منك في التأكيد وإلا فمجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله ماأقول شهيد ، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لاينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جوابا عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الأحباب، وصفوة الأنجاب ، مبتسما عن الدر النظيم ، روايا عن الذوق السليم ، متهللا بسناء منشيه، معجباً ببهاء ممليه ، جاء بعدما حل منازل الجلال، ودار دورة الاقبال، ولولا رسل من شوقي اليه، تزاحمت أقدامها لديه ، فساقته يد الاقدار ، وقادته قود الاوطار، لطال به التسيار « وبرح بي » الانتظار، وصل الي بعد اثني عشر يوما من تاريخ كتابته ، واني اقسم به لوزاد في غيبته، وجاء زاهياً بحليته ، تائها في جلالته ، متقلداً حسام حجته ، مستشهداً بعدول من حاشيته، على مانسبت من المطل الى مودته، لما اقنعني دليله ، ولا ألزمني تعليله ، ولقابلته بحسابه ، وسكنت من ضبابه، ولحاكمته محاكمة الود ، بين يدي حبي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر اتعب في الطلب ، وشارد أوغل في الهرب ، ثم عني

بحكم الغلب ، . أو معشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى أعيا المحتال ، ثم ابتلي بغرام العشاق ، فابتغى وهو البغية وصل المشتاق ، ولعملت له من اشعة البصر حبالا ، أو سعه بها احتبالا ، فيعز عليه الخلاص ، ويمتنع المناص ، فلا يبرح عن ناظري ، مادام ناظري ، ولأبرمت له من مبارم العمل عقالا أو ثقة به اعتقالا ، وأزيد في قيوده سلاسل من الفكر خفافا وثقالا ، حتى لا يغيب عن الذهن انتقالا ، ولا عن الخيال زوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشى من توانيه ،

علمني كتابك كيف تناجي الارواح اشباحها ، والجراثيم أدواحها ، . أو كيف تحادث العقول أفكارها ، والقلوب اسرارها ، تباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد عن الانداد ، فاتحدنا وليس بعد اختلاف ، وامتزجنا ولا عن افتراق ، وكان واحدنا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة ، والكرم من المروّة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل ، والعلم من الرشاد ، والحكمة من السداد ، واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ ، فتفاوت النسب نوع من الجذاذ

لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك ، وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ولم يذكر ناسيا لسابق ودك ، ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور ، وفضلا من كتاب عملك المبرور ، وسعيك المشكور ، ونعمة تشتهي النفس دوامها ، ونعمة يلذ للسمع تكرارها

سرني مادل عليه كتابك من كمل صحة والدك الماجد ، وأخوتك الاماجد ، وأعضاء عائلتك الكريمة وانجالك بضعة كمالك

١٠

ومن رسائله الفكاهية الهزلية . اكتبه من بيروت الى صديقه العالم الاديب الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محببا اليه والى جميع المصريين المنفيين في بيروت ، وكان له ألفاظ وسجعات كثيراً ماتدور في كلامه وكتابته ، هجيراه منها لفظ الدهشة وما يشتق منه ، فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري وابراهيم بك اللقاني يذكرون ذلك في كتبهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد المجيد رحمهما الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد عليَّ كتاب السيد الاستاذ ، والموئل الملاذ ، ينبىء عن سعادة حاله ، وسعود إقباله ، فحمدت الله أن خطرت بباله ، وان لم أكن من ذوي باله ، ودهشت من مفاجأة هذه النعمة ، لقصر الهمة عن شكر يستزيدها ، وحمد يستعيدها ، وان سروري من السيد بتوجيه عنايته ، الى أخلص الناس في محبته ، بل أثبتهم قدماً على أبواب خدمته ، لأرقى من لذة الوصال ، لمحبوب بعيد المنال ، بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال ، والظفر بالاقبال

يشير الاستاذ في خطابه ، الى لطيف عتابه . وليس سروري بما أحس به الاستاذ من مكاتبته . أوفر من سروري بما تحققته من كل صحته ، أدام الله سروري بتوارد أخباره ، وشهود آثاره في أنصاره . وشهد الله أن غيبته عن ناظري ، لم تحجب مثاله الشريف عن خاطري . وأن تسلياتي متوالية في خلواتي وجلواتي ، وخواتيم صلواتي . لا يحيط بها لحظ اللاحظ ، ولا حفظ الحافظ . ولا

يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ[1] وان بلغ في الفصاحة مابلغ الجاحظ . أهديها مع الرائح والغادي ، والحاضر والبادي . وما عليّ أن أقول وعلى الله الوصول يعلم مولاي أني من تبعة القارئين ، وخدمة الكاتبين وأظن — إن حسن الظن — أني من مواقع احسانه ، ومواضع امتنانه . وما كنت أجحد شيئاً من رعايته . ولا آلو جهداً في شكر منته . ومع هذا لم يتفضل عليّ بلامعة من درره ولا بارقة من غرره . واختص السادة الفضلاء بالمراسلة ، واكتفى لي بسلام المجاملة . فالتمست من حضراتهم أن يحيوه أحسن تحية، أو يردوها على أي كيفية . ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم . ورأيت من المخاطرة، والجرءة الجائرة، ان ابتدر الاستاذ بالكلام ، وهو الامام ابن الامام . فوقفت عند الحد، وقمت مقام العبد، ان سئل أجاب، أخطأ أو أصاب، أليس لمثلي العذر ، ان يقصر به الفكر ، عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر ، وبديع الزمان في النظم والنثر ؟ بلى . ولولا ثقتي بسعة كرمه ، ما تمكن قلمي من اجابة قلمه . فليعف جناب السيد عما براه فيما حرر على عجل ، تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا لمولانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات . غير أن ما ذكر فيها انما هو كلمات قذفتها بعصر أغراض . فانقضت واستعقبت بالأعراض . على أننا اذا حسن التفاتكم الينا في آل خير من آلنا ، وأوطان أرحب من أوطاننا . فلا غربة مع وجود الاحبة . و نسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم

نوهتم بما حظي به الشيخ أسعد الا . . . من كتاب الصادق الاصدق الناطق بالحق ، فيما رق ودق . ذكر السيد أن الشيخ لم يدر عافاه الله من أين أتي . وأرى له عذراً في هذه الفعلة التي . . . فقد أتي من وراء حجاب . واحتبل بغير احتطاب . ودمر عليه من غير باب . فلا غرو ان غاب عنه الصواب . وخرم وانخرم معه الحساب، ابراهيم افندي جظه بعد الملاحظة ، ودلظه بلا معاكظة .

(١) كان هذا الشيخ المعاصر للاستاذ يحفظ عدة كتب من الحديث والادب وقد يحفظ القصيدة الطويلة من مرة وكان وصافا لا يتلعثم ولكنه لا يلتزم الصدق في الوصف ولا الحكاية

لكن الشيخ جوّاظ ، حجب بكماله عن.... فضلا عن اللحاظ، وإن كان في طبعه لظلاظا ، وفي هداه جلماظا . فتح سر الشيخ على القلم باب الظأظأة . ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للبأبأة والفأفأة . فلا تؤاخذ مجذوباً ، ولا تعنت مغلوباً. ثم إن القصيدة حائية لاجيمية . وكأن غموض معناها أعجم مبناها . سبحان الله العظيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، كركركركركر ، إنها لاحدى الكبر

أرجو تقبيل أيدي حضرة والدكم . ثم إن حسن لديكم فبلغوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحيي الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الأمير عبد القادر ، أكرم الله جواره ، وقدّس أسراره . ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات ، والتسليمات المرعشات ، حضرات الأساتذة الأفاضل ، الشيخ محمد والشيخ احمد عبد الجواد . وحضرة الحاج محيي الدين افندي حماده، وابراهيم افندي اللقاني ، والسيد محمود افندي الخوجه ، ومحمد علي افندي . ومن ظي أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان، لأرفع الى الاستاذ ما أستطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان . رفع الله قدركم، وأعلى ذكركم، والسلام

١١

وكتب اليه أيضا

سبحانك اللهم وبحمدك

يا مجيد ، علمني ما أخاطب به عبدك المجيد ، جلبيته مجدك . وأشعرته ودك . وأغزرت عليه في البيان نعمتك . وأنبعت من جناته حكمتك . فبذّ القائلين بفصاحته . وملك مشاعرنا ببلاغته ، ثم يصفني وصف الأصفياء ، ويومي إلي باشارة الاولياء ، ولست مما قال في رطب ولا عنب، ولا كعوب ولا رُكب . فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعي بين يديه، وأثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله ، ما أظن ان اثنين تواصلا على ما تواصلنا ، تواصلنا على لحمة روحانية ، لم تخالطها أهواء حيوانية ، وحكم الأرواح يتبعها في الدوام ، لا تؤثر

(عليه) عوارض الأجسام ، اللهم إلا أن الحواس الظاهرة ، يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهرة ، ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة ، فروحي من روحك في نعيم مقيم ، وسرور بلذة الصفو مستديم ، وحسبي من حسك ما بين وحشة تكدره ودهشة ان شاء الله تغمره ، وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ، ولنا في كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٢

وكتب إلى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله ، ويرتاد من الرضا مبذوله ، ولقد كنت تعلم اني ما أردتك إلا لنفسك فالحمد لله إذ أرجعك اليها وله الشكر على ما عطفك عليها ، وما أنا بالمقصر بك عما سألت ، ولا الذاهب بك إلى خلاف ما طلبت وغاية قولي لا تثريب عليك . اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين

حياتنا شبح روحها المحبة ، والمحبة شبح الاخلاص ، فما أسعد وقتاً نرى فيه حياتك منتعشة بروحها ، زاهرة بسر الاخلاص فيها ، وليس بذاهب عنك انك كما تكون يكون الناس لك ، واسأل الله ان ينفي عنك خواطر السوء ، ويزيح عن روحك الطيبة وساوس الغرور ، ويمن علي برؤيتك عند الغاية التي أحب لك ، وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ، ولتكن مواصلتك دائمة والسلام

١٣

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ، ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التقصير حتى عجز العذر عن التعبير ، وخجل القلم من التحرير ، ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هواؤها ، وتعرفت اليه ادواؤها ، مالا احتاج معه الى بسط عذر يشفع اليكم ، ويقبل لديكم ، ليت يوماً بعدت فيه عنكم كان يوماً قربت فيه منكم ، فلولا مثال من أدبكم يؤنسني اذا استوحشت ، ويشفعني اذا انفردت ، لكان سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٤

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجبهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاد كتابه، يمثل لي مالم انس من آدابه، ويبشرني بتوفر النعمة على سلامته، ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته، وسرَّني استقرار الشيخ على رخاء البال، وان كدرني ذكر ماهب لديه من عاصفة البلبال، لاترك الله لها مهبا، ولا ادام لها مربا، وأبلغ الله حضرة الأخ (يعني الشيخ خليلا اليازجي أخا الشيخ ابراهيم وكان مريضاً) غاية الشفاء، ووقاكم الله وآلكم من الاسواء

لاأبرىء نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده، واجالة الاقداح فيما عسى أن يكون سبباً في تأخر وفوده، واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة، وانهزامي لغارة جيش الدهشة، حتى كان الكتاب فيصلا وناصراً لحزبنا، بل منقذاً لحزبنا ولا يوفي حق شكره، إلا شغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العقد، وانحلاله قبل ان يشتد، وتغيظ المفسدين عليه، والتفاتهم بالسوء اليه، وهو في مهده، وعلى قرب عهده، كأنما حم على هذه البلاد أن تكون حطباً لنيران الفساد، وأن يذلّ فيها العلم، ويضل في ابنائها الحلم، ولا ينجح الفضل في مسعاه، ولا يخيب الجهل في مبتغاه، ولا حول ولا قوة الا بالله. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، ويديل من هذا العسر يسراً

١٥

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيده الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الاشارة، عن طويل العبارة. وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجناني، وذكره مالك للساني، ورجائي أن تدوم مواصلته، وتحيي النفس مراسلته، والسلام على من يحب، من ذوي اللب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٦

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثراً ونظما

انت الذي سما بك استعدادك ، وزهابك اجتهادك ، فأعدت للنثر سناءه، ورددت للشعر بهاءه ، فلنا المسرة بمكاتبتك ، ومنا الحمد لمباداتك . أتتني منك فوائد منثورة ، تتبعها لآلىء منظومة ، أعلاها حسن اختراعك ، وأغلاها جودة ابداعك ، وكنت جديراً بحاليتها ، مبتهجاً بزينتها لو أديت للحق فرض خدمته، وطالت يدي في تأييد كامته ، ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على اسعاده ، ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده ، فأين انامنه ، وهذه حالي من جليل ماوصفت ، بل من قليل ماأغزرت ، وأرجو الله أن يرشد العقول الصافية، ويجمع القلوب الحازمة ، ويصرفها الى فضل ماأعدلها ، فتجود أعمال ، وتثبت آمال وتبدو آثار يحمدها الحامدون ، ويعرف قدرها العارفون ، فهنالك تحقيق ماظننت ، وتصديق ماحدثت، إن شاء الله، والسلام

١٧

وكتب وهو في مصر الى صديق جوابا على تنصل من هفوة بعد عتاب شديد

لو عرضت عليَّ نعم الله وفيها عزة الامراء، وبزة الأغنياء، ووفاء الاولياء، لما اخترت منها غير الوفاء ، ولعددت نفسي به أسعد السعداء ، هذه خلتي ـ تقبلها الله ـ وفيها لمهجتي احياء. بهذا تعلم ماادخلت من السرور عليَّ فيما كتبت اليَّ ، ولو جعل الله للمحبة شكراً أوفى بحقها منها لبذلته ، ولو قدر لها أجراً أجزل عائدة منها نفسها لالتمسته وقدمته . نعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك ، فلافي الكتاب أكرم نفس فيك ، فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لأراه ، فاهنأ بكرم محتدك وزكاء منماك ، والسلام

١٨

وكتب من بلرم الى أحد علماء الجزائر المصلحين

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم سمايا حفظه الله

لايزال يؤنسني مثال من علمك وفضلك ، ويعجبني رفيق من كمالك ونبلك . وما كان ذلك ليفارقني بعد أن صار بضعة مني ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي، منها لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمة العقل والأدب ، ولعرفت أنك ستكون إمام قومك ، تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد ، وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين : حظ المعاش وحظ المعاد . هذا هو أملي الذي أسأل الله تحقيقه . فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي اليه استعدادك ، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربي . وإتمام ماسبقت لك البداءة فيه من اللسان الفرنسي ، ثم دراسة أخلاق البشر ، وما يكون له أثر في تحويلها بتدقيق يجدر به لقب التحقيق . ومن ذلك النظر في تاريخ الأمة الاسلامية ، وتنقل الدين في أطواره ، وعلل ذلك وأسبابه ، حتى يتيسر الحكم في أمراض النفوس ، وحسن اختيار الدواء الذي يناسبها . ثم التقدم إلى كل سريرة بما لا تشمئز منه ، ولا تبادر بالنفرة عنه ، وبذل الجهد في حمل الهمم على طلب العلم لتستنير به البصائر في العمل ، وشحذ العزائم على الجد في السعي والكد في كسب الرزق من وجوه الحل ، والانفاق منه في سبل المنافع وطرق الخير ، وأن يكون ذلك كله ديدنا للداعي لا يفتر عنه حتى يكثر في الناس من هو جدير بالنسبة الى رب الناس ، ولك في ذكاء ولدنا الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، وإخلاص حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ مفتي الحنفية مايساعدك على ماتقصد من نفع العامة ونصح الخاصة . وإني وإن كنت على ثقة من كمال عقلك ، ومعرفتك بما اليه حاجة المسلمين اليوم . فاني لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات ومن الكلام في ذلك فان هذا الموضوع كبير الخطر ، قريب الضرر ، وإنما

الناس محتاجون إلى نور العلم ، والصدق في العمل ، والجد في السعي ، حتى يعيشوا في سلام وراحة مع من يجاورهم من أهل الأمم الأخرى ، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تتقطع في أيديهم متى جذبوها ، فيسقطوا والعياذ بالله فيما لا منجاة منه

بلرم ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ محمد عبده

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام (١) جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو من ألطف كتبه وفيه من الشكوى من سوء حال قومه ولا سيما الجامدين الرسميين ومن التحدث بالنعمة ماليس في غيره

انصفني قومك اذ سروا بتناولي منصب الافتاء ، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله ، وأضراهم بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها ، وأحذقهم في انتهازها ، لا بلاغ الحق أمله ، أو يبلغ الكتاب أجله ، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف باهوائهم اللدد ، وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ماأحث اليه عزيمتي ، واخلص في العمل لتحقيقه نيتي ، خصوصاً ان كفي فيه القتال ، ولم يكاف بشد رحال ، ولا بذل أموال

أما قومي فابعدهم عني ، أشدهم قربا مني ، وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعا منهم في الأحكام ، وذهابا مع الاوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام ، أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون واعمل فلا يهتدون وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، واضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

واقول: ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته ، او أب عقته ذريته ، أوابن لم يحن عليه

---

(١) هو أرجح انه الشيخ جمال الدين القاسمي رحمهما الله تعالى

اواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عمدهم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر وقوة العزم وثبات الحلم وإن كنت في خوف من حلول الاجل ، قبل بلوغ الامل ، خصوصاً عند ماأرى أن العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لماانبتت زرعا ، ولا أطلعت شجراً أفزع لذكرى ذلك وأجزع ويكاد قلبي يتقطع ، ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيثلج صدري ، وأمضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

ممن اشتكي ؟ لو أن ماألقى كان من لغط العامة ولقلقة الجاهلين لهان الامر وتيسر المخرج . ولكن البلاء كل البلاء أن اشد الناس عداوة لا نفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعاته ، ويمزقون احشاءه زاعمين انهم حماته ، وما منهم إلا أحد شخصين : شخص ركب هواه فاعماه ، فهو يرى الحق باطلا ، والصواب خطأ ، وآخر غرته دنياه ، وأضله جشعه ، فران على قلبه مايكسب ، وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة مايكذب ، ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين ، وحمق المعلمين ، في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها ، وإزالة أيامها ، تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم حديداً ، لذلك عند مالاح لهم ضوء الهدى ابصروه ، وعند ماقرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم ، فيلين من شدتهم ، ويفل من شرتهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة ، وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلا ، عرفوا الحق فانكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه ، ولو سمعوا ، لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه ، وإن الجحود مع الفهم ، كاليقين في العلم ، كلاهما قليل في بني آدم .

أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ، ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية مايطلبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم

اذا سألوا ، وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا ، وان استعداد السامع للفهم يستدر المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدال أما عيشك فيمن لا يفهم ، فانه ينضب منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل

جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين (١) وما أنا في شيء من أمرهما، الا نزر من الهمة ، و كثير من معرفة قدرهما

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه ، وأشكره وأشكر نعمة مرجعها اليه ، وأذكر من نعمه أكبر نعمة أمدني بها ، وأكرمني بأسبابها ، إحسانه إليّ ، بعطف قلب الاستاذ عليّ ، وتقريبي من فؤاده ، وإحلالي مكانا من وداده ، كرمت نفس الاستاذ فكرم فيه مثالي ، وكملت سجاياه فتخيل منها كمالي . نسب إليّ الشيخ الجليل شؤونا كلها من سرائره ، وألبسني من الاوصاف ثوبا نسجته يد مظاهره . جعل لي السيد من حسن ظنه معينا . وأفادني بثقته ركنا ركينا ، وسنداً أمينا . فأسأل الله تحقيق ظنونه ، وأن يمدني دائما بدقائق فنونه ، وأن ينصرني بولائه ، وأن يسلكني في عقد أوليائه ،والسلام

٢٠

وكتب من مصر الى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى ما يأتي

وصل إلى أسماعنا ، ونحن في ديارنا ، أنباء ماوجه اليه همه ، وشحذ لبلوغه عزمه ، من النهوض ببلاده الى الاصلاح ، والسير بها في منهج الفوز والفلاح ، وتلونا ما نشر من أوامره الكريمة ، ووعينا ماتضمنته من القواعد القويمة . فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا . واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ، ولما كان الاصلاح الذى يقصده المولى ، إنما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في كتابه المبين ، وسنة صاحبه الأمين . ثم النظر في أقوال وأعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين . تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة الى العلوم الدينية وإحياء مامات منها ، ونشر ما طوي من كتبها لتتأدب

(١) يريد شيخي الاسلام ابن تيميه وابن القيم

النفوس بأدبها، وتحيي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها. فثقة بهذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن أعرض على حضرتكم العلية. أنه قد تألفت في مصر جمعية لاحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف فتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الاولين واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين، وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي ابن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمخصص، وسيتم عن قريب، وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك، حتى تحصل لها نسخة صحيحة، ثم تطبع هذا الكتاب الجليل، وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر، وقطع أخرى في تونس، وصارت هذه القطع في أيدى الجمعية، ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد للفقير ان نسخة كاملة لكتاب توجد في جامع القرويين. ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين، أن يمدنا في عملنا، ويعيننا على ما نبتغي من الخير، باصدار أمره الكريم أن ترسل الينا هذه النسخة، إما بتمامها لنقابل عليها ما عندنا ونتم منها ما ينقص نسخنا، ونعيدها اليه، ونهدي الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه إن شاء الله تعالى. وإما مفرقة جزءاً بعد جزء، فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره. وفي كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي سنراه كأن الله حققه. ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته، وينصر بعزمكم شريعته

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ ليتأمل الناظر كيف أن الامام لم ينسب الى نفسه عملا ما في الجمعية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها، وذلك دأبه في كل عمل للامة، وخدمة للملة

٢١

وكتب بذلك أيضا الى مولاي إدريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وحده

حضرة الاستاذ الفاضل، العلامة العالم الكامل ، مولاي إدريس ابن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم ، وكرم أخلاقكم ، وميلكم الى نفع العامة من المسلمين ، وإيصال الفوائد إلى خاصتهم ، ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة ، والتوسل بكم في الوصول الى مايرجى ثواب السعي فيه إن شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الاهمال من آثار سلف الأمة ، ودواوين علومهم . وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب المخصص في اللغة للامام الجليل عليّ ابن سيده النحوي ، لشدة الحاجة اليه ، ولاشراف نسخه على العدم ، والانمحاء من الوجود . وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب ، رأى أولئك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم . فرأوا من أفضل الامهات ،وأحقها بالعناية ، وأشدها تعرضاً للضياع ، والاختفاء من الديار الاسلامية (مدوَّنة الامام مالك) فأَخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع ، لأَنهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية ، ولا في الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلهم يعثرون على مايتمم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك إذ بلغهم أن في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة . فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على أن رفعت عريضة رجاء الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بارسال النسخة إما جملة وإما جزءاً جزءاً وعلينا بعد طبع الكتاب أن نرسل منه عشر نسخ الى جامع القرويين

بعد أن ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل علي بذكر صفاتكم

الجميلة ، وسجاياكم الفاضلة . وأكد لي أن حضرتكم تكون عونا على ما أطلب ، لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم ، راجيًا من همتكم أن تساعدوني في الوصول إلى تلك النسخة ، أوغيرها من نسخ المدوَّنة ، ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة ، إما لجامع القرويين ، أو لمن يتفضل بارسال نسخة الينا مع الشكر الخالص والدعاء الدائم إن شاء الله

٢٣

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة ، التي فطر الناس عليها ، ووقفك على الغاية التي هدى البشر اليها . فأدركت أن الانسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل . ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه ، وسعيًا يبقى به ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقا الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم ـ التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ـ فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ماهداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون ، كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء كان مددًا من عنايته للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ماحصل

لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس انك لست من القوم الضالين فاحمد الله على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم هذا وإن نفوسنا لشيقة الى مايتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس الى التأسي بك في عملك والسلام

٢٣

وكتب اليه أيضا

أيها الروح الزكي ، صدرت من المقام العلي ، إلى العالم الأرضي ، وتجسدت فيما سموه بتولستوي ، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه ، فلم تشغلك حاجات جسدك ، عما تسمو اليه نفسك ، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من الناس من نسيان مافصلوا عنه من عالم النور ، فكنت لاتزال تنظر اليه النظرة بعد النظرة وترجع اليه البصر الكرة بعد الكرة ، فوقفت بذلك على سر الفطرة ، وأدركت ان الانسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل

٢٤

وكتب الى محمد بك صالح (١) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

أنت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفي بما تعلم من ذلك وهذا إن شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية مايسري اليه استعدادك والسلام سنة ١٨٩٣

(١) هو المرحوم محمد باشا صالح المشهور الذي توفى من عهد قريب ، وقد ارتقي في سلم القضاء الاهلي الى أعلى درجاته كما بشره فصار مستشاراً في محكمة الاستئناف وهو من تلاميذه في الرعيل الاول من طلبة دار العلوم وقد سألته مراراً عن آمالي الاستاذ التي أملاها عليهم عند قراءته لهم مقدمه ابن خلدون في فلسفة التاريخ وسنن الاجتماع والعمران فقال انه كان يحفظ مسوداتها ووعدني بالبحث عنها في أوراقه في البلد عند المامه بها والظاهر انه كان ينسى

٢٥

وكتب من مصر إلى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكر مني ناسياً، ولم ينبه لذكرك لاهياً، فاني من يوم عرفتك لم يغب عني مثالك، ولا تزال تتمثل لي خلالك

ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتيه بها على الناس أجمعين، ولكن ستر الله عنك منها، خير ما أودعك فيها، لتزينها بالتواضع وتجملها بالوداعة، ولتسعى الى مالم يبلغه ساع، فتكون قدوة لاخوانك في علو الهمة، وبذل مايعز على النفس في نفع الامة، زادك الله من نعمه، وأوسع لك من فضله وكرمه، ومتعني بصدق ولائك، وجعلك لي عونا على الحق الذي ادعو اليه، ولا أحيا الا به وله، والسلام

٢٦

وكتب أخيراً من مصر الى الشيخ عبد الرزاق البيطار، أوحد علماء سورية الابرار، جوابا

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بمحبته

وصل الي كتابك، تسطع فيه آدابك، ويفيض منه العقل، ويضيء منه الاخلاص والصدق، وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين (على) إظهار الحق بعد خفائه، وهدم الباطل بعد شموخ بنائه، ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره، المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره، وأسأل الله أن يتكفل باثابة مولانا الاستاذ على مايغمرنا به من نعمة الخطور بباله، وجريان ذكرنا فيما يخط قلمه أو ينطق لسانه

٢٧

وكتب منها الى عالم الشام العامل المصلح الشيخ جمال الدين القاسمي

حضرة الاستاذ

كأن القدر يريد أن يكون مابيني وبينك سراً مكتوماً، ومضمراً يأبى أن يكون مرقوماً، فقد حاولت مئين من المرات أن أكتب اليك، وكانت تأتي العوائق فتحول دون ذلك، كانني كنت أحاول فتح قلعة، أو محو بدعة، وها أنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لاأقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ماتدخله علي من السرور بايفاد كتبك علي بما تكتب اليّ من وقت الى آخر، واعتذر اليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل، وأرجوك أن لاتحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به، وان لاتجعل لفضلك في ذلك نهاية، والسلام

٢٨

وكتب منها الى النابغة الشهير الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي بحمص جوابا

ولدنا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك، كما قدر لي المتاع بأدبك، ولكن أحمد الله الذي يرينا مانختار، في غير مايقع عليه الاختيار، فأنت حيث أنت أنفع ماتكون لقومك، تجعل لهم حظا من عمل يومك، تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة، وتعظهم بما أوتيت من الحكمة، وتهيء نفوسهم لقبول الحق اذا أقبل، وتعدها لمدافعة الباطل اذا أظل، وإسأل الله أن يشد أزرك، ويخفف من ذلك وزرك، ويرفع بعملك قدرك، وأما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال، وهي خير صلة وأوفقها عند الرجال، بارك الله لك في أيامك، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك، والسلام

٢٩

وكتب من مصر إلي فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة جوابا عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره (*

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك، أكثر مما يسيئه بك غيرك، وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن: اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ماتعطي وأفضل ماتهب، والسلام

١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

٣٠

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبدالرازق ماياتي ومنه يعلم سببه

ولدنا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا، وحوى من النفس مثالا، تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعاً في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ومابقي كانه الشهب، نور للاحباء، رجوم للاشقياء، ماسرت بشيء سروري بانك شعرت من علو حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك، فلله أنت ولله أبوك، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكني اكتفى بالاخلاص في الدعاء ان يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية اليه، وينشط بنفسك لجمع قومك عليه، والسلام

*) كان فرح أفندي عصبيا سيء الظن يظن السوء فيخال ظنه واقعا واسوء ظنه بالاستاذ وبي قصة غريبة تطلب من الجزء الاول من هذا التاريخ

٣١

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت الي" أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك، وفضله العظيم في إخلاص مودتك، وأسأله أن يجعل ذلك كله في سبيله وأن يجعل ثمرته خيراً للاسلام والمسلمين والسلام.

نموذج من كتبه لواضعي الكتب النافعة ومترجميها

٣٢

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا أتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

أبطأت في اجابتك، وقصرت في الاسراع بشكرك، لما أتحفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب الذى تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة، لم تفتك فيه فضيلة الابداع، ولم تحرم من حسن الاتباع، اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأي واحترام مقام العقل، فلم يهبط بك التقليد إلى مايحط بالعمل ويسقط من قيمة الكد في الجد، ثم أبدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم، وأدنى إلى التقريب من حقيقة العلم، وكأني بك قد وقفت على ذلك السر الذي خفي عن الجمهور الأعظم ممن سبقك، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير، ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الأساليب، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه، ويبعد بك منهم عن تكلف كانوا رثموه، ولهذا قوي عندك كل مابني عليه، وضعف لديك كل مالم يستند اليه، جزاك الله عن نفسك خير مايجزي به عامل عن عمله، وجزاك عن أهل لغتك خير مايجزى به محسن عن احسانه، والسلام.

٣٣

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم الالياذة كتابا قرىء في الحفلة التي أقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان افندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقائي الى الانس بك ساعة تهنئك بالنجاح في ذلك العمل الأدبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين ، دعوني الى الاشتراك معهم في شكرك لما دأبت في السعي، وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء في اختبار مسالك النظم ، لتهدي الى أبناء لغتك العربية ، من أحاسن الصناعة الأدبية مايعد زينة للناظرين

وكنت أكون أسرع الناس الى إجابة الدعوة لولا مانع ذنبه إليّ ذنب العاذل الي عاشق الحسان ، منعني الانس بهم وبك ، ولكنه لم يمنعني أن أشاركهم في شكرك

تمت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة ، فاذ هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية . فسبت خرائدها ، وغنمت فرائدها، وعادت اليناقي حلل من آدابها . تحمل الى الألباب قوتاً من لبابها، وما أجمل ذلك الغلب، في زمن ضعف فيه العرب ، حتى عن الرغب في نيل الأدب ، ماينال منه عن كثب فضلا عما يكسب بالتعب . فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ماوفقت لا كماله من العمل . فقد سددت به ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون

أغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزوناً ، ونشروا بين الناس ما كان مدفوناً . ولم يدعوا غامضاً إلا جلوه ، ولا بعيداً إلا قربوه ، ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك مالم يكن في حسبانها فقد صارت لسان العلم والصنعة ، كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الأساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق عليهم في جانب العلم الذي لايختلف فيه مشرق عن مغرب، ولا يتخالف على

حقائقه الأعجم والمعرب . وظنوا أن ماوراء العلم من آداب القوم ليس ممايتناسب مع آدابهم ، لبعد مابين أنساب أولئك وأنسابهم . فلم يمدوا نظارهم إلى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء ، وما صاغته قرائح البلغاء ، فلم تنل اليونانية من عنايتهم مانالت الفارسية والهندية . وكان مؤمل اللغة منهم أن لايحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون ، كمازينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون . وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر ، حتى أتيت ترفع عنه الستر . وجئت تقول للناس إنني أتمم في دولة عباس ، مانقص في ملك بني العباس . فما أقرّ عين العربية بنيل طلبتها ، وظهور ما كان منتظراً لشيعتها . أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه والانتفاع به ، ما يكافيء تعبك ، ويبعث همم العاملين على أن تتبعك ، والسلام

٣٤

لما ترجم محمد حافظ بك ابراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء) بالعربية أهداه اليه بهذا الكتاب

إلى الاستاذ الامام

إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار . ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث (أولها) التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك (وثانيها) ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ، ومقدار كدّ الأفهام (وثالثها) امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ماوضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي إلى فتاه بقبوله والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين . وأن يساعدني على إتمام تعريبه للقارئين . . اه

قدم محمد حافظ هذا الكتاب الى الاستاذ الامام ونحن جلوس معه في حديقة داره بعين شمس مساء يوم من الأيام فأخذه منه بعد أن قرأه علينا وعليه ودخل الدار فمكث فيها قليلا ثم عاد الينا وقال : انني عصرت دماغي على ما به من جفاف الكلال فخرج منه هذه الكلمات : ـ وأعطى حافظا ورقه قرأ فيها :

تقريظ كتاب البؤساء

لو كان بي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فينا أبدعت في تزيينه لكان لقلمي مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجري في الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا

زففت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها . ولا تزال تنبه منهم خامداً ، وتهز فيهم جامداً ، بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة . حكمة أفاضها الله على رجل منهم . فهدى إلى التقاطها رجلا منا . فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها وزان من معارفها ، [1] حتى ظهرت محببة إلى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم . فلا يكاد يلحظها الوهم ألا وهي في النفس مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك . فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق . ووصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويرد اليها ما سلبه

(١) معارف من وجه الانسان ما يعرف به ويمتاز من غيره كالعينين والملاغم

المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه ، أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمزيد بعده ،ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده . ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم في صورة ابدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سننت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله من ظهور كتابك ، ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الأبناء ، كما أجملت الصنع مع الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ماهو في الأسماء ، أسماء الأماكن والأشخاص، لاأسماء المعاني والاجناس، ومثلي من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو أني حُبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللفاء (١)

تقول : إن الذي وصل سببك بسبب صاحب الكتاب ، ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزلته من سوء الحال ، وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فان كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة ، سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ ، وأن يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم، والسلام

---

(١) اللفاء بالفتح القليل الذي هو دون الحق

٣٥

تقريظ تشطير البردة وقصيدة تقرأ على وجوه كثيرة

رفع إلى الاستاذ الامام تشطير للبردة من شاعر ضعيف وقصيدة تقرأ على وجوه تعد بالمئات أو الالوف وقد قرظهما له بعض كبار العلماء ومنهم الشيخ حسن الطويل وسأله أن يقرظهما له فامتنع فاستشفع عليه بمن يعز عليه رد شفاعته فكتب له تقريظا عجبنا له كيف نشره وهو ليس عندي بنصه ولكنني أحفظ منه قوله :

اما التشطير فيكاد غير العارف بمكانة الأصل يحسبه مع التشطير من ينبوع واحد! وأما القصيدة التي تفوق أمثالها بكثرة الوجوه التي تتجلى لقارئها فهي من مخترعات القرائح الذكية (أي ليس له هذا الاختراع بل هو مسبوق اليه وهذا صحيح)

(ثم قال الاستاذ) واذا ساق الجد حضرة الاديب المشطر في الاشتغال رأينا من قلمه ما تتغذى به العقول وتستنير به الافئدة ! الخ

نموذج من كتبه في التعازي

١

كتب وهو في سورية الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ، ففي همتكم مايعرك أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان ، وانما انتم بمكان من منعة النفس ، تمر الملمات دون ادناه ، تهيب النظر اليه ، فضلا عن الوثبة عليه ، فلا يفزعكم جائشها ، ولا يستفزكم طائشها ، هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف عليّ طائف الكدر مما ألمّ بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على أن يقينكم بالله وتسليمكم لقدره هو أعلى واكمل من أن يخالطه جزع من الفراق ، وإن كان مرّ المذاق ، فان من سار عنكم اقبل على رحمة من الله ورضوان ، فهو في جوار ربه ، متمتع بلذة قربه ، وإن له لفخراً بين السابقين ، ورفعة بين المقربين ، بما أسستم من مجد شامخ ،

وشرف باذخ ، فضاعف له النعمة في حياته الأبدية : جنة بالصالحات ، وبهجة بالباقيات . ولقد اختار واختار الله له داراً لو خير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية ، لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير . نعم يأسف لما أسفتم . ويألم بما ألمتم . فعزوا أنفسكم تسروه ، وطيبوا بالقضاء نفساً تفرحوه . واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ماأقدمه اليكم ،وهو نزر مماتطويه معارفكم ،غير انه مما اناجي به نفسي تصبراً ،واحدثها به تجلداً ،والله اعلم بما شعر به وجداني عندما بلغ إلي الخبر،ولقد كان من الفرض، ان أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت، الا أن عقابيل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار ،حتى انقشع عني حجابها من مدة قريبة ، وما أنا بالناسي ، وإن أنست الحوادث ذكري ،وما انا بالقاطع وان زينت الأيام هجري، فصبر جميل ، وما العفو عن تقصيري عليكم بعزيز ،ومأمولي عرض تحياتي على مقام دولة الباشا، والله يحفظكم للمحبة ويبقيكم للشرف ؟

٢

وكتب منها معزياً عن الامير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العرى كما أشير اليه في بعض المكتوبات الاصلاحية

أعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتلو الامير محمد باشا وحضرة سعادتلو الأمير محيي الدين باشا

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * ألا الى الله تصير الأمور * « انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية الغم ، ودهتني داهية الهم ،اليوم بلغنا ماأصابنا وأصاب المسلمين ،ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ، ولم يمس ذوي الارحام ،حتى زعزع مجد الاسلام ،اليوم شاع على الألسن ،وتحدث الكافة أن جناب الأمير الشهير ،صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا ،واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى، سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء ،الى ماأعدَّ له من منازل الكرامة في دار البقاء ،قد اختار لنفسه مااختاره الله له من الاختصاص

بجواره الكريم ، والاتصال بنور وجهه العظيم ، نظر الله الينا بعين الجبروت ، ليصعد بجناب الأمير إلى أعلى الملكوت ، سار الأمير الى ربه ، وترك المؤمنين بلا قيم عليهم ، ولا وصي يعيد مجدهم اليهم ، ولولا اليقين بأنكم أشباله ، ولم تفتكم مزاياه وخلاله ، لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ، وللحقنا به اختياراً لما عنده ، كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر ، ومقام الأمير أجل من أن تصل الى سرادقانه أشعة البصائر والفكر ، وليس من كلمة أجمع لكلماته ، ولا قول أوفى بفضائله ، سوى أنه «الأمير عبد القادر الجزائري» فهي منتهى وصف الواصفين : وغاية مدح المادحين ، وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه ، وورثة فضله ومعززوه

٣

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزياً عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون *

لا حيلة في القضا ، ولا أنجع في تلطيفه من الرضا ، وإن في قوة ايمانك ، وسطوع يقينك ، وكمال عقلك ، لكفاية في الانابة الى الله تعالى ، والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر وجزيل الثواب ، والتطامن لأحكامه بقلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وإن مصيبة الفقد وإن جل خطبها ، وعظم على النفس خطرها ، إلا أن الله تعالى أعد عنده للصابرين أكرم المنازل ، وأرقى مراتب القرب لديه ، وكفى بالصبر فضلا أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون ، يقول الله تعالى (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الا كما ترى رزية حر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتكم في غنى عن تعزية الأحباء ، وتسلية الأصدقاء ، بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الأيام ، وثبات يهزم غوائل الزمان ، وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم ، وان نقدم اليكم ماهو لديكم أعلى وارفع ، لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ماألم بها من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم ، وابتلى به ايماننا وايمانكم (ليبلوكم أيكم احسن عملا) ونسأل الله تعالى أن يجعل لكم من مثوبته عوضاً عما أخذ منكم ، وأن يفرغ عليكم الصبر ، وأن يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة ، وأن يرفع مقامها في اعلى عليين ، وان يطيل بقاءكم ، ويديم عزكم ومجدكم ، وعليكم مني مزيد السلام ، وإلى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي معزيا عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع ، والبليغ الابرع ، أيده الله

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لأبنائه ، ولو حفظ له جوار لصح لحلفائه ، ممن درجوا على سَننه ، وأخذوا باحكام سُننه ، وله فيهم كل يوم غدرة ، ولجيشه عليهم كل آن كرة ، فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم ، وخالفت أوضاعه أوضاعهم ، فهو يتقلب وأرواحهم في الفضل ثابتة ، ويتغشمر ونفوسهم للحق مخبتة ، فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة ، والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفاقمة ، لكنهم يرون له انكى من نكاياته ، التدرع بالصبر في ملاقاته ، وورد وثباته ، بسكون الجنان وثباته ، ولست أذكر الشيخ بمثل ماقال ارسطو « ماأشد ظلم الناس ! يستقبلون القادم الدنيا بالفرح والسرور ، ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والثبور ، ولو انصفوا في أمرهم ، لعكسوا في حكمهم » وإن مصيبة الراحل عنا عظيمة ، ورزيئة اليأس من لقائه جسيمة ، وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حسرات ، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ، ولكن سئم العناء وداره ، وكره الباطل وجواره ، فاستقبل وجه البقاء ، وخلص الى

ماليه النجاء، فما الحيلة ؟ التصبر ، أجمل من التحسر ، والجلد، أجدر بنا من الكمد . وإني وإن وجهت الخطاب اليك، لم اقصر الوصية عليك . فلي نفس تشارك نفسك، وحس يشاطر حسك . وهذا حديث نفسي أُنَبِّئه . وما يخالج صدري أبثه . وإن العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه وأوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده، وأنتم موضع الرجاء لخلفه . كما كنتم منتهى المجد لسلفه . وأسأل الله لكم حسن العزاء ، وصرف البأساء ، واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضاً جوابا عن تعزية

لم يلاقنا الدهر إلا بما ألفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وقد جبل الله هذه الحياة من الشوب ، وأقام حوباءها من الحوب ، فلا تخلص لها منفعة من مضرة ، ولا تخلو لها مبرة من معرة ، سِيطت فيها الحسنات بالسيئات ، ومزجت الطيبات بالخبيثات ، واني والزمان عركني وعركته ، وضرسني وضرسته ، فلئن ضعفت عن كسر شوكته ، فلا والله مافلني بقوته ، ولئن صدَّعني ، فما صدعني ، وماذا يصنع بمن ينزل ارزاءه ، حيث ينزل الناس نعماءه ، لا يلاقي الرضا عندي الاما يرضيه ، ولا ينال الجزع مني الا ما يرديه ، أعطيت من اليقين مذبة أطرد بها ذباب الهموم ، ومن العزيمة جنة لاتخترقها الغموم ، هذا اذا لم أجد من المصيبة خلفاً ، ولم أملك لها من العوض طرفاً ، فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك ، وأجزل لي الخلف في اخوتك ، وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان للاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي أبلغ من هذه وأحسن بياناً ، وأعلى منها عظة وعرفاناً ، ولكننا لم نظفر بشيء منها ، ورأينا أن لايخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكتفينا بما وجدنا ، واننا سمعنا منه انه تثقل عليه كتابة المكتوبات الشخصية ولا سيما التعازي منها

شذرات من كتبه الى جامع الكتاب

ان لديَّ من شيخنا الاستاذ الامام كتباً كثيرة ، لكن أكثرها في الشؤون الخاصة ، كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ، ولكن قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة ، أو الطرف الأدبية ، وانني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

كلمة له في الاستانة

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوربا اذ كان عائداً من **الاستانة** بعد ذكر شيء من الاستانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملا ولا يجده ، وانه أوصى به أحد أنجال عزة بك العابد

« لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيراً في الاستانة ، وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وببقية نفسه . تعلمت في الاستانة مالم يكن يعلم **الا** بالمشاهدة ، وستسمع منه مايمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »

كلمة له من هذا الكتاب في أصحاب الالقاب الرسمية

« ماذكر عن الحموي (هو سليم باشا) ليس ببعيد عن أخلاف مثله ممن ينسون أنفسهم اذا حملوا وزر لقب من الألقاب ، اللقب يثقل عليهم فيزهق أرواحهم من أبدانهم ، ولا يبقى متعلق بأجسامهم الاخيال لا يعرف شيئا من أنفسهم

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه الرد على مجلة الجامعة

« أخذت القلم الآن لأكتب وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفرّ مني فرار الخير من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنبلاوين أيام كان متنقلا يوزع الاعانات على المصابين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام والنصرانية في تنقله ذاك

« الى الآن لم أكتب شيئاً في الموضوع لأني في شغل شاغل من هؤلاء المرزوئين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر :

« مارأيت مكانا يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لااشتهي فيه ان أمدّ يدي الى قلم ، وانما أطالع في أوراق متنوعة ، في أوقات متقطعة ، ولذلك أراه أفضل مكان للراحة وتبديل الهواء ، بعد شدة التعب وطول العناء ، « كنت انتظر أن يصل إليّ المنار هنا ليكون مما ألقى عليه نظري اذا أرجعته عن أمواج البحر الأبيض ، ولم أطلقه الى بساط النيل الاحمر ، فأنا جالس طول يومي بين البحرين »

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر

« رأس البر لاعقل فيه ولاعمل ، وذلك لايمنع من ارسال ملازم التفسير ، فكلام الله يرد الفارّ من العقول ويعمر الخرب منها »

٦

ومن كتاب له من الاسكندرية يوصيني فيه بمساعدة صديقه عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون البيروتية) وكان قد جاء من بيروت الى مصر بأمر من واليها لامر من الامور التي تهم السلطان عبد الحميد نفسه ، ورآه الاستاذ في الاسكندرية ـ وانما أنشر منه مايدل على شدة عنايته بأصحابه وهو) :

« ثم اني احب ان تساعده في كل ماتلزمه فيه مساعدتك بقدر ماتستطيع واعتبر كل خدمة تقوم بها له كأنها منك الى شخصي عند اشد مايكون من حاجتي اليها ، وسلم عليه سلاما كثيراً ، ولعل القدر يأذن برؤيته مرة ثانية اذا رجعت الى القاهرة يوم السبت والا فاني استودعه الله »

٧

ومن هذا القبيل أن شابا سوريا اسمه (كنعان شبلي) جاءه بكتاب من تلميذه ومريده الامير شكيب أرسلان الشهير يوصيه فيه بمساعدته على عمل يريده في مصر ، فأحاله علي ببطاقة مختومة كتب فيها :

« يحمل اليك هذا شاب متنور يريد أن يطلب عملا في التعليم بمصر ، ومعرفة الطلب تتوقف على معرفة كثير من الناس ، ورأيت انك ممن يسهل له ذلك وقد جاءنا بكتاب من الامير شكيب ارسلان فأعنه على مايريد بما تستطيع والسلام »

أي أعنه بما تستطيع لانه جاء بكتاب من الامير شكيب

كلمة له في المنار

رضي الله عنه

وكتب اليّ جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار فقال في تعليل ذلك :

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للآجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل

خاتمة للكتاب في بعض حكمه المنثورة ، وكلمه المأثورة

(١) العلم مايعرفك من أنت ممن معك

(٢) العدل للاسعاد ، كلمة الله للايجاد

(٣) العفة ثوب تمزقه الفاقة

(٤) أشد أعوانك الحاجة اليك

(٥) انما تتم نكاية الاعداء ، بخيانة الاصدقاء

(٦) هلاك العامة فيما ألفت

(٧) جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس

(٨) إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه

(٩) الرجوع عن الحق بعد العلم به محال

(١٠) من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما

(١١) لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا

(١٢) الشباب يحمل ما حُمّل

(١٣) ماوعظك مثل لائم ، ولا قوّمك مثل مقاوم

(١٤) مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته

(١٥) الذل يميت الارادة

(١٦) من لا صديق له فهو عدوّ نفسه وعدو الناس

(١٧) حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه

(١٨) تغلغل الموت في جسم الأمة حتى أصبحت لا تسمع النداء ولا تنتفع بالدواء

(١٩) إنني لم أهنىء نفسي بوجود رجل في قومي يتجرأ أن يقول لي: أخطأت، فهل أخاف أن يتجرأ أحدهم على قتلي لاعتقاده أني أخطأت[1]

---

(١) اخبرني أن رجلا كتب اليه كتابا هدده فيه بالقتل فقلت له وانت تمشي كل ليلة منفردا من المحطة الى الدار — اريد أن يتقي ويحترس فقال : انني الخ

(٢٠) من أهم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه دينا ، وهو عند الله ليس بدين

(٢١) من شؤم بلادي أن لا أجد فيها من أستفيد منه ، وتمنيت لو كان كل الناس أعلم مني

(٢٢) ما رأيت بلداً جعل فيه الدين د كانا مثل هذا البلد (يعني مصر)

(٢٣) ينبغي لأهل العلم أن يعملوا بما يتعلمون حتى لا يصدق عليهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)

(٢٤) القرآن كلام أبدي رقم على صفحات الزمان الى قيام الساعة خطابا لجميع البشر

(٢٥) في تفسير القرآن وفهم الدين لا يتبع إلا الدليل القاطع ، لأن هذا من باب العقائد ، وهو مبني على اليقين الذي لا يمكن الأخذ فيه بالظن والوهم

(٢٦) إن المسلم من أخذ القرآن بجملته من أوله الى آخره ، ولا يكون كمن قال فيهم الله تعالى(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)

(٢٧) درجات العلم تتفاوت جداً ، والقرآن لم يعدّ منه شيئاً حقيقياً إلا العلم الذي يهدي الى العمل ، وهو المتمكن في النفس ، الذي تصدر عنه الآثار مطابقة له ، وكل من يعتقد شيئا ولم يقف على سره ولم ينفذ الى باطنه فهو عبارة عن خيالات تزول بمجرد الشبهة

(٢٨) إن خطاب القرآن لا يختص بواقعة، بل يصح أن يكون خطابا لكل الناس

(٢٩) فهم القرآن متوقف على فهم العالم ، وقد نزل للناس وهو يعبر عنهم فلا يمكن فهمه إلا بفهمهم أيضا - أي فهم حقيقة احوالهم وسنن الله فيهم

(٣٠) بقاء الاسلام الى اليوم كاف في الدلالة على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان رسولا حقا ، وبقاء القرآن كذلك محفوظا إلى اليوم أقوى شاهد ودليل

(٣١) لا بدّ أن يرفع القرآن فوق كل خلاف

(٣٢) القرآن هو الدوحة والأصل الذي يرجع اليه ، وهو الذي يحمل في الدعوة ويجرى على أحكامه

(٣٣) القرآن لا بدَّ أن يؤخـذ من أقرب وجوهه ، وإياك والتعمق في التأويل الذي يجر الى البعد عن معانيه الصحيحة

(٣٤) فهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها

(٣٥) لا توجد مرآة يرى فيها عبـدة الطاغوت أنفسهم أجلى من هذا القرآن ، فاذا لم يكن في قلب الانسان منفـذ لدخول روح الله يخرج من كل نور إلى ظلمة

(٣٦) إني عند ما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أني في زمن الوحي ، وأن الرسول (ص) ينطق به كما أنزله عليه جبريل عليه السلام

(٣٧) ليس وراء القرآن غاية

(٣٨) إنما يصعّب القرآن توهم أنه صعب ، وكلما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه ، وكلما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه

(٣٩) إن لكلام الله أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه ، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون

(٤٠) يجب على كل شخص له ايمان صحيح أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله

(٤١) لو وقفنا عنـد حدود الله في كتابه لكنا أعز الناس وأحبهم اليه ، ولكن غلونا فوقعنا فيما وقعنا

(٤٢) معنى عبادة الله بالقرآن عند الجاهلين به أن يقرأ الشخص ولا يخطر المعاني بباله ، ولا يحرك نفسه لا وامره أو نواهيه . وقراءة العتاقات والعديّات من هذا القبيل

(٤٣) لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها [1] ولن تقوم

(١) يعني كتب التعليم التي تدرس في الازهر وأمثالها

الا بالروح التي كانت في القرن الأول وهي القرآن ، وكل ماعداه
فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم

(٤٤) وقال في وصف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا :

(٤٥) هؤلاء قوم كلما رأوا أو سمعوا شيئاً يومىء إلى قوّة الدين وعظمته يستنكرون ، ويقومون ويقعدون . وأما الخرافات فهم بها راضون

(٤٦) الاعتماد في تلقي العلم على مجرد الثقة دائماً يكون معه لأخ الشبهة الى ان يقف الشخص على الدليل

(٤٧) كذب الانسان على نفسه وتغريره بها يحمل الانسان كثيراً على الابتعاد عن الحق والأخذ به

(٤٨) البحث في كيفية الخلقة من شهوات العقول ولا يمكن الوصول اليه قال تعالى ﴿ ماأشهدتهم خلق السموات والارض ﴾ الخ وكيف يمكن لمن لايعرف الرابطة بين فكره ولسانه أن يتكلم في كيفية الخلقة

(٤٩) الذل حالة تجعل المرء مهضوم الحق قهرا

(٥٠) وجود قليل من الأمة صالحين لا يدفع عنها نقمة الله التي يعاقب بها الامم عند فسادها

(٥١) المعارف الشكية عرضة لايقاع الانسان في الخطر

(٥٢) كل شخص في العالم يفضل حالة على حالة فما دام على يقين من الوصول اليها لا يبالي بما نال من الاخطار في طريقها

(٥٣) وقال في وصف بعض المغرورين : لم ينفذ اضعف شعاع من العلم في قلبه فيجد له لذة

(٥٤) وقال في وصف أناس استحكم فيهم الجهل والجمود :

هؤلاء قوم يحبون أن يقعدوا في صندوق من الجهل ويقفلوه على أنفسهم من داخله حتى لا يأتي فاتح يفتحه ويفرّج عنهم

(٥٥) اذا انحرف الانسان من الاستقامة لايمكنه أن يصل الى حد مطلقا

(٥٦) إن الله لم يضع الراحة في غير العمل

(٥٧) مجاهدة الانسان بطرد الخواطر عنه في الصلاة عبادة

(٥٨) معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أول الواجبات وإن كان لايجب على كل مسلم أن يعرفها بالتفصيل

(٥٩) سنة الله في خلقه ان أتباع الحق يكونون فقراء في أول الامر، ثم سلاطين وأمراء في آخره، لأن الحق حليم، والباطل سفيه، والحق لايظهر الا اذا بلغ الباطل آخر حده فحينئذ ينهض الحق لمصارعته

(٦٠) التوحيد كمال الانسان، والوثنية هي الغالبة على الناس وذلك إما بالجهل المحض، أو بالأخذ والتشكل مع ادعاء التوحيد

(٦١) الحياء أحسن فضيلة في الانسان تمنعه عما لا يليق به ونعم الخلق الحياء

(٦٢) كل مايصدر عن الانسان مخالفاً لما يعتقده حسناً فهو ذنب

(٦٣) وقال في وصف كلام بليغ سمعه أشخاص ولم يستعدوا له :

هذا شيء سهل على ارباب العقول الساذجة البسيطة، ولكن صعب على كل عقل تعلم البناني على السعد

(٦٤) الفكر في المخلوقات طاعة مستقلة

(٦٥) كل ميل له سلطان على الانسان يقوده إلى العمل رغماً عنه فهو معبود له، وذلك الانسان ممن اتخذ آلهه هواه، لان الحق لايجد من نفسه مكانا إلا قليلا

(٦٦) وقال في مخاطبة بعض أهل الجمود

اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم.

(٦٧) العلم القيني أن تعلم أن الشيء واقع وان نقيضه غير واقع فمن صدم الدليل وقاومه يقال إنه عالم ولكن يقال إنه أضله الله على علم

(٦٨) المؤمن من عرف الحق من وجهه وطريقه ورجوعه عن ذلك محال

(٦٩) من فروض الكفاية على الامة ان يوجد فيها طائفة يحصلون أحكام الله من كتابه وسنة رسوله ويردون الناس اليهما

(٧٠) من يدعي أنه على حق ولا يعمل به فهو كاذب ويكون من قبيل الذين قال الله فيهم (يفترون على الله الكذب)

(٧١) اذا لم توجه الأعمال لغايتها فالله كفيل بعدم نجاحها

(٧٢) مهما بلغ الانسان في العلم لا يسلم من هاجس في نفسه يثبطه ويقول له « استرح » ولكن العاقل لا يركن اليه

(٧٣) اذا كان الانسان على علم حقيقي فهو حريص على تعليمه خصوصاً اذا كان هذا العلم من الدين ومن العجيب انا لا نرى أزهد من المسلمين في التعليم

(٧٤) من السنن الالهية التي لا تتغير ولا تتبدل أن الاتفاق والاعتصام والاتحاد عماد ترقي الأمم وفوزها ، والتخاذل علة انحطاطها وذلتها ، سواء ذلك في الماضي والحاضر والمستقبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

(٧٥) أكبر شيء يوجب التقوى أن يعلم الشخص أن الله قادر على الانتقام منه واعظم دليل على القدرة الالهية الاشياء التي تأتي على خلاف العادة

(٧٦) ومما قاله في مخاطبة بعض الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً استشعروا خشية الله في قلوبكم والا هلكتم

(٧٧) ومما قاله في نصيحة بعض طلاب العلم

على الطالب إذا خلا بنفسه أن يفكر كثيراً في المعاني التي يرومها، وفي طريقة تعلمه وتعليمه ، وفي مقصده وغايته

(٧٨) وسئل رضي الله عنه في بعض دروس التفسير عن اختلاف المجتهدين فقال: لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا

(٧٩) الدليل على صدق الانسان فيما يدعيه من الاخلاص أن يبذل من نفسه في سبيله ، فان لم يبذل فهو كاذب ، ومهما بلغ الانسان ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير مخلص

(٨٠) لا يصدر فعل اختياري عن مختار الا اذا صدق بالغاية

(٨١) إن الله حرم الرشوة لتقرير العدل في الأحكام ، لأن الحاكم اذا لم يكن له هوى في أحد الخصمين لا يبقى عنده سوى الحق

(٨٢) من الناس من يطلب كماله بتنقيص الكامل ، وهذا نهاية الخسران
(٨٣) لاصلاح مع الجهل
(٨٤) الفقه الحقيقي أن تنظر الى شرع الله في جملته ومجموعه (أي لافي كل مسئلة بانفرادها)
(٨٥) ان الذي يعرف الحق يعز عليه أن يرى الحق مهاناً
(٨٦) التعصب فى المذاهب يعمي الشخص حتى عن لغته
(٨٧) من كان مطلبه الحق ، ولم تدخل نفسه بينه وبين الحق ، أمكنه أن يتفق مع من كان مثله ، ولا يتأتى الاختلاف بين طالبي الحق
(٨٨) تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه
(٨٩) ثغثغ بعض الناس بلفظ الاجماع حتى أصبحت لهم ديدناً ، وحتى زعموا أن كل ماعليه العامة فهو إجماع
(٩٠) محاسبة النفس وخلجان القلب ركن كبير من أركان الايمان ، وقد جعلها الصوفية شرطا مهمّاً في نجاح الانسان
(٩١) أخفى شيء على الانسان نفسه ، وليس من السهل عليه أن يعرف دخائلها
(٩٢) لا يمكن لشخص أن يدعي أنه خلص من السخط على الله في قلبه الا اذا تقبل كل مصيبة بغاية الطمأنينة والركون الى الله والصبر بحيث يكون كالجبل لا يتزلزل
(٩٣) الذي ينظر الى الحق ويحرص عليه لا يمكن أن ينخدع بقول من قائل مهما بلغت ثقته به ما لم يعرضه على الحق الذي عنده ويمحصه
(٩٤) أقوى شرط في النجاح قوّة العزيمة فيه ، ويصر الانسان على الفوز بغرضه فاذا تضعضعت العزيمة ضاع نجاحه ، وهذا شأن المسلمين الآن
(٩٥) أمر القدوة في الدين أهم شيء في العقائد والأعمال ، فلابدّ أن يبحث فيه الانسان بحثاً جيداً ، ويقف عليه وقوفا تاما (أي فلا يتخذ كل من ادعى العلم قدوة له)

(٩٦) لايمكن للانسان أن يعمل بمصلحة العامة مالم يحس برابطة بينه و بينهم

(٩٧) يجب على علماء الدين في كل زمن أن يعطوه حقه من شرح مسائله على حسب مقتضيات الأحوال

(٩٨) إن الذي يحفظ العلم هو العمل به

(٩٩) انما يأتي بالمبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، والعقل السليم لايتعدى الصدق

(١٠٠) الحجاب المانع لكثير من معرفة مايتعلق بالشؤون الالهية على مايقرب من الحقيقة تحكم الشاهد في قلوبهم (أي قياس عالم الغيب على عالم الشهادة)

(١٠١) لايمكن للانسان أن يكون صادقاً ومخلصاً مع الله حتى يكون شجاعا

(١٠٢) ان قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية ،وركن من أركان اليقين فلا بدَّ من تحصيله

(١٠٣) الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بايمان ومن كان عنده من الثقة بالله مالا يخشى معه أحداً فهو المؤمن ، وهذا الايمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة

(١٠٤) وقال في وصف مدينة القاهرة : مارأيت بلداً جعل فيها الدين دكانا مثل هذه البلد

(١٠٥) وقال في وصف بعض أهل الجمود : هذه الرؤس ماخلقت إلا لتتفكر لالوضع العمائم يتنافس بعضهم بعضا في تضييع الزمن وفي هذا خسران الدنيا والآخرة

(١٠٦) لاتشحذ البصيرة بشيء مثل الفكر

(١٠٧) ماخلق الله في العالم من هو أشأم على نفسه من الحاسد

(١٠٨) إن الانسان تضيق حياته وتتسع على مقدار مايعرف اسمه ويشتهر

(١٠٩) إن الله عالم بكل شيء ولايتقرب إلى الله بشيء كالعلم

(١١٠) تنقضي الاجيال والاعوام ولا يمكن أن ينقضي النظر في الحقائق الكونية ولا في الحقائق التي في نفس الانسان

(١١١) اذا وجد الحب في قلب أسعده واذهب شقاءه ، وأسعد المحبات محبة الصداقة ، فاذا وجدت المحبة الخالصة الصحيحة بين شخصين أسعدتهما أعظم سعادة ومن الأسف أن كثيراً منا لايمكنهم أن يقدروا المحبة قدرها

(١١٢) من أكبر التقوى علو الهمة ، ومن أكبرها السعي فى مصلحة الأمة ونفع الناس

(١١٣) أساس سعادة المسلم ثقته بالله وعمله لرضاه

(١١٤) لاوحشة في النفس كوحشة الجهل وكلما علم الانسان شيئاً أنس به وسر

(١١٥) لايتأتى القطع بشيء إلا بعد إعمال الفكر

(١١٦) وقال في وصف بعض اهل الفساد : هذا صنف مثل ديدان الفساد لاتعيش إلا في القذر

(١١٧) الشعر اذا لم تكن الفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر

(١١٨) لايشتهر الانسان في شيء إلا اذا وصل فيه الى حد يعجز عنه الكثيرون

(١١٩) وقال في حالة من الاحوال : نعوذ بالله من الجهل الذي تفقد به القلوب حتى اذا بحث الانسان عن قلبه بين جنبيه لايجده

(١٢٠) العبادة تحديد مابين العباد وبين الله فلا يجوز فيها القياس

(١٢١) لايطلق على الله من الاسماء إلا ماجاء في كتابه أو في حديث متواتر لاننا لانعرف من الله إلا ماعلمنا الله

(١٢٢) ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية

(١٢٣) من شر الهوى على الانسان أن يتعلق بما سمع ، وطالب الحق لايتعلق بقول غيره إلا اذا عرف انه يوصله الى الحق

(١٢٤) وقال في وصف بعض أهل الجمود

(١٢٥) وضعوا لانفسهم لغة جديدة غير التي انزل الله بها شرعه ، ولذا نراهم في مثل وقفية الواقف يحارون في الفهم حيرة لاخلاص منها

(١٢٦) أشد التعب أن ترى من حولك مرضى وانت لاتستطيع معالجتهم

(١٢٧) كل ما سمع عن الرسول ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان ومن لم يقف فقد تعدى على الشرع وخرج عن الحق

(١٢٨) وجاءه رجل يشكره على مساعدته له فقال له كلنا نشكر الله

(١٢٩) من كان عنده مريض فهو المريض

(١٣٠) ورأى رضي الله عنه كتابا من كتب الحكم فقال

(١٣١) هذه الكتب تذكر الانسان بنفسه

(١٣٢) الباطل لا يصير حقا بمرور الزمن (هذه الكلمة قالها جوابا للخديوي عند ماسأله عن مسألة الترقية وقال له هذا شيء مضى عليه زمن)

(١٣٣) انما ينهض بالشرق مستبد عادل

﴿ تم الجزء ﴾

هذا وإن له رضي الله عنه حكما أخرى كما أن له رسائل ومنشات كثيرة منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الأول من هذا الكتاب وإذا اجتمع عندنا شيء كثير منها بعد فاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيلا لهذا التاريخ وننشر فيه مايضنّ به ان يضيع مماخوطب به من المنثور والمنظوم وعندنا منه نفائس كثيرة ،

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الآثار

ويتغمد صاحبها بالرحمة

والرضوان

LIBRAIRIE
AL ARAB
28, Rue [illegible] Sidki
LE CAIRE Egypte

انه الامير مصطفى فاضل باشا المصري بان يدعوه الى داره ويريه مايصغر منطقته في عينه، فدعاه الى العشاء والسمر فرأى من الآنية والماعون والأثاث المرصعة بالجواهر ماخطف بصره حتى قيل انه رأى الشباشب (كلمة مصرية مفردها شبشب وهو الكوس او القفس في العربية) وسيور القبقاب في المرحاض مرصعة بالجواهر فصار بعد ذاك يخفي منطقته تحت كسائه – ولكننا نقول شيئاً تلبية للطلب

جرت العادة بأن يكون الكلام في مقام الاحتفال بافتتاح مدرسة محصوراً في مدح العلم والتعليم، على أن العلم غني عن المدح باتفاق الناس على فضله، فلا يوجد جاهل ينكر شرف العلم وشدة الحاجة اليه ولكن الناس في أمتنا كانوا يعتقدون أن العلم محصور في أمور مخصوصة يكفي أن يقوم بها بعض الناس فيسقط الطلب عن الآخرين، وكان يصعب إقناع الجمهور بوجوب تعميم العلم وبانه يحتاج اليه في كل شيء، ولكن قد تغيرت الآن الاحوال في هذه البلاد، وصرنا نرى جميع طبقات الناس حتى الطهاة (الطباخين) يقذفون أولادهم ذكرانا واناثا في المدارس لاحساسهم بان التعليم لابد منه، ولكن هذا الاحساس عند الاكثرين منهم لايعرفون حقيقته ولا سببه ولا فائدة التعليم الحقيقية. والسبب الحقيقي فيه التأثر بحال الاجانب الذين انتشروا في هذه البلاد، فهو سبب من الخارج لامن النفس، فهذه البلاد الآن في طور الانقلاب من حال إلى حال، إذ حدثت فيها مجار جديدة للحياة أو تيارات تجرف في طريقها الناس من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون، ومنها تيار تعميم التعليم، فالناس يرغبون في تعليم اولادهم وهم لايدرون ماذا يتعلمون ولا ما هي فائدة التعلم، ولذلك لا يميزون بين مدرسة وأخرى

وقد سألت بعض المتعلمين التعليم الثاني في المدرسة الخديوية عن رأي التلاميذ في فائدة التعليم مع العلم بأن أعمال الحكومة لاتفي بجميع المتعلمين؟ فقال انهم يرون ان المتعلم يقدر على أعمال شريفة يستغني بها لايقدر عليها غيره. فقلت له ان الذي يتعلم ليعيش بعلمه لا غرض له إلا نفسه فهو محترف كالصانع والزارع، وقد رأينا كثيراً من العوام حصلوا من الثروة بالزراعة والتجارة مالم يقاربهم فيه متعلم

كزعزوع بك وفلان وفلان . والذين ارتقوا بالتعلم في مصر قليلون كفلان وفلان من القضاة وغيرهم ، ولم نجد فيهم من حصل بعلمه ثروة كبيرة كأولئك العامة ، فالتعليم في مصر لم يرتق الى درجة يسهل معها تحصيل الثروة الواسعة به ، على ان نفقات المتعلمين تكون أكثر ، فاذا طلبوا الثروة ولم يجدوها كانوا أشقى من غيرهم في المعيشة . فقال هذا صحيح ،

ثم قلت له ألا يوجد في اخوانك المتعلمين من يفكر في التوسل بالعلم الى خدمة أمته وبلاده خدمة عامة فيكون أفضل من النجار والحداد والفلاح الذين لا يعملون إلا لاجل بطونهم، وإن كان عملهم الجزئي نافعاً للناس ؟ فقال يوجد قليل منهم يفكر في انشاء جريدة لخدمة الوطن . قلت وماذا رأوا من خدمة الجرائد للناس ؟ أي شيء ضار كانت عليه الامة فتحولت عنه بارشاد الجرائد، وأي شيء نافع كانت منصرفة عنه فتوجهت اليه بحثها وترغيبها ؟ وهل تعرف أنت للجريدة الفلانية والجريدة الفلانية مذهباً ورأيا نافعاً تمتاز بالدعوة اليه لترقية البلاد ؟ فقال لا ، وكان قصارى الحديث معه أنه ليس لاحد غاية مقصودة من التعلم وراء خدمة الحكومة (أقول ويلحق بها الطب والمحاماة عند نفر قليل)

لهذا التعليم الناقص في مصر سيئات ومضار فان الفتن والمعاصي الضارة التي ألمت بالبلاد بواسطة الاجانب لم تنتشر فيها إلا بسعي هؤلاء المتعلمين ، وقد قال الاستاذ الامام ان من مقاصد المدارس إفادة المتعلمين الصدق والامانة فسلوه وسلوا غيره من العقلاء المختبرين ألهم ثقة بصدق أكثر المتعلمين وأمانتهم ؟ يجيبوك لا لا . والسبب في عدم إفادة التعليم أمثل هذه الصفات هو أن القائمين بأمر التعليم لا يقصدون ذلك فان الحكومة انما تقصد بمدارسها ايجاد خدم لها يقدرون على أعمال مخصوصة ، وليس لها عناية بتربية الارواح وترقية الأمة ، هذا وان مدارس الحكومة خير المدارس وأرقاها تعليما ونظاما ، وأما المدارس الاهلية فالمقصود منها التجارة والكسب، وأكثر أصحابها لا يعرفون طريق الجمع بين الافادة المطلوبة والاستفادة، وقد دخلت مرة إحدى هذه المدارس وسألت أحد المدرسين عن الكتب التي يقرأها في الدين — والدين كما لا يخفى أساس التهذيب — فقال

انني كنت بدأت بقراءة شيء من السيرة النبوية وبمناسبة ذكر المعراج ذكرت لهم فرضية الصلاة وأردت أن أذكر شيئا من أحكامها فرأيت على وجوه التلامذة مايدل على عدم الارتياح فتركت درس الدين: يعني ان هؤلاء لايعلمون الا ما ترتاح اليه نفوس التلاميذ وتتلذذ به، أي يريدون أن يكون التلاميذ هم نظار المدارس (١)

ولا نعرف في البلاد مدارس غرضها تهذيب النفوس غير مدارس الجمعية الخيرية، وذلك ان رئيس هذه الجمعية ومساعديه في ادارتها هم خيرة رجال هذه البلاد معرفة وغيرة، وأقدرهم على ايجاد التعليم النافع والتربية الصحيحة، ولا تنتج الامم الضعيفة أمثالهم إلا بعد مخض الزمان لها في قرون طويلة، فيجب أن تغتنم فرصة وجودهم بمساعدة الجمعية على نشر التعليم والتربية على الوجه الصحيح النافع فانه ماقصر بها إلا قلة المال. وقد أحسن وجهاء المحلة صنعا بتفويض أمر مدرستهم الى الجمعية، وانني أدعو كل واحد من السامعين الى مساعدة هذه الجمعية بنفسه وبدعوة غيره الى ذلك، فان الامور العامة لاتحيا وتبلغ كمالها إلا بالدعوة فينبغي لكل واحد أن يدعو نفسه وكل من يظن فيه الخير الى مساعدتها على قدر الاستطاعة من غير تفرقة بين غني وفقير فان الله تعالى يقول

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا »

أي من كان رزقه واسعاً فلينفق كثيراً يليق بسعته ومن كان رزقه ضيقا فلينفق بقدر حاله، والقليل من الكثير كثير، فلو أن كل واحد من اهالي القطر بذل للجمعية قرشاً واحداً في السنة لكان لها من ذلك ملايين تمكنها من تعميم التعليم في القطر

وليعلم كل من يبذل شيئاً للجمعية ولو قليلا أنه شريك في الاجر وفي الشرف لمن بذل الكثير من حيث إن كل واحد بذل مافي وسعه ومن حيث إن العمل العام لم يقم ولا يقوم به واحد وانما يتم بالتعاون والمساعدة وباذل القليل ركن من أركان التعاون اه

(١) نشرنا في صفحة ٦٠٢ من مجلد المنار السادس مقالة عنوانها (المدارس المصرية لاتربي رجالا مستقلين ــ رد على المقتطف) فليراجعها من شاء استيفاء هذا الموضوع

خطاب ابراهيم بك الهلباوي

ثم دعي الي الخطابة ابراهيم بك الهلباوي فقام وذكر ملخص تاريخ هذه الجمعية وبين انها جمعية عمل لا جمعية قول، وانه أحس من نفسه بالعجز عن الخطابة في احتفال مدرسة للجمعية على تمرنه على الخطابة . قال انني دخلت في هذه الجمعيه في أول تأسيسها منذ اثنتي عشرة سنة ولم أخطب فيها قط، وقد عرضت مناسبات للخطابة فكنت أستأذن مولانا الرئيس بالتلويح ووكيل الجمعية وبعض أعضاء الادارة بالتصريح، فكانوا يضعون اصابعهم على أفواههم اشارة الى وجوب السكوت، وقد قامت في هذه المدة جمعيات قولية كثيرة فذهب بها ودرس رسومها القول والخطابة، على انها لم تصادف من المقاومة مالقيت الجمعية الخيرية الاسلامية، وذكر اسماء هذه الجمعيات التي كانت محترمة في أوقات كان فيها ذكر الجمعية الخيرية مخيفا ومزدرى ، حتى كان الداعي الى مساعدتها لا يتوقع إلا الخيبة ، وحتى ان بعض الباشوات هدد محصلها مرة بالضرب بعد أن أهانه بالقول . وقد ثبت رجالها مع هذه الصعوبات على عملهم ليثبتوا للناس ان الساعي بالخير مع الصدق والاخلاص لابد أن يظفر بالنجاح اذا هو ثبت وصبر وكذلك كان

ونالت هذه الجمعية الثقة في نفوس الناس بعدما تولى رئاستها مولانا الرئيس الحاضر ، حتى أحس كثير من العقلاء بوجوب كفالتها للمدارس الاهلية التي ينشئها الاهالي لتربية أولادهم، وكان السابق لذلك وجهاء المنيا فقد أنشأوا مدرسة في بني مزار وعهدوا بادارتها الى الجمعية رجاء بقائها وثباتها والانتفاع بتعليمها وكذلك فعلتم ياوجهاء أهل المحلة فانكم طلبتم من الجمعية أن تدير لكم هذه المدرسة التي أنشأتموها بأموالكم لمثل ذلك الغرض بمحض الاحساس بالثقة بالجمعية اه

وبعد أن أتم خطابه المفيد ختم الاحتفال كما بديء بتلاوة القرآن الكريم ، ولا صحة لما ذكر في المؤيد أمس من ان بعض المدعوين تصدوا للخطابة فمنعهم مأمور المركز الخ . فنثني على وجهاء المحلة أطيب الثناء، ونرجو لهم كمال الارتقاء. اه

خطته الاصلاحية في الجمعية ومدارسها

الذي يؤخذ من خطب الاستاذ الامام في هذه الاحتفالات المدرسية ومن خطبه في اجتماع جمعيتها العمومية السنوية وكان يكرر فيها أن الفائدة العامة الكبرى من هذا الاجتماع هو تجديد شعور الاعضاء بفائدة الاجتماع بقصد التعاون على خدمة الامة الخدمة النافعة فهذا الشعور هو الذي يبعث الهمم ويقوي العزائم على النهوض والعمل المشترك للملة والامة الخ والذي يستفاد من حديثه معنا أيضا — وهو الذي أشرت به وكيل مدارس الجمعية حسن باشا عاصم — هو ان الامة لا تتكون وتكون أمة واحدة في شعورها بحياتها الملية ومصالحها العامة وبحاجتها إلى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها في جميع طبقاتها بحيث تكون الطبقات في جسم الامة كالأعضاء في جسد الشخص ، إلا اذا كانت التربية والتعليم للاحداث موجهين إلى اصلاح الانفس بالعقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله وحقوق الوالدين والاقربين والجيران وسائر الامة بحيث يكون مجموع الامة كالسلسلة يهتز بتحريكها جميع حلقاتها — ومصداقا للمثل النبوي القائل « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام احمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) مرفوعا إلى النبي ﷺ ففي الجسد أعضاء ظاهرة وباطنة ذات وظائف مختلفة عمل كل منها لنفع الجميع وألمها يشعر به المجموع ، فالعينان لا تبصران لاجل منفعة خاصة بهما ، والمعدة لا تهضم الطعام لاجل حفظ صحتها وحدها ، وكذلك الدماغ والقلب واليد والرجل . كذلك يجب أن تكون طبقات الامة تعمل عملها بالاتقان لمنفعة جميع الطبقات . ويكون ارتقاء كل طبقة وكمالها في وظيفتها العملية ركنا من أركان ارتقاء الامة وكمالها الاجتماعي والسياسي ، فهي لا تكون أهلا للحكومة النيابية مضطلعة بها إلا اذا كانت طبقاتها كلها تشعر بحاجاتها الملية والسياسية شعوراً واحداً ، فتكون اهلا لاختيار نوابها والسيطرة عليهم . وانما وسيلة هذا التعليم الاستقلالي المؤهل للقيام بجميع مصالح

الامة والتربية الدينية المصلحة للانفس الموجهة لها الى الاصلاح الخاص والعام

هذا هو الواجب في التربية والتعليم في رأي الاستاذ الامام ورأي كل حكيم، ولكن القائمين بأمر التربية والتعليم في مصر لايفكرون في هذا ولايقصدونه سواء في ذلك التعليم الديني في الازهر وملحقاته ، والتعليم المدني في المدارس الاميرية والمدارس الاهلية المقلدة لها

فأما الازهر وملحقاته فليس فيها إلا تعليم تقليدي في شكله وموضوعه وغايته لما جرى عليه آخر السابقين فيهـا يشبه مايسميه علماء الطبيعة بحركة الاستمرار لجسم دفعه دافع فانتهت حركة الدفع القوية له وبقيت حركة الاستمرار تضعف آنا بعد آن ، وليس لرؤسائه قصد يوجهون التعليم اليه غير ما يقصده الافراد من نجاة مجاور من الخدمة العسكرية إلى تحصيل شهادة علمية يكون حاملها مدرساً في الازهر او قاضيا شرعيـاً يعيش كل منهما براتب الوظيفة ويجري فيها على ما جرى عليه من قبله ، لايخطر لاحد منهم ببال أن ينقذ أمته وملته من ضعة ، أو يعود عليهـا بمنفعة . بحيث تغير بسعيه ما بانفسها من جهل ورذائل وفساد ليغير الله ما بها من ضعف وظلم واستبداد.

وأما مدارس الحكومة والاهلية فليس فيها إلا تعليم تقليدي صوري في شكله وموضوعه للمدارس الاوربية، وغايته تخريج موظفين للحكومة في جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كالآلات الميكانيكية لادارة هذا المعمل الكبير . وليس فيهـا شيء مما في المدارس الاوربية من تخريج رجال مستقلين في العلوم والفنون يرفعون قدر الامة بما يكتشفون من أسرار الكون ومنافعها ، ومايرقون من الصناعات فيها الخ كما انه ليس فيها أدنى فكرة في تهذيب الاخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقدصار أمرها إلى الانكليز وكان المسيطر عليها أحد قسوس البروتستانت فكان جل همه محو كل أثر اسلامي منها . وللاستاذ الامام لائحة في اصلاح تعليم الازهر والمدارس بأنواعها في مصر نشرناه في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص٥٣٣- ٥٥٢) ولائحة في اصلاح التعليم الديني في بلاد الدولة العثمانيـة نشرناه (ص ٥٠٥ ـ ٥٢٢) ودرس عام في التعليم الاسلامي ألقاه في تونس ونشرناه في

صفحة ٥٩٨و٧٧٥ من مجلد المنار السادس

وبجانب هذين النوعين من معاهد التعليم مدارس دعاة النصرانية وهي هي التي لها مقاصد عامة في التعليم والتربية موجهة إلى جذب التلاميذ إلى دينهم ومذاهبهم أو إلى الالحاد المحض، وإلى نشر لغاتهم وغرس عظمة دولهم وثقافة شعوبهم في الانفس فجميع معاهد التعليم في مصر حرب للاسلام في عقائده وآدابه وسياسته وتشريعه بقصد وبغير قصد ونتيجة ذلك انها حرب للامة مانعة من ترقيتها واستقلالها ووحدتها

فوجه الاستاذ الامام عزيمته إلى مقاومة هذا الفساد كله باصلاح التعليم الديني في الازهر وملحقاته وإلى جعل التعليم المدني في مدارس الجمعية الخيرية اسلامي الصبغة يقصد به اصلاح الطبقات الدنيا من الزراع والصناع وأصحاب المهن الحرة من واطئة وعالية ، وترقية الصناعات الوطنية ومنع تعليم اللغات الاجنبية منها لكيلا تكون سبباً لجعل غاية التعليم خدمة الحكومة والجري على منهاجها المادي الفاسد المفسد للانفس، وسببا لعظمة الاجانب في القلوب والاندفاع لتقليدهم فيما يروج تجارتهم ومصنوعاتهم ويحول دون ايجاد ما يغني عنها من مصنوعات البلاد.

ولكن الجمعية قد تنكبت هذا الصراط المستقيم بعد وفاته ووفاة صنوه في الاصلاح حسن باشا عاصم (رحمهما الله) وصار التعليم فيها ماديا صوريا كتعليم المدارس الاميرية والاهلية، حتى ان البنات يعلمن الرقص ولا يربين على الصلاة بالعمل فأي خير يرجى للأمة من بنات لايقمن الصلاة ولكنهن يتقن أنواع الرقص ؟ الا ان هذا هو الذي يزيد البيوت (العائلات) فسادا . والامة ضعفا واعتلالا

ولم يكن الاستاذ الامام راضيا من التربية والتعليم في مدارس الجمعية الذي بينا وصفه في خبر الاحتفالات السنوي لها . بل صرح في بعض خطبه بأنه لايزال تعليم ضرورة ، وكان يرى انه لايبلغ كماله إلا بتخريج المعلمين الراقين في علومهم الدينية والدنيوية وفي أخلاقهم ، وان هـذا لايتم إلا باصلاح الازهر أو بانشاء الجمعية لمدرسة خاصة لتخريج المعلمين

وكذلك الكتب لم تكن تعجبه وقد عرضت عليـه فكرة سنحت لي وهي تأليف كتب للتعليم الديني في درجاته الثلاث من العقائد والعبادات بأن تكون

كتب العقائد على صراط القرآن في الاستدلال بآيات الله في الانفس والآفاق، على الوجه الذي ترتقي فيه علومها في هذا الزمان ، وأن تكون كتب العبادات منها مبتدأة في كل باب بجملة ما ورد منها في القرآن الحكيم ، ويتلوه جملة ماصح في السنة ، وتذكر في الحواشي مدارك الائمة ، بترتيب سهل العبارة ، فاعجبه هذا الرأي وقل لي أوجد هذه الكتب ونحن نقرر تدريسها في مدارس الجمعية الخيرية

وقد كتب إلي من الاسكندرية في صيف سنة ١٩٠٢ في هذه المسألة مانصه: « رأيت حسن باشا وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد فرأى رأيا لايخلو من حسن وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب حتى في النجاسات ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل مايهم من اختلاف المذاهب كلها ا ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة ، فاذا سهل عليك ذلك فافعل . وأحب أن أراك يوم الاثنين الآتي في عين شمس قبل الظهر اذا تيسر لك ذلك والسلام »

وأقول ان مسألة وضع الخلاف في الحواشي كنت ذكرتها له . وأما مسألة بيان الاجماع فكان من خطتي الاساسية كما بينته في مقالات المصلح والمقلد ولعلي لم أذكرها له ، واما مدارك الأئمة فهي عندي غير خلافاتهم الجزئية

ثم كتب إلي بعد عودته الى مصر بأيام كتابا أرسله مع ساعي الازهر قال فيه « حسن باشا أرسل يسألني اليوم هل شرعت في العـمل لتحرير كتابي العقائد والفقه، وأحب ان أجيبه فهل شرعت ؟ وبودي أن يكون الجواب : نعم وأن يتم العمل في مدة قليلة »

وأقول أما العقائد فقد كنت شرعت في كتابة رسالتين أو كتابين فيهما أحدهما للمبتدئين والثاني لمن فوقهم ولم أتمهما وأطلعته على الثاني فسر به، ونشرت نبذة منه في معنى صفة الحياة لله تعالى من تفسير آية الكرسي . وأما كتاب الفقه فارجأته لاجل مراجعة كتب المذاهب في الخلاف ولم يتسن لي ذلك وتوفاه الله تعالى ولم أحقق له وللامة هذا الامل . ولا تزال هذه أمنيتي وإن كثرت الصوارف عن إنجازها ، وقد كثرت الشواغل عنها والله قادر على تيسيرها والامر لله العلي الكبير

رسم شمسى لمذكرة أرسلها حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الاسلامية
من الاسكندرية إلى الأستاذ الامام رئيس الجمعية بمصر بشأن تأليف
صاحب المنار كتابين فى العقـائد والعبادات ليدرسا فى
مدارس الجمعية . وما كتبه الأستاذ الامام على المذكرة

كتاب العقائد والعبادات

عزيزى
ارجو ان تذكر الشيخ رشيد بما وعد والسلام حسن عاصم
٨ يوليه ٩٠٤

ليتك تشتغل بهذا الكتاب
أو أحد من الكتابين فى القريب العاجل
حتى يمكن وضعهما بين ايدى تلامذة فى اول
الدراسة الآتية
محمد عبده

المقصد الثامن

من الفصل السادس

عمله في جمعية احياء الكتب العربية

قد كتبت في ترجمة المنار له في هذه المسألة مانصه :

كان رضي الله عنه يرى أن حياة الامة بدون حياة لغتها من المحل ، وان حياة العلوم العربية بمثل هذه الكتب الازهرية محال ، وان لا بد للاصلاح من إحياء كتب أئمتنا و كبار علمائنا التي ألفت أيام كان العلم حيا في الامة ، فكان يسعى لذلك سعيه ، وبهديه وإسعاده طبعنا ذينك الكتابين الجليلين اللذين هما روح علم البلاغة - أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز - للشيخ عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة ولولا تصحيح الفقيد لهما واستحضاره لنسخهما من الاقطار النائية لما تيسر طبعهما.

وفي سنة ١٣١٨ أسست في مصر جمعية خاصة لهذه الخدمة تحت رئاسته سميت (جمعية إحياء العلوم العربية) كانت فاتحة أعمالها طبع كتاب (المخصص) لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في بابه ولا غناء عنه في إحياء اللغة في هذا العصر. وقد شرعت بعد طبعه في حياء مدونة الامام مالك وعني الفقيد رحمه الله تعالى باستحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ، ولولاه لما تيسر جمعها كلها ، ولنا رجاء عظيم في بقائها وحسن خدمتها بهمة من كان وكيلها وليس لرئاستها بعد الفقيد سواه الا وهو حسن باشا عاصم اهـ

وقال حسن باشا عاصم في تأبينه يوم ذكرى الاربعين مانصه :

عقب تقلده منصب الافتاء عين عضواً في مجلس شورى القوانين فكان للمجلس على عهده من الخدمة النافعة والاحترام مالم يكن له من قبل ، فقد كان رحمه الله عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان أهم غرض له من التعب الشديد في المجلس تعويد الامة على دقة البحث في أمورها وتربية الرأي العام

فيها ، ولا ننس من خدمته للعلوم الاسلامية رئاسته لجمعية احياء العلوم العربية فقد أسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاحياء كتب سلف هذه الامة وأفاضل علمائها، وكانت فاتحة أعمالها طبع كتاب المخصص لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في موضوعه. وقد تولى رحمه الله تصحيحه مع علامة اللغة المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى فقيدنا فانه لولاه لما أقام في هذه البلاد . وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص في احياء مدونة الامام مالك رضي الله عنه ، وللفقيد من الخدمة في استحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ما لولاه لم يكمل لنا استنساخ الكتاب كله اه

هذا ما قاله زميله ووكيله في رياسة هذه الجمعية وفي الجمعية الخيرية معا ، والذي قعد بهما عن المضي في احياء كتب الائمة قلة المشتركين في الجمعية بالدراهم ، وقد حضرت اجتماعا لهما في ادارة الجمعية الخيرية بقبة الغوري بعد عودة الأستاذ من ميت غمر عقب توزيعه ما جمع لمنكوبي الحريق فيها من الاعانات ، فقال حسن باشا له ممازحا انني كنت في ايام هذا الصيف أصرف جميع اوقات الفراغ من الديوان في المكاتب القديمة أبحث عن الكتب النفيسة ولا سيما تكميل نسخة المدونة القديمة ، التي عثرنا على بعضها وانت تتنقل متنزها في البلاد ، والجرائد تتسابق الى ذكر تنقلات فضيلة الاستاذ ، قال الشيخ هذه هي العادة عندنا : الرئيس يكون قليل الشغل ويلقى اكثر حمله على الوكيل !! قال الباشا لو اعطيتنا للجمعية هذه الالوف الجنيهات التي جمعتها للاعانة أما كنا نخدم بها الامة بما هو انفع لها الف مرة من تمتع اهل ميت غمر بها ؟ ان الذين ماتوا بالحريق ذهبوا الى رحمة الله ، والباقون من اهليهم ستظل معيشتهم على ما كانت لا تغيرها هذه الاعانات . قال الشيخ انني انما اقصد عند حدوث هذه المصائب الى تحريك شعور الرحمة في قلوب الناس وحملهم على مساعدة المنكوبين لتعويدهم البذل في المنافع العامة ، ومتى تعودوه سهل عليهم في جميع وجوه الخير والبر كجمعيتينا وغيرهما . فرحم الله هذين الرجلين المصلحين اللذين لم يوجد لهما مثل في عصرنا ، ولا خلف يخلفهما ووفقنا الله للاهتداء بهذا الامام في خدمة الامة في كل عمل وكل حال ، ولنا في تاريخه هذا خير مثل وأفضل منوال

الفصل السابع

في شؤون العامة وهو يدخل في بضع مقاصد

(١) تدريسه (٢) مؤلفاته (٣) دفاعه عن الاسلام (٤) اغاثته للمنكوبين في احداث الزمان (٥) أسفاره الى أوربة والاستانة وسورية وتونس والجزائر وصقلية والسودان (٦) آراؤه وآماله وأمانيه (٧) شمائله وأخلاقه (٨) مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين والطعن عليهما

المقصد الاول

من الفصل السابع

تدريسه

كانت طريقة الاستاذ الامام في التدريس مباينة للطريقة الازهرية التي كان ينتقدها أشد الانتقاد بأنها مناقشة في عبارات الكتب فقد مرنوا على قراءة كتب معينة كل كتاب منها لثلاثة أو أربعة من المؤلفين ، وإن شئت قلت كل كتاب منها في الصورة هو ثلاثة كتب أو أربعة في الحقيقة : المتن ، والشرح ، والحاشية ، وقد يزاد عليها التقرير ، كل منها يفسر ما قبله ويذكر ما تحتمله عباراته من المعاني وما قد يرد عليها من الاعتراض ، وما يدفع الاعتراض من الاجوبة والاحتمالات التي تعد كثرتها آية النبوغ في التحقيق ، ولذلك كان يقول رحمه الله ان أهل الازهر يتعلمون كتباً لا علما .

وقد جاهدهم جهاداً كبيراً على ترك قراءة الحواشي ، وكان يكره قراءة الشروح أيضاً ويتربص الفرص لتقليلها أو ابطالها ، ولم يقرأ هو في عهد الاصلاح

الاخير في الازهر غير المتون ، واما ما وضعه من التعليقات على كتاب البصائر النصيرية في المنطق فلم يكن يلتزم قراءتها في درسه وانما وضعها لتسهيل مطالعة الكتاب على طلبة الازهر لدقة عبارته على كونه لم ير متناً متوسطا خيراً منه .

وقد عقدنا المقصدين الاول والثاني من الفصل الرابع في تدريسه في الازهر بعد أخذه لشهادة العالمية وقبلها (راجع ص ١٣٣ - ١٣٧) وتدريسه في المدارس كدار العلوم ومدرسة اللغات . وأخبرني الذي كانوا يحضرون دروسه الاولى كسعد باشا زغلول وحفني بك ناصف ومحمد صالح باشا أن بيانه للمسائل كان في غاية الوضوح بحيث ينتقد من كان يحضر دروسه قراءة سائر المشايخ ويرغب عنها، ولكن فاتني أن أسألهم عن طريقته وأسلوبه في القراءة في الازهر ثم في دار العلوم وأظن أنهما عين ماعهدناه منه في الازهر أخيراً

وهو انه كان يقرا عبارة متن رسالة التوحيد والبصائر وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها الى سؤال، فان استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار، في قول فاصل ليس فيه شك ولا احتمال ، ثم يضع الكتاب أو الكراس أمامه ويبسط الموضوع العلمي بسطا تاما وافياً بتحقيق المسألة والاحاطة بالغرض منها ، بعبارات مختلفة سيأتي وصفها في الكلام على ختام درس المنطق . وهذه الطريقة عكس ما كان يجري عليه السيد جمال الدين الافغاني فانه كان يبسط المسألة العلميه بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ، ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة .

قال لي سعد باشا زغلول ان الذي كان يحضر دروس أستاذنا في الازهر لا يسعه الا أن يحتقر دروس سائر العلماء فيه. وقد علمنا ان الشيخ أحمد الرفاعي يقرأ درساً في المنطق فذهبت الى درسه لأعلم كيف يقرأ المنطق على طريقتهم — وكان من أكثر المشايخ استنباطا للاحتمالات في عبارات الكتب ،والمنطق لاتحتمل قواعده الاحتمالات - فاذا هو يقرأ في عكس القضايا فقرأ عبارة الكتاب وأورد في إعرابها احتمالا يقتضي بطلان المسألة وهو عكس السالبة الكلية موجبة جزئية . قلت له ياسي الشيخ ان هذا الاعراب يفسد المعنى ويبطل القاعدة المنطقية فيجب رده .

قال: نحن مالنا . العلماء قالوا اذا صح الاعراب صح المعنى !! فانصرفت متعجبا
وقال لي حفني بك ناصف: لما شرع الشيخ محمد عبده يقرأ في الازهر لبعض الطلبة وذاع صيته بين الاذكياء منهم، اشتهيت أن أسمعه وكان أشياخنا يخوفوننا من درسه بأن فيه فلسفة واعتزالا ، فقلت في نفسي لا بد أن أسمع منه ولو مرة واحدة على سبيل الاختبار ، فلما سمعته دهشت من الاعجاب بفصاحته وبيانه للمعاني بما يتلقاه العقل بالقبول

أقول ولما شرع في عهدنا بقراءة أسرار البلاغة في الرواق العباسي بالازهر بين في الدرس الاول معنى علم البيان والبلاغة. قال الشيخ محمد المهدي : اننا قد اكتشفنا في هذه الليلة معنى علم البيان. فاعترف بأن ماحضره من هذا العلم في مدرسة دار العلوم لم يفده معرفة حقيقة هذا العلم والمراد منه، وقد كان هو يدرس البيان في المدرسة الخديوية ثم صار مدرساً في دار العلوم ثم في الجامعة المصرية درس فيها آداب اللغة العربية ، ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، وقد انتقل بحضور درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز على الاستاذ الامام من طور الى طور في البيان والمعاني وآداب اللغة

وممن تخرج عليه في الكتابين فكان كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وله قصائد في مدحه سننشر بعضها في ذيل هذا التاريخ ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ علي عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ، و كان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر وقد مدح الاستاذ الامام بشعره والظاهر أنه تركه بعد ذلك، بل كان تدريسه للكتابين في الازهر بدء عهد جديد في البلاغة سرى تأثيره من تلاميذه الى غيرهم وصار فيه عدد كثير من حسني الانشاء الذي يعجز شيوخهم وشيوخ شيوخهم عن مثل كتابتهم ومنهم الشيخ طه البشري وأخوه الشيخ عبد العزيز والثاني هو الذى اشتغل بعد الأزهر بالكتابة واشتهر بها . ولكن كان أكثر الناس استفادة من دروسه في البلاغة من غير الازهريين أحمد باشا تيمور والمتخرجون في دار العلوم وسأذكر اشهرهم عند الكلام على درسه الخاص ، وقد كان يحضر جميع دروسه كثير من أساتذة المدارس العالية والقضاة ورؤساء الدواوين

وأما قراءته للبصائر النصيرية فقد أفادتنا في المنطق ما كان يبيح لنا أن نقول فيه ماقاله الشيخ محمد المهدي في علم البيان ، فأنا أول واحد قال إننا لم نكن قبل هذا الدرس نفهم معنى الوجود والعدم ، على انني كنت حضرت على أستاذنا الشيخ محمد الجسر شرح السلم وشرح الفناري على ايساغوجي وشرح القطب على الشمسية . وكان لي من الفهم في هذا العلم أن كنت أعنت أستاذنا الجسر في الاسئلة إعناتاً حتى قال لي مرة في أثناء درس الكتاب الأخير : لا تسألني عن شيء في هذا العلم فان الذي عندي أقوله كله من غير سؤال . ولا فائدة في سؤالي عما ليس عندي . هذا وان هذا الاستاذ الجسر كان أشهر علماء بلادنا في هذا العلم وفي غيره من المعقولات ، وهو قد تلقاها في الازهر ولكن طريقته في تدريسها غير طريقة الازهريين

واني أنشر هنا ما كتبته في المنار عند ختم هذا الدرس من صفته وفوائده ومن كلام الاستاذ فيه . فانه هو الذي يجلي لقاريء هذا التاريخ قيمته وقيمة تدريس الاستاذ له في الجملة

(ختام درس المنطق للاستاذ الاكبر في الجامع الازهر)

(منقول من ص ٢٨٠ من المجلد الثالث من المنار الصادر في غرة ربيع الاول سنة ١٣١٨)

لا خلاف في أن العلوم والمعارف بدأ ينزوي نوزها ويغيض معينها في بلاد الشرق من عدة قرون ، ولم يكن الشرق إلا الاسلام والمسلمين ، حيث لا علم إلا علمهم ، ولا مدنية إلا مدنيتهم . وقد اقتضت حوادث الكون بأن ينتبه المسلمون من رقادهم كما انتبه غيرهم ، وكانوا أحق بالسبق والتقدم ، وكلما انتبه فرد انتباهاً حقيقياً عني بتنبيه غيره سنة الله في الخلق . وأشهر المتنبهين والمنبهين لاحياء العلوم في المسلمين لهذا العهد هو مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، أخذ حفظه الله على نفسه إيقاظ أهل الازهر الشريف وإرشادهم لطريقة التعليم المثلى ، فلقي في ذلك من العناء ما كان يلقاه المصلحون من قبله في كل زمان ومكان ، وعلم أن الارشاد بالقول قليل الجدوى ، فصار يقرأ الدروس بنفسه مع كثرة أعماله الاخرى في خدمة بلاده . وفي ليلة الاربعاء الماضية

أتم كتاب (البصائر النصيرية) في علم المنطق ، وقد احتفل بختامه في الرواق العباسي كما هي عادة الازهريين احتفالا قرئت فيه الخطب والقصائد في الثناء على الاستاذ، وكان الأولى أن تتوجه أفكارهم إلى بيان طرق الاصلاح الذي امتاز بها درسه ، والاقطاب التي كان يدور عليها كلامه، وترمي اليها سهامه، ومرجعها الى أصلين

(أحدهما) اختيار الكتب ، فان الناس يختارون في كل طور وحال ما يناسب درجتهم واستعدادهم ، ولضعف العلوم في القرون الاخيرة صار العلماء لا يقرءون الا كتب المتأخرين التي كتب عليها الشروح والحواشي الملأى بالمنازعات والمحاورات في الاساليب العرفية التي تضعف العلم واللغة جميعا كما هو المشاهد . ولا يكاد يتجرأ عالم على قراءة كتاب من كتب الجهابذة المتقدمين التي لم تشرح ولم تعلق عليها الحواشي ويسمونها (غير مخدومة) فعلمنا الاستاذ باختيار (البصائر النصيرية) الذي هو أمثل كتاب رأيناه في المنطق كيف نختار الكتب النافعة، التي لم نتلقها بالمدارسة، وعلق عليه شرحا وجيزاً بين غوامضه ، وأصلح ما عساه يوجد فيه من الخطأ مما لا يخلو عنه غير كلام المعصوم، فعلمنا بذلك كيف ينبغي أن تكون الشروح، وكيف ان المتمكن من العلم لا يهاب الكتب ولا يتقيد بالعبارات التي ألفها وتعلمها

(ثانيهما) الالقاء والتقرير — علمنا بذلك كيف تتجلى الحقائق بالصور المختلفة، وتتحلى المعاني بالصيغ المتعددة ، ليعتقنا من رق العبارات ، ويفكنا من اسر الالفاظ التي استبدت بالحكم فينا زمنا طويلا

علمنا كيف ضلت الافهام ، وغلبت الاوهام ، وكيف أطفأ دخان التقاليد النظرية، ما في العقول من أنوار العلوم اليقينية، لنطلب العلم ببرهانه، ونأخذ الشيء بربانه

علمنا كيف تتضاءل الشبه افتضاحا، وتتبختر الحجج اتضاحا، وكيف يفرغ البيان العويص من النظريات، في قوالب البديهيات ، لتقوى منا العزائم، ونقدم على العظائم

علمنا كيف نطالب العلم بالعمل بمسائله، والتحقق بدلائله، وملاحظة انطباقه على الواقع، وموافقته للوجود ، لتحصل ثمرة قوله صلى الله عليه وسلم «من عمل بما علم، ورثه الله علم مالم يعلم»

علمنا كيف تتمحص الحقائق للوصول الى اليقين بالعلم، والجزم بالفهم، ليخرجنا من الحيرة في طريقة التعليم المألوفة لهذا العهد ، طريقة الاحتمال وسرد الاقوال

علمنا بحاله ومقاله كيف يرتقي العلم ، وكيف يأتي المتأخر بما لم تأت به الاوائل ، لينزع من نفوسنا التسليم بأن الانسان دائما في تدل وهوي ، لا في تقدم ورقي ، فان التقدم مع هذا الاعتقاد ، ضرب من المحال

علمنا كيف يكون العلم صفة من صفات العالم تنفعل به نفسه، وتتكيف به روحه، ليرشدنا الى أن الصور والخيالات التي تلوح في الاذهان ، وتتراءى في الافكار، عند ما تنشر الصحف ، وتعرض على الانظار نقوش الكتب، ليس من العلم في شيء

ولو شئت أن أستشهد على كل شيء مما قلته بشيء مما جاء في درس المنطق لفعلت ، وأظن أن نبهاء الطلاب الذين حضروه يكتفون بهذه الاشارات ، ولا ينسون كيف فنَّد الاستاذ كلام أفلاطون ، وأصلح رأي أرسطو في الماهيات، ولا يغيب عن أذهانهم ذلك التحقيق العجيب في معنى الوجود ،وانه جنس الاجناس وجوهر الجواهر، ولا ينكرون انهم لم يفهموا معنى الوجود إلا في ذلك اليوم، كما لا يغيب عن عقولهم ذلك التحقيق البديع في معنى العدم، وانه لا حقيقة له، ولا يمكن تصوره، فحيا الله من علمنا كيف نفرق بين الوجود والعدم .

وأظن انهم يتذكرون ذلك السائل الذي سأله منهم عن مفهوم « شريك الباري »وقول المنطقيين انه من الكليات التي لم يوجد لها افراد. ويتذكرون جواب فضيلته الذي يتدفق حكمة وايمانا، وعلما وايقانا، الذي أثبت فيه ان ذلك المفهوم من الصور الخيالية المخترعة التي لاحقيقة لها ولا يمكن تصورها، وماجعلها من الكليات إلا نقص العلم، وخطأ الفهم الخ مالا محل له هنا لايضاحه وتفصيله

تليت القصائد والخطب احتفالا بختام الدرس كما قلنا والرواق العباسي غاص بالناس، يزاحم العلماء والمدرسون فيه الطلاب والمجاورين، وعلم الاستاذ ان ماسيلقى كثير فختم المجلس بخطاب بليغ ابتدأه بهضم نفسه بازاء الاطراء في المدح مع شكر من يظن به خيرا .وقال أحسن الكلام ما كان صادقا مطابقا للواقع، وانما يذهب مذاهب المبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، وان كان العلماء توسعوا في التسامح بالمبالغة والتشبيهات والاستعارات ولم يعدوها من الكذب. وسنذكر ماعلق بالذهن من خطابه في الجزء الآتي . اه

﴿ ملخص خطاب مولانا الاستاذ الحكيم ﴾

(في ختام درس المنطق)

(منقول من ص ٣٠٢ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)

وعدنا بأن نأتي بما وعيناه من ذلك الخطاب البليغ وها نحن أولاء منجزو موعدنا : قال الاستاذ بعدما تقدمت الاشارة اليه من ذم الاطراء مامثاله ملخصاً

سعادة الناس في دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ، فان الله خلق الانسان وناط جميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه، والذين حصلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعي هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحدهم لا يشاركهم في هذا أحد من البشر مطلقا ، والكسب مهما تعدد وجوهه فانها ترجع الى كسب العلم ، لان أعمال الانسان انما تصدر عن إرادته، وإرادته انما تنبعث عن آرائه، وآراؤه هي نتائج علمه . فالعلم مصدر الاعمال كلها دنيوية وأخروية ، فكما لايسعد الناس في الدنيا إلا بأعمالهم كذلك لايسعدون في الآخرة إلا باعمالهم . وحيث كان للعلم هذا الشأن فلا شك أن الخطأ فيه خطأ في طريق السير إلى السعادة عائق أو مانع من الوصول اليها ، فلا جرم ان الناس في أشد الحاجة إلى مايحفظ من هذا الخطأ ويسير بالعلم في طريقه القويم حتى يصل السائر إلى الغاية ، وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار، الذي يضبط الفكر ويعصم الذهن عن الخطأ فيه، ولهذا كانت العناية به من أهم مايتوجه اليه طلاب السعادة

اعتنى العلماء في كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ في الكلام، ووضعوا لذلك علوما كثيرة ، وما كان للسان هذا الشأن إلا لانه مجلى للفكر وترجمان له، وآلة لايصال معارفه من ذهن إلى آخر ، فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم . كما ان اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضاً ، فان الانسان لا يقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب ، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفي الفكر

انما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر ، والفكر انما يكون فكرا له وجود صحيح اذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجراه الذى وضعه الله تعالى عليه إلى أن يصل إلى غايته ، وأما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد، فهو المرذول الذى لا شأن له، وكأنه لاوجود له

وقد جاء الاسلام ليعتق الافكار من رقها ويحلها من عُقُلها ، ويخرجها من ذل الاسر والعبودية ، فترى القرآن ناعياً على المقلدين، ذاكراً لهم باسوأ مايذكر به المجرم، ولذلك بني على اليقين الذى علمتم معناه ،وضحاً في درس سابق (١)

لاينبغي للانسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فان وجده صحيحاً أخذ به ، وإن وجده فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) وإلا فهو كالحيوان ، والكلام كالجام له أو الزمام ، يمنع به من كل مايريد صاحب الكلام منعه منه، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد اليه من غير عقل ولا فهم

ما الذي يعتق الافكار من رقها ،وينزع عنها السلاسل والاغلال لتكون حرة مطلقة ؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لان تخليص الافكار من الرق والعبودية من اصعب الامور ،ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع اليها كل مايقال وهي (الشجاعة)

الشجاع هو الذي لايخاف في الحق لومة لائم ،فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وإن خالف في ذلك الاولين والآخرين. ومن الناس من يلوح له نور

---

(١) قال الاستاذ هو اعتقاد أن الشيء كذا وانه لا يمكن أن يكون الا كذا، لأنه مطابق للواقع. وهو بمعنى قولهم الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. واما قولهم عن دليل فلا معنى له،لان اليقين اكثر ما يكون في البديهيات وهي لايدال عليها

الحق فيبقى متمسكا بما عليه الناس ويجتهد في إطفاء نور الفطرة ، ولكن ضميره لا يستريح فهو يوبخه اذا خلا بنفسه ولو في فراشه .

لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لاجل الناس، إلا الذي لم ياخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن أن يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف ، فان فكر الانسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له اذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال اذا هو بحث بنفسه، واذا كان لا بصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذي هو فيه عين الضلال . إذن « ان الخوف من الضلال هو عين الضلال » فعلى طالب الحق أن يتشجع حتي يكون شجاعا، والله تعالى قد هيأ الهداية لكل شجاع في هذه السبيل ولم نسمع بشجاع في فكره ، ضل ولم يظفر بمطلوبه

وههنا شيء يحسبه بعضهم شجاعة وما هو بشجاعة وانما هو وقاحة، وذلك كالاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بالمحق، فترى صاحب هذه الخلة يخوض في الائمة، ويعرض بتنقيص أكابر العلماء غروراً وحماقة (١) والسبب في ذلك انه ليس عنده من الصبر والاحتمال وقوة الفكر ما يسبر به اغوار كلامهم ، ويمحص به حججهم وبراهينهم، ليقبل ما يقبل عن بينة ، ويترك ما يترك عن بينة . وهذا لا شك أجبن من المقلد، لان المقلد تحمل ثقل التقليد على ما فيه، وربما تنبع في عقله خواطر ترشده إلى البصيرة ، أو تلمع في ذهنه بوارق من الاستدلال لو مشى في نورها لاهتدى وخرج من الحيرة ، وأما المستهزىء فهو أقل احتمالا من المقلد ، فان الهوس الذي يعرض لفكره انما يأتيه من عدم صبره وثباته على الامور وعدم التأمل فيها .

والحاصل ان الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا (وهي التي يسميها بعض الكتاب العصريين الشجاعة الادبية) قسمان : شجاعة في رفع القيد

«١» المؤلف هذا تفنيد صريح لما زعمه المفترون من ان الاستاذ الامام كان يجرىء الناس عطا لبهم بالاخذ بالدليل على تحقير الائمة وترك الاستفادة من العلماء، كأن تعظيم الائمة عندهم لا ياتي الا من الجهل بأدلتهم وعدم فهم عللهم !!

الذي هو التقليد الاعمى، وشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد مايوزن به ويظهر رجحانه ،وبهذا يكون الانسان حراً خالصاً من رق الاغيار عبداً للحق وحده .

وهذه الطريقة طريقة معرفة الشيء بدليله وبرهانه ما جاءتنا من علم المنطق وانما هي طريقة القرآن الكريم الذي ما قرر شيئاً إلا واستدل عليه وأرشد متبعيه إلى الاستدلال، وانما المنطق آلة لضبط الاستدلال، كما ان النحو آلة لضبط الالفاظ في الاعراب والبناء كما قلنا . ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا اذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغي أن تراعى، فالذي يحفظ العلم حفظا حقيقياً هو العمل به ، والا فهو منسي لامحالة،

واننا نرى المجاور يقضي السنين الطويلة في الازهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولا و كتابة وانما ذلك لعدم الاستعمال. فأنصح لكل من يسمع كلامي أن يستعمل مايحصله من العلم ، وان يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ،وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل، ويكون الاشتغال بالدروس في حقه من اللغو المنهيّ عنه المذموم صاحبه شرعا . بل يقضي حياته كسائر الحيوانات العجم، وربما كان أتعس منها .

وأحب أن يكون كل منكم انسانا كاملا، والانسان يطلب الجميل النافع لانه حسن في نفسه ، لا لان غيره يطلبه ، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين ، وهذا هو الاسلام الصحيح

ثم ختم الاستاذ الخطاب بالدعاء والثناء على الله تعالى وانفض الاجتماع اه

(أقول) لو عقل عشرة في المائة ممن سمعوا هذا الخطاب الذي لخصنا معانيه، ولم يكن في استطاعتنا ايداعها تأثير إلقائه ، وجرس صوته . وقوة روحه، لرأينا في الازهر اليوم مئات من أساطين العلم المستقلين ، ومدرسيه الشجعان المصلحين، على أنه ولله الحمد لم يذهب سدى ، ولم يكن عبثا ، فقد وعاه بعض من سمعه ، وسرى تأثيره الى من لم يسمعه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه .

درس التفسير

بينت في مقدمتي لتفسير القرآن الحكيم الذى ينشر في المنار ويجرد منه سبب قراءة الاستاذ الامام له في الازهر فانقله هنا بنصه وهو : (صفحة ١٢ من الجزء الاول)

اتصلت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الاخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال إن القرآن لايحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل ، فاقترحت عليه أن يقرأ درساً في التفسير وكان ذلك في شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح في رمضان وكان يعتذر بما أذكر أهمه هنا

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لي عبارة من كتاب افرنسي في الطعن على الاسلام وطفق يرد عليها بعد أن قال : ان هؤلاء الافرنج يأخذون مطاعنهم في الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال ان القرآن نظيف والاسلام نظيف ، وانما لوثه المسلمون باعراضهم عن كل مافي القرآن واشتغالهم بسفساف الامور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وماذا كان ينبغي للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا انه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لاجل قهر الامم لا لاجل تربيتها ، وقال فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟؟ ثم طفق الاستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معاني التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد يقتضي شهوته لا محبته له، وغير ذلك من شؤون الوالد التي ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال في ذلك .

وههنا دار بيني وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس، وهو (قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه...

قال: إن الكتب لا تفيد القلوب العمي فان دكان السيد عمر الخشاب مملوء بالكتب من جميع العلوم وهي لاتعلم شيئاً منها، لاتفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها تسعى في نشرها . إذا وصل الى أيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير مايعلمون لايعقلون المراد منه، وإذا عقلوا منه شيئاً يردونه ولايقبلونه، وإذا قبلوه حرفوه إلى مايوافق علمهم ومشربهم كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التي تريد بيان معناها الصحيح وما تفيده.

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام - كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل؟: ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم، والقاريء لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب. ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب . وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق، وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام وكل درس لايقل عن ساعتين أو ساعة ونصف، بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر إلا من استثنى الله تعالى، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، مما لو جمع لكان رسالة حسنة في تفسير السورة، وماعلمت أحدا كتب من ذلك شيئاً إلا أن يكون عبد العزيز(١) (قلت) انه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة

(١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار وحده

وكثير منهم مانبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذي أنا عليه إلا بها

(قال) ان بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأي موضوع أمام أي انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين: يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها، وأنا كنت أحسده على هذا لانني تؤثر في حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا . وهكذا الكتابة ، فانني ربما أتصور أن أكتب في موضوع وعند ماأوجه قواي لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن ألقي هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قد امتص بعضها بعضاً حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئاً .

« ان حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لاأتكلم بشيء عن حالة الاسلام عند ماأجتمع بهؤلاء العلماء لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لايعملون شيئاً مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لانني لاأطالع عند ماأقرأه (١) لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلداء الخاملي الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة . واذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالا يفتح علي بكلام كثير

(قلت) ان الزمان لايخلو ممن يقدر كلام الاصلاح قدره وان كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وان الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي، كما حفظت (العروة الوثقى) فان أوراقها الاصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير في الازهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد

(١) لعله قال قبل أن أقرأ يعني انه لا يستعد لها بالمطالعة

سنة وثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين اذ توفي لثمان خلون من جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الالفاظ والاعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ؛ ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة

وكنت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله ، وأحفظ ما أكتب لاجل أن أبيضه وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علي بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار ، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولا أطلع الاستاذ الامام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر انه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به ، على انه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً اليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها ، لذلك أعزو اليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فاذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما في أول الامر بل يكثر في الجزء الاول ما لا عزو فيه ، ومنه ماهو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الاخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه (في المنار) بأمالي مقتبسة ...

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب وإما

بعده وهو الاقل، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ،لان اقراره اياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الامانة أن لا أعزو اليه الا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه . أو : ما مثاله. او: ما ملخصه .مثلا، على انني أعتقد انه لو بقي حيا واطلع عليه لأقره كله اهـ ما كتبته في مقدمة التفسير

صفة درس التفسير في الازهر

هذا وان درس التفسير في الازهر كان أحفل الدروس وأنفعها في الدين والاجتماع والسياسة ، والأدب والبلاغة ، وكان يحضره كثير من علماء الازهر، وأساتذة المدارس الثانوية والعالية، وكبار رجال القضاء الاهلي، وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة ،ومنهم محافظ مصر المرحوم ماهر باشا حضر بعض الدروس — فكان الرواق العباسي يكتظ بحاضري الدرس حتى ان بابه يسد بالواقفين فيه الذين لا يجدون للجلوس مكانا ، ومنهم من كان يكتب لنفسه ما يستطيع ضبطه، ومنهم علي باشا ذو الفقار الذي كان مستشارا في محكمة الاستئناف الاهلية (ثم محافظا لمصر) وكان يجلس بجانبي بالقرب من كرسي الدرس

ولم يكن الامام يثق بضبط أحد لقوله وفهم مراده منه — دع التعبير الصحيح عنه — الا صاحب المنار (مؤلف هذا التاريخ) بدليل أنه كان يقرأ ما أعزوه اليه مما فهمته وان لم أكتبه فيقره كما هو ، وقد صرح بهذا مرة في الدرس لسبب اقتضاه ذلك بأنه وقع مطر شديد في بعض الايام تصحبه ريح شديدة فدخل المطر الرواق العباسي من نوافذه الكبيرة فتعذرت القراءة فيه أول ليلة بعد المطر فقرأ الدرس في الطريق الذي بين الرواق ومجلس إدارة الازهر لقلة من حضر في تلك الليلة ، وكنت تأخرت عن أول الدرس فأردت أن أجلس وراء من سبقوني فسكت الاستاذ لما رآني وناداني تعال هنا — لأكون بجانب كرسيه كالعادة — وقال للحاضرين معللا ندائي : إنه يستفيد أكثر من كل أحد منكم — أو كلمة بهذا المعنى كان درس التفسير مؤثراً جداً وكأين من رجل كان يسيء الظن بالامام

بتأثير كلام الحاسدين والجامدين ، فحضروا الدرس مختبرين ، فانقلبوا معجبين مثنين ، وعلى دوام الاستفادة عازمين.

وكان للاستاذ أحسن الله اليه فكاهات في الدرس يقصد بها الاحماض وترويح النفس في إثر بعض الزواجر الصادعة ، والمواعظ البالغة ، أو التنادر والتثريب على بعض المجاورين الذين يلقون الاسئلة الشاذة، كقوله لبعضهم مرة وقد قال له : إن ما قلته لايوافق عليه الجمل -يعني محشي الجلالين- قال الاستاذ: إنني أقرر ما يدل عليه النظم الكريم والاسلوب البليغ ولا يعنيني أوافق الجمل أو الحمار عليه أم خالفا ؟

ومن النوع الاول ماقاله اذ دخلت الرواق بنت لعل سنها لا تقل عن ثنتي عشرة فتخطت الرقاب حتى وصلت الى والدها فأسرت اليه كلمة وخرجت، وقد كثر التفات الناس اليها استغرابا لجرأتها ، وسكت الاستاذ هنيهة ثم قال باللغة البلدية «إياكم تكون دي المرأة الجديدة اللي بيقولو عنها » يعني لعل هذه المرأة الجديدة التي يتحدث الناس ويكتبون في الصحف وغيرها عن وجوب سفورها و اختلاطها بالرجال بمناسبة الكتاب الذي ألفه قاسم بك أمين بهذا الاسم. فضحك جميع الحاضرين انبساطا بكلمته

وجملة القول أن درس التفسير كان هو الذي عرَّف كل ذي فطرة سليمة من أهل الازهر وغيرهم فضل الاستاذ الامام على غيره بالعلم بالله وكتابه وحقيقة دينه وغيرته على تجديد الاسلام ، واهتمامه باصلاح المسلمين، وطار صيته في الاقطار بنشر المنار لخلاصته في تفسيره وقد كثر المادحون له به نظما ونثرا في حياته وفي رثائه كما يرى القارئون في جزء التأبين والمراثي من هذا التاريخ وهو الجزء الثالث

وكان للمنار وصاحبه من الشركة في هذا الاصلاح ان كان هو سبب قراءته، ثم نشر ما قرره في تلك الدروس تارة بالاجمال وتارة بالتفصيل والايضاح ، بما كان يغتبط به ويقول كما روى عنه الاستاذ الشيخ محمد شاكر كيف أترك صحبة فلان لاجل الخديوي وهو ترجمان أفكاري — كما تقدم — بل قال اكثر من هذا كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في موضعه اللائق به

وانني أذكر هنا شهادتين مكتوبتين رفعتا اليه يصف اصحابهما تأثير درسه في انفسهم وقعتا في يدي بعد كتابة ما تقدم اذ كنت أقلب أوراق شيخنا المحفوظة عندي

شهادتان في تأثير درس الامام

(الاولى) شهادة أديب غريب ، بما وجد في نفسه من تأثير درس التفسير »

والظاهر أنه املاه املاء فوقع من كاتبه بعض التحريف ، قال مخاطبا الاستاذ الامام ما نصه :

مولاي :ان نصابك الرفيع الذي اقامك الله فيه لاصدار ما يرد عليك من شؤون دينه، وماعهد الى نظائرك(١) من سياسة الناس السياسة الشرعية ،وتقرير الحكم والوصايا لهم — كل ذلك جعلني لا أستبعد صدور امثال تلك الاحساسات الدينية الصادقة والعواطف القومية الحقة عن فؤاد رفيع حساس ،ونفس كبيرة دراكة ،شعرت باقدس واجب نحوها فانبرت تناضل من ورائه وتعمل على حياطته بالنفس والنفيس ، على حين فترة من الحق ومرض من اليقين

سيدي: اني استميحك الاذن لي بالاعراب عن اثر كبير خامر فؤادي بل صدًى رنان تلابت (كذا) به اقطار قلبي ثم اسألك العذر في تكليفي اياك اضاعة جزء من وقتك النفيس بالنظر في سطوري هذه وما هي الا كليمات مثلت بها احساسي حيال ذلك المهيمن الفعال على النفوس

اتحفني الدهر ليلة أمس بتلقي درسك الكريم وكنت احسبني جالسا بين اخواني ، حتى اذا توقلت كرسيك الرهيب ، واستهللت لاول كلمة مسني اذ ذاك طائف من الهدوء والطمأنينة، وتجلت لعيني الحكمة على فخامتها حاسرة لثامها، وتراءت لي السليقة العربية في جزالتها وعرامتها كاشرة انيابها ، فاحتملني ذانك الخيالان الى عالم تعمره ارواح كبيرة ، (٢) وبلغا بي مستوى قمت اناجي اليقين وهو يناجيني بلا حجاب ريب ، ولا صدفة مرية ، وما زلت بين اجتلاء حكمة بالغة ، وتلقي موعظة حسنة ، حتى قضيت تلك الفينات وودت لو لم تنقض ، ذلك ما كنت أحسه ابان استماعي لدرسك الكريم ، واتوسمه في نفوس الكثيرين ، ويعلم الله اني

---

(١) يعني نظاره في المنصب والمقام لا في العلم والاستعداد

« ٢ » في هذا الكلام اقتباس من مقدمة الاستاذ الامام لشرح نهج البلاغة

ما افتدت (٤) في تمثيلي هذا قانون الصدق ولا نزعت الا عن اشرف غرض، يمالئني عليه كل ذي شعور حي ومبدأ قويم حق، لم تنفعل نفسه اثر التعاليم القديمة، سمعتك تفسر كتاب الله بنفسه وتنبو به عن تلك الاراجيف المدونة، وقل من تصون عنها من المفسرين، في حين انهم اهملوا تفسير القسم الاخلاقي من القرآن اهمالا كلياً، وبخسوه حقه من النظر الخفي والدرس المدقق، وانت حفظك الله تمر بالآية فتوفيها حقها، خصوصاً الآيات الاخلاقية، وحبذا لو اهتبل اخواننا الطلبة هذه الفرصة الثمينة، وعدلوا عن تلك المجادلات اللفظية، والاسئلة التي يوجهونها خلال الكلام، واني أرى أن القلم قد شط بي عما كنت ابتغي من الايجاز، وما حداني الى كتابة هذه السطور الا انني حين انصرافي من ذلك الدرس ألفيت له اثرا كبيرا في نفسي، فحاولت التمثيل عنه بهذه الكلمات، ووددت لو ان لي من معين البيان مادة تفي بذلك

وفي الختام تقبل مني فائق التجلة والاكرام (سليمان نظمي الفاروقي)

﴿ الثانية — شهادة نابغي دار العلوم في رقعة رفعوها الى الامام، وهي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم)

ليس العجب من شجاع يكتب الكتائب، ويجند الجنود، ويجوب بهم كل شجراء مرداء، ويصبح الأعداء بغارة شعواء، لا يصدعن نيرانها حتى يختلس النفوس وينتهب الأعمار، وانما الذي يستهوي الحازم طربا، ويكاد يطير له قلب اللبيب شعاعا، أن ينتضي فرد واحد من عزيمته صارما ما أغفلته الصياقل، ويسير من قواطع الحجج وسواطع البراهين والآيات البينات وسحر الاعجاز في خميس عرمرم، همته أن يهدم ماشيد الكفر، ويمحو ظلمة التمويه الحالكة التي كادت تسجل العار على ثلاثمائة مليون أو يزيدون، فهتك أستار التعمية على العقول، وفتح أغلاق القلوب، وأودع فيها من أنوار اليقين، ماشاء العليم الحكيم،

إنا نعترف والله يشهد والملائكة يشهدون ، إنا لو تقصينا العالم فرداً فرداً نتوسم قريبع هذه الصفاة لكان هو سيدنا واستاذنا حجة الاسلام وأسوة المسلمين ، وكيف وقد رأينا في قلمه سيف عمر ، وفي مقاله فصل علي (رضي الله عنهما) على اننا نستعين في أداء شكره الجزيل بلسان العلم الذي أخذ يشب في مهد فضله ، وقد كان فريسة أسود الجهالة ، بل بلسان كتاب الله تعالى الذي كشف عن وجوه اعجازه ، ودفع عنه السوء ، وأفرغه في العقول نوراً ، وفي القلوب يقيناً ، بل بلسان الاسلام الذي نسجت عليه التقاليد حجباً من الباطل كثيفة ولولا فضل الله تعالى علينا وعلى الناس بنور هداية سيدنا واستاذنا لما رقت تلك الغشاوات وعما قليل يمحوها بمعونة الله ويظهر الحق أبلج ناصعاء ، وإن يوماً يتحلى فيه جيد الاسلام بأشبال له يحمون ذماره ، ويذودون عن حوضه ، ويرفعون علمه ، ليوم ميمون الطالع ، لا يلمس الاسلام فيه الجوزاء الا قاعداً

كيما تبين ان غرسك قد دنا   لجنى وزرعك قد أنى لحصاد

ولتعلم أن لهديك أنصاراً يرتلون لك من الشكر بمقدار ما منحوا من قوة ، وحسب المشكور عجز الشكور ، فتقبل غير مأمور هذه الرقعة يدفعها الولاء ، ويصدها الحياء ، وتجاوز حد التقصير من فئة تراك نوراً لبصائرها

ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم   لم يتحفوك بشيء غير أعمار

كاتبه	كاتبه	كاتبه
حسن منصور	محمد عز العرب	احمد ابراهيم
المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بمدرسة الناصرية
كاتبه	كاتبه	كاتبه
محمد حسنين	محمد المهدي	حامد حسين والي
المدرس بالمدرسة الخديوية	المدرس بالخديوية	المدرس بمدرسة الجيزة

كاتبه
عبد الوهاب النجار
بمدرسة عابدين

وقد كان يحضر درس التفسير غير هؤلاء من الدارين منهم الشيخ عبد العزيز شاويش بعد مجيئه من اوربة والشيخ مصطفى العناني وقد كلفاني ان (اقدمهما) اليه واذكر له رغبتهما في الانتظام في سلك مريديه ففعلت

الدرس العالي الخاص

اقترحت على الاستاذ الامام أكرم الله مثواه أن يعقد مجلسا في كل أسبوع أو أكثر لالقاء بعض الحقائق الحكمية العالية ، وتمحيص بعض المسائل الخفية أو المشكلة ، وبيان مابين الدين وعلم الاجتماع والفلسفة العقلية من الصلة، وما أشبه هذا مما يعد وراء مستوى دروس الازهر

قال ومن يحضر هذه المجالس ؟ قلت بعض إخواننا المفكرين من أذكياء متخرجي دار العلوم أساتذة المدارس الاميرية كفلان وفلان، ومن غيرهم كأحمد بك تيمور ومحمود بك سالم ورفيق بك العظم . فقال لي في واحد منهم انه من الجامدين جداً (١) قلت لعله كان كذلك واني اعاشره الآن فأراه مستقل الفكر،

ثم اتفقنا على ان يكون هذا الدرس في دار أحمد بك تيمور التي كانت في درب سعادة لانها في وسط القاهرة وصاحبها من أشد الناس رغبة في هذه المباحث وهو كان من المواظبين على جميع دروس الاستاذ الامام في الازهر . وهكذا كان في أول الامر ،ثم صرنا نذهب الى دار الاستاذ الامام في عين شمس، واشترى احمد تيمور دارا بجوار داره ،لاجل التمكن من اقتباس انواره ، فسكن فيها

انتظم عقد هذا الدرس من جماعة قليلة أذكر من احيائهم الآن الاساتذة

«١» هو المرحوم الشيخ محمد مهدي : وقد ذكرت له قول الاستاذ فيه فقال لي في سببه إنني كنت ذهبت مع الشيخ محمد زيد إلى دار سعد بك زغلول فوجدت عنده الاستاذ وفتحي بك زغلول وقاسم بك أمين وغيرهم وكان الاستاذ يتكلم في أسباب ضعف المسلمين وجهلهم وانتشار البدع و الخرافات فيهم وسوء حال علمائهم، والجميع يوافقونه ويشاركونه في ذلك: فأردت أن أجادلهم في بعضه فأعياني الامر : فقلت له : لم لا تكتبون هذه المسائل وتنشرونها ليعرفها الناس - وغرضي الصحيح التوريط ليرد عليه العلماء ؟ فقال قد وجدت جريدة أنشئت لهذا الغرض فطالعها تجد شيئاً من ذلك في كل عدد منها وهي جريدة المنار . قال الشيخ مهدي رحمه الله فكان هذا سبب اشتراكي في المنار من سنته الاولى فصحبتي لك

الشيخ أحمد ابراهيم استاذ الشريعة في كلية الحقوق اليوم والشيخ حسن منصور -وكانا استاذين في المدرسة السنية- ومحمود بك سالم الشهير والشيخ أحمد المحمصاني الاستاذ في بلده بيروت الان، ثم كان يحضره غيرهم ممن علم به من كبار المفكرين من رجال الحكومة وغيرهم من الادباء ومنهم شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ إبراهيم

ولما زار مصر صديقنا الاستاذ محمد كرد علي مؤرخ الشام وكاتبها الاجتماعي أخبرته بهذا الدرس ودعوته اليه وكان من حاضريه يومئذ اسماعيل باشا صبري وأحمد فتحي بك زغلول ورفيق بك العظم وكذا قاسم بك أمين على ما أظن، فدهش ضيف مصر من روعة ذلك المجلس وجلال استاذه، وبلاغة إلقائه، ومكانة تلاميذه في العلم والادب والقضاء والهيئة الاجتماعية، فاسماعيل باشا صبري كان وكيل وزارة الحقانية، وفتحي باشا زغلول كان رئيس محكمة مصر الاهلية ثم صار وكيلا لوزارة الحقانية إذ كان سلفه المذكور احيل على المعاش

الدرس الاول طبيعة الدين وكونه غريزة في الانسان

كان موضوع الدرس الاول طبيعة الدين ومكانته من الانسان: هل هو حاجة من الحاج التي عرضت له في حياته الاجتماعية كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع؟ أم هو غريزي فيه؟ بين أولا ما عرف في التاريخ من نشأة التدين وأطوار الدين في قبائل البدو ثم في شعوب الحضارة، وترقيه بارتقاء البشر في العلوم والفنون والاجتماع، ومايستدل به أهل المذهب الاول من ذلك على مذهبهم، واستدل هو به على المذهب الآخر الذي جزم به وعبر عنه بقوله «إن الانسان حيوان ناطق متدين بالطبع» كما يقول بعض الحكماء متمدن اومتمدين بالطبع

قال في هذا المقام من هذا الدرس وغيره ما مثاله: إن روح التدين الغريزي في الانسان هو شعوره الفطري بأن فوق العالم الذي يعرفه باعيانه وخواصها ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه - موجودا غيبيا له السلطان والتصرف فيما ذكر كله، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبي كل مايجهل سببه في هذا العالم المشهود وإنما وقعت الجماعات البشرية في الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الاجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الموجود

الغيبي وما يجب له من الصفات الوجودية والتنزيه ، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم في هذه الاعيان المشهودة من خواص وأفعال : هل هي مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الاسباب والمسببات كأمثالهم هم؟ أم هي فوق عالم الاسباب فهي مظهر لذلك السلطان الذي هو فوق تصرف الانسان أو عينه ؟ ولما رجحوا الاحتمال الثاني بجهلهم وجهوا عبادتهم الى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهرت فيه لانه يخشى ضره ويرجى نفعه - ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلطان هو فوق الاسباب التي يملكها البشر

مثال ذلك أن الانسان الساذج الجاهل كان يرى الثعبان الصغير يقتل الانسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أو يبقر بطنه مثلا ، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب في هذا العالم لانه لا يعلم أن في هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم هي سبب هذا التأثير في دم الحيوان، فيرجع به لى مافي غريزته من الاحالة على القدرة الغيبية التي هي فوق الاسباب . وذكر الاستاذ أمثلة متعددة لما توهمه الناس في المخلوقات التي عبدوها في طور البداوة وأطوار الحضارة حتى عبادة الكواكب

وهذا الموضوع قد طرقه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد وبسطه في درسها ولكنه لم يصرح في الازهر بمثل ما صرح به في هذا الدرس من الشبهات وكشفها ، لعلمه بأن كثيراً من طلبة العلم في الازهر لا يفهمون هذه الموضوعات حق الفهم فيخشى أن يعلق بأذهانهم من الشبهات ما لا يفهمون الجواب الداحض لها. وألم به ايضا في رده المشهور على موسيو هانوتو . وأقول هنا في تأييد هذا : إن بعض المجاورين أطلعني على كراسة له فيها ما فهمه من بعض دروس التوحيد فاذا به قد جعل التوحيد شركا ، وقلب الحقائق قلباً فبينت له فساد فهمه فاعترف به

وتكلم في درس آخر عن حقيقة التصوف وتاريخه وأطواره، ومن أحسن ما قاله فيه : كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدين وجدانا في أنفسهم تصدر عنه الاعمال الصالحة، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة،

وكان أكثر الدروس الاخرى في المسائل الاجتماعية وفلسفة الاخلاق وحكم التشريع ودحض ما يرد على الاسلام من اعتراض أوشبهة ، بما يقبله العقل ويطمئن به القلب ، فرحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء عنا وعن دينه وأمته ،

المقصد الثاني

من الفصل السابع

مؤلفاته

بحسب تاريخ تأليفها بالتقريب

(١ — الواردات) رسالة في الكلام أو التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم وهي أول تآليفه وكان أعطانا نسخة منها في حياته . وقد نشرتها في الطبعة الاولى للجزء الثاني في منشآته ثم طبعتها على حدة وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له

(٢ — رسالة في وحدة الوجود) لم أطلع عليها وهو الذي أخبرني بها وقال انها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلي وأمثاله مما هو أقرب الى مذاهب الحلول كالنصرانية منه الى توحيد الاسلام (بل هو أبعد عن الاسلام من النصرانية) ولكنها بأسلوب آخر يبين فيها مراتب الوجود وتعددها من وجه ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر، ولعلنا نظفر بها ونطبعها

(٣ — تاريخ إسماعيل باشا) أخبرني بهذا الكتاب أحد تلاميذه الاولين وقال ان السيد عبد الله النديم كان أخذ من الفقيد نسخته في أثناء الثورة العرابية ونشر منه فصولا في جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكرا لهذا الكتاب وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرني به لانه قص علي تاريخه بالتفصيل وكتب إلي شيئا مجملا منه كما علم القراء

(٤ — فلسفة الاجتماع والتاريخ) هو الكتاب الذي ألفه أيام كان يدرس مقدمة ابن خلدون في مدرسة دار العلوم كما ذكرنا في هذا التاريخ ، وقد فقد هذا الكتاب عند ما عزله توفيق باشا من المدرسة ونفي السيد جمال وأخذت أوراقه . وكان طيب الله ثراه يقول أتمنى لو يحفظ هذا الكتاب من وقع في يده

ويدعيه لنفسه ولو بعـد موتي لينتفع به الناس ، وقد سألت عنه محمد باشا صالح المستشار في محكمة الاستئناف اذ كان ممن حضره عليـه ، فقال لي : إنني كنت أكتب ما يمليه الاستاذ من تلك الدروس ، فطلبتها منه فقال انها بين أوراقي القديمة في البلد وعسى أن أبحث عنهـا وأجدها عند زيارتي للبلد في الاجازة ، ولكنه توفي ولم يفعل رحمه الله وعفا عنه

(٥ — حاشية عقائد الجلال الدواني) وهي غاية الغايات في علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين وبيـان ما هو لفظي منه وما هو حقيقي ، وقد اهتدى في كثير من أبحاثها الى أن الحق في العقائد هو مذهب السلف ، ولـكن كثيراً من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشبة في ذهنه زمناً طويلا ، ولا يزول مثل هذا إلا رويدا رويدا . والحاشية مطبوعة تباع في السوق

(٦ — شرح نهج البلاغة) وهو شهير جداً وقد طبع في بيروت وفي طرابلس وفي مصر مراراً ، وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لاجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الاسلام وذكر في مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلافة لان الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف في كتبهما . وهو لم يكن يعتقد صحة اسناد كل ما في هذا الكتاب الى الامام عليه السلام ، ولا كان يعتقد أنه كله أو جله موضوع كما قال الحافظ الذهبي ، ولم يكن يخفى عليه ان فيه دسائس مدرجة فيه ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم في خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم

(٧ — شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني) وهو مطبوع في بيروت ولم يعرف لغيره شرح لهذه المقامات وقد فرغ منه في ١٦ رمضان سنة ١٩٠٦

(٨ — شرح البصائر النصيرية) في المنطق وهو شرح وجيز أطلق عليه لفظ التعليقات والـكتاب عالي الاسلوب وهو من أحسن ما كتب المسلمون في المنطق ولم يسبق لاحد قبله كتابة عليه فيما نعلم وقد قرأه درساً في الجامع الازهر وحضرناه عليه كما تقدم في المقصد الذى قبل هذا ولعله لا يتسامى أحد الى تدريسه بعـده، وإن كان من الكتب التي قرر مجلس إدارة الازهر تدريسها فيه رسمياً

الا أن يكون بعض من تلقاه عنه، وقد ذكرنا آنفا مزايا درسه له.

(٩ — نظام التربية والتعليم بمصر) رسالة في الطريقة المثلى لتربية المصريين وتعليمهم وهي على إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه وقد نشرناها في باب لوائح التربية والتعليم من منشآته (صفحة ٥٣٣ ج ٢ طبعة ثانية)

(١٠ – رسالة التوحيد)

وما أدراك ما رسالة التوحيد؟ هي التي يصدق عليها القول المشهور «لم ينسج ناسج على منوالها، ولم تسمح قريحة بمثالها» هي التي يصح أن تعد معجزة من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ظهرت على يد الاستاذ الامام، وآية من آيات الاسلام، هي التي ينبغي أن تجعل مادة الدعوة الى هذا الدين، ويعم تلقينها جميع المسلمين، وقد قلت للاستاذ الامام رضي الله عنه إنه لولا اسم هذه الرسالة وما في أولها من الاصطلاحات الكلامية الوجيزة لكان انتشارها أضعاف ما هو الآن، ولعم الانتفاع بها كل مكان، ولكن البعيد، إذا سمع باسم رسالة التوحيد، يتوهم أنها عقيدة كالسنوسية، أو كالعقائد النسفية، والقريب قد يأخذ نسخة منها، فيصرفه ذكر الواجب والممكن والمستحيل في أولها عنها، توهما أنها في علم الكلام، الذي لا يتناوله إلا انظار العلماء الاعلام، وأكثره لا حاجة اليه الآن. وقد كان رحمه الله تعالى عازما على بسط الكلام في هذه المقدمات، وسائر مسائل الالهيات، وجعل الكلام فيها كالكلام في النبوة ومزايا الاسلام، موجها الى العقل والى الوجدان، لا لمجرد تقرير وجيز للبرهان، وقد قرأها درسا في الازهر ولقيناها عنه وأجازنا بقراءتها، وطبعناها مرارا مصححة على نسخته التي قرأها في الازهر، وعلى جدول وضعه لتنقيحها في زهاء سبعين موضعا، وعلقنا عليها بعض الحواشي الضرورية ومنها ما سمعناه منه في الدرس وترجمت باللغة الفرنسية وطبعت

ولقد كان لرسالة التوحيد وقع عظيم في انفس اهل العقل والفهم، وعارفي قدر العلم، لا من المسلمين وحدهم، بل صرح بعض المستقلين من نصارى سورية بالثناء عليها، حتى قال بعضهم: «اذا كان الاسلام هو ما بينته هذه الرسالة فانا

أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف ديني يقول ينبغي ان يكون الاسلام كذا» فردعليه أحد المسلمين بان مؤلفها من أكابر علماء الازهر وهو يقرؤها فيه ولم ينكر أحد من علمائه عليها ، ولا قال انها زادت في الاسلام ما ليس منه

وقال فاضل آخر منهم: اود لو تقرأ هذه الرسالة في جميع المدارس النصرانية بعد حذف الكلام في نبوة محمد (ص) منها . اي لاجل وقوف نابتة النصاري على سر الدين المطلق [١] وقد نشرت هذا وذاك في المجلد الاول من المنار

وقد جاء مصر في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) نسيم بك خلاط احد كبار وجهاء النصارى وفضلائهم في طرابلس الشام واحب زيارة الاستاذ الامام فذهبت به اليه في دار الافتاء بالازهر فرحب به ، وكان مما قاله نسيم بك في حضرته. انه قرأ رسالة التوحيد واعجب بتحقيقها وبلاغة عبارتها ، وذكر من اعجاب السوريين بها وتعلقهم بالاستاذ، وكان في المجلس جماعة من علماء الازهر فقال احدهم لنسيم بك :هل اشتهرت رسالة التوحيد عندكم حتى قرأها المسلمون وغيرهم ؟ فقال نعم ولها حظها من حسن الذكر والاعجاب، كما ان جميع الطوائف عندنا تجل سماحة الاستاذ، وتعشق مشربه في الاصلاح والتأليف بين الطوائف الذي نحن في اشد الحاجة اليه ولا نجاح لنا بسواه. قال العالم: لكنني أخبرك بخبر ربما تعجب له وهو ان بعض علماء الازهر لما يقرأ هذه الرسالة : فنال من البيك العجب وقال أني اتبرع بخمسين نسخة من الرسالة توزع على الاذكياء الفقراء، ثم انه امضى ذلك التبرع بالفعل، فكان له من حسن التأثير عند المفتي وسائر العلماء ما يستحقه وقد ذكرت هذا في المجلد السابع من المنار بعد مقدمة وقفيت عليه بهذه العبارة:

لا جرم ان هذه الاريحية فيناهي التي تقرب بعضنا من بعض ، وبامثال هؤلاء الرجال يغلب فضلاء المصلحين، عُصبَ المفسدين المفرقين، الذين لا تجمعهم لغة ولا جنسية ولا قانون ولا دين، بل اخترعوا لهم وطنية بالبهتان ، لا يشهد لها

«١» أخبرني صموئيل افندي يني الاديب الطرابلسي شقيق الاستاذ جورجي يني صاحب مجلة المباحث أنه عنى هذا على مطران طرابلس في ذلك العهد غريغوريوس حداد «الذي صار بطرك الروم الارثوذكس بعد ذلك» إذ كان ناظر المدرسة كفتين المشهورة

شرع ولا برهان ، وانما اساسها الاهواء ، وابتزاز الدراهم من الدهماء اه

وقد قرظ الرسالة الشيخ سعيد الشرتوني الكاثوليكي مؤلف معجم أقرب الموارد في كتاب خاص أرسله الى المؤلف تقريظ مؤمن بما فيها . وهذا نصه :

(تقريظ الشيخ سعيد الخوري الشرتوني)

أيها الشيخ الفاضل

بينما أنا في لوعة من طول البعاد ، واليأس من اللقاء ، أتلقى أخبار مولاي من سيادة الحاج محيي الدين حماده ، إذ وردتني هديتكم التي كشفتم بها عار العصر ، وجلبتم له بها الفخر ، وهي مؤلفكم الفريد ، في علم التوحيد ، الذي لا ريب عندي أن الله يثيبكم عليه بكرامة الدنيا وسعادة الأخرى ، بعد طول العمر . ولم أتعجب مما وقعت عليه فيه من البدائع ورأيته من الجواهر ، لصدوره ممن كشف الله عن بصيرته . وميزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقول ، واختصه بفطرة شقيقة المروءة والكرم ، أخت كل مأثرة ومحمدة . وما اظن ذوب العسل المصفى أحلى عندي منه . أقرأه ولا أمل ، ثم اعيده ملتذاً به ولا التذاذ السامع عند مايسمع من المغني نغمة تطرب سمعه وتوائم ذوقه . فياشرف العصر الاسلامي بك ، ويافخر آدم بمثلك . فكأن الذي يطالع الكتاب المشار اليه يرى شخصاً يشخّص كل مايخالج الفكر ويدور في الخاطر ، ولا يجد المتفكر طريقا لاخراجه بعبارة تحمل معناه — مأنت في كل ماتشرع فيه إلا رجل جديد عندنا ، مع طول معاشرتنا وكثرة مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة ، ومخزنا لكل دقيقة . والخلاصة ان مثلك آية من آيات الله تشهد بقدرته وجوده ، وتصدع بأن بين الناس فروقا بعيدة المدى

هـذا وأسأل الله أن يتولى مكافأتك على هـذه الخيرية ، ويديمك شرفا للانسانية ، وخير ركن للاسلام ، بمنه وكرمه

الداعي

سعيد الخوري الشرتوني

بيروت ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦

أقوال علماء المسلمين في الرسالة

وأما أهل العلم من المسلمين فقد قرظ كثير منهم هذه الرسالة بقدر أفهامهم وهي تختلف باختلاف ماأوتوا من العلم وما قرأوا من الكتب الاسلامية وغيرها ، ولا يفهمها حق الفهم الا من كان عالما بمنتهى ما كتبه جهابذة المتكلمين في العقائد الاسلامية والرد على المخالفين لها ،وواقفا أتم الوقوف على شبهات فلاسفة الافرنج على الاديان كلها ، وشبهات اللاهوتيين من رجال الكنائس على الاسلام نفسه وما يتكلفونه من الطعن فيه ؛ ويقل في المسلمين من جمع بين الامرين

سألت أحد كبار الفريق الاول عنها وهو العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير وكان في الذروة العليا من علماء الازهر وأشهر فقهاء الحنفية: كيف رأيت رسالة التوحيد؟ فقال:عظيمة قوي ، الشيخ ذكي قوي وواسع الاطلاع ،جمع من هنا ومن هنا اه لفظه وهذا غاية المدح فان غاية العلم عندهم كثرة الاطلاع وأعظم التأليف جمع الاقوال الحسنة من المواضع المختلفة،ولا سيما النادرة التي يقل من اطلع عليها، ومن يقدر على تلخيصها وايداعها في مصنفه ، وكان حظ من دون الشيخ الرافعي في العلم والفهم من علماء الازهر الجامدين ان قال : إن هذه الرسالة إنشاء لاعلم!!

وقال محمد فريد أفندي وجدي-وهو من الكتاب الواسعي الاطلاع على أقوال الافرنج وفلاسفتهم في الاديان عامة والاسلام خاصة- : ان هذه الرسالة لا يمكن شرحها الا في عدة مجلدات لانها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة في الاديان مع تقرير ما يوافق الاسلام منها ورد ما يخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة اه بالمعنى

وأقول ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان متعمدا لهذا الابهام لانه لم يكن يرى من الحكمة بيان مطاعن الماديين والفلاسفة على الدين المطلق ، ولا مطاعن الملاحدة ودعاة النصرانية على الاسلام بالتصريح، والرد عليها بالتطويل، كما كان يفعل فخر الدين الرازي في تفسيره ، إذ كان كثيرا مايبسط الشبهات ويقصر في الرد عليها فيكون كلامه مقويا لها ، وقد بينت في الكلام على دروس شيخنا الخاصة ببعض الخواص سبب ابهامه هذا في دروس التفسير والتوحيد بالازهر،

وضربت له المثل بمسألة نشأة الاديان وتطورها والخلاف في الدين المطلق هل هو غريزي في البشر أو حاجة من الحاجات الاجتماعية التي عرضت لهم ، وبتتبع هذه المقارنة بين الاديان ، وترقيها بمقتضى سنة الاجتماع ، حتى ختمت بالاسلام، وفي هذه المباحث شبهات لمنكري الوحي فندها في رسالة التوحيد وقرر الحق بعبارات بليغة لاتثير أدنى شبهة في قلوب ضعفاء الطلبة والاغبياء من قارئيها ، وقد قلت له مرة في عبارة منها : لو فهم الجامدون من شيوخ الازهر معناها أو المراد منها لاضطربوا فيه وكان سبب القال والقيل

ولاجل تعمده طيب الله ثراه لهذا الاسلوب قال في الدرس : إنني لا أسمح لاحد أن يشرح هذه الرسالة ولا أن يضع لها حاشية

وقد بينت في تقريظي لها في المنار أنها هي الكتاب الوحيد الذي يصلح في هذا العصر للاعتماد عليه في الدعوة الى الاسلام على الوجه الذي اشترطه المتكلمون في صحة الدعوة وهي أن تكون على وجه يحرك المدعو الى النظر فيه، وهذا الشرط وجيه فان في الارض أديانا كثيرة قيل إنها تبلغ الالف ، فلا يعقل أن تتوجه نفس كل أحد بلغه خبر دين أو دعوة الى دين منها الى النظر فيه لاجل معرفة حقه من باطله ، وناهيك بمن يريد الدعوة في هذا العصر الى الاسلام في بلاد يصوره رجال الدين فيها بغير صورته ، ويصفون رسوله بضد صفاته ، ويفترون على كتابه وسنته وتاريخه أقبح الفرى

وقد نشرت في المنار عدة تقاريظ للرسالة منها قصيدة لامام اللغة والادب في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي رحمه الله تعالى ألقاها على كرسي الدرس في الرواق العباسي والمؤلف حاضر وقد أشار اليه بيده عند ذكر اسمه في قوله:

لقد مات دين الله وانحل عقده فأحياه بالذكرى (محمد عبده)

وسيأتي لهذا التقريظ ذكر في الكلام على انصاف الاستاذ الامام عند ذكر أخلاقه . وتنشر القصيدة في الذيل ان شاء الله تعالى

تقريظ الشيخ سالم بوحاجب للرسالة

وهو أكبر علماء تونس وأشهرهم وكان باش مفتي المالكية . كتب رحمه الله

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم

حيا الله تعالى جناب الجهبذ الهمام، والعلامة الذي لا يفارق بدر معارفه التمام، الامام الذي هو لحل كل عويصة مأموم، والفذ المختص بصرف الهمة لكل ماينفع العموم ، زينة المناصب الشرعية ، والمجتهد في حسم كل ما يخل بحقوقها المرعية، حضرة مفتي الديار المصرية، الشيخ سيدي محمد عبده قابل جميع مساعيه بأعزما يمنح المولى عبده

أما بعد التحية ، وبث الاشواق الروحية ، للمناجاة الشهية . فقد وصلني على طريق السيد عمر الخشاب ما أتحفتمونا به بل سائر الامة ، وهو تلك الرسالة الغراء المهمة ، التي هى الملاك الوحيد ، للحصول بسهولة على ما يلزم استحضاره من علم التوحيد ، فلقد أجدتم حفظكم الله في تحرير واجباته الاعتقادية ، وافراغ براهينها في مسالك مألوفة ، وأساليب اعتيادية ، بحيث يسهل نفوذ اليقين الى القلوب ، ولا تحول الشبه دون وصول النفس الى المطلوب ، ولما أتيت على معظم الرسالة المذكورة، وعددتها من مساعيكم التي لا تزال عند الله وعباده مشكورة، رأيتني ملزما بواجبين عيني وكفائي، وان كان قيام الغير بالثاني مما يسوغ بالاول اكتفائي ، مع أن هاته البطاقة، ليس لها بكلا الواجبين طاقة ، فحسبنا الآن أن نعلن بشكر تخصيصكم للعبد بنسخة الرسالة المشار اليها ، ونعلم بأن حسن الرسالة وحسن نية المؤلف أظهرا من أهالينا مبادىء الاقبال عليها، فالله المسئول أن يشكر سعيكم، ويديم لنفع الامة بقاءكم ورعيكم

حرره عبد ودكم وكمالكم

٧ شوال سنة ١٣١٧ — سالم بوحاجب

(أقول) لو كتب هذا الشيخ الكبير هذا الكتاب بعد اتمام الرسالة قراءة وتأملا لعلم كنه قيمتها ، ولكن كتابه هذا ناطقا بان براهينها فوق المألوف ، كما ان اسلوبها فوق المعروف .

وقرظها أيضا أحد علماء الشيعة وأدبائهم في سورية تقريظا حسنا نشرناه

في أوائل المجلد السابع من المنار فقال في آخر تقريظ له للمنار مانصه : (ص ٦٨)

تقريظ عالم أديب شيعي للرسالة

«وحسبك في ذلك مايقتبس من رسالة التوحيد لاستاذ الكل ، ووحيد هذا العصر أو من نظيره قل ، عيلم العلوم الذي عم مده ، الشيخ محمد عبده ، كثر الله في الأمة أمثاله ، وزاد بين الورى اعظامه واجلاله ، فكم له فيها من حز أصاب المفصل ، ورمية لم يخطىء بها الغرض، وإن خفي على المتأمل، وتحقيق كشف به الحجاب ، لأولي البصائر والالباب ، ولم يدع بعده عذراً لمفكر ولا مرتاب، وحاشا أن تخلو الارض من عامل يعمل فيها بخير وهدى ، وداع يدعو فيها الى طريق نجاة ورشاد للورى ، فكم دافع عن الايمان ، بلسان أمضى من السنان ، وعن الاسلام ، بأقلام أمض وقعاً في الكفر من مريشات السهام . وعن الحنيفية البيضاء بمسود مداد أقطع من البيض الحداد ، أوضح مع الايجاز أدلة التوحيد، بعد اثبات الواجب مالا يطلب المتأمل بعده من مزيد، وجال جولة في بيان مايمكن الوصول اليه من الصفات ، أغني بها المنصف عن اللجاج والتعرض للهلكات . وأوجز في صفتي الكلام والبصر ، مافيه البلاغ والعبر، وتكلم في أفعاله تعالى بما يسبق الى القلوب اعتقاده، وألف بين الفريقين[1] بما هو حري أن يتبع وقرّب ماتوهم استبعاده ، وسلك في الجبر والاختيار جادة الاعتدال، ومال في مبحث حسن الافعال الى أحسن الاقوال . وبسط القول في النبوة والرسالة، حتى أوضح الحق وقمع الجهالة، وألف في مبحث الرؤية بين الفريقين[1] ورفع الوحشة وأزال النزاع من البين . وذلك الفضل من الله يؤتيه من عباده من يشاء، ويمنحه من سبقت له العناية فيه منذ فطر الاشياء . فجدير بمصر أن تفتخر بمن فيها من أفاضل العصر، وحقيق بحملة العلم في كل قطر، أن ترفع أيدي الابتهال لعزة ذي الجلال بالدعاء لكم بدوام التأييد والمجد، والتوفيق لنصرة الدين، وايضاح الحق ودحض الباطل وارشاد الضال . وجمع الكلمة واحكام الألفة بين المسلمين، انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير . آمين آمين

(ع ١٠)

(١) يعني بالفريقين أهل السنة والشيعة

تقريظ الامير شكيب للرسالة

ومنها تقريظ لنابغة مريديه في الديار السورية الامير شكيب أرسلان ذكره في كتاب خاص، ولو كتبه لاجل النشر في الصحف لزاد في البيان والابداع قال:

« قرأت رسالة التوحيد ولم أزدد بكم علما ، الا أنني سررت لكم بنشرها بعد أن حجبت المحاكم بين الانظار، وبين تلك الآثار، وبعد أن ظن أن القضاء[1] صرف نظركم عن كل ما سواه ، ولعمري ان أحسن عمل يؤتى هو مثل هذا الاثر ، ولم أقرأ في مكتوب العصر شيئاً أبدع من هذه الرسالة ولا ما يدانيها ، الا ان كان بعض كلام المرحوم السيد جمال الدين ، وعليه فالدائرة واحدة

«لا حق لي في الكلام من جهة الفن وتمديل الآراء والمذاهب ، ومع هذا فحيث كان الامر من المعقول تأملت فوجدت أن طريقة هذه الرسالة هي أقصد الطرائق ، وانها غاية ما يرتاح اليه العقل ويرتاح فيه ، فما أشكل بعدها من مغلقات أسرار الوجود فهو مما ختم الله باشكاله وخبأ نوره عن عباده

«وأما البيان فقد طالما اعتقدت أن الانشاء مارق به المحسوس حتى كاد يسيل، أو تجرد منه مثال للتخييل، ولقد وجدتني من تلك الرسالة في عالم معنوي قادت "براعة أسراره ومجرداته بزمام التعبير ، الى أن تخيلت أني قابض على المعاني بيدي ، فضلا عن أني متمثلها في خلدي، فهذا غاية الخلق من البيان ، وهو ما أتت به الرسالة اهـ

(١١ — تقرير المحاكم الشرعية) هو على خصوصية موضوعه مفيد حتى لغير القضاة ومستخدمي هذه المحاكم من جميع أهل العلم والادب لا سيما طلاب علم الفقه فانه يعطيهم من البصيرة في طريقة التحصيل على الوجه الذي ينتفعون به وينفعون مالا يجدونه في سواه ، وفيه كثير من الفوائد الادارية ، والاجتماعية ، والادبية، وأحوج الناس اليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة في هذه المحاكم ،وقد طبعناه على حدته ، وتكلمنا عليه في مقصد عمله في اصلاح هذه المحاكم من هذا الجزء ونشرنا فيه مقدمته للمؤلف ومقدمتنا لطبعه ونشره وفيها من بيان مزاياه مايغني عن اعادته هنا

---

(١) كان الاستاذ في تلك الاوقات قاضيا فى محكمة الاستئناف فى القضاء تورية

١٢ــ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية

وهو مقالات كتبها لمجلة المنار ثم جردناها منها وطبعناها على حدتها وسميناها بهذا الاسم باذنه ، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا . وسنذكر في مقصد عمله في الدفاع عن الاسلام سبب كتابته ، وغرضه الاهم منه . وهو ايقاظ المسلمين وارشادهم الى أسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم، والى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الاسباب الا وقد بينه أحسن بيان . مؤيدا بالبرهان ، فترجيح الاسلام على النصرانيــة في حرية العلم ونشأة المدنيــة كان هو الغرض الادنى المحرك للكتابة، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى

ولكن هؤلاء المسلمين المساكين الغافلين عن أنفسهم لما يعرف اكثرهم قيمة هذا الكتاب ، ولو عرفوها لوجدته في كل بيت من بيوتهم ولقرأه مرارا كل متعلم ومتعلمة منهم ، بل قال أحد العقلاء الفضلاء انه يجب أن يقرأ في كل سنة مرارا . وأنا أقول قرأته حين طبعته في السنة الخامسة للمنار مرارا ، ثم قرأته عند تصحيح كل طبعة وأجدني أستفيد منه في كل مرة عبرا كثيرة لا عبرة، وتتفجر لي منه ينابيع للحياة غزيرة .

(١٣ ــ تفسير سورة العصر) كان رحمه الله تعالى قد فسر هذه السورة في دروس متعددة كما تقدم بيانه في الكلام على سبب قراءته للتفسير العام في الازهر، ثم فسرها في الجزائر تفسيرا مجملا مختصرا ، ثم كتبه لينشر في المنار إجابة لرغبتنا ورغبة بعض أهل العلم في مدينة الجزائر الذين حضروا هناك درسه في تفسيرها ، وقد كتب الاستاذ في حاشية تفسير جزء عم عند تفسير هذه السورة ما نصه :

« وقد كتبنا تفسيرا لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع في مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا في مدينة الجزائر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما أجملناه في هذا التفسير المختصر فمن أراد بيانا أوسع ، وتفصيلا أبدع ، فليطلب ذلك التفسير ، فهو فيما اعلم غير مسبوق بنظير » اه

أقول اننا طبعناه بالقطع الصغير ليوضع في الجيب وطبعنا معه ملخص درس الاستاذ الامام في تونس وموضوعه العلوم الاسلامية وأقرب الطرق لتعلمها

(١٤ – تفسير جزء عم) قد كتب تفسير هذا الجزء ليقرأ في مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجعل طبعه حقا للجمعية خاصا بها – وقد كتبه في بعض أسفاره الصيفية الى أوربة ، واتمه في مدينة جنيف من سويسرة في صيف سنة ١٣٢١ ه الموافق ١٩٠٣ م وطبع الطبعة الاولى في اوائل سنة ١٣٢٢ وهو تفسير أشهر من نار على علم، وقد كان رواجه أكثر من رواج سائر كتبه على شدة الرغبة فيها كلها ، حتى انه قد وزع منه عدة ألوف في عدة شهور ، وهذا شيء لم يعهد له نظير في المطبوعات العربية

افتتح خطبته ببضعة أسطر فيها اشارة الى كل مايحتاج اليه المسلمون من اصلاح في دينهم ودنياهم ، متضمن لكل ماهم عليه من سوء الحال وخطر الاستقبال ، وهو مايمكن أن يكون موضوعا لدروس كثيرة ، وخطب مفيدة .

ثم ذكر من الباعث على تأليفه لمدارس الجمعية مايرشد جميع المسلمين الى ماهم في أشد الحاجة اليه من الاهتداء بالقرآن او كيف يكون ذلك إذ قال «ليكون مرجعاً للاساتذة لمدارس الجمعية في تفهيم التلامذة معاني مايحفظون من الجزئين [أي هذا الجزء وجزء (تبارك) الذي كان عازما على تفسيره بعده] لينشؤا متعودين على فهم مايحفظون ، وتدبر مايقرأون ، وليكون مافي تلك السور من دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرقا للعقائد السليمة في نفوسهم ، وعاملا للاصلاح في اعمالهم وأخلاقهم »

أليس هذا هو الواجب على كل مسلم من هداية القرآن ؟ ففي أي مدرسة وفي أي مكان من بلاد الاسلام يلقن أولاد المسلمين هذا ويربون عليه ؟ اللهم اننا لا نعلم

هذه هي مؤلفاته التامة ولا حاجة هنا لذكر ما بدأ به ولم يتمه ، وأنفعه كتاب أسباب الثورة العرابية ، وقد لخصنا بعضه في موضعه من هذا الكتاب

المقصد الثالث

من الفصل السابع

دفاع عن الاسلام، وكشف للشبهات والاوهام

كان قدس الله روحه مدافعا عن الاسلام طول عمره بلسانه وقلمه ، وخير مثل له في أخلاقه وعلمه وعمله، حتى قالت امرأة سويسرية من المعلمات المصنفات في علمي التربية والاخلاق : ما كنت أظن قبل معرفة هذا لرجل أن القداسة توجد في غير المسيحية

وكان دفاعه عن الاسلام ثلاثة أنواع يعززها رابع يدخل في مقصد آخر من مقاصده وهو التقريب بين اهل الاديان، ولاسيما النصرانية والاسلام، بما يزيل أكبر شقاق بين الشرق والغرب أو بين البشر، والتأليف بين أهلها ، بما يحول دون اتخاذها سبباً لضد ماشرعت له وهو الهداية والخير، وسنلم بهذا بعد بيان الانواع الثلاثة

(النوع الاول)

الدفاع اللساني أو الشفوي بكشف شبهات المرتابين ، وأغلاط المخطئين ، واعتراضات الجاهلين ، وكبت الشانئين

المعروف عن أكثر علماء المسلمين الذين نصفهم بالجامدين ، ويصفهم الكثيرون بالمتعصبين والمغرورين ، ان من يسأل أحدهم عن شبهة عرضت له في دينه، أو مشكل أورده على بعض مسائله، يجيبه بما يعرفه في الكتب المتداولة في أصل المسألة التي تتعلق بها الشبهة وان لم يكن جوابا داحضا لها ، فان قبله مذعنا فذاك ، وان جادله فيه، وقال ان هذا عين المسألة التي لم أعقلها أو لم تظهر لي حقيتها ، لا جواب عن شبهتي عليها ، أعرض عنه ونأى بجانبه ، ونبزه بلقب الكفر أو الابتداع ، إلا أن يكون وجيها لا يتجرأ على مواجهته بما يكره من فعل أو كلام

وأما أستاذنا رحمه الله تعالى فكان أشد رفقا بمثل هذا السائل من غيره، وكان يجيبه بحسب ما يراه من حاله واستعداده في العلم والفهم ، فان لم يعقل الجواب أولم يطمئن

له قلبه ، أرجأ الحديث معه فيه الى وقت آخر ان كان ممن يجتمع به ، وربما أحاله على مطالعة الموضوع في كتاب معين لاجل الكلام معه فيه بعد مطالعته . وقد ذكر لنا في الدرس الخاص مثلين في هذا الباب وقعا بينه وبين بعض أصحابه

(أحدهما) أن صديقه محمد بك راسم كان قد رسخ في نفسه مسائل لا تتفق مع المعروف من قطعيات الدين، وعرضت له شبهات كان بها او فيها من المرتابين، فما زال يحاوره فيها حتى استلها من أعماق قلبه استلالا ، فكان من أقوى النابتة المدنية إيمانا وأحسنها أعمالا ، وصار من قراء إحياء علوم الدين المتدبرين لحكمته، وسيأتي ذكر كمال الصداقة بينهما في موضعه

(ثانيهما) أن صاحبه الشيخ سعيداً الشرتوني الذي مر ذكره قريبا في الكلام على رسالة التوحيد ، بعد ان مر فيما كتبه الينا الامير شكيب من سيرة الاستاذ في سورية (ص ٤٠٠) قال له يوما إذ كان مقيما في بيروت : إسمح لي يا أستاذ أن أقول لك إن نهج البلاغة أبلغ من القرآن . فلم يرد عليه بانكار ولا إقرار ، حتى كأنه لم يسمع الكلمة لما دل عليه قوله من أنه لم يفهم بلاغة القرآن، ولم يقدر أساليبه قدرها ، على سعة اطلاعه في اللغة وآدابها، وظل الكلام جاريا بينهما مجراه الاول ، ثم كان يفترص المناسبات فيما كان يدور بينهما مدة وجود الامام في بيروت من الكلام في المسائل اللغوية الادبية والعلمية المختلفة، فيورد له في كل محاورة ما يناسبها من آيات القرآن ، وما فيها من دقائق نكت البلاغة وروعة البيان ، حتى أدرك أن نهج البلاغة لا يعد في جنب كتاب الله شيئا مذكوراً ، واعترف بذلك معجبا فخورا، بل امتلأ قلبه من عظمة الاسلام، والعلم بأن ما عداه من الاديان لا يبلغ أن يكون بجنبه كنهج البلاغة في جنب الفرقان

وذكر الاستاذ الامام في ذلك الدرس أنه كان معه مرة فسمعا جرس الكنيسة فوضع الشرتوني أصبعيه في أذنيه والتفت اليه قائلا انظر أيها الاستاذ الفرق بين الدعاء الى العبادة عندنا والدعاء اليها عندكم بالاذان الذي هو نفسه عبادة .

وأقول ثم كان تقريظه لرسالة التوحيد أعظم من هذا وأدل على مكانة الاسلام من نفسه ، وتأثيره في وجدانه وعقله

وهكذا كان أسلوب الاستاذ الامام ومنهاجه مع أهل الاديان وأهل المذاهب الاسلامية وطوائفها ، كان يظهر حقية الاسلام وعلوه بالصفة التي كان عليها الصدر الاول في المناسبات بعبارات فصيحة نزيهة بعيدة عن التعريض بأديان الحاضرين أو مذاهبهم المخالفة لدين الاستاذ ومذهبه فيه ، حتى كان يكون محل إعجاب الجميع واحترامهم ، واعترافهم بان الاسلام فوق ما كانوا يعلمون منه ، ومباين لكثير مما كان يروى لهم عنه ، كما بين ذلك الامير شكيب في المقال الذي وصف به سيرة الاستاذ الامام في بيروت (ص ٤٠٢)

احالته بعض المستفتين علي مريده المؤلف

وكان كثيرا ما يرسل الي بعض السائلين عن الشبهات ، والمستفتين في المشكلات ، لكثرة أعماله ، وثقته بتلميذه ، كما كان يحيل علي بعض الاسئلة المكتوبة على ماسبق في الكلام على فتاويه. وأذكر من الاحياء المعروفين منهم الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المشهور كان كتب اليه وهو تلميذ في طنطا مكتوبات فيها أسئلة من هذا النوع ، وكان رحمه الله تعالى يرسلها الي لأجيبه عنها. وأذكر انني كتبت اليه مستحسنا إلمامه بمصر للمذاكرة الشفوية في مشكلاته وانه حضر ولقي الاستاذ وأراد البحث معه في تلك المسائل : فقال له اذهب إلى فلان صاحب المنار فهو يجيبك عما تسأل بمثل ما أجيبك به - اوما هذا معناه - وكتب لي رقعة أو بطاقة في التعريف به وبغرضه، فلما أعطاه إياها قال له أنا أذهب إلى صاحب المنار ولكنني أحفظ هذه أثرا من فضيلتكم عندي . قال لا بأس ، وأنا أكتب لك رقعة أخرى فجاءني ولا اذكر مادار بيننا بالتفصيل

بعد كتابة ما تقدم راجعت ما أحفظه من أمثال هذه المكتوبات فوجدت فيها كتابين للاستاذ لطفي جمعة رأيت أن أنشرهما لما فيهما من الدلالة على ذكائه وحريته، وبحثه في زمن التعليم في أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين، وحسن إنشائه الذي يقل مثله فيمن كان في سنه وتحصيله، ومعرفته بمكانة الاستاذ الامام وفضله ، وإلهامه الرجوع اليه فيما يهمه من أمره ، ووصفه لتعليم الدين في المدارس الاميرية وأمثالها، وخلوها من التعليم الديني والتربية الملية التي يجب تنشئة التلاميذ عليها .

﴿ الكتاب الأول ﴾

طنطا في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤

اللوكندة الخديوية بشارع البورصة — محمد لطفي جمعة

سيدي الاستاذ

يكتب اليك شاب قصم الدهر ظهره ، وناءت عليه المصائب بكلكلها ، فجلس في مجتمع من الناس لا يعرف منهم إنسانا

فلا صديق اليه مشتكي حزني ولا أنيس اليه منتهى جذلي

جلست وأنا مفعم بالهموم والاحزان، وصدري يجول به الحزن والضيق، وفؤادي مروع ، وعقلي يكاد يطير شعاعا ، فقلت الى من أشكو ، ومن ذا الذي يسمع تألمي إلا الله . ولكن تلك القوة الهائلة تعلم ما أنا فيه ولا تفرج كربي ، لانه لم يأن الأوان ، فقلت إني كاتب لشيخ هذه الأمة ، علّي أجدى سلوى في كتابتي اليه

وأنا أشكو في حياتي هذه من أمرين : أمر يتعلق بنفسي، وأمر يتعلق بجسمي وأمر نفسي تحته مسائل شتى .

نشأت كما ينشأ كل مسلم مصري ، وأنا لا أعرف من ديني الا إسمه ، ولا أعرف من أديان الناس إلا انها كفر وبهتان . وحفظت قليلا من القرآن في المدرسة الابتدائية، كنت أضحك منها عند تلاوتها ، وخرجت من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . وأنا لا أزال كما كنت لا أعرف الله الا باسمه ، ولا النبي إلا (بصلى الله عليه وسلم)

وكان لنا استاذ غرس في نفوسنا حب المطالعة والبحث وأرانا القرآن بشكل جديد، وفسر منه آيات كثيرة ، فلم نعد نقول ان تفسيره حرام على غير العلماء .

وقرأت كثيرا في الكتب الانكليزية والعربية وطالعت فلسفة باكون وفلسفة ابن رشد ونتفا مختلفة من هذه العلوم، فزاد الامر علي إشكالا، فبقيت كريشة في مهب الريح ، ثم نظرت في أصل الروح وما هي وكيف خلقت ، وما أصل الخالق ؟ وهل نحن اجزاء منه ؟ وهل هناك قوة هائلة هي الله ؟ وهل العالم

يسير بنظام ؟ وهل وجدت المادة قبل الخالق ؟ أو هو الذي خلقها ؟ وكيف خلق المادة؟ ثم كيف خلقت النفس البشرية؟ ذلك المخلوق الكبير الذي اذا سار في طريق الخير كان مثالا لله، وان سار على درب الشر كان صورة للشيطان، وما هو الانسان؟ ذاك (الحيوان الاله) العجيب، وأين النفس من جسمه؟ وما معنى انها ملازمة للجسم ؟ ثم جاءت مسألة القضاء والقدر وأعمال الانسان في هذه الحياة؛ وأقول بانها زادتني تعبا على تعبي ،فلا أنا قادر على أن أقول ان كل شيء من عند الله ، ولا قادر على ان أقول ان العالم متروك سدى، لأن في عقلي ما ينقض كلا هذين القولين

ثم نظرت في الموت ولماذا هو في وقت معين ؟ ولماذا لا يطيل الانسان عمره؟

ثم نظرت في هل هناك حساب وبأي شكل ؟

وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة أي أننا نبقى أجساما ونفوسا . ثم نظرت في الجنة فقلت ان ليس فيها «حورا وولدانا» (كذا) بل فيها كمالات نفسانية وإننا ننقل الى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب. وهكذا حتى نصل الى أقصى درجات الكمال.

وكذلك ليست النار نارا كما يقال ،بل هي عبارة عن عذاب الضمير لنفسه .

أنا مرتبك لا أدري ماذا أكتب ؟ ولكن هاهي صورة مني والسلام

وما طالعته في الكتب وما سمعته وكل هذا خلط في فكري خلطا كبيرا

وطالعت أخيراً سورتين من القرآن بامعان زائد فخرجت منهما على أن في القرآن اصلاحا كبيراً للهيئة الاجتماعية ودونت ذلك في كتاب عندي

هذا عذابي من جهة ديني

ومن جهة أمتي فأنا حزين لانها ساقطة ولا يرجى لها قيام . أمة منحطة لا تقدر الناس حق قدرها ، ولا تعرف يومها من آمسها، وأحسد أمة اليابان التي ارتقت في خمسين عاما مع أنهم يعبدون الاوثان ، فما أجدرنا بترك ديننا لليابان وأخذ دينهم . لاننا لا نصلح له لانني لا أزال احترم الدين الاسلامي وان كنت لا أعرفه ،ومن جهة عائلتي فآلامي شديدة ومن جهة نفسي فآلامي أشد وأنا لا أخاف أن أكتب لك بذلك ؟ محمد لطفي جمعة

﴿ الكتاب الثاني ﴾

سيدي الاستاذ العظيم ابقاه الله لنا ذخرا ليحفظ كيان الامة الاسلامية .
انا لا اعلم ان كان ما كتبته قد تشرف بنظركم اليه فنال القبول ام لا ؟ ولكنني لا ارى لي مندوحة من ان اكمل سؤالي حيث قد طرحت مبادئه على سيدي الاستاذ فاقول :

﴿ الله ﴾ اول ما يخطر ببالي عند ذكر هذه الكلمة قوة هائلة لا يمكن تصورها وهي محاطة بملائكة كثيرين . ولكن ما شكلها ؟ لا ادري . واحس عند ذكره بجلال وخشوع ولكن لماذا ؟ لا ادري .

﴿ المادة ﴾ وهذه المادة التي خلق منها كل هذا العالم . هل خلقت من نفسها او خلقتها تلك القوة الهائلة ؟ واذا لم تكن هناك مادة فكيف خلقت ؟ اذن هل المادة جزء من القوة الهائلة ؟ او هل وجدت المادة قبل القوة الهائلة

هاتان هما المسئلتان اللتان تمنعان الكرى عن جفوني

﴿ الكون ﴾ وهذا الكون المتناهي في العظم والكبر والفخامة ما عمره ؟ اني أراه ايضا متناهيا في القدم . وعبثا ان يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب وهذه الاقمار وهذه الشموس عبثا ، فلا بد من ان يكون فيها مخلوقات لله . وكل هذه الاشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير .

ولكن هل يخطر ببال احد ان ﴿ المادة ﴾ هي اصل كل هذا الخلق العظيم وانها تحركت بنفسها وخلق منها هذا الكون الهائل وسار على قوانين منتظمة ؟ ؟

هـذا خاطر كنت اميل اليه في بعض الاوقات اما الآن فقـد تلاشى من فكري او كاد . ودليل ذكره انني كنت ارى ان الرجل اذا نالت جسمه السقام او اصيب قلبه بسهم فانه لا محالة يموت . اذن لم يمت حتى انحل تركيب جسمه او اصيب العضو الرئيسي فيـه ، والجسم مخلوق من المادة ، فهـل حياة الانسان موقوفة على المادة ؟؟؟

وسمعت هذا القول اوما يشبهه مرة من طبيب فشغلت نفسي به شهرا كاملا ولا يزال عقدة في سلسلة افكاري .

النفس البشرية وخلق آدم

وهنا تأتي أم المسائل التي اعشقها عشقا عظيما . يأتي ذكر النفس البشرية ما هي ؟ اين هي من الانسان؟ كيف خلقت ؟ وهل هبطت اليك من المحل الارفع؟

انا اجيب نفسي على هذه الاسئلة بهذه الاجوبة:

النفس البشرية قطعة من الله ولا اقول شعاع من نوره كما يقول الفقهاء والمتكلمون. او ان الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس .

وهي ليست موجودة في أي جزء من اجزاء الانسان، بل هي تظلله ولا علاقة مادية لها به ، مثلها كمثل الحديد الرفيع الذى يوصل التيار الكهربائي الى عربة الترامواي فان هذه الحديدة لا علاقة لها بالترامواى الذى هو جسم الانسان واذا حدث للترامواى (العربة) عطل فانها تمتنع عن السير اما الحديدة فلا يحصل لها ضرر .

وكيفية خلقها يعود بي الى السؤال الاعظم : كيف وجد الله ؟ بل كيف وجدت هذه القوة الهائلة ؟

لان الله والنفس شيء واحد : هذا رب في سمائه ، والنفس رب في ارضها :

وهي لم تهبط من المحل الارفع . لكن اين هذا المحل الارفع ؟ ؟

خلق آدم وحواء

كنت وانا صغير شديد الولوع بمطالعة قصة آدم وحواء وكيف طردا من الجنة، وكيف تقابلا وتناسلا : وانا الآن شغف بقول شاعركم :

لم تلدنا حواء الا لنشقي   ليتها عاطل من الاولاد

ولكن انا الآن أفكر في امر ارقى من هذين الامرين السابقين وان كانت طريقه محفوفة بالاخطار وهاك سيدي رأيي في خلق اول انسان

صورة العالم في اول خلقه كما هي في فكري غريبة جدا : وهذه الصورة استنبطتها من العلوم التي قرأتها . كان العالم كله بحرا وذلك بعد ان بردت الارض وانفصلت من النظام الشمسي على حسب رأى لابلاس الذي جاء مصداقاً لما في القرآن (كانتا رتقا ففتقناهما) . ولما صارت الارض بحرا بقيت كما هي زمنا طويلا

طويلا جدا جدا . وبعد ذلك اخذت اليابسة تظهر شيئا فشيئاً . وذلك بدليل الرمال العظيمة الموجودة في كل القارات وهي مصحوبة باصداف لا توجد الا في قاع البحار . ثم من ارقى درجات الجماد خلقت أدنى طبقات النبات مثل الحشائش في الصحراء وغير ذلك ، واخذ ذلك زمنا طويلا طويلا جدا ،ثم ارتقي النبات كثيرا حتي خلق من ارقى طبقاته ادني طبقات الحيوان.واذكر قول النبي ﷺ -قاله استاذى في الدرس اذكر معناه - « راعوا عمتكم النخلة » (١) لانها ارقى درجات النبات . ومن ارقى درجاته خلقت الديدان والحشرات وطال الزمن طولا عظيما حتي وصل الحيوان الى ارقى درجاته وثم خلق اول انسان ، وفي هذا الاثناء كان العالم يرتقي من جهات أخرى. اني اميل لهذا الفكر لانه صحيح ادلته علمية استقرائية ولا اميل الآن الى قصة آدم وحواء . والسلام، والبقية تأتي ان شاء الاستاذ العظيم طالب الحقيقة

محمد لطفي جمعة

[المؤلف] ليس هذا الموضع بمكان لهذه المباحث وانما اقول بالاجمال ان هذا العالم الذي نقيس مالم يعلمه البشر منه وهو أكثره ،على ماعلمه وهو أقله، هو منفعل لقوة فاعلة فيه لم يصل البشر إلى معرفة كنهها. واذا كان البشر قدعجزوا الى اليوم عن معرفة حقيقة مايسمونه المادة ومايسمونه القوة المودعة في المادة وهي حادثة ، وان اهتدوا أخيراً الى أن القوة تتحول الى المادة او الاحرى أن المادة تصدر عن القوة ،فأحرى بهم أن يعجزوا عن معرفة كنه الخالق للقوة والمادة معاً ،وعن صفة خلقه لهما،وقد قال تعالى في خلق العالم وخلقهم (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وكذلك الروح يكثر ايمان الماديين بها عاما بعد عام مع الاعتراف بأنهم عرفوها بأثرها لا بحقيقتها. وليراجع القارىء الى قصة آدم في الجزء الاول من تفسير المنار ومعنى خلق الناس من نفس واحدة في أول تفسير سورة النساء يجد مافيه الغناء في مسألتهما ويجد في مواضع أخرى منه ومن المنار أجوبة تلك الاسئلة كلها

(١) المؤلف : الحديث رواه ابو يعلى وابو نعيم عن ابن عباس بلفظ « اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم »وفي رواية « من فضلة طينة آدم » وفيه ضعف وانقطاع في السند

النوع الثانى

﴿ الدفاع القلمي عما يسأل عنه المسلمون من المشكلات ﴾

وبيانه لما فشا فيهم من البدع والمنكرات

كان بعض المسلمين يسألون الاستاذ الامام بالكتابة عن بعض المشكلات في القرآن ، أو في بعض مسائل العقائد أو الاحكام ، وبعضهم يسأله بالمشافهة ولكنه يرغب أن يكتب الجواب وينشر ليستفيد جميع الناس به ، وكان يأمر بنشر بعض ما يكتبه من الاجوبة ويجعل بعضها خاصا بالسائلين

ومما نشر في المنار منها مسألة الغرانيق ، وهي من أعظم المشكلات في كتب التفسير ، لانها تتعلق بجوهر التوحيد. ومسألة زيد وزينب ، وفي كتب التفسير من الروايات فيها ما جعله دعاة النصرانية وغيرهم مطعنا في النبي ﷺ ومسألة شبه التعارض بين هاتين الآيتين من سورة النساء (٤ : ٨٧ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك .قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا (٨٩) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) الآية . ولكثرة حاجة الناس الى التفسير الصحيح للآيات في هذه المسائل الثلاث جردناه من مجلة المنار ونشرناها مع تفسير سورة الفاتحة الذي طبع عدة مرات ، ومنها ما أدخله في عداد الفتوى الرسمية كمسألة طوفان نوح التي نشرناها في هذا التاريخ وكنا نشرناها من قبل في المنار

وكان رحمه الله تعالى يرسل الي بعض هذه الاسئلة المكتوبة لاجيب أصحابها وقد وقع في يدي قبل الشروع في كتابة هذا الفصل كتاب أرسل اليه يسأله صاحبه عن التحريف في التوراة والانجيل هل هو لفظي أو معنوي — وقد وقع عليه: الشيخ رشيد يجيب عن هذا بكتاب خاص ، وأرسل اليه بعض الناس رسالة مطبوعة «تتعلق بصلاة الظهر بعد الجمعة في الامصار» للشبراملسي الشافعي ويسأله ما يقول فيها؟

فأرسلها الي وقد كتب على ظهرها مانصه: اذا وجدت وقتاً وطريقاً لتسفيه صاحب هذه الرسالة وناشرها في جريدة المنار فافعل » وأرسل اليه شيخ سوري اعتراضا على شيء قاله في التفسير فأرسل الي كتابه وقد كتب على ظرفه « الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان » الخ وسبب ذلك ان المعترض كان يريد التحرش والجدل بعبارة ظاهرة في ذلك ، فهذا مثال من غضبه رحمه الله من سيئي النية وهو قليل جداً فيما يضاده من حلمه وسعة صدره ، ومن انصاف التاريخ أن نبين كلا منهما

ويدخل في هذا النوع مقالاته في القسم الادبي من جريدة الوقائع المصرية الرسمية في موضوع ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية ودوسة أهل الطريق و (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) ويراها القارئ في الفصل الثاني من جزء المنشآت من هذا التاريخ — وكذا ما نشره في الصحف السورية كمقاله في كتب المغازي وأحاديث الاقاصيص في (ص ٣٤٦) من المنشآت وغير ذلك

النوع الثالث

﴿ ماكتبه في الرد على الطاعنين في الاسلام من غير المسلمين ﴾

قد عقدت لهذا النوع الفصل الخامس من باب مقالات الاستاذ الامام في الجزء الثاني من هذا التاريخ (جزء المنشآت) وعبرت عنه بالمناظرات الدينية — وقد افتتحت الفصل بهذه الكلمة :

« أشهر ماكتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو ـ أحد وزراء فرنسا وكتابها — في الاسلام والعقائد السامية والآرية ، وما يتعلق منهما بالاسلام والنصرانية ، ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد ، والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وانا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى (أي مناظرة هانوتو) لأن الثانية قد نشرناها في المنار ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مرارا » وهو كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)

الرد على هانوتو

ثم بينت كيف كتب الرد على هانوتو ، وما كان له من الشهرة والتأثير في الشرق والغرب ، ونشرت ترجمة مقالة هانوتو الاولى ورد الاستاذ الامام عليها ثم ما كتبه هانوتو بعد وصول الرد إليه واطلاعه عليه ، ثم ما رد به الاستاذ الامام عليه ، وقد بلغ ذلك ست مقالات واستغرق نشر الاصل والرد ٦٨ صفحة من ٤٠١ — ٤٦٨ (من المنشآت وختمته بهذه الكلمة في العبرة به)

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم الى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الاسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهماءهم، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم انها على ما كان من حسن تأثيرها، ولهج الألسن بها، وطبع الالوف الكثيرة من نسخها، لم تحمل المسلمين على اصلاح خلل في تربية ولا تعليم ، ولا إدارة ولا سياسة ، وانما كان ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة ، وظهور حجته في العلم والدين والسياسة، على كاتب من أكبر رجال أوربة، وذلك شأن الامة في طفوليتها: سرور كسرور الاطفال، وغضب كغضب الاطفال، لا يبعثان على عمل من الاعمال، ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى (أي العثمانية) خيراً من نصيب رجال الامة الاسلامية من هذه الآيات والعبر، فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية، وان إدارتها غير اسلامية . وأشار الى دابة الالحاد التي تأكل من منسأتها ، فلم يعتبر أحد من رجالها ، فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم أن اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها ! ! اه

تأثير الرد على هانوتو في الناس

أشرت آنفاً إلى ما نشرته في المنار من تأثير رد الاستاذ الامام على هانوتو في الشرق والغرب ، وكنت أعد ذلك من مادة هذا التاريخ التي تنشر فيه ولكنه

طال فوق ماقدرته له فكان هذا مانعاً من نشر ماذكر لكثرته ولكنني أنوه ببعض مافيه العبرة في هذا الموضوع بالايجاز في مسائل:

(١) ان الرد كان بأسلوب رفيع من البلاغة ، وفيه من المفردات المصورة لادق المعاني ما هو طريف غير متداول ، وفيه من الدلالة على سعة اطلاع الكاتب على تواريخ الامم وعقائدها في الشرق والغرب — ولا سيما فرق النصرانية — ماليس للناس عهد بمثله في الجرائد ، وهو قد كتبه بسرعة لامجال فيها لمراجعة شيء من الكتب ، فانه قرأ المقالة الاولى في المؤيد ليلا فكتب رده عقب قراءته ليلا وأرسله إلى المؤيد في الصباح فنشر في العدد الذي صدر في ذلك اليوم ، وقد عزاه صاحب المؤيد إلى امام من أئمة المسلمين لان الكاتب لم يأذن له بالتصريح باسمه ، فكان مثار الدهشة والاعجاب ، في أنفس جميع القراء من جميع الملل والنحل والآراء ، ببلاغته وبادبه في التعبير ، فهو على شرحه مابين النصرانية والوثنية الآرية من وشيجة النسب وصلة الرحم ، وتفضيل ملة التوحيد السامية عليها لم يكتب كلمة تسوء أحداً من النصارى لامن رجال العصبية الدينية ، ولا العصبية الدنيوية

(٢) ان أكثر أهل العلم والادب في القطر المصري قد جزموا بان الكاتب لذلك المقال هو الشيخ محمد عبده وانه لا يقدر عليه غيره ، وقد قيل له هذا في مكتب الافتاء ، وكان في مجلسه بعض العلماء والادباء ، فتوقعوا أن يتهلل وجهه سروراً ، وان يظهر هذا على لسانه ولو بعبارات التواضع والفخر المعنوي ، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضا انه لايسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول المتضمن لمنتهى ذم قومه واهل بلده بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع بمثله أكثر أهل التعليم الوسط وندع التعليم العالي . قال : ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير إذا أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه إذا رأى مصلحة في ذلك !! فليتامل أولو الالباب ، هذه الاريحية القومية والوطنية الجديرتين بالاعجاب !

ومما يحسن ذكره هنا أن بعض أصحابي كان ينكر علي شدة اعجابي بالاستاذ الامام وثنائي عليه (لانه لم يكن يعلم من أمره إلا مايسمعه من الحاسدين له او جاهلي

مزاياه) قال لي لما قرأ الرد على هانوتو : لو كان الشيخ محمد عبده هو الذي كتب هذا الرد لكنت أعذرك بدلا من عذلي لك على مبالغتك في مدحه - او ما هذا معناه - فقلت له كان لبعض العشاق صاحب يكثر لومه على الحب، فأبصر معشوقه يوما ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدهش وراعه جماله، فقال له لو عشقت هذا لما لمتك ولما لامك أحد ، فأنشد العاشق :

ابصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا مالامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه

ففهم مرادي وصار من حزبنا

هذا وانه قد تصدى كثيرون للرد على هانوتو في الجرائد والمجلات ، فمنهم من أساء حتى طعنوا في الديانة النصرانية طعنا لا محل له وهو ضار غير نافع ، ومنهم من لم يحسن ،وأنى يبلغ من أحسن غبار الاستاذ الامام فيما سبق اليه وهو لم يدع مقالا لقائل ،

(٣) افترص هذا الاضطراب بشارة باشا تقلا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الفرنسية فتصدى للرد على الامام نفسه و الدفاع عن موسيو هانوتو ظنا منه أن هذا يحمل الناس على كثرة قراءة الاهرامين العربية والفرنسية ويكون سببا لرواجهما لما جرت عليه العادة في المناظرات المهمة ، ولكن أخطأ الظن وخاب الرجاء ،إذ نفر جماهير المسلمين من الاهرام واعتقدوا أن الحامل لها على الرد على الامام ، انما هو التعصب وعداوة الاسلام ، فقل قراؤها ، وكثر المعرضون عنها

وكان أكبر ماتمسكت به الاهرام في الدفاع عن هانوتو انه أنكر على (كيمون) مانقله عنه من الطعن في الاسلام واقتراحه القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الاعظم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس ، وانما كان إنكاره أن وضع في آخرها علامة الاستفهام الانكاري ، وزعم ان ترجمة المؤيد لعبارته لم تؤد غرضه هذا

(٤) انني وقفت بالمنار في هذا التنازع والتخاصم بين الجرائد موقف الحياد، على ماعلم من خطتي في تأييد الاستاذ الامام ، واقتصرت فيه على كتابة مايرشد

المسلمين الى الاعتبار والاستفادة من هذه الحادثة ، ومن آداب امامهم وسياسته فيهـا ، فهو على شدة رده على هانوتو وبيانه اسوء معاملة فرنسة للمسلمين في الجزائر وتونس، قدأشار إلى إمكان التوفيق بين مصالحها ومصالح المسلمين كما يراه المطلع على مقالاته في الجزء الثاني من هذا التاريخ

وانني أثبت هنا مانشرته في المجلد الثالث من المنار (ص ٢٥٠) في موضوع ذلك القيل والقال في الجرائد لانه جدير بأن لايخلو هذا التاريخ منه، وهذا نصه :

هانوتو والاسلام

(تلخيص ماجرى من المناقشات في مقاله والرد عليه)

سأل أحد أفاضل مسلمي بيروت صديقاً له من أدباء المسيحيين مقيماً في مصر القاهرة (١) رأيه وما وصل اليه علمه في شأن المناقشات التي بنيت على مقالات هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً في الاسلام لاسيما صحة الترجمة فأجابه بكتاب نذكر منه في هذا المقام مايأتي :

« مقال هانوتو الذي سبب حركة الافكار واهتزاز الاقلام، قدطالعته مراراً باللغة الفرنسوية، وترجمة المؤيد غير مغلوطة، ولـكن المسيو هانوتو عند مانقل كلام كيمون كان غير مرتاح اليه، وتهكم صريحاً على افكاره، وعلى الحل المتناهي في الغلو الذي زعم كيمون انه يريد ان يحل به المسألة الاسلامية، فمترجم مقال هانوتو في المؤيد قد حافظ المحافظة التامة على الاصـل ، فاكتفى بان يضع اشارة الاستفهام الانكاري والنقط التي تتبعها، غير ان قراء لغتنا العربية لم يتعودوا على ادراك سر هذه النقط التي اصطلح عليها الفرنجة ، ولهذا التبس المعنى ، وظن الكثيرون ان هانوتو يصادق على كلام كيمون، ومع ذلك فقد استأنف الكلام، وعاد ثانية إلى الاسلام، وتبرأ مما نسب اليه وصرح بميله واحترامه الاسلام والمسلمين، وترجم مقالة المؤيد وتبعه في ذلك الاهرام أيضاً

« ١ » أما السائل فهو سعادة عبد القادر بك القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون الشهيرة وأما المسؤل فهو جاد افندي عيد

ثم دخل اللواء في مضمار المباحثة وتكدر منه محرر الاهرام الفرنسوي (وهو شاب استقدمه تقلا باشا من باريز) وطلب مصطفى بك كامل إلى المبارزة، وتبع ذلك أقاويل مختلفة، وأقيمت الدعوى من تقلا باشا على صاحب اللواء، وتشاتم الفريقان وانحاز إلى كل فريق انصار ومريدون

مولاي . لو اكتفى المؤيد واللواء بما كتبه ذاك الامام العظيم لخدما حقيقة الاسلام، لان الحق يصرع اذا عمد إلى اظهاره بالسباب والشتائم، ولم يكن لرد الامام الوقع العظيم في نفوس المسلمين فقط، بل ان كثيرين من افاضل النصارى قد أجلوه كثيراً، واحلوه محلا كريماً، ولا أبالغ اذا قلت لسعادتكم انني قرأته أكثر من عشرين مرة

دين الاسلام كله شهامة ومروءة وحرية ومدنية طاهرة، غير ان كيمون والذين على شاكلة كيمون، قد تلقوا كل ماهو معاكس لروح الاسلام والمسلمين وبعيد عن عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم . وكتاب الفرنجة لا يراعون العواطف في اندفاعهم، وقد كتب الكثيرون منهم في الطعن على السيد المسيح وعلى طهارة والدته وعلى كرامة تلامذته، وتصدى منهم فريق عظيم للتوثب على الاحبار الاعاظم، وقالوا فيهم الاقوال الشائنة التي ترتعد لها فرائص الآداب والفضيلة، فالقوم الذين بلغ بهم التمادي والغرور إلى هذا الحد أيليق ان نترجم أفواههم ونذيع ترهاتهم على رؤوس الاشهاد، ونحرك ماكمن من الاحقاد

انني استحلفك بدينك القويم الذي أشرق بنوره الوضاح على البصائر المظلمة فأنارها، وعلى العقول المقيدة فارشدها وحل عقالها، وعلى القلوب المتسكعة فأيقظها وقوَّم اعوجاجها، أن تحرك قلمك وتغمزه إلى الغاية المحمودة، وذلك في استنهاض همم فطاحل كتاب المسلمين للذود عن الاسلام بالطرق التي يريدها الاسلام — الطرق التي يريدها الاسلام لا تخفى على أفاضل المسلمين الذين أشربت قلوبهم محبة الائتلاف والموادعة والمسالمة، وتحريض الامة على اكتساب الفضائل السامية في اكرام الجار، وتعزيز حقوق الجوار، ومعاملة عباد الله بطرق المساواة والعدل والولاء يوجد كثيرون من الذين لم يتشرفوا بالدين الاسلامي على ضلال مبين في

أفكارهم وظنونهم نحو الاسلام والمسلمين، ولكن ضلالهم لا تعفو آثاره إلا البراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ، التي تثبت لهم ان دين الاسلام دين الحرية المطلقة ، والحنان الصادق ، والشهامة الحقيقية ، والمحافظة على الاعراق ، وكرم الاخلاق ، والعرض والاخلاص والوفاء .

أنظن يامولاي ان كيمون يقذف من فيه تلك الاقذار لو كان قرأ في زمانه فصلا واحداً من الفصول التي دبجتها أنامل الامام علي كرم الله وجهه ؟

أنظن انه يجرأ على التلفظ بذلك الحل الهائل الذي يريد ان يحل به المسألة الاسلامية لو كان سمع بحلم وحكمة العمرين ، وكرم ابن زائدة ، وعدل الرشيد ، وسخاء البرامكة ؟

أنظن انه يحرك قلما لو علم بان أحقر رجل من المتدينين بدين الاسلام يهرق آخر نقطة من دمه في الذود عن عرض وكرامة الملتجىء اليه عند مايسأله الحماية ؟

مهما كان كيمون والذين على شاكلته في غرور وضلال فانهم لا يستطيعون بعد معرفة الاسلام إلا الثناء على الاسلام ، والافتخار بفضائل الاسلام

وكنت أود من صميم الفؤاد ان أضم صوتي إلى أصوات مقرري الحقيقة وأنصح أفاضل المسلمين أن يتخذوا الخطط الصائبة في مجادلاتهم ، وكسر شرة المتوثبين عليهم ، فالحق أيدك الله في جانبهم ، غير ان بعض جهالهم يريدون ان يصرعوه في تطفلهم على صناعة التحرير والتحبير ، ولا أكتم على سعادتكم شيئاً ، فان الاقلام التي تحركت من بعد رد الامام المعتدل المحكم لم تأت بشيء من الفائدة ، بل أضاعت او أوشكت ان تضيع الحق الذي بجانبكم ، وتسبب حركة لا يرضاها عقلاء الامة الاسلامية

عن القاهرة في ٩ يونيو سنة ٩٠٠ ج.ع

[المنار] نحن تحامينا الخوض في المجادلات عندما حمي وطيسها ، وكنا غير راضين عن الذين تهوروا منا فطعنوا في الديانة النصرانية نفسها بما لا يتعلق بالرد ، ورأينا من نعرف من أفاضل المسلمين معنا في هذا الرأي ، وقد نشرنا كلام هذا الكاتب الاديب المسيحي لما فيه من روح المودة الذي نحن في أشد الحاجة اليها ، ولا شيء ينفخ روح الهدوء والائتلاف ، مثل الاعتدال والانصاف اه

الرد على فرح افندي انطون صاحب مجلة الجامعة

تمهيد

كان فرح افندي أنطون من أمثل شبان النصارى في وطننا ذكاء وحباً للعلم والفلسفة ، تعلم في مدرسة كفتين للروم الارثوذكس - وكانت مدرسة ابتدائية ثانوية - ثم صار معلما لاحدى مدارس طائفته الاولية في ميناء طرابلس الشام ، وكنت ألقاه أحيانا عند الاستاذ جرجي افندي يني فيعجبني منه أدبه وامتناعه من ابداء رأيه فيما تدور المذاكرة بيننا فيه من المسائل السياسية والاجتماعية معتذراً بانه لم يدرسها درس تمحيص يعطيه الحق في الحكم فيها ، ولكنه عصبي المزاج إذا تألم مما يمس شعوره يفقد رشده

وكان يحن مثلي إلى الهجرة إلى مصر ويستعد لانشاء مجلة أدبية فلسفية فيها ، وقد أعد لذلك مقالات كثيرة ترجمها عن اللغة الفرنسية بما كان أكثرها من كتب (جول سيمون وجان جاك روسو) وغيرهما ، واتفق ان سافرنا معا في باخرة واحدة ، وبدأ هو بالبحث عن عمل له في تحرير بعض الجرائد او المجلات من حيث كنت أنا أجول في الوجهين البحري والقبلي لاجل معرفة البلاد في الجملة ، ثم أنشأت جريدة المنار قبل انشائه هو مجلة الجامعة العثمانية ، وكلفته مساعدتي في العمل بترجمة بعض المسائل التي تهمني من الجرائد الفرنسية باجرة معينة

ولما أنشأ هو مجلة الجامعة العثمانية وجهت اليها نظر الاستاذ الامام ، وقلت له ان منشئها يكتب مايعتقد فائدته من المباحث العامة في الفلسفة والاخلاق والاجتماع ، ورجوته أن ينظر فيها ، ويثني عليها في مجالسه بما يراه للترغيب فيها ، ففعل ، وقابله فرح افندي انطون مراراً فلقي هذا من عطفه ما كان به راضيا مغتبطا

ولما كتب فرح افندي ما كتب في فلسفة ابن رشد مما لم يكن يفهمه حق الفهم ، وحكم بان النصرانية أشد من الاسلام تسامحا مع الفلسفة والعلم ، ساء ذلك من اطلع عليه من المسلمين وطالبه بعضهم بالرد عليه ، فلما رأى الامتعاض والاهتمام افترصه ليبين للمسلمين جهلهم بدينهم واعراضهم عنه ، كما صرح بذلك في آخر الرد

كيف كتب الرد على الجامعة وأين كتبه

سافر الاستاذ إلى رمل الاسكندرية في أواخر يوليو (سنة ١٩٠٢) وكان مشتغلا بجمع الاعانات المالية لمنكوبي الحريق في ميت غمر. ووعدني قبل سفره بان يكتب فيه، وانه يتوقع أن يرى فيها فرح افندي أنطون ويتكلم معه في الغرض من هذه الكتابة، وكانت المكاتبة بيني وبينه متصلة، وانني أنشر ما وجدت من مكتوباته في هذا الشأن لما فيها من الفائدة بل الفوائد ومن أهمها المهم من سوء حال المسلمين الذي يعبر عنه في كل مناسبة

(الكتاب الاول من رمل الاسكندرية في ٥ أغسطس سنة ٩٠٢)

ولدنا العزيز

وصلني رقيمك وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء الله. إلى الآن لم أكتب شيئاً، وقد أخذت القلم الآن لا كتب وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه. ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين. ربما جئت إلى مصر يوم الخميس ان لم يطرأ مايحملني على الذهاب إلى رشيد والسلام (محمد عبده)

﴿الكتاب الثاني من الرمل في ٦ أغسطس﴾

كتب اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأي الفلاسفة والناس جلوس يتكلمون، وأريد مراجعته صباح الغد إذ لايمكنني مراجعته وهم جالسون وهم لايفارقونني إلى وقت النوم.

لم أر فرحا إلى الآن، ولا أدري هل أراه غداً..؟ كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل اليه؟ وعلى كل حال فلا بد من نقله بخط آخر ولا يكون إلا خطك. وأظن اني أكون بمصر مساء الغد إن شاء الله، فلتكن عندي بعين شمس صباح الجمعة بعد أن تسأل بالتليفون والسلام محمد عبده

فعلم من هذين الكتابين انه كتب ذلك المبحث الدقيق في الفلسفة وعلم

الكلام في يوم واحد بمكان لا كتب فيه براجعها، وهو في شغل شاغل من وفود الناس عنده . وهذا مصداق ماقاله لي سعد باشا زغلول بمناسبة استيائه من أناس قطعوا عليه طريق اتصال الفكر في موضوع كان يكتبه . قل فاضطررت عند الفراغ إلى اعادة الفكرة فيما كنت ا كتب من أوله . (قال) وكان لشيخنا رحمه الله من قوة الفكر مايمكنه من الكتابة او الكلام في أي موضوع كان مع سماعه لكلام الناس ومشاركته لهم فيه ، ولا يصعب عليه العود إليه بعد قطعه عليه . وسيرى القارىء مصداق هذا فيما يأتي قريبا

ثم جاء القاهرة وكان قد أتم القسم الاول من الرد الخاص بمسألة ابن رشد، فنسخته بخطي وأرسلت ما كتبته إلى فرح افندي وكتبت اليه بأن الاستاذ الامام استحسن أن ينشره كل منا في وقت واحد (ولكن فرحا امتنع من النشر كما سنذكره) ثم سافر الاستاذ إلى الدقهلية لاجل مسألة إعانة المنكوبين في ميت غمر وكان شرع في كتابة القسم الثاني من الرد واعطانيه وهو المقابلة بين الاسلام والنصرانية في العلم والمدنية ، والتسامح مع العلم والفلسفة. لاجل أن يكتب في القطار وحيث يكون ضيفا من كل بلد ، وأذكر بعض مكتوباته الخاصة في ذلك

(الكتاب الثالث من السنبلاوين في أول سبتمبر سنة ١٩٠٢)

ولدنا الفاضل

السلام عليكم . رأيت ما كتب في المقطم وهو حسن . حافظ يروج المنار وينجح إن شاء الله (١) . تذكرت أني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في البروتستانت ورأيهم في الفلسفة وحكاية ما كان يقوله (ولتير) في (ارسطو) هذه العبارة « وكان علماء السنة يسمون أرسطو المعلم الاول » فان كنت لم تطبع الى الآن سب ولتير لارسطو فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب . وان كان قد انتهى طبعه فاختر لذلك موضعاً في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة قبل

(١) يعني محمد حافظ ابراهيم بك ، وكان مرافقاً له في ذلك السفر ، ويرغب الناس في قراءة المنار

تبسم الاسلام من الاديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب

الى الآن لم أكتب ولا كلمة في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء الناس المرزوئين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً . وربما فرغت بعد يومين والسلام

محمد عبده

(الكتاب الرابع من المنصورة في ٤ سبتمبر)

ولدنا العزيز

أنا اليوم في المنصورة وربما فارقتها إلى عين المنزلة من طريق النيل طلباً لراحة الفكر ، وهربا من جو البلدان في فساده . وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة لأهرب في عين شمس ، ولا أدري مايفعل الله بي من اليوم إلى الغد

أصبحت وقد عوقبت عقوبة من يكل أمره إلى غيره على ضعف ثقته بالناس كافة إلا من اختار لنفسه ، بحثت في محفظتي عن تتمة ماعندك من المقال المعروف وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها فلم أجدها ، ولا أرتاب في أن الكاتب الذي كان يحمل المحفظة أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود المحروقين . فكدرني ذلك غاية الكدر لأني لاأعلم من أي موضع يبتدىء ما كان فيها ، وأرجو أن لايكون الكاتب قد أضاعها ، أما نهايتها فاني أتذكرها ، ويمكنني أن أبتدىء مما بعدها ، ولكن كيف يملأ الفراغ بين ماسأكتب وبين ما عندك إن كانت الورقة قد ضاعت ؟

(ثم عهد إلي أن أذهب الى ديوان الاوقاف وأسأل عن ذلك الكاتب وأفتش الورق الذي معه وأرسل اليه الورقة إن وجدتها كما يعتقد . وفي هذا الكتاب مصداق لكلمة سعد باشا فيه فهو يتذكر ما انتهى اليه من الكتابة بعد أيام ، ويمكنه أن يصل به ما يكتبه بعد من الكلام)

(الكتاب الخامس منها في ٦ سبتمبر وهو مرجوع كتاب مني اليه)

ولدنا العزيز

وصل رقيمك ، كنت أحب أن يكون اللفظ «علماء أهل السنة» بدل علماء

المسلمين[١] لما تعلم من الفرق ورنة الاسم في آذان المخدوعين ، لم أبحث عن الورقة الضائعة ولا أظن أنها في المحفظة فان لم تكن عند أحد الكاتبين فقد نسيتها في البيت وعلى كل حال فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال ، نعوذ بالله من عطلة كالتي أنا فيها[٢] ولكن المدة قصيرة وأرى في الراحة شيئا من الفائدة ، ولا أراك تحتاج الى التتمة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل ، فان المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن (ثم تكلم عن عودته وتقدير مكثه وختم كتابه بقوله) أحب أن أعرف أثر المقال في أنفس من تعرف من المسيحيين او المسلمين والسلام عليكم

(الكتاب السادس منها في ١٦ سبتمبر)

وهو مرجوع كتاب مني اليه ذكرت له فيه ان أدباء المسيحيين معجبون بأدب المقال ونزاهته ، وإن كانوا يألمون من موضوعه ، وان المؤيد شرع في نشره نقلا عن المنار ولكنه لم يعزه اليه ، وكنت كلفت مسعود افندي وحافظ افندي عوض نشره من قبل فلم يفعلا ، وذكرت له بمناسبة ما ذكره من ترويج حافظ (بك) ابراهيم للمنار بطء الاشتراك فيه . فبين رأيه في كل ذلك وهذا نص كتابه :

ولدنا العزيز

وصلني رقيمك أمس في المنصورة وانا اليوم فيها وربما وصلت إلى مصر مساء يوم الاحد وأصبح في عين شمس إن شاء الله تعالى صباح يوم الاثنين . والذي كنت أحب ان أعرفه هو ما يجد المسيحيون في المقال من حسن التأدب ، وكنت أخاف ان يكون بدر مني ما يؤخذ عليّ فيه من هذه الناحية . أما تألمهم من الحق فذلك مما لا يصح ان أشك فيه ، لان الباطل اذا لم يألم من منظر الحق فمم يألم؟ (٣) وجدت بعض اللحن في المقالة وقد أصلحته في النسخة التي وردت إلي وأتذكر الآن اني وضعتها في الشنطة . ولو وجدت حيث انا صمغا او نشاء لبعثت بها

(١) يعنى الذين لقبوا أرسطو بالمعلم الاول ، وقد غلطت أنا في استبدال الثاني بالاول الذي كتبه هو (٢) يعنى عطلته من الاشتغال بالعلم والكتابة مع عمل البر والاحسان الذي سافر لاجله وهو مساعدة منكوبي الحريق (٣) هذه العبارة مما لم يكن يأذن في نشره عنه في حياته

اليك ، ولكن أحب ان تنتظر بالملزمة الثانية حتى احضر يوم الاثنين إن شاء الله تعالى . واتذكر الآن من الخطأ (وهبهم الله إياها) والصواب منحهم، لان وهب لم يرد في القرآن إلا متعديا باللام ولا أحب ان اخالفه ولو إلى صحيح .

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لايستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لايضعف الامل ، في نجاح العمل. والسلام محمد عبده

وفيه الحاشية الآتية

لاتعجب مما يصنع عمال المؤيد فالذي أظنه ولا اخاله إلا صحيحا هو انهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ علي ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود البوسطة من اوربا . ولا أستبعد ان يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقال بدون ذكر مغرسه الاول إرضاء لمحمد رشيد [1] وخوفا من احفاظه لو علم ان المؤيد ينقل عن المنار . وحجة الشيخ علي في ذلك ان عدوه المخنث واقف له بالمرصاد فاذا رأى كلمة طار بها إلى سيده واتخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ ، فان شئت عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضاً ، ونحن لانريد إلا النشر وليست نسبة المنشور مما يهم اغفاله ، فدعهم وما يعملون والسلام محمد

﴿ نشر المقالات وتأثيرها ورد الجامعة وردنا عليها ﴾

لما عاد الاستاذ من الاسكندرية اتفقنا على انه يحسن ان أنسخ المقال بخطي وأرسل ماأنسخه إلى فرح افندى وان ننشره معاً في شهر واحد ففعلت ، ولكن فرح افندى امتنع من نشر المقال في مجلته ، وكتب في غلاف الجزء الذي صدر بعد إرسالها اليه ما معناه على ما أذكر انها لما وصلت اليه وضع رأسه بين يديه ، وغرق في بحر من الافكار والتصورات ، وعزم على الرد على الاستاذ الامام ، والدخول معه في مناظرة تصور انه يطير بها صيته وصيت مجلته في الانام، فكتب

(١) يعني سمو الخديو

أولا مقالة رد بها رداً إجمالياً ختمه بالطعن على صاحب المنار ورميه بالجهل وعدم فهم هذه الموضوعات الكلامية والفلسفية التي فاق هو أهلها فيها بزعمه ووهمه

شرعت في نشر المقالات في المنار، فكان لها تأثير عظيم في هذه البلاد وفي سائر الامصار، وتناقلتها الجرائد العربية في الاقطار، وفي مقدمتها جريدة المؤيد بمصر. وممن التزم نقلها برمتها من أدباء النصارى الاحرار (نعوم افندى لبكي) صاحب جريدة المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو ـ البرازيل)

واما فرح افندى فانه بعد أن كتب مقالة الجامعة انقطع عن كل عمل سوى الرد فألف فيه كتابا مستقلا سماه (فلسفة ابن رشد) ولكن خاب ظنه فيما كان يرجو من الفوائد العظيمة وسعة انتشار مجلته في مصر وسائر العالم العربي، كما خاب ظن بشارة باشا تقلا صاحب الاهرام، في تصديه المدفاع عن هانوتو والرد على الاستاذ الامام، ولكن هذا لم يتورط في الخوض في عقائد الاسلام وفلسفتها مثله

ولما كان رده هذا مشتملا على الكلام في العقائد الاسلامية بالباطل شرعت في الرد عليه في باب الدفاع عن الاسلام من المنار، والظاهر أن هذا الرد قد حمل كثيراً من المسلمين المشتركين في مجلته على ردها اليه وهذا مالم أكن أقصده ولم يخطر لي ببال، ولكن بعض الناس لايزالون يقولون ويكتبون ان الجامعة قتيلة المنار، وإنما قتلها تعرضها لما لا يعنيها وما لاتفهمه من شؤون الاسلام، ولا يمكن أن تعيش صحيفة عربية في هذه البلاد إلا باقبال المسلمين عليها لأنهم السواد الأعظم وهو مع هذا لم ير لكتابه تأثيراً وعجز عن استمرار اصدار الجامعة لينتقم بها على حين كان يزعم ان اقبال الناس عليها قد تضاعف وانه انشأ لها مطبعة كبيرة وانه سيزيد مايطبعه من الالوف من نسخها ألفا أخرى ليفي بما يتجدد كل يوم من طلب الاشتراك فيها (وكان هذا في جزء دسمبر سنة ١٩٠٢) ولم تصدر بعده

الوقيعة بين الوالد وأبيه والمريد وأستاذه

لما شعر فرح افندي بجنايته على نفسه، ورأى عاقبة عمله، وخيبة أمله، أراد أن يستعيد احترام المسلمين لمجلته بمودة الامام، وينتقم لها من صاحب المنار، فكتب أولا كتابا خاصا إلى الاستاذ الامام ذكر فيه ميله إلى الجامعة ورضاه عنها

وان الشيخ رشيد رضا يحسده فيطعن له فيه ويبغضه اليه .. فلما قرأ هذا الكتاب سقط فرح افندي من عينه ، وزال كل ما كان له من القيمة في نفسه ، وعجب من البون الشاسع بيني وبينه ، أمدحه ويذمني ، وأوصي به ويصدعني ، ويرميني بضد ما أنا عليه بمحض سوء الظن ، وتصديق خواطر السوء ، وقد أعطاني الاستاذ ذلك الكتاب ، فخجلت من ظهور خطأ رأيي عنده وغروري بالرجل

(الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح)

ثم لما رأى الرجل أن كتابه المختوم لم يغن عنه شيئاً ارسل إلى الاستاذ الامام رسالة طويلة مطبوعة في ١٦ صفحة عنوانها (كتاب مفتوح من ادارة مجلة الجامعة إلى فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده في مصر القاهرة) افتتح هذا الكتاب بقوله للاستاذ « في شخصكم شخصان » وبينهما بان الاول هو القابض على سلطة الافتاء وهذا الشخص يحترمه - وان الثاني « كرجل من علماء الشرق كتب ردوداً طويلة على مجلة الجامعة » وانه يوجه هذا الكتاب إلى شخصه الثاني لا إلى الاول ، وملخص هذا انه يحترم منصبه الرسمي لا شخصه العلمي الممتاز . وقد علم القراء قيمة هذا المنصب عند الاستاذ الامام مما تقدم في عمله في الافتاء ، بل علم جماهير العارفين ان شخصه كان فوق منصبه ، وان شرف المنصب ولم يشرف به .

ثم ذكر ما كان من ميل الاستاذ إلى الجامعة وتنشيطه لها ، وما كتبه في مقدمة الرد من الثناء عليها ، الدال على انه لم يقصد بالرد عليها الغض من كرامتها . وقفى على ذلك بقوله :

« ولكن من سوء الحظ ان صاحب مجلة المنار الشيخ رشيد رضا الطرابلسي تابعكم ساءه ودادكم للجامعة فلم يدخر وسعاً في إلقاء الفتنة بينكم وبينها ، ولذلك كان يمهد لردودكم ويذيلها بأقوال وأكاذيب فيها عدوان على الجامعة واهانة لها ، لاسباب منها الحسد وضعف الاخلاق . فالجامعة لم تعبأ باهاناته وأكاذيبه وعدوانه لأنه أظهر انه من الذي يجب ان لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إلى كلامهم ، إلا متى وجب الالتفات إلى هذيان البله والحمقى والبلداء الذي لا يروي غليلهم إلا شتم الناس والتطاول عليهم » اه بحروفه

ثم ذكر انه قد شغل عن هذا الالتفات الذي لا يليق بادبه وحكمته إلى تأليف كتاب (ابن رشد وفلسفته) الضخم الذي بلغت صفحاته ٢٣٥ صفحة وذكر سبب تدخل الجامعة في هذه المواضيع وبالغ في دعوى إعجاب الناس بكتابه وفي احتقارهم اصاحب المنار، وما كتبه اليه بعض فضلاء المسلمين من الطعن في مجلة المنار وجنايتها على الاسلام والمسلمين بمتاجرتها بالدين، وبراءة عقلاء المسلمين منها، وكون صاحبها هو الذي انفرد وحده بالاستياء من هذا الكتاب !!! ثم قال :

[ولذلك ماكنا لنعبأ به ونكتب اليكم هذا الكتاب بشأنه لولا مايشيعه بلسانه وقلمه فانه يقول ان لكم يداً في الاقذار التي ملأ بها مجلته طعناً على الجامعة وشتما لمنشئها] وقال انه لا يصدق ذلك ولو رأى خط الاستاذ في تصحيح مسودانها لأنه أعطى قلبه للجامعة وصاحبها فلا يرجع فيه . بل قال انه ينحي كلام المنار بطرف نعله ، ثم قال (في ص٧) مانصه :

[وهنا نستأذنكم بابداء ملاحظة مختصة بهذا الموضوع ، فان تابعكم الشيخ رشيد الطرابلسي صاحب المنار لايجني بتهوره وحمقه على نفسه وعلى قومه فقط . بل هو يجني أيضاً على منصبكم السامي منصب الافتاء الكريم . فانه كل ما (كذا) نشر ذما وطعنا في أحد أكابر الناس الذين لاتعجبه آراؤهم وأعمالهم يقول لبعض اخصائه « إن الاستاذ المفتي راض عن هذا » أو « هو الذي أوحى إلي هذا الفكر » وهناك على ذلك أمثلة كثيرة نذكرها عسى ان يكون فيها فائدة وتنبيه لكم ولتابعكم فتدفعون هذا الضرر عنكم وعن عباد الله الذين نحن من جملتهم]

وأول ماذكره من هذه الامثلة ماتقدم لنا ذكره بالتفصيل في صفحة ٥٨٣ وهو مانشر في المنار في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي باشا ملك مصر الجديد ، من مقالة المنار ومقالة الاستاذ الامام نفسه ، وقفى على ذكرها بقوله [فبعد انتشار هاتين المقالتين صار تابعكم الشيخ رشيد رضا الطرابلسي يشير إلى بعض تلك الاخصاء ان تلك الآراء منكم ، فانتشر هذا الخبر وصار الناس يتساءلون : مابين الجناب الخديو وفضيلة المفتي لينشر المنار في محمد علي باشا مثل تلك المقالات ؟]

كتب فرح افندي أنطون هذا؛ لانه كان في معزل من معرفة ما كان يعرفه جميع خواص المصريين وكثير من عوامهم وجميع أرباب الصحف في هذا القطر من أمر الشقاق بين الخديو والمفتي. ثم ذكر ان المنار أنكر حضور الامراء المرقص الافرنجي تعريضاً بالخديو، وأنكر تصفيق الناس لسموه في حفلة افتتاح بعض المساجد وقال إن التصفيق في المساجد من أعمال الجاهلية، وأنكر على أمراء المسلمين وملوكهم عدم الحج، تعريضاً بالخديو! وفاته ما هو أعظم من ذلك وأصرح وأهم عند الخديو وهو ماتقدم ذكره في هذا التاريخ، ولو عرفه لكان غنيا عن افتراء الوشايات

ثم أذكر ان المنار يروم ان يحارب يلدز وعابدين معاً ويقول صاحبه لاي كان انه لا يعترف للسلطان بالخلافة، وقلما خلا عدد من أعداد مجلته من الطعن على رجال الدولة [وأخصهم سماحة ابي الهدى افندى] ويلصق بالمفتي تهمة مقاومة شيخ الازهر كما يعرض به بقوله في مجلته [هذا هو الاستاذ الامام ولا أستاذ امام بمصر غيره] وذكر انه يتهكم بشيخ الازهر بلسانه قال [ولكنه من حسن الحظ ليس له جرأة على أن يكتب بقلمه في مجلته كل ما يقوله بلسانه لان ذلك يقتضي قلباً غير القلب الذي بين جنبيه]!! ولو كان يقرأ كل ما كتب في المنار ومنه الانتقاد الصريح على شيخ الازهر لما كتب هذا ولما احتاج إلى التقول على صاحبه

ثم قال (في صفحة ١٠) بعد أن بين ضرر خطة المنار بالمفتي مانصه:

[ونحن لانجهل انكم تقولون مالي والمنار فانه لاعلاقة لي بصاحبه إلا كعلاقتي برجل يتردد على منزلي ويقف في بابي - فنجيب أننا نعلم ان لفضيلتكم علاقة بتابعكم المذكور من عدة وجوه] وفسر هذه الوجوه بالمساعدة المالية والادبية قال [حتى صار معروفا في مصر من دعاكم إلى مأدبة فقد دعا تابعكم]

ثم ذكر رد المنار على الجامعة وذكر انه نفعها من حيث أراد أن يضرها حتى انه لو علم بمقدار هذا النفع «يعض أنامله ندما» ومنه انه كثرت مجاملة كرام المصريين لها، وتدفق عليها سيل الدراهم والدنانير بكثرة طلب الاشتراك «مع الدفع مقدما عن سنة وعن سنتين» إلى آخر ماقاله وكان تأويله ان الجامعة ماتت ولم تصدر بعد ذلك، ووالله لم نكن نقصد إلى هذا ولا نفكر فيه

ثم ذكر عبارة أدل على عقله وأدبه من كل ماذكر إذ خاطب الاستاذ الامام بقوله في ص ١٤ بما نصه :

[ولما رأى تابعكم صاحب المنار ان حيلته لم تنطل على أحد من قرائه في دعواه على الجامعة عدل إلى قول آخر فصار يقول ان صاحب الجامعة ليس بغني ، ونعم أيها الرصيف الحسن الذوق العاطر الاخلاق ان صاحب الجامعة مثلك ليس بغني ، وإن كان ينفق في كل شهر على كل جزء من الجامعة أربعين جنيها أي مايكفي لنفقات مجلة المنار طول السنة ، ولكن سامحك الله لماذا لم تتقدم معرفتك به سبع أو ثماني سنوات(١) فانك لو فعلت ذلك لصادفته يومئذ في حالة ترضيك ، ولما كنت يا سليم الذوق تعيره يومئذ بعدم الغنى لان كثيرين مثلك كانوا يترددون إلى منزل أبيه كما تتردد النسور إلى محل الفرائس] ! !

وقفى على هذا بأنه مستعد لارسال أوراق مالية بألفي جنيه أو ثلاثة آلاف مما مات، لابيه إلى صاحب المنار ليحصلها «بسيف فضيلة المفتي» !!

وفي الخاتمة من ص ١٥ و ١٦ ! اقترح على الاستاذ ثلاثة اقتراحات (١) تحكيم رجلين فاضلين عادلين من رجال الازهر ليكونا حكما في هذه المسألة (٢) أن يكذب ما يشيعه صاحب المنار عنه من أن ماينشره عن الجامعة هو بايعاز منه (٣) أن يترك تابعه صاحب المنار التعرض للجامعة بعد الآن ، وأنذره بانه إذا لم يجبه إلى أحد هذه الاقتراحات [فالجامعة تتحقق عند ذلك صحة الاشاعة التي يشيعها تابعكم وحينئذ تضطر كلما صدر جزء من المنار وفيه تحكك بها أن ترفع اليكم كتابا مفتوحا كهذا الكتاب فتشكوه اليكم ، وتوقف جمهور العقلاء بالتفصيل على افترائه واعتدائه تحت حمايتكم ، وغني عن البيان أن هذه المسالة لاتقف يومئذ عند حدودها الحالية] يعني انها تكون خطرا على المفتي باظهاره للخديو ان المنار يكتب بايعازه !!!

وأرسل إلى الاستاذ مع هذا الكتاب المفتوح المطبوع كتابا خطياً ذكر فيه انه إذا لم يكف المنار عن الرد عليه فانه ينشر على الناس مائة الف نسخة من هذا الكتاب ولم يكتف فرح افندي بهذا بل توسط خليل باشا حمادة الشهير بأن يكلم

(١) انني كنت اعرفه في هذه المدة ومن قبلها كما تقدم في التمهيد لهذا البحث

الاستاذ الامام فيما جناه صاحب المنار على الجامعة بردوده عليها، وانه يعلم انه لا يستطيع أحد أن يسكته غيره، وانه يتمنى هو أن يحافظ بعد ذلك على مودة الاستاذ وعطفه. وقد حضر خليل باشا من الاسكندرية وتكلمنا في المسألة وأجمعنا نحن الثلاثة على أن من يكتب مثل هذا الكتاب ويفتري هذا الافتراء الجنوني البذيء لا يجوز أن يرد عليه، ولا أن يخاطب أو يذكر بلسان ولا قلم. وهكذا فعلنا

ولكن فرح افندي عاد يتوسل إلى الاستاذ الامام أن يعود إلى الصلة به ويعاتبه على احتقاره له فكتب اليه الاستاذ ما نصه وهو فصل الخطاب، الذي ليس بعده قول ولا كتاب

إلى صاحب الجامعة

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة، وانك تسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه بك غيرك. وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم. ولكن: اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا، فذلك اللهم أنفس ما تعطي، وأفضل ما تهب. والسلام م

اعتذار للقراء

انني لخصت هذه المسألة لان بعض الادباء لا يزالون يظنون انني كنت مسيئا لهذا الرجل كما سمعوا منه او عنه، ولانها من أشد ما ابتلي به الاستاذ الامام من إساءة من أحسن اليهم من الناس، وطاحت بثقته منهم كلهم إلا من اصطفى لنفسه كما تقدم آنفا في أحد كتبه إلي من هذا السياق، ولم يكن يجهل أحد يعرفنا أنني كنت أوثق هؤلاء المصطفين عنده، الا صاحب الجامعة الذي خسر بأوهامه العصبية وطاعة قلمه لها من صداقتنا له مالا عوض عنه. وخسر في اثرها مجلته، واضطر إلى كسب رزقه بالاشتغال بالروايات التمثيلية، ولو لم يكن فيما ذكرنا من الفائدة إلا نشر هذا الجواب الحكيم لكفى، وقد كان عاتبه بعض أصدقائه على ما كان من انخداعه بهذا الرجل وعلى الثناء عليه حتى في مقام الرد عليه قبل أن يظهر هذا منه - ومنهم صديقه الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان - فأجابه بقوله « لا خسارة في حسن الادب »

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه

﴿من طريق التاليف والتقريب بينه وبين أهل الكتاب، وهو خاتمة هذا المقصد﴾

تمهيد في ذكر شيء عن ميرزا باقر

لما كان المجددان الكبيران — حكيم الشرق والاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — في باريس يصدران جريدة العروة الوثقى أرسل اليهما بطاقة الاستئذان رجل اسمه ميرزا محمد باقر قال انه يعرف السيد معرفة شخصية ، قال السيد: أنا لا أعرف رجلا بهذا الاسم وأذن له، فدخل فاذا هو رجل قد عرفه في ثغر (بوشير) في الخليج الفارسي إذ جاءه السيد مع جماعة من الافغان في طريقهم الى الحجاز، وكان اسمه ميرزا يوحنا ، وهو ايراني تنصر وصار داعية للنصرانية هنالك مع جمعية المبشرين ، وقد دعا السيد ورفاقه إلى النصرانية فطفق السيد يجادله فبدرت منه كلمة طعن في النبي ﷺ فأمر السيد من معه من الافغانيين بضربه فضربوه حتى خرج يزحف على استه كما حدث السيد عنه مراراً، ثم عرفوا بيته فأرادوا إحراقه عليه فحيل بينهم وبين ذلك ثم سافروا

فلما دخل على السيد في باريس عرفه وبادر هو إلى ذكر ما كان من أمر تنصره ثم عودته إلى الاسلام ورجوعه إلى لقبه الاول (باقر) وكان يُعرف أيضاً باسم ابراهيم جان المعطر — وأخبر السيد بانه كفّر عن ذنبه الاول فصار داعية للاسلام ، وعرض عليه استعداده لخدمته في إدارة العروة الوثقى فكان يترجم لها ما يهمه من الجرائد الانكليزية . ولما ذهب الاستاذ الامام الى لوندرة للسعي لدى ساستها ومحادثتهم في مسألة مصر والسودان كان ميرزا باقر هو المترجم بينه وبين كبار رجال الانكليز الذين قابلهم وتكلم معهم ، وكان يفترص هذه الاحاديث لدعوتهم الى الاسلام فيقول له الاستاذ الامام دع هذا الآن إلى أن نفرغ مما نحن فيه

وقد مدح بعض كبراء الهند ملكة الانكليز بقصيدة بليغة باللغة الاوردية أو الفارسية فلما ترجمت لها معانيها أمرت بأن تترجم باللغة الانكليزية نظما فلم يوجد

في لندن من قدر على ذلك بلغة الشعر الانكليزي البليغة غير ميرزا باقر لانه كان متقنا للغتين كل الاتقان ، وقد امرت الملكة للمترجم بخمسمائة جنيه فردها وقال انه يطلب لها جائزة واحدة هي دخول الملكة في الاسلام !!

هكذا كان يدعو الى الاسلام ويلوح لي أن الاستاذ الامام أقنعه بان هذا الاسلوب في الدعوة منفر للانكليز ، وان الاسلوب الذي يرجى نجاحه هو ما ألفت له الجمعية التي هي موضوع كلامنا في خاتمة هذا المقصد

وأزيد القراء بيانا عن ميرزا باقر هذا فأقول انه كان آية من الآيات في الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الاستحضار والاستنباط – تلك المزايا التي قلما تجتمع لفرد من الافراد إلا في القرون كالسيد جمال الدين في المتاخرين وأشهر رجالها في التاريخ الاسلامي شيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية

كاد يكون حافظا لكتابي العهدين : العتيق والجديد ، فاذا تكلم في موضوع من أمور الديانة النصرانية أو اليهودية طفق يسرد الشواهد المتعددة من تلك الكتب بسرعة غريبة وان كانت كثيرة ويبين معانيها وما له من الاجتهاد والرأي فيها وترجيحه على غيره

وكان كذلك يستحضر آيات القرآن . وقد عني بجمعه على ترتيب النزول لا ليقرأ ويتعبد به بهذا الترتيب ، بل للاستعانة به على الفهم والاستنباط والعمل ، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الاسلام التي يدعو اليها ويعمل بها ، وكان له شذوذ في ذلك غريب أخبرني الاستاذ الشيخ توفيق الايوبي أنه حاجه في بيروت في تفنيد ما ارتآه من جواز غسل اليدين إلى الرسغين في الوضوء محتجا بان النبي ﷺ انما علم العرب غسل اليدين الى المرفقين لانهم كانوا يكشفون سواعدهم فتكون عرضة لاتساخها أو لوقوع الغبار عليها . قال له الايوبي تعال نتحاكم الى الشيخ محمد عبده ، قال رضيت فأتيا الشيخ فقال لميرزا باقر : ألست تلتزم الاحتجاج بعبارة القرآن وتعتمد في معناها على تفسير معاجم اللغة ؟ قال نعم ، قال فان القرآن جعل غاية غسل اليدين في الوضوء المرفقين فان أتيتنا بنص من كتب اللغة يطلق لفظ المرفق على الرسغ عذرناك وإلا وجب عليك التزام حد القرآن في غسل اليدين ، فاقتنع ورجع

ومن مزاياه أنه كان من أقدر العلماء على اقناع الملاحدة بالدين الاسلامي ، وكان ممن أرجعهم اليه بعد الارتياب فيه احمد مدحت افندي العالم الكاتب التركي الشهير صاحب مجلة (ترجمان حقيقت) وكان قد اشتهر بالالحاد ، حتى ان السلطان عبدالحميد قد استغرب رجوعه إلى الاسلام ، ذلك ان السلطان أمر بتأليف لجنة من كبار أهل الرأي ليستشيرهم في مسألة اعفاء السادة الاشراف من الخدمة العسكرية وكان من أعضائها احمد مدحت افندي هذا فلماجاء دوره في الكلام قال ان النبي ﷺ وأهل بيته كانوا يكونون في طلائع المجاهدين في سبيل الله ،وان وجود هذه الذرية المباركة في الجيش الاسلامي قدوة وبركة يرجى به النصر له ! فالتفت اليه السلطان قائلا :أنت إذاً مسلم يا احمد ؛ فخجل خجلا شديداً لانه لم يكن يعلم ان السلطان قد بلغه خبر إلحاده ، وهل كان يخفى على عبدالحميد حال رجل من أشهر الكتاب في عاصمته؟ وماذا يفعل إذاً جيوش جواسيسه؟

حدث احمد مدحت افندي أستاذنا الشيخ حسيننا الجسر بهذه الحكاية ، وقال له انني كنت قد ارتبت في ديني بشبهات كثيرة علمية وتاريخية ثم سافرت إلى بغداد فلقيت فيها علما إيرانياً اسمه ميرزا باقر وقع بيني وبينه مناظرات كثيرة في هذه المسائل وغيرها أزالت من نفسي كل ما كان علق بها من الشبهات والشكوك ، واطمأننت بحقية الاسلام كل الاطمئنان .

جمعية التأليف والتقريب

عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الانكليز المستقلي الفكر المحبين لحرية البحث في الدين . ولما وجد هو والاستاذ الامام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعا فيها بالاستاذ بيرزاده وعارف أبي تراب تابع السيد الافغاني وبجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت الشهير وكان شابا ذكيا مغرما بالامور العامة من سياسية ودينية واجتماعية وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الاديان السماوية الثلاثة وازالة الشقاق من بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف

الافرنج بحقيقة الاسلام وحقيته من أقرب الطرق ، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الآستانة وبعض الانكليز واليهود ، وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندره القس اسحق طيلر بل كان هو داعيتها هنالك ، ومن رجال الحكومة (جي دبليو لينتر) مفتش المدارس في الهند، وكان الاستاذ الامام صاحب الرأي الاول في موضوعها ونظامها ، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها، وانني ألخص هنا بعض ما نشر من آثارها

(شهادة المفتش الانكليزي المشار اليه آنفا لمسلمي الهند ومكاتبهم ومدارسهم)

(وسعيه لانصاف دولته لهم والعناية بدينهم)

نشرت جريدة الدالي تلغراف من جرائد لندن الشهيرة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ مقالة لهذا المفتش عنوانها (الاسلام والمدارس المحمدية) ذكر في أولها انه أتيح له تعلم العربية والقرآن في مكتب اسلامي بالاستانة قبل حرب القريم وانه فتش مئات من المدارس المحمدية في الهند ووصلت اليه ألوف من الاخبار عن مدارس أخرى - فهو بهذه المؤهلات يشهد بأن ما أشيع عن المكاتب الاسلامية انها «مغارات الاثم» بهتان لا يصح أبدا ، فان الاجتماعات المنزلية (العائلية) والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التي أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج للآداب حافظ لها

وذكر ان هنالك مكتباً يعلم فيه البنون والبنات التعليم الابتدائي لم يسمع انه وقع فيه أدنى حادثة تنافي الآداب . وان بعض الصبيان رموا مرة بعض أولاد النصارى بالحجارة فعاقب امام الجامع الجاني منهم فلم يعد أحد بعد ذلك الى مثل هذا التعدي. ومدح سلوك شبان الاشراف من المسلمين . والتعليم الديني في جميع مكاتبهم، وذم مكاتب الدولة (الانكليزية) بعدم تعليم الدين الاسلامي فيها وخطأها في ابطال المدارس الوطنية . ثم قال :

أما السؤال الاوسع عن الفرق بين المسيحية والاسلام وكونهما آلة لنشر

التمدن فسامحوني أن ألاحظ ان من لا يعرف اللسان العربي لا يقدر أن يبحث أو يرى ان تعلق اصول الدين الاسلامي أشد وأربط بقلوب المعتقدين به في معيشتهم اليومية مما هو للنصرانية لسوء حظها ، واذ كان الامر كذلك فلا حجة عندنا في معاشرتنا للمسلمين بأن نترك الكلمة السواء بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الامتين .

المسلمون يعتقدون ان اليهود والنصارى هم أهل الكتاب أي عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه معاهداً إياه انه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والصلوات والبيع التي يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن ، ويسمي عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة ، مقبولتان عند المسلمين ، بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند الاحزاب العيسوية .

ثم قال : القواعد الاسلامية المتعلقة بالزواج تهيىء للنساء وتهب لهن حقوقا شرعية أفضل مما ورثته نساء الانكليز حتى منذ اجراء قانون أموال المتزوجات في سنة ١٨٨٢

« الجنس اللطيف ليس موضوع الكلام بين المحمديين كما هو بين شبان النصارى ، والحجاب صيانة أعطيت لما هو ثمين وضعيف . الارملة المسلمة العفيفة مشهورة انها حامية التربية ، واحسان المسلمين لمواليهم واشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضاً الى الرب ، وانفاقهم في سبل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا اليهم من أن نصيح على « النبي الكاذب » وما أحسن عمل مبشرينا لو جاهدوا في التوفيق بين الاسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة »

ثم قال « الحرية الدينية ينبغي أن يكون معناها عدم العصبية في الدين الذي تجعل الشرقيين أن يعطوا حصة من خراج أرضهم لافضل المصالح عندهم ، وهو الدين ، وان كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الانكليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا ، ونؤمن كما آمن أكبر شاه الهندي ان الملك والدين توأمان ، فكما ان كل دولة تخمد الافكار الدينية بين رعاياها لا يمكن لها أن تدوم ، هكذا كل دولة

لاتعامل عقائد رعاياها بالعدل والكرم السواء لا تقدر على النجاح

«اما الذي أنا مصر على توكيده فهو الاتحاد بين الاسلام والمسيحية ليس من جهة الدين فقط بل من جهة السياسة أيضاً

« مرزمان كان المسلم ينظر إلى الانكليزي كأنه الناصر الطبيعي للعالم الاسلامي من أجل موادته القديمة للعثمانيين ، الذين يعد سلطانهم خليفة المحمديين السنيين ، وأكثر أبناء وطننا من جنسهم . هذه الموادة يجب توطيدها . ومن جملة المساعي التي أؤكد الشروع فيها ادخال الشبان المسلمين (وكذا أولاد الرجوات الراجبوطية النبيلة) في مدارسنا الحربية على قصد استخدامهم مع تسوية الرتب والارتقاء بالمأمورين الاوروباويين في عساكر الهند المستقبلة التي يجب اكثارها جداً . الخ

خطب اسحاق طيلر ومقالاته في الاسلام والنصرانية

وأما القسيس الكبير اسحاق طيلر فقد كان يلقي خطبا في لندن ويكتب مقالات في جرائدها بهذا الموضوع ، وكانت الجمعية في بيروت تترجم ماينشر منها بالعربية بقلم ميرزا باقر ويصحح ترجمتها الاستاذ الامام ، وتنشر في جريدة ثمرات الفنون الاسلامية في سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٨ م وبلغني أن جريدة المؤيد كانت تنقلها عنها . وقد نشرت واحدة منها في المجلد الرابع من المنار بعنوان (المسلمون في افريقية) منقولة عن جريدة (البال مال غازيت) الانكليزية أخص بعضها هنا وهو :

خطبة للقس اسحاق طيلر

قرأ القس اسحاق طيلر في خطبة له صحيفة بدأها بقوله : ان الاسلام من حيث هو دين دعوة وتبليغ قد نجح في قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح الديانة المسيحية (تحير من السامعين) وان المسيحية تخنس بالفعل بين يدي الاسلام، والمساعي المبذولة لتنصير الامم المسلمة ترجع إلى الخيبة رجوعا ظاهراً ،

ثم ذكر مساحة الاقطار والامم التي انتشر فيها الاسلام من افريقية وآسية وثباته فيها وكون الوثنيين الذين يدخلون فيه لايرجعون عنه ولا يقبلون النصرانية لانه معقول عندهم دون المسيحية التي لايعقلونها « لما نعلم من دقتها » — وذكر

كيف يهذبهم الاسلام بلبس الثياب والنظافة ، ويمنعهم من السكر والقمار والمراقص المخزية ، واختلاط النساء بالرجال ، والقتل والزنا ، وسائر المفاسد التي تنشرها التجارة الاوربية، ويحملهم على الحضارة الصحيحة

ثم قال « تلك أحوال يسوءنا مرآها وجهلها حماقة ، فيجب علينا أن نعلم أن الدين الاسلامي لايناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها، فانه صدى إيمان ابراهيم. والمسلمون يؤمنون بان أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول (ص) واسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة »

ثم ذكر ان بعض رؤساء الكنيسة ابتدعوا في المسيحية موضوعات خيالية شركية كعبادة القديسين والملائكة والشهداء حتى جعلوا الوساخة من صفات القديسين، فجاء الاسلام فلسح هذه الاباطيل وأظهر الاحكام الاساسية للدين وهي توحيد الله وتعظيمه ، وبدل الانسانية بالرهبانية، وأرشد الناس إلى الاخوة الصحيحة، والحقائق الاساسية للطبيعة الانسانية ، وانه لا يحمل الانسان على التجرد من الروحانية المحضة ، كالتعاليم المسيحية ، وأطرى الاخوة الاسلامية وقوة رابطتها

وتكلم في تعدد الزوجات التي كانت فاشية في جميع الامم والملل بغير حد وتخفيف الاسلام لشرها وإقامته لكل امرأة قيما شرعياً فأنقذ البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية وهي أعظم شناعة من تعدد الزوجات في الاسلامية

(قال) « تعدد الزوجات على قواعده المنتظمة عند المسلمين أنجح تأثيراً في صيانة النساء عن الرذائل، وأخف ضرراً على الرجال من مخالطة امرأة واحدة لرجال كثيرين ، تلك لعنة البلاد المسيحية ولا وجود لها في بلاد الاسلام (أنظر وتأمل) الانكليز الذين يجوزون اختلاف رجال كثيرين إلى امرأة واحدة في المواخير (أي بيوت الفحش) لايليق بهم أن ينكروا على المسلمين الناكحين مثنى وثلاث ورباع ، فلنخرج الجذع الكبير من أعيننا قبل أن نهتم باخراج القذي من عيون اخواننا»

وختم كلامه بقوله « إن الاسلام قد نسخ السكر والقمار والبغاء ثلاث لعنات أهلكن البلاد المسيحية»

« الاسلام قريب جداً من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ،فتعالوا

بنا نساعدهم على الكمال في دينهم ، لا نسعى عبثاً لابطاله ، لعلنا نجد في الاسلام مسيحية ونجد محمداً ﷺ آخذاً بعضد المسيح في دينه (بشاشة من الحاضرين)»

***

أخبرني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ان اسحاق طيلر هذا لما أكثر في خطبه ومقالاته من مدح الاسلام والمسلمين لم يجد المبشرون وسيلة لاسكاته الا الاحتيال عليه لزيارة مصر فزارها فصاروا يطوفون به على الحانات والمواخير ويرونه حال المسلمين فيها حتى كف عن هذا الاطراء في المدح. ولكنه ظل يدافع عن الاسلام ويدعو الى التقريب والتأليف بين الديانتين وأهلهما بما هو دعوة الى الاسلام نفسه على طريقة الجمعية التي كانت تمده بالمعلومات

(المقالة الأولى للقس اسحق طيلر بعد زيارته لمصر)

نشرها في جريدة (سانت جيمس) من جرائد لندن في ١٨ ابريل سنة ١٨٨٨ بعنوان (الاسلام والمسلمون) وقد اقتصر فيها على أصل الموضوع وهو مدح الاسلام والرد على المطاعن التي يوردونها عليه والتقريب بينه وبين المسيحية والدفاع عن المسلمين أيضاً دون تصويرهم ممثلين للاسلام نفسه كما كان يقول من قبل

قال في أولها « اني ذهبت الى مصر أحد اقطار الاسلام ومقصدي الوحيد أن أطلع في ذلك المكان على الاحوال المجموعة في القرآن من الآداب والاخلاق والتقوى والمعرفة . وأعلم على قدر الامكان ماهي العقائد الحقيقية المتعلقة بالمسلمين ذوي التربية »

ثم ذكر أنه وجد المسلمين يتألمون مما يتهمهم به النصارى ويكفرونهم به مع تصريحهم لهم بايمانهم بالله وبما أنزل على جميع النبيين ، وانه تعجب لما رآهم راضين بالبحث في عقائدهم والاعتراف بذنوبهم ، وأن احد علمائهم قال له تعالوا نبحث معكم عما نوافقكم وما نخالفكم فيه عسى أن لا يكون اصلاح البين أمراً صعباً . واعترف له بأن المسلمين ابتدعوا في دينهم ما ليس في كتاب الله كما فعل النصارى . (وقال) فاذا نحن رجعنا إلى خالص تعليم نبينا ﷺ كما في كتاب الله ورجعتم إلى خالص

تعليم عيسى عليه السلام وحواريه فلا نجد مايفرق بيننا . ولكننا نعتقد أن تعاليم عيسى قد غشيتها الاباطيل منذ أيام قسطنطين الاول « وسيأتي زمان تترك فيه هذه البدع الفاسدة كلها ويبقى على الارض دين واحد يقدر كل انسان على قبوله »

ثم ذكر عبادة القبط في مصر لمريم وعكوفهم على التماثيل ورؤية المسلمين لذلك واستحالة تركهم لعقائدهم وعباداتهم لايثار هذه العبادة عليها أو قبول ما يدعوهم إليه المبشرون من العقائد المتناقضة وإن لهم الحق أن يأوّلوا كتب النصارى كما يشاءون، وأن يرفضوا العقائد النصرانية المخترعة كالاصول التسعة والثلاثين للكنيسة الانكليزية، واعتراف الكنيسة الوستمنسترية المثلثة الاسنان الخ

ثم ذكر خلاصة العقيدة والعبادة الاسلامية ومنها الفاتحة في الصلاة ودعاء القنوت وأدعية أخرى وقال انه يمكن أن يؤخذ كتاب صلاة من أدعية المسلمين يكون مقبولا في كل البلاد المسيحية . وقفى على ذلك ببيان أن كل عقيدة اسلامية قد وجد من الفرق المسيحية من أخذ بها ثم قال « ولا يمكن أن نرى أحداً من المسلمين قد تمسك بمفتريات وأباطيل كثيفة كالموجودة بين فلاحي جنوب ايطالية »

ثم تكلم في المقارنة بين الاسلام وفرق أهل الكتاب في النساء وفي الحروب المقدسة وفضل الاسلام فيها على ما قبله واستطرد إلى المقارنة بين المسلمين والقبط في مصر وقال ان تقدم القبط أقل . وان المسلمين يعترفون بانهم كسائر الشرقيين مقصرون في اكتساب العلوم الجديدة على كونهم يفتخرون بالنهضة العلمية المضيئة التي كانت للعرب في دولهم . ثم ختم مقاله بقوله :

«ان شيخ مدرسة الازهر الذي مقامه كمقام الويس شنسلر في مدارسنا الكلية سأل وزير المعارف في مصر حديثا أن يهيء وسيلة لتربية الف ومائتين من تلامذة العلوم الالهية في الفنون الدنيوية . وسمعت من محمدي عالم كان مدرسا في إحدى مدارس الحكومة أنه ذات يوم أعلن في بعض الجرائد الوطنية ان له النية أن يعطي درسا لبعض تلامذة مدرسة الازهر وفي أسبوع واحد وصله أكثر من ستمائة طلب يستأذنونه مرسلوها بالدخول في الصف

قال « التعليم الانفع لهؤلاء التلامذه لعله معرفة التواريخ لـكن الصعوبة في هذه هي عدم وجود كتب متينة صالحة تحكي عن الدينين بروح الانصاف والمحبة .سألت يوما تلميذاً من تلامذة الازهر هل قرأت كتب التواريخ ؟ قال نعم عندي كتاب لـكني لا أحبه ، قلت له لماذا؟ أجاب لانه يتهضم نبينا محمداً ﷺ بقوله الباطل انه كان مفتريا . ظهر أن الـكتاب كان عمل بطرس بارلي وهب له من أحد المرسلين الامركانيين ، فلا عجب أنه لم يحبه . هل نحن نحب أن يهب المرسلون الاسلاميون كتباً لتلامذة مدارسنا الالهية مكتوب فيها أن مؤسس بنيان المسيحية كان مفتريا ؟

ثم قال « إني أترك لمقالتي الآتية بيان المذاكرة في موضوع دين المسيح وذكر رغبة كثير من المسلمين في إصلاح الحال حتى قال لي أحدهم لا يبعد أن يحصل بين المسيحيين والمسلمين مودة تامة وتماس بيدي الصداقة والاخوة وزوال أسباب الحرب إن شاء الله » (اسحاق طيلر)

﴿ المقالة التالية لها وموضوعها : القرآن والـكتب المنزلة ﴾

نشرت في جريدة (سنت جمس) أيضاً في ١٣ مايو سنة ١٨٨٨

افتتحها بقوله « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام وصدقوا ببعثته، وهو عندهم معدود في أولي العزم من رسل الله الى خلقه ، فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ، ونسأل الله يهديهم وايانا الى الحق والى طريق مستقيم»

ثم ذكر إيمانهم بالـكتب السماوية كلها بشهادة القرآن لها وبان القرآن خاتمها ومهيمن عليها - وانهم يستدلون على صحة دينهم بحجج القرآن وتعاليمه الصالحة المصلحة للبشر وتأثيرها وسرعة انتشارها بين أرباب الاديان كلها، وبكون من جاءبها أميا يستحيل أن يأتي بمثله بهذه الحقائق بدون وحي من الله - وان عدم احتجاج القرآن بغيره على نبوة محمد ﷺ هو أوضح الادلة على صحة نبوته ، على أن في كتب الحديث كثيراً من المعجزات المشابهة لمعجزات الاناجيل ، على أن هذه الاعاجيب التي رويت عن المسيح عليه السلام « مما يعد عقبة في طريق الاعتقاد بدينه . .

ثم ذكر استدلال المسلمين على نبوته صلى الله عليه وسلم ببشارات الكتب السابقة به كما يستدل النصارى على المسيح ببشارات كتب العهد العتيق . وفصل ذلك تفصيلا بالشواهد . وذكر في تفصيله ماينكره النصارى عليهم من الجنة الجسمانية وما يستدلون به عليه من كتب الانبياء وكذا تأويله مع اثباتهم للنعيم الروحاني وعدهم اياه أعظم من كل نعيم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن بعض علماء المسلمين ، وهي مقالة مهمة ينبغي للمسلمين الاطلاع عليها كالتي قبلها أو أكثر

(خريستفورس جباره) على ذكر هذه الجمعية التي انحلت بتفرق مؤسسيها أذكر انني رأيت بعد هجرتي إلى مصر هذا الرجل فعلمت منه أنه قام في نفسه منذ سنين أن سعادة العالم الانساني لا تتم الا باتفاق أهل الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام . ثم صار هذا الخاطر وجدانا ملك عليه أمره وحمله على الدعوة اليه بالقول وبالكتابة . أنشأ أولا نشرة سماها شهادة الحق . وبث دعوته في أميركا في معرض شيكاغو وغيره ، وكان يكتب الرسائل الطويلة فيه إلى علماء الدين المشهورين في بلاد الشرق وهو في أميركا أقصى الغرب . ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتبا ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والانجيل والقرآن ، فحرمته الكنيسة الارثوذكسية وكان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة الارشمندريت وكذلك قابله المسلمون بالهزء والسخرية إلا الاستاذ الامام وصاحب المنار ، فاحتمل من الايذاء ماهو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ماهم عليه

كان الفقيد موحداً يقيم الحجة على أنه ليس في الانجيل ولا في رسائل الرسل مايدل على التثليث ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقرآن وبرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ومما كان يخالف فيه المسلمين مسئلة صلب المسيح وكان يؤول قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وكان استفتى مفتي الديار المصرية عن عقيدته بكلام مجمل يصرح بالايمان بنبوة سيدنا محمد وصدقه في كل ماجاء به ، فأجابه المفتي جوابا قيد فيه اعتبار إسلامه بعدم إنكار شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، فجاءني وقال لي إنني لم أفهم معنى هذه الكلمة فبينت له معناها

أصاب الفقيد مرض ونقه منه ثم انتكس وعند إحساسه بشدة وطأة المرض جاءني وقال لي إنني منذ سكنت مصر لم أعرف فيها رجلا رحيما يفعل الخير لغير علة إلا فضيلة المفتي وقد اشتدت حاجتي إلى مبلغ كذا لاجل دخول المستشفى أو السفر ونفسي علي عزيزة فأرجو أن تأخذ لي من فضيلة الاستاذ المبلغ المذكور فأجبته سمعاً وطاعة ، ثم واساه الاستاذ الامام بضعف ماطلب . ودخل أولا مستشفى القصر العيني بمساعدة أحد الوجهاء ثم المستشفى النمساوي بمساعدة وجيه آخر وتوفي فيه بمرض القلب. وكان أمر دفنه مشكلا لحل هذا الاشكال بعض أذكياء النصارى فشهد عند غبطة البطريق أنه اعترف قبل موته بالكنيسة الارثوذكسية ورجع اليها فدفن دفنا أرثوذكسيا وأخذوا كتبه وفيها رد عليهم متين. وقد كتبت ملخص ماتقدم في ترجمته من المجلد الرابع، وختمتها بقولي : و أما حقيقة امره وما يصير اليه في الآخرة فذلك مفوض إلى العليم الرحيم اهوأنا أعتقد انه مؤمن ناج عند الله إذا كان قد مات على ماعرفته منه وهو في مسألة الصلب متأول معذور

حظ اليهود من هذه الجمعية

لا أذكر أنني سمعت من الاستاذ الامام شيئاً من اشتراك اليهود في هذه الجمعية ولكنني لما نشرت في المنار مقالات (المسألة الشرقية) بمناسبة عدوان إيطالية على طرابلس الغرب وبرقة وما لليهود العثمانيين من عمل في ذلك أرسل إلي الدكتور شمعون مويال رسالة من يافا ذكر فيها عن هذه الجمعية وتأليفها وغرضها وكونه من أعضائها ماينبيء عن معرفة صحيحة لم يعرفها أصدقاء الاستاذ الامام في بيروت نفسها ، قال فيها بعد تحيته مانصه :

« أما بعد فان مابيني وبين السيد من صلة الادب والتفكير والخدمة العمومية والانتماء إلى الامام الاعظم أستاذنا الكبير (رض) يفسح لي مجال الطمع بجعل علائقنا الروحية علائق مراسلة وتبادل أفكار وآراء عسانا نصل معاً إلى الضالة التي ينشدها كل مؤمن »

ثم ذكر مسألة تأسيس الجمعية وانتظامه في عضويتها متوقعا أن يكون شيخنا

رحمه الله تعالى أخبرني خبره ، وقال ان كونه عضواً في هذه الجمعية يغنيه عن تصريحه لي بعقيدته الدينية . ولكنه بين عقيدته السياسية باجمال يتلوه تفصيل

قال « أما عقيدتي السياسية فهي ان الاسلامية رابطة سياسية كبيرة مبنية على جامعة إيمان ، وجامعة فلسفة ، وجامعة تاريخ ، وان اليهودية كذلك ..وان للعنصر العربي الاسلامي جامعة عنصرية كالجامعة العنصرية اليهودية »

ثم فصل ذلك بالشواهد من العهد العتيق ومن التاريخ ، واستنتج من ذلك ان بين العنصرين فوق قرابة النسب والرحم ، ووحدة أصول اللغتين واشتقاقها ، جامعات الاخلاق والعادات والتقاليد التاريخية والشعر والاغاني ، والتنبيه لحقيقة قال انها راهنة وهي ان اليهود الذين تفرقوا في أنحاء الارض وانتصار رومية بعد ثوراتهم المتتابعة عليها قد كادوا ينقرضون من العالم ، وان أغلب اليهود الباقين هم من سلالة الذين خرجوا من جزيرة العرب

ثم عقد فصلا عنوانه (العثمانية واليهودية) بين فيه فضل الدولة العثمانية على اليهود واخلاصهم لها ، تلاه فصل آخر في رأي اليهود وخطتهم في مسألة عدوان إيطالية على طرابلس وبرقة وهو انهم استاؤا وأبدوا استياءهم بالقول والعمل ، وذكر مايدل على ذلك — وكانت النتيجة لما تقدم كله الانتقاد على المنار فيما ذكره في مقالة المسألة الشرقية من اتهام اليهود « بارشاد صهيونيهم الالمان » حكومة « اغيلمة غلطه وسلانيك » بالتمهيد للطليان في فعلتهم . وانه لايعقل ، وان ما نشر في الجرائد برهان على « ان الاثنى عشر مليونا من بني اسرائيل المنتشرين في كافة أنحاء المعمور هم ١٢ مليون صديق حميم بل أخ صادق الاخاء للدولة الاسلامية المتمدنة القوية التي بقيت للعناصر الشرقية ملجأ وملاذاً وعزاً وفخرا »

ثم ختم مقاله الطويل بذكر ظلم أوربة للجميع وأن مستقبل اليهود مرتبط بمستقبل الاسلام . ولم أنشر له هذا المقال في المنار ولا أجبته عنه لعدم امكان مناظرته كتابة فيما أخالفه فيه من أمر الصهيونيين الذين اجتهدت في السعي لتحويلهم عن الاتحاديين إلى العرب قبل الحرب فلم أفلح ، ثم جددت السعي بعد الحرب فلم أنجح .

المقصد الرابع

(من الفصل السابع)

اغاثة للمنكوبين في احداث الزمان

كانت هذه الاغاثة نوعين: خفية وجلية، أما الخفية فقد اشتهر بها في حياته ونوهت بها الجرائد والمؤبنون والراثون له بعد وفاته، على ما كان من شدة كتمانه لها، فقد كان هو يتصدق بكل مايتيسر له التصدق من ماله على قلته وكثرة نفقاته، وكان يجمع المال من أصدقائه الاغنياء للمنكوبين لمن رمتهم أحداث الزمان، أو السفه والاسراف في المال، بالعسر بعد اليسر، والفقر بعد الغنى

وأما الجلية فهي التي كان يقوم بها بالتعاون مع اللجان المنظمة تحت رياسته وأشهرها في عهد وجودي بمصر لجنة الاعانة لجرحى الجيش المصري في حرب السودان وأرامل موتاهم وأيتامهم، ولجنة الاعانة لمنكوبي الحريق في (ميت غمر)

والعبرة في هذا العمل الشريف الذي يذكر في هذا التاريخ أمران (أحدهما) ان وجهاء الامة الذين يعنون بعمل الخير كانوا كلما احتاجوا إلى تأليف لجنة لجمع المال لاعانة المنكوبين يختارونه لرياستها (وثانيهما) انه كان في عمله هذا يقصد منه أمراً غيره هو أعلى منه وهو تربية الامة على التعاون والاهتمام بالشؤون العامة والبذل في هذه السبيل سبيل الله تعالى

﴿ لجنة الاعانة لجرحى وأرامل وأيتام الجيش المصري ﴾

أرسلت اللجنة إلى جميع الجرائد خطابا في بيان تأليفها والمنشور الذي كتبه رئيسها في الدعوة إلى الاعانة هذا نصهما :

في يوم الثلاثاء ٢٦ ابريل سنة ١٨٩٨ اجتمع بمنزل صاحب السعادة احمد سيوفي باشا بالعباسية حضرات أمين فكري باشا ناظر الدائرة السنية ومحمد

ماهر باشا محافظ مصر والاستاذ الشيخ محمد عبده القاضي بمحكمة الاستئناف ويوسف سليمان بك رئيس نيابة مصر ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش وسيدي الحاج محمد الحلو وكيل دولة المغرب الاقصى ، وأحمد بك ارناؤد ، وعبد الرحيم بك من أعيان العاصمة ، والخواجه شمعون آربيب واحمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر ، وشكلوا منهم لجنة للقيام بفتح اكتتاب عام لمساعدة جرحى الجيش وعائلات قتلاه وأيتامهم في الوقائع الاخيرة تحت رعاية الجناب العالي الخديوى وانتخبوا حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رئيساً وسعادة أحمد سيوفي باشا أميناً للصندوق وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة وقررت ارسال منشور لاهل الخير وأولي البر والاحسان

وفي يوم الخميس تشرف وفد من اللجنة بمقابلة سمو الامير المعظم وعرضوا ماقرروه على مسامعه الشريفة فلقوا من جنابه العالي كل رعاية وتلطف ، فكان أول المكتتبين ، وجرى على ذلك أيضاً صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا رئيس مجلس النظار وحضرات النظار ، واجتمعت اللجنة بعد ذلك بمنزل سعادة أمين الصندوق بالنمورية ، وبعد تحرير المنشور والاقرار عليه كلف كاتب السر بارساله إلى الجرائد

فقياما بما تقرر أبعث لحضرتكم بصورة المنشور راجياً نشره في جريدتكم لتعميم العلم به واقبلوا مزيد تحيتي

كاتب سر اللجنة
احمد فتحي زغلول

١٦ الحجة سنة ١٣١٥

المنشور

قد عرف الكافة ماجاء به الجند المصرى الذى سيق على البلاد السودانية مما يخلد له ولبلاده المجد والفخار ، ولم يخف على أحد ماأصاب تلك الجنود في الايام الاخيرة من قتل بعض ضباطهم وأفراد عساكرهم ، وجرح عدد كبير منهم ، وإن كان ماأصابهم قليلا في جانب الظفر الذى نالوه بمعونة الله وثباتهم وشجاعتهم ومن المعلوم ان من قتل منهم ترك أيتاما وأهلا فيهم الضعفاء وذوو البأساء ،

ومن جرح قد يعجز عن الكسب ولو شفي ويحتاج إلى مايقيم أوده ولو الى أجل، ومكان هؤلاء الشجعان من أهالي البلاد هو مكان الاخ الكريم من أخيه ، أو العضو الشريف من البدن السليم ، ولا يسمح ذو مروءة أن يدع أخاه في مثل هذا المصاب يذهب فريسة الحاجة ، والبدن السليم لابد أن يألم لما يصيب اعضاءه، ولهذا كان لأنباء ذلك المصاب هزة في قلوب الكثيرين من اهل الاحساس الطاهر في جميع الطبقات، وأفاض كثير من الجرائد في استنهاض الهمم لمساعدة أولئك الرجال أو أهليهم ، وكان لكل واحد من سكان القطر المصري أن يبتدىء بدعوة باقيهم الى هذا العمل المجيد ، والبادىء في الخير الداعي اليه هو في الحقيقة خادم لمن يستنهضه ، فانه انما يفتح سبيلا لظهور كرم السجية، وسطوع ضوء الحمية .

وقد قام بعض الاعيان من اهل العاصمة بتأليف لجنة للسعي في جمع إعانة لمساعدة أولئك الجرحى وأهالي القتلى وعرضوا ماأرادوا الشروع فيه على الجناب الخديو الفخيم ليكون العمل تحت رعايته ، فتفضل جنابه السامي بقبول ذلك على جارى سنته الشريفة في تقدير الاعمال الخيرية ، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ٥ ذى الحجة سنة ١٣١٥ الموافق ١٦ ابريل سنة ١٨٩٨ بمنزل صاحب السعادة أحمد سيوفي باشا وانتخبوا الداعي رئيساً ، وسعادة أحمد سيوفي باشا أمين صندوق للاعانة ، وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة ، ثم عرض الامر على الجناب السامي فسر به ، وكان أول من شرف العمل بالاكتتاب وتفضل به ، وكذلك اكتتب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار وبقية حضرات النظار، ثم أخذت اللجنة تتابع عملها في دعوة أهل الخير للاشتراك في مساعدة اخوانهم

وحيث ان ... تكم من أهل الفضل وذوى الهمة والمروءة رأيت أن أبعث اليكم بهذا رجاء أن يرى لهمتكم الاثر الجليل، في هذا العمل الجميل ، مع العلم بان من يتفضل بدفع شيء من المعونة لاخوانه المصابين فانما يفعل ذلك لمحض الشفقة والرحمة ، وصدوراً عن الهمة والمروءة ، ومن المعلوم أنه لاينقص مال من صدقة، ولن تخذل أمة كان التعاون من سجاياها ، فارجو أن تساعدوا بما استطعتم ،

وأن تقبلوا المساعدة ممن يليكم ويقرب منكم ، وما يجتمع لديكم تتفضلون بارساله إلى سعادة أمين الصندوق أحمد سيوفي باشا بمصر ويرسل الى ... تكم الايصال حسب العادة ، والله لايضيع أجر المحسنين رئيس اللجنة

تحريراً في ١٦ الحجة سنة ١٣١٥ محمد عبده

نشرت جميع الجرائد هذا المنشور وحبذت المشروع ورغبت الناس في هذه الاعانة بما لاشائبة فيه الا جريدة المؤيد فانها شابت الترغيب بشيء من أكدار السياسة قالت مانصه:

تعليق المؤيد

نكرر حض القراء الكرام على الاكتتاب في مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان لان أكثر مايجمع منها سيخصص لارامل وأيتام قتلى الحرب وهو من خير أعمال البر والاحسان ، والباقي يعطى إعانة للجرحى من الجيش الذي حارب في السودان وانتصر على قوم كانوا بالامس خارجين على سلطة الحكومة الخديوية كما هو معلوم

وقد علمنا أن اللجنة القائمة بجمع الاموال لهذه الاعانة أرسلت منشورات شتى لاعيان الاقاليم ولحكام المديريات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين على الاعانة ، وإن كانت الاعانة اختيارية على كل حال

وهنا يخطر على بالنا أن نسأل صاحب العطوفة ناظر الداخلية لماذا لم يصدر منشوراً كما فعل عند تشكيل لجنة الاعانة العسكرية الشاهانية يبين فيه للحكام والعامة أن الاعانة اختيارية محضة ، لكل انسان حرية الاشتراك فيها وعدمه ، إذ الاكتتاب اختياري ولا شك في الامرين ، ففي الاعانة الاولى بعث عطوفة ناظر الداخلية ثلاثة منشورات للاقاليم ، الاول يقول فيه: ان الاكتتاب حر لمن شاء، والثاني يقول فيه : قد بلغنا أن بعض العمد يتداخل في جمع الاعانة من الاهالي ويجبرهم على الدفع فنبهوا عليهم بعدم التداخل وأفهموهم أن التبرع حر لا إجبار فيه ولا إكراه ، والثالث قال فيه « اطلعنا في بعض الجرائد على أن بعض العمد يترأسون لجان الاعانة ، ويتجولون من بلد لبلد لجمع المال ، وهذا تداخل منهي

عنه ، فأحضروهم وخذوا عليهم التعهد اللازم بعدم التداخل مطلقاً في جمع الاعانة لأنهم موظفون ، وكل من يخالف هذا يحال على لجنة التأديب للمحاكمة..اهـ»

فهل للحكومة مكيالان في مشروعات الاكتتاب الاختياري ؟! أو ذاك مشروع مبغض عند الانكليز وهذا زلفى اليهم ؟؟

أما نحن فقد حثثنا الاهالي على مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية، ونحثهم الآن على مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان ، لاعتقادنا أن ذلك مشروع ملي كان واجباً في وقته ، والملة عندنا أغلى وأعز الاوطان، ولاعتقادنا أن المشروع الحالي مكرمة وطنية وحب الاوطان من الايمان ، ولكن سؤالنا لمطوفة الوزير حق لايختلف فيه اثنان اهـ تعليق المؤيد

إنكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد

غضب الاستاذ رئيس اللجنة من تعليق المؤيد فكتب الانتقاد أو الانكار الآتي وأرسله اليه في صباح اليوم التالي طالبا منه نشره فى يومه فنشره ورد عليه ، وهذا نص الانتقاد و يتلوه الرد كما نشر في المؤيد

(لجنة مصابي الجيش بالسودان)

ورد الينا صباح اليوم كتاب من صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رئيس لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان فتقبلناه بيد الشكر والاحترام ، ونشرناه بحروفه كما أراد وهو :

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

اطلعت الآن في عدد جريدتكم الصادر بتاريخ أمس على جملة في الحوادث الداخلية تتعلق بلجنة إعانة المصابين بشجاعتهم من الجيش المصري المحارب في السودان ، فرأيت فيها ما حملني على تحرير هذه السطور رجاء نشرها في العدد الذي يصدر هذا اليوم :

أبدأ ببيان مقصد اللجنة من القيام بجمع الاعانة لاولئك المصابين : أظهر الضباط والجند المصري شجاعة وثباتا في قتال محاربيهم حمدهم عليهما الاجنبي ،

وحق أن يفتخر بهما الوطني ، وقد أجمع علماء الاخلاق على ان الشجاعة من الفضائل التي لاترسخ في نفوس الافراد من أمة ، ولا تعم الاغلب من آحادها ، إلا إذا عرفت الامة مقدارها وسندتها بالقول والعمل ، وهذا كان أول باعث لاول متكلم في هذا المشروع[1] مشروع الاعانة والله شهيد على ما في نفسه، وهذا الغرض من الاعانة ظاهر من نص المنشور الذي نشرته اللجنة

خلف المقتولون أيتاما ، وقد يعجز المجروحون عن الكسب ، وقد علمنا ان الحكومة لايمكنها أن تفي بحاجة أولئك وهؤلاء ، ولم يصابوا باليتم أو العجز في دنيئة ولا خطيئة ؟ فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهؤلاء على كل حال ليسوا بمجرمين، بل أتوا في إظهار ثباتهم أو جاء في ذلك أولياؤهم بما يعدون فيه من المحسنين ، فلا يليق بأمة فيها قطرة دم من الحياة أن تدعهم يمدون الايدي بالسؤال ثاني يوم أدوا فيه أو أدى عائلوهم حق تلك الفضيلة الجليلة فضيلة الشجاعة ، فهذا باعث من الرحمة ، وداع من الشفقة ، ليس أعضاء اللجنة أول من يشعر به من المصريين ، بل في ظنهم ان أصغر مصري يساويهم فيه ، وابتداؤهم بدعوة اخوانهم انما هو خدمة لهذا الشعور الذي لايسلبه انسان إلا بخذلان من الله

وعلى ذلك أرجو أن لا يتكرر بعد هذا ان الاعانة للجيش المحارب كأنها إعانة للحكومة نفسها على الحرب ، فانا نعلم ان الحكومة تحارب اذا قدرت على الحرب وتتركها اذا عجزت عنها ، وهي أعلم بما تلقاه في الحالين، وإنما سعي اللجنة في إعانة من أصيب في تلك الحروب، كما أرجو من حضرتكم اذا سمحتم بكتابة شيء يختص باعمال اللجنة أن تعنونوها بالاسم الذي وضعته لنفسها وقبلها به الجناب الخديوي الافخم تحت رعايته دون سواه

ثم ذكرتم أنكم علمتم ان أعضاء اللجنة أرسلوا بمنشورات الى حكام المديريات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين الخ فأبشركم ان هذا العلم غير صحيح فان المدير أرسل اليه منشور واحد كما يرسل إلى غيره من الاعيان لعله

(١) يعني الاستاذ نفسه فهو المقترح الاول للاعانة

يكتتب بصفة انه مصري ويدعو اصدقاءه إن أمكنه الى الاكتتاب فان وظيفته لاتحظر عليه أن يخاطب صديقا في ذلك

وأزيدكم ان بعض المديرين عند ماوصله ذلك المنشور الواحد تحير فيما يصنع به ، كانه ظن انه لايباح له أن يدعو ولو أصدقاءه للاحسان ، ولا زال في حيرته حتى أرشده مرشد الى ان من السهل عليه أن يحمل على الاكتتاب أحباءه من اهل القاهرة أو بلد آخر ففعل

أما توزيع المنشورات على الاعيان سواء كانوا حكاما أو غير حكام فهو عمل اللجنة ، والناس موكولون إلى اختيارهم فمن شاء قبل ومن شاء لم يقبل ، وكثير من الاعيان طلب من اللجنة أن تعتبره مشتركا بدون دعوة ، ومعارف اعضاء اللجنة من اهل اليسار في القطر ليسوا والحمد لله بقليل ، وليس بقليل أيضا من يجد وجدان اعضاء اللجنة كما ذكرنا

وأما كلمة الزلفى التي جاءت في سؤالك لعطوفة رئيس النظار فلا اظنك قد قصدت معناها ، فانك تعلم فيما اظن أن اعضاء اللجنة الذين قد بلغتك اسماؤهم لايغمز عليهم بمثل هذه الكلمة

ثم لا اخالني مخطئا اذا قلت انك تعلم الفرق بين عمل هذه اللجنة وبين عمل لجنة الاعانة السابقة ، فهذه لاعانة المجروحين والايتام من اهالي البلاد ، وتلك اعانة دولة عظيمة كالدولة العثمانية على نفقات الحرب قبل وقوعها أو في اثنائها قبل أن يصاب فيها المجروحون بشيء ، ولذلك قد كان للجرحى والايتام معونة أخرى بعد ماوقعت الوقائع ، وربما اختلف شأن الحكومة في العملين ، فكان الاجدر بمثلك أن يلتمس هذا الفرق دون أن ينبه الحكومة أو يحرضها على أمر كان يلومها عليه في نفسه بقلمه

ولو سلمنا بتمام المشابهة بين العملين ، أفما كان من انصافك مايسع السكوت عن الحكومة أو حمدها على ترك عمل لم تسلم من اللائمة فيه في اعتقادك ، ويمكنها أن تتوب عنه وتنيب إلى الله في عدم العودة اليه ؟

فاذا فرضنا ان هذا السؤال كان حقا لابد من أدائه كما قلت ، أفما كان

الاليق بدعوتك إلى الاحسان أن تؤجله الى ما بعد نهاية العمل الخيري الذي تكرر الدعاء اليه حتى لا يحدث عن مثله صدعن سبيل تحمل أنت على السلوك فيه والاستقامة عليه .

رجائي في انصافك أن تنشر هذه الكلمات في العدد الذي يصدر في هذا اليوم دفعاً لما أوهمته عبارتك أمس ، وأن تجري فيما تنشره عن اعمال اللجنة على حسب ما يقتضيه مقصدها السابق ذكره . وأن لا تجعل للظنون عليك سلطانا ، ولا للحق عليك مقالا ، والسلام

رئيس اللجنه

محمد عبده

رد المؤيد على رسالة الاستاذ الامام

كنا نود لو أن فضيلة الاستاذ الذي يعرف هو كما يعرف كل انسان مقدار مانجله ونحترمه لم يشر علينا بنشر مقالته بامضائه ، لا لانها تضمنت رداً وملاحظة وانتقاداً علينا ، بل لانها تكاد تفهم القارىء اننا على اختلاف في المبادىء والمقاصد من جهة ، ولانها تضطرنا أن نلاحظ على ماجاء فيها مخالفا لوجهتنا ، وربما فهم بعض الناس أن صاحب المؤيد يناقش فضيلة المولى الاستاذ الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة أجل وأسمى عنده من أن يتطاول إلى مناقشته ، على أن للمؤيد حقاً لا يطلب منه تركه إذا كان ينصف الغير بنشر ما يعترض به عليه فيه

فاولا — ان المؤيد كان أول جريدة شكرت القائمين بجمع اعانة لمصابي الجيش المحارب في السودان ، وحضت الجمهور على مشاركتهم في هذا السبيل ، ولو دعي صاحب المؤيد أن يكون عضواً عاملا في اللجنة المؤسسة لهذا العمل لابي الدعوة في مقدمة الملبين ، وهو بلا دعوة لم يدخر وسعاً ولن يدخره سعياً في سبيل انجاح هذا المشروع الجليل ، وقد قال بالامس انه يعتقد أن اعانة مصابي الجيش المصري المحارب في السودان مكرمة وطنية وحب الوطن من الايمان

ثانياً — ان المؤيد لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر إعانة للحكومة نفسها على الحرب ولم يتعرض في معرض دعوة الناس لها إلى كون حرب السودان صوابا أوخطأ لعلمه أن الجيش مأمور ومن أول واجباته الطاعة العمياء لقواده ، فلم يكن

ثمت موجب لفضيلة مولانا الاستاذ أن يستلفت أنظار القراء إلى النقطة التي تتنازع نفوس الناس في الاكتتاب ، وقد تحاشى المؤيد في كل مرة دعاهم فيها اليه مثل هذا الاستلفات جهده

ثالثاً — ان المؤيد يسمي دائماً هذه اللجنة بلجنة اعانة أرامل وأيتام ومجروحي الجيش المحارب في السودان ، وفي عدد الامس أقرب مذكر ، وليس في هذه التسمية مخالفة كبيرة للعنوان الذي اختارته اللجنة لنفسها وهو (لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان) ولم يكن قصدنا من ذكر أرامل وأيتام التي نذكرها غالباً إلا تنبيه عواطف القراء باكثر الالفاظ تأثيراً على النفوس ، إذ قد يفهم البعض أن لفظ مصابي الجيش قاصر على جرحاه وهو غير مراد اللجنة حتما كما يؤخذ من نص منشورها العمومي

رابعاً — ان تبشيرنا بان ماعلمناه من ارسال المنشورات إلى المديرين فمأموري المراكز لدعوة القادرين على الاكتتاب الخ غير صحيح، لاينطبق على وجهتنا ، فاننا قصدنا أن نفهم كافة القراء في الاقاليم أن لدى المديرين والمأمورين منشورات — نقول الآن وقسائم — ليعرفوا أن الاكتتاب ميسور لهم وقريب منهم في كل بقعة ، ولذلك أردفنا هذه العبارة بقولنا ان الاكتتاب اختياري محض حتى لاينفروا منه نفرتهم من كل شيء يحسبونه بالاكراه من قبل الحكومة ، ولم نقل مطلقاً ان المدير أو المأمور يحظر عليه أن يشتغل باي عمل خيري بصفته الشخصية، وان كانت الحكومة قد حظرت عليه ذلك بالفعل قبل الآن، وأبطلت مسعى المديرين في مشروعات إنشاء المدارس الاهلية بالاكتتاب ، كما يعلم ذلك حضرات الافاضل أعضاء اللجنة ، وعلى الخصوص أحدهم الذي كان مديراً في المنوفية ، وكما جعلت صف الموظفين من كل الطبقات في الدواوين العمومية والاقاليم لا يشتركون في اكتتاب الاعانة العسكرية الشاهانية

وإذا صحت حكاية المدير الذي وقع في الحيرة كيف يفعل بالمنشور الذي وصل اليه ، فليس ذلك لكون مافيه من الالغاز التي يعسر حلها حتى يرشده ذلك المرشد عما يزيل حيرته ، بل لانه احتار كيف يدخل إلى هذا المشروع من باب وهو يعلم

ان المنشورات الرسمية وغير الرسمية التي والت الحكومة بها المديرين قد غلت أيديهم، وأغلقت كل باب خيري في وجوههم، وجعلتهم يفرون من كل عمل خيري فرار السليم من الاجرب

على أن فضيلة الاستاذ قد قل ان اللجنة أرسلت منشوراتها إلى المديرين ، وانها أرسلتها كذلك إلى أعيان البلاد حكاما وغير حكام ، فدل هذا على انها أرسلت الى المديرين والمأمورين أيضاً ، ويسرنا أن اللجنة قد عممت منشوراتها الى حد شمل كل طبقات الامة ، فما المنشورات إلا إعلانات كلما عم توزيعها تحقق معناها أكثر ، وكانت فائدتها أتم

خامساً — أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة ناظر الداخلية – لا رئيس النظار – إلى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلاحق فيه لمولانا الاستاذ بوجه من الوجوه ، اذ لم يخطر ببالي ولا يمكن أن أفهم ان كل ساع في هذا الاكتتاب يقصد الزلفى للانجليز إذا كان المؤيد نفسه يدعو الناس الى الاكتتاب، ومولانا الاستاذ يعتقد حق الاعتقاد بأنه يدعو دعاء خاصاً لذلك ، بدليل أنه تفضل فبعث الى صاحب المؤيد مع هذه الرسالة دفتر قسائم ليجمع بواسطتها المال ممن يدعوهم الى الاكتتاب؛ وان كان له حق العتاب على أن تصل القسائم الى أعيان البلاد ومأموري المراكز قبل ان تصل ادارة المؤيد في القاهرة

وأي حاجة للتأويل بهذا المغمز ؟ ألكون المؤيد لم يعتد توجيه مثل هذا السؤال أو الانتقاد اذا كان حقا لعطوفة لوزير ؟ أو لان عطوفة الوزير لم يصدر منشورات يعرقل بها مساعي الاكتتاب الاول ولم يحث على الاكتتاب الثاني ؟ أو لانه لم يكن أول داع الى الاكتتاب الحاضر بكلامه مع سعادة المحافظ وسعادة سيوفي باشا ؟

اللهم ان الفرق بين عمله في الاكتتابين بيّن ظاهر لا يجهله أحد، وهو قد كان من المحرضين حقيقة على عدم الدفع في الاكتتاب الاول وهو من المحرضين عليه في الاكتتاب الثاني ، وكما لمناه على عمله في الاول نشكره على عمله في الثاني ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نسأله عن علة مصادرته الاكتتاب الاول اذا كان ممن ترجى منهم المساعدة والتعاون على البر كما هو رأيه الآن في الاكتتاب الثاني

على أن مولانا الاستاذ يغضب وبحق له أن يغضب اذا كان المؤيد يوجه لأحد أعضاء اللجنة غمزا مثل قوله (الزلفى للانكليز) وهو يجلهم عن ذلك كل الاجلال ولكن زلفى عطوفة الوزير للانكليز ربما كانت من الصنائع التي يحمد عليها بحسب مايراه لازما لمنصبه الرسمي ، ولذلك كان أشرف فضيلة مدحه عليها اللورد كرومر في خطبة (شبرد) الاخلاص في العمل معه

وهل يرى مولانا الاستاذ باعثا بغّض لدى عطوفة الوزير مشروع الاكتتاب الاول وحبب اليه مشروع الاكتتاب الثاني أقوى من ميل الانكليز عن الاول وميلهم الى الثاني ؟

ألا ان مجرد رغبة الانكليز في مشروع الاكتتاب الحاضر لا يجعله نقيصة وسبة عند الوطني الحر ، بل ينبغي أن يتخذ ميلهم فرصة لزيادة نجاحه ، وليس في المزيد من المكرمات الا خير المكرمات وأعظمها

سادسا — أننا لا نرى التنبيه الى الفارق بين الاكتتابين في محله ، فالاكتتاب الاول كان واجبا مليا في حينه اذا قلنا ان دولتنا العلية كانت في عوز الى معونة رعيها لها عند الشروع في محاربة عدوة لها من الدول غير الاسلامية ، والاكتتاب الذي نحن بصدده الآن مكرمة وطنية في إبانها يحسن بكل ذي عاطفة شريفة وغيرة وطنية أن يشترك في القيام بها ، والفرق بين الاكتتابين بأكثر من ذلك ولا نخال ان وظيفة مولانا الاستاذ تسمح له بالافاضة فيه بعد حتى ندخل من بابه الآن

سابعاً — اننا لو كنا نعلم ان سؤالنا عطوفة وزير الداخلية عن علة الفارق عنده بين الاكتتابين ينتج حقيقة صداً عن سبيله او يتوهم منه أن ينتج مثل ذلك لأبقيناه الى مابعد الفراغ من مشروع الاكتتاب الحاضر ، ولكننا نعلم علم اليقين ان سؤالنا هذا لا يترتب عليه شيء ما من هذا القبيل ، ولذلك اعتبرنا كل وقت زمانه ، فلم يكن سؤالنا اياه الآن سابقا لأوانه

واذا صح ماتكتبه الجرائد المأجورة التي يفسح لها عطوفة الوزير صدراً وتزعم انها تنطق بلسانه في كل ماتقول من ان عطوفته من كثرة مايكره المؤيد يتوخى العمل على عكس مايريد في كل شيء حقا كان او باطلا ، فلا يبعد أن سؤالنا عطوفته مما

يحرض همته على الاخذ بناصر هذا المشروع الحاضر اضعاف ماعرف عنه فيزداد بهمته المالية نجاحا، وبكون المؤيد قدساعد بذلك أكثر من كل عامل للنجاح سواه

وفي الختام ان المؤيد يأسف غاية الاسف أن يظهر على صفحاته مايكاد يوهم القراء أن يتطاول الى مناقشة مولانا الاستاذ المفضال، ولكن باعث الكتابة جاء من خلال السطور التي طلب المولى الاستاذ أن ننصفه بنشرها ، ولو أنصفنا لجملها كما كنا ننتظر من الخصوصيات اه

الحكم العدل بين الاستاذ الامام وصاحب المؤيد

ما كتبه صاحب المؤيد من غمز الحكومة أو ناظر داخليتها ولمزه لم يكن له موضع مناسب ولا حسن في التعليق على خطاب اللجنة ومنشورها ممن يستحسن عملها ويدعو اليه معها ، وانما اللائق في هذا التعليق هو تحبيذ دعوة اللجنة والحض على اجابتها ، وإذ كان لمز الحكومة مقصداً من مقاصد المؤيد في سياسته الوطنية بسبب استسلامها لسلطة الاحتلال فلم يكن الاستاذ الامام ولا غيره ينكر على المؤيد أن يلمزها بما ذكره هنا في موضع آخر ، وقد اشتهر عن الاستاذ الامام عند الوطنيين والاجانب أنه سمى مجلس النظار المصري « جمعية الصم البكم »

ذلك بان وضع اللمز في هذا التعليق ووصف مشروع الاعانة بانه زلفى الانكليز يشعر قراء المؤيد بما يصدهم عن الاعانة شعوراً يجدونه في أعماق قلوبهم ولا ينتزعه منها قوله إنه يحثهم عليها ، وكذلك تسميته المشروع في السطر الاول من التعليق « مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان »

ذلك بان المصريين ولا سيما المسلمين منهم وكذا من غيرهم كانوا كارهين لحرب السودان التي أكره الانكليز الحكومة المصرية عليها ، وموجسين خيفة من سوء عاقبتها ، ولقد كنت أشعر بهذا على قرب عهدي بالهجرة إلى مصر ، وكون صحيفة المنار لم تستكمل عند الدعوة الى هذه الاعانة الشهرين الاولين من سنتها الاولى ، وقد كتبت في شأن السودان كتابة شديدة لولا الحرية المطلقة للصحف في هذا العهد لحوكمت عليها ، بل صرحت في تلك السنة بان الانكليز

يقصدون انتزاع السودان من مصر والاستيلاء عليه، وبان الاتفاق الذي عُقد بين عميد الاحتلال ووزير خارجية مصر خيانة لاتغفر، فكلمة المؤيد المعبر عن الشعور الوطني ولا سيما الاسلامي بان هذا المشروع زلفى للانكليز كان له تأثير شديد في النفوس لا أزال أذكره في نفسي، ولم أكن منشرح الصدر لرياسة الاستاذ الامام لرياسة هذه اللجنة مع علمي اليقين بانها خير محض

ولم يكن الاستاذ الامام ممن يخفى عليه شيء من هذه الشؤون الروحية، دع السياسية، بل كان من أشد الناس شعوراً بما ذكرنا، ولذلك اقتصر في مدح الجيش الوطني الذي حارب في السودان بالشجاعة الشخصية، وقال «فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهؤلاء على كل حال ليسوا بمجرمين» الخ

ومن أراد أن يعرف رأيه في مسألة السودان وجهاده في سبيلها فليرجع الى ما أثبتناه في هذا التاريخ من سعيه مع أستاذه السيد الافغاني فيها (ص ٣٧٠)

هذا ما آلمه من تعاليق المؤيد فكتب في حال هذا الالم الشديد انتقاده الجارح وأوجب على صاحب المؤيد نشره، فلم يجد هذا بداً من نشره ومن التعليق الطويل عليه بما يبرىء به نفسه ويحتج لها، ولقد كان الاستاذ الشيخ علي يوسف يجل الاستاذ الامام في نفسه أرفع الاجلال، وقد يخل بها في مؤيده لاجل السياسة بعض الاخلال، وكان لابد له من اثبات على خطته السياسية في همز الحكومة ولمزها عند كل سانحة وبارحة، ومن الاحتجاج لنفسه عند النزوات الجامحة، وقد أصاب في رده على الاستاذ الامام في شيء واحد وهو تحتيمه عليه نشر كتابه الانتقادي بنصه، فلو أنه وقد بين له خطأه فيما كتب طالبه بكتابة مايزيل التأثير السيء للتعليق بما يراه هو لكتب مايرضيه ويسره

أما قول الشيخ في الوجه الثاني «انه لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر إعانة للحكومة نفسها» فهو مغالطة إذ الاستاذ الامام لم يسند اليه هذا القول وانما أسند اليه قوله «انها إعانة للجيش المحارب» ووجه إنكاره بقوله: كأنها اعانة للحكومة نفسها إلى الحرب» والفرق بين المشبه والمشبه به ظاهر

وأما قوله في الوجه الخامس «أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة

ناظر الداخلية الى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلا حق لمولانا الاستاذ فيه بوجه من الوجوه » الخ فهو مخطيء فيه من جهة دلالة اللفظ ، ومصيب فيه من ناحية القصد ، ولم يكن الاستاذ الشيخ علي رحمه الله تعالى دقيقا في مدلولات اللغة ، فنص عبارته « أو ذاك مشروع مبغض عند الانكليز وهذا زلفى اليهم ؟ » أي وهذا المشروع زلفى اليهم ، فهو قد وصف المشروع نفسه بانه زلفى للانكليز ، والمشروع عمل اللجنة لا عمل ناظر الداخلية . وقد اعتذر بانه لا يقصد هذا المعنى ولكن اللفظ لا يدل على غيره ، وانما لامه الاستاذ على لفظه ، لا على قصده ، والناس يقرؤن لفظه لا قصده . فكيف يقول ان الاستاذ ليس له حق فيه بوجه من الوجوه ، لولا انه يجهل المدلول اللغوى أو يتجاهله ؟ وما عدا هذين الوجهين مما أطال به فلا طائل تحته

اعانة منكوبي الحريق بميت غمر

ألف الاستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الاسلامية وكان يذهب بنفسه الى منازل أمراء الاسرة الخديوية وغيرهم من الكبراء فيطلب منهم الاعانة لها ، لان لزيارته لهم من التأثير المقتضى للبذل الكثير ما ليس للمطالبة بالكتابة ، وأرسل منشوره البليغ اليهم ، وانني أكتفي هنا بما ذكرته في الجزء الثاني من هذا التاريخ في شأن هذه الاعانة . وهذا نصه :

﴿ الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر ﴾ (*)

(وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات)

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بحادثة ميت غمر من بعض الافواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي . فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادي ما يصهره من لحومهم . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناي إلا قليلا . وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله ،

(*) نشرت في جريدة المؤيد في صفر سنة ١٣٢٠ — ١٢ مايو سنة ١٩٠٢

وله هذا العدد الجم من اخوة واخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء ، اردت أن ابادر بما استطيع من المعونة، وما استطيع قليل لا يغني من الحاجة ولا يكشف البلاء، ثم رأيت ان أدعو جمعاً من اعيان العاصمة ليشاركوني في افضل اعمال البر في اقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر .

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل الى سعادة السر تشريفاتي . فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد ان الجناب العالي قبل ذلك

سبق السابقون من ارباب الجراءة إلى الدعوة وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله افضل الجزاء ، ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر اذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز الجمعية الخيرية الاسلامية ان يكتب إلى حضرات المكتتبين الاولين بالانضمام إلى إخوانهم ، وأن يرسلوا مندوبين منهم إلى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤا .

شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم . وسيكتب إلى غيرهم من اعيان المديريات الأخر .

ليس الحادث بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين ، منهم الاطفال الذين فقدوا عائليهم ، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس اموالهم ، ويتعذر عليهم ان يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم . وإلا اصبحوا متشردين متلصصين او سائلين . والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون إليه . ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الامر ان يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين

كتبت إلى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ، وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت ؟ ثم طلبت احصاء وقتياً لاصناف المصابين

وطبقاتهم ، حتى يكون ذلك التوزيع على قاعدة صحيحة . ونرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه ، واف بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة سيودع مايجتمع في خزينة محافظة العاصمة حسب مارآه المجتمعون بالاتفاق، وفي ذلك ضمانة من الضياع ، وبعدعن مرامي الظنون ، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ماتراه بعد .

هذا مارأيت أن اكتبه عن سبب الاجتماع وخبره ،وأختم ذلك بالمنشور الذي أوجه به إلى اهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة، من بذل مال وبذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ماعليه اهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصورً أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى ان يكون كل الناس في معونته ؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به مانزل بهم ، ولينفق من ماله وهمته مايدفع الله به عنه مكروه الدهر ، إن شاء الله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون*الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن انه اصدق القائلين ، واقدر القادرين . فأرجو من همتكم ان تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم وان تبذلوا مافي وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا ما تجمعون إلى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية
محمد عبده

(فائدة) قال المرحوم حسن باشا عاصم للاستاذ بعد عودته من توزيع هذه الاعانات وكنت معها : لو اعطيتني هذا المال الذى جمعته لاجل مدارس الجمعية ...

فأجابه بقوله :ماجمع لشيء وجب صرفه فيه ، وإننا نفترص الحوادث الموجعة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ،ومتي اعتادوا البذل في بعضها ،هان عليهم البذل في سائرها

المقصد الخامس

(من الفصل السابع)

في أسفاره

للسفر والسياحة في الارض فوائد كثيرة في صحة الجسد ، وتهذيب النفس ومشاهدة شؤون الخلق ، ومعرفة سنن الله وحكمته في الارض ، والاعتبار بأحوال الامم في علومها وأعمالها وبداوتها، وحضارتها، وقوتها وضعفها، ومثل الاستاذ الامام في علمه الواسع وعقله المنير من يستفيد من السفر مالا يستفيد من دونه علما وحكمة، ومعرفة وبصيرة ، وقد كتب في تأثير بعض الاسفار في نفسه مانشرناه في ترجمته من المنار وهذا نصه (ص٤٦٥م٨)

« أما الاسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشرة كثير من المسلمين غير مسلمي مصر فقد كان من نتائجها عندي أني عرفت حق المعرفة ان مرض المسلمين نشأ من أمرين : الاول الجهل بدينهم وإبداع مالم يكن منه وإلصاقه به ، واختلاط ماهو من الدين بما ليس منه ، حتى صار ماهم عليه ديناً أجنبياً عن أصل الدين الاسلامي الطاهر الرفيع . والامر الثاني استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الارض

« وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوربا وأفريقيا فكان أثر الاسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الامر ، وأثر الاسفار في أوربا قوة الامل في إصلاح أحوال المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندي الامل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك باصلاح ماأفسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون افراد ظلمتهم . وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عند ماأعود إلى دياري لكثرة ماألاقي من العنت ، وشدة ماأصادف من المصاعب ، وسوء ماأرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لانفسهم ، وقوة رغبتهم في تمكين ظالميهم

من رقابهم، وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكنني متى عدت الى أوربا ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال، ويسهل علي تناول ما كنت أعده من المحال، ولا تسألني عن السبب في ذلك فاني لا أستطيع تفصيله ولكن هذا ما تحدثه الاسفار في نفسي » اه

أقول والمتبادر الى الذهن ان السبب في ذلك هو ما يسمى في العرف الآن بتأثير الوسط أي البيئة من المكان والمكين ، لان كل انسان يحل في مكان ويشاهد حال قوم لا بد أن يتأثر بشيء مما هم عليه بحسب استعداده وما وجهت اليه نفسه . و بلاد أوربا قد ارتقت ارتقاء عظيما في العلوم والصناعات والكسب والسياسة وغير ذلك ، فمن سافر اليها وكان من همه التجارة يزداد معرفة بطرقها ونشاطا في عملها ، ومن كان همه غير ذلك يتأثر بارتقاء القوم فيه فتنهض همته اليه، وناهيك بعلو كعب القوم في خدمة أمتهم ، وإعلاء شأن ملتهم ، وما يبذلون في هذه السبيل من الاموال ، وما يركبون لها من الاهوال ، فمن يرَ ما هم عليه من العزة والسيادة ، وهو يعلم ما كانوا فيه من الضعة والمهانة ، فهو جدير بأن يكبر أمله في قومه ، ولا ييأس من غده في يومه ، وكان تغمده الله برحمته يقول لي عند ما يريد السفر إلى أوربا : إنني أذهب لأجدد نفسي : أي فقد أخلقتها معاشرة الكسالى واليائسين اه

وقد توجهت همته في هذه السنين الاخيرة لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازما على زيارة الهند وإيران وقزان والقوقاس في هذه السنة وما بعدها، فصرفه المرض عن عزمه في هذا العام، ثم قطع آماله كلها الحمام اه.

وقد نسيت هنالك ذكر الاستانة فأبدأ بذكرها الآن

﴿ سفره الى الآستانة ﴾

كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يود ان يسيح في البلاد الاسلامية ليختبر أحوال المسلمين فيها ، وقد عنّ له أن يبدأ بزيارة الآستانة فذكر ذلك للورد كرومر في حديث له معه فكان رأيه انه لا يظن انه يسر بهذه الزيارة ، وانه لا بأس مع

ذلك بان يعرف حال هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية ، والظاهر ان اللورد كان يعتقد انه لاشيء يقطع أمل الاستاذ من حياة الدولة العثمانية إلا زيارته للاستانة وقد سافر هو والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وكان سمو الخديو قد سبقهما اليها ، وانني أنشر هنا ماكتبته عن هذه المسألة في موضعين من مجلد المنار الرابع (أحدهما) ما نشر في الجزء المؤرخ في غرة جمادي الاولى سنة ١٩ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٩٠١ في باب الاخبار التاريخية (ص ٤٣٥) وهذا نصه :

﴿ فضيلة مفتي الديار المصرية في الاستانة العلية ﴾

سافر صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في هذا الصيف إلى دار السعادة العلية ، ولما ألقى مراسيه فيها بادر حالا إلى قصر يلدز العامر حيث مقام مولانا وسيدنا السلطان الاعظم أيده الله تعالى ، وحينما أوذن مولانا بحضوره أمر بتبليغه السلام، ثم انصرف الاستاذ من القصر بعد ان أقام مع عطوفة الباشكاتب السلطاني نحو ساعة . وبعد ذلك صدرت الارادة السنية بان يعد لفضيلته دار مخصوصة من أحسن دور الضيافة السلطانية على ماجاء في بعض الاجوبة من الاستانة ونشره المقطم الاغر . وورد في بعض الاخبار الخصوصية الموثوق بها ان صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناب العالي أمرت بان يدعى أيضاً للنزول في قصر ببك ، ثم أكد الخبرين معاً بعض الوجهاء الذين حضروا من عهد غير بعيد من هناك وقل ان الاستاذ أقام في قصر ببك يومين او ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى دار الضيافة السلطانية ، ولكن المكاتيب التي وردت من الاستاذ نفسه لم تذكر أمر الضيافة بالمرة

ومما ينبغي ذكره من غرائب مافي مصر من فساد الاخلاق ، والجراءة على مقام السلطنة فما دونه من المقامات الرفيعة ، ان الذين لاعمل لهم إلا السعاية والتجسس والكذب على خليفتهم وسلطانهم أرسلوا إلى المابين الهمايوني وإلى بعض الكبراء في الاستانة تقارير خلقوا فيها ماشاؤا من الافك وقول الزور يريدون بذلك ان يتوسلوا ليتوصلوا إلى التباعد بين الاستانة العلية ومصر لانهم يعلمون

ان قول الاستاذ في مصر هو القول الفصل ، الذي يؤثر ويعول عليه جميع أهل الفضل ، من العلماء والوجهاء والموظفين بل الذي لايشك في صدقه أحد يعرفه

كتبوا ما كتبوا وليس لهم شيء يتوكؤن عليه وقد اتفق أن سافر في السفينة التي سافر فيها الاستاذ المفتي صاحب المؤيد الفاضل فكان رفيقا له ، وكان لهم (أي أولى السعاية) في هذه المرافقة الاتفاقية القال والقيل ، لعلمهم بأن جريدة المؤيد أعظم الجرائد تأثيراً في القطر المصري وهي عمدة جميع مسلمي مصر في السياسة والاخبار ، وقد خدمت الدولة العلية والحضرة الحميدية خدمة لها في القطر اعظم تأثير

ومما لايعزب عن الذهن ان مفتي الديار المصرية وكبير العلماء فيها لابد أن يزور صاحب أكبر منصب علمي إسلامي وهو شيخ الاسلام وقد كان معه في زيارته له رفيقه وأرسل هذا الى جريدته مادار بينهما من الحديث ، ولا يتحدث هذان الامامان الجليلان إلا في العلم والعلماء ووظائفهم ، وقد نشرنا جواهر الحديث في المقالة الافتتاحية ، ونقول ههنا ان الجواسيس اعداء الدولة قد كتبوا بمناسبة ماذكره انقطم من استياء العلماء من الحديث ، تقارير برقية وبريدية مزورة على العلماء في ذلك ، ومن الناس من يقول ان بعض المتعممين المغرورين وافقهم على ذلك وانه هو الذي غش المقطم حتى كتب ماكتب . ولو ان العلماء استاءوا حقيقة لراجعوا في ذلك شيخهم الاكبر شيخ الازهر ، وهو كان يكتب الى الاستاذ المفتي بذلك . ويقال ان أجرة التقرير الذي ارسله (فلان بك) بلغت ثلاثة جنيهات وقد اختلف من سمع ذلك في موضوع التقارير ، ويقال ان في بعضها طلب أن يكذب صاحب الدولة والسماحة شيخ الاسلام الحديث الذي نشر في المؤيد أو يرجع عنه !!

وعندنا ان بعض الجرائد هي التي هولت الامر وان شيخ الاسلام إذا علم ان بعض من ينتسب إلى العلم ينكر قوله وقول مفتي الديار المصرية او يستاء منه فانه لايرجع إلا عن كلمة واحدة منه ، وهي تسميةهؤلاء المستائين « متفننين » ويستبدل بها لقب « معتوهين » ومثل هؤلاء لاتلتفت الدولة الى كلامهم ، ولا تنفذ لهم رأيا ، ولا تجيب لهم طلبا ، لانها بذلك تمتح على نفسها باب امتثال كلام من يجهل الزمان وما يستلزمه ويناسبه ، وربما يجرّهم السماع لهم إلى طلب مافيه خراب

الدولة . وقد ذكرنا هـذا ليتعجب العقلاء في سائر الاقطار من الخلل والخطل الموجود في مصر، أصلحها الله تعالى وأصلح أهلها آمين

وأما الموضوع الآخر فهو ما أشرنا اليه من حديث المفتي مع شيخ الاسلام في الاستانة وقد مهدنا له بمقدمة طويلة في حال العـلم والعلماء ، ونمهد له هنا بتلخيص مقدمة المؤيد له

زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام

أرسل الاستاذ صاحب المؤيد إلى جريدته مقالة عنوانها (العلماء هداة الامة ومن هم ؟) مؤرخة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠١ فنشرت بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ الموافق ٣٠ يوليو قال في أولها :

« في اليوم الثاني من وصولنا إلى دار السعادة رأى صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ان يبدأ بعد اداء فرض اخلاص الولاء لجلالة الخليفة الاعظم بزيارة صاحب الدولة والسماحة مولانا جمال الدين افندي شيخ الاسلام المعظم وكنت لم أحظ بمجلسه في زوراتي الاولى لدار السعادة فرأيتها نعم الفرصة للتمتع بمشاهدته، والوقوف على آرائه وأفكاره... فلا فرصة لي أعظم من ان أحضر مجلسا جمع بين امام مصري علم القراء ماله من الفضل وسعة الاطلاع وعلو الفكر وبعـد الغور في أحوال الزمان ، وبين امام الامة الاعظم شيخ الملة والاسلام في هذا العصر الحميدى لأروي مايقولان »

ثم ذكر سيرهما إلى مايسمى (باب المشيخة) ومكانه ووصف البناء، والاستئذان على الشيخ باسم مفتي الديار المصرية ومبادرته إلى الاذن ودخولهما عليه وتلقيـه للمفتي بالترحاب ، ووصف مجلسه ومن فيـه واشارته للحاضرين بالانصراف ليخلو المجلس للزائر . بعد هذا قال: ان شيخ الاسلام افتتح الحديث مع فضيلة المفتي بالسؤال عن وقت وصوله إلى دار السعادة بعبارة عربية فصيحة وانتقل الحديث إلى مسألة النطق بالعربية الفصحى وانهم على تعلم فنونها لم يتمرنوا عليها كثيراً ، ومما قاله شيخ الاسلام في ذلك انه رأى في الطائف بعض اعراب

الحجاز ينطقون باللغة الفصحى التي لايحسنها أهل مكة وأمثالهم . وتكلم المفتي في تقصير المسلمين حتى في البلاد العربية في اتقان العربية …

وذكر المؤيد ان الشيخ سأل المفتي عن قاضي مصر يحيى افندي فأثنى المفتي على علمه وأدبه وفصاحة نطقه ، ثم سأله عما في مصر من المحاكم غير الشرعية فذكر له المفتي أنواع المحاكم وان الذي ألجأ الحكومة إلى إيجاد محاكم غير شرعية هو تقصير العلماء وقد نقلت عن المؤيد بقية الحديث بنصه فيما يلي :

﴿ حديث شيخ الاسلام ومفتى الديار المصرية في العلم والعلماء ﴾

قال (المفتي) بمناسبة كلام مع الشيخ (وهو الكلام في المحاكم غير الشرعية) إن كان للمسلمين شكوى مما يرونه ماساً بشريعتهم فاجدر بهم ان يشتكوا من أنفسهم لاممن يعتدي عليهم

(الشيخ) لاريب في ذلك فان حياة كل امة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه ومن غالب الزمان غلبه الزمان . ولكنا نؤمل ان تتغير الحال ويتنبه المسلمون لما فاتهم فيحصلوه وذلك لايكون إلا بهمة علمائهم ، وحملة شريعتهم

(المفتى) نعم ذلك لايكون إلا بهمة علمائهم ولكن العلماء في انصراف تام عن شؤون العامة وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ووكلوا بعضها إلى العامة أنفسهم ، وجعلوا نصح العامة والخاصة او الاشتغال بما يهيء لذلك من العمل مما لايعني ، ولم تبق لاحد منهم علاقات مع العامة ، اللهم إلا أولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظا او مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء ، وهم يفسدون أكثر مما يصلحون

(الشيخ) لاشك ان أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة باحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ، ولو خبروا الزمان وأهله لامكنهم ان يحموا شرعهم ، ويعلوا شأن أهل ملتهم ، مع ان العالم لايكون عالما حتى يكون مع علمه عارفا ، والعارف هو الذي يمكنه ان يوفق بين الشرع و بين ماينفع الناس في كل زمان بحسبه ، ومن كان بارعا في العلوم الدينية ولكن لايعرف حال اهل

عصره ، ولا يراقب احكام زمانه ، فلا يسمى عالما ولكنه يسمى « متفننا » اعني انه يعرف فن النحو او فن الفقه او ماأشبه ذلك ، ولا يسمى عالما على الحقيقة حتى يظهر اثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الاثر إلا بعد علمه باحوالهم وإدراكه لحاجاتهم

(المفتي) ماتقوله سماحتكم هو المعروف عند الاولين من علمائنا . وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بانه (العاكف على شانه ، البصير بأهل زمانه) وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه والعكوف على الشأن ان لا يضيع العالم زمنه إلا فيما يفيده ويفيد العامة ، لان هذا هو شأن العالم الذى ينبغي ان يعكف عليه . ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو البصر باهل الزمان لان البصر باهل الزمان انما يدخل في الغاية من العلم لأنه وسيلة للتمكن من العمل به في اهل ذلك الزمان . وكأن صاحب هذا التعريف يقول من فرط في شيء من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه ان يستعمله فيه ، او اساء استعماله بسبب جهله باحوال هذا الزمان ، فهو ينثر المقال نثراً لايبالي كيف يقع ، ولا يعرف هل يصفع عليه او يخضع له ويخشع . ومن كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لاينطبق عليه تعريفه . وغاية مايمكن أن يصل اليه إن عرف شيئاً من العلم ان يسمى حافظا له

(الشيخ) نعم ان مما يؤسف عليه الاسف العظيم ان من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فانما يعد في الحقيقة متفننا ولا يصح ان يطلق عليه اسم العالم . وبذلك بقيت الشريعة مدفونة في الكتب وحرمت ارواح اهليها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قائلا : ولعل الذى مال بحملة الشريعة إلى البعد عن شؤون العامة هو انهم أرادوا ان يخدموا أنفسهم خاصة دون الناس عامة

(المفتي) وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لانفسهم مع ماتراهم فيه من الضعة والخمول ، وحرمان اعاليهم من الحقوق التي يتمتع بها اسافل غيرهم ، وفرار الدنيا من وجوههم وهم أتعب الناس في طلبها ، وبغضها لهم وهم احرص الناس على حبها . واذا قنع احدهم بشيء منها فهي وقفة العاجز لاقناعة العزيز . انما كانوا اعز واكرم ، ومقامهم اسمى واعلى ، لو كانوا علماء على النحو الذى عرفه أسلافنا

(الشيخ) صدقت فان من أراد ان يخدم نفسه وجب عليه ان يخدم العامة

لاندراج المصلحة الخاصة في المصلحة العامة فاذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة أيضاً ، واذا حفظت الاولى حفظت الثانية

(المفتي) نعم يامولاي هذه هي القاعدة الحقيقية ولكن مدرسي كتب الفقه لايعتنون بتقريرها لطلبتهم . فهؤلاء الذين سمتهم سماحتكم متفننين لم يرووا ! هذه القضية فيما درسوا ، فلعل ذلك عذرهم فيما نسوا » اه بحروفه عن المؤيد

***

الفائده في هذا الحديث هي الارشاد الى العمل بالعلم ونفع الناس به ، فمن كان يصدق عليه من العلماء يسر به ، ومن كان حجة عليه يستاء في نفسه ولكنه لايظهر الاستياء لئلا يكون مسجلا على نفسه ذلك ، اللهم إلا أن يغلب على أمره باعتقاد ان الكلام ظاهر الانطباق عليه عند الناس لعلمهم بأنه لم يحصل من العلم إلا حفظ بعض الاصطلاحات التي لاأثر لها في عمله، ولا يمكن أن ينفع بها الناس، أو لحسد شديد لمن ظهر الحق على لسانه ، فهو يكابر الحق ويجادل فيه بعد ماتبين وعلم انه الحق وان مابعده هو الضلال .

نشر الحديث في المؤيد فذكر المقطم في العدد الذي صدر منه في اليوم التالي لنشره ان العلماء في مصر عموما وعلماء الازهر خصوصاً قد استاؤا منـه ووقع عليهم كالصاعقة، فنشر المؤيد في اليوم الثالث مقالة لبعض العلماء يقيم الحجة فيها على المقطم بأنه ليس من المعقول أن يعلم باستياء العلماء كلهم في مصر في صبيحة يوم واحد فلم يجد المقطم جوابا إلا انه استنجد ببعض العلماء المتفننين الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله ، فكتب له نبذة بعد يومين زعم انه بين فيها سبب استياء العلماء من حديث الشيخين كأنه حقيقة واقعة . وأما السبب الذي كتبه فهو مما يضحك الناس على حماقته ، وقد خدم المقطم الاسلام باظهار سخافته، كأنه يقول هذه أفكار الذين يعارضون كلام الائمة الراسخين، ولا ندري هل قصد المقطم هذا أم لا ؟

زعم ذلك المتفنن ان السبب في استياء العلماء المزعوم انه يوجد فئـة ذات عُدة عظيمة يريدون ابطال مذهب اهل السنة ورأوا أن يسقطوا العلماء من نظر

العامة ليتمكنوا من ذلك ، لان العلماء هم حراس السنة فهم دائما يذمون العلماء » وجاء كلام الشيخين في ذم العلماء مؤيداً لكلامهم !!!

لعمري لايقول هذا القول من بلغ أن يكون متفننا أو حافظا وانما هو غبي لم يفهم معنى الكلام ، وإن كان لم يعزب عن افهام العوام، الشيخان يحثان العلماء على العمل بعلمهم وأن لا يقتصروا على حفظ الاصطلاحات الفنية ، وهل يمكن ان يحرسوا السنة إلا بهذا ؟

هؤلاء البابية قد ألفوا كتابا يريدون به ابطال مذهب السنة بل والاسلام كله ، وقد نشروه حتى في الجامع الازهر، فهل قام من العلماء الذين سماهم انصار السنة ، من حامى عن السنة ، إلا الاستاذ مفتي الديار المصرية لذى اتفق مع الاستاذ شيخ الجامع على تأديب ناشره ، وغير هذا الفقير الذى رد على كتابهم في المنار ؟

وهؤلاء دعاة المسيحية ينشرون الكتب والجرائد في الرد على الاسلام ، وقد اشتغلت بشبههم الاذهان ، فهل تصدى هو أو غيره من اهل الازهر للرد عليهم ؟؟ وهذه البدع والمنكرات فاشية فهل انكرها منهم أحد؟

يتخذ صاحب المقالة المقطمية اسم العلماء ترساً يدافع به الحق الذى يكلفه العمل، ويعدهذا التكليف طعنا بالعلماء جميعاً، كأنه يحكم عليهم بانه لا يوجد فيهم عامل علمه خادم لدينه ، ويسمي الذى يعلق آمال المسلمين بهم طاعنا فيهم، ويزعم ان الأولى تعليق الآمال بالحكام والامراء وهو يعلم سلطة الاجانب عليهم ، فنعوذ بالله من الجهل ونعوذ بالله من الغش

جعل الله علماء الدين الذين أورثهم الكتاب ليكونوا نوابا عن الرسل في الهدى والارشاد على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه لا يعمل به ، ومقتصد يشتغل في اصلاح نفسه والعمل بما وجب عليه ، وسابق بالخيرات يعمل ويعلم الناس ويرشدهم الى الاهتداء به (هذا التفسير هو الذى اختاره العلامة البيضاوى وغيره) وهذا القسم الثالث هو الذى تحيا به الملة ، وتحفظ السنة ، وقد ضعف الاسلام والمسلمون بضعفه وكادوا يتلاشون بتلاشيه . وكلام الشيخ والمفتي ينفخ روح الغيرة في القسم الاول والثاني ليرتقوا الى القسم الثالث . وكلام صاحب المقالة

القطمية يسجل عليهم بأنهم من القسم الاول أو الثاني ويسمى هذا نصراً للسنة وما هو إلا نصر المقطم، وتصديق له بأن العلماء قد استاؤا من كلام الشيخين، ولعله هو الذى غشه أولا وصدقه ثانيا

عهدنا بهذا المغرور انه يحرم نشر الآيات القرآنية في الجرائد فلماذا ملأ مقالته بالآيات التي حرفها عن مواضعها ووضعها حيث شاء الهوى (يحلونه عاماً ويحرمونه عاما) وعهدنا به يحرم الكتابة في الجرائد الاسلامية، ولو لخدمة الملة الحنيفية والدولة العلية ، فكيف استحل أن يكتب في جريدة يعتقد هو واكثر قومه إن لم نقل كلهم أنها ضد الدولة وغير خادمة للملة ؟ ألم يجد جريدة يدافع فيها عن السنة والاسلام وعلمائه الاعلام، إلا هذه الجريدة التي لم تنشأ لهذا القصد ولولا إرادة تأييد كلامها لما نشرت مقالته . لانريد بهذا طعناً بالمقطم وانما نريد تفنيد هذا المغرور بما هو مسلم عنده ، وسنبين وظائف العلماء في الجزء الآتي، وإلى الله تصير الامور (١)

ما كتبه مصطفى بك كامل في المسألة

ان جريدة اللواء لم تكتب شيئا في موضوع حديث شيخ الاسلام والمفتي لان صاحبها مصطفى كامل بك كان في أوربة فلما وصلت اليه جرائد مصر أرسل إلى جريدته مقالة من باريس نشرت في ٧ جمدى الاولى (٢٢ أغسطس) عنوانها (كلمة في سبيل العلماء) ذكر في أولها « الحكم الشديد القاسي الذي نطق به شيخ الاسلام ومفتي مصر بشأن العلماء » واهتمام الرأي العام في مصر بهذا. ثم ذكر انه « لاينكر أحد في مشارق الارض ومغاربها أن الاسلام في حالة يرثى لها وان المسلمين فقدوا في هذا العصر كل قوة ونفوذ ... » واعترف بان لكل باحث الحق في ابداء رأيه بحرية في هذا الموضوع .

ثم أنحى باللائمة على شيخ الاسلام ومفتي مصر في حكمهما على علماء العصر ونسيانهما أو تناسيهما انهما من هؤلاء العلماء « ومسؤلان مثل الآخرين (بل قبلهم) عما نحن فيه من تأخر وجهالة وسوء حال »

(١) قد وفينا بهذا الوعد ولله الحمد

ثم احتج على شيخ الاسلام بانه لم يرفع صوته قبل الآن بالنصح للمسلمين الخ

ثم انتقل إلى المفتي وقال انه لايناقشه « الحساب على ما مضى من أعماله ولا يذكره بالحوادث المشئومة وشأنه فيها » وانه يتناسى ذلك ويطالبه بالعمل لاصلاح حال المسلمين بدلا من اعلان الحرب على العلماء – وذلك العمل الذي يطالبه به هو أن يستقيل من منصب الافتاء وينشيء مدرسة لتربية علماء اللازم للاسلام المعين للمسلمين » قال « يومئذ يحق له أن يحكم على المقصرين .. يومئذ نحني له الرءوس تعظيما واجلالا ، ونشهد له أمام الناس والتاريخ بأنه أب الحركة الاسلامية الحديثة ، وروح الحياة الملية الجديدة » الخ

وقد رددت على هذه المقالة في جزء المنار الذي صدر من المجلد الرابع في غرة جمادى الاولى من تلك السنة فأذكر من الرد ما هو خاص بحديث الشيخين – لان ما يتعلق بالرد على ماقاله في حوادث الثورة العرابية التي عبر عنها بالحوادث المشئومة قد تقدم في ص ١٤٧ من هذا التاريخ – وهذا نصه (ص ٥١٠ م ٤) :

« صدى حديث مفتي الديار المصرية مع شيخ الاسلام في الآستانه »

طار خبر هذا الحديث في المؤيد، ثم في المنار إلى جميع البلاد الاسلامية فتلقاه العقلاء والفضلاء بالقبول ، ونشرته برمته الجرائد الاسلامية في الشرق والمغرب ليعم نفعه ، ويعرف عامة المسلمين كما يعرف خاصتهم بان أكابر علمائهم معترفون بان معظم بلاء المسلمين قد جاءهم من تقصير علمائهم في خدمة الامة والملة

« قول صاحب جريدة اللواء في الحديث »

عرف صاحب هذه الجريدة عند الخواص وأهل الرأي بالتجاوز والشذوذ والافن والخطل، ومع هذا لم يشذ عن الجرائد الاسلامية المعتبرة في الاعتراف بصدق الحديث وإصابته المرمى وقرطسته في الهدف ولكنه لم يترك شذوذه وتجاوزه الحدود عند الكلام عليه فجعل الحديث برأيه الافين حجة على المتحدثين، وسأل من لاينظر في جريدته من شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية عن خدمتهما للاسلام أما شيخ الاسلام فصاحب اللواء يعرف أن مولانا السلطان أيده الله بتوفيقه

لم يترك له ولا للوزراء استقلالا بعمل يتعلق بالامة بل وضع جميع اعباء الدولة والامة على كاهله ، فان كان هناك تقصير فليسأل عنه صاحب الارادة والنفوذ المطلق ، ويا ليت شعري ماذا يقول صاحب اللواء إذا سأله شيخ الاسلام عن رأيه في الاصلاح الاسلامي الذي ينبغي أن يعمله ؟ هل يشير عليه بمثل ما أشار على مفتي الديار المصرية : أن يترك وظيفته وينشيء مدرسة كمدرسة مصطفى كامل او مدرسة الوطن أو مدرسة باب الخلق !!!

وأما مفتي الديار المصرية فقد سمع الصم نداءه بالارشاد إلى الاصلاح وما العلماء إلا مرشدون ، وأبصر العمي سعيه في خدمة الازهر الشريف والجمعية الخيرية الاسلامية التي لها عدة مدارس كل واحدة منها خير من جميع المدارس الاهلية ، وجمعية إحياء العلوم العربية واعترف المكابرون مع المنصفين بمروءته وبذل جاهه وماله في خدمة المسلمين في الحكومة وغير الحكومة . ومن أعماله القريبة تقريره في إصلاح المحاكم الشرعية الذي أجمع على استحسانه العلماء والفضلاء وجزموا بانه لم يحاب الحكومة في إظهار خطأها وانه شخص الداء وبين الدواء ووصف طريق العلاج . ولكن صاحب اللواء في مصر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس بهذا كله ولا يشعر اه

وأزيد على هذا ان المرحوم مصطفى كامل كان يعلم ويقول أحيانا ان علة العلل لمصائب الاسلام والمسلمين ملوكهم وامراؤهم ، وان العلماء لا يستطيعون عمل شيء بدون رضاهم ، وان الاستاذ الامام أرسل عندما كان ببيروت لائحة الى شيخ الاسلام في ذلك العهد ببيان ما يجب من الاصلاح في الدولة كما سيأتي بيانه فلم يمكنه تنفيذ شيء منها ، وكان مع هذا يقدس السلطان عبد الحميد ، ولو ان شيخ الاسلام أراد أن يعمل شيئا بالاتفاق مع العلماء وانتقم منه السلطان لحمد للسلطان انتقامه ، وحكم باستحقاق شيخ الاسلام له . وكان من أشد أنصار الخديو في مقاومة الشيخ محمد عبده في إصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والمساجد ، وهكذا شأن السياسة في اتباع الهوى . وقد اتفق رجوعه من أوربة في الباخرة التي عاد فيها الاستاذ الامام وتعارفا مدة كما تقدم في ص ٥٩٣

﴿ كتاب الاستاذ الامام إليّ بعد خروجه من الاستانة الى أوربة ﴾

ولدنا العزيز

لم يصل إلي كتابك إلا هذا اليوم ٢٨ أغسطس وذلك ببركة الآستانة العلية. الشيخ اسماعيل(١) قابلني في آخر يوم كان لي بالاستانة وصحبني من البيت الى الكبري ثم أمرته بمفارقتي وسافرت بعد ساعتين، أعطيته ورقة زيارة لنجل أحمد عزت بك ولا أدري هل يساعده أو يواعده.

لايمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيراً في الاستانة. وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وببقية نفسه

تعلمت في الاستانة مالم يكن ليعلم إلا بالمشاهدة، وستسمع منه مايمكن التعبير عنه عند اللقاء إن شاء الله تعالى.

بودي لو يشترك الشيخ اسماعيل في عمل المنار، احدكما يكتب والآخر يسافر ويدعو الى الاشتراك ويجمع القيمة وهكذا، ولاادري هل يوافقك ذلك؟

ماذكرت عن الحموي(٢) ليس ببعيد عن اخلاق مثله ممن ينسون انفسهم متى حملوا وزر لقب من الالقاب. اللقب يثقل عليهم فيزهق ارواحهم من ابدانهم، ولا يبقى متعلقا باجسامهم إلا خيال لايعرف شيئاً من انفسهم.

كتبت للشيخ علي الآن ماقيل عنه وعن غيره. لم أر الى الآن شيئاً مما

---

(١) هو الاستاذ العالم الفقيه الشاعر الاديب الشيخ اسماعيل الحافظ الطرابلسي أصدق أصدقائي ومن تلاميذ الاستاذ الامام كان مجاوراً في الازهر من قبل هجرتي الى مصر، ثم ذهب الى الاستانة لاجل الدخول في سلك القضاة الشرعيين وقد أوصى الاستاذ به نجل عزت باشا العابد ليوصي والده بمساعدته تطيبيا لقلبه وهولا يرجو له نجاحا في الاستانة لدينه واستقامته، ولذلك استحسن أن يأتي ويشاركني في عمل المنار وقد كان هذا يوافقني الا أنه مثلي لايصلح للسفر للدعوة الى الاشتراك وجمع القيمة فكلانا ليس بمالي، ولهذا لم يكن من مصلحته هو مشاركتي في هذا العمل

(٢) هو سليم باشا الحموي كان صاحب جريدة تسمى الفلاح تعيش باعانة من الاستانة لانها تمدح السلطان ورجاله وتدافع عنهم. وقد قال الاستاذ الكواكبي هنا انه يطبع منها ١٠٠ أو ٢٠٠ نسخة يرسل نصفها الى الجرائد ونصفها الى الاستانة !؟

كتب في المقطم، ولكن رأيت جملة في محليات المؤيد(١) رداً عليه لا بأس بها وعرفت انها من قلمك، فان كانت التي تذكر فهذا رأيي فيها، وإن كانت غيرها فاحفظها حتى اعود، كما احب ان تحفظ ما قال المقطم، وإن امكن ان ترسله إلي فاعطه لحموده.

وليتني أعرف ماذا كتب مصطفى كامل، فقد بلغني انه كتب انني حبست في الاستانة الخ كما بلغني ان ذلك أشيع عندكم. ولا آسف على شيء اشد مما آسف على جهل قومي بأن السلطان لا يستطيع حبسي لو اراده، وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم، ولذلك اسباب لا احب ذكرها الآن

قال المويلحي لأحد اصحابي هنا إنك وصاحب الرائد تصبان على العلماء أدلاء التقريع والتعنيف، وان ذلك قد يثير فتنة (في رأسه بالطبع) وانه يرى الصواب أن أكتب اليك لتكف عن ذلك، وأنت تعلم انني لم أر شيئاً مما كتبت ولا مما كتب غيرك، فان كانت شدة فخفف، وإن كان قد كذب القائل فدعه يهرف.

اكتب مقدمة أسرار البلاغة وانك الذي سعيت بطبعه وانك كتبت عليه ما كتبت في الهامش، واذكر انني قرأته وأصلحت ما في المطبوع من خطأ بقدر الامكان، وانه لا يوجد من خطأ غير مصلح إلا موضع أو موضعان ليسا من الاعتبار في شيء. وان شئت تركت هذا التنبيه الاخير. من رأيي أن لا ينشر الكتاب ولا ينتهي طبع الخطأ والصواب إلا بعد الفراغ من دراسته، أو على الاقل بعد الانتهاء من دراسة هذا العام في شعبان. اكتب المقدمة وابقها الى أن أحضر في آخر الشهر الآتي إن شاء الله(٢)

أنا أشتغل الآن ببعض ما كتب الافرنج على الاسلام وبما وقف عليه الافرنج من خط المسند، وما ظهر لهم في لغة سبأ وحمير. البرد شديد، والمطر لا ينقطع، وأحب أن ينتهي الرقيم، والسلام

محمد عبده

(١) كتب في المقطم يومئذ ان علماء مصر ساءهم حديث المفتي مع شيخ الاسلام لانه طعن فيهم، والذي نشر في المؤيد رداً عليه هو مقالة افتتاحية لي معزوة الى أحد العلماء وتنويه بها في الاخبار المحلية فذهل الاستاذ عن هذا عند الكتابة

(٢) لما حضر وقرأ مقدمتي لاسرار البلاغة أعجب بها ولم ينتقد كلمة منها

(اقول) كان المراد من الدسائس وسعاية الجواسيس وشرهم (المويلحي) أن يحبس الاستاذ الامام أو يهان ، وهم لايجهلون ان السفارة البريطانية كانت بالمرصاد ، وانها لاتسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه ، والسلطان ورجاله لايجهلون هذا أيضاً ، وكان لأحمد شفيق بك (هو صديقنا شفيق باشا) سعي حميد في المابين لتلافي هذا الشر ، وبعد أن سافر الاستاذ الامام أرسل اليه أحمد شفيق الكتاب الآتي مع ما كان أرسل اليه بعنوان الاستانة من طريق صاحب المؤيد ومنها كتابي الذي اجابني عنه الاستاذ بهذا الرقيم .

ويعلم من كتاب احمد شفيق باشا ما كان من مراقبة سفير الانكليز لما يحدث ـ ومن حرص رجال السلطان عبد الحميد على حفظ كرامة الاستاذ الامام ولاسيما رئيس كتابه (باشكاتب المابين) الذي كان عازما على حمل السلطان على الانعام على الاستاذ برتبة علمية عالية وهو مايعبرون عنه بالتلطيف . وهذا نصه :

سيدي الفاضل

ها أنا أرسل اليكم جملة جوابات سلمها إليّ حضرة الشيخ علي يوسف لتوصيلها اليكم بلغت القول أغاسي(١) السلام من طرفكم فسألني عما اذا كنتم توجهتم الى لوندره حيث كان بلغه ذلك فأكدت له ان هذا الخبر مكذوب بالمرة بعد توجهكم سألني الباشكاتب عنكم فقلت له انكم سافرتم الى أوربا ومنها ستتوجهون الى مصر، فأوراني سروره من عدم مساسكم بشيء ، وقال الحمد لله على أن تداركنم الأمر ، أما التلطيف فسيكون عند تشريف الجناب الخديوي عنـد مقابلة سموه أرجوكم عدم اطالة الثناء فيما قمت به من الواجبات التي يفرضها علي حبي لسيدي لانه لاحظ علي في بعض الاعمال التي أجريتها في مسئلتكم سفير انكلترا تأسف على عدم إمكانه مقابلتكم وكلفني أن أبلغكم ذلك ، ولما أفهمته المسئلة على وجه الاجمال تكدر ولكنه استصوب كل مافعلناه واني اهديكم وافر التحية والاكرام والسلام افندم

٢٠ أغسطس سنة ١٩٠١

أحمد شفيق

(١) لعله محافظ بشكطاش الذى يعنيه ملاحظة الاستاذ وكل ماله علاقة بالسلطان

عودة الاستاذ الامام

(من الاستانة وأوربة)

لما عاد الاستاذ الامام من سفره هذا لقي من حسن استقبال علماء هذه البلاد ووجهائها مالم يسبق له نظير عند عودته من أسفاره السابقة ، وهنيء بقصائد كثيرة وكان لذلك سببان (أحدهما) ان فضائله قد ذاعت في السنين الاخيرة بعد ترك منصب القضاء الذي كان شغلا شاغلا له عن كثير مما أتيح له بعد استبدال منصب الافتاء به ، مما تقدم شرحه (وثانيهما) ارادة تكذيب من خاضوا في دعوى استياء العلماء وغيرهم من حديثه مع شيخ الاسلام في الآستانة ، وقد أثبت شيئاً من خبر هذه الحفاوة في المنار ، وبعض الشعر الذي هنيء به على كراهتي لنشر مدائح الاشعار ، وقد وصل إلى الاسكندرية في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ ﻫ (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ م) وهاك مانشره المنار في الجزء الذي صدر بهذا التاريخ من المجلد الرابع (ص ٥٤٩)

(قدوم مفتي أفندي الديار المصرية وحفاوة المصريين به)

جاء الاستاذ الاسكندرية في الموعد الذي ذكرناه في الجزء الماضي فاستقبله في الباخرة علماؤها ووجهاؤها ، وجاء القاهرة في ناشئة ليلة الثلاثاء وكان في انتظاره على رصيف محطة السكة الحديدية الجماهير من العلماء وكبار الموظفين والقضاة والوجهاء وفي مقدمتهم أصحاب السعادة عبد الحليم باشا ناظر الاوقاف وبليغ باشا ناظر الدائرة السنية . وكانت كثرة عمائم الازهريين تستوقف الطرف ـ كما قال المقطم ـ وما أشرقت الشمس في اليوم التالي على عين شمس إلا وكانت مورد جماهير المهنئين من العلماء والوجهاء واستمر ورود الوفود بضعة أيام وكان من مسهلات الزيارة عليهم أن مصلحة السكة الحديدية زادت عدد القطارات التي بين القاهرة والمرج من يوم قدومه حتى لاتمر ساعة إلا ويسافر فيها قطاران أو ثلاثة . وجاء كثيرون من البلاد الاخرى إلى مصر لاجل زيارته . واكتفى كثيرون بارسال الرسائل البرقية وقليلون بالرسائل البريدية ، ولم يعهد مثل هذا الاحتفال والحفاوة

في مصر لعالم ولا لامير دون أمير البلاد الاعظم أيده الله تعالى وأيد به العلم وأهله

وقد تبرع السري الفاضل محمد بك أباظه بخمسة جنيهات لادارة المنار شكراً لله تعالى على قدوم الاستاذ وجعلها عادة مستمرة وهي قيمة الاشتراك بعشر نسخ توزعها الادارة على مستحقيها مجانا

وكتب العلامة إمام اللغة الشيخ محمد محمود الشنقيطي مهنئا له وأنشدها بحضرته:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

للجامع الازهر المعمور عاد على ... رغم الحسود فتى مصر ومفتيها
محمد الفحل عبده بدر هالته ... خيراته ديمة هطلاء يؤتيها
ميسر لفعال الخير قاطبة ... تأنيه طلابها تترى فيؤتيها
سفائن العلم في ذا الشرق لان غدت(١) ... أعلامها بيديه وهو نوتيها
لم يحسدن على ما الله خولهم ... من فضله الناس من نعمى يؤتيها
لن ينكث العهد ان ينكثه ناكثه ... بل عقدة العهد يحكيها ويحتيها
وتعلمون جميعاً ما علمت به ... من ذي المكارم ماضيها وآتيها
هلا نظمتم لكم عقدا مكارمه ... اجرتم خرس فرس حول بختيها

(وقال أيضا يخاطب الامام المفتي)

أيا من قد نأى عنا وغابا ... وبعد قضائه الحاجات آبا
تغنينا بشعر الصدق لما ... عزمت إلى أباطحك الايابا
«وكأس بالاباطح من صديق ... يراه لو أصبت هو المصابا
ومسرور بأوبتنا اليه ... وآخر لا يحب لنا إيابا»

وقال أيضا هذا اليتيم:

إلى عين شمس عدت ياشمس عصرنا ... ويا رجل الدنيا ومفتي مصرنا

وحلتي هذه سبيلها سبيل حلة عائشة بنت طلحة رضي الله تعالى عنها غير أن هذا الشعر شعري وذلكم شعر قيس بن الحدادية

(١) لان لغة في الآن

وشرح ذلك ان أم عمران عائشة بنت طلحة أنشدت عينية قيس بن الحدادية الخزاعي الجاهلي فاستحسنتها وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت: من قدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه، فلم يقدر احد منهم على ذلك اه

وكتبه محمد محمود لخمس خلت من جمادى سنة ١٣١٩

وهنأه بالقدوم الكاتب الشاعر السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بقصيدة قال

سار يباري النجم في جده ... وعاد كالسيف إلى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلى ... فجد وارتاح إلى سهده
لا يبصر الخطب جليلا ولا ... تلوي به الاهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى ... يحار صرف الدهر في رده
كالسيف يجلوه القراع ولا ... يأخذ ضرب الهام من حده
من لا يرى المجد سبيلا له ... لا يأسف المجد على فقده
فضجعة الراقد في بيته ... كضجعة الميت في لحده
كان لمصر بعد توديعه ... صبابة الصادي إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما ... ترجو من النعمة في عوده
وافتر عنه ثغرها مثلما ... يفتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة ... كأنما عثمان في برده
ما فيه من عيب سوى انه ... يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة ... أسبغها الله على عبده

«ومن قصيدة للاستاذ الشيخ سيد علي المرصفي مدرس الادب في الازهر»

هذا هو العلم لا علم بمحفظة ... محدودة من جلود الشاء والغنم
جوفاء معتلّة في جوفها ورم ... تشكو لخالقها من علة الورم

« ومن قصيدة الفاضل الشيخ مصطفى حسين مشيط المنفلوطي الازهري »

ان الزمان إذا اعتدى بصروفه — لم يبق حبلا في الهوى موصولا
كم ذا يروعني بكل ملمة — لا تترك الصبر الجميل جميلا
لولا اعتصامي بالامام محمد — كهف الورى لم أبلغ المأمولا

ومنها

شيدت أركان الشريعة بعد ما — لعبت بها أيدي البلاء طويلا
وشهرت للدين الحنيفي سيفه — بيد الثبات وكان قبل كليلا

ومن قصيدة للشاب اللوذعي مصطفى صادق افندي الرافعي الكاتب بمحكمة شبين الكوم

والصبح ميمون الطليعة قادم — مثل (الامام) بطلعة زهراء
يجلو الظلام كما تجلى هديه — فأضاء كل سريرة ظلماء
تزهو السماء بشمسها و (محمد) — في الارض شمس الملة السمحاء

حديثه عن الآستانة

وعدني الاستاذ في كتابه المنشور آنفا بان يحدثني عند اللقاء بما يمكن التعبير عنه من حال الآستانة وقد فعل ، ولم يكن من الحكمة نشر حديثه ولا كتابه في ذلك الوقت . وأهم ماأذكره من حديثه أنه لم ير بيئة في العالم ولم يكن يعقل وجود بيئة كالآستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب ، وان ذهنه كان هنالك ممسوحا كأنه لم ينقش فيه شيء من العلوم والآراء . وبهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها وتوطين أنفسهم على كل مايمكن أن يلقاه الانسان من ضروب البلاء والمحن

وسأذكر رأيه في الدولة والسلطان والخلافة والترك والعرب العثمانيين في المقصد الآتي إن شاءالله تعالى

أسفاره الى أوربة ومقاصده منها

قد بينا مقاصده من أسفاره إلى أوربة وبعض أعماله فيها (بعد عمله السياسي الكبير مع أستاذه السيد جمال الدين الافغاني) في مواضع أهمها ما نقلناه عنه مما كتبه في سياق تعلمه للغة الفرنسية (ص ١٠٤) ثم مانقلناه عنه في مقدمة هذا المقصد، ومنها ما ذكرناه في المجلد الرابع في أثناء سفره إلى الاستانة وهو ما أخذناه من مكتوباته كالرقيم الذي أرسله الينا بعد خروجه من الاستانة الى سويسرة وزدنا عليه بحثه في خزائن الكتب العامة في الاستانة والخاصه كالمكتبتين الملكيتين في فينا وبرلين وقد عثر في الثانية على آثار عربية مهمة منها ما يرتقي تاريخه إلى عهد الصحابة ، ومنها مانشرناه في صفحه ٤٨٦ من مجلد المنار السادس وذلك في أثناء سفره الاخير الى انكلترة وهذا نصه :

يسافر اكثر أمراء المصريين وكبار الموظفين منهم كل عام إلى أوربا مصطافين فيقضون أشهر الصيف هناك في لهو ولعب وتمتع باللذات، وخيرهم من يسافر لغرض صحيح كترويض جسمه بالاستحمام في الحمامات المعدنية وصعود الجبال، او لاختبار يفيده في صناعته التي بها قوام منافعه الشخصية ، ولم نسمع عن أحد منهم انه سافر لاختبار حال التربية والتعليم في تلك البلاد — التي أجمع علماؤها وعقلاؤها على انهم ماسادوا الامم إلا بالتربية والتعليم — والاستفادة من ذلك لتكميل نفسه والاستعانة على نفع قومه إلا الشيخ محمداً عبده مفتي الديار المصرية فانه قد سافر من قبل غير مرة لتعلم أفصح لغات القوم (الفرنسية) فتعلمها وأحسنها ووقف بها على أهم معارفهم التي تعينه على ترقية أمته [1] وقد ولى وجهه في هذه السنة شطر المدارس الكلية التي يتخرج فيها كبار الرجال ليختبر شؤونها ، حتى اذا حقق الله تعالى له رجاءه بايجاد مدرسة جامعة في هذه البلاد يكون على بصيرة في كيفية تأسيسها ونظامها كما يرشد اليه قوله تعالى (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب

(١) وكان يحضر دروس آداب لغتها في مدرسة جنيف الكلية التي تعقدها في الصيف للسائحين كما تقدم في موضعه

يعقلون بها او آذان يسمعون بها) - الآية - وكما قال الشاعر :

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفادا

وقد سبق له رؤية المدارس الفرنسية العالية وكان في بعض أسفاره قد أخذ إذنا من ناظر معارف فرنسة بان يزور أي معهد من معاهد العلم في أي وقت شاء (١)

ولما كانت التربية ونظام التعليم في البلاد الانكليزية مفضلين عند علماء هذا الشأن من الفرنسيين على مثلهما في سائر الممالك الاوربية سافر في هذه السنة لزيارة أعظم مدارس هذه الدولة العظيمة وأعظمها كلية اكسفورد وكلية كمبردج

وقد ذكرت جرائد لوندرة هذه الزيارة وما كان من احتفال رجال العلم في المدرستين واجلالهما للاستاذ وأثنت الجرائد عليه بما هو أهله من العلم الواسع والعقل الكبير ، والهمة العالية . وذكرت غير ذلك من تقلبه في البلاد كزيارته للفيلسوف سبنسر أعظم فلاسفة أوربا الاجتماعيين ، ونزوله ضيفا كريماً على المستر ويلفرد بلنت في قصر (كرايت بارك) . وقالت ان المستر كوكرنل قد صحب فضيلته في زيارة مدرسة اكسفورد ، وان الاستاذ بويل المؤلف الشهير كان دليلا له لانه من معلمي التاريخ في تلك المدرسة ، وقالت انه لما زار مدرسة كمبردج خرج لاستقباله في المحطة طائفة من أساتذتها ، وان المستر ادوار براون، قد دعاه فيها إلى طعام الغداء ودعا لاجله طائفة من الاساتذة وبعض المستشرقين (٢) وكبار المستخدمين ، وانه تناول طعام العشاء في قاعة المدرسة الكبرى. وذكرت تفصيل الزيارة بما لاحاجة إلى بيانه هنا وقد لخصته الجرائد اليومية المصرية وذكرت ثناء الجرائد الانكليزية على معارف الاستاذ الواسعة

وقد كتب الدكتور ادوارد براون أستاذ اللغتين العربية والفارسية في كلية

---

(١) وكان في اسفاره الاولى اليها يعنى بعلم الحقوق واصول القوانين الفرنسية التي تستمد منها القوانين المصرية حتى انه كان يختار لنفسه مدة وجوده في باريس حوذيا يحمل شهادة (الليسانسيه) في الحقوق فكان يذاكره في هذا العلم في حال تنزهه في ضواحي باريس «٢» وقد ساله هؤلاء العلماء عن بعض ما أشكل عليهم في بعض الكتب العربيه فكان يجيبهم بداهة بما يقنعهم ويزيل اشكالهم

كمبردج رسالة إلى جريدة المؤيد ذكر فيها خبر الزيارة بنحو التفصيل الذي جاء في الجرائد الانكليزية ومما جاء في رسالته قوله كما في العدد ٤٠٤٢ من المؤيد :

« ولقد كان كل من في المدرسة فرحا مسروراً بزيارة هذا الرجل العالم العظيم . وأعجب بعلمه وفضله وسمو آرائه جميع العلماء والعظماء ، وتمنوا لو أقام بينهم زمناً طويلا . وفي اعتقادي ان فضيلة المفتي قد شرف الشرق وعلماءه في هذه الديار » اه

فالحمد لله الذي جعل فينا من نفتخر به أمام كبار رجال العلم في أوربا الذين يرون الشرق وأهله في ظلمات من الجهل لا يبصرون

وقد ذكرت الجرائد الانكليزية ان المفتي سافر من انكلترا قاصداً فرنسا ليسافر منها إلى تونس والجزائر . وهذا ما كنا علمناه من هنا قبل سفره وقد كان عازما على ان ينتهي إلى بلاد اسبانيا (الاندلس) حيث كانت تلك الدولة العربية التي أفاضت العلوم على أوربا فانتقم منها التعصب فأفناها عن آخرها ، ولا ندري هل بقي من زمن اجازته ما يكفي لذلك أو يعود من تونس إلى بلاده التي ظمئت لمعارفه ؟ كان الله له وأيده بروحه حيث كان ، ومد في أجله حتى يرتقي بهذه الامة إلى أعلى ما في عالم الامكان .

زيارته للفيلسوف غوستاف لوبون

وانني بمناسبة ما ذكرت في هذه النبذة من اجتماعه بكبار الحكماء والعلماء في أوربة أقول انه في سفره الاخير إلى فرنسة ذهب إلى دار الفيلسوف الاجتماعي الشهير (غوستاف لوبون) للتعرف به والشكر له على تأليف كتابه (حضارة العرب) فلم يجده لانه كان مصطافا في الارياف ، فترك له في داره بطاقة الزيارة . فلما عاد الفيلسوف ورأى البطاقة أسف لما فاته من لقاء أكبر علماء الاسلام وأرسل اليه كتابا يؤذنه بذلك ويشكر له تفضله بزيارته

اجتماعه بالفيلسوف سبنسر

قلنا انه في سفره الاخير الى انكلترة سنة ١٩٠٣ زار هذا الفيلسوف ، وكان ذلك في ١٠ أغسطس وكان الفيلسوف مصطافا في (برايتون) من جنوب انكلترة وقد نهاه الاطباء عن كثرة مقابلة الناس وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الاستاذ الامام ودعاه الى الغداء معه وأطال الحديث معه في فلسفة الدين والاخلاق والافكار المادية وسياسة أوربة وانني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف (ف) المقتطفة من فيلسوف ، وإلى شيخنا بحرف (م) المقتطفة من كلمة امام

(ف) هل زرت انكلترة قبل هذه المرة؟ (م) نعم زرتها منذ عشرين سنة

(ف) كيف وجدت الفرق بين الانكليز اليوم والانكليز منذ عشرين سنة؟

(م) انني زرت هذه البلاد في المرة الاولى لغرض سياسي خاص وهو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقمت أياما قليلة لم يتعد عملي فيها ما جئت لاجله ، وقد ألممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس ... وانما يجب ان آخذ عنكم ذلك

(ف) ان الانكليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

(م) فيم هذه القهقرى وما سببها؟

(ف) يرجعون القهقرى في الاخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الافكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت الينا عدواها ، فهي تفسد أخلاق قومنا ، وهكذا سائر شعوب أوربة

(م) الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الافكار المادية

(ف) انه لا أمل لي في ذلك لان هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مده غاية حده في أوربة . ان الحق عند اهل أوربة الآن للقوة

(م) هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها

(ف) مُحيِّ الحق من عقول أهل أوربة بالمرة وسترى الامم يختبط بعضها ببعض (ولعله ذكر الحرب) ليتبين أيها الاقوى ليسود العالم - أو فيكون سلطان العالم

ثم انتقل الكلام إلى الفلسفة الالهية

(ف) مايقول علماء الاسلام في الخالق (عز وجل) هل هو داخل العالم أو خارجه؟

(م) ان علماء الاثر يقولون ان الله تعالى فوق كل شيء بائن من العالم، والمتكلمين يقولون: انه لا داخل العالم ولا خارجه. والصوفية القائلين بوحدة الوجود - يقولون ان كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده، وذكر له خلاصة مذهبهم

هذا ملخص ماذكره لنا الاستاذ الامام، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ما أجاب به الفيلسوف عن عقائد فرق المسلمين في الخالق عز وجل لانه معروف في محله، ولكنني رأيت في مذكرة جيب له خلاصة حديثه مع سبنسر بأخصر مما ذكره لنا مشافهة وكتب عقبه مانصه كما نقلته عنها في المجلد الثامن عشر الذي طبع في زمن الحرب الكبرى فلم يكن من الممكن ذكر ماقاله فيلسوف الانكليز الحر في فساد أخلاقهم وفي زوال الحق من عقول أهل أوربة والخطر عليها من سلطان الافكار المادية، وهذا نص ما كتبه في المذكرة (ص ٧٥١ م ١٨)

« ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف «الحق للقوة» الخ؟ جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكراً، لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك الا اشمئزازاً وغثيانا «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الانسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته (أعجزهم) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على الانسان حتى يعرفها فيعود إليها، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم ان يجلوا ذلك الصدأ الذي غشي الفطرة الانسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني؟ حار الفيلسوف في حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع إلى الدين الخ الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى اربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » اه

وقد تقدم فيما كتبه الي الاستاذ بعد خروجه من الاستانة إلى أوربة أنه يشتغل « ببعض ما كتبه الافرنج على الاسلام وبما وقفوا عليه من خط المسند وما ظهر لهم في لغة سبأ وحمير » فاما اشتغاله بما كتبوا على الاسلام مدحاً او ذما فكان ذلك دأبه في جميع اسفاره ، وأما خط المسند فقد بدأ بدرسه في تلك السنة في سويسرة على اهل الاخصاء فيه كالدكتور هيس وغيره وعندي كتاب فيه بخطه رسم فيه حروف المسند ومايقابلها من خطنا المعروف وتركيب الكلام وتفسيره ، وغرضه منه ان يقرأ بنفسه ماوقفوا عليه في بلاد اليمن وما يرجى ان يُعثر عليه من آثار مدنية سبأ وعاد في تلك البلاد مهد الحضارة العربية الاولى

سفره الى تونس والجزائر وصقلية

كان الاستاذ الامام رحمه الله قد أخبرنا عند إرادته السفر الى أوربة في صيف سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م انه ينوي السفر منها الى تونس والجزائر للوقوف على أحوال المسلمين في هذين القطرين وآثار الاسلام فيهما ، وأن يجعل ذلك مقدمة وتمهيداً لزيارة المغرب الاقصى لمثل هذا الغرض إن امكن

وأذكر بهذه المناسبة ان بعض وزراء مولاي عبد العزيز سلطان المغرب كتبوا إليَّ قبل الحماية الفرنسية أن اختار لهم رجلا مصلحاً جامعاً بين العلوم الشرعية ومعرفة السياسة والادارة ليستعينوا به على اقناع السلطان باصلاح البلاد الذي يدعوهم اليه المنار المرة بعد المرة ، فأطلعت شيخنا على ذلك فجنحت نفسه للذهاب بنفسه ولكنه ايقن ان الاوربيين عامة والانكليز والفرنسيس خاصة يحسبون لذهابه واقامته هنالك كل حساب ، ويحولون دونه بما استطاعوا من الاسباب ، وجماعة السلطان يطلبون أن يكون ما اقترحوه عليَّ سراً لا يشعر به احد ، وقد اخترت يومئذ السيد عبد الحميد الزهراوي فلم يتيسر ارساله

كتمت عزم شيخنا على زيارة تونس والجزائر لئلا يبادر الاشرار إلى بث الدسائس لمنع فرنسة إياه من دخول البلاد أو للحيلولة دون مايريدون منها بعد دخولها كما فعلوا في سفره الى الاستانة ، حتى اذا ماذكر الخبر في الجرائد الاوربية

نقلته عنها وذكرت اننا كنا نتوقعه كما تقدم آنفا . ولكن لم يكد يعرف ذلك حتى بادر أولئك الاشرار إلى ما كان ينتظر منهم كما بينته في (ص٥٣٠ من مجلد المنار السادس الذي صدر في ١٥ رجب سنة ١٣٢١ه ٢٢ ايلول سنة ١٩٠٣م وهذا نصه :

﴿ سعاية خائبة ﴾

لما علم بعض الاشرار بالطبع ان الاستاذ الامام يقصد في صيف هذا العام زيارة بلاد الجزائر وبلاد تونس افترصوا ذلك فكتبوا في السعاية به الى حكومة الجزائر رسالتين إحداهما أرسلت من مصر والاخرى من الاسكندرية باسم الحاكم الفرنسي العام وفيهما مافيهما من قول الزور والاغراء بالامام بزعم انه لايقصد بالسفر الى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة ونبذ طاعتها وانه قادر على ذلك ... كما كتبوا بمثل ذلك الى الاستانة عند ماتوجه الى زيارتها منذ عامين

كتبوا هذا لاعتقادهم ان الحكومة الفرنسية هناك حكومة خرقاء تأخذ بالشبهة ، وتنتقم من البرىء لادنى وهم يوسوس به شيطان من شياطين الانس ، أو يهجس به في الخاطر عفريت من الجن ، ولظنهم ان الحكومة الفرنسية تجهل قدر الاستاذ الامام ومقامه الديني ، ولكن الحكومه الفرنسية فوق أوهامهم واحلامهم ، فقد بلغنا انها قد تلقت الرجل العظيم بالحفاوة والاجلال اللائقين بشخصه وبمقامه الديني والعلمي ، كما تلقاه في انكلترة كبراء الانكليز وعلماؤهم . فسر بهذه المعاملة الحسنة لاشهر أئمة المسلمين في هذا العصر مسلمو الجزائر ورأوا ذلك دليلا على حسن قصد حكومتهم وحسن سياستها

فليعتبر فضلاء المصريين بهؤلاء الابالسة الذين يعز عليهم ان يوجد في الامة رجل جليل عالي القدر محترم المقام حتى إنهم يبذلون جهدهم في تنميق الكذب ليحملوا الاجانب على اهانة ساداتهم وأئمة الدين الذين ينتسبون إليه وإن كان يتبرأ منهم . ولو شاء الفضلاء الانتقام الادبي من هؤلاء الاشرار لفعلوا ولكنهم لا يتفقون . اه

سافر الاستاذ إلى تونس والجزائر فكان له من الحفاوة والتكريم عند علماء

المسلمين وكبرائهم مايليق به ، ولم ير من الحكومة الفرنسية شيئاً يسوءه بل قابله رجالها في القطرين بالاجلال والاحترام ، على مابثوه حوله من الجواسيس السريين في كل مكان ، وهو لم يكن يجهل هذا ولا كان يخشى منه لانه كان يعرف مقام نفسه ومكانته التي تضطر الحكومة الفرنسية إلى إجلاله ، ولم يكن له أدنى غرض سياسي من زيارته وراء ارشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم والطريقة المثلى لاحيائه واحياء لغته مع البعد عن السياسة التي قال فيها «مادخلت السياسة عملا إلا أفسدته» فسيرها مثلا

وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلماء والعقلاء الذين يقدرون الاصلاح قدره ومن خيارهم في الجزائر الشيخ محمد بن الخوجه صاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية .(وقد نشرنا في (ص ٩١٧ من مجلد المنار السادس تقريظ الاول منهما لتفسير سورة العصر ، وعشرين بيتا من قصيدة طويلة للثاني في مدح الاستاذ الامام ، وسننشرهما مع غيرهما في ذيل هذا التاريخ إن شاء الله تعالى) وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما مغتبطين بالمنار ولاسيما دروس العقائد التي ينشرها تحت عنوان (أمالي دينية) وقد عهد اليه هؤلاء الفضلاء أن يوصي صاحب المنار بان لا يذكر في مجلته دولة فرنسة بما يسوءها لئلا تمنع المنار من الجزائر ، وقالوا له : إننا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا . وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينياً ينتمي اليه من حيث لم يكن يعلموا انما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار ، كما صرح بذلك كاتب في جريدة الطان (١)

وألقى في تونس ذلك الدرس الحافل العظيم الشأن في (العلم والتعليم) وقد نشرناه في المجلد السادس من المنار . كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر -(وتقدم الكلام عليه في ذكر مؤلفاته) وقد طبعنا هذا وذاك في كتيب صغير يوضع في الجيب ولا يزال الناس يستفيدون منه ونزل في تونس ضيفا بدار خليل أبو حاجب زوج الاميرة نازلي وهو كبير الوزراء اليوم وكان أحرارها ولاسيما الشبان يودون لو نزل في أكبر الفنادق لتكون حريتهم بالاستفادة منه أوسع . وقد عرض عليها أخذ الاذن له بزيارة سمو الباي ، فقال هل يمكنني أن أخلو به وأتكلم معه بالحرية؟

(١) نقلت هذا جريدة الاهرام وذكرنا موضوعه في ص ٧٤١ من مجلد المنار الحادي عشر

قيل لا ، بل لا بد من حضور أحد حاشيته من الفرنسيين . قال إذاً لا حاجة إلى زيارته

وقد نشرت في صفحة ٦٠٨ من مجلد المنار السادس سيرة الاستاذ في الجزائر وتونس ونصائحه الحكيمة للمسلمين فيها وهذا نصه :

نصيحة الاستاذ الامام لاهل الجزائر وتونس

من يعرف الاستاذ الامام يعرف أن كل حديثه في جميع أوقاته نصح وتعليم، فمجالسه ومسايره يستفيد علما وحكمة في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، ولذلك نعتقد أن الذين عرفوه واجتمعوا به في رحلته الاخيرة إلى الجزائر وتونس قد سمعوا منه نصائح لاتحصى ولـكن النصيحة العامة الشاملة التي كان يشافه بها أهل العلم والدراية في القطرين هي :

(١) الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة التي أرشد اليها في الخطاب الذي ألقاه في تونس . (٢) الجد في الـكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة . (٣) مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة . وبهـذا الاخير يتم لهم كل مايريدون من مساعدة الحكومة الفرنسية لهم على ماقبله ، فان الحـكومات في جميع الارض يضيقون على البلاد التي يستعمرونها مادامو يعتقدون ان أهلها ساخطون عليهم أو لهم ضلع مع حكومة أخرى . وهذا الاعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه ضاراً بهم من القوانين والمعاملات، فاذا لم تكشف ظلامتهم بعد الالتجاء اليها في كشفها كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر

والمشهور عند العارفين بالسياسة العامة ان فرنسا تبحث دائما عن طريقة يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم وتطمئن هي لرضاهم عنها ، ولا شك ان هذه الطريقة تنفع الحاكم والمحكومين وعدم السير فيها يضر بالمحكوم(١) أكثر مما يضر

(١) كلمة المحكوم والمحكومين بمعنى رعية الحاكم الذي تولى الحكم فيهم كلمة عرفية ، ويصح أن تكون مجازا من قول العرب : حكم الفرس بمعنى وضع لها حكمة (بالتحريك) اللجام التي يملك بها امرها ويمنع جماحها

بالحاكم . ونحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة هي حسن المعاملة من فرنسا واعراض الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم الذي ينير العقول ، والعمل الذي يشغل عن الفضول ، وقد ذكرنا في الجزء الماضي ان الاستاذ الامام انس من الحكومة الفرنسية هناك الميل إلى هذه المعاملة وأنس من أهالي الجزائر الرجاء الحسن بحاكمهم الجديد (موسيوجونار) وقد ذكرنا في جزء سابق ان الموسيو (روا) يميل في تونس إلى هذا المذهب. حقق الله الرجاء وأصلح الاحوال بمنه وكرمه؛ وسأبين تحقيق القول في مسألة الاشتغال بالسياسة في الكلام على آرائه من المقصد الآتي

﴿ المامه بصقلية ، وما كتبه عن عاصمتها ـ بلرم ﴾

أتيح للاستاذ الامام أن يجعل عودته من تونس والجزائر عن طريق ايطالية فعرج في طريقه على جزيرة صقلية وشاهد مافي عاصمتها (بلرم) من آثار العرب ، وكتب في ذلك رحلة نشرتها في المنار ثم في الجزء الثاني من هذا التاريخ (منشآت الاستاذ الامام- من ص٤٧٣-٥٠٤ من الطبعة الثانية) وصف فيها قصر الملك روجار وكنيسته في بلرم : والكنيسة الكبرى والاديار وكنيسة موديالي . وبين في هذا الوصف ما كان من تساهل العرب وتساءل أين هم الآن ؟

وعقد فصلا للمكتبة العمومية ودار المحفوظات وما فيها من آثار العرب. وبين حاجة السائح إلى معرفة اللغات الاجنبية وان الانكليزية أعم نفعاً في أوربة ووصف الصقليين ورثاثتهم ووساختهم ، ومابينهم وبين الطبقات الفقيرة من المصريين من الشبه

ووصف دور الآثار وبساتين النبات والمقبرة ، وبين بمناسبة مافيها من الصور والتماثيل فائدتها وحكمها في الشرع . وختمها بالكلام على أمير وأميرة من خيار الاسرة العلوية بمصر نزلا في الباخرة التي عاد فيها من مسيني (أو مسينا) قاصدين الاسكندرية ، فاثنى على آدابهما الاسلامية

وقلم الاستاذ في هذه الرحلة أدبي فكاهي ، وتمنينا لو كتب مثل هذه الرحلة عن تونس والجزائر وغيرهما من البلاد ، يمزج فيها الفوائد العلمية، والحكم الاجتماعية، والعبر التاريخية ، بالفكاهات الادبية

الاستاذ الامام — عودته

من أوربة وتونس والجزائر

جاء في ص٥٦٧ من مجلد المنار السادس ١٦ رجب ١٣٢١ — ١٧ أكتوبر ١٩٠٣

عاد الاستاذ من سياحته في أوربة وتونس والجزائر فتلقاه في محطة القاهرة الجماهير من العلماء والوجهاء وهي حفاوة داعيتها المحبة والاجلال . ولم تعهد لغيره في هذه الديار ، وقد أثنى على حفاوة أهل الجزائر وتونس وحكومتيهما به ، وقال انه رأى روحا جديداً في العلماء ، وتوجها جديداً من فرنسة للمسلمين ، وانه يرجو بذلك للبلادين حياة علمية سعيدة ، ونهضة إسلامية قريبة ، فيأتلف الحاكم والمحكوم ، ويوجه العلم إلى المعلوم ، وسننشر فوائد رحلته فيما بعد

التهاني الشعرية بالعودة من هذه الرحلة

لما قدم الاستاذ الامام من سياحته في هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والادباء في الازهر وغيره ونشر بعضها المؤيد واخترت منها للمنار يومئذ ماعللت اختياره بقولي في (ص ٦٠٧ م٦) « ونذكر هذه الابيات للشاب الذي زاحم في بدايته أهل النهاية، تنشيطا له على العناية بالادب، وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرازق: قال

اقبل عليك تحية وسلام	يا ساهرا ، والمسلمون نيام
تطوي البلاد وحيث جئت لأمة	نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر أنى سار يشرق نوره	والحق أنى حل فهو إمام
إن يقدروا في الغرب علمك قدره	فلمصرُ أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما	يلهي الصغار وجدّت الايام
لا زلت غيظا للضلال وأهله	والله يرضى عنك والاسلام

سفره الى السودان

كانت حكومة السودان تعتمد على الاستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما رئيسهم (قاضي القضاة) فيختار لها خير رجال الشرع علماً وأخلاقا وادارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب الفضيلة الاستاذين الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي (ومن حسن المصادفة ان هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضي القضاة في السودان كانوا على أتم المودة والصداقة، ولبعضهم وشيجة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل، وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون الكلية من مريديه كالشيخ محمد الخضري والشيخ عبدالوهاب النجار وغيرهم من خواص الاساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الاصلاح .

ومن المعقول ان هذا الامام الذي كان ينوي ان يزور جميع الاقطار الاسلامية لا يغفل زيارة قطر السودان شقيق مصر الذي يعمل بآرائه الاصلاحية فيه بغير معارضة.
وكان من قدر الله تعالى أن توجهت نفسه الى ذلك في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ فأخبر برغبته هذه حاكم السودان العام وهو سردار الجيش المصري في أوائل يناير سنة ١٩٠٥ فجاءه الجواب الآتي من وكيل حكومة السودان بمصر في ١١ يناير

فضيلتلو أفندم مفتي الديار المصرية

نبدي لفضيلتكم ان سعادة افندم السردار أظهر ارتياحه التام من رغبتكم لزيارة السودان وعليه فمرسل طيه الاستمارة اللازمة للسفر بموجبها مجانا من الشلال إلى الخرطوم ببوسطة يوم الاحد المقبل الموافق ١٥ الجاري كما قررتم ، وطيه أيضاً الاستمارة اللازمة للعودة من الخرطوم إلى الشلال مجانا ، واقبلوا وافر الاحترام

مدير المخابرات بمصر

(الامضاء بالانكليزية)

ولما علم كبار رجال حكومة السودان من الانكليز والمصريين بعزم فضيلته على السفر جاءته برقيات الترحيب ودعوة الضيافة من كثير منهم نذكر ما حفظناه منها بالترتيب وهو :

(الاول) من السكرتير القضائي وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ يناير سنة ١٩٠٥

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

سرني انكم قادمون للسودان فهل لكم بقبول دعوتي لتكونوا نزيلي مدة اقامتكم بالخرطوم

سكرتير قضائي

(الثاني) من قاضي القضاة وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ يناير سنة ١٩٠٥ — فضيلتلو مفتي الديار المصرية

بغاية السرور تلقينا نبأ تشريفكم نحن ومنازلنا في خدمتكم

محمد هارون

(الثالث) من الشيخ اسماعيل خليل والشيخ عبد الوهاب النجار

الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥ — فضيلة المفتي بمصر

عمنا السرور لتشريف مولانا فان تفضل فنحن ومنازلنا له

(الرابع) من جماعة الموظفين المصريين وكان رأيهم ان ينزل بدار خاصة به لاضيفاً على أحد وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥ — فضيلة المفتي بمصر

سنهيء منزلا خاصا بكم وبمعيتكم فهل تتفضلون بالقبول

أولادكم

ولما كان جناب السكرتير القضائي قد سبق إلى الدعوة إلى منزله أرسل اليه الاستاذ الامام برقية بقبول دعوته فأرسل البرقية الآتية إلى سماحته عند وصول القطار المقل له إلى حلفا وهذا نصه :

من الخرطوم ١٠ — ١ — سنة ١٩٠٥

سماحة مفتي الديار المصرية ـ بالاكسبريس ـ حلفا

سرني قبولكم دعوتي. سأستقبلكم بالحلفاية يوم وصولكم صباحا. سكرتير قضائي

وبعد وصوله إلى الخرطوم جاءته برقيات ومكتوبات من الوجهاء والموظفين في أم درمان وشندي وغيرهما بالدعوة إلى زيارة بلادهم أذكر منها كتاب سعادة الزبير باشا العباسي الشهير لمكانة مرسله وطرافة عبارته وهذا نصه :

﴿ كتاب الزبير باشا الى الأستاذ الامام ﴾

من الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء الكرام ، وزين الاكرمين الفخام ، عزيز الاصل ، وشريف الحس والنسل ، جناب حضرة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية والاقاليم السودانية . دام معززاً مكرما آمين .

بعد تقديم السلام ، المشتمل على الايادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع وزيادة احترام ، مع سؤالي القلبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الامور الخيرية، التي نرجو دوامها عليكم بكرة وعشية ، انه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير.

ثم أحيط شريف علمكم وهو انه قد بلغ مسامعي حلول أقدامكم الشريفة ، بعاصمة بلادي السودانية بالخرطوم ، ولما بيني وبينكم من المحبة والمودة الخالصة والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن أنت ضيفا لي خاصة دون أشراف السودان كلها ، وقد كنت قبـل قيامكم من المحروسة فرحا مسروراً بقدومكم وتشريف بلادي بها مستعداً لتشريفي بمقابلة ذاتكم مع أول كرام النـاس المستعدين لمقابلتكم . ولكن ياأسفا وياأسفا قدمنعني مامنع قبل ابرة (ابرهة) الحبشي عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفي بمقابلتكم ، بسبب ماحدث لي من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، أنتظر العفو من الله عز وجل ،

وأرجو من كرمكم المشهور قبول ماتضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصي مع أسفي وعدم مرادي ، كما وان الامور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجري على حسب خواطر العباد .

وأهنيكم وثم أهنيكم وأهني اشراف بلادي كلها من علمائها الكرام وأشراف قبائلها بقدوم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، وأهني نفسي غاية ونهاية ملحوقا بهم ، أعادكم الله تعالى إلى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين، فرحين مسرورين ، من علمائنا جميعاً ، وأهالينا آمين .

وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام — كاتبه

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥ — الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي

﴿ وصف سيرة الاستاذ الامام في زيارته للسودان ﴾

إنني عند ما شرعت في جمع مواد هذا التاريخ كلفت صديقي الاستاذ الفاضل المؤرخ الشيخ عبد الوهاب النجار أن يكتب إليَّ خلاصة سيرة الاستاذ رحمه الله تعالى منذ وصوله الى الخرطوم إلى عودته منها إلى القاهرة لانه شاهد ذلك عيانا فكتب إلي ما يأتي بنصه :

﴿ وصف اقامته في السودان ﴾

قام الامام رحمه الله من مصر متوجهاً إلى السودان في الساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٠٥، وفي اليوم الثامن عشر كان في انتظاره بحلفا صاحب الفضيلة القاضي الشرعي ورجال الضبطية فيها وغيرهم، فاستقبلوه استقبالا فائق الوصف ، وزار المدرسة واختبر تلامذتها وتفقد نظامها، حتى أتى ميعاد قيام القطار فركبه فوافى الخرطوم البحرية في منتصف ليلة الجمعة الموافق ٢٠ يناير ، و كان النظام في تلك الايام يقضي بنوم الركاب في العربات ، فلم يزل بعربة الوابور إلى الصباح ما أصبح صبح يوم الجمعة ٢٠ يناير حتى كان الناس ينسلون من كل حدب مسرعين إلى المعدية التي تجيز بين الخرطوم والخرطوم البحرية ، وبعضهم كان أعد الزوارق لقطع النهر الازرق قبل قيام المعدية وكانت الحكومة قد أعدت السفينة البخارية الخاصة بصاحب السعادة الحاكم العام لتذهب بسكرتير قضائي السودان المستر بونهام كارتر، وصاحب السعادة اللواء السير سلاتين باشا المفتش العام بالسودان، وصاحب السماحة قاضي القضاة الشيخ محمد هارون، وأصحاب الفضيلة الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان، والشيخ محمد عمر البنا المفتش بالمحاكم الشرعية، والسيد علي المرغني عين اعيان السودان ، لاستقبال الاستاذ الامام من قبل الحكومة ، فوصلوا إلى محطة الخرطوم البحرية الساعة السابعة والنصف وكانت المحطة غاصة بمن سبقهم من الجماهير، فرحبوا بالاستاذ واستقبلوه استقبالا حسنا، وحياهم أحسن تحية ، ثم طلبوا إليه أن يوافي الباخرة ليجوز الى الخرطوم ، فسار جدراً يحتف به الوقار وتتقدمه الهيبة ، إلى أن وصل الى الفلك ، فاستوى ومن

معه عليه ، وجميعهم منشرح الصـدر ، بادي المسرة ، جرت بهم السفينة الى العدوة اليسرى للنيل الازرق ، وكان في انتظاره مأمور المدينة الصاغ محمد غالب افندي (بك الآن) وغيره من المصريين المقيمين بالخرطوم وغيرهم ، وحين نزل الاستاذ ومن معه الى البر وأخذ في السير الى المنزل المعد لنزوله ، قدم له صاحب المنزل سكرتير قضائي السودان جواداً مطهما بيده ليركبه الى المنزل فشكر له هـذه الحفاوة ، وأظهر له الرغبة في السير على قدميه إلى المنزل

وحين وصل الاستاذ الى باب المنزل وقف للتسليم على الجموع المحيطة به وشكرهم ، وأراد قاضي القضاة الانصراف معهم فأخذ المستر (بونهام كارتر) السكرتير القضائي بيده وأدخله مع الاستاذ الى المنزل ، وقال له أنت تعلم مايلزم للاستاذ من المعدات والادوات والامكنة ، فأرجوك الاطلاع على مارتبته له ، وطلب ماتزيده عليه . فوجده قدهيأ له مكاناخاصاً به للنوم وآخر للوضوء والاغتسال ، وثالثا لتناول طعام الافطار . كل ذلك في الدور الأعلى ، وقاعة فسيحة في الدور الاسفل لاستقبال من يريد استقباله من الناس ، وكل ذلك تام الاثاث والرياش

واحتراما لمقام الاستاذ ولعلمه بما هو عليه من التقوى كان يتركه يتناول طعام الافطار وحده ، وكان المضيف لا يحضر خمراً ولا آنيتها على مائدة يأكل عليها الاستاذ . وهذا كان دأبه ودأب جميع من دعوه من الانكليز وغيرهم لتناول الطعام . مثل صاحب السعادة الحاكم العام واللواء سلاطين باشا ، والميرالاي منسي بك السكرتير الملكي والميرالاي استانتون بك (باشا) مدير الخرطوم ، والقائمقام إمري مساعد المفتش العام .

وكان الحاكم العام مسافراً قبل مجيء الاستاذ . ولما علمت اللادي ونجت بقدوم الاستاذ الامام طلبت إليه أن يحضر في المساء إلى سراى الحاكم العـام ليتناول معها الشاي . فأقام بمنزل قاضي القضـاة عقب خروجه من صلاة الجمعة بالمسجد الجامع والنـاس ترد من كل أوب للسلام عليه والاستفادة من محادثته والاصغاء الى كلماته التي هي درر الحكم تتشظى عنها اصدافها امامهم ، الى أن حل ميعاد ذهابه الى سراي الحاكم العام .

كان صاحب السعادة اللواء سلاطين باشا عرض على الاستاذ الامام ساعة استقباله وهو على ظهر الباخرة انه يرافقه في اليوم التالي إلى أم درمان (١) يشاهد آثار المهدية كقبة المهدي وبيت الخليفة وبيوت اخوته وأسرته وبيت الامانة ومسجد الخليفة وغير ذلك ، فتقبل الاستاذ منه ذلك بالشكر والامتنان

وذهب طيب الله ثراه إلى أم درمان صبح يوم السبت ٢١ يناير سنة ١٩٠٥ يرافقه سعادة اللواء سلاطين باشا وقاضي القضاة ، وكان في انتظارهم صاحب الفضيلة مفتي السودان، والشيخ محمد البدوي من العلماء . وبعد ما شاهد تلك الامكنة زار محكمة أم درمان الشرعية فسرّ مما رأى ، وقصد مدرسة أم درمان واختبر التلاميذ ورأى من التقدم وحسن النظام والتعليم مالم يكن ليظنه في بلاد السودان . ثم عاد إلى الخرطوم

زيارته للمدرسة الكلية واختباره لطلبتها

وفي يوم الاحد زار مدرسة غردون الكلية ومعه صاحب السماحة قاضي القضاة وصاحب الفضيلة قاضي المديرية الشرعي و كان يختبر طلبة قسم المعلمين والقضاة اختبار مدقق في كل علم من العلوم التي يتلقونها ، فرأى من ذكائهم وكثرة ماحصلوه من العلوم على حداثة عهد المدرسة وقلة مايكون قدحذقه الطلبة من المعلومات حين دخولهم فيها ماأنعش أمله فيها،فان الطالب الذي يتم دراستها وإن لم يكن كالذي يتم الدراسة بقسم المعلمين الناصرية إلا أن الاول يدخل خالياً من المعلومات في حين أن الثاني يدخل حافظا للقرآن والالفية ويؤدى امتحانا في عدة علوم لا يمكن أن يضارعه السوداني في الحصول عليها ولو أفنى أكثر أيام عمره ، ولو دخل السوداني المدرسة حاصلا على درجة المصرى في قسم المعلمين لسبق المصري عند انتهاء الطلب

وفي يوم الاثنين عاد إلى الكلية وأتم اختبار تلامذة القسم الابتدائي وشاهد الورشة التابعة للكلية التي يتعلم فيها أبناء الاهالي الصناعات المختلفة كالنجارة

(١) كانت صفة العرض هل يحب الاستاذ المفتي ان يأخذني مترجماً له بام درمان لأطلعه على آثار الخليفة والدراويش؟

والحدادة والبرادة ، وصب المعادن والنقش وغير ذلك ، وبعد التفتيش طلب أنموذج التعليم بقسم القضاة وصرح بأنه يريد أن يهذبه حتى يكون بحال تناسب الطلبة الذين كان يرجو ادخالهم في مدرسة القضاء الشرعي بمصر . وبالجملة فقد سر بمعارف السودان سرور الاب المشفق بابنه النجيب ، وأثنى على ناظر المدرسة ومدرسيها بما هم أهله أطيب الثناء

ومما يذكر بمناسبة زيارة مولانا الاستاذ رحمه الله أن المستر كرى مدير معارف السودان قال عقب زيارة الاستاذ الامام الكلية: إن كثيراً من موظفي المعارف في مصر وغيرهم ممن زاروا المدرسة قد أثنوا عليها ، وقد أثنى عليها فضيلة المفتي فأنا الآن مقتنع بأنها كما وصفها سائرة في طريق نجاح باهر

﴿ زيارته لدواوين الحكومة وتفتيشه لمحكمة عموم السودان ومحكمة الخرطوم الشرعيتين ﴾

وقد زار الاستاذ في الايام التالية لزيارة كلية غردون دواوين الحكومة وأفرد كلا من محكمة عموم السودان الشرعية ومحكمة مديرية الخرطوم الشرعية بيوم فتش فيه أعمالها وسير القضايا فيها ، وراجع كثيراً من الاحكام التي نظرت فيها محكمة العموم بصفة استئنافية أو بصفة تمييز ، وقد سر من جميع ما رآه في المحكمتين سرور الغارس بباكورة جنى غرسه

اقبال الجماهير لزيارته والاستفادة منه

وقد كان قاضي قضاة السودان وقاضي الخرطوم يخلوان بالاستاذ في عدة أوقات وكل منهما يطرح بين يديه ما يراه من المشاكل في الاحكام والاجراءات والامور التي تجلب على الناس المشاق اذا جرى فيها الحكم على مذهب الحنفية فيشير إلى كل منهما بحل ما أشكل عليه ، ويبين مأخذ ما أشار به من مذهب مالك أو غيره من الائمة جزاهم الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين أفضل جزاء

وقد كان الناس من مصريين وغيرهم يتقاطرون على الاستاذ رحمه الله من كل صوب أينما كان في الاوقات التي كان يفرغ فيها عادة من التفتيش أو من زيارة معاهد العلوم ، وكانت أوقات الاجتماع عامرة بمذكراته لهم في الدين وتهذيب

النفس وتكميلها بالاخلاق الكريمة ، وشحذ الهمم وحثها على فعل الخير بما عهد منه من الاساليب التي تأخذ بالالباب ، وتستهوي الافئدة ، وقد كان المسلمون والمسيحيون في ملازمته والاستفادة من حكمه سواء .

وبمناسبة ذكر المسيحيين نذكر أن المسيحيين الذين بالخرطوم أوفدوا وفداً من خيرتهم ينوب عنهم بالسلام على الاستاذ الامام والترحيب به ، فأحسن وفادتهم وشكر ما أبدوه من الحفاوة به ، حتى خرجوا وألسنتهم لاهجة بالثناء عليه وهم إلى الآن يذكرون له حسن اللقاء ، ولين الجانب ولطف المعاشرة ، ولم يكونوا بأقل من المسلمين حزنا عليه حين نعيه طيب الله ثراه .

﴿ حادثة جرت أثناء وجوده بالخرطوم ﴾

(بشأن زيارته لنادي الموظفين المصريين)

وذلك أن المستخدمين المصريين (مسلمين ومسيحيين) افتتحوا ناديا سموه « نادى المستخدمين المصريين » ليكون مجتمعاً لهم يستغنون به عن قهاوى الاروام ، ولما حضر الاستاذ الامام دعاه جماعة من أهل النادى أن يزور ناديهم ويشرب الشاى معهم ، فوعدهم ، فأسرَّ اليه أحد الصادقين في محبته ان هذا النادى يحتسي بعض أهله الخمر فيه ، فحاول الامام أن يصرف أهل النادى عن التشديد في الكون معهم في ناديهم بالتي هي أحسن ، فزاد تمسكهم به ، ورأوا في انصراف الاستاذ عن طلبهم كسراً لخاطرهم ، وأحسوا بمن أطلع الاستاذ على ما كان سبباً في رغبته عن إجابة طلبهم ، فمدوا اليه ألسنتهم بالسوء ، وأخذت رءوس الشقاق تبدو من مكامنها ، فذهب إلى الاستاذ واحد من المخلصين له [1] وأخبره أن أهل النادى قد اشتد غيظهم على من كان سبباً في تخلف الاستاذ عن ناديهم [2] وأن عاقبة ذلك شقاق وعداوة لا تحمد مغبتها ، ورجاه في أن يتلافى الامر بلطيف حكمته ، فما كان جواب الاستاذ إلا أن أخذ يسأله عن شؤونه في عمله الذى يقوم به في السودان وعن مقدار النجاح فيه وأحواله مع الرؤساء ، ولم يجبه عما هو بصدده بسلب ولا إيجاب

(١) عبد الوهاب النجار (٢) المرحوم الشيخ محمد هارون قاضي قضاه السودان

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الاربعاء ٢٥) يناير أشرقت طلعة الاستاذ في نادي المصريين وكان مزيناً بالاعلام وسعف النخل والازهار، وجلس الاستاذ في قاعة أعدت له ولجماعة من المصريين وأخذ أهـل النادى مجالسهم في قاعات أخرى وبعد تناول الشاى قام حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد الخضرى وقال خطبة وجيزة هي آية من آيات البلاغة شكر للاستاذ فيها تشريفه للنادى وجبره لخاطر أهله، ثم تلاه حضرة الفاضل الشيخ عبد الرؤف سلام المدرس بالكلية وتلا قصيدة غراء في مدحه وتبعهما غيرهما

ثم قام الاستاذ الامام فأثنى على جميعهم لما لقيه من الحفاوة به وخطب فيهم خطبة بليغة حبذ فيها قيامهم بانشاء هذا النادي إذ كان لاجتماعهم فائدة من وجوه وأخذ يعدد فوائد الاجتماع في الاندية عند الامم الراقية، ثم صرح بأنه وصل الى علمه ان بعض اهل النادي يشربون الخمر، وطفق يشرح مضار الخمر وكيف ان العقلاء من أهل أوربا اخذوا يحرمونها على أنفسهم، وان لم يحرمها عليهم كتابهم، وان الضرر منها في السودان وهو قطر حار أشد منه في غيره — وانه لا وجه لمن يحتج لوجود الخمر في النادى بأنه يجمع المسلم والمسيحي وثانيهما يبيحها دينه، فانه لا فائدة في الاجتماع اذا لم ينزل أحد من أهله عن بعض مشتهياته ابتغاء مرضاة أخيه، ثم قال على انه بلغني ان المسيحيين من اهل النادى يتحاشون المجيء فيه لما يألمون له من سكر بعض اخوانهم المسلمين. ثم ختم كلامه بالدعاء لهم بالخير وطلب اليهم أن يحققوا أمله فيهم بأن لا توجد الخمر في ناديهم — فعاهدوا الله جميعاً على أن لا تدخل ناديهم خمر، وانهم لا يدخلون النادى اذا استمر وجود الخمر فيه وانفض الجمع على ذلك.

ولكنهم لم يوفوا بالعهد إلا مدة اقامة الاستاذ بالسودان ثم عادوا لما نهوا عنه، تولى الله بلطفه هداهم

(ضيافة الضباط له في ميسهم وحفاوتهم به في ناديهم)

وفي مساء يوم الخميس ٢٦ يناير كان الاستاذ رحمه الله مدعواً لتناول العشاء بميس(١) الاورطة السابعة هو وجماعة من خاصة تلاميذه وأحبابه ، فوافى ثكنة الاورطة بعد غروب الشمس وكانت مزدانة بالاعلام وموسيقي الاورطة تصدح بانغامها المطربة طول بقائه ، وكان في انتظاره صاحب العزة قومندانها مرسي بك فهمى والعدد الكثير من الضباط الكبار والضباط الصغار في الاورطة .

وبعد تناول العشاء قام هذا الجمع المحتشد في ثكنة الاورطة والشيخ في وسطهم ممتط جواداً مطهما (٢) وكلهم ركبانا ماعدا الجنود الذين كانوا يسيرون امام هذا الموكب الحافل حاملين الاضواء حيث كان الوقت "سابعة والنصف مساء ويمم جميعهم نادى الضباط المصريين (٣) وكانوا قد أعدوا حفلة عظيمة إكراما لمولانا الاستاذ احتشد فيها جميع الضباط الموجودين بقسم الخرطوم بين ضباط كرام ، وضباط عظام ، وضباط صغار وهم بملابسهم العسكرية جميعاً ، وقد رجوا صاحب العطوفة حسين فخرى باشا ناظر المعارف والاشغال المصرية أن يشرف النادى في تلك الليلة لمصادفة وجوده بالخرطوم ، وبعد تشريف الامام النادى جاء صاحب العطوفة فخرى باشا وجلس مع الاستاذ يحادثه في أمور السودان وما رأياه من تقدم المدارس والعمران في هذه المدة اليسيرة

ثم دعي الاستاذ الامام وفخرى باشا وجماعة من خاصة الاستاذ والضباط الكرام والعظام لتناول الشاى في قاعة فسيحة على مائدة أعدت لذلك ، وبعد تناول

---

(١) الميس كلمة انجليزية يعبر بها عن اشتراك جماعة في المعيشة يأكلون ويشربون جميعا ولكل أورطة في الجيش المصري ميس ينتظم الضباط الذين لا يصطحبون أزواجهم

(٢) لم يركب رحمه الله من المطايا في السودان سوى الجياد الكريمة

(٣) هذا النادي بناء فخم من أبنية الحكومة على الضفة اليسرى للنيل الازرق قائم في وسط حديقة جميلة ، قد افتتح تحت رياسة الجناب العالى الخديو حين زار الخرطوم سنة ١٩٠٢ ومن الاصول المقررة أن يكون رئيسه أقدم ضابط بقسم الخرطوم

الشاى هم صاحب العطوفة فخرى باشا بالانصراف وانطلق البكباشى محمود افندى (باشا) عزمي اركان حرب الحملة المائية يخطب خطبة وجيزة افتتحها بالترحيب بالاستاذ الامام وفخرى باشا وشكرهما على تلبية دعوة الضباط المصريين وتشريفهما ناديهم وختمها بالدعوات لمولانا الخديوي المعظم والحاكم العـام . فرد عليه صاحب العطوفة الناظر بخطبة هي غاية في الايجاز بعبارة سهلة بطريقة شكر فيها الضباط المصريين على الحفاوة به وتمنى أن يدوم ارتقاء السودان بحسن اجتهادهم ، والتفات الحاكم العام السير رجنالد ونجت باشا، فصفق له الحاضرون وانصرف من النادي يشيعه أحد الضباط العظام

وأراد الاستاذ الامام أن يتلو فخري بالانصراف فاستوقفه الجمع ورجوه أن يروي غلتهم بكلمات يسمعونها منه ، فأثنى على هؤلاء الضباط بما هم أهله فمن المعاني التي فاه بها في ذلك المقام ماأرويه لك بالمعنى وهو :

خطابه للضباط ونصحه لهم

كنا نسمع عنكم في وقت الحرب ماجعلنا نسميكم شياطين الحرب ، وقد شاهدت الآن من أعمالكم الجليلة وآثار العمران التي تمت بايديكم في السودان مايسوغ لي أن أسميكم ملائكة السلام ، لايشك مطلع على هذا الرقي الذي أراه في السودان في أن العامل منكم يقوم من العمل في السودان بما لايقوم به أربعة في مصر ، ولو قيـل لي هذا الـكلام وأنا في مصر ماصدقت ، لقد قمتم أيها الضباط بالاعمال التي عهدت اليكم في السودان أحسن قيام ، وإن ماشاهدته من آثار المدنية التي تمت بايديكم ليجعلني مع شدة ميلي إلى النظام والدستور أتمنى أن تكون الحكومة المصرية حكومة عسكرية لينالها من التقدم على أيديكم مانالة السودان

ثم حثهم على الاجتماع والائتلاف ، وأنه يود أن يكون هذا النادي ناديا للضباط حقيقيا يجتمعون فيه لاسترشاد بعضهم ببعض في المشكلات واستفادة بعضهم من تجارب الآخرين، وأن لايكون نصيبه الهجران وقعودهم على قهاوي الاروام. وختم كلامه بالدعاء لهم وتوفيقهم للسداد ، وكانوا يصفقون له عند انتهاء الجمل تصفيقا طويلا متكرراً

ثم انتقل هذا الجمع إلى البهو الكبير وجلس الاستاذ يحادثهم إلى منتصف الليل ، كل هذا والموسيقى تصدح بالانغام اللطيفة إلى أن خرج هذا الحفل ، وأما النادي وحديقته فكانا مزدانين بزينة أبهى وأسنى من زينة حديقة الازبكية في ليالي الحفلات

صلاة الجمعة في أم درمان

صلى الاستاذ صلاة الجمعة ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ في المسجد الجامع بام درمان ومعه قاضي القضاة وقاضي المديرية ومفتي السودان، وعدد من مدرسي الكلية وغيرهم ، وقد بادر كل من بالمسجد عقب الصلاة لتقبيل يد الاستاذ وأيدي من معه إكراما له وكان الزحام شديداً حتى لقد آذى الزحام على التقبيل أيدي بعض من يرافقه

وفي عصر ذلك اليوم ركب الاستاذ ومن كانوا يرافقونه باخرة من بواخر الحملة المائية كان استأجرها حضرة نسيب افندي فلبيدس باشكاتب مكتب سكرتير قضائي السودان وأبقاها تحت تصرف الاستاذ ذلك اليوم ، فسارت بهم الباخرة إلى قرب كرري موضع الوقعة الفاصلة بين الجيش المصري والدراويش ثم وصلت بهم الى أم درمان ليلا قبل العشاء

رأى الاستاذ في ذلك اليوم مسجد أم درمان بحالة حملته على أن يتبرع بمبلغ عشرة جنيهات لتكون أساساً لعمل اكتتاب لجمع مقدار من المال يبنى به ذلك المسجد أو يصلح به جزء من مسجد الخليفة ، وأعطى ذلك المبلغ لصاحب السماحة قاضي قضاة السودان ، نسأل الله أن يبعث الهمم لتعميم الاكتتاب وتحقيق ما كان يقصده الامام

وعلى ذكر مسجد أم درمان جرنا تداعي المعاني الى انه رحمه الله قد وعد أن يسعى لدى ديوان الاوقاف بمصر ليقرر مبلغا لا يقل عن أربعمائة جنيه لاعادة بناء جامع الخرطوم القديم الذي خربه الدراويش وتركوا جدره مهدمة، فهل من مسلم يقوم عنه هذا المقام المحمود ، ويحوز الاجر من الله والثناء من الناس (انما يعمر

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

وزار الاستاذ الامام رحمه الله مدرسة البنات التي تديرها الراهبات ويشرف عليها قس يسمى القس جون وهو الذى دعاه لزيارتها واحتفل بمقدمه أيما احتفال. وبعد خروجه من المدرسة سأل عن مدرسة للبنات المسلمات فقيل له انه لاملجأ لهن ولا مناص من التعليم في هذه المدرسة فعقد النية على أن يسعى بأي وسيلة يجدها لانشاء مدرسة اسلامية لتعليم البنات المسلمات في الخرطوم ولكن عاجله المنون قبل أن يحقق تلك الآمال

اغتباط البلاد بايام اقامته فيها واستفادتها منه

كانت أيام إقامة الاستاذ بالخرطوم عند أهلها وأهل أم درمان أعياداً ومواسم وكانت البيوت التي يكون فيها كأنها الكعبة لاتخلو من طائف ، والعلماء والادباء يوافونه من كل فج وناحية ، هـذا سائل وذاك مسترشد والآخر مستبصر في كتاب الله أو سنة نبيه أو عقيدة من العقائد أو علم من العلوم

وربما حمل اليه الرجل عدة أسفار يعرض عليه ما أشكل عليه فهمه منها فكان يميط اللثـام عن كل معضلة ، ويذلل صعاب المشكلات بفكرته الوقادة ، وكان يحث الناس على فعل الخير مع أهله وغير أهله ، وجرت لذلك مناقشات طويلة في غير مجلس بينه وبين محبيه وأصدقائه من أفاضل الادباء وقد أربى في رأيه هذا على أبي العلاء في قوله :

كن صاحب الخـير تنويه وتفعله   مع الانام على أن لا يدينوكا

وكان يقول : يجب على الانسان أن يفعل الخير على انه خير على كل حال سواء صنع مع أهله أو غير أهله * لايذهب العرف بين الله والناس *

وبالجملة فقد كان في السودان مثال الخير وموضع عناية العامة والخاصة. وقد كان صاحب السعادة الحاكم العام يعني به عناية العارف بقدره، الذي يقدر مساعدته للبلاد السودانية قدرها ، وكان يسأله عن ملاحظته على الكلية والمحاكم الشرعيـة

فاذا أخبره بشيء قيده في مذكرته ليجري الامر على مقتضاه في الوقت المناسب من ذلك أن قانون الحكومة السودانية يقضي أن انتقال الموظف الذي راتبه أقل من خمسة وعشرين جنيها في الشهر يكون بالدرجة الثانية لا يستثنى غير قاضي القضاة والمفتي والمفتش ، فشكا ذلك إلى الاستاذ الامام قاضي مديرية الخرطوم، فعرض الاستاذ الامر على الحاكم العام وطلب إليه أن يكون نزول قضاة المديريات بالدرجة الاولى أسوة بقضاة مصر الشرعيين، فتقبل طلبه بقبول حسن، ووعد بأن يتم ذلك عند عودته من سفره الى كسلا فمصر وقد تم ذلك في أواخر شهر مايو سنة ١٩٠٥

ولما جاء يوم الثلاثاء ٣١ يناير سنة ١٩٠٥ وهو موعد عودته إلى مصر دعي لتناول الطعام ظهراً مع الحاكم العام ومعه قاضي القضاة ومفتي السودان ،وقد أعدت الباخرة لتجيزه ومن معه الى الخرطوم البحرية، وكان يرافقه قاضي القضاة والمفتي والمفتش وقاضي المديرية وكل من كانت عنده فرصة لوداعه من مدرسي الكلية كالشيخ محمد الخضري وكاتب هذه السطور (عبد الوهاب النجار) وكثير من علماء السودان واهل الوجاهة، وسافر القطار من الخرطوم البحرية وفيه الاستاذ مشيعاً بالدعوات تحف به القلوب ميمما مصر وهو ممتلىء فرحا وسروراً بما شاهد من نماء غرسه رحمه الله رحمة واسعة وجازاه أفضل ما جازى عاملا مخلصاً لدينه ووطنه .

﴿ استدراك على الكاتب ﴾

فات أخانا الاستاذ الكاتب أن يذكر دعوة أكبر اشراف السودان وأشهرهم للاستاذ الامام وهو السيد علي المرغني لنعلم صفتها وفائدتها، وهذا نص كتاب الدعوة:

الخرطوم في ٢٤ يناير

سماحة الاستاذ الامام

غب ازكى السلام والاحترام، أسعد الباري أوقاتكم بالمسرات ،نرجو التشريف بمنزلنا يوم الخميس في الساعة ٧ ونصف لتناول العشاء

وتقبلوا مزيد الممنونية والاحترام علي ميرغني

المقصد السادس

من الفصل السابع

آراؤه وآماله وامانيه

آراء الناس قد تختلف باختلاف الاحوال والازمنة والامكنة والاشخاص الذين يلقى اليهم الرأي او يناط بهم العمل، فرب رأي ينفع امرءاً ويضر آخر لاختلاف الفهم او الميل او الاستعداد للعمل، ومن كلام علي كرم الله وجهه: عند البخاري حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله. ومن كلام ابن مسعود (رض) في مقدمة صحيح مسلم: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وقد نقلت فيما سبق عن الاستاذ الامام انه كان من طبعه في حديثه ودروسه العلمية والدينية أن يتكلم بقدر مايشعر به من استعداد السامع، بخلاف السيد جمال الدين، فانه كان يلقي الحكمة والآراء السياسية لكل أحد ويؤثر في نفسه، ولذلك اختلف الناقلون لبعض آرائه بين النفي والاثبات، وكان المسيح عليه السلام يكثر من ضرب الامثال، وقال انه لا يستطيع أن يقول لقومه كل شيء، وانه سيأتي بعده الذي يبين لهم كل شيء، وهو البارقليط روح الحق (عليه الصلاة والسلام)

وقد سمعت في أثناء صحبتي الطويلة القصيرة لاستاذنا قدس الله روحه آراء كثيرة في جميع ما كان يدور بيننا من الموضوعات، وعلمت منه انه لا يفضي بكل مافي نفسه بدون احتراس الا لبعض الافراد، ولكن كان يقول لي في بعض آرائه هذا لا يكتب او لا يقال لكل أحد. (وأول مرة ذكر لي هذا عند بيان رأيه في الشيعة وكان ذلك سنة ١٣١٥ قبل صدور المنار)

كتمت بعض آرائه وكتبت بعضا، وحدثت ببعض ما كتمت من علمت انهم ينتفعون به ومن آرائه ما نقل عنه في حياته او بعد وفاته صحيحا، وما نقل محرفا محريفا، ومنها ما اختلف الناقلون له في فهمه او تأويله بالتبع لاختلاف مشاربهم او نياتهم وانني أنبه قارىء هذا التاريخ لمسألة مهمة وهي أن بعض آرائه الدينية والسياسية

والاجتماعية مبنية على مذهبه في الاصلاح ، فلا يفهم مراده منها حق الفهم إلا من عرف مذهبه هذا حق المعرفة ، وقد ذكرنا مذهبه هذا فيما نقلناه من كلامه في أول ترجمته لنفسه (ص ١١و١٢) وسنبينه بالتفصيل في المقصد الثامن من هذا الفصل ، ورأيه المشهور في السياسة مبني عليه ،وقد تقدم نقله عنه في مواضع آخرها نصيحته لمسلمي تونس والجزائر من هذا الفصل ، وهو مجمل يحتاج إلى البيان فأبدأ ببيان اجماله وكونه فرعا من فروع مذهبه في الاصلاح

رأيه في السياسة

من حكمه المأثورة التي سيرها مثلا قوله «مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته» ومن أقواله المشهورة فيها « فإن شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم او الدين ، فانا معك من الشاهدين ،أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم ويتعلم أو يجن او يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس» اهمن (كتاب الاسلام والنصرانية ص ١١١ من الطبعة الرابعة)

وغرضه من ذم السياسة ومن نهي العاملين من المسلمين لاحياء العلم والدين عنها ، وارشادهم أن يكونوا في عملهم بمعزل عن تأييدها او مقاومتها ، هو ان السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة ، سواء أكان حكامها وساستها من أهلها ، ام من الاجانب المتغلبين عليها ، فتأييد سياستهم بالعلم والدين افسادلهما ، ومقاومتها بهما عرضة لمنع اقامتهما ، والتنكيل باهلهما ، فالطريقة المثلى اجتنابها ، ومداراة أهلها ، واقناعهم بكل وسائل الاقناع الممكنة بان الاصلاح العلمي او الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ، ونافع لهم او غير ضار بهم ، وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل ، فان استطاع بهذه المسالمة والمحاسنة أن يجد مساعدة من الحكام بشرط ترك الحرية له في العمل فذلك أفضل وأكمل ، كما فعل السيد احمد خان ثم الشيخ شبلي النعماني في الهند ، والاستاذ الامام بمداراة الانكليز في مصر ، ومن وسائله التي اتخذها لذلك عقب رجوعه من منفاه ، لائحة

نظام التربية بمصر التي قدمها إلى السر افلن بارنج (لورد كرومر) وهي ما نشرناه في الجزء الثاني (المنشآت - ص٥٣٣ طبعة ثانية) فكان تأثيرها عنده سلبيا لا ايجابيا

وكان مراد الاستاذ منها التوسل ليكون معلما في مدرسة دار العلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرجى لقبول الاصلاح من مجاوري الازهر، وقد طلب ذلك فعارض الخديو توفيق باشا فيه، ولم يساعده الانكليز عليه. وكان طلب من الدولة العثمانية أن تقوم بهذا الاصلاح في بلادها وبسط الحاجة اليه في لائحة وقعها هو وبعض وجهاء بيروت إذ كان مقيما فيها وأرسلها إلى شيخ الاسلام في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ (راجع ٥٠٥- ٥٢٢ من المنشآت ج ٢) ومن ذا الذي يقرأ اللوائح او يفهم مايقرأ، او يبالي أن يعمل بما يفهم؟

يقول محبو السياسة او المشتغلون بها ان هذه المسالمة للسياسة والمداراة لرجالها اقرار ضمني للاستبداد ومساعدة سلبية عليه، ويقال لهم ان هذا لا يمنع غير هؤلاء المشغولين عن السياسة بعمل آخر نافع للامة أن يعملوا هم لها من طريق السياسة، فتقسيم الاعمال الكبيرة وتوزيعها شرط من شروط اتقانها والنجاح فيها. واما الاستاذ الامام فانه كان يرى ان استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة الامة وجمع كلمتها، وان الطريق المستقيم الموصل إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها على الوجه الذي يراه هو وسنشرحه في بيان مذهبه في الاصلاح قريبا، ولولا هذه المداراة لما أمكن له أن يعيش في مصر، فاذا لم يخرجه الانكليز منها لسعة حرية لورد كرومر فلا شك في ان الخديو كان يخرجه ويخرجني منها كما أخرج أبوه السيد جمال الدين، وقد تقدم مايثبت هذا - وحسبك انه قاومه في كل اصلاح حاوله، ولم يقاومه الاجانب في شيء، وهم لا يجهلون ان نجاحه فيما يحاول من الاصلاح وبال على نفوذهم في مصر بل في العالم الاسلامي كله

وانني أذكر هنا ما كتبه محمد حافظ بك ابراهيم في كتابه الادبي (سطيح) من رأي الاستاذ وتلاميذه ومريديه في السياسة، واقفي عليه باول ما سمعته منه في ذلك، وانقل الاول عن (ص٨٤٥ من مجلد المنار العاشر) والثاني من مذكراتي التي لم ينشر منها إلا القليل. وهذا نص الاول:

كلمة شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ ابراهيم في سياسته

(بين سطيح وأحد تلاميذ الاستاذ الامام)

سطيح ـ أين أنت من القوم ؟

التلميذ ـ من أولئك الذين نقموا الرضى على العهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحكمين ، عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة البريطانية ، ففي أولهما فاضت المظالم وغاضت الاموال ، وفي ثانيهما أخصبت الارض ،وأجدبت الرجال ـ

سطيح ـ وهل أنت في خفض من العيش ؟ ـ التلميذ ـ لا أشكو بحمد الله عسراً ، ولا أرجو يسرا ، وانما أتفيأ ظل هذا البيت العربي، لذلك الشاعر الأبي،

مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة حظ لعمرك لم يحمق ولم يكس

قال ـ وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلة الحلم ؟ قل حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام ، الاستاذ الامام ، طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه

قال ـ اني لأرى رأيا حصيفا ، وأسمع قولا شريفا ، فمن أي تلاميذه تكون وقد سمعنا انهم فريقان ـ فريق قد اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ؟ قل ـ لا علم لي بما تقول . وقد كنت ألصق الناس بالامام، أغشى داره، وأرد أنهاره، وألتقط ثماره ،فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله، ولكن كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته، ويتنقل بنا بين مناطق الافهام ، ومنازل الاحلام ، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق، وحكم الخالق، وكان ربما ساق الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ، فان كانوا يسمون تلاميذه احزابا ، ويقسمون تعاليمه أبوابا ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران

ولكنه كان يحتك بالسياسة مادعت الى ذلك الحال فيرصد حركاتها،ويصد غاراتها ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، وأن تقف عثرة في طريق الفضيلة، فلكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها، حتى اذا ظفر بطلبته ، وفاز

رغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، وورد عليه ماسلبت يد الاستبداد ، ولولا أنه كان يمادهم حبل الوداد ، ويجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لأصابه ماأصاب حكيم الافغان ، وقضي على أمة النيل بالحرمان

قضى النبي عليه الصلاة والسلام فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق ، فما غضت الردة من شرف النبوة ، ولا نالت من عصمة الرسالة ، ولبث الاسلام إسلاما - ومات الاستاذ الامام فصبأ بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولا مس من سيرة ذلك الامام . حافظ ابراهيم

أول ماسمعته منه في السياسة

أول كلام سمعته منه في هذه المسألة كان في زيارتي الاولى له في ضحى يوم الاحد ٢٤ رجب سنة ١٣١٥ وقد وصلت إلى القاهرة في مساء اليوم الذي قبله ، وقد تكلم معي في عشر مسائل : ستة منها خاصة باصلاح الازهر ، وقد ذكرتها في أول المقصد الثاني من الفصل السادس (٤٤٥)

وكانت السابعة والثامنة منها قوله (٧) انني أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة ، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء ، وعليه يبنى كل شيء (٨) ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلّم ونربّي من نختار من التلاميذ على مشربنا ... فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك اوطانهم والسير في الارض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار . فقال إنما أنت مثبط اه ملخصاً

ثم عدنا إلى هذا الحديث في يوم الجمعة (٢٠ رمضان سنة ١٣١٥) إذ ذهبت معه الى مأتم الامير عثمان باشا فاضل شقيق الاميرة نازلي هانم وكنا بداره في الناصرية وقد ذكر لي قبل الخروج منها شيئا عن حال هذه الاميرة وانها تعرفه وتجله وقد عنيت عقب عودته من سورية بعد انتهاء مدة النفي بالسعي لدى الخديو

توفيق باشا للعفو عنه وكلمت في ذلك لورد كرومر وهو كلم رياض باشا (وكان رئيس النظار) فوعده بذلك ولكن سبق صاحب الدولة أحمد مختار باشا فكلم سموه بذلك فأجابه وأصدر العفو عنه (فالفضل في هذا العفو كان لمختار باشا لا للورد كرومر الذي تبجح به بعد وفاة الاستاذ في كتابه مصر الحديثة)

الاميرة نازلي هانم والسياسة

قلت أسمع عن هذه الاميرة انها ذكية فاضلة سياسية . قال نعم : هي كذلك

قلت : لو استعملت هـذا الادراك في عمل مفيد لتهذيب النساء بتعليم البنات لأمكنها

قال : نعم ولكنها مولعة بالسياسة (كما قلت) فمن سوء حظ المسلمين ان كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره . فاشتغال هذه الاميرة بالسياسة كاشتغال السيد جمال الدين بها . هو رجل عالم وأعرف الناس بالاسلام وحالة المسلمين، وكان قادراً على النفع العظيم بالافادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداده هذا ...

وهـذه الاميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد في تهذيب البنات . فان من حولها من الاميرات ينفقن نفقات كبيرة إسرافا وتبذيرا ، ولو انها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من الاستانة أو سورية لكان خير عمل تعمله وما كن ليخالفنها. فاذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرسا أو بذراً تجنى ثمرته ولو بعد حين

قال: وطالما ذاكرتها بهذا المعنى وخطأتها في الاشتغال بالسياسة وكان يسوءها هذا مني لان النساء (ولا سيما الاميرات) يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن في آرائهن. وأنا لا أجاريها في احاديثها السياسية فتغضب . واذا حضر مجلسها غيري وتكلمت معه لاترضى أن أكون ساكتا فتحملني على المشاركة وأنا لا أحب أن اجاريها في شيء اعتقد خطأها به . وقد قلت لها يوما : إن سكت لاأرضيك وإن تكلمت لاارضيك (أي لاني أعارض) فكيف العمل ؟

(اقول : ثم حضرت معه ومع سعد باشا وغيرهما مجلسها بدارها ، وكانت برزة تضع على رأسها قناعا وتتكلم بطلاقة وتحتج)

ثم عدت معـه الى مشرب السيد جمال الدين

قلت : ان السيد جمال الدين رأى ان طريق التعليم والتربية بعيـد وان الاصلاح الاقرب يكون باصلاح الحاكم أو الحكومة

قال : لو انه تقرب من السلطان بمقدار تمكنه من حمله على اصلاح التربية والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم - بل مع مساعدتهم على أغراضهم الخسيسة - لكان حسناً ولقدر أن ينفذ ما آربه - مثلا - يحسن للسلطان ان يصدر إرادته بإصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس، ويقرن هذا السعي باعطاء أبي الهدى خمسمائة جنيه واعطاء نيشان لابنه أو لاخيه ، فاذا رآه أبو الهدى يخدمه فيما هو مهم عنده فاما أن يواتيه، وإما ان لا يناويه، وهلم جرا لـكنه تدخل في شؤون هؤلاء الفاسدي الطباع والاخلاق، وإصلاحهم من المستحيلات ، فأخفق مسعاه ، اهـ الحديث وقد نقلته كما كتبته في ذلك اليوم

كتاب الاستاذ الامام إلى السيد

أقول والشيء بالشيء يذكر ان الاستاذ الامام كان كتب الى السيد كتاباً عقب استقراره في الاستانة يدلي فيه بمثل هذا الرأي الذي ذكره لي من استحسان مداراة أعدائه الـكثيرين في الاصلاح ، واختار فيه اسلوب الكناية والتعريض، والرمي إلى الغرض من مكان بعيد ، لعدم ثقته بأمانة البريد ، ولاسيما المكتوبات التي ترسل إلى السيد جمال الدين ، ولم يضع امضاءه في آخره ، لان السيد يعرف خطه دون مراقبي البريد في الآستانة ، فغضب السيد غضباً شديداً ، وعاتب الاستاذ عتابا قاسياً ، بل تثريباً عاتياً، لتوهمه ان الذي حمل الاستاذ على ذلك الخوف على نفسه ، وفاته ان المرء في مصر لايخاف على نفسه إلا أن يكون من نفسه ، وانما حمله على الابهام ، التعمية على مراقبي البريد اللئام ، والاستاذ لا ينقص عنه في الشجاعة ، ولـكنه لايغلو فيها إلى طرف التهور

جواب السيد الهمام للاستاذ الامام

كتب اليه كتابا يقول فيه بعد الدعاء له بتثبيت الجأش، ويرميه فيه بالجزع والجبن : تكتب ولا تمضي وتعقد الالغاز ؟ من أعدائي ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ انك في آفق مكفهرة ، لايميز فيها الخبيث من الطيب، ولاالشريف من الزنيم ، ولا الافين من الكيس ، وامامك الموت ، ولا ينفعك الحذر من الاول ولو كنت حريصاً على مقامك ، ولا ينجيك الخوف من الثاني ، فلاتضيق على نفسك ، فكن فيلسوفا يرى العالم أعوبة ، ولا تكن صبياً هلوعا

الرسالة ماوصلت ، ولا بينت لنا موضوعها وجلا منك قوى الله قلبك . وأما تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس التي لها من قلبي المنزل الابهى ، والمقام الاسنى ، فلا أعلم من أمرها شيئاً لالها ولا عليها ولا سمعت »

(يعني بالبرنسيس الاميرة نازلي هانم وقد سأله الاستاذ عنها إذ كانت في الاستانة وكان السيد جمال الدين يريد أن يطلب لها من السلطان وسام الشفقة المرصع واستشار في ذلك بعض زائريه من المصريين فلم يعارض فيه إلا محمود بك سالم قال له : يامولاي السيد ان هذا يسوء افندينا الخديو لانه يراه من حقه)

وفي آخر الكتاب تعريض « بالنقيب ومحبه ، وكلبهما وجروه » وانه لايأسف إن كانوا من فلتات الطبيعة في خروجهم عليه ، وعلل ذلك بقوله « لان لي إذن في مصر من يصدع بالحق ، ويزيح الباطل ، ويدوس بجرموقه عرنين كل أفاك أثيم » اه الكلام، وما بعده إلا السلام، وهل كان له بمصر إلا الاستاذ الامام ؟

هذه الحدة وسرعة الغضب التي هي عيب السيد الكبير الاكبر، هي التي كانت سبب فشله في أعماله الكبرى كما قال وارث علومه وهمته وأفكاره وأكبر أنصاره الاستاذ الامام في ترجمته له في حال حياته لما وصفه بها « وكثيراً ما هدمت الحدة ما بنته الفطنة » وقد قلت فيهما من المقصورة الرشيدية :

واقتسما الاصلاح شقين

فذاك للسياسة التي قضى بها واما وطراً فما قضى

وليتها ودعت الشيخ كما ودعها إذ عاذ منها وقلا

رأيه في مشروع مستر بلنت

(في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال)

نشرت جريدة اللواء في أواخر سنة ١٣٢٥هـ و١٩٠٧م ترجمة كتابين أرسلهما الامام إلى صديقه مستر ولفرد بلنت جوابا عن أسئلة سأله عنها في الموضوع الذي نشرحه فيما يلي . وذكرت جريدة اللواء أنها نقلت هذين الكتابين عن (كتاب التاريخ السري للاحتلال) الذي ألفه بالانكليزية مستر بلنت هـذا ، ونقلهما المؤيد عن اللواء . ولكن هذا الكتاب ترجم أخيراً باللغة العربية ولم نجد فيـه ذكراً لهذين الكتابين ولا لموضوعهما . وقد كثر اللغط فيهما عند نشر الجريدتين لهما ، ورجع الناس إلي يسألونني فيما اختلف فيه الكاتبون والمتكلمون في ذلك ، فنشرتهما وبينت رأيي فيهما في الجزء الحادي عشر من المجلد العاشر من المنار (ص ٨٣٤) وهذا نصه:

كتابان سياسيان

﴿ للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

(أو مطالب مصر «الادارية» من انكلترا)

المستر بلنت الانكليزي المستشرق الشهير كتاب سماه (التاريخ السري للاحتلال) جاء في الطبعة الثانية منه ترجمة كتابين أرسلهما اليه صديقه الاستاذ الامام جوابا عن أسئلة سأله عنها ، وقد ترجمتهما جريدة اللواء عن الانكليزية إلى العربية ، ونقلهما عنها المؤيد . وهذا نص مانشرته الجريدتان :

سأل المستر (ولفرد سكاون بلنت) المرحوم المفتي رأيه في الحال السياسية الجديدة التي نشـأت في مصر عن إبرام الاتفاق الودي عقب توقيـع فرنسـا وانكلترا عليـه ، فأجابه فضيلته على ذلك السؤال في كتاب بعثه له في يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٤ ، هذا نصه مع تصحيح لغوي قليل :

(الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر مع الاحتلال)

« ان رأيي في الادارة المصرية إذا بقيت الخديوية في عائلة محمد علي هو كما يأتي:

١ - أول وأهم قاعدة أساسية في تلك الادارة هو انه يجب أن لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في أعمال الهيئات التنفيذية للنظارات ولا إدارة الاوقاف والازهر، ولا المحاكم الشرعية، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجعل (لتداخله الشخصي) أثر ما في الادارة المصرية مطلقا

٢ - يجب أن يشكل مجلس على نسق مجلس الشورى الحالي بوجه التقريب ولكن على نظام أقوم، وترتيب أمثل منه، وينبغي أن يكون الوزراء وكبار الموظفين أعضاء فيه. وليس هناك ما يمنع من انتظام بعض كبار الموظفين من الانكليز في الحكومة المصرية في سلك أعضائه، ويكون من اختصاص هذا المجلس سن القوانين الجديدة

٣ - ينبغي أن توضع حدود لتداخل السلطات التنفيذية الذي يدعيه الموظفون الانكليز كالمستشارين وغيرهم لانفسهم، حتى لا يكون الموظفون المصريون مجرد آلات صماء لا إرادة لهم ولا رأي يبدونه من تلقاء أنفسهم

٤ - أن يشكل مجلس إدارة في كل نظارة من النظارات كالحقانية والداخلية مثلا، ينتخب أعضاؤه بواسطة المجلس العام المتقدم الذكر، وتكون وظيفة كل مجلس من هذه المجالس الادارية البحث في تفصيلات المسائل المهمة، ووضع المشروعات والقوانين والنظامات لكل مصلحة من مصالح الحكومة

٥ - أن يوضع قانون لنظارة المعارف يكون اجباريا بالنسبة للشؤون المتعلقة بالمعارف العمومية والتعليم، وينبغي أن يخصص قسم من الدخل العمومي للقيام بنفقات التعليم يكون كافياً لفتح مدارس للتعليم العام، وأخرى للتعليم الفني تكفي لسد حاجات البلاد

هذا هو رأيي بوجه عام قد أبديته لكم »

فكتب له المستر (بلنت) بعد ذلك بشهرين يسأله ان يتوسع في آرائه هذه

ويضع نموذجاً للدستور المروم إدخاله في مصر ، فأجابه إلى طلبه بعد طول روية ومشاورة أصدقائه في ذلك وأخذ آرائهم في هذا السؤال وسؤال آخر عرضه عليه المستر بلنت أيضا يتعلق بما ينبغي أن يتخذ من الاحتياطات ضد مايتوقع حدوثه من عدم ثقة الجناب الخديوي بالدستور كما وقع على عهد المغفور له والده مما قضى على الآمال الوطنية ، واستفسر منه أيضا عما إذا كان من الممكن أن يقبل المصريون تعيين أمير اوربي بصفة وال تحت سيادة جلالة السلطان إذا صعب الحصول على أمير من العائلة الخديوية متشبع تشبعاً تاما من الافكار الدستورية ، فأجاب المرحوم المفتي على جميع ذلك بالكتاب الآتي

(الكتاب الثاني في نموذج الدستور والاحتياط لضمانه)

صديقي العزيز المحترم

أهديك عظيم تحيتي وأعتذر لك عن إبطائي في الرد على كتابك المؤرخ في ٨ يونيه فاني كنت مشغولا جداً بالامتحان في مدرسة المعلمين والازهر وغيرهما ، ولم أجد وقتا خاليا لأجيبكم فيه على كتابكم هذا ، لاسيما وان موضوعه دقيق للغاية ويعوزه مزيد ترو ، ودقيق نظر

وقد فكرت طويلا وتذاكرت مع بعض أفاضل المصريين فوجدتهم مجمعين على ان من أول الضروريات لحسن الادارة المصرية هو قيام الحكومة الانكليزية بضمان النظام في البلاد وكفالته ، ومعنى ذلك أنها تراقب استتبابه والمحافظة على استمراره وعلى الدستور الذي يمنح لمصر ، وأن لاتدع ذلك الدستور عرضة لتدخل الخديويين

ومتى تمت هذه الضمانة ومنح الدستور لاتبقى حاجة إلى نزع سلطة الحكم من عائلة محمد علي ولا إلى تعيين امير اوربي فان تعيين أمير اوربي لا يصادف قبولا من الاهالي ولا يساعدهم على تحسين حالتهم

واما الدستور فينبغي ان يراعي فيه ما سأذكره الآن من المسائل الآتية بصفة خاصة :

(١) أن تناط جميع شؤون الحكومة بسلطة من السلطتين الآتيتين :

أولا - تناط بسلطة تشريعية تسن القوانين الادارية والقضائية

ثانيا - تناط بسلطة تنفيذية تكلف بتنفيذ تلك القوانين وان تحصر السلطة التشريعية في مجلس نواب أو وكلاء يزيد عدد أعضائه عن اعضاء مجلس الشورى الحالي، وتكون دائرة اختصاصاته الحالية بحيث تحترم قراراته وتكون واجبة التنفيذ وأن لا يسمح للوزراء بعدم احترامها ومراعاتها مهما كانت ظروف الاحوال

وهذا المجلس هو الذي يسن القوانين كافة وتنتخب الوزارة من بين اعضائه وأن تحصر السلطة التنفيذية في الوزارة التي تخول حق تقديم مشروعات القوانين بحيث لا تستأثر بسنها وحدها، لان حق سنها هو من اختصاص مجلس النواب

(٢) أن تناط جميع مسائل الحكومة التي ليس لها ارتباط بسن القوانين بالوزارة حتى منح الرتب والنياشين ، وان لا يترك من اشغال الحكومة شيء مطلقا للجناب الخديوي ، وأن يناط بها ايضا امر المصالح المختصة بالتعليم الديني وغيره . والمحاكم الشرعية والاهلية وتوزيع الرتب والنياشين دون أن يسمح لسموه بأي تدخل فيها مطلقا

(٣) اذا فرض ان كان بعض الوزراء من الانكليز و كان لهم مرءوسون من المصريين فانه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرءوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بان يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الاصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة في أيديهم كما هو الحال الآن

وينبغي أن تلغى وظائف جميع المستشارين اكتفاء بهؤلاء الوزراء وفي هذه الحالة تقضي الضرورة بان يكون رئيس الوزراء مسلما بحيث يكون مركزه الرسمي محدوداً بوظيفة الرئاسة دون أن يشغل رئاسة نظارة من نظارات الحكومة

(٤) ان يكون جميع الموظفين الآخرين في الحكومة من المصريين أعني ان المديرين ووكلاء المديريات وقضاة المحاكم الاهلية ابتدائية كانت أو استئنافية وأعضاء النيابة وغيرهم يكونون مصريين ويجوز تعيين انكليز كمفتشين وتعيينهم أيضاً في بعض وظائف في المصالح الهندسية والمعارف وفي الوظائف الصناعية

التي يحتاج الامر فيها إلى معارف خاصة اذا لم يوجد مصري تتوفر فيه الاحاطة بتلك المعارف الفنية

على انه يجب على كل حال أن يحصر عمل أولئك الموظفين الاجانب فيما هو داخل ضمن دائرة اختصاصهم فقط وأن يكونوا خاضعين لمراقبة الوزراء بحيث لايخولون أقل سلطة ادارية او قضائية تفضي إلى اضعاف نفوذ الموظفين المصريين

(٥) ان يخول أعضاء مجلس النواب الحق في ان يسألوا النظار عن تنفيذ القوانين وينتقدوهم على ما يفرط منهم من الخطأ أو يقع من الخلل في الاعمال، ويتحتم على النظار أن يبينوا أسباب مايقومون به من الاعمال، واذا وقع خلاف بين النواب والنظار يوكل أمر حل ذلك الخلاف إلى لجنة تشكل من خمسة أعضاء من مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع السري، وخمسة آخرين من أعضاء محكمة

الاستئناف ينتخبون مثلهم بالاقتراع السري ، ورئيس المجلس ورئيس النظار ورئيس محكمة الاستئناف ويكون حكم هذه اللجنة بالاغلبية المطلقة

ويجوز زيادة أعضاء هـذه اللجنة باضافة أعضاء آخرين عليهـا من مجلس النواب ومحكمة الاستئناف

واني أعتقد انه لو وضع نظام دستوري على هـذا النمط وضمنته الحكومة الانكليزية لقام بحاجة البلاد ولنالت حكومتها استقلالا لم تعرف له مثيلا

وينبغي ان لاننسى اعادة تنظيم شؤون المعارف والتعليم فان هاتين المسألتين هما من أمس الامور التي يبدأ مجلس النواب بمباشرة الاشتغال بها الامضاء

محمد عبده

وبعد فراغه من هذا الكتاب وضع في ذيله الحاشية الآتية

«قد نسيت ان أتكلم على الحربية فأقول: ان السردار الانكليزي وبعض ضباط الانكليز يبقون في الجيش المصري ولكن يجب أن يشغل المصريون مابقي من وظائف الجيش واذا فرض وقامت بعض صعوبات بشأن ذلك ورأت الحكومة الانكليزية وجوب وجود قواد انكليز فيه أعني « باشاوات» فلاضرر في ذلك»

قول المنار في الكتابين

قد كثر حديث الناس في هذين الكتابين لما نشرا في جريدة اللواء ثم المؤيد وغيره ثم اتسع مجال الآراء فيهما بعد أن استنبط اللواء منهما ما استنبط وخصهما المؤيد بما خصهما به ، وزعم ان ما لخصه هو رأي الكاتب وناهيك بتقليد الجرائد في دهماء هذه البلاد

قال المنتقدون ان الكتابين يدلان على بغض كاتبهما للاسرة الخديوية كافة وللأمير الحاضر خاصة . وقالوا ان فيهما تحسيناً للظن بالانكليز ، وقالوا بل فيهما مشايعة لهم . وقالوا هذا رأي الكاتب في الدستور المصرى وأطلقوا: أي انه لو كان الامر كله بيده لرضي لبلاده بما كتبه فيهما . وقالوا ان كاتبهما على غير بينة بالقوانين الاساسية للأمم . وأغرب ما قالوا وما كتبوا هو ما أنبأ عن استنكارهم سلب السلطة الشخصية من الخديويين بحصر السلطة في مجلس النواب ومجلس الوزراء !! ومن هم المستنكرون لذلك؟ هم الذين يزعمون انهم طلاب المجلس النيابي والحكومة الدستورية لمصر !!! يالله العجب

وقد استحسن كثير من العقلاء المستقلين المطالب التي في الكتابين واستدلوا بهما على غيرة كاتبهما على بلاده وأهلها وسعيه في اصلاح حالها سراً وجهراً من كل طريق وكل منفذ ، وأنكر آخرون صحة نسبة الكتابين إلى الاستاذ الامام وقالوا انه ليس فيهما شيء من روحه ولا من أسلوبه

واننا نبين حقيقة معناهما الذى حرفته الاهواء عن موضعه الذى وضعته فيه الظروف والاحوال بعد تمهيد نمهده لذلك فنقول :

(١) ليعلم القارىء قبل كل شيء أن ما نشر في الجرائد ليس هو الذي كتبه الاستاذ الامام بل هو ترجمة لاحد محرري جريدة اللواء عن الانكليزية . وما في الاصل الانكليزي مترجم عن العربية . فاذا ظهر الاصل العربي الذي يقول حافظ افندي عوض انه رآه عند مؤلف الكتاب يكون مراد الكتاب أظهر وأصح والحكم عليه أعدل

(٢) ان المراد منهما لايفهم تمام الفهم إلا بترجمة ما كتبه المستر بلنت إلى الاستاذ الامام بالحرف لان الفتوى تكون على حسب السؤال كما هو مشهور ومعروف

(٣) قد علم مما كتب اللواء والمؤيد أن موضوع سؤال مستر بلنت يتعلق « بالحالة السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه » فما رآه كان خاصا بتلك الحالة التي أمنت فيها انكلترا معارضة أوربا لها في مصر . فاذا تذكرنا أن كل مافعلناه من مقاومة الاحتلال ايام كان ضلع اوربا كلها معنا ولا سيما فرنسا لم يزده إلا قوة ورسوخا فاننا يمكن أن نعقل ان تلك المطالب التي طلبها الاستاذ الامام بعد اتفاق اوربا مع الاحتلال علينا كانت كبيرة جداً وان الانتقاد على هذه المطالب ينبغي أن يكون محصوراً في كثرتها او عظمتها حتى جعلت نجاح انكلترا بوفاق ابريل ١٩٠٤ نجاحا لمصر وحرمانا لانكلترا من معظم ما كان لها من النفوذ والسلطة

(٤) ذكر اللواء فالمؤيد من موضوع سؤال بلنت كلمة « الدستور المروم إدخاله في مصر » فعلم أن هنالك مشروعا للدستور يمد في انكلترا فما هو وما موضوعه ؟ أو ليس هذا نصاً في الموضوع صريحاً في أن ما كتبه الاستاذ الامام في جواب مستر بلنت ليس مشروعا وضعه لما يجب أن يكون عليه بلاده مطلقا بل هو مطالب وتعديلات لدستور معين يبحث فيه الانكليز أنفسهم ؟ ونحن إلى الآن لم نقف على مشروع دستوري لهم إلا مشروع لورد كرومر بانشاء مجلس تشريعي لمصر مؤلف من جميع الاجانب . وهل يمكن حينئذ أن يطلب لمصر من انكلترا أكثر مما طلب الاستاذ الامام ؟ وقد تقدم أن ماطلبه كثير

(٥) ذكر اللواء فالمؤيد أن مستر بلنت سأل الاستاذ الامام بالتصريح عما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات لمنع مايتوقع حدوثه من عدم ثقة الخديوي بالدستور كما وقع في عهد والده أي بأن يكون الدستور مأمونا عليه من حل الخديوي له، بله تصرفه فيه باستمالة أعضائه إلى مايريد بالرتب والنياشين او بغير ذلك . وهذا السؤال لايعقل له وجه إلا إذا كان واضعو مشروع ذلك الدستور لايرضون أن يكون للخديويين سلطة عليه، بل لايعقل وجود دستور حقيقي يكون عرضة لعبث السلطة

الشخصية به . وهل يمكن أن يجاب عن هذا إلا بتعهد انكلترا بحماية الدستور والحال ان انكلترا تكون هي الواهبة له لتأمن بحسن الادارة المصرية تحت مراقبتها على طريق الهند وتنال هي شرف إصلاح مصر وتنظيمها ؟ (ان صح ذلك ولم يصح)

(٦) ونقل اللواء فالمؤيد ان مستر بلنت سأل أيضا هل يقبل المصريون تعيين وال أوربي عليهم تحت سيادة السلطان ؟ وهذا السؤال مبني على عدم ثقة اولئك المشتغلين بمسألة الدستور المصري بحكم الامراء الشرقيين الذين يعتقدون أنهم أشربوا في قلوبهم الاستبداد حتى لايكاد يوجد فيهم من يميل إلى الحكم الدستوري ويرغب فيه . فهل تنتقد إجابة الاستاذ الامام عن هذا السؤال بانه لاحاجة إلى حاكم أوربي مع وجود الدستور المضمون ومنع الخديويين من السلطة الشخصية ؟ وهل من الانصاف والحق أن يعد طلبه إبقاء الامارة في بيت محمد علي دليلا على بغضهم ؟ وهل يستنكر عاقل الاحتجاج على من يريدون تولية أمير أوربي علينا بكوننا لانقبل ذلك وكونه هو لايمكن أن يساعدنا على تحسين حالنا ؟ ماأغرب الرأي الذي يمليه الهوى وتروجه الاغراض الخسيسة

﴿ تلخيص المطالب التي طلبها الاستاذ الامام لمصر ﴾

من الانكليز فيما كتب الى مستر بلنت

(١) أن يكون للمصريين مجلس نيابي تنحصر فيه السلطة التشريعية أي وضع القوانين كلها ويكون له حق سؤال الحكومة عن تنفيذها ومحاسبتها على خطأها

(٢) أن يكون للمصريين سلطة تنفيذية وهي الوزارة المسئولة وتناط بها جميع أمور الحكومة لايترك منها للخديويين شيء خاص باشخاصهم كما هو شأن الحكومة النيابية في أوربا لاسيما انكلترا

(٣) أن يكون رئيس الوزراء مسلما لا كما كان من قبل تارة وتارة

(٤) أن يكون جميع موظفي الحكومة – من المديرين ووكلاء المديريات والقضاة ورجال النيابة وغيرهم – من المصريين بحيث لايبقى من موظفي الانكليز إلا بعض المفتشين ومن لايوجد مصري يقوم مقامه في عمله

(٥) تنظيم شؤون المعارف والتعليم وجعلهـا أهم الامور التي يبدأ مجلس النواب بها

(٦) قيام المصريين بجميع وظائف الجيش بحيث لايبقى فيه من الانكليز إلا السردار وبعض الضباط

(٧) إلغاء وظائف المستشارين المسيطرين على الحكومة الآن

(٨) على انكلترا أن تكفل هذا الدستور وتضمن تنفيذه بايدي المصريين وفسر ذلك بأن تراقب استتبابه والمحافظة عليه مراقبة فقط حتى لا يبطله الخديويون

هـذه هي المطالب الايجابية الاصلية وأنى لمصر بالوصول اليها وإلى الآن لم تطمع الاحزاب بمثلها فلم يطلب حزب ولا جريدة شيئاً يتعلق بالعسكرية ولا يعقل أحد كيف يكون الاستقلال الحقيقي بدون جند وطني يقوم بشؤونه الوطنيون

وهنـاك مطلوب مهم مبني على فرض وقوع شيء لا يؤمن وقوعه مادام للانكليز شأن في سلطة البلاد ، بل قد وقع مثله في عهد اسماعيل باشا وهو جعل بعض الوزراء من الانكليز ، طلب الاستاذ على فرض وقوع ذلك أن يكون للمرءوسين للوزير الانكليزي من المصريين سلطة يفصلون بها في المسائل المتعلقة بالدين وما أشبه ذلك ولا يكونوا آلة في ايدي رؤسائهم من الانكليز . وهذا مطلب لسنا بمدركيه اليوم فانه لا يمكن لرئيس ولا مرءوس في الحقانية أن يجري في المحاكم الشرعية أمراً لايرضاه المستشار القضائي .

وأغرب ماسمعت من بعض الاغرار « البسطاء » ان الكتابين تضمنا طلب جعل بعض الوزراء من الانكليز فلما قيل له انه ليس فيهما شيء من ذلك وانما فيهما مطلب مهم مبني على فرض وقوع ذلك بالرغم منا ، قال انه ما كان ينبغي ذكر هذا الفرض والتقدير لانه يذكرهم بهذا الامر !! فتعجب أيها القارىء من هذه السذاجة والغرارة والغفلة عن الواقع والاهتمام بالالفاظ دون الحقائق:

ومما تقدم من البيان يعلم القاريء انه ليس في الكتابين شيء ينتقد . وقد سمعت أشهر اعضاء الحزب الوطني حماسة وإخلاصاً يقول: إنه ليس فيهما شيء ينتقد إلا جعل انكلترا كافلة للدستور ، لان هـذا بمعنى الحماية ولكننا لانشك

لاجله في إخلاص المرحوم الشيخ : فقلت له كان يصح ان يقال هذا لو كانت هذه الكفالة من مواد الدستور وكان الدستور مصدقا عليه من الدولة العلية، فيكون حينئذ حقا رسميا لها . وليس فيما كتب شيء من ذلك وإنما الموضوع أن تسمح لنا انكلترا بهذا الدستور وتكتفي هي بدلا من القبض على أزمة السلطة فينا بمراقبة سيرنا على الدستور والنظام المطلوب ولا تسمح للخديويين أن يغيروه إذا حاولوا ذلك . ومعلوم أنها لاتسمح لهم الآن بتغيير مّا في التشريع ، ولا مداخلة مّا في التنفيذ ،مع قبضها على كل شيء ،وعدم تحملها لتبعة شيء، فأي الامرين أفضل ؟؟

وعلى ذكر رأي عضو الحزب الوطني ان تلك العبارة التي انتقدها من الكتابين لاتدعو إلى الشك في إخلاص الكاتب : ننبه إلى سيئة فاشية فينا هي من أقبح السيئات وأشدها ضرراً في الامة، ألا وهي اتهام كل من نراه اخطأ في مسألة من المسائل العامة بسوء النية وعداوة البلاد وبغض الامة وحب الانكليز ومساعدتهم على مايقصدون بنا من السوء !! وتفرع عن هـذه السيئة سيئة أكبر منهـا وهي اختراع بعض الناس الخطأ او تكلفهم استنباطه من كلام من يكرهونه لاجـل إلصاق تلك التهمة به .

فشو هذه السيئة مع أختها أعظم أسباب تفرق الامة وضعفها وانقسامها على نفسها « كما يقولون » لاسيما بعد توجيه الجرائد هذه التهمة إلى الجماعات والاحزاب. وليت شعري أي قيمة لهذه الامة اذا صح ماترجف به بعض الجرائد من اتهام حزب الامة برمته بعدم الاخلاص للامة وبمشايعة المحتلين عليها بعد الارجاف بان ذلك النابغة العظيم « الاستاذ الامام » الذي اعترف بنبوغه الشرق والغرب كان غير مخلص للامة أو لاميرها ؟ بل أي تعريض بالامير أشد من اثبات ان نابغي المستقلين من امته يقاومونه ،وان جمهوراً كبيراً من سراة الامة يؤلف حزبا وينشيء جريدة لمقاومة نفوذه ؟؟

قد يقول سائل ان المنار قد أبرز هـذه المطالب باسلوب يظهر منـه مالم يظهر من ترجمة الكتابين على كونه لم يأت بشيء جديد فهلا كتب المرحوم المفتي كتابيه بهذا الاسلوب الذي يتجلى فيه الاخلاص لمصر والتفاني في خدمتها دون

ذلك الاسلوب الذي يلوح منه إرضاء الانكليز أو استرضاؤهم إن لم نقل محاباتهم

وجوابه من وجهين « احدهما » اننا لم نطلع على ما كتبه المرحوم بنصه فنحكم على أسلوبه « وثانيهما » انه لم يكتب ليمتن على قومه بجبه لهم ومقاومته لمحتلي بلادهم ، ولا ليظهر للانكليز انه مبارز لهم ، وانما كتب لصديق له يسعى في خير مصر . على انه لو كتب للحكومة الانكليزية نفسها لوجب عليه في شرع البلاغة ان يجعل تلك الكتابة باسلوب يرجى قبوله وعدم اتهام صاحبه بالعداء والمقاومة لها. ولكل مقام مقال

رأى أحد الملوك في النوم ان أسنانه سقطت فعبرله الرؤيا معبر بقوله: ان جميع أهلك وأقاربك يموتون في حال حياتك، فاستاء الملك وعاقبه عقابا شديداً . ثم جيء بمعبر آخر فقص عليه الرؤيا فقال له تأويل هذه الرؤيا ان الملك يكون أطول أهله عمراً. فسر الملك وأجازه اجازة سنية. فالبليغ يخاطب كل مخاطب بما يرجو أن يبلغ به مراده من نفسه

فمن أصحاب الجرائد من يطلب من الانكليز مطالب بصفة الآمر صاحب السلطان ، وما مراده إلا إرضاء من يقرأ هذه المطالب فيحمد كاتبها ويجله لانه استعلى على بريطانيا العظمى ، فأنال الامة من الاستعلاء عليها بالقول ، ما تلهو به عن الفخر بالاستعلاء أو المساواة بالفعل . ولكنه لا يخطر في باله الاسلوب الذي يمكن ان يكون مقنعاً او مقبولا عند الانكليز لانه لا يريد منهم شيئا

لو كان الاخلاص والغيرة على قدر كبر المطالب وإن كانت من المحال ، والتعزز على القوي يتحقق بزخرف القول وإن كان غروراً ، لأمكن كل كاتب أن يكتب كل يوم في اثبات اخلاصه وغيرته وتعززه نحو هذه العبارة : إني آمرك أيتها الدولة الانكليزية الظالمة المعتدية بان تردي مصر إلى المصريين ، وقبرص إلى الدولة العلية . بل ان تردي الهند إلى النوابين والرجاوات من أهلها ، وأن تأرزي إلى جزائرك كما تأرز الحية إلى حجرها. فان لم تحفظي شرفك وتمتثلي هذا الامر فاننا نتفق مع أعضاء بعض برلمانك فنؤلف منه لجنة تشاغب المجلس أحيانا في هذه المطالب فتهزه هزاً ، وتؤزه أزاً ، او تهز الشعور الوطني في هذه البلاد هزة تميد لها جزائر بريطانيا ميدانا ، وتزلزلها زلزالا ، ربما كان من ورائه البلاء النازل ، والخسف العاجل ؟؟

﴿ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها ﴾

قد فصل الاستاذ الامام رأيه في الدولة وما يجب عليها من الاصلاح في لائحة كتبها في بيروت سنة ١٣٠٤ ورفعها إلى شيخ الاسلام وقد أشرنا اليها آنفا بعد أن ذكرناها في المقصد الثاني من الفصل الخامس، (ص ٣٩٢) وقد بين في هذه اللائحة الخطر الذي ينذر الدولة إذا لم تبادر إلى اصلاح التعليم باستحواذ الجهل على أكثر المسلمين، ودخول العلم عليهم من طريق الاجانب أصحاب المطامع في البلاد، وقد قال في مقدمتها (ص ٥٠٦ من الجزء الثاني والطبعة الثانية) ما نصه :

« ان من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها، وانا والحمد لله على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت

« ان للخلافة الاسلامية حصونا وأسواراً، وان أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها، والحمية للدفاع عنها، ولا معقد للثقة، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين، إلا ما أتاهم من قبل الدين، ومن ظن أن اسم الوطن، ومصلحة البلاد، وما شاكل ذلك من الالفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الهمم، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها، فقد ضل سواء السبيل

« المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم، وأنحت الايام على معاقد إيمانهم، ووهت عرى يقينهم، بما غشيهم من الجهل باصول دينهم، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق، وانتكاس في الطبائع، وانحطاط في الانفس، حتى أصبح الجمهور الاعظم أشبه بالحيوانات الرتع، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون، ويتنافسون في اللذات البهيمية، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم؟» ثم ذكر تدخل الاجانب ومدارسهم وسوء تأثيرها وخطرها على الدولة - أو يتداركها أمير المؤمنين وتدركها قوته، وانتقل من ذلك إلى وصف التعليم الاسلامي فقال (ص ٥٠٨)

«أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت اماخالية من التعليم الديني جملة، واما مشتملة على شيء قليل منه ، لايتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لايعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها(١) خلوا من الدين، وجهالا بعقائده، منكبين على الشهوات، وسفاسف الملذات ، لايخشون الله في سر ولا جهر ، ولا يراعون له حكما في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكلب في الكسب، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لايلاحظون فيه حلالا اوحراما ،ولا طيباً أو خبيثاً ، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ، ومالوا إلى الخيانة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

«وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى غيرهم من الامم يتسابقون الى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون باموالهم إذا دعت الاحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الامة ، ولايبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس مانرى في سائر الامم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون إلى جامعة يلجؤن اليها ، وتقطع مابينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله

«هذه أحوال نذكر منها القليل، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير، نذكرها مقرونة بانفاس الاسف وصعداء الحزن ، لما نعلم أن الاجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذّتهم ، وأغلبهم شاذة ، ويفترسون نادّتهم وجمهورهم نادة، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة ، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ،وإن عواقب ذلك لتخشى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله «اه المراد منه

(١) ليتامل القراء هذا الذي كتب منذ نصف قرن وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بايدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم

ثم بين مايجب من التعليم الديني الذي يدرأ الخطر بدرجاته الثلاث والعلوم والكتب التي تتخذ له ، وعقد فصلا خاصاً للدعاة والمرشدين فيراجع هذا كله في جزء منشآته

﴿ رأيه الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك ﴾

لم يجد الامام لنصحه سامعاً ، ولا لندائه مجيبا ، وظلت الدولة تتدهور كل عام في هوة ، وتقع في مأزق من نفوذ الدول الاجنبية ، وكثر المتفرنجون في الترك وغيرهم من شعوبها ، فلم يبق لاسم الخلافة ولا للاسلام نفسه مكانة من أنفسهم ، وتجرؤا على الطعن في السلطان والكيد له في العاصمة وفي البلاد الاوربية ، واشتد السلطان في مطاردتهم ، والانتقام ممن يعجز عن استمالتهم ، فانقطع رجاء الاستاذ الامام من هذه الدولة ، ومن إمكان الاستفادة من منصب الخلافة . وانني أذكر هنا أول ما سمعته منه في ذلك

زرته في الساعة العاشرة قبل الظهر من يوم الجمعة (٢٩ رجب سنة ١٣١٥) عن موعدة في زيارة قبلها ، وكان هذا هو اليوم الخامس من وصولي إلى القاهرة فاستقبلني في حجرة النوم وكان يكتب فترك الكتابة لاجل الحديث ، وجاءه بريد الصباح وبمناسبة مافيه من الجرائد تكلمنا في فوائد الجرائد ومذاهبها وذكرت طعن جريدة المقطم في الدولة العثمانية وتأثيره في كثير من الناس في سورية على قلة المطلعين عليها فيها لانها ممنوعة منها ، وإنما تنسل من البرد الاجنبية إلى بعض الاجانب وتنقل إلى غيرهم ، وذكرت انه يساعد هذا التأثير كلام الجرائد الاخرى التي تشير إلى ضعف الدولة بلطف كالاهرام وهي غير ممنوعة حتى صار كثير من الناس يعتقد أن الدولة على شفا جرف هار لامال ولا رجال ولا سلاح ، وانتهت بهم أفكارهم هذه إلى انها لا تقدر على محاربة اليونان . فلهذا أقول ان حرب اليونان ما أفادت الدولة شيئا إلا نزع هذا الاعتقاد من النفوس – وكذلك كان اعتقاد المسلمين في الممالك الاخرى بما تنشره الجرائد الاوربية عن حالتها بينهم –

ثم ان من الناس من اعتقد بعد هذه الحرب أن الدولة العثمانية من أقوى الدول أو أقواهن وأنها تقدر على تدويخ أي دولة أوربية . وأنا لا أحب أن أظهر للدهماء

منهم أن الحقيقة غير ما يتوهمون[١] فما رأي مولانا في الدولة؟

قال الاستاذ « هذا جهلان يتناطحان (يعني سقوط الدولة بالمرة وكمال قوتها) وإني رأيت كثيراً من المصريين يعتقدون وصول الدولة إلى هذه الدركة من الضعف ، وأنها لم تكن تقدر على مقاومة اليونان ، وعند إعلان الحرب صرح أمامي بعضهم بأن اليونان تنتصر على الدولة ، فخطأته . قال إن الدولة لا مال عندها ولا ضباط . قلت له وما أدراك ان اليونان عندها المال والضباط ؟ أنا أعرف اليونان انهم أجبن الشعوب وأفقرهم ، ولو أن الدولة قالت لأتراك الروملّلي أو الاناضول ، أو للارنؤط قد أذنت لكم أن تأكلوا اليونان - لما كان اليونان إلا أكلة واحدة لهم ، ولقتلوهم بالعصي ولم تحتج الدولة إلى عسكر ولا سلاح

« ان الحرب أعلنت يوم الاربعاء فيما أظن وكان في عزمي السفر إلى الشام لتغيير الهواء لأني كنت موعوكا فجئت الاسكندرية اعتقاداً مني انه لا يأتي يوم الثلاثاء (موعد سفر الباخرة الخديوية إلى سورية) إلا وتكون الحرب قد انتهت (وتبسم)

« ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وإن كان أكثرهم يحبها) وأنا أيضاً أكره أعمال السلطان فان جبنه الخالع وهؤلاء المشايخ الذين قربهم وسلطهم ولا سيما الشيخ أبي الهدى فان شأنه وشأنهم كذا وكذا - وذكر ما نعلم من إفسادهم واستعانتهم عليه بجبن السلطان ووسواسه

قال « لكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً فانها سياج في الجملة ، وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء »

ثم انتقل الكلام إلى رجال الدولة فقال ما حاصله : ان الدولة لديها رجال نبهاء درسوا وعرفوا كل شيء ، ولكنهم أصيبوا بداء اليأس ، فهم يائسون من كل خير وإصلاح . وهذا الداء قتال وصاحبه يهدم ولا يبني ، لا ينظر إلا إلى مصلحة شخصه وذكر انه تكلم مع كثيرين منهم هنا وفي أوربة فألفاهم يائسين - وذكر أحد

(١) قال لي أحد المصريين في ملوي إن ملك المسكوب كتب لمكنا السلطان عبد الحميد إنني مستعد للحرب بعد ٤٨ ساعة فكتب إليه ملكنا إنني مستعد للحرب بعد ٢٤ ساعة

الباشوات من أمثلهم وقل إنه يائس على سعة عرفانه (قال) وكيف نيأس وإن حالة أوربة كانت شراً من حالتنا في الجهل ومقاومة العلم (وأطال في ذلك . وقد بسط هذا أخيراً في مقالات الاسلام والنصرانية)

قال « وأما أنا فانني في يأس تام من طبقة الامراء والحكام، لا يرجى منهم خير » ثم تكلم فيما يقال من طمع الشيخ أبي الهدى في الخلافة وأنه لا يرجى نجاحه لان مقصده شخصي ووسائله شرور ولا تنجح الاعمال إلا إذا كانت مبنية على مقاصد الخير والمصلحة العامة وإن نجح ما ليس كذلك فلا يكون نجاحه إلا مؤقتا قصير الاجل وأطال في ذلك

الخلافة أو منصب الخلافة

كان يرى ان ما حاوله السلطان عبد الحميد من الانتفاع بلقب الخلافة ومنصبها لا يرجى منه أدنى فائدة للمسلمين لجهله وجهل رجاله بمعنى الخلافة وبالوسائل التي يمكن بها إحياء منصبها والانتفاع به (وهو ما أرشد الدولة اليه بما كتبه إلى شيخ الاسلام) وانما أعمال دعاته وأعوانه لاحياء هذا المنصب او اللقب وهمية، ومنفعته المرجوة منه شخصية ، وهي تخويف دول أوربا من سخط رعاياهم المسلمين عليهم اذا هم عادوا الخليفة ، ولكنه كان يرى السكوت عنهم وعنه ، وأن مشايعتهم غش للمسلمين وجناية على الاسلام ، ومقاومتهم فتنة وتفريق بين المسلمين

ولما أطلعته على فاتحة العدد الاول من المنار في منتصف شوال من تلك السنة (١٣١٥) أعجبه كل ما ذكرته فيه من المقاصد والاغراض إلا كلمة واحدة هي تعريف الامة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الامة . قال ما معناه ان المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وان الكلام في الامامة مثار فتنة يخشى ضره ولا يرجى نفعه الآن . واقترح على حذف الكلمة من المقاصد فحذفتها

﴿ رأيه في استقلال العرب ﴾

علمت من حديثي معه أنه يعتقد ان العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الاعظم للاصلاح الاكمل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من

سيرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء فتفرقوا وتعادوا واستحوذ عليهم الجهل . فيجب أن يبدؤا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة، ويستعدوا لسنوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بحال من الاحوال أن يخرجوا على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لي واقعة حال في هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر

قال : وجد رجل مستشرق بريطاني أحب العرب وساح في بلادهم واختبر حالهم فظهر له ان أخلاقهم في بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم فتوجهت رغبته إلى السعي لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية، وأراد جمع المال الذي يمهد السبيل ويهيء الوسائل لذلك

واستشارني في هذا الامر فقلت له إن العرب أهل لذلك ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم، فاذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين او على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . قال فقنع الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعي

لم يذكر لي اسم هذا الرجل ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت وحادثته وحادثت زوجه علمت انه هو الذي كان فكر في ذلك وعزم عليه

ثم لما التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا في الاستانة بعد الدستور وتكلمت معه في المسألة العربية رأيت رأيه قريباً من رأي الاستاذ الامام من ناحية مسالمة الدولة (رحمهما الله تعالى) قال نحن العرب أقوى من الترك استعداداً لتحصيل العلوم والفنون ، ولكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن أكثر عدداً من الترك في الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس في جميع بلادنا ، ولكن الترك متفقون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية في أيديهم ، فمعاداتنا لهم خطر علينا ، فيجب أن نقوي أنفسنا بالدولة في ظل الدستور، فنكثر من ادخال أولادنا في المدارس وفي الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك ان تكون أغلبية

المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة في أيدينا .

أقول ولكن الاتحاديين جعلوا الدستور صوريا وتوسلوا بقبضهم على زمام السلطة إلى تقوية العصبية التركية الطورانية، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية، وقتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدي ، وعزموا على قتل كل زعيم عربي، فقضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ولم يبق للترك إلا الاناضول وبعض الروملي منها

وأما رأي الاستاذ الامام وهو الذي جرينا على الدعوة اليه فهو أن يعنى العرب بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ولا مباراة للدولة ، وانتظار الفرص للاستقلال مع اتقاء خطر الاجانب واضعاف الاسلام ، ثم جاءت الحرب الكبرى قبل تمكننا من ذلك فكان من عاقبتها ما كان .

رأيه في الشعب المصري

قال لي في سياق حديث في حالة البلاد : إن أطفال المصريين أذكى من أطفال سائر الشعوب ، وان شبانهم من أنشط الشبان وأمضاهم عزما وهمة واقداما، ولكن المصري يدب فيه الهرم المعنوى منذ استكمال الخامسة والعشرين فيخلد إلى الراحة والتمتع باللذات ، وتقعد به همته عن الجهاد والكدح في سبيل المصلحة العامة

وقال لي مرة وهو في أشد الغضب والامتعاض من حادثة المحاكم الشرعية عند ما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا : والله لو ان في مصر مائة رجل لما استطاع الانكليز أن يقيموا فيها، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا اذا أقاموا . ان في مصر مئات أو آلاف من الرجال يفهمون كل شيء ، ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ، ولكنهم فاقدون للارادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما الصفتان التي لا ينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل

أرأيت هذا الرجل - مصطفى باشا فهمي - الذي يصفه الوطنيون بالخيانة للبلاد ؟ انه ذكي نبيه ويحب خير البلاد ومصلحتها ، ولكنه ضعيف الارادة بل

فاقدها ، ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة سلطة الاحتلال به أن ينفع البلاد نفعاً عظيما ، ويدفع عنها أذى كثيراً ، ولكنه لايدري هذا

وقال لي في حديث آخر : ان الشعب المصري لايفني ولايندغم في غيره من الشعوب التي تغلبه على حكومته ، وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه. ذلك بان ذل الغلب وفقد الاستقلال لايضعف حيويته ويقلل نسله كما وقع لشعوب أخرى، بل يعيش في كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية . والحكومات أعراض تزول ، وهو لايزول . ولكنني صرت في ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار إلى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاشربة الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يعطل الجهاز التناسلي او يضعفه، فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك باصلاح خطابة المساجد وبث الوعاظ والمرشدين فيها، فان الشعب المصري نفسه على خطر الانحلال والزوال

(أقول) انه قد فشا في الشعب بعده ماهو شر من السكر وهو استعمال المخدرات السامة من الكوكايين والمورفين و ...

ثم ذكر بمناسبة الكلمة الاولى في اطفال المسلمين وشبانهم أن أحمد فتحي باشا زغلول كان يتحدث معي مرة في ضعف رجال الحكومة المصرية وفتور هممهم حتى في أعمالهم الرسمية فذكر أفراداً من رؤسائهم قال انهم تعلموا أحسن التعليم، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم مايحمد من الهمة والشجاعة الأدبية في شبابهم، وتجدهم الآن كالتماثيل في دواوينهم ، لولا انهم يحركون أيديهم لختم بعض الاوراق أو لطرد الذباب .

قلت : أو ما سمعت ما كان يقول أستاذنا في ذلك – وذكرت له كلمته – فاذا هو قد سمعها منه إذ قال : أو كلما كان يقول الاستاذ شيئاً كنا نفهم كل مراده منه ؟ كلا اننا كنا نفهم مدلول ألفاظه اللغوية وأما فحواها وتأويلها في الخارج فربما لا نفهمه إلا بعد التجارب عدة سنين

﴿ رأيه فى التربية والتعليم بمصر ﴾

يغنينا عن بيان رأيه في هـذه المسألة مانقلناه من خطبه التي كان يلقيها في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية (ص ٧٣٠ - ٧٥٢) وما نشرناه من منشآته في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص٥٣٣) وهو لائحة نظام التربية والتعليم في مصر فقد بين فيها صفة تعليم الازهر ومدارس الحكومة ، وما فيهما من الخلل والفساد. وزد عليه جهاده في إصلاح التعليم في الازهر ، وعندنا كلام آخر منه في ذلك سمعناه في أثناء المذاكرة معه

وخلاصة رأيه في التعليم والتربية أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الامة الذي بطل وانحل منذ قرون كثيرة ، بحيث تكون الامة عزيزة متحدة متعاونة متكافلة يصدق عليهـا تمثيل النبي ﷺ للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبالجسد الواحد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر

هذه هي التربية وهذا هو التعليم اللذين كان يجاهد في سبيلهما ، ويدعو إلى مسالمة الحكام المستبدين والمتغلبين لاجل التمكن منهما ، ويعلم ان استقلال الامة الصحيح لايكون أولا يتم ويثبت إلا بهما ، وكان يقول : ياويح الرجل الذي ليس له أمة . وكان يفضل القبط على المسلمين في الوحدة والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم ، ومعرفة قيمة رجالهم ، وقال لي يلجؤن في جميع خطوبهم ومشكلاتهم إلى بطرس باشا غالي من الاسكندرية إلى حلفا والسودان

﴿ رأيه في الوطنية والدين ﴾

كان يرى ان الوطنية التي هي عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفي الاديان على كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته لايعارض الدين الاسلامي في شيء ، كما يثبته شرعه في العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه في كتاب الاسلام والنصرانية وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسي إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقي الى التعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية وكان حزبه مؤلفا من أذكياء الملل المختلفة ، وكان مع هـذا يدعو

المسلمين إلى الاصلاح الاسلامي الخاص بهم في فهم العلم والدين وشد اواخي الاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ولم نر أحداً من الناس الذين تكلموا في شؤونه والذين كتبوا عنه في مدة حياته ولا بعد مماته اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الاسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطني في كل وطن - وشرقي عام في دعوة الشرق كله وارشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب - واتحاد اسلامي في الاصلاح الديني ونبذ الشقاق فيه

وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته في مصر وفي سورية ، قد كان من التآلف بين جميع الطوائف في بيروت على عهده مالم يعهد له نظير كما تقدم ، وكان يرى القبط على أتم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم على ترقية جميع أمورهم الدينية والدنيوية من دون المسلمين ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل في مقاومتهم او دعوة المسلمين إلى ذلك ، وانما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه في ترقية مصالحهم الملية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية . وقد كان يعلم ان بطرس باشا غالي هو الذي وضع في وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيداً لالغائها وادغام عملها في عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرني بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرني بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا في بطرس باشا واتهموه بمحاباة القبط في الوظائف وغيرها إذ كان وكيل وزارة الحقانية ، وذكروا ان تعصبه الذي كان سبب الخلاف بينه وبين الوطني المسلم النابغة شفيق بك منصور هو الذي اضطر هذا إلى الاستقالة

وكان الاستاذ الامام في ذلك الوقت (سنة ١٣٠٥) في بيروت فلما رأى هذا الشقاق الوطني في الجرائد المصرية كتب في تلافيه مقالة في جريدة ثمرات الفنون عنوانها (مصر والمحاكم الاهلية) وكتب إلى بعض مريديه بمصر (سعد زغلول) أن يسعى بنشرها في بعض الجرائد الاسلامية فننقل منها هنا مايثبت مذهبه الوطني شرحناه من جزء المنشآت (ص ٣٦٥ طبعة ثانية) وهو

أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل في المحاكم الاهلية بمصر ، وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل باثرته وتطرفه في الميل

الى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من لا أهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد نظروا إلى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت ما ادعته من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ، ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد وحرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويوازرونهم ، فكانوا حربا لمن حاربهم ، وسلما لمن سالمهم ، وأن الخلاف المذهبي لم يحدث في البلاد شقاقا وطنيا في زمن من الازمان . ولهذا لانرى للقبط في مصر مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل. وأيدت هذه الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلا فيمن عهدت اليهم وظائف في المحاكم الاهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم، فكان أعضاء المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من عدد كثير من النواب ومتعلقيهم، والكل في قولها من أهل الاستحقاق لايغمز على أحد منهم في العلم بماوليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله

ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحا بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتلو شفيق بك منصور انما هو الخلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الاصلاح

هذا إجمال مارأيناه فروبناه وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة او أمة اوملة، فان ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب، او كمايقال جهادفي غيرعدو، وهو مماضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه

يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ، ومخالفته الى عكس مايريده ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، او ينسبوها الى شائن من العمل ، تعللا بأن رجلا او رجالا منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات الى عمائق القلوب ، ويدلي بالضغائن الى بواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الاخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأديباً له او استصرافا لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدتين المحاميتين خصوصا عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهراً لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما مالا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من اعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصا بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لايتعدى الى أوصاف خاصة لاتفيد في البحث . نعم ان كانت الطائفة او الامة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، او حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بأثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه اهـ المراد من المقالة وبقيتها دفاع عن بطرس باشا

﴿ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي ﴾

والفرق فيه بين الانكليز والفرنسيس

يعلم جميع الواقفين على التاريخ الحديث وسيرة الاوربيين في الاستعمار انهم يسمون فتحهم الممالك واستيلاءهم عليها بالطرق السياسية بأسماء خادعة تغر الشعوب وتخدر أعصابهم بتوهمهم ان البلاد بلادهم وان وجود الاجنبي فيها موقت والمصلحة فيه مشتركة بينه وبينهم – كالحماية والاجارة والاحتلال الموقت وغير الموقت، وزادوا عليها بعد الحرب اسم الانتداب والوصاية – ولهذه التسمية عندهم فوائد احتياطية لان احداث الزمان قد تضطرهم إلى تغيير سياستهم فيها حتى يتركوها لاهلها، كما ان لهذا المظهر فائدة لاهل البلاد بما يعطيهم من حق المطالبة بحقوقهم في الاستقلال بها، وإزالة صور الحماية او الوصاية او الاحتلال إذا عرفوا كيف يسعون لذلك ويستعدون له

ويعلم أكثر هؤلاء الواقفين العارفين ان الانكليز يراعون من عقائد من يستولون عليهم ومن استعدادهم العلمي والاجتماعي مالا يراعي الفرنسيون، وأنه يمكن من اقناعهم والاستفادة منهم مالا يمكن مثله مع الفرنسيين، لان أخلاقهم أعلى، وهم إلى مواتاة الطبيعة والعقل أدنى، وخلقهم التجاري، يؤثر في سيرهم السياسي، فهذا مما لايحتاج إلى رأي من مثل الاستاذ الامام في كبر عقله وتجاربه

بيد انني أنقل عنه مايحتاج اليه غير العارف بماذكر ويزداد العارف به بصيرة، ومنه ان الذي يبتلى بسلطتهم على بلاده لايمكنه أن يقنعهم بما يراه من مصلحتها أو كف الاذى من ناحيتهم عنها إلا باتيانهم من ناحية أخلاقهم والراسخ في طباعهم، كما تقدم في مسألة قاضي مصر التركي ورجوعهم عن إيجاب عزله على الخديو ونصب قاض مصري في مكانه (راجع ص٥٧٦) – او باتيانها من ناحية غريزتهم التجارية في تصوير المنفعة لهم فيما فيه منفعة البلاد، ومن هذين الناحيتين كان الاستاذ الامام يقنع لورد كرومر بكثير من المصالح الوطنية، وكان في أول العهد بعودته الى مصر يزيد عليهما ان الشعب قريب العهد بثورة فقتال مع الانكليز فيجب اجتناب مايثير في نفسه ذكرى ذلك

مثال قناعهم من طريق منفعتهم انه بلغ الاستاذ ان اللورد عزم على إلغاء النيابة العامة من المحاكم الاهلية واحالة عمل النائب العمومي ورؤساء النيابة ووكلائها على القضاة وانه أمر الحكومة بذلك ولم يبق إلا تنفيذه بقرار من مجلس النظار فزاره في صباح اليوم الذي تقرر اجتماع مجلس النظار فيه لتقريره ، فأخبره اللورد به وسأله عن رأيه فيه، فأجابه ان هذا خطأ لا يحتمل الصواب ، وضرر عظيم على الحكومة والبلاد ، وشرح له ذلك من الجهة القضائية وأهمها عجز القضاة عن النهوض بعمل النيابة ، وزاد على ذلك ماهو أهم في نظر اللورد وهو ان رجال النيابة الذين يلغى عملهم هم من أرقى رجال البلاد علما وعقلا ولسانا وقلما ، وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته ولا يجد غيرها في درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسؤلين عن النظام تعبا كبيراً ، او ما هذا نحواه

قال اللورد حينئذ ان هذا كلام وجيه ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والادارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا ، وان مجلس النظار سيجتمع الآن في سراي عابدين برياسة الجناب الخديوي لتقرير هذه المسألة ولا بد لايقاف ذلك من ذهابي بنفسي الى عابدين بعد إيذانهم بذلك بالتلفون ، وقام فودع الاستاذ وأخبر السراي بمجيئه راجياً تأخير جلسة المجلس الى ما بعد حضوره ، فذهب وابطل هذا العمل

هذا نموذج من أفعاله في خدمة البلاد من طريقهم . ومن أقواله فيهم ماقاله لي وقد كنت راكبا معه فرأينا فلاحا يمتص عوداً من قصب السكر مبالغاً في امتصاصه، فلا يلقي ما في فيه منه إلا بعد جفافه ، قال الاستاذ أنظر إلى هذا الرجل كيف يمتص هذا القصب ، هكذا يفعل الانكليز في امتصاص ثروة البلاد واستخدام الرجال المقتدرين على العمل فيها ، هم يحافظون على الشيء او الشخص ماوجدوا فيه فائدة لهم، حتى اذا مارأوا انه لم يبق فيه أدنى فائدة لهم ألقوه كما يلقي هذا الفلاح مايمتصه من ألياف القصب اذا جف ولم يبق فيه شيء من الحلاوة .

وكان ينكر على الخديو اتباعه هذه القاعدة التجارية معهم ببيع مصالح البلاد بمنافعه المالية او أهوائه الشخصية، كمساعدتهم إياه على عمه في مسألة نظارة الاوقاف

الخصوصية، وذكر مسائل أخرى ، وكان هذا الحديث قبل حدوث مسألة محاولة عزله وعزل حسن باشا عاصم من الحكومة وقد تقدم شرحه وهو أوضح المثل وأظهر الشواهد في ذلك

محاورة في الاحتلال وأعماله المنكرة

زاره محمد بك بيرم وأنا عنده في رمضان سنة ٣١٥ وهو من حزب الانكليز وقد رقوه فجعلوه محافظ مصر وكان يأتيه دائما باخبار الحكومة والانكليز على حقيقتها فذكر مسألة بيع البواخر لشركة انكليزية وصراخ المؤيد ومن على رأيه في الانكار على الحكومة والانكليز، وقال هل ينتظرون من الانكليز أن يفضلوا على الشركة الانكليزية شركة من غير أبناء جنسهم؟ نعم لو وجدت شركة مصرية وقدموا عليها الشركة الانكليزية لكان لهم الحق في الانكار ، ولكن أين الوطنيون الذين يقدمون على مثل هذا؟ اجتمع عند الخديو جماعة من وجهاء الاغنياء وتكلموا في المسألة فوعدهم بانهم اذا هيئوا المال يتمم لهم المسألة ويكون شريكهم فيها، وضرب لهم موعداً فانقضى الموعد ولم يكن منهم شيء

قال الاستاذ ان المعترضين في المؤيد وغيره يتكلمون في المسألة من جهة شرف الحكومة والبلاد بابقاء الراية المصرية في البحر

قال البيك : إن الراية المصرية وكل ماهو بمعناها قد طار مع دخان المدافع يوم ضربت الاسكندرية . وإن الخديو يوم جاء مصر استقبله الانكليز استقبال ضيف (وذكر كلاما في ذلك لا يعرف عن غيره بل المعروف خلافه) قال : ولكن المصريين لايفهمون هذا ... يرون ميتاً لم يدفن فيظنونه حياً

(أقول وقد حضرت مثل هذا المجلس في مكتب الشيخ علي يوسف بادارة المؤيد وكان عنده ابراهيم بك المويلحي وكان يقول هذا الكلام في المسألة المصرية وان مايسمى الاحتلال هو عين الفتح والامتلاك ، قال بعض الحاضرين وقد انتهى أمره بمعركة التل الكبير ، فقال المويلحي بل بضرب الاسكندرية واحتلالها أو قبل ذلك . ولم يعترض الشيخ علي ولا غيره على ذلك بل وافقهم عليه)

ثم ذكر محمد بك بيرم مسألة بيع أراضي الوقف المسماة (تفتيش الوادي)

التي وقفها اسماعيل باشا على المكاتب والمدارس الاسلامية

قال الاستاذ : ان هذه المسألة في غاية الخشونة وما كان يليق بالانكليز مثل هذا العمل المفضوح وإن كانت أزمة البلاد في أيديهم

قال البيك : إن استبدال أرض الوقف جائز ولو بالمال ليشترى به غيره

قال الاستاذ انما يصح هذا في الاراضي التي لاريع لها وهذه الاراضي كان ريعها السنوي خمسة عشر ألف جنيه فما زالت تنقص حتى صارت ٧٥٠٠ جنيه أي نزلت إلى النصف فينبغي الفحص عن السبب . واذا كان لابد من بيعها على ان دخلها كذا فلا بد في هذا من حكم القاضي الشرعي . وقال في الرد على قول بعض رجال الحكومة انها من أملاك الميري: ان اسماعيل باشا ورث هذه الارض من أبيه ابراهيم باشا ووقفها بصفته الشخصية « اسماعيل بن ابراهيم من أصحاب الاملاك» لا بصفة انه خديو مصر، فوقفها صحيح لا شك فيه

قال البيك لو ان المصريين يعلمون ان الانجليز قد امتلكوا مصر ووجهوا نظرهم لمعرفة كيف ينبغي أن تكون حياتهم مع هذا الحاكم الجديد لكانوا انتفعوا وقدروا أن يحافظوا على بعض ماتجب المحافظة عليه

قال الاستاذ متلطفا في تخطئته بما ارتآه من وجوب توطين المصريين أنفسهم على ذهاب بلادهم من أيديهم ـ : إن العمل لاخراج الانكليز من مصر عمل كبير جداً ولا بد في الوصول إلى الغاية منه من السير في الجهاد على منهاج الحكمة والدأب على العمل الطويل ولو عدة قرون ، لا انه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس والكتابة في الجرائد ، (هكذا أو مامعناه) وقالوا إن كثيراً من المصالح الاميرية معرضة للبيع فهل يقدم المصريون على شراء شيء منها ؟

فرنسة والاسلام

ثم قال البيك بمناسبة بيع تفتيش الوادي وحكم الاستاذ بأنه وقف صحيح وان بيعه اعتداء من الانكليز على الدين : ان الفرنسيس قد باعوا مساجد مدينة الجزائر لاجل المصالح العامة ولم يبقوا في تلك المدينة إلا أربعة جوامع فقط — وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى ذكر فرنسة فقال الاستاذ الامام : انه لا توجد أمة تبغض المسلم لانه مسلم لا لأمر آخر إلا فرنسة . وأطال في بيان ذلك : ومما قاله

انني لما كنت أجتمع مع احد الفرنساويين للمذاكرة في أحوال الشرق أمتعض وينتفض — أو يرتعش — جسمي كله

وقال ان الفرنساوي إذا مدح الاسلام وذكر شيئاً من مزاياه فلابد أن يكون غرضه من ذلك منفعة فرنسة ، وذكر عدة رجال منهم ألفوا كتباً بهذا المعنى ثم صرحوا ولو في آخر ماكتبوا بحالتهم مع المسلمين في الجزائر ومايبتني عمله لبقاء سلطتهم فيها ، وذكر أسماء بعض تلك الكتب

كنت قد استغربت هذا القول من الاستاذ ثم رأيت كثيراً من الشواهد والدلائل التي تؤيده وأقواها ما كتبه فيلسوف فرنسة الاجتماعي ومؤرخها الحر الدكتور غوستاف لوبون إلى عبد الغني سني افندي التركي المشهور وهو نص صريح في هذا المعنى مع بيان سببه وهو الدين الكاثوليكي

ذلك بأن عبدالغني افندي هذا قرأ بعد الحرب الكبرى كتابا لهذا الفيلسوف في أسباب الحرب وفلسفتها أنحى فيه بالتخطئة على الدولة العثمانية لدخولها في الحرب مع ألمانية ، فكتب اليه مبيناً عذر دولته في ذلك وهو اتفاق فرنسة مع الروسية من قبل الحرب على تقسيم بلادها وإعطاء الآستانة لروسية . فلم يلبث أن جاءه مرجوع الكتاب من الفيلسوف يعترف له فيه بالحق أي بعذر الدولة ويصرح فيه ببغض دولته فرنسة وقومه المسلمين — وهل يقول الحق في السياسة افرنسي إلا أن يكون فيلسوفا لا يقول إلا مايعتقد ؟ وقد نشر هذا الجواب في مجلة الهلال بلغته الافرنسيه مع ترجمته وهذه ترجمته (من ص ٦١٦ من العدد السادس من السنة الثالثة والثلاثين)

سيدي

« أراكم فيما كتبتم على تمام الاصابة سأسعى في نشره في إحدى الجرائد الفرنسوية . لكنني لست واثقا من ان أوفق . لان العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألد الاعداء للمسلمين . وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخما باسم « حضارة العرب » وذلك لأثبت ان العرب هم الذين مدنوا أوروبا

هذا واقبلوا .... الدكتور غوستاف لبون

« ٢٨ — شارع فينيون — باريس » ٣ — ٤ — ١٩٢١

ثم قال الاستاذ : إني لاعجب لهؤلاء الافرنج كيف يجرحون قلوب الذين يستولون عليهم بالتعدي على أحكام دينهم وامتهان شعائره وتقاليده (كبيع الانكليز لوقف تفتيش الوادي) ويعيشون معهم خائفين من ثورتهم وانتقاضهم عليهم ، وفي إمكانهم أن يحببوا أنفسهم إليهم ويعيشوا معهم بالراحة وانما ذلك بعدم التعرض لدينهم

قلت : ان اضعاف الدين الاسلامي غرض مطلوب لذاته عندهم فهم يؤثرون التعب بفعل مايحبون ، على الراحة مع مايكرهون

قال : ليس هذا برأي فان توالي المؤلمات يبعث على الخروج يوما ما . ثم تكلمنا عن ثورة الهند التي تفاقم خطبها في تلك الايام ، وفي حالة روسية وألمانية وشبابهما ونشاطهما . ولا حاجة الى ذكر شيء من ذلك هنا

(رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية والكتب في كل منها)

قد نوهنا بما عني به الاستاذ الامام منذ انتقل من دور التعلم الى دور العمل من السعي لاصلاح اللغة العربية عند توليه إدارة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية وفي التدريس بدار العلوم ثم في اصلاح الازهر ، وفي بعض تقاريره الاخيرة عن دار العلوم عند توليه رياسة امتحانها السنوي تصريح مرضي بتقدم اللغة العربية فيها وقربها من الدرجة المطلوبة وسننشر بعضها في الذيل إن شاء الله تعالى

ولكنه كان يرى ان اللغة العربية في حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العلم في أوربة من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لي ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيس فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة .

وأما كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين ، ويقول مع ذلك إن فن

التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، واننا في أشد الحاجة الى حذوهم فيه

قلت له في أول حديث لنا في اصلاح الازهر وقد تقدم ذكره وتاريخه اننا في أشد الحاجة الى تأليف كتب تناسب حالة العصر وحاجته في الترتيب والسهولة ومراعاة عقول المتعلمين ، وفي تنقيح العلوم وتعبيد طرقها ومسالكها ، ولا سيما تواريخ العلوم وغيرها .

قال نعم : اننا اذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلا فلا يوجد في تواريخنا مادة تفي بالغرض ، يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصري ، لكن ما سبب ذلك؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذي حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ و .... ومتى دخلت الفلسفة في كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء في إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد في وقت واحد ؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا – ويمكننا أن نعرف كثيرا من شؤون الاسلام وتاريخه من الكتب الافرنجية فان فيها ما لا نجده في كتبنا .

وقال في وقت آخر ان العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا اذا كان متقنا للغة من لغات العلم الاوربية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الاسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

﴿ رأيه في الصوفية والفقهاء ﴾

أول حديث دار بيني وبين الاستاذ في هذه المسائل كان في يوم الخميس (٦ شعبان سنة ١٣١٥) كنت على موعد لزيارته فجئته في منتصف الساعة التاسعة صباحا فكاشفته بعزمي على انشاء جريدة وتكلمنا في هذا الموضوع بما سأذكره في موضعه ، وإذ كان المراد من جريدتي هذه الاصلاح الديني تذاكرنا وفيه وفي وجه الحاجة اليه حتى انتهى الكلام الى ذكر الصوفية

قلت : إن الصوفية فلاسفة أخلاق ، وان كلامهم نفع كثيرا وأضر كثيرا

قال : (١) انه لم يوجد في أمة من الامم من يضاهي الصوفية في علم الاخلاق وتربيـة النفوس — و (٢) انه بضعف هـذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين — و (٣) ان سبب ماألم بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الامراء بقول الفقهاءفيهم، فأولئك يكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى انه قتل في هذه البلد (القاهرة) في يوم واحد خمسمائة صوفي ـ و (٤) ان هذا سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم انظهروا ، ولجوئهم إلى الاختفاء ، وكلامهم فيالطريقة ومايحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والاشارة ـ (٥) ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين الى الظهور به وهو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلا . وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً رويدا حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضا تاما إلا مالا نعلم

قال : وان الفقهاء لبعدهم عن التصوف (الذي هو الدين) جهلوا سياسة وقتهم وحاله ، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية . . . اذا عرفوا ان الحكم كذا ؟ لايعرفون كيف يجعلون الامراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ، ولهذا ضاع الدين والسياسة

احتقرهم الامراء والسلاطين في أنفسهم، واستخدموهم لاغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم ، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم ـ ولا يوافق الشرع ـ فدققوا النظر واستنبطوا لهم مايطلبون ، وأفتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم في كتب الفقه على انها أحكام شرعية « أي ان هذا هو حكم الله في هذه المسألة»

قلت : ان للصوفية كلاما غير معقول وماهو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره للشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذي انفتح به الباب لتأويلات الباطنية، الذين يشبه كلامهم في كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ولكون اهل السنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية

قال : نعم صـدر عنهم كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا ان يكتب « ومنه مايوهم الحلول» ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وأنا لاأنكر ان لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا « بل ربما حصل لي شيء من ذلك وقتاً ما »

لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علما . (قال) ان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغي (أولا يجوز) أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية. اه وقال في حديث آخر ولا يستحيون ان يقولوا: ان كل ذلك حكم الله يدين به عباده . وقال أيضا : كل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله تعالى فسببها التصوف. وتقدم بيان ما وفق له من التصوف الصحيح الخالي من البدع والخرافات المرغب في العلوم وتحرير القول في التصوف في أوائل الكتاب .

ثم فصل الاستاذ هذه المسألة ـ التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء في تفسير (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وحقق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، وافتتان الناس بهم بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أنداداً لله يطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى فيراجع هذا التفصيل في الجزء الثاني من التفسير

وفصله ايضاً في مجلس من مجالسه التي عقدت لايراد الشبهات وحل المشكلات وتفنيد الخرافات في قرية (بهاده) وكنا من حضرها مع الاستاذ الاكبر السيد علي الببلاوي شيخ الجامع الازهر وغيره من كبار علماء الازهر كالشيخ أبي الفضل الجيزاوي الذي صار شيخا للازهر بعده والشيخ سليمان العبد شيخ الشافعية وغيرهم رحمهم الله تعالى ، وكان هنالك شيخ يسمى الشيخ محمد الدلاصي يفتن العوام بالاولياء وكراماتهم ومددهم ، وكان الشيخ عبد المؤمن موسى عمدة تلك البلد من قراء المنار يخالف هذا الشيخ في تعاليمه الخرافية ولم يجد وسيلة لاظهار ضلاله لاهل البلد الذين يجتمعون عليه الا دعوة الاستاذ الامام الى البلد هو وهؤلاء العلماء الاعلام (سنة ١٣٢٢)

وهنالك ألقيت على الاستاذ الامام الاسئلة المتعلقة بالموضوع فأجاب عنها بما هو الصواب وفصل الخطاب ، ومما لم نكن نعلمه الا منه في ذلك المجلس مسألة (ديوان الاولياء والتصرف الباطن) للذين ينسبان الى الصوفية فبينها الاستاذ الامام أحسن بيان وافقه عليه من حضر من العلماء ، وملخصه انه لما أمعن

الامراء في الفتك بالصوفية باغراء الفقهاء كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث في كف الاذى عنهم ويقررون فيها ما يتفقون عليه ثم يسعون لتنفيذه بالوسائل الكسبية وقد يكون منه قتل بعض خصومهم - فهذا أصل ما يسمى الديوان والتصرف في الاكوان ، وليس تصرفا بالكرامات ولا بخوارق العادات فليراجع تفصيل هذا من أراده في (ص ٤٣٢ - ٤٤٠) من مجلد المنار السابع

رأيه في البهائية العباسية والشيعة

كنت قد عنيت بالبحث عن حقيقة البابية البهائية وغير البهائية في أثناء طلب العلم بطرابلس الشام ، ولما هاجرت إلى مصر في منتصف سنة ١٣١٥ اجتمعت بميرزا ابي الفضل الجوزقاني داعية البهائية وناظرته مراراً ، وكان عندي رسالة منه كتبها في التمهيد للدعوة الصريحة إلى دينهم وكانوا ممنوعين من هذه الدعوة في بلاد الدولة العثمانية - ومصر منها - بما اشترطته عليهم الدولة عند الاذن لهم في الاقامة بعكاء وحرية التجوال والاقامة في سائر بلادها

وقد دهشت أشد الدهشة إذ رأيت الاستاذ الامام غير واقف على حقيقة دينهم ومصدقا ما كان سمعه من زعيمهم الداهية عباس افندي نجل البهاء ومنظم دعوته وناشرها حتى أوقفته على ذلك ، كان يجتمع بعباس افندي أيام إقامته في بيروت إذ كان عباس افندى يتردد اليها ويصلي الصلوات الخمس والجمعة ويحضر بعض دروس الاستاذ الامام ومجالسه واستمر على مكاتبته بعد عودته إلى مصر ولدي عدة كتب منه اليه

وكان أول حديث جرى بيني وبينه فيهم تتمة المحاورة في الفقهاء والصوفية فانني لما ذكرت الشبه بين الصوفية والباطنية في التأويل سألته عن رأيه في البابية

قال ان هذه الطائفة هي الطائفة الوحيدة التي تجتهد في تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين وفيها العلماء والعقلاء ، ولا أعلم حقيقة مذهبهم ، ولا أدري هل ما يقال عنهم من الحلول ونحوه صحيح ام لا ? بل أستغرب به جداً

سألته عن ميرزا فضل الله الايراني ؟ قال سمعت به منذ عهد قريب وانه مؤرخ وفاضل ولم أره

قلت نعم انه بارع في التاريخ وقد ساح كثيراً وهو مهذب الاخلاق وذكرت كل ماعرفت من صفاته وقلت انه يظهر لنا انه من دعاتهم

ثم سألته عن عباس افندي وقلت أسمع انه بارع في العلم والسياسة ، وانه عاقل يرضى كل مجلس ...

قال نعم ان عباس افندي فوق هذا ، انه رجل كبير ، هو الرجل الذي يصح اطلاق هذا اللقب (كبير) عليه

قلت له : انني اجتمعت بميرزا فضل الله مراراً وناظرته فألفيته يستدل على صحة تعاليمهم بثباتها هذه المدة وانتشارها ونموها ، ويحتج بآيات من القرآن على انه لايدوم ولا يثبت إلا الحق كقوله (إن الباطل كان زهوقا) وقوله (له دعوة الحق) الخ

قال : وانا أقول انه لايثبت ويدوم إلا الحق والخير ، وان الشر والباطل لايدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الامد بحيث يصح الاحتجاج لها بهذا (ثم قال وقد رآني مرتابا في قوله) لاأقول ان كل ثابت حق وخير وانما كلامي في الشيء الذي له حياة ونمو (معنويان) فان من الاشياء المعنوية ماهو ثابت كثبات الحجر الذي تلقيه في مكان ولا يحركه أحد أو كالجبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم المحرك لابقوة حيوية تمسكه أن يزول

وأما ماله حياة كالدعوة إلى دين او مذهب فلا يثبت ويدوم إلا اذا كانت الدعوة حقا في نفسها ، وإن احتف بها في بعض أطوارها شيء من الباطل فهو عرض لايمنع دوامها وبقاءها بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين ادعوا النبوة بعد نبينا ﷺ لانه خاتم النبيين

(قال) وكونه خاتم النبيين لو لم يرد في القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه ، وضرب لذلك مثلا فقال ان مثل النوع الانساني كله كمثل شخص منه يخاطبه ابوه ومربيه في كل

طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الانساني . فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم، وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي هو دين سن الرشد لنوع الانسان

ثم شرح المسألة بما نستغنى عنه هنا لانه كتبه في رسالة التوحيد في بحث ترقي الاديان وختمها بالاسلام الذي هو خطاب الله للبشر في سن بلوغ الرشد ولم تكن الرسالة قد طبعت عند إلقائه إليّ بهذا الكلام ولا تم تأليفها (راجع ص ١٨٤ من طبعة الرسالة الخامسة)

قلت : ان اتباع الباب والبهاء قد فتنوا بهما لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة (وكان الصواب أن أقول الاحوال النفسية والاقوال الغريبة المخالفة للعادة) ولذلك اتبعوهما ، مع ان هذا أمر طبيعي فانه قد عهد في الطبيعة ان أفراداً من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة (كقيصر روسية السابق) وكذلك في بعض الازمان يوجد أفراد تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة ، وهؤلاء إذا قام أحدهم بدعوة إلى شيء كدين أو مذهب او طريقة يتبعه خلق كثير افتتانا به وإعجابا بافكاره وادراكاته وأقواله المؤثرة، وإن كان مايدعو اليه غير معقول في ذاته ولا يمكنه اقامة البرهان عليه

الاستاذ : انا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ونجح فيه فلا بد أن يكون مؤيداً بروح من الله تعالى وان هذه القوة العقلية لا يوجدها الله تعالى عبثا

قلت : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ام عليه دليل عقلي

قال : بل هو معقول والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه فان الانبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل

قلت : ان كلامكم السابق واللاحق عين مايحتج به البابية ولم تخالفوهم إلا في شيء واحد (هو كل شيء في المعنى) وهو انكم حققتم انه لا يمكن تغيير شيء من أصول الاسلام وشريعته لانها هي التي خاطب الله بها النوع الانساني عند

بلوغه سن الرشد وطور الكمال العقلي الذي ليس وراءه طور آخر يحتاج فيه إلى تشريع آخر منه تعالى لتربيته وتكميله، بل وكله في كل ماوراءه الى اجتهاده واستقلاله

والذي يفهم من كلام هؤلاء كميرزا فضل الله داعيتهم في تفسير ماتشير اليه رسالته التي كتبها لبعض اخواننا تفسيراً لمقالته التي نشرها في المقتطف (١) هو ان بهاء الله إما أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية واما أن يكون آتيا بشريعة جديدة، وان لكل وجها يحتجون له بالقرآن والاحاديث. والذي علمته من مناظرة فضل الله هذا انهم يعتقدون انه شارع لدين جديد، وان قولهم باحتمال أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية هو الدرجة الاولى في دعوة المسلمين الى دينهم فاذا قبلها المدعو نقلوه الى الثانية، وطريقتهم في الدعاية وتأويل الآيات والاحاديث بأهوائهم كطريقة سلفهم من الباطنية كالاسماعيلية وغيرهم

ويقولون ان غرضهم من ديانتهم او من أصولها ومقاصدها توحيد الاديان وينظرون في كتب اليهود والنصارى ويتأولونها كما يتأولون القرآن ويزعم ميرزا فضل كما سمعت منه أن كتاب كل أمة فيه بيان لكل مايطرأ على تلك الامة وان الانجيل فيه بيان لحالة أوربة الآن وان الاوربيين سيمحقون محقاً. واستدل بما في الاصحاح الثاني من رسالة بطرس الثانية من ظهور معلمين كذبة يبثون بدع هلاك ويجلبون على أنفسهم هلاكا سريعا واعدين اياهم بالحرية وهم عبيد الفساد الخ

قال الاستاذ: لو كان بطرس يعلم ماسيطرأ على المسيحية وأخبر به لأخبر عما هو أهم من ظهور البروتستنتية ومن كل شيء طرأ عليها وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية، فان النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين بعد المسيح بثلاثة

---

(١) كان ميرزا فضل الله كتب مقالة في المقتطف موضوعها (الباب والبابية) وقال إنها مقالة تاريخية، فقرأتها أنا وبعض طلبة العلم في طرابلس ورأينا فيها مايخالف الشريعة الاسلامية فكتبت إلى أخينا الشيخ إسماعيل الحافظ وكان مجاورا في الازهر أن يبلغ مرزا فضل الله إنكارنا ماأنكرناه، فبلغه فكتب رسالة وضح فيها مراده بما علمنا منه ان البهائية دين جديد وانهم يدعون اليه سرا كدعاية الباطنية من قبلهم

قرون، فقسطنطين كان ملكا وثنياً وادعى التدين بالنصرانية سياسة لاجل لاستعانة بمنتحليها على خصمه .. ونجح في ذلك

وقال ان لفظ الحرية في رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن ... الخ

وبعد إطالة الكلام في تاريخ النصرانية أعطيته رسالة ميرزا فضل الخطيئة وانصرفت . ولم أعد إلى لقائه إلا بعد سياحة في الوجه القبلي عدت منها في أواخر شعبان، وقد زرته في الليلة الثانية من رمضان ولم نفرغ للمذاكرة العلمية لكثرة الزائرين ثم زرته بعد ظهر الجمعة سادس الشهر فقابلني في حجرة النوم والمطالعة وكان أول ماسألته عنه رسالة فضل الله فرأيته مستحسنا لها

قلت نعم ان كلامها أوأسلوبها حسن ولاسيما بيان حاجة المسلمين إلى الاصلاح ولكنه ذكر للدعوة إلى الاصلاح درجتين (الاولى) الاصلاح في الدين الاسلامي به وهذا معقول مقبول، وهو الذي نقول به ونسعى اليه وأريد أن أنشيء لاجله صحيفة دورية (والثانية) الحاجة إلى شريعة جديدة ، وقد سلك في التعبير عنها طريق الابهام كقوله ان فهمها يتوقف على فهم معنى « القيامة وطي سموات الاديان » فقارئه لايفهم مراده منه وقد باحثناه فيه فعلمنا انهم يعتقدون ان القيامة قد قامت وان كل ما ذكر من صفاتها في القرآن قد وقع ومنه طي السماء وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فالسموات عندهم هي الاديان ، والسبع منها هي : البرهمية والبوذية، والكونفشيوسية والزردشتية، واليهودية والنصرانية والاسلام . وذكرت غير ذلك من عقائدهم وتأويلاتهم للقرآن بما هو أبعد من تأويلات سلفهم الاسماعيلية والعبيديين بمصر

قال الاستاذ : أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب وإلى هذا الكلام الذي لايعقل . أنا لم أفهم من عباس افندي شيئا من هذا وإنما صرح لي ان قيامهم لاصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة . وفي الحقيقة ان مذهب الشيعة ...... (وذكر ما لم يأذن لي بنقله عنه في حياته ، وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته، وإنما أقول ان حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الاسلام ابن تيمية) وقال هم أحوج الفرق إلى الاصلاح ولكن من الاسف العظيم أن لايقوم فينا

مصلحون إلا ويخرجون عن الاعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة. الوهابية قاموا للاصلاح ومذهبهم حسن لولا الغلو والافراط. أي حاجة إلى قولهم بهدم قبة النبي ﷺ والقول بكفر جميع المسلمين والعمل على إخضاعهم بالسيف أو إبادتهم(١) نعم لا بأس بالمبالغة في القول والخطابة لاجل التأثير بالترغيب أو الترهيب والتنفير، لكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل. انني كثيراً ما أتكلم بكلام في مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عني وإنما فائدته التأثير في نفس المخاطب...

(وهنا انقطع الحديث بزيارة محمد بك بيرم التي تقدم ذكرها ثم عدنا اليه بعد ذهابه)

سأ لني الاستاذ عما أنكرناه من رسالة ميرزا فضل فذكرت له أولا مسألة تعدد الزوجات والتسري وان شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط، فطفق الاستاذ يشرح مفاسد التعدد والتسري وخروج المسلمين بهما عن هداية الشرع الى «الاسراف في استفراغ الشهوة بدون ملاحظة الغرض الديني، وهذه العادة — أي إكثار السراري — نشأت في زمن العباسيين وامتدت إلى هذا العصر حتى انك تجد عند سلطان الاتراك وغيره المئات من هؤلاء السراري، وقد ترتب على ذلك مفاسد كان لها الاثر الكبير في ضعف الامة وسقوطها الى الدركة التي هي فيها. دع ما فيها من بيع المسلمات من الجركس والسودان بدون أدنى شبهة شرعية»

وتوسع في هذا فذكر ما في التعدد من فساد البيوت (العائلات) بانتقال التعادي من الزوجتين أو الزوجات إلى أولادهن فيتعذر معها تهذيبهم، وقال في حق السلاطين والامراء إذا كان في قصر أحدهم هذا العدد الكثير من النساء فمتى يصفو فكره للاصلاح والنظر في شؤون الامة؟

وإنما أطال الاستاذ في هذا الاستطراد لانه ظن انني من الذين يستحسنون

(١) هذا ما كان مشهوراً عنهم في مصر وجميع البلاد العثمانية ثم علمنا من كتبهم ان الناس غلوا في الكذب عليهم لارضاء الدولة العثمانية أكثر من غلوهم فهم لم يهدموا القبة المذكورة ولا قال علماؤهم بكفر جميع المسلمين

تعدد الزوجات وكنا في أول المعاشرة . ثم رجعنا إلى موضوع دين البهائية

قلت : انهم يقولون بصحة جميع الاديان والكتب الدينية ويدعون جميع أهل الملل الى دينهم دعوة واحدة لاجل الجمع وتوحيد كلمة البشر به ، ويستدلون عند دعوة أهل كل دين بشيء مما في كتبهم ولاسيما التوراة والانجيل والقرآن

وقد ظهر لي ان طريقتهم أحكم من طريقة الماسون فان هؤلاء الماسون رأوا من الحكمة أن لايفرقوا بين الاديان في الدخول في جمعيتهم بدعوى انها لا تمس الاديان ، وان كانت غايتها هدم جميع الاديان . وأما البهائية فيقولون بصحة كل دين في نفسه ويستدلون به على دينهم الناسخ لما قبله

قال الاستاذ : ان التقريب بين الاديان مماجاء به الدين الاسلامي وتلا قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الخ واستغرب استدلال القوم على قيام الباب والبهاء بالكتب السماوية اهـ

ولما كتبت ملخص هذا الحديث في وقته ختمته بقولي : والحاصل ان الاستاذ يقول بضرورة الاصلاح وبغلو المصلحين ، ولولا هذا الغلو من البابية لكان يحب أن يساعدهم . أقول : ولم يكن قبل حديثي معه يعلم عنهم شيئاً صحيحاً والظاهر انه لم يقرأ ما نقلته دائرة المعارف العربية عن أستاذه السيد جمال الدين فيهم ، على ان ذلك كان قبل ظهور البهائية ، بل كان غشه داهيتهم عباس افندي بقوله ان قيامهم لم يكن إلا لمقاومة غلو الشيعة وتقريبهم من أهل السنة . هكذا قال عباس افندي لشيخنا الشيخ حسين الجسر إذ لقيه في عكا ، وأنا أيضاً لم أكن أعرف حقيقة أمرهم كما ينبغي

ثم كان من مناظرتي لميرزا فضل الله ما ألجأه إلى بيان أصل عقيدتهم وانهم يعتقدون ألوهية البهاء حتى قال لي مرة فيه (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس) الخ الصفات في الآيات فختمها له بقوله تعالى (سبحان الله عما يشركون) وأخبرت الاستاذ الامام بذلك فعلم انهم نسخة من الباطنية القدماء وشر منهم

ثم رددت عليهم في مواضع من المنار وجاءني بعد الرد عليهم رسائل الباب

من طهران من عربية وفارسية وما يسميه (البيان) الذي تأول به قوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) ثم ساعدت الدكتور مهدي خان على تأليفه (مفتاح باب الابواب) في الرد عليهم وكان عنده نسخة (الكتاب الاقدس) للبهاء التي يكتمونها عن جميع الناس فاطلعت عليها وعرفت حقيقة دينهم بالتفصيل

وكان قد بقي في نفسي شبهة من قول الاستاذ الامام في أوائل حديثي فيه ان ثبات الشيء ونماءه وبقاءه مما يكون في الاديان والمذاهب لا يكون إلا لما معه من الحق فراجعته في ذلك واحتججت عليه بالاديان الباطلة الثابتة منذ القرون الطويلة وكذلك المذاهب والجمعيات الضالة المضلة . فقال إن أصول تلك الاديان والمذاهب حق ثم طرأ عليها الباطل، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، فالنظام حق وهو ثابت باق بذاته وما في الجمعية او المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة اهل الحق لما فيه من الباطل

ثم اني حررت الحقيقة في أصل هذا الموضوع بما رددت به على كتاب ميرزا ابي الفضل (الدرر البهائية) الذي كان أول كتاب طبعوه هنا في الدعوة إلى دينهم فاغتر بخلابته الباطنية صاحب جريدة اللواء فبادر إلى تقريظه والثناء عليه إذ لم يفهم مافيه الكفر ، فخفت ان أرد عليه يومئذ فيصر على ضلاله وانتصاره للبهائية فذهبت إلى الشيخ علي يوسف في مكتبه بدار المؤيد فوجدت الكتاب في يده ينظر فيه تمهيداً لتقريظه وهو معجب بما كان قرأه منه فأخبرته بكنه دينهم وبما فيه من الخلابة والتلبيس على المسلمين ، وكاشفته ان يخاطب مصطفى كامل بتعجله بتقريظه وبما يجب عليه من تلافي هـذا الخطأ حتى لا يغتر قراء اللواء به ويقبلوا على الكتاب فيقع المستعد منهم في أحبولة كيده الباطني ففعل

ثم رددت على الكتاب بمقالتين في المجلد الثالث من المنار عنوان إحداهما (الدعوة حياة الاديان) وعنوان الثانية (الدعوة وطريقها وآدابها) بينت فيهما بطلان شبهته في الاستدلال على حقية دينهم بما زعمه من استمراره وثباته ونموه بما ثبت في تاريخ البشر

من انهم مادعوا إلى شيء الا واستجاب له بعضهم حتى عبادة الشيطان والاوثان والحيوان وغيرها، وان نجاح الدعوة إلى شيء تكون بقدر اتقان القيام بها ومراعاة شروطها الخ

وقد أعجب الاستاذ الامام بهاتين المقالتين وكذا غيره من الفضلاء حتى قال لي المرحوم ابراهيم بك اللقاني من أين جئت بهذه الشروط المعدودة لنجاح الدعوة إلى الاديان فهي معقولة كأنها مسائل علمية مدونة ؟ وقد التزم طبع هذا الكتاب مجاور كردي في الازهر وكان يوزعه فيه فاخبرت الاستاذ الامام بذلك فكلم شيخ الازهر بوجوب عقابه فسأله الشيخ فتنصل واعتذر بانه اسمه ذكر فيه بغير اذنه وهو لا يعلم مافيه فعاقبه بقطع جرايته وراتبه إلى مدة أربعة أشهر فقط، ثم طرد من الازهر

ومما رددت به على البابية والبهائية بالصراحة بعد الاطلاع على رسائلهم وكتبهم التي جاءتني من طهران مقال حافل عنوانه (استغناء البشر عن دين جديد ، ومعنى كون دين الفطرة آخر الاديان ، وافتحار البابية) نشرته في المجلد السابع من المنار (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨) وفيها بعض الشواهد من رسائلهم ، وأدلة الباب السبعة السخيفة على دينه . وبينت فيها فرقهم الاربع (١) البابية الخلص (٢) البابية الازلية . أي أتباع صبح ازل الذي كان في قبرص (٣) البابية البهائية (٤) البابية البهائية العباسية. وقد أعجب الاستاذ الامام بهذه المقالة . وإنما ذكرت هذا في ترجمته لئلا يكون في بقية الناس الذين رأوا صحبة عباس افندي له في بيروت أو سمعوا ثناءه عليه من يظن انه ظل يصدقهم في اظهارهم للاسلام ، ودعواهم أنهم لا يبغون فيه إلا الاصلاح

﴿ رأيه في اعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه ﴾

لا أرى حاجة إلى ذكر رأيه في المسلمين وإعراضهم عن الاسلام وبعدهم عنه وإعراضهم عن هدايته، وما ابتلاهم الله به من سلب الملك، وألبسهم من سرابيل الذل، جزاء لهم لعلهم يرجعون ، فان ما كتبه في ذلك في رسالة التوحيد مختصراً وفي كتاب الاسلام والنصرانية مبسوطا بعض البسط، وما نقلناه عنه في مواضع من التفسير يكفي ويشفي — على أن له في مجالسه الخاصة معنا من التصريحات في ذلك ما لا نظير له فيما كتبه وما كان يقوله في درس التفسير

صرح مراراً بان انتقام الله تعالى من المسلمين لإعراضهم عن كتابه وعن هدْي رسوله اتباعا لأهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وأمراؤهم ، لما يبلغ حده ، بدليل ان هذه النقم لاتزال تتجدد وتتعدد ، وكان يقول ان المسلمين مصابون بالعقم لايموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على خلاف ما نرى عليه الامم الحية ، وكان يذكر لي رجالا كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة في مصر وسورية كالشيخ المهدي العباسي والشيخ علي الليثي في مصر ، والامير عبد القادر الجزائري والسيد محمود حمزة مفتي الشام وغيرهم لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم . وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا في المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم، ولكنه ذكر لنا الامثال من غيرهم أيضا

على انه قال أخيراً ما يدل على رجائه في حياة المسلمين ، وقد عبر عنه أولا بمثل يفيد الشك إذ قال : انني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضر فلا أدري أهي من بقايا الحياة الاولى أم هي بدء حياة جديدة ؟ قلت له الدليل على الثاني ان هذه الورقات تزيد ولا تنقص . وأما رجاؤه في مستقبل الاسلام في الجملة دون شعوبه الحاضرة ، فكان رجاء كاملا لانه متصل برجائه في الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقص قط وانما كان شكه في أول شعب يحيي الاسلام هل هو من المنتمين اليه، أم من الذين سيهتدون به ؟

(رأيه في الاسلام نفسه)

كان يجزم بان الاسلام — إسلام القرآن والرسول الاعظم ﷺ في سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) — هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وان أمم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية مايضطرهم الى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الاسلام — اسلام القرآن والسنة لا اسلام المتكلمين والفقهاء . وقد صرح بهذا في مواضع كثيرة نقلنا عنه كثيراً منها في التفسير وغيره

(رأيه في المذاهب وأئمتها)

كان رأيه في المذاهب وأئمتها عين مايدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هي طرق الاستدلال التي سار عليه أولئك العلماء المستقلون في فهم الكتاب والسنة وقواعدهما واستنباط الاحكام من النصوص بمقتضى معاني اللغة العربية الفصحى في مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد ، وكان يجلّ جميع الأئمة المجتهدين ويرشد طلاب العلم إلى تباعهم في اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقاداً وتخلقا وأدبا وعملا واستدلالا ، كما صرح به في خطبته عند ختام درس المنطق (ص٧٦٣) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب إلا هذا · وأما جعل كلام الامام المجتهد ديناً يتعبد به ، فهو ينافي دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل أهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم ويحلون لهم ويحرمون عليهم في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)

وكان يرى ان أمور الدين قسمان : أحكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها وهي كلها منصوصة في كتاب الله تعالى ومبينة بالتفصيل فى سنة رسوله وتناقلها المسلمون بالعمل ، فهي قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين ، فيأتي فيها تقليد المقلدين .

والثاني أحكام غير ثابتة بنص قطعي ولا إجماع فهي محل الاجتهاد ، والتحقيق أنها لاتكون في فرض أحكام عامة في العبادات ولا في المحرمات الدينية بل فما يشتبه على المكلف من جزئياتها أو طرق العمل بها وفي أحكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتأليف وافتاء والقضاء بين الناس أن يبحثوا عن أدلتها، مهتدين بسيرة الائمة ومذاهبهم فيها ، ويعملوا بما ظهر لهم رجحانه منها . وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشتبه عليهم فيه إلى من يثقون بعلمه وتقواه فيسألونه عن حكم الله فيها إن كان فيها نص عنده ، أو عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها . وهذا معنى قول علماء السلف وأئمتهم : العامي لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه . والمدار في أساس هذا الموضوع على أصل

الامام مالك في ان مدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ، ومدار أحكام المعاملات في غير المنصوص القطعي على القواعد واعتبار المصالح العامة

وتقدم رأيه في وجوب الانتفاع بفقه جميع الأئمة في أحكام المعاملات في الكلام على تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية ، وفي معناه كلامه مع قاضي القضاة في السودان واخوانه ، وكان الاستاذ مالكي المذهب في نشأته الاولى ، تفقه بمذهب مالك ثم قرأ فقه الحنفية في الازهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية ، وأصل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحرمات الدينية لاتثبت إلا بنصوص الكتاب والسنة القطعية ، بل نقل الشافعي في الام عن أبي يوسف ان مشايخه وسائر علماء السلف لايقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله تعالى بلا تفسير . ونقل شيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا يوجبون ولا يحرمون شيئا إلا بنص قطعي ، وان الاحكام العامة للامة لاتثبت إلا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه في الفقه والفقهاء وسوء حالة المسلمين

قال في المحاورة الطويلة التي دارت بيننا في نهار رمضان سنة ١٣١٥ بعد الكلام في البابية ماخلاصته كما كتبته في ذلك اليوم :

ان المسلمين ضيعوا دينهم واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل و... لم يبق عندهم شيء . هذه الصلاة التي يصلونها لاينظر الله اليها ولا يقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القرود ، وألفاظ لايعقلون لها معنى ، لايخطر ببال أحد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمده ، ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة (وربما غيرهم أيضاً) قالوا إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب. ماهذا الكلام ؟ انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة في القرآن تبطله . قالوا النية في الصلاة أن يقصد الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالغ بعضهم فقال: لابد من تصور جميع

أعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله ﷺ «إنما الاعمال بالنيات» بهذا. إنما قصد الفعل عند مباشرته طبيعي، فانني اذا قمت أمشي لا أقصد بمشيي القعود (ضحك) وحاش لله ان تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والعبادات، ولكن هؤلاء الفقها حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة، إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا. المراد بالنية في الحديث قصد المرء وغرضه من فعله وهو إما وجه الله وابتغاء مرضاته (وهو النية الصحيحة) واما غرض آخر كالرياء (قلت) وعلى هذا يدل الترديد في مسألة الهجرة في الحديث نفسه) لا أن المراد قصد هذه الحركات التي لا معنى لها، وما كان الله تعالى ليفرض حركات وأعمالا يجعلها عبادة وقربة، والمرء يفعل مثلها كثيراً في تردده بأشغاله الدنيوية من مشي وانحناء وقيام وقعود

ان صلاة المستر براون الانكليزي عندي خير من صلاتهم. سألته عنه فقال: هو رجل انكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم [1] وهو يحملها ويقرأ فيها دائما عند الفراغ، ويصلي بحسب مايفهم من القرآن، ويستقبل القبلة كما حرره بحسب معرفته بعلم الفلك، ويركع ويسجد، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا يعلم الاوقات وعدد الركعات. قال لي: انني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع

وسألني عن صلاته فقلت له أنا أصلي فصل معي، وعلمته كيفية الصلاة في زمن قصير بالعمل، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها، وقال لي مرة انه يعجب لكون المسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس، وقد سألني من أكثر الناس جناية على القرآن؟ فقلت ذووه وأصحابه، فسر بجوابي هذا كثيرا. أوتي كل هذا الاعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع أن الترجمة الانكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة الخ

ثم قال: وقد جعلوا (أي الفقهاء) كتبهم هذه على علاتها أساس الدين، ولم يخجلوا

---

(١) قد علمت بعد ذلك انه كان ضابطا بحريا وانه لما رأى الكلام عن البحر وظلماته وأمواجه واهوالها في ترجمة القرآن سأل بعض الهنود من المسلمين: هل ركب محمد البحر وسافر فيه؟ قال لا، قال ان ما في القرآن عن البحر لا يمكن أن يكون عن خبر مخبر من الناس، فكان هذا سبب عنايته في قراءة الترجمة كلها واهتدائه للاسلام

من قولهم: ان العمل يجب بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة. فانصرفت الاذهان عن القرآن والحديث، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على مافيها من الخلاف في الآراء والركاكة

(قلت له : سمعت بعض الحنفية يقول ان الفقه الحنفي يحتاج في تحصيله إلى عشرين سنة ، فقلت للقائل ان هذه المدة هي مدة البعثة التي شرعت فيها العقائد وأحكام الفقه وغيرها من الاحكام التهذيبية والسياسية ، والنظم الحربية والمدنية، مع الاشتغال بالحرب والفتوحات) فضحك الاستاذ وقال: ان قول هذا القائل صحيح

قلت له : رغب إلي الصديقان (الشيخ محمد الرافعي وعبد القادر افندي المغربي) أن أسأل فضيلتكم عن الطريقة التي ترونها مفيدة في تهذيب فقه الحنفية والتأليف فيه على كيفية مفيدة . قال وهل يوجد عندهم اشتغال صحيح ؟ قلت نعم قال (١) ينبغي لمن يؤلف أن يحيط اولا بمسائل الباب الذي يكتب فيه (٢)وأن يعتمد على كتب القرون المتوسطة كالزيلعي ، لاهذه الكتب المختلة العبارة كالكنز والتنوير (٣) وان يرجع أحكام الباب ومسائله الى قواعد كلية (٤) ثم يسرد الاحكام بعدها في غاية الوضوح (٥) وأن يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل فيقدم ماينبغي تقديمه ويؤخر ماينبغي تأخيره (٦) وان لايخلط مسائل باب بآخر وان كان بعض المسائل يشترك فيه بابان كالبيع والاجارة فلا بأس بذكره في كل باب، ولا بأس بالاشارة الى انه تقدم (٧) وان يذكر القول الراجح بدليله ويذكر بعده القول المرجوح مع الاشارة الى دليله (٨) وأن يختصر في مسائل العبادات

ثم قال «إذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزيلعي نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه ، ومادمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم إلا منها فلا نزداد إلا جهلا . هذا الشوكاني لما كسر قيود التقليد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الامة) وحالة الحكام أمام الفقه قال :

«ان العامي الذي يحتاج الى الكسب والعمل لاسعة عنده لصرف سنين طويلة

في تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة، وأي حاجة إلى هذه الابحاث الطويلة، والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة قال عليه‌السلام « صلوا كما رأيتموني أصلي » وشرح صلاته ووضوءه يمكن بيانه في ورقات قليلة . وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

«من أين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به؟ وهل فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا أحسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض أيضا وكان الشيخ الانبابي يقول بنجاسته لان فيه سبيرتو ، وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو ؟ والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف (١) فانه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف - كذلك محلول السليماني من أحسن المنقيات والمطهرات (الطبية) وشربه قاتل

«ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل نوقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الاحكام الشرعية ولجؤا إلى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص (كذا في مذكرتي) فاضطر الناس إلى الاستدانة من الاجانب بارباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسؤلون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أي كأحكام الضرورات) لا انهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء ،

«يقرءون الاصول ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله ، أو يبحث عن دليله ، بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر

(١) ظاهر هذا ان الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ولكنني لما افتيت في المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك واقره

في الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول (وكلهم من رسول الله ملتمس)

قلت له ان الابوصيري جدير بالشكر منهم حيث وضع لهم هذه القاعدة التي يرجعون اليها، كما ان ابن مقلة جدير بشكر الدروز بل يجعله إماما في دينهم لاني رأيت لهم كتابا يذكرون فيه أسرار الحروف من حيث رسمها الحالي، وأول من اخترعه ابن مقلة فرسمه أصل يستنبط منه كثير من الاحكام الدينية على مذهبهم ،فضحك ثم قال :

« كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لاسباب خاصة بمكان او زمان ينبغي لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ،لانهم يجعلون كل ماقيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان» اهالحديث

(أقول) قد فطنت في أثناء طلبي للعلم في طرابلس الشام لانكار قول العلماء إن جميع ماقرره الفقهاء في كتبهم من الاحكام دين أوجب الله علينا اتباعه ونحن نرى بمدارسته أن أكثره آراء للمؤلفين يستنبطها بعضهم من كلام بعض لامن كلام الله ورسوله (ص) والذين يستدلون منهم وهم أقلهم يذكرون فى أدلتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة ولا سيما الحنفية فكنت أجادل الطلاب ثم العلماء في ذلك ولا سيما الصديقين اللذين ذكرتهما للاستاذ الامام في حديثي هذا فهما اللذان عودتهما حرية البحث بغير احتراس ولا تقية ، حتى كنت أقول في بعض الاحكام أهذا حكم الله تعالى أم حكم التتارخانية والشرنبلالية والولولاجية وأمثالها من كتب الاعاجم والمقلدين ؟ (وكان هذا أول أسباب اشتغالي بعلم الحديث)

وقد ذكرت هذا للاستاذ الامام فاعجبه حتى ذكر أسماء هذه الفتاوي مرة في درسه في الازهر . ومن أغرب أمر علماء الفقه أو كتبه أنهم صاروا يخضعون للمتصوفة بعد أن ضعف أمر الفريقين في العلم حتى انهم يسلمون لهم خرافاتهم بالتاويل ، بعد ما كان التناكر بين سلفهما كما تقدم

حسبي هذا القدر من آرائه المفيدة في الاصلاح، وله آراء علميه ودينيه بيناها في التفسير، ولاحاجة إلى تدوين آرائه العلمية الخاصة التى لا تدخل في أبواب الاصلاح ككون الجماد له حياة خاصة به، وكون الانسان له عدة أنفس، وان في الكون أرواحا منبثة فيه تؤثر في أرواح البشر كالنسم الخفية المسماة بالميكروبات التي تؤثر في أجسادهم

آماله واماني

بينا فيما سبق أن أكبر آماله وأمانيه من الحياة إصلاح حال المسلمين في دينهم ودنياهم بما يعود به مجد الاسلام ، ويعم نوره الانام ، وفقا لما يفهمه من وعد الله تعالى في القرآن ، باظهاره على الدين كله ، في العالم كله ، وانه كان يرى ان أقرب الوسائل وأرجاها لذلك إصلاح التربية والتعليم في الجامع الازهر ، لانه مدرسة العالم الاسلامي كله ، وانه كان من مقاصده الاصلاحية فيه تخريج طوائف من الاخصائيين في كل علم من العلوم يكونون مرجعاً فيه وقائمين بفروض الكفايات العلمية والدينية كلها على أكمل حال يصل اليها كسب البشر ، ولا سيما طائفة القضاة وطائفة الدعاة الى الاسلام والمدافعين عنه، وطائفة الوعاظ والمرشدين والخطباء لارشاد العامة، وطائفة المؤلفين لجميع مايحتاج اليه رقي الاسلام من الكتب المختلفة المواضيع

مدرسة كلية

لما خاب أمله في الازهر فكر في السعي لانشاء مدرسة كلية تغني عنه في تخريج الرجال الذين يقومون بخدمة الاسلام . فاستمال أحمد باشا المنشاوي المثري المشهور ليقوم ببذل المال لذلك لما يعلمه من حبه لمعالي الامور . وكان المنشاوي قد حوكم في تلك الاثناء بتهمة الاعتداء وتعذيب بعض الناس وحكم عليه بالحبس فحبس ثم خرج مبعداً عن الخديو ومكروها من الانكليز والحكومة حتى أعرض عنه جميع الوجهاء . فاغتنم الاستاذ الامام هذه الفرصة وأظهر له العطف والتكريم . وصار يدعوه الى طعامه ومجلسه ويزوره في ذهبيته . وقد كان حمل من تونس عدة من برانس الصوف والحرير وغيرهما من نسيجها البديع . فعرضه كله على أحمد باشا المنشاوي ليختار لنفسه برنساً أو دثاراً منها، فأخذها كلها، ظناً منه انه اليه أهداها، وحرم الاستاذ وأهله وأصدقاؤه كلهم من هذه الهدايا النفيسة التي كان يريد توزيعها عليهم وصار المنشاوي كلما أراد أن يجيء القاهرة يرسل برقية إلى الاستاذ الامام بانه سيتغدى عنده يوم كذا ، وكان الاستاذ يدعوني لأحضر الغداء معها ، ودعا مرة احمد فتحي (باشا) زغلول فاجتمعنا في عين شمس وتكلمنا مع الباشا في مسألة

إنشاء المدرسة التي توجهت رغبة الامام اليها فقال أنا مستعد لتنفيذ ماتقررونه، ولكن بشرط أن تكون المدرسة خارج مدينة القاهرة « بلد الافيون والمنزول » واختار أن يبنيها في أطيانه في بسوس ويشتري للمعلمين مركباً بخاريا (رفاصاً) ينقلهم إلى القاهرة كل يوم. وقد عرفته في تلك الاثناء فصرت أكثر الكلام معه في الترغيب في هذا العمل، ووصل خبره إلى الجرائد فطفقوا يذكرون المدرسة الكلية أو الجامعة بما يزيد في تشويقه اليه، وقد ألححت عليه مرة حتى اقسم بالله ليقومن من فوره لشراء قصر في شبرا لأحد الامراء، لينشيء المدرسة فيه موقتا الى ان يتم البناء، وقد فعل، ولكن لم يتفقا على الثمن

وفي يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر ١٩٠٥) كتب الى مجلس النظار كتابا يطلب فيه أن تبيعه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجعلها وقفاً على مدرسة كلية يريد إنشاءها في ضواحي القاهرة، على أن يوقع عقد الوقفية في الوقت الذي توقع فيه المالية عقد البيع. وقد كلم الاستاذ الامام وكيل نظارة المعارف بأن يكتب إلى نظارة المالية توصية بان تجعل الثمن رخيصا جداً كعادتها فيما تبيعه للمدارس والاعمال الخيرية ففعل. وكلم الاستاذ نفسه مستشار المالية بذلك فوعده، حتى إذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه في الاسبوع الذي عين فيه موعد العقد كما بينت ذلك في ترجمته من مجلد المنار السابع

الحج والزيارة ورؤية مواضع غزواته (ص)

كان من أكبر آماله أن يحج بيت الله الحرام، ويزور المسجد النبوي وقبره عليه الصلاة والسلام، ثم يزور جميع أماكن غزواته ﷺ ويضع خريطة للحجاز يبين بها مواضع تلك الغزوات، وكان المانع له من المبادرة إلى ذلك ما كان يعلمه من اساءة السلطان عبد الحميد الظن به بتأثير سعاية الجواسيس ولا سيما بعدما كان من أمرهم عند زيارته للآستانة فقد كان يرجو زوال ذلك ليكون آمناً على نفسه في أثناء أداء الحج وما يتبعه مما ذكرنا وكان يقدر لذلك أربعة أشهر

ولكن سوء ظن السلطان به كان يزداد عاما بعد عام، وصار الخطر منه بعدما كان من تغير الخديو على الاستاذ أكبر، إذ كثرت تقارير سعاة الشر المفسدين في الطعن فيه وتخويف السلطان به، حتى ان الاستاذ عند ما كان في مرض الموت، كانت حكومة

سورية تبحث عنه في سواحلها إذ بلغها من طريق الآستانة عن مصر انه عند ما انتقل من القاهرة إلى الاسكندرية كان يريد الذهاب منها إلى سورية لاجل عمل سياسي فيها

تأليف تاريخ للاسلام

لما فرغ من قراءة دلائل الاعجاز في الازهر كثرت عليه اقتراحات الطلاب والعلماء فيما يقرأ بعده ، واقترحت أنا عليه أن يشرع في تأليف كتاب في تاريخ الاسلام ويقرأه ، وكان الاستاذ الاكبر السيد علي الببلاوي شيخ الازهر اقترح عليه ان يقرأ تاريخ الاسلام إذ لا يقدر على ذلك غيره ، فعززت رأيه بهذا الشرط وهو ان يؤلف هو التاريخ وكلما كتب شيئاً منه نطبعه ويشرع هو في قراءته ، فالقراءة تتبع الطبع ، والطبع يردف التأليف ، فانشرح صدره لذلك وعزم عليه ، ولكن حال دونه ما كان من الشغب السياسي الذي أثاره الامير وانتهى باستقالة صديقه شيخ الازهر المذكور واستقالته هو من الازهر وما ولي ذلك من مرضه فوفاته ، ولو لم يخسر المسلمون بذلك إلا حرمانهم من هذا التاريخ لكانت خسارة لا يعرف كنهها إلا من يعلم ان المسلمين أحوج إلى هذا من كل كتب الكلام والعقائد ، إذ ليس لديهم تاريخ مدون على الاصول العلمية الحديثة ، التي ارتقى اليها الافرنج في هذا العصر ، حتى انهم ألفوا في تاريخ لاسلام مالم يوجد له نظير في مؤلفات المسلمين كتاريخ سيديو الفرنساوي المسمى بخلاصة تاريخ العرب وقد بدأه بمقدمة فيما كانوا عليه قبل الاسلام ثم ذكر ظهور الاسلام وما كان من تأثير دعوته وفتوحاته فيهم وفي سائر العالم ، وما ترتب على ذلك من احياء جميع علوم العمران القديمة وترقية العرب لها ، على اختلاف أنواعها من رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وصيدلة وآداب وفنون ، وما كان وراء ذلك من الحضارة وارتقاء العمران بالصناعة والزراعة ، واشراع طرق التجارة وغير ذلك . وكذا تاريخ حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون الشهير وقد تقدم ذكره وكان الاستاذ عهد الى أحمد فتحي (باشا) زغلول بترجمته فعزم على ذلك ثم توفى الاستاذ ولم يفعل (١)

(١) ترجمه بعد ذلك الاستاذ الكاتب المؤرخ محمد افندي مسعود الشهير ولما يطبعه

ومن المعلوم بالبداهة ان هؤلاء الافرنج لا يفهمون الاسلام وتأثيره كما يفهمه أعلام المسلمين ، وأن في اعلام المسلمين مثل الاستاذ الامام ، فهو أوسع منهم اطلاعا على مادة تاريخ الاسلام والسيرة النبوية ، وأدق منهم فهما ، فهو بعلمه هذا وعلمه بما كتب المسلمون وبما كتبوا هم بطريقتهم العلمية ، وبقوة ايمانه وسعة معارفه ، أجدر من عرفنا بأن يكتب للاسلام تاريخا يبين حقيقته وتأثيره الروحي والمدني في اصلاح البشر ، ويثبت فيه بالتفصيل ما نقلناه من رأيه في مستقبل الاسلام ، ويكون خير معين على الدعاية الاسلامية ، فانه يكون أعظم تأثيرا وأعم نفعا من كتب العقائد كلها لاشتماله على ما فيها وزيادة ، و لقراءة كل الناس له وفهمهم إياه

﴿ جريدة يومية ﴾

كتبت في ترجمته التي نشرتها في المنار عقب وفاته في هذه المسألة ما يأتي :

وكان في عزمه السعي لتأليف شركة تنشيء جريدة يومية في القاهرة تختار لها طائفة من الكتاب الاخصائيين يتقاسمون موضوعاتها فينفرد بعضهم في بيان ما عليه المصريون في المدن والقرى والمزارع من العادات والتقاليد والاعتقادات وما يطرأ عليهم من التغيير في ذلك ، وبعضهم في المسائل الاقتصادية والزراعية ، وبعضهم في الموضوعات العلمية والادبية ، ويوضع لهم قانون لا يتعدونه ومن أحكامه الاقتصار في المسائل السياسية والاخبار الصادقة على ما فيه العبرة والفائدة لاهل البلاد ، وعدم المدح والذم الشعري ، وقبول الانتقاد على ما ينشر فيها من كل كاتب أديب ، ومنها أن يرجع في بيان جميع المصالح ذات البال إلى ما يقرره مجلس ادارة الجريدة بالمشاورة فلا يكون ما ينشر فيها عبارة عن رأي رجل واحد ومثله لا يتذبذب مع ميله وهواه ، ومنها أن لا تكون الجريدة خصما لجريدة أخرى.

كنت ممن ي[illegible]ح عليه بهذا السعي منذ سنتين واخترت لهذا العمل من الكتاب المجيدين المعتدلين من رضي بهم ، وكاشفنا كثيرين من الكبراء والفضلاء في ذلك ، واخترنا منهم أعضاء لمجلس الادارة ، ووضعت تقريراً تمهيديا لانشاء المطبعة ونفقات العمل ولو بقي الامام حياً لرجونا أن يبرز هذا العمل في هذا الشتاء ، وان خسارتنا بفقده لاعظم من كل خسارة

المقصد السابع

من الفصل السابع

أخلاقه وشمائله ومعارفه

أذكر هنا ما كتبته في ترجمته من المنار مع تفصيل وتنقيح إيضاح فأقول :
الاعمال ثمرات الاخلاق فما ذكرناه من أعمال الرجل يمثل بعض أخلاقه لانها بعض آثارها، وان وراء ذلك من أحاسن الخلال، وآيات الكمال، ماتقصر عن تمثيله جلائل تلك الاعمال، ولقد كملت للاستاذ الامام اصول الفضائل الاربع، (العفة والشجاعة والعدالة والحكمة) وما نشأ عنها وتفرع، وإننا نشرح بعض أخلاقه لتكون قدوة للمقتدين

عزة نفسه وعلو همته وتواضعه

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة هبة ووراثة وتربية، وقد أدركه السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة، وترعرع في بيت الامارة، وهو مجاور في الازهر، ومنقطع الى التصوف، يلبس قميصاً يبدو من أعلا جيبه صدره الاشعر، وقد ارسل جمة كجمة الدراويش . فراعه من صاحب هذا القشف ماعنده من العزة والاباء، وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف، وأكبر أن يكون هذا أثر التربية والتخلق في بلاد ساسها الظلم، وتحكم فيها الجور المذلل للارادات المذل للنفوس . وكأنه سبق الى نفسه أن هذا أثر وراثة لأحد آبائه الاولين، وانهم لابد أن يكونوا من الملوك والحاكمين، فقال له مرة أو مراراً « قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ » وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين، وناهيك بقول الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وهو الباعث على جلائل الاعمال، والحامل على الاستهانة بما بين يديها من الاهوال .

وقد يشتبه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم، بخلق الكبر الذميم، ولذلك كان بعض الحاسدين والجاهلين ينبز الاستاذ الامام بهذا اللقب ولا سيما

عند ما كانوا يرونه مترفعاً عن الدهان والتملق للكبراء، معرضاً عمن يعارضه في مقاصده وان كان من العظماء. ولو اختبروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون، ولرأوا كيف كان يخدم الفقير والمسكين، ويتجافى جنبه عن مضجعه لاجل العفاة والمستفيدين، ولكن الخديو كان يقول إنه يدخل عليّ كأنه فرعون!

مهابته ولطفه في المعاشرة

كان مهيب الطلعة، وقور المجلس، وهذه الصفات تشتبه بصفات المتكبرين، ولكن من عاشره يرى من لطفه وتواضعه عن رفعة، وأدبه وظرفه في ألطف حشمة، وفكاهته بما دون الدعابة، ما يعلم به انه كان له أوفر حظ من الوراثة المحمدية التي عبر عنها هند بن أبي هالة (رض) في حديثه المشهور في شمائل المصطفى (ص) بقوله «من نظر اليه بديهة هابه، ومن عاشره معرفة أحبه» وما زلت أقول إن نسينا جميع فضائله فلن ننسى حلاوة عشرته، وأنس محاضرته، ولذة محاورته.

ومن دقائق ملاحظته في التواضع والادب انه كان يتحامى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه، وتلاميذه ومريديه، فيستبدل بالامر الاستفهام والتخيير، ويوسع للمخاطب العذر قبل ان يحتاج إلى الاعتذار، ثم إذا أخلف معه يتناسى إخلافه فلا يقابله بلوم ولا عتب. أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة: انني أكون غداً في مكان كذا بعد الظهر فان ذكرت ذلك ووجدت فراغا وأحببت أن تراني فعلت. ذكر كل هذه القيود وأنا اعلم انه يريد أن أوافيه حتماً، ولولا ذلك لذكر لي انه يكون في ذلك المكان ولم يزد كعادته معي إذ كان يخبرني في يومه بمواقيته في غده.

سلامة صدره، وصفاء قلبه

قد عرف رحمه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاء القلب، والحلم والصفح، فما انتقم من مسيء، ولا سعى في ضرر أحد قط، بل كان يحسن إلى من أساء اليه: إذا استنجده أنجده، وإذا استرفده أرفده، وإن عاد إلى الاساءة سبعين مرة

كان بعض كبار علماء الازهر الوجهاء، من أولي المناصب في القضاء، قد انحرف عنه، وكان من قبل زميلا له في طلب العلم، فخاض فيه، حتى عرف بأنه من شانئيه، فاتفق لهذا الرجل أن صدر عنه ما أغضب الرؤساء الثلاثة عليه: الخديو

ورئيس النظار ولورد كرومر . فضاقت عليه الدنيا وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد له وسيلة يلتجىء اليها لارضائهم أو استمالة بعضهم اليه إلا زميله القديم ، فجاءه بعد إعراضه الطويل العريض ، وقص عليه خبره ، فطيب قلبه وطمأنه ، ولم يلبث أن طاف على الثلاثة وكلمهم بما أرضاهم عنه في يوم واحد

تغليبه لحسن الظن وتغابيه عن الشر

كان على ذكائه وصدق فراسته يغلب عليه حسن الظن وبذلك رفع أناساً الى مراتب لم يكونوا أهلا لها ، والناس يعدون ذلك عليه ، ويغفلون عن عذره فيه ، وهو ان من رفعهم ورقاهم كان لابد للاعمال التي رقاهم اليها من عاملين ، فحسن الظن ببعض من يمكن أن يعهد اليهم العمل وناطه بهم ، فمنهم من ظهر بالاختبار ان ظن الخير فيه صادق فكان صالحا للخدمة شاكراً للصنيعة . ومنهم من ظهر بعد التجربة لؤمه ، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملا ، ولم يشكر محسنا . ومن هذا الفريق من اساء إلى من أحسن اليه ، وكفر حقوق المنعم عليه . ومنهم من أظهر الوفاء ، في وقت الرخاء ، وأظهر حقده وضغنه ، عند الضراء والمحنة . وليت شعري ما حيلة الرجل الذي جبلت طينته على الاحسان ، وتوجهت همته الى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق ، وقل فيهم الوفاء والاخلاص . أيمكن أن يقال له لا تُسدِ الى أحد معروفا ، ولا تسعَ لاجل أحد بخير ، الا بعد ان تجربه عدة سنين ، فتعلم انه من المصلحين والشاكرين ؟ كيف وانما يجرب الرجل بما يعهد اليه من الاعمال ، وما يعامل به من البر والاحسان ؟

وكان أهل الخبث والمكر من حاسديه يظنون أنهم يخدعونه بدهائهم ودهائهم ، ولكن فراسته كانت تخترق صدورهم ، وتنفذ إلى سواد قلوبهم ، ويقرأ في صحائف وجوههم الاولى ، مارسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وإنما يقبل منهم ما أظهروا ، ويتغابى عما أضمروا ، عملا بقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) الآية وبما ورد في الخبر « اصنع المعروف إلى من هو أهله والى غير أهله ، فان أصبت أهله اصبت أهله ، وان لم تصب أهله كنت أنت من اهله » رواه الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر (رض) وابن النجار عن علي (رض) وهذا ما أوصى به الاستاذ الناس في السودان كما تقدم ، (ص ٨٨٨) وكان يعجبه قول أفلاطون : استصلاح العدو أحزم من استهلاكه

على انني لا انكر انه كان لسلامة قلبه يفيض امام بعض من يعتقد اخلاصهم بما لا تسعه عقولهم ، ويفضي الى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم ، وانه كان لمبالغته في الحلم يعفو عمن لا تعفو المصلحة العامة عنه، ويصفح عمن يقضي الاصلاح بالانتقام منه، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم ، كما كان يخفى عليهم الانتقام لو أنه انتقم منهم. ولعله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم ، وإصلاحه أشمل وأعم . وقد تقدم في الكلام على عمله في إصلاح الازهر أنه كان قادراً على الانتقام من أشد الناس مقاومة له فلم يفعل ، (ص٤٩٤ و٤٩٥ و٥٥٦)

وقد وشى به مرة بعض من كان لهم صلة بلورد كرومر فذكروا له انه يحابي في قضائه المسلمين على القبط ، وذكروا ان ذلك وقع له مراراً في تلك السنة ، فسأله اللورد عن ذلك فأثبت له انه لم يتقاض عنده أحد من القبط في تلك المدة كلها ، وإنما كانت جميع أحكامه على المسلمين ، وأحضر له كشفا رسمياً بتلك القضايا كلها ، فكبر على اللورد أن يكذب عليه هؤلاء الوشاة بما كان سبب خجله مع هذا القاضي العادل ، وصرح له بارادة الانتقام منهم ، فبالغ الاستاذ رحمه الله في استعطافه وإرجاعه عن رأيه ، بحجة انه يكره أن ينتقم من أحد لاجله ، فرجع عن ذلك . ويقال إن الوشاة عرفوا ذلك للاستاذ الامام وحفظوها له منقبة من مناقبه ومنة له عليهم .

ايثاره المصلحة العامة على الخاصة

كان يرجح في المصالح العامة أصحاب الكفاية والاستعداد على المحبين له والمتصلين به ممن دونهم . وقد سمعت صديقه منذ الطلب ، وصاحبه بالجنب ، (الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان) يعاتبه في هذا ، ويصفه بانه لا يعرف أعداءه ... وذكر له رجلا منهم قدمه على غيره في منصب القضاء الشرعي ، فأجابه : إنما قدمته لانني أعلم انه احق بالترقية ممن قدمته عليهم ، وأقدر على العمل منهم ، ولو جعلته سكرتيراً لي وهو لا يحبني ، لكنت جديراً بلومك لي ، ولكنني لا أخون المصلحة العامة لهوى نفسي

ومن استقرأ أعمال الوزراء ورؤساء المصالح في هذه البلاد وأمثالها يرى أن كلا منهم يعنى بايثار أهله وأصحابه ورجال حزبه على غيرهم ، وان كانوا خيراً منهم ، وهذه الآفة شر الآفات التي تفسد الحكومات وتضعف الامم .

وفاؤه لاخوانه وأصدقائه

كان من أشهر صفاته الوفاء لأصدقائه ، يهتم بشأنهم في السر والجهر ، والبعد والقرب ، والغيب والشهود ، بمثل مايهتم آباؤهم وأبناؤهم او أشد ، وكثيراً مايسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم ، بأشد مما كانوا يسعون لأنفسهم . لهذا كان من أعجب الشعر اليه هذا البيت الذي كان يضعه أمامه على مكتبه مكتوبا بخط جميل ، لانه يصور حاله مع أصدقائه أدق التصوير

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقد حضر في شبابه مجلساً من أترابه فتمنى كل منهم ماتسمو اليه نفسه من سعادة الدنيا ، فكانت أمنيته هو أن يكون له صديق وفي مخلص ينعم بمعاشرته

وما من صديق ولا محب له الا وكان آمنا من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الانتصار له ، تأثراً بقول واش محّال ، او رهبة من كيد قوي ذي محال ، أو طمعا في جاه او مال ، وقد كان في وفائه هذا خير قدوة لمعاشريه والمتصلين به ، يربي نفوسهم باخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فمريدوه ومحبوه الصادقون أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم اخلاصا لمن يصطفون ،

وكان من وفائه لاصدقائه أن يحافظ على مودة ابنائهم وأحفادهم من بعدهم ، ويبذل جهده في مساعدتهم ، فقد كان أولاد صديقه المرحوم سليمان باشا أباظه عنده بمنزلة أولاده أو أخيه حموده بك الذي رباه منذ صغره ، وكذلك أولاد احمد بك محمود وجيه الرحمانية وآل الوكيل . وقد بينت أصل هذه الصداقة بين هاتين الاسرتين وبينه في الكلام على عمله ورأيه في الثورة العرابية (ص١٤٨)

قضى أحمد بك محمود شتاء بعض السنين في فندق (عدن بلاس) بالقاهرة في اثر عملية جراحية عملت له فكان الاستاذ الامام يزوره فيها بعد الخروج من الازهر في كل ليلة من ليالي الدرس ، فيمكث عنده مدة طويلة وكنت أذهب معه في الغالب كما كنت أصحبه في أكثر الليالي قبل ذلك وبعده . وقد حدثني في

أول ليلة صحبته فيها لزيارته بما كان من دفاعه عنه عند ما ائتمر به العرابيون لقتله ، كما ذكرته في موضعه ، وذكرت درجة صداقة سليمان باشا أباظه له في (ص ٤١٧)

وفاء أصدقائه له وتقديرهم له

وكان أصدقاؤه الذين عرفوا وفاءه وسائر فضائله مغتبطين بصداقته ويعدونها من أفضل حظوظهم من هذه الحياة الدنيا بقدر إدراكهم لنعيم الحياة العقلية الروحية الادبية فيها ، ويودون لو يبذلون في سبيل مرضاته كل ما يستطيعون من مال وعمل ، وكان ممن لم أدرك منهم هنا سليمان باشا أباظه وعبد الله باشا فكري وأمين باشا فكري (وكان هذا مريضا عند هجرتي إلى مصر وتوفي قبل أن أعرفه) وعلي باشا مبارك والشيخ علي الليثي وكان يذكر هؤلاء ذكراً حسنا . وكان من أصدقائه جميع اخوانه من تلاميذ السيد جمال الدين المخلصين ، وقد أدركت طائفة منهم

ولما أنشأت المنار عهد إلي أن أرسله الى الاستاذ الصوفي الشهير الشيخ ابو شرناوي في نجع حمادي من الصعيد الطيب والى الشيخ داغر القاضي الشرعي في الشرقية على أن لا يؤخذ منهما شيء من قيمة الاشتراك قال هذان صديقان لي وحسابهما علي ، أما الاول فهو من بقايا شيوخ الطريقة الصالحين المخلصين ، وأثنى على علمه ومعرفته بالتصوف[1] وأما الشيخ داغر فهو من خيار اخواننا تلاميذ السيد جمال الدين ، وهو فقير (وقد رأيته عنده بعد ذلك فاذا هو من خيار الصالحين)

وأما أصدقاؤه ومريدوه الذين عرفناهم وعاشرناهم من العلماء والامراء والوجهاء في مصر وسورية فكثيرون قد مر ذكر بعضهم وسيأتي ذكر آخرين منهم ، وقد وعدت عند ذكر محمد بك راسم في الكلام على درسه الخاص أن أذكر عنايته به في مرضه الاخير فأقول :

لما نقل الى الاسكندرية لتمريضه فيها أنزله صديقه محمد بك راسم بدارهم في الرمل وكان أخوه الذي يسكنها مسافراً ، وهي من أجمل قصور الرمل بناء

(١) وقد جاء مصر وزار أستاذنا فيها ولم يتح لي لقاؤه ولكنني حظيت بصداقة نجله وخليفته الاستاذ ابي الوفاء فكان من أفضل من عرفت وصادقت

وأثاثا ورياشا ، فجعل الدور العلوي له ولاهل بيته ، والدور الاول للوافدين لعيادته والسؤال عنه ، وللاصدقاء الذين يقيمون الليالي ذوات العدد عنده للقرب منه وتسليته ، وما يرجون من الاطمئنان برؤية حاله ، وللخدم

وكان في كل طبقة من الدار حجرات للجلوس وللنوم وحجرة المائدة وحمام ، وكان طاهي الدار يصنع في كل يوم عدة ألوان من الطعام التي لا يعهد مثلها إلا عند أرقى طبقات الاغنياء ، تزيد على حاجة كل من في الدار .

ثقل أمر هذه النفقة على أهل بيته فرجوا منه أن يرغب إلى محمد بك راسم في الاذن لحموده بك أخيه بتولي إحضار مادة الطعام ، فقال لهم أنا أستحي أن أكلمه في هذا لانه يشق عليه أن يسمعه مني ، وهو يعلم بما عندي من دقة الشعور بشعوره واخلاصه واحتقاره لهذه النفقة ، ويكبرني أن أكلمه فيها ، ولكنني أعهد إلى السيد رشيد أن يتلطف في استئذانه بذلك معتذراً بمراعاة شعور كن النسوي ، وذكر لي ذلك وعهد إليّ أن أبرئه هو من خطور هذا بباله ، قائلا : انني أعلم من نفسي انه لا يعد هذا شيئاً يصح أن يذكر بين الاخوان ، فانني لو علمت انك تحتاج إلى داري بما فيها لكان تركى إياها لك مما يلذ لي وترتاح اليه نفسي ، ولا أعده شيئا يذكر

فكلمت محمد بك راسم أحسن الله تعالى اليه وأكثر في الامة من أمثاله وقلت ان زوج الاستاذ الامام عصبية المزاج وكذلك أخوه حموده بك وقد ثقل عليهما وعلى بناته نفقة الطعام ، وكلموه في ذلك ، فقال لهم انه ليس لي لسان يستطيع ان يقول لمحمد راسم كلمة في هذا ، فلما ألحوا عليه أحالهم عليّ ، وقال كيت وكيت ، فعظم على محمد راسم بك هذا الكلام وقال واجماً متألما : أي شيء هذا حتى يذكر ؟ إن بذل الانفس والنفائس قليل في سبيل هذا الرجل العظيم ، انني لا أعطي الطاهي إلا شيئا حقيراً وهو ثمن اللحم والسمك والخضر والفاكهة والمربى ، وما عدا ذلك من السمن والعسل والحبوب فانها تأتي من كفر الجاموس (يعني مزرعة لهم بهذا الاسم)

قلت يقول حموده بك إن الطاهي والخدم يزيدون في ثمن الاشياء ، فاذا تولى هو الصرف يتلافى هذه الخيانة . قال وماذا عسى أن يزيدوا ؟ أيزيدون عشرة أو عشرين في المائة ؟ هذا ليس بشيء يذكر ، وهم في حل منه ، فأرجوك أن تقنع

جوده بك ليقنع الحريم بان الاستاذ والدنا ، وانه لا يليق أن يجري هذا الحديث بيننا

وأما وصف ثقة أصدقاء الامام به فمن أحسن ما سمعته فيه قول محمد حافظ (بك) ابراهيم : قال لي يافلان اننا لم نقع في حاجة إلى رفد الشيخ لنافي الرزق وضرورات المعيشة ، ولا في الدفاع عن حياتنا او شرفنا ، ولكننا نشعر في أعماق أنفسنا باننا بوجوده في أمنة من الحاجة ومن الظلم ، وان كل ماعسى أن نحتاج اليه نجده عنده ، فنحن لانحسب مع وجوده حسابا لعدوان ولا حاجة ، او ماهذا معناه

ولكن حافظا خشي يوما أن يؤثر في نفس الامام ما كان يدبره بعض الناس من الدسائس والمكايد للتفرقة بيننا وبينه في أثناء سفره الاخير الى اوربة فتونس والجزائر ، إذ كان منهم من يكيد لي ومنهم من يكيد له ، وكان هو يتسقط أخبارهم ويكاشفني بها ، وقد قال مرة : أترى ياشيخ رشيد تروج هذه الدسائس لدى الاستاذ الامام ؟ قلت له انه لأجلّ نفسا وأسمى أخلاقا من ذلك ، ونحن إنما نجله لعلو نفسه ، وسمو عقله وأخلاقه ، فان فرضنا ان هذه السعاية الدنيئة أثرت في نفسه تأثيراً حمله على ترك مودتنا ونحن أخاص الناس في وده والتنويه بفضله والدفاع عنه ، فنحن نتركه غير آسفين ، إذ يظهر لنا بذلك اننا كنا في إجلاله مخطئين ، وقد أشار حافظ الى تلك الدسائس في القصيدة التي هنأه بها بعودته من ذلك السفر ، وقد نشرناها في المنار وسننشرها في ذيل هذا التاريخ ان شاء الله

وجملة القول انه كان أوفى الاوفياء لاصدقائه ، وكان له من الاصدقاء الصادقين مالم يتح بعضه لغيره ، قال له محمد حافظ ابراهيم ، ياسيدي ان لك أعداء كثيرين ، فأجابه ولم تذكر أعدائي وتنسى أصدقائي يا حافظ ! فهل تعلم ان أحداً له مالي من الاصدقاء ؟ قال اللهم لا ، وتأمل هنا حسن موقع قوله ياحافظ !

ثقته بالله دون الخلق

كان على ما علمنا من صفحه عن الاعداء ، وكمال الوفاء للاحباء ، والثقة بصدق بعض الاصفياء ، والاحسان بأولئك وهؤلاء ، لايخاف في طريقه إلى الاصلاح عدوا مبينا ، ولا يتكل فيه على الصديق وان كان ناصحاً أمينا ، وانما كان مستقلا برأيه مع الاستشارة ، مستقلا بارادته مع الاستعانة ، واثقا بان الله

يؤيده ويسخر له الناس ، لاخلاصه لله وللناس، يستخدم في سعيه كل من استطاع استخدامه من موافق ومخالف ، ووطني وأجنبي، ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يغتر باحد منهم .

كان في الناس من يظن أن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله ونفوذه عند الحكومة وادلاله عليها ، هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن سبب جراءته ومضائه واقدامه ثقته بتأييد الحكومة له وبالقوة المحتلة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لاحول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم بما وهبه من العزيمة والاخلاص . وقد كلمته مرة فيما يقال من ثقته بالحكومة ... فأقسم بالله انه يشعر بانه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وانه لا يعتمد على شيء إلا على الله وحده وهو المسخر لمن يشاء. وقد تقدم بيان رأيه في الانكليز المستعمرين كمحتلي مصر (ص ٩٢٢) وأما رأيه في الحكومة المصرية في عهد الاحتلال فلدفيه مقالة أملاها في أثناء مرضه ونشرت باللغة الفرنسية في بعض المجلات وفيها يلقب جماعة النظار (الوزراء) بجمعية الصم البكم ، ولعلي أعثر عليها فأنشرها في ذيل هذا التاريخ

صدقه وشجاعته

كان رضي الله عنه معتصماً بحبل الصدق ، متحريا مايعتقد انه حق ، واذا تذكرت ان علة العلل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد أولي السلطان ، وان أكذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومعاملة للحكام المستبدين ، علمت ان ملكة صدق اللسان ، لاتتربى إلا في حجر شجاعة القلب وجرأة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد ـ والاستبداد (كما قال في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر عن رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان ـ الصدق والشجاعة ـ هما شرطان للقدرة على الاصلاح، فالكذوب والجبان عدوان لله لايصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت الدهان والملق ، من أشق الامور

على النفوس ، وأبعدها عن طاعة التهذيب ، لما له من الاثر في احفاظ القلوب ، والتأثير في إثارة البغضاء ، وتكثير سواد الاعداء ، وتنفير المحبين والاصدقاء ، فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه ، والمرغبات في ضده ، ثم كيف يكون ملكة نفسية ، لاتكلف فيه ولا روية ؟ لاتحسبن الامر سهلا فان الظهور بمخالفة اهواء العامة مما يجبن امامه الملوك القاهرون ، وينكمش دونه العلماء العاملون ، ولهذا يدهن الرؤساء للمرءوسين ، ويدهن المرؤسون للامراء والسلاطين ، فالصدق فيما لايرضي العامة ، أشد من الصدق فيما لايرضي الخاصة ، فما بالك بالصادق فيما قد يغضب الفريقين ، والصابر على الطعن من الجانبين ، أليس هو في مرتبة الصديقين ، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين ، ؟

وقد ذكرت في الكلام على دروس الاستاذ الامام خلاصة خطابه الذي ألقاه في الجامع الازهر في حفلة ختام درس المنطق وفيه ان الشجاعة الادبية هي التي تعتق الافكار من رق التقليد، فتكون حرة مطلقة العنان في ميدان العلم ، جديرة بالسبق إلى معرفة الحق وبيانه، وان من فقد هذا الخلق لاينتفع بعلم المنطق ولا يكون أهلا للاستدلال، فلايكون عالما مستقلا في علمه حق الاستقلال (راجع ٧٦١)

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بايام فقال لي : إن الله تعالى أعطاني مقعد الصدق او قال: انني في مقعد الصدق. فتذكرت كلام الشيخ محيي الدين بن عربي في مقام الصدق وحال الصدق ، ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق ، - كعبد القادر الجيلي - وصاحب مقام الصدق أعلى وأكمل ، ويكون في الولاية مجهولا لايعرف، ونكرة لاتتعرف، - كأبي السعود بن الشبل تلميذ عبد القادر - وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ الامام ، في الولاية والعرفان ، احتجابا بمظهره الدنيوي ومعارفه الكونية ، عن مرتبته الروحية ومعارفه اللدنية ، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى (ان المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

وبعد بضعة أشهر من وفاته كتب إلي الاستاذ الشيخ احمد محمد الالفي من طوخ القراموص كتابا جاء فيه مانصه :

« ولمناسبة ذكر الاستاذ الامام أخبركم برؤيا منامية حصلت لي معه وهي – رأيت كأني في قرافة مصر في يوم عيد ومعي بعض الاخوان فعرضت عليه زيارة قبر الاستاذ الامام فامتنع فتوجهت بنفسي اليه فرأيت حوشا جديداً مبنيا عليه باب ذو ضرفتين (مصراعين) فاستأذنت من عنده بالدخول فأذن لي فدخلت على مكان القبر وسلمت على من فيه فاهتز القبر لذلك وانفلق عن الاستاذ الامام فاذا هو شيخ موقر ابهى من هيئته التي كان عليها في الدنيا ، وبعد أن رد علي السلام اومأ إلي أن أقبله فقبلته ، ثم قلت له مافعل الله بك ؟ فأجابني بجواب لا أفهمه اولا وثانيا فقلت له سأكرر السؤال حتى أفهم الجواب فقال — أعطاني مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر – فقلت له في اي مقام أنت؟ فأجاب – في مقام الصديقية . (وهذه الاجابة كانت لها مناسبة نهاراً إذ جاء ذكر فضيلته بين بعض الاخوان وبيني فقال (هل هو ابو بكر الصديق؟) فقلت نعم انه صديق زمانه) ثم قلت للاستاذ الامام ماذا ترى حالي ؟ فقال حسن (ولكن لا يضر الناس – يعني المسلمين منهم – إلا أخذ الربا وأكله) انتهى

هذا – وإن ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق ، والمجاهرة بنصرة الحق ، هو ما يعبر عنه كتاب العصر بالشجاعة الادبية ، وانت لا تجهل ان من لا يهاب في الحق صولة الحكام ، ولا يخاف طعن الخواص والعوام ، فهو جدير بان لايخيفه الحسام ، ولاترهبه السهام

كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا هو ظل مسترسلا في عمل نسب اليه[1] ورأيته غير مبال به ولا مكترث له ، فقلت له إن لك أعداء لا يخافون الله ، وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العمران ، فلو نظرت في ذلك. فقال أو أنت تقول مثل هذا ؟ انني لم أهيء نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة « أخطأت » ، أفأخاف ان يتجرأ احد منهم على محاولة قتلي؟

وسألته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص

(١) هو ما اتهم به باطلا من مشايعة الحكومة في مسألة المحاكم الشرعية وتقدم شرحها

من هذا المسدس - وأشرت الى مسدس معلق بسرير نومه - فقال لايجوز إطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال ، وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بقوف رقبته :

وكان في سن الشباب يسير مع والده ليلا في خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقه الولد بضربة خرّ بها صريعا ويظن انه مات وأغذّا هما في السير

وخرج هو وبعض أصدقائه في بيروت في بعض أيام الآحاد للتنزه في حدائق (انطلياس) من ضواحيها في لبنان وهو المكان الذي يصفى فيه ماء النهر ويدفع إلى مدينة بيروت ، وفي أيام الآحاد يكثر هنالك المتنزهون ، فبينا هو يدخن بشيشته (النارجيلة) مع أصحابه أقبل شاب من دعار النصارى الذين يدلون بالفتوة والشجاعة ووضع لفافة من التبغ على رأس شيشته فأشعلها بنارها ، وهذا يعد احتقاراً في عرفهم ، فأخذ الاستاذ الشيشة وضربه بها في صدره ، فتداعى كثير من شبان النصارى والمسلمين للتناصر والنجدة ، و كادت تكون فتنة ، ولكن وقى الله شرها

فشجاعة الاستاذ الامام بنوعيها كانت تحتدم في بعض أوقات الغضب فتخون حلمه وأناته ، فيخاطب أمير البلاد على مسمع كبار العلماء بمثل مارويناه عنه في (ص ٥٧٣) ويقرب منه قوله لوزير الحقانية وهو رئيسه في إحدى ليالي رمضان بقصر عابدين وهو يحاوره في مسألة قضائية على مسمع من كبار رجال القضاء وغيرهم : يظهر ان سعادة الباشا لا يستوفى حاجته من النوم في هذه الايام فيظل فكره متعباً - يعني انه لهذا لم يفهم المسألة ! بل صرح بما يفيد هذا المعنى . فما كان ينتقده على السيد جمال الدين من الحدة لم يكن بمنجاة منه ، ولكنه كان دونه فيه ، وقد تذاكرنا مرة في هذا الموضوع فقال لي إن السيد كان يقول لي إن في جيبك قرداً يخرج في بعض الاحيان . وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب من سيرته في بيروت انهم لم ينتقدوا من أخلاقه إلا شيئا من حدة المزاج (ص ٤٠٤)

انصافه فى الرأى والعلم والحكم

كان من خلائقه الانصاف في الرأي والعلم، كالانصاف في الحكم، والبعد عن المكابرة، في المذاكرة والمناظرة، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب، بسعة العلم وكثرة الصواب، ولا كان يصده الاعتراف له بالامامة في العلم والدين، عن الرجوع إلى رأي أحد التلاميذ والمريدين، فضلا عن العلماء والعارفين، بل كان رجاعا للحق إذا ظهر له، يحترم فهم غيره ورأيه، وهذا الخلق عزيز في العلماء، لاسيما ذوي الشهرة والجاه، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء، فاذا علم بما كان يجري بينهم والعلم حي والأمة عزيزة – ومن لوازم ذلك الانصاف – فما ظنه بهذا الخلق في خلف لم يبق لهم من عزة سلفهم إلا الفخر بها، ولا من علمهم إلا الحكاية عمن تقدمهم فيه.

من آيات انصاف أستاذنا ورجوعه الى الحق ما هو مدون في مواضع من المنار. من ذلك ما نشرناه له في تفسير (وأما السائل فلا تنهر) إذ اختار قول بعض المفسرين – وهو الحق – أن المراد بالسائل من يسأل عما يجهل ويطلب التفقه في الدين، وذكر فيما كتبه في تفسير جزء (عم) ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين، فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى طالب المال. فذكره رجل مستنير من عمد البلاد[1] بقوله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) فحسب بادي الرأي انه أخطأ فيما كتب، فأرسل إلي ورقة صغيرة يصرح فيها بتخطئة نفسه، وكلفني طبع عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير «جزء عم» لتلاصق بنسخ التفسير، وأمر الجمعية الخيرية بأن تمسك عن بيع الكتاب حتى تطبع الاوراق وتلصق بنسخه، وكتب بيانا لذلك وأرسله إلي لأنشره في الجرائد، فرجعت إلى الجزء فرأيت عبارته صحيحة إلا انها مبهمة ليست كالمعهود في بيانه، فراجعته في ذلك ولم أطبع البيان، فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات

(١) هو صديقنا المرحوم الشيخ عبد المؤمن موسى الذي تقدم ذكره في (ص ٩٢٩)

تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل إلا وهو ذاكر لما توهموا انه ينافيها من قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) وقوله تعالى (والسائلين وفي الرقاب) ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام ، واستغفر الله من العود الى مثله ، وقد نشرنا ذلك في ص٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

هذا مانشرته في ترجمته من المنار بشأن انصافه في العلم وأزيد على ذلك هنا انه كتب إلي يومئذ و كان موعوكا في فراشه مايأتي :

ولدنا حضرة الشيخ رشيد رضا

وقع سهو في تفسير سورة (والضحى والليل) حيث ذكرت ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى الفقير مع انه ورد في سورة الذاريات و (سأل سائل) فأحب أن يعرف ذلك ويكتب في بعض الجرائد حتى لايتعرض متعرض آخر للهذيان في موضوع مثل هذا

٢٨ دسمبر سنة ١٩٠٤ محمد عبده

وأرسل مع هذا ورقة فيها تصحيح مفصل لهذا السهو فوجدت فيه الوقفة التي أشرت اليها ووقفة أخرى لانه كتب في حال مرض وكدر شديد لاشتداد المرض على صديقه الاستاذ الشنقيطي الكبير وما جاءني الكتاب الا وكان الشنقيطي قد قضى نحبه ، وواريناه لحده ، فكتبت اليه مايأتي :

مولاي

جهز فقيدنا الشيخ محمد محمود (الشنقيطي) رحمه الله تعالى وشيع ودفن على السنة التي تحبها له ولغيره كما كان هو يحبها ، فأحسن الله عزاءك ، وعزاء العلم والفضل ومحبيهما بك ، وقد بشرني أخي محروس افندي بان صحة مولاي على أحسن ما كانت أمس ، ولولا ذلك لماصبرت عن المجيء إلى عين شمس

ثم انني أردت أن أبيض ما كتبتم في مسألة (السائل) ففطنت لامر لم يخطر ببالي أمس ، اذ كنت تصفحت المكتوب على عجل ، وهذا الذي خطر لي الآن هو ان عدم جري سنة الكتاب باعتبار لفظ السائل عنوانا للفقير والمسكين لا يظهر جعله علة او سببا لامتناع كون ذلك اللفظ في الآية لطالب الصدقة -

فكون السائل هو المستفهم عما لا يعلم لا طالب الصدقة ظاهر في نفسه، وكون لفظ السائل لم يرد عنوانا للفقير والمسكين ظاهر أيضا . ولكن هذا العطف الذي يفيد السببية والتعليل غير ظاهر لي (١)

فهل أكتب النبذة وأنشرها في الجرائد على وقفتي في العبارة وأنتظر اللقاء لتظهروا لي بالقول مالم يظهر لي من الكتاب؟ أم أرجيء النشر انتظاراً لبيان آخر منكم؟ أنتظر الجواب غداً بواسطة حموده بك او محروس افندي . والامر لمولاي حفظه الله

٢٥ شوال سنة ١٣٢٢ ولدكم

محمد رشيد رضا

فكتب إلي على الجانب الآخر من كتابي مراده من عبارة التفسير وكتب بعده مانصه : « فاذا شئت أن تضيف شيئا من هذا على ما كُتب فافعل واختر موضعه . وعبارة التفسير فيها اجمال جر الى تأليف حاشية كهذه ، فأستغفر الله مما صنعت فيها ، وأرجو أن لا أعود الى مثلها »

وأعني بنشر هذا انه رحمه الله تعالى فوض إلي أن أزيد فيما كان كتبه أولا شيئا من معنى ما كتبه أخيراً على جانب كتابي ، وأن أضعه في الموضع الذي أراه لائقا به مما كتبه أولا وأنشره بامضائه ، وهذا من تواضعه وانصافه من نفسه، وإذنه لتلميذه الموثوق به عنده أن يتصرف في كلامه . وحينئذ كتبت الموضوع وزدت فيه ما رأيته وبيضته وعرضته عليه فأمضاه فنشرته في المنار (ص ٨١٥ من المجلد السابع) وفي بعض الجرائد

ولما طبعت الجمعية تفسير جزء عم ثانية في مطبعة المنار بعد وفاته رحمه الله تعالى وضعت فيه هذه الحاشية عند تفسير الآية ، مع تصحيح ألفاظ أخرى

---

(١) أصل عبارته في تفسير الآية (وأما السائل فلا تنهر) :والسائل هو المستفهم عما لا يعلم وليس هو طالب الصدقة فان هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين » الخ فالاشكال في العبارة محصور في قوله « فان هذا اللفظ الخ أي في عطفه على ماقبله بالفاء المفيدة للسببية. وعدم وروده كذلك لا يظهر كونه سببا لوجوب جعل السائل بمعنى المستفهم عما لا يعلم . وقد قلت له أنت كثيراً ما نكون سائلا تطلب المال من الاغنياء للفقراء والمنكوبين وللجمعية الخيرية

قليلة وقعت خطأ في الطبعة الاولى وأمر هو بتصحيحها. ثم طبعته الجمعية مرة ثالثة فحذفت منه الحاشية اذ اعتمدت على الطبعة الاولى، وهذا من غرائب الاهمال المبني فيما يظهر على المبالغة في حسن الظن بتصحيح المطبعة الاميرية، فلعل الجمعية تنشر الحاشية وتعتمد في التصحيح على طبعة مطبعة المنار، عند اعادة طبعه إذ هو يطبع مراراً كثيرة

وأبلغ من هذا في إنصاف الاستاذ الامام وعنايته بتصحيح العلم الذي ينسب اليه انه عند إلقاء ذلك الدرس العام او المحاضرة في العلم والتعليم في حاضرة تونس كتبه بعض من حضره وعرض عليه فصححه ونشر في جريدة الحاضرة المشهورة هنالك، ولما أردت طبعه في المنار قلت له ان مانشر في تونس غير معتنى بصحته فأذن لي بتصحيحه وتنقيحه عند نشره في المنار، وقد صرحت يومئذ بهذا الاذن، وهذه فضيلة له قلما يشاركه فيها أحد من العلماء المشهورين في هذا العصر وان لم ترتق شهرتهم إلى أدنى درجات شهرته العالية، وقد نقل عن الامام الغزالي انه أمر تلاميذه بتصحيح ماقد يقع في كلامه من غلط في اللغة العربية لانه لم يبلغ الغاية منها

وأبلغ من هذا وذاك ما كان من انتقاد الاستاذ الشيخ محمد محمود الشنقيطي على رسالة التوحيد واعلان الاستاذ لهذا الانتقاد في مجلس الدرس في الجامع الازهر مع الثناء على المنتقد، وقد نشرنا ذلك بوقته في المجلد الاول من المنار (٤٦٥ طبعة ثانية) في أثناء مقال عنوانه (انصاف العلماء) وهذا نص المراد منه:

« هل أتاك حديث علماء الآخرة وأنصار الحق وما كان من شأنهم تلقاء « رسالة التوحيد » قرأ الرسالة العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار لاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب والمخضرمين، ألا وهو الاستاذ الفاضل الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، فتوقف في بعض الحروف وبعض المسائل منها، فولى وجهه شطر بيت الاستاذ المؤلف حتى اذا ماجاءه طلب منه أن يقرأ الرسالة معه فقرأها في يومين، وتذاكرا فيما توقف فيه، فأزال له الاستاذ المؤلف بعض ماأشكل عليه واعترف له بالاصابة في بعض ماانتقده، وانتهى الأمر بشكر كل منهما للآخر. ومن حسن أخلاق الاستاذ المؤلف واعترافه بالحق وشكره عليه أنه قص هذه القصة على تلاميذه في

الجامع الازهر، وأثنى لهم على أخلاق الاستاذ الشنقيطي وعلمه ودينه، وقال هذه هي مزايا العلماء. وأما الانتقاد الذي اعترف المؤلف فيه المنتقد بالاصابة فهو نحو قوله «دعيت لتدريس» وكان ينبغي أن يقول «دعيت الى تدريس» فسبق القلم، هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فمسألة البحث في خلق القرآن. انتقدها الشنقيطي بأن فيها مخالفة لما التزمه المؤلف من سلوكه في العقائد مسلك السلف، قال والسلف لم يبحثوا في هذه المسألة. فاعترف له المؤلف بذلك وقال إنني خالفت في هذه المسألة بخصوصها الشرط لاهميتها واشتباه كثير من الناس فيها»

وذكرت بعد هذا تقريظ الشنقيطي للرسالة بقصيدة علمية وانشاده اياها في مجلس الدرس من الازهر، ونشرت القصيدة برمتها وسأنشرها في ذيل هذا التاريخ كما وعدت إذ ذكرت هذا التقريظ في سياق الكلام على مؤلفاته. وقد كتب الاستاذ في حاشية نسخة الرسالة التي قرأها في الازهر بوجوب حذف تلك الجملة منها في الطبعة الثانية. وكذلك فعلنا فلم نذكرها في شيء من طبعاتنا

جوده وسخاؤه

لاحاجة الى إطالة الكلام في جوده وسخائه فانه صار فيه على اكتتامه الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم، وعرف الناس كثيراً من البائسين والعجزة الذين كان يعولهم ويوصيهم بالكتمان. ولم يكن في أيام السراء، أبسط يداً منه في أيام الضراء، لقيه صاحب له من المصريين المنفيين في بيروت فقال له ان والدي قد توفى وليس لدي ما أنفقه في تشييعه، فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قبضه ولم ينفق منه شيئاً، ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحتسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطله به أيام كان يتقاضاه وهو براء، فيستحي منه ويخشاه، فما مر يوم أو يومان على بذل جميع ما في يده، وايثار صديقه على عياله، حتى آذنه مصرف (بنك) في بيروت بأن حوالة برقية جاءت باسمه من مصر، وإذا هي دينه على ذلك الرجل (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكان إذا وفر شيئاً من النفقة

صرفه في سبل البر ، كان يدخن باللفائف المعروفة (بالزنوبية) بعد بالنارجيلة (الشيشة) ثم ترك التدخين بها وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة . وكان لبعض أولي الحاجة من اهل المروءة والستر رواتب شهرية فرضها على نفسه وكان منهم الاستاذ الشنقيطي ، والشاعر الاديب الشيخ عبد المحسن الكاظمي . ولما رتبنا أوراقه وحاجه عند السفر الى الاسكندرية وجدت في صندوق الجلد الصغير الذي توضع فيه الاوراق المالية والامانات صرراً من النقود مكتوبا على كل منها اسم من يراد إعطاؤه إياها. وقد سألني عن الكاظمي مرة في الاسكندرية فذكرت له ان عليه ديناً فقال لو اخبرتني بذلك قبل أن يتصرف حمودة بالنفقة التي كنا نعدها للسفر (هي مائة جنيه) لأرسلتها اليه

غيرته على الملة والامة

لعلي لا أحتاج الى التنويه بغيرته على ملته وأمته، فان بذل حياته كلها في السعي لتربية الامة على هدي الدين وآداب الملة ، لم يكن إلا أثراً من آثار هذه الغيرة، فالدليل وجودي عملي عرفه القريب والبعيد ، واعترف به العدو والصديق، ولكنني أذكر في هذا الباب شيئاً لايعرف نظيره إلا بعض أصفيائه ، الذين لم يغب عنهم شيء من أحواله .

جئته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور إلى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس، فمكثت ريثما استيقظ فسألته ما أنامه ؟ قال ما معناه أرقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء بيعدهم عن دينهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع العصبي ونبهه تنبيهاً شديداً، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس كالموسكي والازبكية فأقف في الطريق أو تجاه أحد مجامع اللهو (كالمقاهي) وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ؟ وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلا منه حتى تقلدتموه ؟ ثم أخطبهم في حقيقة ماهم فيه ، وأنذرهم عاقبة ماهم عليه ،وأبين لهم طريق النجاة منه . وقد عالجت النوم

فلم أملك منه شيئاً، فلجأت الى الكتابة وما كنت لأكتب في الليل فجرى القلم بفصل جملته في أواخر فصول رسالة التوحيد . فثابت إلي بعد ذلك نفسي، وران النوم على عيني ، ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل، وجاء وقت السحور، فلم أنل منه نيلا ، فكانت هذه النومة في النهار عوضاً عما فاتني في الليل (١)

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ) وما يليه من التفرقة بين الاسلام والمسلمين ، ولعمري إن ذلك الفصل لقول فصل . وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام . وقد قال في أوائله :

« ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان، ولقي من أعداء أنفسهم أشد مايلقى حق من باطل ، أوذي الداعي ﷺ بضروب الايذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمنظرها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب ، وهي ذوب مافسد من طباعهم، فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)

« تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له إلا انه الحق بين الاباطيل، والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بانواع المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا » الخ

(١) تقدم ذكر هذه الحادثة في (٣٠٥) بمناسبة أخرى وما هنا أصح

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) و كان قد وعك غداة يومه فرأيته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مابك وما هذا الذي تنظر فيه ؟ فقال هو التهييج العصبي الذي يلمّ بي أحيانا من الفكر في الامور العامة ، وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن القرآن، فانني اذا فكرت فيه رأيت بُعد المسلمين عنه فيقوى هذا التهييج العصبي ،ولم أجد شيئا يشغل الفكر مثلها

مروءته ونجدته

قد اشتهر بكمال المروءة والنجدة ، بأعلى مما اشتهر بالسخاء والصدقة ، فان السخاء ببذل المال انما يكون بقدر ثروة الانسان ولم يكن الاستاذ الامام من أرباب الدثور . لم يكن يملك إلا راتب وظيفته وهو لا يفي بنفقاته العادية إلا بالتدبير والاقتصاد ، وكان له قليل من الارض في بلده ترك استغلالها لاخوته ، وانما أكثر صدقاته ، من آثار مروءته ونجدته ، يقصده المحتاج فيكتب له وصية الى بعض الاغنياء الذين لا يردون وصيته كالأمير حسين كامل، أو يذهب هو بنفسه فيطلب منهم. وكان يصمد اليه كثير من طلاب الوظائف في الحكومة وغيرها من المصالح والدوائر الغنية أو طلاب الترقي فيها ـ ومن طلاب المساعدة على كشف المظالم ، اضعاف من يلجأ اليه لطلب المال ، فما كان يخيب رجاء أحد فيه ،إلا أن يكون مبطلا ينتصر على ذي حق ، أو ظالما يلبس ثوب مظلوم . وقد كانت شهرته بالنجدة والمروءة مما يشغله عن أعمال أنفع منها ، ولكن طبعه يأبى عليه أن يرد شيئاً منها وهو قادر عليه . ومن الشواهد عليها ماتقدم من انتدابه لارضاء الخديو واللورد كرومر ورئيس النظار في يوم واحد على من التجأ اليه في ذلك .

لا يزال في الناس كثير من أهل المعروف والمروءة ولكننا لا نعرف أحداً لا يشك من يعرفه في نجدته إياه إذا عراه خطب بكل مايقدر عليه في نفسه او في تأثيره عند غيره كما كان يفعل هذا الرجل لمن يلتجئ اليه ولصديقه من تلقاء نفسه

ثباته على الحق واستقامته

كان هذا الأوّاب الرجاع الى الحق، جبلا راسخا في الثبات والاستقامة على الحق، لايتزلزل في أخلاقه وآدابه، ولا يتحول عن مقاصده وأعماله، إلا اذا ثبت له انه أخطأ في شيء وكان لا يقدم على العمل إلا بعد الروّية والتدبر، والبصيرة والتثبت، وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير، قال هذا بعد ماغاب غيبته في بلاد المشرق ثم عاد إلى أوربا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف من المصريين قد تغيروا عما كان يعهد من مبادئهم كأزيائهم، الا الشيخ محمد عبده فانه لقيه كما تركه خلقا وزيا، وخلقا وأدبا، وعقلا ورأيا، وعلما وعملا، ووفاء وثباتا، إلا ما آتاه الله من المزيد في العلم، والحصافة في الرأي

كان أخلص اخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل اصلاح الازهر من العناء ويأسفون على اضاعة وقته الثمين فيما يعتقدون انه عبث لايفيد، فيجمعون على لومه وتثبيطه واقامة الحجج على استحالة اصلاح هذا المعهد حتى يقتنع، ويحسبون انه ترك، فاذاهم يرونه في اليوم التالي قد عاد إلى عمله انشط ما كان وأشدهما واهتماما، فقال بعضهم لبعض في غيبته اننا لنعجب أشد العجب من الاستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بان عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود اليه؟ فقال لهم اعلمهم بحاله وهو سعد زغلول ان الامر ليس باختياره وانما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل او ملهم به من الله تعالى، فهو لايستطيع تركه

أخبرني الاستاذ نفسه هذا الخبر، ثم ذكره لي سعد باشا نفسه إذ طالبته يوما باصلاح الازهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للامة. قال لي إذا كان الشيخ قد عجز عن اصلاح الازهر على ما آتاه الله مما لاندرك شأوه فيه علما وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل؟ قلت انه كان معارضا من الامير ومن الشيوخ، وانت لايعارضك أحد، قال إن العلة في نفس المكان هو غير قابل للاصلاح، فذكرت له مارواه لي الاستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه، قال هذا صحيح ان عمله كان وجدانا دينيا لا اختيار له فيه.

عاداته وزيه

وأما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار - يخالفهم فيما يكره شرعاً أو عقلاً كتطويل الاردان وتوسيعها وجر الاذيال ، فكان زيه أقرب إلى زي علماء سورية منه إلى زي علماء مصر الا العمامة : جبة وقباء من ذوات الزيق للرقبة كما يراها الناظر إلى رسمه الشمسي ومن ذوات الالوان غير البهجة فلم يكن يلبس الاحمر بأنواعه ولا الاخضر ولا الاصفر ولا الحرير ذا اللمعان المعروف بالقطني وكل ذلك مما يلبس العلماء الموسرون في مصر . وكان يكره كسوة التشريفة (الرسمية) ويستحي منها في نفسه ، ولما كان صهره محمد بك يوسف مقيما بدار وراء قصر عابدين كان يضعها عنده فيلبسها أيام الاعياد عنده ويدخل بها القصر ويحضر الحفلة الرسمية ثم يخرج فيخلعها عنده ، وفي أيام الشتاء يضع فوقها العباءة والشال الكشمير حتى لا ترى ، ولو لا الضرورة لما لبسها ،ولما حضر الحفلات الرسمية

وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة ، وقد منع الازهريين عن تقبيلها بعد الدرس كعادتهم . ومامدها لي لتقبيلها إلامرة واحدة : وكان قد جاء من سفر فتأخرت عن عادتي في المجيء للسلام عليه مع الفوج الاول من المسلّمين أو قبلهم فتلقاني بباب الدار قائلا « قلت ان السيد قد أبطأ » فأقبلت على يده بلهفة وشوق شعرت بمثلهما منه ،فمدها لي خلافا لعادته ،فشعرت منه بحنان أبوي خفق له قلبي ،ولا أنسى لذته الروحية ماحييت

وكان يحتذي النعال المدنية التي تسمى (الجزمة) دون سائر العلماء فينكرون عليه ذلك فيما بينهم، ثم كثر المقتدون به من شبابهم فكهولهم ، وكان يركب الخيل حتى انه كان يذهب إلى المحكمة وإلى الازهر راكباً فرساً، ثم ترك ذلك بعدا لانتقال من القاهرة الى عين شمس .وقد قيل له انه لا يليق بكبار العلماء امتطاء الخيول، فقال بل يليق بهم أن يكونوا كالغانيات يجرون الذيول ، ويتوكؤن على السواعد عند الركوب والنزول ، ونطق بالكلمة المصرية « ستي هانم »

وكان يحب المشي على قدميه حتى انه اذا تأخر في درس الازهر بحيث علم

انه فاته موعد القطار الذي يصل الى عين شمس في آخر الساعة التاسعة ليلا وهو موعد عشاء الاسرة يقول لي قد فاتنا القطار فهل لديك مانع من المشي ؟ فاذا قلت له لا ، قال هلم . فنمشي من الازهر الى المحطة أحيانا وإلى مادونها أحيانا .

ومن عادة علماء الازهر ان من يصير منهم شيخاً للازهر أو مفتياً للديار المصرية يبادر حالا إلى شراء عربة يركبها ويرى انه لا يليق به ركوب عربات الاجرة ، وقد قلت له مازحا: مابالك تركب عربات الأجرة وتمشي أحيانا مخالفا سنة الشيوخ ؟ فقال ان هؤلاء وأمثالهم من أصحاب مناصب الحكومة الكبيرة يرون انهم يكبرون في أعين الناس بهذا ، وأما أنا فانني لو صرت خليفة للمسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ، ولا عن المشي عند الحاجة

ومشينا مرة من الازهر قاصدين محطة سكة الحديد ، فلما جاوزنا شارع الموسكي مال الى دكان فاشترى منها قليلا من البسكويت وطفق يأكل منه بلطف بعد خروجنا من السوق . فقلت له مازحا : أمفتي الديار المصرية يأكل في الطريق؟ قال : أما قرأت انه قيل لديوجين الفيلسوف: لماذا تأكل في الطريق؟ فقال لانني أجوع في الطريق . ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن فنكتفي بهذا

أما طعامه في الدار فكان من أنفس الطعام وأنظفه، وأما أواني المائدة فكانت من الوسط في جنسها . ولم يكن نهما ولا مغرما بلذة الطعام بل كان يقول ان من ضعف الانسان ونقصه حاجته الى الطعام كل يوم، ولوددت لو أمكنني الاستغناء عنه

وقلت له مرة انني عودت نفسي التقشف بترك أطايب الطعام اختياراً، وبالنوم على الارض أحيانا ، وأردت أن أعودها احتمال الوساخة تربية لها على قشف الصوفية فلم أستطع الصبر . فانني اذا عرقت ولم أغير ثيابي يبقى صدري ضيقا حرجا. قال وأنا كذلك .

وكذلك كان فرش داره ، وسرر النوم فيها من الحديد الوسط ، ولكن حشاياها ومخداتها وملاءتها كانت من النسيج الابيض في أعلى درجات النظافة كان هو يعني بالنظافة من صغره وقد ذكرت هذا من قبل. ثم كانت زوجه الشامية من آل حماده من أكبر بيوت بيروت متنطعة في النظافة الى درجة الوسوسة .

خلقه ومزاجه وأمراضه

كان ربع القامة، أسمر اللون مع وضاءة، عظيم الهامة في اعتدال، عالي الجبهة، كبير الدماغ، أسود العينين براقهما، كأنهما مصباحان أو شراراتان بارز الوجنتين، أقنى العرنين واسع الفم، منظم الاسنان، جهوري الصوت، أشعر الذراعين والمنكبين والصدر، عصبي المزاج عضليه، ممتلىء الجسم في غير ضخامة، قوي البنية. فجاءه مرة حصان جامح فدفعه بيديه في صدره فرده إلى الوراء حتى أقعى أو كاد وحاول بعض رفاقه من مجاوري الازهر أن يشغله عن المطالعة في الليل ليلعب معهم بالورق فرماه بالارض ووضعه بين ساقيه وضغطه بهما، فلم يستطع التفصي حتى كان هو الذي أطلقه باختياره — ولكن عرض له ما أضعف هذه القوة الخارقة للعادة منذ سن الشباب، فكان سبباً لما كان ينتابه من الامراض

ذلك بأنه ظهر له خراج تحت إبطه في سن الصبا فلم يبال به حتى كبر وتحول الدم فيه إلى صديد، وكان كعادته يركب الخيل ويطيل الجري عليها في الشمس حتى أقعدته الحمى بل ألقته في الفراش، فامتص دمه ذلك الصديد السام فغاب عن الادراك أربعين يوما. وقد تمثل له عند بدء سريان السم في بدنه رجلان واقفان في باب الحجرة التي نام فيها في يد أحدهما غرارة (زكيبة) وأمام الآخر شيء كالحشيش فأخذ قبضة منه ووضعها في الغرارة فشعر هو بأن شيئاً قد دخل في ساقيه، ثم وضع فيها قبضة أخرى فشعر بأن شيئاً قد دخل في فخذيه، وهكذا كان كلما وضع قبضة شعر هو بدخول شيء في جسمه حتى إذا ما بلغ صدره كانت الغرارة قد امتلأت وغاب شعوره فلم يدرك بعدها شيئا قط حتى إذا تم له أربعون يوما عرق عرقا شديداً فاض منه على فراشه فكاد يغرقه، ففتح عينيه وعاد اليه شعوره وقد ذكر هذا التسمم الصديدي بعد ذلك لكثير من الاطباء فقالوا له ان النجاة منه والحياة بعده تعد من النوادر التي تقرب من خوارق العادات. وكان يعاوده تأثير ذلك السم في موعده من كل عام فيمرض مرضا ثقيلا أو خفيفا، ثم حسنت صحته بالسكنى الخلوية في عين شمس — إلا الرثية (الروماتزم) فقد كانت تصيبه في يده حتى يضطر في بعض الليالي إلى رفعها طول الليل، ولم ينفعه علاج إلا صبغة اليود، واظب على أخذ نقط معدودة منها في نصف كوب من الماء بعد كل طعام — وهو لمن واظب عليه خير دواء

المقصد الثامن

(من الفصل السابع)

مذهبه في الاصلاح والتجديد ، ومذهب السيد جمال الدين

كان السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من أكبر مظاهر قول النبي ﷺ « إن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[١]

وقد قال المحققون من العلماء في معنى الحديث ان التجديد لا يكون لعلم واحد ولا في عمل واحد ، وان قوله ﷺ « من يجدد » عام يصدق بالقليل والكثير فقد يكون في القرن الواحد مجددون كثيرون منهم المجدد في علم التفسير والمجدد في الحديث وإحياء السنة ، والمجدد في تنقيح علوم الفقه واللغة ، ومنهم المجدد في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الاسلام وتقوية ملكه

وقد شرع هذان المجددان الحكيمان في مصر بنوعي التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشتدت اليها حاجة الامة، ثم اقتصرا على التجديد السياسي في أوربة بمساعدة جمعية العروة الوثقى التي أسساها لهذا الغرض وأنشآ باسمها تلك الجريدة العربية التي هزت العالم الاسلامي كله هزاً ، وكادت تدعّ الشرق إلى الثورة دعًّا ، فزلزلت الدولة البريطانية زلزالا شديداً ، وقد تقدم وصف ذلك مؤيداً بالبراهين والشواهد

ثم تفارقا فاشتغل كل منهما بما خلق ميسراً له، فكان رأيه تبعاً لميله واستعداده، وكل منهما ضروري لابد منه ، الاصلاح والتجديد من طريق السياسة، والاصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية ، وإن شئت قلت تجديد الامة باصلاح الدولة، وتجديد الدولة باصلاح الامة، لابد من كل منهما ، وكل منهما يفضي إلى الآخر، ولكن الاول أدنى وأسرع، والثاني أثبت وأدوم وقد تقدم شرح عملهما المشترك

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة

وعمل كل منهما في محله (راجع ما كتبه الاستاذ عن دعوته لكل من الاصلاحين في ص ١١ و ١٢)

كان بين الرجلين من التشابه الفطري ، والتعارف الروحي ، والاستعداد العقلي ، ومن التربية الصوفية ،واستقلال الفكر في طلب العلم ،ومن علو الاخلاق، ما كان سبباً لاتصال كل منهما بالآخر منذ تلاقيا في خان الخليلي اول ليلة ، ذلك الاتصال الذي عرف به كل منهما قدر الآخر معرفة لم تتفق له مع غيره من كل من عرفا من المعجبين بهما والمستفيدين منهما . وهذا شيء قد عرفه كل من عرفهما

وكان بينهما اختلاف في ثلاثة اشياء هن سبب اختلافهما في مسألة السياسة التي ذكرناها في مواضع من هذا الكتاب : الاسرة والامة والحكومة . يضاف اليها ما تقتضيه من كبر الامل وعلو الهمة

نشأ السيد جمال الدين في أسرة من أشهر بيوت شرف النسب وشرف الحسب، في عاصمة أمة عزيزة النفس، شديدة البأس ، لم تذل لحاكم ولا لأجنبي، وهي تعظم آل البيت النبوي تعظيم العبادة ، في حكومة كان ذا مقام كبير في بيت إمارتها ،وركناً من اركان الزعامة لاحد الوارثين للحكم فيها، وهو الامير محمد أعظم خان ، كما تقدم بيانه في ترجمته

ونشأ الشيخ محمد عبده في بيت من بيوت فلاحي مصر في قرية صغيرة، في ظل حكومة مستبدة، تحتقر الفلاحين وتظلمهم ، وقد أصاب اسرته شيء غير قليل من الظلم حتى هاجر والده عبده خير الله من قرية محلة نصر من مديرية البحيرة الى مديرية الغربية فاحتمى بآل المنشاوي واعتزوا هم بشجاعته، حتى ان الحكومة طلبته من محمد بك [أو مصطفى بك] المنشاوي فأنكر وجوده عنده زمناً ،حتى إذا ما اتهمته الحكومة بالعبث في مسالة القرعة العسكرية وحبسته امكنها أن تقبض على عبده خير الله وتحبسه بتهمة اخرى

فلئن كان بيته اوجه بيت في قريته فهو لم يكن من بيوتات الوجاهة في الامة ولا عند الحكومة، وأمته نفسها لم تكن لها عزة ولا مكانة لدى حكومتها أيضاً، وما اوتيه من عزة النفس الفطرية كان دون ما اوتيه السيد جمال الدين ، كما كانت

الوراثة والتربية المغذيتان لغريزة السيد في الافغان ، الناهضتان به الى الآمال الكبار ، الحافزتان له إلى مقاومة ظلم الامراء والملوك وإصلاح الدول أو إسقاطها — على الضد من الوراثة والتربية المغذيتين لغريزة الشيخ محمد عبده في مصر — فبهذه الاسباب الثلاثة كان استعداد السيد الحسيني الافغاني للعمل السياسي اقوى من استعداد الشيخ الفلاح المصري

فلما جاء السيد مصر ونفخ من روحه في هذه الغريزة الشريفة، سار صاحبها معه في كل خطوها خطاه لقلب نظام الحكم الاستبدادي في مصر ،وإقامة نظام نيابي في مكانه ، حتى إذا ما نفي السيد من مصر قال كلمته المشهورة انني تركت لهم الشيخ محمد عبده فهو يتم ما بدأت به

ولكن الشيخ نفي بعده إلى قريته (محلة نصر) لكيلا يشتغل في حزبهما الوطني لاتمام العمل السياسي(الذي كان توفيق باشا أقسم للسيد أغلظ الايمان -إذ كان ولي العهد-على تنفيذه لبرنامجه في إنشاء الحكومة النيابية وتعميم المعارف اتم التنفيذ) نفي فأطاع الامر ، واذ لم تمكنه الحياة في الارياف عاد إلى مصر فكان يمكث عامة نهاره في دار المرحوم رفاعة بيك يتمتع بكتبه ، ويدخل القاهرة في الليل متنكراً ولم يعمل عملا سياسياً

ثم اشتغل في وزارة رياض باشا بالاصلاح الداخلي وتوسل بنفوذه في المطبوعات إلى اصلاح التعليم في وزارة المعارف ،ولما ظهرت بوادر الثورة العرابية كان مقاوما لها وفاقا لميله الغريزي لاخوفا ولا جبناً ، حتى إذا ما استعان الخديو توفيق باشا بالاجانب على وطنه طفق يساعد الثورة على علمه بضعف استعدادها وعدم امله بنجاحها، كما تقدم شرحه ونصوص مذاكرته فيه

ثم لما دعاه السيد بعد نفيه من مصر إلى العمل معه في جمعية العروة الوثقى لتهييج العالم الاسلامي والشرق على الدولة البريطانية والسعي لاجلاء الجيوش البريطانية من مصر او ترك السودان ، أجابه ، وكانت بلاغته في ابراز افكار السيد الثورية هي التي أثارت تلك البراكين التي وصفنا تأثيرها في موضعه ، ولما لم يفد كل هذا يئس الشيخ من العمل السياسي الذي كان استعداده له مستمداً

من روح السيد، ورجع إلى ميله الغريزي وهو الاصلاح من طريق التربية والتعليم لتحرير العقل وإعادة هداية الدين ، فكان ما كان من عمله في بيروت ثم في مصر

كل هذا كان امراً حسناً في نفسه ، ولكننا لم نوافق استاذنا على تخطئته لاستاذه بالاشتغال بالسياسة ، وعارضناه في اول مرة فاه فيها بتخطئته ، قائلين إن طريقة السيد اسرع من طريقتكم وكلاهما ضروري

كان استاذنا يائساً من ملوك المسلمين وامرائهم، ورؤسائهم من الباشوات وامثالهم، وزاده يأساً منهم فشل أستاذه في الاصلاح السياسي من قبلهم، مع اعترافه له بانه اعلى منه همة وأشد تأثيراً ، وان روح كلامه يؤثر في كل من سمعه في كل موضوع كلمه به . لهذا تمنى لو وجه هذه القوة الروحية العليا إلى بعض اولي الفطرة السليمة والقلوب النظيفة من الامة ، واودع فيها ما أوتيه من الحكمة الدينية والاجتماعية والادبية، بذلك اللسان الجذاب الخلاب، الذي أوتي فصل الخطاب

وجوابنا عن هذا ان استاذنا كان افصح من استاذه لسانا وقلما ، ولا يقل عنه في العلم ، وانما هو دونه في قوة التأثير ، وقد سلك طريق التربية والتعليم التي يفضلها، ولكنه لقي من مقاومة اولي السلطان مثل مالقي استاذه منهم في طريقته السياسية ، ولم يكن تأثيره في إيقاظ الامة واصلاحها اقوى من تأثير استاذه ،

فثبت بهذا ان عمل كل منهما كان ضروريا لابد منه

لقد كانت الشعوب الاسلامية كلها مسبوتة لا تحس ولا تشعر بما يمزقها ويفرقها ويعرقها ، بل كان الشرق الادنى والاوسط على اختلاف ملله ونحله في ظلمات حالكة لا يبصر ما يحل به . فكان السيد هو الذي نفخ فيه روح الحياة مبتدئا بالافغان فالهند فمصر فالترك فايران ، ولولا جهل ملوك الشرق وتصرف الاجانب في ملوكهم وأمرائهم تصرف المالك بالمملوك والراعي بسائمة الانعام، لاحيا هذه الممالك كلها حياة طيبة مباركة، صارت بها من الدول القوية والامم العزيزة

وقد وصفت في مقصورتي الرشيدية (١) حال الشعوب الاسلامية ومصابها بملوكها

---

(١) هي مقصورة عارضت بها مقصورة ابن دريد الشهيرة، وتقدم ذكر أبيات منها

وعلمائها ومرشديها، ووصولها بجهلهم وسوء تصرفهم إلى اليأس من الحياة وكيف نفخ فيها روح الرجاء . وما كان لوارث حكمته في عهده ، وخليفته من بعده ، من تعاهد أحد نوعي الاصلاح ، بما أثبت بهما أنهما كانا المجددين للامة في هذا الزمان ، وان ما فعلا بها كان منتهى ما في الامكان ، فاذكر منها أبياتا متفرقة في معنى دعوته الاصلاحية ثم ماقلته فيه وفي الاستاذ الامام

قلت بعد ذكر الملوك المستبدين ، والعلماء المنافقين ، والمرشدين الخرافيين :

أولئكم سادتنا الذين قد ضلوا السبيل وأضلوا من قفا (١)

والامة التي استذلوا يئست من نفسها فهي تردّى في الردى

لولا صياح منذر أهاب : أن هبي وعي عينيك وامسحي الكرى

قد طلع الصبح فقومي وانظري مافعل المستيقظون في الورى (٢)

لا تيأسي لشدة الضغط فقد يحدث الانفجار تجميع القوى

وانما تلك قواك جهلت فعطلت حينا فكانت كالهبا

وصاح بالملوك والسادة أن حسبكم من الشقاق ما مضى

قد كاد ان يحاط يا قوم بكم ويسرع الزوال فيكم والفنا

فبادروا للاتحاد بينكم ورأب صدع الشعب من غير ونى

لا يرتقي الشعب بلا علم ولا حياة للعلوم إلا باللغى (٣)

والشعب إما يتحد فانه يخلع من يظلمه خلع الحذا

أليس باجتماع ذرات الهبا كونت الارض وكانت السما

فقوة الشعب له ذاتية وقوة الظالم منه تقتنى

لجنده منهم ومنهم ماله فهو بايديهم وايدهم بغى

***

ذاك جمال الدين فيلسوفنا وتلكم دعوته التي دعا

(١) أي قفا أثرهم واتبعهم (٢) مضمون هذين البيتين جملته في فاتحة العدد الاول من المنار . وعزوي إياه الى السيد الحكيم كغيره عزو مضمون لاعزو عبارة (٣) اللغى جمع لغة وأصلها لغوة – فهو كغرف جمع غرفة

(والنجم) يهتدى به (اذا هوى) … (ما ضل) في دعوته (وما غوى)
فان يكن دك للاستبداد في … فارس طوداً كان شامخ الذرى
فان ركن الظلم في الترك أبى … حكمته وسعيه الذي سعى
ومن أبى الكتاب والميزان لا … يقدعه الا الحديد بمتهى (١)
او تجعل النار له قذائفا … تقوض الصروح من أعلى الذرى
أنفذ أهل عصره بصيرة … وغير أهل عصره ممن مضى
إلا من اختار العليم واصطفى … فيما له اختار الحكيم واصطفى
يخترق الحجب شعاع رأيه … فيشهد المحجوب كما رنا
كأنما الغيب لديه حاضر … إذا ارتأى كان كانه رأى
ألم ينبىء باهم ما جرى … في فارس ومصر قبل ان جرى (٢)
أصدق من زمانه عزيمة … وعزمه أمضى نصالا وشبا
ان فُل صارم الزمان او خبا … ما فل عضب عزمه ولا نبا
وان خبا زند له (٣) في قدحه … أورى زناد رأيه وما خبا
وان خوت نجومه في نوئها … جاءك نوءه بري وحيا
عنه سلوا مصر وذلك الرجا … تنبئكم الآثار ثم والصدى (٤)

---

(١) بمتهي يحددولك ان تقول إلا الحسام ينتضي أي يسل والاول هو الموافق للاقتباس من الآية (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ومعني البيت أن من لم يكن له وازع نفسي من هداية كتاب الله ولا رادع قضائي من ميزان العدل في شرع الله فلا يمنعه من ظلمه إلا قوة الحديد يعاقب بها على ظلمه

(٢) إشارة الى قوله في أمته الافغانية فيما نشره من تاريخها بمصر « تلك الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة الباس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الخضجر، المبتلى بجوع البقر والاستسقا ، الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس ، ولم تروه مياه الكنج والتيمس بل فغر فاه ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » يعنى الانكليز، وكان عدد أهل الهند وقتئذ مائتي مليون (٣) اي للزمان

(٤) إنما أشرنا الى مصر اشارة البعد لاننا نظمنا المقصورة في سورية في ايام طلبنا للعلم. ثم زدنا فيها بمصر بعض ماهنا وماتقدم من عمل الاستاذ الامام في الازهر

بل نم من ينبئكم بما رأى   بعينه وما رواه فوعى
إذ جاءها الحكيم وهي دنف   أعضل داؤها وأعوز الدوا
تعد خير من تولى أمرها   من اصلح التربة والماء الروى
وأفسد الانفس فهي عنده   بهم تساس بل تساق بالعصا
أرهقها من أمرها العسر بما   أفسد من روح الإباء والتقى
قد أبسل الظلم والاستبداد من   ساكنها كل مضيم مزدرى
لا عالم الشرق بدينه ولا   مقتبس العلم من الغرب هدى
فذا أجير للامير علمه   له ومنه واليه يبتغى
وذاك غافل ومغرور بما   يحذقه من المراء واللخى(١)
فليس فيهم كاتب مؤثر   يدني يراعه اليك ما نأى
ولا خطيب فيهم مفوه   يختلب القلب ويبعث الأسى
ولا سياسي يروض الصعب من   مشاكل السأو ويأسو إن سأى(٢)
ولا حكيم يحمل الفرقان في   غياهب الخطب إذا الخطب غسا(٣)
فتلكم مصر وذاك داؤها   إذ جاءها الآسي فطب وأسا
وأشرع الطريق للاصلاح من   علم وحكم ولسان وحجا
بما أفاض من دراري حكمة   قد زانها فصل الخطاب ونثا(٤)
في خطب يحيي القلوب صدعها   ويكشف الخطب ويبعث الرجا
وفي دروس كتب أحيا بها   من دارس العلوم ما كان عفا
وفي أماليه بها أنشأ من   معالم الانشاء ما كان امحى
يقبسهن في ثُباً (٥) من داره   مريده والشمس ردأ الضحى
ثبا له ينحوه أهل الرشد ما   بين ثبات وفرادى وثنى
وفي كؤوس سمر يديرها   في سامر (البورصة) ما الليل سجا(٦)

---

(١) اللخى كثرة الكلام في باطل (٢) السأو الشعب، وياسو يداوي، وساى الشيء مقلوب ساءه بمعناه (٣) غسا اظلم (٤) نثا الحديث أشاعه والشيء أشاعه (٥) الثبى بالضم المجلس الذي يضم الاكابر (٦) سامر البورصة مقهى في حي الازبكية

لا لغو في شرابهـا يخشى ولا ... غول فيغتـال الجسوم والنهى
تنـازعوها حيث لا تنـازع ... صرفا بأفواه العقول تحتسى
تحلقوا لهـــا على مائدة ... لا يشتكي لها صدى ولا طوى
يغـذوهم سياسة وحكمة ... وغـيرة سأى بهن فشأى(١)
أجفـل إذ دعا اليهـا الجفـلى ... ازهرُهم فأصبحت كالنقرى(٢)
فما مشى شيخ اليهـا الخيزلى ... إلا عدا فتى اليها الهيدبى(٣)
لكنما حتا إليها من ذأى الشـــيوُخ منهم ففـاز واغتيـا(٤)
سـل العـلا والمجد عن تاريخـه ... يقصـه المجـد عليـك والعلا
فـكم سما من المعـالي منبرا ... ليس يسامى فتعالى من برا
مالي وما لعـاذلي في حبـه ... فقد أضل قومه وما هـدى
أذكر من كماله فينثـني ... يشكر من يحسن منه المشتكى
ذلك شاني مع شانيه إذا ... أريتـه البدر يريني السهـا
هيهـات ما تساويا وان حكت ... صرح القوارير فقاقيع الحجا(٥)

***

ثمت بالاصلاح قام بعـده ... مريده الوارث كل ما حوى
من حكمة تكشف أحلاك الدجى ... وغـيرة تأكلت فيها الجـذى
وهمة ان جردت لحادث ... تريك أسرار تصاريف القضا

---

(١) سأى في سيره عدا وركض وسأى الشيء نواه وقصده. وأما شأى القوم بالمعجمة فسبقهم (٢) الجفلى الدعوة العامة الى الطعام. والنقرى الدعوة الخاصة لبعض الناس (٣) الخيزلى والخوزلى مشية فيها تثاقل وتراجع ، والهيدبى ضرب من سير الخيل (٤) حتا حتواً عدا عدواً شديداً ، وذأى الرئيس مرءوسه طرده واضطهده. واغتيا بلغ الغاية. ومعنى الابيات الثلاثة ان السيد دعا إلى مائدة علمه دعوة عامة فاجفل الازهر من دعوته فانقلبت خاصة ، مشى اليها بعض الشيوخ متثاقلا وهرول اليها جماعة من الشبان عدواً . وقد سبق الجميع اليها من اضطهده الشيوخ ففاز و بلغ الغاية القصوى في العلم والحكمة ، وهي اشارة الى الاستاذ الامام الذي اضطهده الشيخ عليش وغيره (٥) الحجا بالفتح جمع حجاة بمعنى الفقاقيع وهي نفاخات الماء الصغيرة المستديرة كامثال القوارير . والابيات تعريض بالشيخ ابي الهدى

إذا تحدت الحسام المنتضى أعيا مضاؤها الحسام المنتضى
وصدق اخلاص غدا يفيض من جوانب القلب فيملأ الحشا
من كان منه المِقول الذي حكى والقلم الذي بعلمه جرى
تآزرا لينقذا الامة من فرعونها الذي استبد وعلا
تآخيا لينقذا الاسلام من دجاله الذي بدعه غلا
قد ورثا موسى وهارون بما تآخيا والمصطفى والمرتضى
واعتصما (بالعروة الوثقى) فذا حرر ما أملاه ذاك وارتأى
وهل يتيح الله مثل (عبده) (محمد) لها إماما مقتدى
واقتسما الاصلاح شطرين فذا آثر إصلاح العلوم والحجا
وذاك للسياسة التي قضى بها وأما وطراً فما قضى
كادت وما كاد لها السيد بل أعرض عن مكر الجهول ونأى
لانستجيب الحية الرقطاء لل حكمة لكن لأخاديع الرقى
وليتها ودعت الشيخ كما ودعها اذ عاذ منها وقلا(١)

نتيجة الاصلاحين والتجددين

نتيجة ماتقدم ان السيد الافغاني والشيخ المصري ، هما اللذان جددا الاسلام بعملهما في السياسة والتربية والتعليم الاسلامي ، وأيقظا الشرق كله فهب للحياة والاستقلال القومي، وكان حظ مصر منها أكبر من حظ غيرها، لطول اجتماعهما وعملهما المزدوج فيها

وقد ظهرت فيها ثمرة العمل السياسي، أكبر وأوسع انتشاراً من ثمرة العمل العلمي التهذيبي على انقطاع الثاني له في سنيه الاخيرة، فان بذرهما لنواة الحكومة النيابية وانشاءهما الحزب الوطني له، وتخريجهما الكتاب والخطباء الذين يتعاهدونه، مازالت تقوى حتى اذا تم شرط ظهوره بعد اربعين سنة بانتشار الشعور العام في

(١) اشارة الى قوله « أعوذ بالله من السياسة » الخ

نابتة جديدة من الشعب نهض الشعب فلم يجد قطبا تدور عليه رحاه إلا أحد تلاميذهما (سعد باشا زغلول) فسلمه قياده ، وظهر مصداق قول الاستاذ الامام:

اذا تم تكوين أعضاء الجنين ظهر فيه الرأس ، ولم يعد يصدق على المصريين قوله:

يا ويح الرجل الذي ليس له أمة

ولكن هذه النهضة السياسية لاتزال ناقصة مايكمل نماءها وزكاءها وبقاءها، وهو نهضة الثقافة التهذيبية التي انحصر جهاد الامام الاخير فيها ، وانما الخطر الاكبر على مصر من ضعفها باجماع العقلاء فيها ، وهي لا تتم إلا بالتربية الدينية التي هي قوام الفضائل وحفظ البيوت من الانحلال بالفسق والاباحة، وانما سبب ضعفها كثرة الأعداء المهاجمين لها من الاجانب الطامعين ، وملاحدة الوطنيين، وكثرة عباد الشهوة الاباحيين ، وفساد وزارة المعارف تبعاً لفساد الحكومة بتأثير التربية المادية الاجنبية ، وفوضى الازهر وجموده. وقد تمت أركان هذا الاصلاح العلمية ، وإنما ينقصها زعيم قوي ينهض بها بثورة دينية سلمية كالثورة السياسية ، أو بتأييد الحكومة لها

ولو بقي الاستاذ الامام حياً إلى هذا العصر الذي جعل جلالة ملك مصر فيه ميزانية الازهر والمعاهد الدينية ثلث مليون جنيه ، وأمكنه اقناع هذا الملك في كهولته ونضوجه بمثل ماأقنع سلفه الخديو في شبابه من الاصلاح ، لامكنه إحداث أعظم انقلاب روحي تهذيبي في مصر يتبعه فيه الشرق الاسلامي كله، وتضطر أوربة وسائر شعوب الحضارة إلى اقتباسه لتعتصم به من خطر الفوضى المادية التي تتقاذفها أمواجها ، وترى حضارتها عرضة للغرق فيها

على ان الاستاذ الامام لايزال موجوداً بوجود علمه مدونا، ورأيه في التجديد مبينا،ووجود تلاميذه في الازهر وغيره أضعاف ماكان له في عهد حياته الجسدية .

فوسائل إتمام النهضة الثقافية المطلوبة موجودة ، ولم يبق إلا النقطة الاخيرة التي يكمل بها الضغط فيحدث الانفجار ، وعسى أن يكون قريبا

الطعن على الحكيمين المجددين

من سنن الاجتماع التي أثبتها التاريخ ان الناس إذا ألفوا شيئا وجروا عليه بالتقليد زمنا طويلا فان التعصب له يصير من الوجدانات الطبيعية لايقبل الجمهور في انتقاده أو الدعوة الى تركه أو مخالفته حجة ولا برهانا لا من العقل ولا من الدين ولا من المصلحة ، وإنما يقبل ذلك الافراد بعد الافراد ، بحسب تفاوت الاستعداد ، فاذا صار هؤلاء الافراد جماعة قوية من الامة سهل عليهم نشر ما يدعون اليه،وضعف الاعراض والصد عنه بقدر ما يبذلون من القوة والحكمة في الدعوة اليه ، ولا سيما إذا كان حقا

وهذا ماوقع للحكيمين مع علماء الازهر وأمثالهم ، جاء السيد جمال مصر في سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) فألقى في عقول الناس وجوب البحث في الاسباب التي أضاعت ملكهم واستذلتهم للاجانب على قاعدة قوله تعالى (ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وأثبت لمن أصغى إليه ان مافي أنفس جماهير المسلمين اليوم من الدين والعلم والاخلاق غير ما كان عليه سلفهم ، وانه يجب لتلافي ذلك تغيير نظام العلم والتربية في الازهر وغيره — فكان ذلك طعناً في علمهم وتعليمهم لايمكنهم الاعتراف به ، فلم يبق إلا الطعن على مقرره

أول مايخطر ببال الذي تخطئه او تلومه في دينه او مذهبه او رأيه او عادته انك تحتقره ، فيبادر بغريزة حب الذات الى الدفاع عن نفسه ، وإذا كان الموجه اليه اللوم والانتقاد او الدعوة إلى غير ماهو عليه جماعة اوشعباً بادر افرادهم الى التعاون على الدفاع عن انفسهم ومجاهدة المخالف لهم بما يستطيعون من حول وقوة ، في حق أو باطل ، وصدق او كذب ، وان شدة زعمائهم في ذلك تكون على قدر مالهم من المنافع المالية والجاه فيما فيه الاختلاف ، وشدة عامتهم ودهمائهم فيه تابعة لشدة الرؤساء والزعماء فيما يصورون لهم من جناية المخالف لهم وعدوانه على دينهم في الدرجة الاولى وعلى دنياهم في الدرجة الثانية

وروايات التاريخ عن تعصب اهل الاديان والمذاهب في الدين الواحد بعضهم

على بعض مشهورة يتخذها الملاحدة حجة على ذم الاديان وزعمهم انها ضارة للبشر، مغرية للعداوة والفتن والحروب بينهم، والدين الحق لا يأذن بالحرب الا لمنع الفتن ورفع الظلم. والملوك والرؤساء انما هم الذين اتخذوه وسيلة لذلك وقتا ما، كما اتخذوا الجنسية والوطنية له في وقت آخر – وكذا اختلاف المذهب في الدين الواحد، وما كان ينبغي أن يقع هذا في أهل ملة التوحيد، لو لا انهم وصموه بالتشيع والتفريق

ثم ان لطعن العلماء بعضهم على بعض سببا آخر وهو الحسد فهم أشد الناس تحاسداً. وقد روى الحافظ ابن عبد البر وغيره عن ابن عباس (رض) وعن بعض كبار السلف كمالك بن دينار – النهي عن سماع كلام العلماء بعضهم ببعض وتعليله بأنهم اشد تغايراً من التيوس في زرائبها، حتى قال بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض

ماوجد رجل نبغ في العلم والعرفان، وبذ في شهرته الاقران، إلا وغلا بعض العلماء في إطرائه، وبعضهم في ذمه وهجائه، سواء كان من المحدثين او المتكلمين او الصوفية او الفقهاء، وقد اشتد ذلك في العصور الوسطى عند المسيحيين والمسلمين أعني بعد القرون الثلاثة الاولى من نشأة الدينين

وقد كنت عازما على بسط هذا المبحث في هذا التاريخ لأبين لقارئيه أن ماقيل في حكيمينا المجددين من الطعن المبهم الذي لايعرف له قائل له قيمة لا يعد شيئا في جنب ما قاله العلماء المتقدمون المعروفون في الامام أبي الحسن الاشعري ناصر السنة على الاعتزال، والامام ابن حزم المجتهد المطلق، وحجة الاسلام الغزالي من أئمة المعقولات والتصوف والفقه، وشيخ الاسلام ابن تيمية من أئمة المحدثين الجامعين بين المعقول والمنقول، والشيخ ابي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية المعتدلين، دع غلاة القائلين بوحدة الوجود منهم. وقد جمع الشعراني كثيراً من هذه المطاعن في المشهورين في كتابه اليواقيت والجواهر وغيره

ولكنني رأيت الطعن في حكيمينا قد ضعف بعد وفاتهما وما زال يتضاءل حتى خفي أوزال، وأما الثناء عليهما والاعتراف لهما بالاصلاح العام عن علم وإيمان، وبصيرة وإخلاص، فما زال ينمي زرعه، ويخرج شطأه، حتى استغلظ واستوى على سوقه، وآتى اكله ضعفين وسيكون أضعافا مضاعفة، فأجمعت كلمة إهل العلم

والرأي الذين يخدمون الاسلام وشعوبه والشرق وحضارته على أن لهما الفضل الاول في النهضة العلمية والدينية والمدنية والسياسية

بعد هذه المقدمة الوجيزة أقول قد اشتهر عن علماء مصر انهم كانوا يطعنون على السيد جمال الدين ثم على الشيخ محمد عبده بعد اتصاله به وأخذه عنه . وأشهر من روي عنه ذلك الشيخ عليش المغربي الاصل كما تقدم في (ص ١٢٣) ومن المعروف ان المغاربة أشد تعصباً وحدة في عصبيتهم من المشارقة . وان المصريين من أشهر المشارقة في التسامح وسعة الصدر . ولذلك كان جل ما قيل في الحكيمين مما يوسوس به في الآذان . ولم نجد لاحد من أهل العلم المشهورين كتابا ولا رسالة تتهمهما بشيء معين معروف عن أحدهما أو كليهما مخالفاً لاصول الدين . وأما ماكتب في الجرائد من الطعن في الاستاذ الامام فقد بينا في بحث عداوة أمير البلاد له وإغرائه به انه لم يصدر عن العلماء بل عن سفهاء الجرائد ، وانه لم يكن لشيء منه قيمة . وقد كان كله من أسباب ارتفاع قدره ، وعظم أمره ، كما ذكرته في هذا التاريخ مجملا ، وفي المنار مفصلا

وقد أشرت فيما سبق منه هنالك إلى ان أول من طعن فيه من أصحاب الجرائد رجل اسمه الشيخ محمد الشربتلي ووعدت ببيان ذلك هنا فأبدأ فيه بما نشرته في ذلك الوقت مجملا وأقفي عليه بتفصيله ، فأقول :

جاء في ص ٢٣٩ من الطبعة الثانية لمجلد المنار الاول مانصه :

حال الجرائد المصرية . والغميزة بالشيخ محمد عبده

في مصر والاسكندرية جرائد كثيرة لانعرف عددها ، منها بضع جرائد معتبرة تجري لمستقر لها معقول ، وتستقي كل واحدة منها من مشرب مورود او معلول ، والبواقي يعشن بما يأكلن من العوارض ، فان لم يتح لهن منها شيء وهن مما لاينال العبيط ، أنشأن ينهشن الاعراض الطيبة ، ويملأن مواضغهن بلحوم الميتة ، إلا أن يفتدي صاحب العرض عرضه بشيء من المال : يعرضن اولا ببعض الوجهاء فان جاء التعريض بالغرض فذاك ، والا صرحن بالقول ، وان كان تذقحا وتجرما . من هذا النوع جريدة في القاهرة تسمى النهج القويم عرضت بغميزة حضرة

الاستاذ الـكامل والعلامة الفاضل الشيخ محمد افندي عبد الشهير ، فلم يُبَل ، فصرحت بغميزته في مقالة نشرتها عن حال الازهر الشريف قلبت فيها الحقيقة ماشاءت. فاقامت النيابة العمومية الدعوى على صاحب الجريدة الشيخ محمد الشربتلي ، ولدى الاستنطاق زعم ان الاستاذ الشيخ سليمان العبد أحد شيوخ الازهر المشهورين هو الذي جاءه بالخبر الذي نشره عن الازهر ، وأغراه بنشره ، ووعده بترويج الجريدة بازاء ذلك ، فاستحضر الاستاذ الشيخ سليمان العبد للمحكمة وسئل من قبل النيابة عن علاقته بالاستاذ الشيخ محمد عبده وعن صحة مايدعيه صاحب جريدة النهج ، فاجاب بعد اليمين بان علاقته بالاستاذ علاقة صداقة ووداد ، وصفاء ووفاء ، وان صاحب النهج كاذب في دعواه. وأيدت قوله شهادة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله وآخرين ضد شهادة صهر صاحب تلك الجريدة وعمال مطبعتها ، وبعد هذا طفق محرر النهج يستعطف الاستاذ الشيخ محمد عبده ويطعن بالاستاذ الشيخ سليمان العبد زعما انه أغراه ، ثم فنده وأنكر مدعاه . بسبب هذا كثر الارجاف بان الصداقة بين الشيخين منفصمة العرى ، فلاحظ هذا الشيخ سليمان فكتب رقيما إلى أشهر الجرائد المصرية يقول فيه:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رسله سيدنا محمد . اني أعلن في جريدتكم الغراء فوق ما قلته امام النيابة العمومية كذب من ادعى أنني حرضت على تنقيص أخي وصديقي الاستاذ الشيخ محمد عبده ، واني أعتقد فيه حسن الخلال ، وصفات الـكمال ، وليس بيني وبينه إلا كمال الصفاء والوفاق أدامهما الله بين رجال العلم وأمناء الامة في ظل تعطفات مولانا الخديو المعظم وتحت عناية مولانا صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر آمين كتبه بقلمه

سليمان العبد بالازهر

ويقال انه كان بين الشيخين بعض فتور وانهما قد تصالحا على يد فضيلة الاستاذ الا كبر شيخ الجامع وستبريء النيابة الاستاذ الشيخ سليمان وتقيم الدعوى على صاحب النهج ، وعسى أن يتربى في هذه الكرة وينيب اه

هكذا أبهمت الحادثة بالاتفاق مع الاستاذ وانني مبين الآن ظاهرها وباطنها فاقول

تحدي الاستاذ الامام للازهر بتجهيله بالتوحيد

(المحرك لرميه بانكار التوحيد)

أراد الاستاذ الامام أن يصخ الازهر بقارعة شديدة توقظ النائم ، وتقعد القائم ، وتزلزل غرور المغرورين بالعلم ، واحتقار المحتقرين لمن عداهم في الفهم، وتثبت لهم بالفعل ان تحليلهم لألفاظ كتب التدريس عندهم وإيراد الاحتمالات والشكوك فيها ، ليس هو العلم المطلوب ، وانما العلم تحليل الحقائق، والجزم بما تثبته الدلائل ،وأن العلم بالتوحيد ، لايثبت بالتقليد ، وكان يقرأ رسالة التوحيد وبلغه عن بعض المشهورين منهم أنه قال ان هذه الرسالة إنشاء لا علم ، فلما بلغ مبحث إقامة الدليل على وحدانية الله عز وجل قال لحاضري الدرس وفيهم كثير من العلماء المدرسين في الازهر ما معناه :

انكم تعلمون ان الايمان بوحدانية الله تعالى هو الاساس الاعظم لدين الاسلام، ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه، حتى اذا ماقالها المشرك في ميدان القتال وجب الكف عنه الخ وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة ، واني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس مائة جنيه وأعدكم بان من أقام أمامي البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جوابا صحيحا فانني أدفع اليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب

فكانت هذه الصيحة بهذا التحدي العلمي الصريح صاخة شديدة دوى صوتها في الازهر، ووصل إلى مسامع شيوخه في كل مكان، فاصم آذانهم ، وزلزلة قوية رجفت لها قلوبهم ، ولعل كل واحد منهم كان يتوقع أن يوجد فيهم من يبرز لهذا الرجل في اليوم الموعود غيره ويقيم له البرهان ، ويجيبه عن كل مايورد على مقدماته وشروط انتاجه من اعتراض ، ثم يأبى أن يأخذ المائة الجنيهات، قائلا له انما برزت لك لتعلم أن في السويداء رجالا ، وفي ميادين الازهر أبطالا . لا لاجل جنيهاتك التي أغنانا الله بالقناعة عنها . ولكن جاء اليوم الموعود، والشاهد والمشهود، ونادى الاستاذ الحاضرين ، بلسان عربي مبين : هاهي ذي الجنيهات المائة ، فمن

كان مستعداً لاقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم ، فنكست الرءوس ، وصمتت الالسنة. قال فاصيخوا إلي اذاً. وشرع يقرر البرهان الذي كتبه في رسالته

أنا لا أعتقد انه لم يكن يوجد في الازهر من يقدر على إقامة البرهان على التوحيد الذي قال فيه الشاعر :

فيا عجباً كيف يعصى الآله ‏ أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ‏ تدل على انه واحد

بيد أنه ثبت بهذا التحدي، وعدم التصدي، انه لم يكن أحد منهم يجرؤ أن يقف مع الاستاذ الامام موقف المناظر، في ذلك المجمع الحافل، ولكنهم يعذرون- بالطبع لا بالشرع- اذا غضبوا منه وحنقوا عليه، وحاولوا أن يسددوا سهمه اليه، بأن يوعزوا الى جريدة من الجرائد الساقطة أن تذيع في الناس أن الشيخ محمدا عبده أنكر وحدانية الله تعالى، وقال انها لا يقوم عليها دليل، وكذلك فعلوا وكان نشر هذه التهمة بين العوام، أسهل من نشر ذلك التحدي الذي لم ينشره لهم أحد ، ولو نشر لما وجد فيهم من يفهمه إلا الأقل . وكذلك كان ، وأعقبه خوض الناس في الاستاذ الامام .

نشر الشربتلي التهمة في جريدته فطلبته النيابة للتحقيق وزجته في الحبس، فقال انه تلقى هذا الخبر من رجل من كبار علماء الازهر يثق به وهو الشيخ سليمان العبد ، فطلبت المحكمة الشيخ للتحقيق ، فشعر بالاهانة وخاف أن يقرن بالشربتلي في الحبس . فطفق يطوف على الوجهاء من رجال الحكومة وغيرهم ليدفعوا عنه طلب المحكمة، حتى انه ذهب الى الاسكندرية وكلم فيها محافظها اسماعيل باشا صبري لانه صديقه وكان صديق الاستاذ الامام ايضاً ، فلم يجد عند أحد نجدة ولا غناء ، فكلم الاستاذ الاكبر الشيخ حسونه شيخ الازهر واستنجده ، فقال له ان وقعتك مع الشيخ محمد عبده ، ولا يوجد في مصر أحد ينقذك منه غيره ، فتعال معي إليه واعتذر له وأنا أرجوه أن يقبل عذرك

ذهبا إلى الاستاذ الامام فكان مما قاله الاستاذ انني لا يهمني في الدنيا شيء إلا ديني، ولولا غيرتي على ديني لما دخلت أزهركم فانه لا ينالني منه إلا التعب والعناء . اما تخاف ياشيخ سليمان أن أتقرب إلى الله تعالى باخراجك من وظيفة التدريس

في دار العلوم بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان ؟ (وكان الاستاذ يتولى رياسة الامتحان في دار العلوم ويضع له تقريراً سنويا) ولكن يغرك مني انني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين يغلب على قلبي الشفقة عليهم . فاعتذر الاستاذ الشيخ سليمان له وقال اننا نعاهدالله على الصفاء والوفاء. وتكلم الشيخ حسونه بما قبله الشيخ محمد عبده مع تصريحه بانه لا يثق بالمعاهدات. وانتهى الامر بما نشرناه يومئذ في المنار من انكار الشيخ سليمان ما عزي اليه في المحكمة وفي الجرائد اليومية، واعلانه بامضائه انه يعتقد الكمال في الشيخ محمد عبده ولكن تأثير تلك الصاخة لم ينته بذلك بل كثر تهامس كثير من العلماء في مجالسهم بالطعن والذم، حتى كان كثير من أهل الفهم يحضرون درس الاستاذ الامام للاختبار، متوقعين أن يسمعوا فيه شيئا من الكفر أو الابتداع ، فيرون ضد ما كانوا يظنون، و يصيرون من أنصاره، فهذه النازلة هي السبب لما ذاع من تكفير الازهريين له، وكنا نراه بين كبرائهم موضع الاجلال والاكبار ، وأما صغارهم فكانوا يذلون له ذلا أستحي أن أهينهم بحكايته عنهم ، فان كانوا يعتقدون مع هذا كفره أو ابتداعه فهم منافقون والحق انهم ما كانوا ينقمون منه إلا الجزم بفساد التعليم في الازهر والسعي لما يتعذر لاصلاحه بالتعليم الاستقلالي الاستدلالي ، وبعضهم كان يحسده على ما آتاه الله من الجاه

وجملة القول أن جميع خصوم الامامين الحكيمين المصلحين كانوا من الفقهاء الجامدين، والشيوخ الخرافيين، وكان أنصارهما وما زالوا عقلاء العلماء، والكتاب البلغاء، وطلاب الاصلاح الفضلاء ، ومن المعلوم بالبداهة ان العوام الجاهلين يقبلون كلام الاولين لانهم أركان خرافاتهم وبدعهم وجهلهم، ولكن العاقبة للمتقين، والحجة البالغة للعقلاء المنصفين، فكان هؤلاء يدافعون عن الحكيمين وينشرون مناقبهما في جميع الاقطار ، وتقدم نموذج من ذلك في الكلام على اصلاح الازهر وانتصار علماء الشرق والغرب للاستاذ الامام. وفي مجلدات المنار مقالات كثيرة في هذا الباب، فما علمنا بشيء انتقد عليه إلا وقد فندناه كزعم بعضهم في رسالة طبعها انه أنكر وجود الجن، وبعضهم انه انكر وجود الملائكة، وسننشر المهم من ذلك في ذيل هذا التاريخ. ونذكر منها هنا مقالة لعالم تركي نشرناها في المجلد الثالث عشر وهذا نصها :

الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده (*

كنت كتبت رسالة بينت فيها فساد زعم الذين يتهمون الشيخ جمال الدين الافغاني بالمروق وأوضحت بطلان هذا البهتان باجلى بيان، وطبعت تلك الرسالة ونشرتها فتداولتها الايدي واشتهرت بين الناس، و بعد ذلك سمعنا ببهتان جديد وهو أن الاستاذ لم يكن مارقا ولـكنه كان وهابيا

عجبا هل يعرف، هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون معنى رميهم الناس بالمروق تارة وبالوهابية تارة أخرى ؟ أم هل درى اولئك الخراصون الافاكون ناشرو الافك والبهتان أنهم بعملهم هذا يدخلون تحت انذار قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الخ ؟

واما الوهابية فهي بالحقيقة اسم الذين اعتنقوا هذا المذهب وهم معظم سكان بلاد العرب ومذهبهم ليس بينه وبين مذهب الحنبلية فرق كبير

عجبا أصار من الدين عندنا أن نثق بكل كلام يراد به إيذاء أي شخص والطعن عليه ؟ وكيف يجوز أن نعمد إلى رجل صحيح العقيدة صالح الاعمال ونقول إنه رجل صالح لـكنه مارق من الدين، ثم يتلقى الناس هذا القول وينتشر من دون ترو ولا نظر في أعمال وأحوال من نسب ذلك اليه، فلا يمضي قليل زمن حتى يشيع بين الناس بان فلانا مارق وان فلانا زنديق

ثم كيف يجوز لنا الحكم بمجرد نقل قوم لا يعرفون من أحوال من يحكمون عليه بهذه الافتراآت ولا من كلامه شيئا يصحح حكمهم ؟

اننا نعلم ان اكبر جرم في الاسلام هو أن يحكم الانسان على عقيدة انسان آخر ويتحكم فيها وينسبه إلى الزندقة تارة وإلى الوهابية تارة أخرى بمجرد اختلاف في المشرب، أو لاقل سبب، مع أن الواجب الاسلامي يأمرنا باحترام عقيدة مطلق انسان

---

*) كتب محمد عاكف افندي الـكاتب التركي المعروف هذه المقالة ونشرها بجريدة شورى التي تصدر في اورينبورغ في الروسية تحت هذا العنوان فنقلناها عنها

مادام يوجد دليل واحد على اسلامه ضد تسعة وتسعين دليلا على الكفر ، وانه لايجوز الحكم بالكفر مع وجود ذلك الدليل

ان اتهام كبار المصلحين بالوهابية في بلادالعرب و بالفرماسونية في بلادالترك وبالبابية في بلاد العجم و بالدهرية والمروق في بلادالروسيا صار أمراً معروفا ومشهوراً جداً . وان تعجب فعجب نعت خيرة رجال الاسلام بتلك النعوت مثل جمال الدين الافغاني مع أنهم هم وحدهم المعروفون بالمدافعة عن الدين الاسلامي وهم أنفسهم المجتهدون في ترقية بنيه بتربيتهم تربية صحيحة، وهم الذين أفنوا عمرهم الثمين بانشاء المدارس ليجعلوا لابناء أمتهم حظا من العلوم التي تنهض بهم من حضيض الذل إلى اوج العز وتؤهلهم للجهاد في معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الغلب (المغلوبية)

إذا اعترض علينا معترض من أهل الملل الاخرى قائلا: انكم تتهمون أفضل رجالكم وأعلمهم واعقلهم وأعلاهم قدراً وأشدهم غيرة على ملتكم بالمروق والدهرية والفرماسونية والوهابية مع انهم لايريدون لكم إلا الخير والرقي والسعادة فلماذا ؟ ألأن دينكم لايجتمع مع العقل والعلم والفضل والادب والحمية وحسن الخلق؟ فماذا يكون جوابنا ياترى ؟

إذا بحثنا في تاريخ الرجال الغيورين في القطر المصري الذين يدأبون على منفعة الاسلام ويخدمون المسلمين خدمة صادقة نجد انهم تلامذة جمال الدين الافغاني وانهم انما نبغوا بفضل تربيته القويمة

لو كان الرجل مارقا من الدين كما يقولون لما قدر أن يوجد رجالا ممتلئين غيرة على الدين وأهله يخدمونه أجل الخدم (لان فاقد الشيء لايعطيه) ولاهمَّ لهم سوى ترقي الانسانية بكل همة ونشاط

ان جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى ضاقت عليه الارض بما رحبت سواء كان في الافغان أو العجم أو تركيا أو اوربة ولم يسمح له أن يقيم في إحدى هذه البلاد ناعم البال منشرح الصدر ، ولو كان من محبي المال والجاه والمناصب العالية لترك ما اضطهد لاجله وهو خدمة الاسلام الجليلة، وإلقاء الدروس النافعة للعالم الاسلامي

ولما حاول إيقاظ المسلمين من نومهم العميق المؤدي إلى النوم الابدي إن لم يسعف بالمنبهات من مثل إرشاد جمال الدين ، نعم لو أن جمال الدين ترك خدمة لاسلام واشتغل ببث أفكاره في العالم ولم يعمد إلى إيقاظهم لانهالت عليه سحب الدنانير ولكان موضع الاحترام ، وصاحب المقام الذي لا يرام في جميع البلاد

ولكن تلك الروح العالية ، والارادة القوية ، والنفس السامية ، لم تنزل به في هذا الحضيض ـ حضيض المجد الزائل ـ فما زال مشمراً عن ساعد الجد مجتهداً بترويج مقاصده الخيرية ، يصارع الايام ويكافح النوائب غير هياب ولا وجل ، وثبت في موقف يتعذر على غيره الوقوف فيه حتى صح أن يقال عنه انه كان شهيداً في حياته وصدقت عليه عبارة كمال بك التركي « أحسن شيء وأفضله في هذه الدنيا أن يكون الانسان شهيداً في حياته »

هذا — وان الذين يفترون على جمال الدين الافغاني بالمروق والوهابية نراهم لا يألون جهداً برمي الشيخ محمد عبده بأكثر مما رموه به (كأن الكفر والمروق على نسبة النفع للامة) نعم ان لهؤلاء الافاكين مصنع كفر لا يفتأ يصوغ من حلي الكفر أجودها لهؤلاء الرجال العظام ، فأنا ارجو منهم بعد النظر في مؤلفات الشيخ محمد عبده أن يثبتوا لي علامات الوهابية التي ينكرونها عليه ولو بأي صفة كانت ويظهروها للملأ(١)

ان بعض الناس يقول « انه لا موازنة بين زهد الشيخ محمد عبده وبين علمه »(٢) وربما كان كذلك . وهل إذا امضى الشيخ محمد عبده عمره معتكفاً بالمساجد ، مواظباً على صلاة النافلة ، أكان يفيد الاسلام أكثر مما أفاده ؟ اننا لا نظن ذلك بل ان رده على عالم افرنجي مثل هانوتو ومدافعته عن حقوق الملايين من المسلمين هي في نظرنا أحسن عملا وأكثر ثوابا من الاعتكاف وصلاة النافلة

انظروا إلى قول عمر رضي الله عنه لأبي قلابة التابعي « ان اكتسابك الرزق

(١) لعل سبب مناقشته لهم في الوهابية مع قوله انه ليس بينها وبين الحنبلية فرق كبير هو انها كانت تخيف السلطان عبد الحميد لان آل الرشيد وبعض الخرافيين كانوا يلقون اليه انهم اعداؤه واعداء الدولة (٢) الواقع ان الشيخ محمد عبده كان ازهد في الدنيا ممن يصفهم المسلمون بالزهد لعجزهم وتواكلهم فقد كان يتصدق بكل مازاد على نفقة بيته، ولو اراد الدنيا لكان من كبار اغنيائها

لعيالك أحسن عندنا من إقامتك في المسجد» وهل يعجز أبو قلابة عن تربية عياله وأولاده في زمن يعيش فيه الناس بقليل من النفقة عيشة الرفاهية من غير تجشم مشاق الكسب ؟ ومع ذلك فقد أمره عمر رضي الله عنه بالكسب ونهاه عن الاقامة في المسجد

أما محمد عبده فانه لم يكن مثل أبي قلابة ولا هو في زمن مثل زمنه بل هو في زمن يحتاج فيه أن يشمر عن ساعد الجد لاجل تربية عائلة تبلغ الملايين من الاشخاص

ها نحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا مثل جمال الدين ومحمد عبده وقد مضيا إلى خالقهما وتركانا كالماشية بلا راع ، بل اننا أصبحنا واقفين موقف الحيرة لا ندري ماذا نعمل ولا نهتدي طريق النجاة

فالواجب علينا ان نذكر مثل هذين الاستاذين بالخير لانهما خدما الدين وكانا من حماته، وأن نسأل لهما من الله الرحمه والغفران لكي ينالا جزاء عملهما الصالح نعم ويجب أن نعترف بفضلهما وإرشادهما لئلا تجهلنا الاجيال المقبلة وتعيبنا بأننا لا نعرف لاهل الفضل فضلهم ، ولاجل أن يعرف القوم الآخرون اننا اناس نعرف فضل المصلحين واننا لسنا ممن يكفرون النعم . ويحسن أن أوردهنا حكاية صغيرة وأجعلها ختاما لهذا الموضوع وهي انه قابلني قبل خمس سنوات رجل افرنجي وقال لي « انكم قوم محرومون من معرفة الصناعة وأنتم معذورون في هذا ، واما في عدم تفكركم في معرفة قدر الرجال فلستم بمعذورين فيه ، بل ان هذا ذنب لكم لا يغتفر وهو من أشنع الذنوب » فاعتبروا يا أولي الابصار . (انتهت مقالة العالم التركي)

أكتفي بهذا من خبر الطعن في دين الامامين الحكيمين من جهلة المسلمين الذين لا يوجد في خيارهم من يدنو منهما في العلم ولا في الدين وأقول ان للافرنج مطاعن اخرى في سياستهما التي كانت كلها جهاداً لهم من أهمها طعن لورد كرومر على الاستاذ الامام في كتابه (مصر الحديثة) وقد فندته بمقالات في المنار سننشرها في الذيل الموعود به إن شاء الله تعالى. وقد وقفنا على مناقب أخرى للسيد جمال الدين من أهمها ما سمعناه من الشيخ عبد الرشيد ابراهيم السائح التتري الروسي الذي كان ملازما له في الآستانة الى يوم وفاته ، ورأيناه يعتقد انه من كبار أولياء الله تعالى العارفين به ، رحمه الله تعالى ونفع المسلمين بسيرته

خاتمة الفصل السابع

صحبة المؤلف للاستاذ الامام

لم يكن أحد يجهل في عهد الاستاذ الامام انني كنت معه في سني جهاده الاخير، كما كان هو مع السيد جمال الدين في مصر وباريس ، كنت معه كما قال هو للاستاذ الشيخ محمد شاكر «ترجمان افكاره» وكنت مستودع أسراره، والداعية له والمدافع عنه في كل معركة من معارك جهاده ، أكتب بشأنها في المنار ما يليق بعلاقتي به، وفي الجرائد اليومية ما يكتبه من لا يعنيه الا إظهار الحق والمصلحة، وفوق ذلك اننا كنا على اتفاق في العقيدة والرأي في جميع ما ينشره المنار إلا مسائل الدولة العثمانية وسلطانها ، فانها من السياسة التي كان يبغضها . وقد مرت الشواهد على ذلك في عدة مواضع من أهمها سعي سمو الخديو للتفريق بيننا ، ومن قول الاستاذ ابي شادي بك اننا رجل واحد . فوجب أن أبسط في هذا التاريخ بدء هذه العلاقة وما انتهت اليه ، ووضعتها ههنا لان عملي في الاصلاح والتجديد متمم لعمله ، كما كان عمله متمما لعمل السيد جمال الدين من الوجهة الدينية والمدنية، وكان عمل سعد باشا زغلول في جمع كلمة الشعب المصري متمما لعملهما من بعض نواحيها السياسية

ولقد قال له صديقه القديم محمود سامي باشا البارودي في أول تلاقيهما بعد عودة الباشا من منفاه في جزيرة سيلان الهندية : ان السيد جمال الدين قد تركك لنا فقمت بالاصلاح بعده خير قيام، واني لخائف أن تنقطع السلسلة بعدك فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الاصلاح؟ قال نعم، عندي شاب سوري يقوم بذلك وسأرسله إليك لتتعارفا . أخبرني الاستاذ الامام نفسه بهذا وأرسلني الى الباشا لتعارف، فتعارفنا وتآلفنا وكان رحمه الله أشد الناس عشقا للمنار ،حتى كان يطلب ما طبع من كل جزء منه قبل أن يتم طبعه .

ذكرت في ترجمة السيد جمال الدين من هذا الكتاب (ص ٨٤) خبر عشقي له وكتابي اليه بالرغبة في صحبته لتلقي الحكمة منه ، وأن سبب عشقه وعشق الاستاذ

الامام هو قراءة جريدتهما (العروة الوثقى) وان ذلك كان سنة ١٣١٠ إذ كنت أطلب العلم في طرابلس الشام ثم بينت ما كان من تأثير العروة في نفسي في فصل عقدته للكلام على تاثيرها في العالم الاسلامي (ص ٣٠٣) ثم ذكرت لقائي للاستاذ أول مرة في طرابلس الشام بعد عودته من أوربة وما كان من إكباري له ، وإعجابي بكلامه (ص ٣٩٠) وما كان ذلك إلا ساعة أو سويعة من الزمان

وقد لقيته مرة ثانية في طرابلس إذ كان جاء سورية مصطافا وكان يصحبه أحمد فتحي بك زغلول من خواص مريديه (وكان رئيس نيابة الاسكندرية) فدعاه كبير عشائر لواء طرابلس محمد باشا المحمد المرعبي الشهير إلى ضيافته في مزارعه الواسعة في عكار فأجاب ، ورأى من حفاوة هذا الامير مالم يره في مكان ، من ذلك أن الاستاذ الامام كان في بعلبك على ما أذكر، ولم يعين الطريق التي يسلكها إلى بلد الباشا التي ينتظره فيها من عكار ، فأرسل الباشا الى كل طريق من الطرق الموصلة إلى بلده (برقايل) كوكبة من الفرسان ممتطية جيادها العربية ، مشرعة رماحها الخطية ، فصادفته إحداها فجاءت في خدمته . ثم كانت الاخريات تعود تترى كلما وصلت واحدة منها قالت : يا سعادة الباشا ما وجدنا للضيف أثراً . وكان الاستاذ الامام في مدة وجوده في عكار متنقلا بين مزارع الباشا وقراه يركب معه ومع آله وعشيرته فرسا من هذه الجياد العربية ،تتوقل به الجبال ، وتهبط الاودية ، وتسبح في السهول ، وقد دعا الباشا لاجله أشهر علماء طرابلس ليأنس بهم

وكنت في طرابلس أتنسم أخبار عودته كل يوم فوصل اليها ليلا ونزل في دار صديقه الاستاذ عبدالعزيز افندي سلطان الذي كان مدرسا للقانون في المدرسة السلطانية ببيروت أيام كان الاستاذ مدرسا فيها . ذهبت في الصباح لزيارته فقيل لي انه ذهب الى حمام عز الدين فجئت الحمام وانتظرت في محل الجلوس الخارجي ريثما يخرج، وكان في انتظاره بعض العلماء، فخرج قبله أحمد فتحي بك زغلول فعرّفه بي الاستاذ الشيخ خير الدين الميقاتي وذكر له حبي للاستاذ وللسيد جمال الدين وتشيعي لهما ، وكان مما قاله انه أبلغ كاتب عندنا ولا يعدله استاذاً في الانشاء

الا الشيخ محمد عبده، وهو لم يلقه . فقال له فتحي بك : كذلك عندنا الكتّاب الجيدون في مصر كلهم يعترفون بانه لا أستاذ لهم في الانشاء إلا الاستاذ او السيد جمال الدين . ثم خرج الاستاذ فسلمت عليه وقد تذكر تلاقينا تلك السويعة منذ بضع سنين وكنت ألازمه مدة وجوده في طرابلس من اول النهار إلى وقت النوم ، وكان في مجالس التنزه في حديقة التل وفي السمر ليلا لا تلقاه إلا مسؤلا، فكان سبعة أعشار الحديث له او اكثر

ولكن محمد باشا المحمد اضطره إلى سؤاله والسماع لحديثه في أيام ضيافته له اذ ذكرت انساب العرب فكان الباشا يذكر اتصال قبائل هذا العصر بالقبائل المدونة في الكتب كتاريخ ابن خلدون وغيره وكان للباشا باع طويل في ذلك فكان الاستاذ يسأله التفصيل فيه ويعجب باجوبته

وقد أطرى في بعض مجالسه الشيخ احمد فارس الشدياق في اللغة والانشاء، فقلت له أين هو من اسلوب العروة الوثقى الرفيع ووضعكم لفرائد اللغة الطريفة في مواضعها منها ؟ قال تلك ألفاظ نديرها اما الشيخ احمد فارس فهو امام في اللغة . واما اسلوبه في الكتابة فغريب قلما فطن له الادباء ، ذلك انه خدم الدولة الانكليزية في الآستانة عشرين سنة بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب انه خدمة للدولة فقط إذ أقنع مسلمي الهند بل العالم الاسلامي كله ان هذه الدولة صديقة للسلطان ودولته ونصيرة لهما . وقد عجبنا من تفضيله لاحمد فارس على نفسه في الانشاء وهو أبلغ منه

وكان مما سألته عنه اسلام مسلمي ليفربول من بلاد الانكليز : أهو إسلام صحيح أم سياسي ؟ قال السياسة لا تاتي من العامة وهؤلاء من العامة. وقد تعارفنا في هذه المرة وكان كلما كتب الى عبد العزيز سلطان يسلم علي

وكان مما أعجبني من كلامه وكله حكم كالدرر انه لما اراد السفر من طرابلس إلى مصر طفق العلماء والوجهاء يلحون عليه راجين أن يطيل إقامته عندهم أسبوعا على الاقل، فقال إذاً نصل بعد انتهاء الاجازة بأيام ، قلت له وهل في هذا تبعة أو مسؤلية؟ قال نعم نحتاج الى الاعتذار الى ناظر الحقانية، فتذكرت حديث «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء المقدسي في أحاديثه المختارة عن أنس مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم

ولما قضى السيد جمال الدين نحبه بالاستانة في شوال سنة ١٣١٤ (مارس ١٨٩٦) أجمعت الرأي على الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته الاستاذ الامام لتلقي الحكمة منه ، والوقوف على رأيه ونتائج اختباره في الاصلاح الاسلامي . وكنت قد نلت من شيوخي شهادة التدريس (العالمية) فطفقت أمهد السبيل لارضاء والدي بهذا السفر حتى رضي . وأما الوالدة فكانت توافقني على كل ما اقول لها ان فيه فائدة لي (رضي الله عنهما)

رضي الوالدان بالسفر وبقي أن ترضى الحكومة الحميدية في طرابلس وبيروت وهذا ما لاسبيل اليه ، لانني قد اشتهرت بانني كاتب ومفكر وبحاث في السياسة وإن لم ينشر لي شيء في الجرائد إلا مقال طويل في الاخلاق وصدور الاعمال عنها وعن الوجدان - فالجأت الى الحيلة

أعطيت صندوق ثيابي ومتاعي للشيخ أبي النهى القاوقجي ليسافر بها بعد أيام في الباخرة النمساوية وذهبت الى بيروت منفرداً في غرة رجب سنة ١٣١٥ فاقمت فيها أياما، وأخذت جواز السفر من (ناظر النفوس) فيها وهو صديقي الاستاذ الشيخ صالح الرافعي فلما جاءت الباخرة النمساوية بيروت نزلت اليها في زورق صغير مع الاستاذ الرافعي فلم يرتب رجال البوليس في امري لانه ليس معي شيء يدل على السفر وقال بعضهم لبعض: هذا ضيف عند ناظر النفوس من بلده (طرابلس) يريدان التنزه في البحر

رست باخرتنا في الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب [٣ يناير سنة ١٨٩٨] فأقمت فيها أياما وانتقلت منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط فأقمت في كل منها اياما ثم عدت الى طنطا ماراً بهن وكنت في طنطا ضيفا على السيد حسين القصبي لما كان بين والده ووالدي من المودة إذ أقام والده بدارنا في القلمون أياما كانت أطيب أيام إقامته في سورية صحة وهناء معيشة

وسافرت من طنطا يوم السبت ٢٣ رجب الى القاهرة قبل الظهر. وفي ضحوة يوم الاحد ذهبت إلى زيارة الاستاذ الامام بداره في الناصرية ومعي صديقي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ ورفيقي الشيخ أبو النهى القاوقجي ، فلما بلغناها ارسلت اليه ببطاقة الزيارة فما لبث أن نزل وهي بيده وطفق بعد السلام يسألني عن اصحابه

السيد محمد رشيد رضا في سنة ١٣١٨ هجرية

﴿ المؤلف بعد هجرته إلى مصر فى سنة ١٣٢٧ ﴾

في طرابلس : الاستاذ الشيخ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التي ينشر فيها مقالاته، والشيخ عبد الله البركة والشيخ عبد الله المسقاوي، وعبد العزيز افندي سلطان، ومحمد باشا المحمد

ثم قلت له ان غرضي الاول من الهجرة الى مصر تلقي الحكمة عنه وانني أعتقد انه بقية رجاء المسلمين، وانه موجه عنايته لاصلاح الازهر، فتكلم في مسألة الازهر ومسالة إلزام الخديو توفيق باشا اياه أن يكون قاضياً في المحاكم الاهلية بما نشرته في أول الكلام على عمله في اصلاح الازهر، ثم تكلم في مسالة السياسة بما نقلته عنه في موضوع رأيه في السياسة، ثم قال ان المسلمين في يأس من كل خير ونجاح الا إياي فان لي املا كاملا، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف أمل. وقد علمت بعد ذلك ان هذا الرجل هو صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان، ولكن ما كان عنده من نصف الامل زال بعد ذلك عند ما رأى ما رأى من مقاومة الاصلاح في الازهر، وصرت أجادله في هذا اليأس فيقول سترى ماتفعل أنت وأستاذك! وبينت أيضاً ان أمله الكامل انما هو في الاسلام لا في شعوبه الحاضرة

كلمته في أن الموالد وثنية

وتكلم في مسائل أخرى ذكرتها في مواضعها إلا مسألة واحدة وهي ماسرى في عقائد المسلمين من الوثنية وكون أظهرها هذه الاحتفالات الدينية المسماة بالموالد وقد فاتني أن أذكر هذا في رأيه في إعراض المسلمين عن دينهم فأذكره هنا استطراداً لفائدته وفكاهته، وان كنت نقلت عنه في التفسير مراراً ماهو في معناه.

قلت له انني مررت بطنطا فرأيت في مسجد السيد البدوي مالم أر مثله من الطواف بقفص القبر وطلب الحوائج منه ... فذكر لي ان أحد وجهاء المصريين كان عنده في أثناء مولد السيدة زينب من هذا الشهر (رجب) مع جماعة آخرين فقام الوجيه وقال انه ذاهب لزيارة السيدة (قال) فقلت له لم خصصت الزيارة بهذا اليوم؟ قال لانه يوم المولد — وان هذه الليلة هي الليلة الكبيرة

« قلت : ماهذا المولد؟ انا لا افهم معنى لهذا اللفظ، هل يوم المولد او الليلة

الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين ؟ قال ونهيته عن الذهاب فلم ينته وهم بالخروج ، فقلت له انني لست مازحا وإنما أتكلم بالجد وأقول ان هذا العمل من اعمال الوثنيين وان الاسلام يأباه . كل آيات القرآن في التوحيد تنهي عن هذا وتذمه . ان الفاتحة التي تقرؤنها كل يوم في صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل — تخاطبون الله تعالى فيها بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) كذبا فانكم تستعينون غيره [وتعبدون غيره] ثم ان عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة الى من تزورونه ، إذ معناه انه محتاج اليكم وينتفع بفاتحتكم ، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم » الخ

ثم كنت أختلف الى داره باذنه فيقابلني في حجرة النوم والمطالعة والكتابة كما يقابل بعض خواص أصحابه احيانا ، وأما سائر الناس فكان يقابلهم في حجرة الاستقبال من الدور الاسفل . وقد نشرت بعض مادار بيني وبينه في بيان آرائه آنفا . وكان عند الانصراف بعد كل لقاء يذكر لي مواعيده في اليوم التالي والوقت الذي يمكن ان يلقاني فيه بالدار وهو كل وقت يكون فيها

كثر اجتماعي به قبل إصدار المنار وكنت أكتب خلاصة مايدور بيننا من المذاكرة وكله في المسائل الاصلاحية التي هاجرت لاجل الاشتغال بها والوقوف على منتهى علمه ورأيه فيها ، ولم نكن نختلف الا في مسائل قليلة ينتهي البحث فيها بالاتفاق كمسالة البابية والبهائية التي شرحتها في الكلام على آرائه وسيأتي غيرها

استشارتي اياه في انشاء جريدة

لئن كان الغرض الاول الباعث لي على الهجرة الى مصر هو صحبة الاستاذ الامام كما تقدم فقد اقترن به عند اجالة قداح الفكر فيه باعث آخر وهو إنشاء صحيفة اصلاحية أستمد من حكمته واختباره فيما أكتبه فيها اذ آن لي ان اكون مفيداً كما اكون مستفيداً ، وقد جربت نفسي في الكتابة بتأليف كتاب (الحكمة الشرعية) فكان كل من سمع شيئا منه في تحقيق المسائل الاصلاحية الدينية والاجتماعية والمدنية من اهل العلم والفهم يبالغ في الثناء على إنشائه ،

والاستقلال في تحرير مباحثه ، وفي مقدمتهم أستاذي الشيخ حسين الجسر الذي خالفت بعض آرائه التصوفية وغيرها فيه . وكان من تلك المباحث المتفق على حسنها مبحث الازياء من نواحيه الدينية والاجتماعية والادبية والسياسية ، ومسألة اصلاح الخطابة والاستعداد للارتجال فيها ، ومسألة ضرر الاتكال في ارجاع مجد الاسلام على المهدي . ومسألة طمع الاجانب في بلادنا وفي سلب ثروتنا بمصنوعاتهم ، وكان للمقال الذي نشرته لي جريدة طرابلس في فلسفة الاخلاق والاعمال تاثير حسن عند الادباء في موضوعها وانشائها ، وكنت اشعر بانني مستعد للخطابة الارتجالية في كل موضوع درسته وكل شيء علمته ، لان النطق بالعربية الصحيحة سهل علي ، وقد جربت الالقاء الخطابي ذلك في مسجدنا بالقلمون فسلس لي قياده ، وذللت لي صعابه ، وكنت أعتقد ان استعدادي كله يبقى ضائعاً اذا بقيت في سورية ، وانه لا يمكن ان يظهر هذا الاستعداد بالعمل الا في مصر لما فيها من الحرية المفقودة من البلاد العثمانية

ثم انني كنت مخالفا لجمهور أهل بلادي ولا سيما المسلمين منهم في استقلال الفكر وحرية البحث في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، حتى كان أدباء النصارى يستغربون هذا مني ويقولون أنى لك هذا ومن أين جئت به في هذه البلاد؟ وقد ألقيت مرة خطابا حراً في اجتماع حضره كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء ذكرت فيه طبقات الناس من الحكام وغيرهم ، وان تفاضلهم انما يكون بالعمل النافع للامة ، خاف بعض من سمعه في المجلس ومنهم استاذي الشيخ حسين الجسر ان يكون سببا لايذاء الحكومة لي، ولكن متصرف طرابلس كان من الاتراك العاشقين للحرية (وهو حسن باشا سامي الذي كان والده شيخ الوزراء في الآستانة) فقام وأثنى علي وقال انه يفتخر بان يعد نفسه طرابلسيا لهذا الكلام الذي سمعه ومافيه من الحكمة الخ ثم كان يجلني ويحب أن يسمع رأيي في كل شيء يهمه حتى اذا ما زرته في دار الحكومة أمر حاجبه بأن لا يأذن لأحد في دخوله علينا لاعمال الحكومة الرسمية ، وجعلني عضواً في شعبة المعارف

ورأيت في طرابلس رجلا من أحرار المصريين ذاكرني في مسائل دينية

فلما رآني كلمته فيها بأدب وتلطف في الاستدلال قال لي انك لاتستطيع أن تقيم في هذه البلاد انك لابد أن ترحل إلى مصر وقال ان كل من سأله عنها من اهل العلم حكموا بكفره وأهانوه

وجملة القول انني كنت قد عزمت على انشاء الجريدة قبل السفر وعقدت مع رجل آخر اتفاقا عليه، ورأيت أن أختبر حال البلاد وأعرف رأي الاستاذ الامام فيه ،ولم أكاشفه بذلك إلا بعد سياحة قصيرة في الوجه البحري قبل دخول القاهرة وسياحة اقصر منها في الوجه القبلي بعده ، وكان قد ذم جرائد مصر امامي وقال أنها قليلة الفائدة لعدم وجود أحزاب تنطق بلسانها ، وتكون هي داعية لها

زرته في سادس شعبان (سنة ١٣١٥) تلك الزيارة الطويلة التي كان من حديثنا فيها مسألة الصوفية والبهائية التي شرحناها في الكلام على آرائه فكان اول حديثه معي ان زائراً بيروتيا من بيت الانسي اخبره ان جماعة جاؤا من طرابلس الشام لانشاء جريدة في مصر ،فقال له وهل رأوا الجرائد هنا قليلة؟

حينئذ قلت له انه يعنيني وقد جاءني أنا من طرابلس ان والي بيروت بلغه انني جئت مصر لانشيء جريدة للطعن في رجال الدولة ، وأصل الخبر صحيح ولكن المقصد اعلى من الكلام في الشخصيات والحكومات ، وإن رجال الدولة قد ذُموا كثيراً ومدحوا كثيراً فما نفع المدح ولا الذم

رأيه في جرائد مصر وقرائها

قال الاستاذ ان المصريين في حالة جمعت افكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد وهو اخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الانكليز ولا يلتفتون إلى ماوراء هذا وقد قامت به ثلاث جرائد : المؤيد والمقطم والاهرام، وشرح خطة كل جريدة منها ، وذكر انه لايمكن لي مباراة واحدة منهن في خطتها

قال : واذا كتبت في الموضوعات الادبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس ، فانني لاأعرف أحداً في الازهر ولا في المدارس مشتغلا باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف ، وهؤلاء إن وجدوا

لاغناء فيهم ، وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لايأتي منه مايفي بنفقاته ، ولا ينبغي التعب وانفاق المال هكذا

قلت ان صاحب مجلة الهلال أخبرني ان له ٣٥٠٠ مشترك، فاستغرب وقال إن كانوا يحسبون ان كل من يكتبون اسمه في دفترهم مشتركا فقد يكون عنده هذا العدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد انهم يبلغون الالوف

قلت : إن من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الاصلاحية المفيدة

قال يمكنك أن تكتب هذه المباحث في كتاب فهو أرجى لقراءة الناس له

موافقتي على انشاء صحيفة اصلاحية وشروطه فيها

ثم انتقلنا إلى الكلام في موضوع مرض الامة وضعفها وان أنفع الوسائل في معالجتها التربية والتعليم ونشر الافكار الصحيحة لمقاومة الجهل والافكار الفاسدة التي فشت فيها كالجبر والخرافات . . فقلت إن هذا هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة وانني أسمح ان أنفق عليها سنة أو سنتين من غير ان أكسب شيئاً

قال إن كان هكذا فهو حسن . وهذا أشرف الاعمال وأفضلها . وأنا اذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فاني أساعدها بكل جهدي

قلت إني أعاهدكم على أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه على نحو مما يقول الصوفية . ولكني أحفظ لنفسي شيئاً واحداً أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة مالا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته

قال : هذا ضروري لابد منه . ومن هنا انتقلنا إلى الكلام في الصوفية

ثم زرته في يوم الاربعاء (١٢ شعبان) وكان معي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ فكلمته في مسألة الجريدة فأشار بثلاثة امور (١) أن لانتحيز لحزب من الاحزاب (وذكر في حديثه صاحب المؤيد ومصطفى كامل الشاب المتحمس او المتهور) (٢) ان لانرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بذم اوانتقاد (٣) أن لانخدم افكار احد من الكبراء « هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يدعون بها كبراء ، اننا قد نستخدمهم ولكن لانخدمهم»

ثم اشار الى ان الطبع ينبغي ان يكون في المطبعة الاميرية للبعد عن الدسائس

وعن اطلاع جماعة المطابع على شؤون الجريدة الداخلية (وذكر لي مايعلمه من اخلاق اصحاب الجرائد من السوريين والمسلمين)

ثم تكلم عن حرية الجرائد وقال أنتم تسمعون ان في مصر حرية ... هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون في اشد المراقبة عليهم ،وأبعدالناس على الحرية، لاحرية لهم فيما ينفعهم اصلا ، ولكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم (وقد قال في حديث آخر ان الحرية التي كانت بمصر كافية للنهوض باصلاحها وانما كان العائق فساد الاخلاق) قال : لكن أجر الطبع في المطبعة الاميرية غال ، وإنما غلاؤه لاجل التصحيح فاذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح باجرة مناسبة فلا معدل عنها ، وأنا أسأل عن هذا الامر .

وقد سرني من حديثه هذا انه تكلم عن هذا العمل بضمير المتكلم ومعه غيره وأنه يشعر بانه يعده منسوبا اليه . ثم سأل بعد رمضان عن ذلك وعلمنا ان الطبع في المطبعة الاميرية غير ميسور ولا من المصلحة، فطفقت أسأل عن المطابع ورجحت أولا مطبعة الاخبار وأخيراً مطبعة التوفيق القبطية، وبقي من مقدمات المشروع الوقوف على عناوين القراء الذين ترسل اليهم الجريدة لاجل الاشتراك فيها وكنت عرفت أفراداً منهم في القاهرة وغيرها . فشاورت الاستاذ في ذلك فكتب إلى نقولا افندي شحاده صاحب جريدة الرائد المصري (وكان من الذين يجلونه ويدافعون عنه) كتابا هذا نصه :

عزيزي الفاضل

بعد اهداء التحية أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي من أفاضل أهل العلم في طرابلس وهو الذي سبق الكلام معكم فيه، وانه يريد إصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر انه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة الاخبار . والرجاء أن تساعدوا حضرته باعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم ومن أعيان ومعتبرين في القطر المصري، وعندي يقين انه سينال منكم مايحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين. ١٤ ماس سنة ١٨٩٨

محمد عبده

ذهبت بالكتاب إلى الرجل في إدارة جريدته (الرائد المصري) فرحب بي ووضع بين يدي دفتر المشتركين في جريدته وقال اكتب منه ما تشاء ، واتصلت المودة بيني وبينه طول حياته وكان صادقا وفياً : فهذا كل ما ساعدني به الاستاذ من رأي وعمل تمهيدي لاصدار المنار

ثم شاورته في اسم الجريدة فذكرت له اسم المنار مع أسماء أخرى ليختار منها او غيرها فاختار اسم المنار وكان احبها إلي لفظا ومعنى ، ثم شرعت في تحريره في الاسبوع الذي صدر فيه فكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فأعجبته جدا الاعجاب كما تقدم (ص ٩١٣) ولما صدر العدد الاول قال: كان ينبغي أن تكتب فيه مقالة أخرى في موضوع من الموضوعات الاصلاحية التي ذكرتها في المقدمة ، فقلت موعدنا العدد الثاني ، فلما صدر الثاني مفتتحاً بمقال طويل عنوانه (القول الفصل — محاورة في سعادة الامة) جئت به دار الاستاذ وكان عنده الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان فقرأه هذا كله والاستاذ الامام يسمع ، وبعد الفراغ من قراءته أثنيا عليه ثناء جميلا وقال الشيخ عبد الكريم : انك لم تترك في هذا المقال شيئاً يقال في الموضوع ، قلت هذا كله مقتبس من مولانا الاستاذ ، قال الاستاذ كلا انني والله لم أتكلم معك في شيء من هذا ، قلت وأنا لست بالمتملق انما أعني انني استفدت هذا المذهب ورويت من هذا المشرب ، من قراءة جريدة العروة الوثقى

وماذكرت هذه المسألة هنا لاجل الثناء على نفسي بل لأبين كيف تأسست الصلة بيني وبين الاستاذ الامام في اتحاد المذهب والمشرب

ترويجه المنار بالثناء عليه

كنت كلما صدر عدد من المنار آتيه ببضعة أعداد منه ليراها أصدقاؤه وزواره من العلماء والفضلاء ، ويهب منها لمن يشاء ، وكان هو يثني عليها لمن رآها ولمن لم يرها عند المناسبة كما تقدم في حكاية الشيخ محمد المهدي (ص ٧٧٤) بل ذكرها

لسمو الخديو بما فهم منه انها له أو تعنيه (٥٨٠) وهذا جل ما كان يروج به المنار، إذ كان خلقه وأدبه يأبى عليه أن يطلب من أحد شيئاً لأجله ، وقد صار المنار كأنه له ، حتى كان بعض الناس يظنون انه هو الذي يكتب مقالاته المهمة وكنت أسر بهذا، حتى اضطررت الى التصريح في المجلد الرابع بأن كل ماينشر فيه غير معزو إلى أحد فهو لمنشئه

وقد كان من تأثير هذا النوع من الترويج أن المنار قوبل بالقبول والاحترام من أعلى الطبقات الاجتماعية في القطر المصري ، ومن ذلك ان أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الاهلية استشهد بكلام المنار في مقدمة الكتاب الذي ترجمه وطبعه في ذلك العهد (الاسلام خواطر وسوانح) فانه كتب مقدمته بعد صدور العدد الاول من المنار وهي في بيان حال المسلمين الذي نقل مؤلف الكتاب (الكونت دي كاستري) مانقل من طعن الصليبيين عليهم وعلى دينهم وبين خطأهم فيه بما علمه بالاختبار ، فقد بين فتحي بك في مقدمته له ما كان عليه الاسلام وأهله من المناقب والفضائل وماصاروا اليه من المخازي التي صاروا بها حجة على دينهم ومنها قوله

« وانحل عقد نظام المسلمين فأصبحوا أشتاتا يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط، ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه، وبالغوا في التمسك به، حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيداً ، وترك الاسباب إيمانا، وترك الاعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً ، وإيذاء المخالف في المذهب دينا ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا ، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا ، والمهانة تواضعاً، والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليما ، والتقليد الاعمى لكل متقدم علما وايقانا)

قال لي أحد كبار المحامين الذين اشتركوا في المنار منذ السنة الاولى وظل مشتركا وفيا طول عمره (رحمه الله) انه لما ظهر كتاب احمد فتحي بك رئيس المحكمة الاهلية العلامة الكبير النفس ورأينا في مقدمته نقلا عن صاحب (المنار) تساءلنا عن المنار وصاحبه ، وأكبرنا استشهاد هذا الرئيس الكبير بكلامه من أول ظهوره، وكان هذا سبب اشتراكي فيه. ولقد كانت طبقة المحامين والقضاة الاهليين

الذين اشتركوا في السنة الاولى من المنار أكثر من سائر الطبقات المتعلمة، والظاهر ان السبب الاول لذلك رؤية المنار مكرما محموداً عند أعلى رجال القضاء مقاما: الاستاذ الامام وسعد زغلول بك واحمد فتحي زغلول ، وحسن عاصم باشا، وقاسم بك امين وغيرهم من مستشاري الاستئناف ورؤساء المحاكم

وأخص طنطا بالذكر في هذا المقام فقد كان أكثر المحامين الراقين فيها من مشتركي المنار وأنصاره، وكان الداعي لهم إلى ذلك أحدهم مصطفى بك الباجوري من أصدق مريدي الاستاذ واخوانه وكان هو الوكيل على أطيان سعد بك زغلول وكان يكتب في حساب نفقاتها اشتراكه في المنار وفي الجمعية الخيرية الاسلامية (بأمر الاستاذ الامام) إذ هو الذي يدفعهما عنه

ومهما يكن من كثرة اشتراك رجال القضاء والمحاماة بالاضافة الى سائر المتعلمين المدنيين فلن تنهض بصحيفة أسست للاصلاح الديني قبل كل شيء، فان أكثرهم لا يحفل بهذا العمل لذاته ، ولم يكن تأثير الاستاذ الامام وحزبه فيهم إلا تأثيراً معنويا كتأثير الوزير الكبير رياض باشا فقد كان يمدح المنار في مجالسه على مسامع زواره (رحمه الله تعالى) إذ لم يكونوا يدعون إلى نشره أو الاشتراك فيه بالصراحة، ولم يوجد أحد اهتم بتعميم نشر المنار من كبار رجال مصر إلا ابراهيم باشا فؤاد وزير الحقانية فانه كلم فتحي بك زغلول بل كلفه وضع مشروع لتوزيع ألوف من نسخه بثمن قليل ولم يتح لهما تنفيذ ذلك، وقد خبرني الخبر فتحي ولم أحفل به ولا شكرته له ولا حاولت العمل معه لتنفيذه ، وهذا مما لا أنكر من سيئاتي وزهدي

مساعدة المنار المادية ، وحياتي المالية

لم احتج إلى مساعدة مالية من أحد إلا مرة واحدة : سرق جميع ما في الادارة وأنا غائب في طنطا بسبب سياسي دبره بعض جواسيس الاستانة فاضطررت إلى رفع دعوى على السارق ولكنه فر وفتشت داره وحكم عليه ، ولم يكن معي من الدراهم ما يكفي لتجديد العمل ثم لشراء المسروق عند العلم بوجوده لدى رجل أجنبي إلا باقتراض خمسين جنيها فقط أخذها لي الاستاذ الامام من محمد بك الوكيل

أحد أودائه (المحاسيب) وأخذ مني سندا بها ، وكان ذلك في اوائل السنة الثالثة للمنار ولم أتمكن من وفاء هذا الدين إلا في السنة الخامسة ، ففي هذه السنة كثر المشتركون في المنار من جميع الطبقات و كان من أكبر أسبابه مقالات الاستاذ الامام في موضوع (الاسلام والنصرانية) و كذا نشر سجل جمعية أم القرى

بيد أن هذا الانتشار قد تلاه عهد سخط سمو الخديو على الاستاذ وعلي ومقاومته لنا واغرائه العلماء والحزب الوطني وموظفي الخاصة بالصد عن المنار ، فكان الضرر المالي علي بهذا أكبر من ذلك الربح بنفوذ الاستاذ الامام ، وقد وقف على ذلك الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وشرحه لي شرح خبير بصير ، ونصح لي بان أقتصد في الثناء على الاستاذ والتنويه به لاسلم من أذى خصومه الاقوياء فيتسنى تعميم نشره ، وقد صرح بانه يخدم الاسلام خدمة لم تعهد من غيره ، وبان المسلمين في أشد الحاجة إلى هذه الخدمة وبأنه يجب أن يوجد المنار في كل بيت ، فأقنعت الشيخ علياً بان التنويه بالاستاذ الامام مقصود لذاته وهو اقناع العالم الاسلامي بزعامته ، إذ الاصلاح لا يعم وينتظم إلا بزعيم موثوق به يكون مناط الوحدة له ، فاقتنع بذلك ، وقد شرحت هذه المسألة في ترجمة الشيخ علي يوسف في المنار عقب موته وذكرتها في الكلام على سعي الخديو للتفريق بيني وبين الاستاذ الامام من هذا التاريخ (ص٥٨٧)

والغرض من ذكر هذا وما قبله هنا دحض ما ظنه بعض الناس (الذين لا يعقلون أن يكون بين الناس علاقة قوية ولا رابطة متينة إلا بالمنافع المادية) وقاله بعض الخصوم من أن صاحب المنار كان متشيعا للشيخ محمد عبده لاجل المنفعة المادية الشخصية ، وهذا ظلم لتاريخ كل منا ولتاريخ الاصلاح

لم يكن أحد منا ماديا ولا ممن يعنى بالمال ، ولو كنت أعمل للمال ، لكنت من أبعد الناس عن هذا الرجل الذي يعيش مثلي عيشة الكفاف ، ولقد كان خديو مصر أكثر منه مالا ، وأقدر على مساعدة من يخدمه بالمال من غير جيبه وقد فعل ، فكيف آثرت عداوته على مودته لأجله ؟

تلك المرة الاولى التي احتجت فيها إلى مساعدة مالية في مصر ، ولم أذكر

حاجتي له وقد كنت عنده كولده الصلبي وأخيه النسبي أو أعز وأكرم ، بل هو الذي سألني : هل لديك من الفلوس ما يمكنك من استمرار اصدار المنار بعد أن سرق كل ما في ادارته حتى الاجزاء السابقة؟ قلت لعلي أرجىء اصداره ريثما أكتب إلى صديق لي من طرابلس أعرض عليه مشاركتي فيه ، قال لا يجوز تأخير اصداره فكم يكفيك لاستمرار العمل ؟ قلت خمسون جنيهاً . قال يمكنك أن تقترضها ، ثم استكتبني سنداً بخمسين جنيها من محمد بك الوكيل فأخذه ثم جاءني بها

وأظن انه كان يعتقد انه يكبر عليّ أن أقبل هذا المبلغ منه لو بذله باسم المساعدة، ويعتقد مع ذاك أنه يعز عليّ أن أرده عليه أيضاً ، وإن كانت علاقتي به كعلاقة الولد بوالده ، وإن أدري أكان يدري أيضا أنني لم أطلب من والدي لنفسي مساعدة مالية قط أملا، فانني كنت في الصغر أهابه فأطلب من والدتي ، وفي الكبر أنحرى أن لا احتاج اليه ، و كان لي كسب أدبي يفي بحاجتي الشخصية حتى ثمن الكتب العلمية وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئا ، وكان لي قطعة أرض أملكها أيضاً ولم أحتج الى بيعها ،وعرض علي بشارة باشا تقلا بعد نقل الاهرام الى مصر أن أكتب لها مقالات في مقابلة نصف ليرة لكل مقالة وان كثرت وقصرت فلم أقبل

لله در الاستاذ الامام ، انه علم من أخلاقي وشعوري ما لم يعلمه أحد الى الآن، بل علم من شؤوني في خويصة نفسي مالم أكن أظن انه يعلمه ، حتى حدثني به الامير حسين كامل (الذي صار سلطانا بعده) بمناسبة حديثي معه في مشروع مدرسة الدعوة والارشاد ، ولما رآني دهشاً من حديثه قال انني عرفت هذا من أستاذك وأستاذي الذي تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلما الخ

ومما يناسب هذا الحديث ان السلطان حسين كامل لما علم انني أريد الحج في سنة ١٣٣٤ طلبني الى قصر عابدين فقابلني رئيس الديوان محمود باشا شكري وقال لي ان عظمة السلطان طلبك ليقابلك ويسألك الدعاء له ، ولكن جاءه في هذا الوقت الامير داود وطلب مقابلته لعرض مسألة مهمة عنده فتأسف لهذا التعارض مع ميعادك، وأمرني أن أبلغك ذلك مع سلامه وأقدم لك هذه الصرة من

الجنيهات للمساعدة على سفرك هذا . قلت له: أشكر مولانا السلطان وأعتذر عن قبول المساعدة . قال لماذا ؟ قلت لانني أريد أن أنفق على حجي من كسبي ، وانني منذ سنين مهيء مائة جنيه لا حج بها مع والدتي ، قال زيادة الخير خير . قلت نعم ولكن لا حاجة لي به ، قال يمكنك أن تتصدق بها ، قلت بل أتصدق من مالي بقدر سعتي ومجال الصدقة عند عظمة السلطان أوسع . قال احسب هذه ثمن دعاء لمولانا . قلت الدعاء عبادة لا يجوز أخذ الثمن عليه . وأنا أدعو للسلطان تعبداً أيضاً لان صلاح ولاة الامور مفيد للامة كلها . قال عطايا الملوك لا ترد ، قلت ان كثيراً من علماء السلف كانوا يردونها . قال وماذا أقول لمولانا السلطان عنك؟ قلت قل له ان هذا مقتضى خلقه الذي تعرفونه بالنقل عن أستاذه كما أخبرتموه بذلك ، والاخلاق لا تتغير . وانصرفت ،

ثم قلت لمحمود شكري باشا بعد عودتي من الحج :انني عازم على ذكر عطف مولانا السلطان علي فيما أكتب عن رحلتي الحجازية في المنار، مع تلطيف ما ذكرته لسعادتكم من الاعذار . قال هذا لا يجوز وهو يسوء مولانا السلطان ، قلت اني أذكره باسلوب الثناء . قال : الترك يقولون في الشيء الممنوع « أولماز » فاذا كان المنع شديداً قالوا «هيچ اولماز» وهذا من النوع الثاني

ولو كان أستاذنا حياً لسر مني بهذا الرد ، وقد كان هو يستطيع يوم حاجتي أن يأتيني بمائة جنيه أو أكثر من صديقه الامير حسين ولم أخذ منه مساعدات للناس ، ولكنه كان يعلم انني لا أسف الى هذه الدناءة ولا كان هو يحبها لي

على انه لامني مرتين على ماعده مبالغة في الزهد إحداهما رد مساعدة الخديو عند إرادة الحملة عليه في الفتوى الترانسفالية كما تقدم (ص ٥٨٦) والثانية مساعدة كان عرضها علي الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر المعروفة على الخليج الفارسي والشيخ محمد عبد الوهاب شيخ دارين في سواحل نجد الجنوبية ، وهما من أسخى أجواد العرب ، وكانا أرسلا إلي من طريق الهند رسالة تتضمن برقيات ورسائل رفعت إلى السلطان عبد الحميد في الدفاع عن ابن السعود وتفنيد ما زعمه خصومه من عداوته الدولة لاجل ان أبيضها وأصححها وأنشرها في جرائد مصر اليومية مع تأييدها ،

وسألاني عما أطلبه لنفسي وللجرائد التي أنشرها فيها . فبيضت منها عدة نسخ وأخذتها بنفسي إلى الجرائد اليومية المعروفة فنشرتها ، ثم كتبت الى مرسليها انني لا أطلب لنفسي شيئاً لان هذا العمل خدمة للامة وللدولة وانني لم أعط الجرائد شيئاً لانها لا تأخذ مني مالا للنشر ، فلما علم الاستاذ ذلك لامني وقال ان أحق ما يأخذ مثلك عليه المال خدمة الامة والدولة ، ومصالح هؤلاء الامراء والزعماء الاغنياء وتكاليفهم

علاقتي بالاستاذ روحية اصلاحية محضة

وجملة القول في هذه العلاقة انني كنت في عهد التحصيل أطلب العلم بباعث ديني محض مرشدي فيه كتاب احياء علوم الدين للغزالي وقد كان أكبر مؤثر في قلبي، ولي ان أقول كما قال الاستاذ الامام ان كل ما أحمد الله عليه من خير في ديني فسببه تصوف الاحياء ، إلا انه مشوب بضرر التزهيد الشديد في الدنيا بما لا يأمر به دين الفطرة الوسط ، ولو ان أسرة روتشيلد وأمثالهم من اليهود أرباب الدثور، ربوا أولادهم على تصوف الاحياء لفقدوا ثروتهم في الجيل الثاني. وأنا لم أشعر بضرر تزهيد الاحياء لي إلا بعد أن صار لي أسرة، ولكن علمت قبل ذلك ان مبالغة الاحياء في الزهد مخالفة لهدي الاسلام وانتقدته في المنار

ثم نفخت في "العروة الوثقى" روحا ثانية كما تقدم شرحه فعشقت صاحبها السيد في الدرجة الاولى والشيخ في الدرجة الثانية ، فصرت كما قلت في كتابي الى السيد « لا أنبو مجلسا ولا أفيض في كلام إلا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه ، أو متخللا أجزاءه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام » ولم يكن أحد من علماء طرابلس وأدبائها يستطيع أن يقول في هذين الحكيمين كلمة سوء في مجلس أنا فيه ، إذ لا يكون لي بد من الرد عليه ، وكلهم من أصدقاء والدي أو أهل مودتي، ويجلون أسرتي فلا يحبون مغاضبتي ،

وقد جاء طرابلس بدري باشا من آل بدرخان متصرفا بعد حسن سامي الحر ، وبدري باشا هذا من أصهار الشيخ أبي الهدى عدو السيد جمال الدين، فلم يعد أحد يجرأ على مدح السيد في طرابلس غيري ، واذ كنا نسمر في مجلس المتصرف بداره

ليلة قرأ قارىء في جريدة (بيروت) خبر ثورة في بعض قبائل الافغان، فطفقت أطري شجاعة الافغان، فقال مصطفى باشا الانجا ان السيد رشيد افندي يحب الافغان حباً شديداً يحمله على اطرائهم وما هم إلا وحوش ، فقلت انني أنا أحب واحداً من الافغان هو السيد جمال الدين ، وانما أتكلم عن الافغان بما أعلم من التاريخ (وكان السيد يومئذ حيا) فتعجب الحاضرون من هذه الجرأة ، وغير بعضهم الحديث خوفا من الفتنة (وقد آذى بنو الانجا وبدري باشا أهلي بعد سفري إيذاء شديداً لاجل أبي الهدى)

طار بي هذا العشق الروحي العقلي بعد وفاة السيد جمال الدين إلى الاستاذ الامام، وكان قد علم بحبي له وظن انه كحب الالوف من الناس للعلماء والفصحاء والكتاب والخطباء ، وبعد محاورات ومسامرات كثيرة تتابعت من أواخر رجب إلى العشر الاخير من شوال علم ان هذا الحب نوع آخر لم يعرف له ضريباً إلا حبه هو للسيد جمال الدين ،

ثم صدر المنار في ٢٢ شوال فعلم منه ومن استمرار المعاشرة ان صاحبه شبعان ريان، مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، بحب الاصلاح الذي تلقاه هو عن الافغاني ، قوي الاستعداد للجهاد في سبيله بكل ماأوتيه من حول وقوة ، وانه وقف حياته على هذا الجهاد ، ويرى من الواجب عليه دينا أن لا يصده عنه شيء من المخاوف ولا المضار ، ولا من المال والجاه ، ولا يؤثر عليه آخر من فروض الكفايات الاخرى التي يقوم بها كثيرون اذا هي عارضته .

ولم يلبث أن ثبت هذا عنده بما علمه من سعي الحكومة الحميدية لاستمالة هذا الفتى وعرضها عليه ماشاء من الوظائف الكبيرة فيها ، ومن الرتب والنياشين ومن ذلك مكتوبات أبي الهدى افندي التي ذكرت في بيان علاقتي بالخديو (في ص٥٨١) ثم سرقة إدارة المنار ، ثم إيذاء حكومة طرابلس لوالد صاحب المنار واخوته بعد اليأس من استمالته ، ثم من ايذاء الخديو وحزبه وشيوخه وجرائده

وقصارى القول انه رأى منه فتى قد ربى نفسه بل رباه الله تعالى ذلك النوع من التربية التي اقترحها هو على السيد جمال في باريس وهو أن يذهبا الى مجهل من

معامي الارض وأغفالها لاترمقهما فيها الحكومات الفاسدة المفسدة لاجل أن يربيا عشرة من أذكياء أبناء المسلمين ويعلمانهم مايعدانهم به لاستمرار العمل الذي شرعا فيه لتجديد الامة واحياء الاسلام . ولم يرقبله أحداً من تلاميذهما ولا من غيرهم قد رسخ في نفسه هذا المذهب، وروي من هذا المنهل، ووقف حياته على خدمته بالعلم والعمل ثم رأى ان هذا الفتى هو الذي حمله بالالحاح على قراءة تفسير المنار في الجامع الازهر ، وانه هو جاءه بكتاب أسرار البلاغة من طرابلس وحمله على تصحيحه وتدريسه في الازهر لاحياء البلاغة العربية ، وعني بطبعه بمساعدته ، وانه ينشر في مناره مايقتبسه من دروسه ومجالسه بعبارة صحيحة فصيحة لا يأبى أن تعزى اليه ، ثم رأى تأثير ذلك في المجالس والمحافل المصرية ، (في المكتوبات والرسائل والقصائد التي تأتيه من هذه البلاد وغيرها)

ثم سافر الى تونس والجزائر فرأى ان له في كل من القطرين حزبا دينيا ومريدين من أرقى طبقات المسلمين لايعرفون عنه شيئاً إلا من المنار ومن مطبوعات المنار

كيف كانت منزلة هذا الفتى عند هذا الرجل المصلح الذي قال انه لم يرض الانتظام في وظائف الحكومة إلا ليجعلها وسيلة للاصلاح الديني في الازهر ، وهو لايرى لأحد قولا ولا عملا يساعده عليه إلا مواتاة الشيخ عبد الكريم سلمان له في أعمال الازهر الادارية المحض؟ لايمكن لأحد أن يعبر عن منزلته عنده غيره وسيأتي ماقاله فيه

علاقتنا في المعاشرة العادية

وأما المعاشرة فقد كان يذكر لي في كل لقاء أوقاته التي يفرغ فيها للتلاقي اذا جئته فيها كما تقدم ، فكنا نكثر الاجتماع في الدار والازهر وفي بيوت خواصه كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وأحمد فتحي بك زغلول وحسن باشا عبدالرازق وغيرهم والكثرة مايراني الناس معه كنا كاللازم والملزوم اللذين لاينفك أحدهما عن الآخر ، ولما كثرت أعمالي منذ السنة الثالثة بالاشتغال بادارة المنار وحساباتها فوق الاشتغال بتحريرها وتصحيحها ، قلّ هذا التلاقي ، ففطن

لذلك بعض اصحابه فقال له مالي لا أري فلانا معك كالعادة ؟ أظنه قد استغنى عن مساعدتك فتركك ؟

فأجابه الاستاذ : كلا ان فلانا كان قليل الاعمال فكان يقضي جل أوقات فراغه معي لانني أعز اصدقائه، وقد كثر الآن عمله فقل فراغه الذي لا يزال يصرف أكثره معي، ولم يكن للحاجة الى المساعدة أدنى تأثير في اجتماعنا أولا ولا آخراً كما تظن

وكان اذا صادف فراغا في وقت لامواعدة بيننا فيه يزورني في ادارة المنار وقد جاءني مرة بعد الظهر فقال هل عندك شيء يؤكل فان عندي عملا منعني من الذهاب للغداء في الدار ؟ قلت يوجد نصف رغيف من الخبز الجيد الافرنجي ، وقطعة من الزبد باقية من فطوري، فان شئت ضممنا اليها ابريقا من الشاي الابيض الصيني، وإن شئت أحضر الخادم لك من المطاعم ما شئت (وكنت في تلك الايام أتغدى وأتعشى في المطاعم لانني وحدي) قال هذا يكفي وهو من خير ما يؤكل أو قال خير ما يؤكل

ولما جاءت والدتي لزيارتي مع بعض الاخوة صار كل طعامي في الدار وكان الاستاذ الامام يقترح عليَّ أن تصنع الوالدة نفسها لنا بعض الاطعمة الطرابلسية الممتازة ، وأمر أهل بيته أن يسألوها عن بعض هذه الاطعمة كيف تعالج في طرابلس

وذكرت له ان والدتي انما جاءت مصر لتقنعني بان تزوجني فما رأيك؟ قال إن كان عندك فراغ من العمل تبذل فيه ثلاث ساعات او أكثر كل يوم في الكلام الفارغ مع النساء فتزوج، وذكر لي طباع النساء وإشغالهن للرجل بكثرة الكلام الفارغ . وان مواتاتهن خسارة والاعراض عنهن مصيبة — وضرب لي المثل بنفسه و ببعض أصدقائه، فعلمت انه لا يحب أن يشغلني عن عملي بالزواج وذكرت لي الوالدة ان زوج الاستاذ قالت له: لماذا لا تعطي السيد رشيد ابنتك فلانة وأنت لا تحب مفارقته ؟ فقال لها إذا كان هو لا يريد أن يتزوج أفأقول له أنا تعال أزوجك؟ وقد صرفت والدتي يومئذ عن هذه الفكرة وما أمكنها إقناعي بالزواج إلا بعد وفاته

وكنت اذا عاقني شيء عن الدرس من شكاة أو غيرها خرج من الدرس إلى رؤيتي في إدارة المنار ولم يصبر إلى الصباح. واشتكى مرة فأرسل إلي رقعة من رقاع

الزيارة يخبرني بشكاته ويدعوني إلى رؤيته، حتى قال أنتظر مجيئك وإن أوغلت في الليل ما شئت ولكن في غير تخويف . ولم آس على شيء ضل عني من آثاره الخطية مثل هذه الرقعة

ولما جاء والدي لزيارتي في السنة الثانية من هجرتي وكانت الحكومة في طرابلس أرسلته لاجل استمالتي والتأليف بيني وبين الشيخ أبي الهدى وصل مساء فشغلت به عن الدرس فسأل الاستاذ عني بعض اخواني . فقيل له جاء والده، فخرج من الازهر إلى إدارة المنار للسلام على الوالد ولم يؤخر ذلك إلى الصباح

وقد كتبت للشيخ أبي الهدى كتاب مودة بأمر الوالد وكلفت الاستاذ أن يكتب له مثله ويرسل اليه نسخة من رسالة التوحيد ويكتب اسمه عليها ـ ففعل على ما كان من كراهته له ، وقد سر بذلك الشيخ أبو الهدى وأرسل اليه كتابا وتقريظا شعريا للرسالة قال فيه :

أخذت رسالة التوحيد منكم ... فصح الاتحاد بلا اتحاد
وأعجبني انتساق الدر منها ... وجدد عهد ود في الفؤاد
نعم فيها اختيارات ونسج ... دقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها ... منزهة بحكم الاعتقاد
فدم نساج در هدى ثمين ... مفيد للعباد وللبلاد

هكذا كانت الصحبة بيننا، كنا كأولي القربى الابرار في البيت الواحد، ليس فيها أدنى تكلف، وما كنت أذهب اليه في أيام الاعياد حيث يكثر الزائرون إلا عن مواعدة ،قال لي مرة انني عازم على عدم الخروج غداً للقاء المهنئين بالعيد ، فاذا جئت فتجاوز حجرة الاستقبال (المندرة)واستأذن علي في داخل الدار، ففعلت فوجدت احمد فتحي زغلول قد سبقني اليه فظللنا نبحث في المسائل الشرعية والاجتماعية إلى مابعد الظهر والناس يجيئون أفواجا في كل قطار فيجلسون في المندرة ويعودون في قطار آخر

وكان مما دار البحث فيه يومئذ مسألة الاجماع عند الاصوليين أنكر الاستاذ حجيته ووافقه البيك فقلت ان الادلة التي يذكرونها على حجيته لا تنطبق إلا على

إجماع الامة التي يمثلها أهل الحل والعقد . قال الاستاذ لو أرادوا هذا لما انكره عاقل وهو ضروري في كل زمن

حياتنا العملية المعنوية في الاصلاح

وأما حياتنا المعنوية فكنا كروح واحدة في جسدين ، كان يكاشفني بجميع افكاره وأسراره في علاقته بالحكومة والخديو واللورد كرومر ورئيس النظار ، وفي أعماله في الازهر ومجلس الشورى ومجلس الاوقاف الأعلى ، ويعهد إليّ بكتابة بعض المقالات في الجرائد لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه في بعض المسائل أو الاعمال ونشر كل منها في الجريدة التي تليق بها بامضاء تناسب الوضوع ، كازهري ، أو حقوقي ، أو مسلم .... وكنت أنشر بعضها في المؤيد وبعضها في المقطم وبعضها في الاهرام وكذا الرائد المصري ، وأحيانا كان يرسل إلي إحدى الجرائد وعليها إشارة منه الى شيء لاجل الرد عليه ، وقد يكتب بجانبه أو على ورقة أخرى موضوع الرد والايماء الى الروح الذي يبرز فيه من شدة أو لطف أو تهكم أو تجهيل ، ولا يزال لدي شيء من هذه الاوراق

وكان يعهد إلي في بعض الاوقات بكتابة المكتوبات الشخصية لاصدقائه سواء أكانت مبتدأة كتهنئة أو تعزية أم رجع كتاب منهم ، أو جوابا عن سؤال من غيرهم ، وقد ذكرت نموذجا من هذين النوعين فيما تقدم ، وتارة كان يطلب مني أن أكتب له بعض النصوص أو الاحاديث في بعض المسائل ، وسأله بعض الناس لاأدري في أي البلاد أن يرسل اليهم برنامج لمدرسة اسلامية أنشئت أو يراد انشاؤها وطريقة التدريس فيها فعهد إلي بذلك ففعلت ولا يزال لديّ بعض أوراق المسودة التي كتبتها لذلك . وقد مر من الشواهد والمثل على هذا في الفصول السابقة مايغني عن الاطالة فيه هنا

السعاية والدسائس للتفريق بيننا

بعد هذا كله وبعد ما تقدم في معناه طمع بعض الحاسدين في التفريق بيني وبينه بما تقدم بعضه ، وأذكر هنا ماهو أغرب منه

ذكرت في الكلام على وفائه لاصدقائه ووفائهم له أن محمد حافظ (بك) إبراهيم عثر في أثناء سفر الاستاذ الامام الاخير على ائتمار بعض الناس لابعادي وابعاده عنه بعد عودته من هذا السفر ، فأنا أبسط ما يخصني من ذلك هنا بقدر مافيه العبرة ، وأغرب مافيها أن المرحوم الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ألصق اتراب الامام وأصدقائه به كان رئيس هؤلاء المؤتمرين ومستشارهم وعميدهم فيما يرجون من نجاح سعايتهم ، وكانوا يجتمعون في دار المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش (باشا) ، وممن حضر مجلسهم وأخبرني بعد خيبتهم انه كلف ـ أو انتدب ـ للشهادة أمام الاستاذ ببعض ما دبروه الدكتور عبد الرزاق افندي النزلجي الذي كان طبيباً في المحافظة

فلما عاد رحمه الله تعالى من سفره ذاك مغتبطا أشد الاغتباط بما رأى في تونس والجزائر من تأثير المنار في نشر أفكاره الاصلاحية ووجود حزب كبير له فيها ، طفق يسمع تلك الاقوال المروزة المزورة [1] من أناس لا علاقة بينهم تشعر بالتواطؤ أو ارادة السعاية ، منها ماسمعه في دار الدمرداش ومنها ماسمعه في عقر داره بين أهله وولده ، فكانت أثقل على سمعه من الكتاب المفتوح الذي أملته وساوس فرح افندي أنطون العصبية

وقد أضاع الشيخ عبد الكريم حلمه الواسع فأظهر ماكان يكتمه منذ سنين من الامتعاض مني إذ ظن أن مادبروه كاف لفوزهم فيه ، حتى ان حموده بك أطلعه

(١) روز الكلام أو الرأي في نفسه ترويزا أي دبره وتروى في ترتيبه وتقديره ليكون مقبولا. والتزوير معروف

على ساعة نفيسة حملها الاستاذ من أوربة ليهديها إليّ فأخذها ووضعها في جيبه وأقسم بالله لن يعيدها، فسكت حموده ولم يخبر الاستاذبذلك

ولما آن لهم أن يتثلوا كنانتهم ، ويؤدوا أمانتهم ،قال أجرؤهم والاستاذالامام حاضر في دار الدمرداش : ان صاحب المنار يطعن في علم الاستاذ ويقول انه هو الذي يحضر له دروس التفسير، ويقول، ويقول ، وصدقه غيره وزاد عليه، وقفا إثرهم الاستاذالشيخ عبدالكريم (عفا اللهعنه وعنهم) فقال:لاغرابةفالشيخ رشيدرضا صار مستغنياً عن الشيخ محمد فهويقول ماشاء ولايبالي، وانما الغرابة في اصرارالشيخ على مودته ورفع شأنه كعادته مع أمثاله،وهو في غنى عنه ، فان كانت مزيته انه ينقل عنه التفسير وينشره فانه يوجد كثيرون يقومون مقامه في ذلك

حينئذ غضب الاستاذ وقال ـ كما حدثني بلسانه ـ ليس فيكم كلكم أحد مثله أو يقوم مقامه ، ائتوني بواحد مثله وانا أترك صحبته ، انه لم يقل ولن يقول شيئاً مما ذكرتم ، ولو قاله لما صح ان يكون له من الاثر ماتريدون ، وقد آن أن أقول لكم ان الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري، إن في نفسي أموراً كثيرةأريد انأقولها او أكتبها للامةوقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، واذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه فانه يكتبه كما أحب، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، واذا قلت له شيئاً مجملا بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهويتم مابدأت ، ويفصل ما اجملت. وقد رأيت في سفري هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزابا ، وأوجد لي تلاميذ وأصحابا، ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ ، واستغنائه الآن عني ، ماذا كانت تلك الحاجة ؟ وماذا عملت له ؟ أنا والله في خجل من نفسي انني لم أعمل له شيئا ، وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم الخ ، فسكت الجماعة واجمين مدحورين ، وأحال الشيخ عبد الرحيم الجد هزلا ، والذم لصاحب المنار مدحا

ولكن الاستاذ الامام أعلى الله مقامه ، وأجزل ثوابه في دار الكرامة ، أرسل عقب ذلك إلى زميله القديم ، وصديقه الحميم ، الاستاذ الشيخ عبد الكريم « إما أن تكف عن السيد رشيد واما أن أستغني أنا عن صحبة أربعين سنة »

أخبرني الاستاذ الامام هذا الخبر وقال لي انني أشعر منذ زمن طويل بان الشيخ عبد الكريم غير راض عنك ، وقد فكرت طويلا في مخالفته لي في هذا فلم أهتد إلى سببه ، وأقرب ماخطر في بالي إلى العقل أنه يشعر من حديثك معه انك لاتعده من العلماء ، وما كنت أظن ان مافي نفسه منك يصل معي إلى هذه الغاية ويضطرني إلى هذا الانذار

قلت واني أشعر بما شعرت به بل أنا أولى بذلك، لان دعابته في التعريض بي تخزني وخزاً ، وقد تكزني وكزاً ، ولا اشك في انبجاسها من عين آنية ، ونية غير صافية ، ولكنني أتغابى لأجلك ، ولم أتعمد التعريض بقلة علمه، ولا الايماء إلى توهين فهمه ، إلا أن يكون شيء من فلتات اللسان ، ولا يبعد حينئذ أن يكون عن كامن الوجدان .

وأقول الآن لقد كان الشيخ عبد الكريم أجدر من غيره بادراك الرابطة الاصلاحية التي جمعتنا ، والعروة الوثقى التي اعتصمنا بها ، وانه لا حق مني بقصد المنفعة الدنيوية من صحبة الاستاذ، فانه هو الذي نظمه في خدمة الحكومة أولا في المطبوعات معه، وأخيراً في جملة قاضياً في المحكمة الشرعية العليا وهو شافعي المذهب. وقد تقدم انه لما نكب الاستاذ في عاقبة الحوادث العرابية رأى من مصلحته المالية أن يتكلم فيه ، وان سعد أفندي زغلول قد اعتذر للامام عنه (ص ٢٧٨)

فان كان حب المنفعة ينافي الاخلاص في المودة فانا المخلص دونه . ولعل الاستاذ كان يريد أن يجعل لي وظيفة علمية في الحكومة اذ رغبني في طلب الجنسية المصرية وتقييد اسمي في دفاتر الانتخاب فلم أفعل (وانما فعل هذا لي

أخي بعد وفاته بسنين) وقد علم أني أكره خدمة الحكومة ورتبها ونياشينها طبعا ودينا ، كما أبيتها من الدولة العثمانية فعلا

والسبب الصحيح فيما كان من امتعاض الشيخ عبد الكريم مني وتبرمه بي في السنين الاخيرة هو انه رآني قد حللت محله في صحبة الاستاذ بل اربيت عليه وفقته في الاتصال به ، حتى ان أكثر الذين كانوا يلوذون به لتقريبهم اليه قد انصرفوا عنه الي ، وان كانت مودتهما لم تتغير ، وثم سبب آخر يعزز هذا السبب ويقويه ، وهو كراهته للسوريين ، لا استثني منهم إلا الامير شكيب ارسلان ، فانه حل من نفسه محلا كريما عند مازار مصر ، لفكاهاته الادبية ، ونوادره اللطيفة ، على مكانته من حب الاستاذ الامام له وتكريمه إياه ، وللدعابة موقع من نفسه معروف يعلو بها عنده صاحب المفاكهة ، وحاضر النادرة ، ولعله لو أقام بمصر لكان نصيبه منه مثل نصيبي أو على مقربة منه

ولم تصف مودته لي إلا بعد وفاة الاستاذ الامام ، لان سبب الكراهة قد زال ، ورأى أنني كنت بعد موته أشد محبيه أسى وحزنا ، ومدحا وثناء ، وعناية باحياء ذكره ، ثم أساء الظن بي لتأخير إصدار هذا الجزء من التاريخ إذ ظن ان سبب ذلك عودة الخديو إلى الاقبال علي ، ومساعدته إياي على مشروع الدعوة والارشاد ، ولما علمت ذلك أعطيته ما كنت طبعته منه وهو ينتهي إلى ص ٢٣٢ وأخبرته بما بعده من المواد وسألته : هل يوجد في البلد حرية تبيح لي نشر هذا ؟ قال لا . قلت فما تقول فيما بعده وهو أشد منه على الانكليز وعلى الخديو معا . وذكرت له ما كان معارضة فتحي باشا زغلول لي في حرية الكتابة ، فاعترف بعذري عن اذعان ، وعاملني معاملة أخلص الاخوان

وهذه المسألة قد اشتهرت في ذلك الوقت وأشار اليها محمد حافظ ابراهيم معرضاً بالشيخ عبد الكريم في قصيدته التي هنأ بها الاستاذ الامام في عودته بقوله :

شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا ‍ ‍ ‍ ‍ ولائي في عنفوان الشبـــاب

وانني أذكر بمناسبة قول الاستاذ الامام لي ان الشيخ عبد الكريم ربما كان يتهمني بانني لا أعده عالما اننا كنا مرة في احتفال وليمة عرس لبعض اصحابنا مع بعض الادباء فطفقوا يتناشدون بعض فرائد الشعر ، وما يعن لهم فيها من النقد ،

فأنكرت بعض ماوقع لبعضهم من الخطأ اللغوي او البياني ومنه ماقاله او وافق قائله الشيخ، ثم خطأني هو في قول قلته فأتيت بالحجة على صحته وأنشدت قول السموأل

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فكان هذا اشد ما واجهت به الشيخ عبدالكريم فيما أذكر

ولما توفي الاستاذ ونشرت الجرائد يوم دفنه الابيات التي قالها قبيل وفاته ساء الشيخ عبد الكريم نشرها لان قوله فيها

فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيد يضيء النهج والليل قاتم

صريح فيما فهمه كل الناس من انه يعنيني به، وقد تحدثوا بذلك في حفلة المأتم، فهم الشيخ عبدالكريم بان يكتب الى الجرائد بأن تكذب عزو الابيات إلى الاستاذ، ولكن اخبره مصطفى بك الباجوري وحموده بك وكذا الشيخ احمد المحمصاني انهم سمعوا الابيات منه وكتبوها عنه في الاسكندرية فأمسك عن تكذيبها واجماسا خطا

وجملة القول اننا عدنا الى الصفاء والوفاء، اللذين يليقان باقرب الناس الى قطب الوفاء والاخلاص، حتى صار الشيخ عبدالكريم يزورني في داري ويأكل طعامي، ويسأل عن اولادي ويكرمهم كعادته الحميدة مع اولاد اصدقائه. عفا الله عنا وعنه

هذا ما كان من كيد اللجنة في آرائها المروزة، وأقوالها المزورة، وعاقبة رازها الاكبر الذي تولى كبرها، وتفصي مهازلها الامهر الذي تلافى امرها

وكان وراءها دسيسة نسائية ظننت انها ابعد عن الظنة، وأدنى إلى إثارة نقع الفتنة، وهي ما نفثوه في صدور بعض السيدات من أولي القربى من تهم صدقنها، علماً منهم بأنهن لا يصبرن عن إذاعة سرها: فبينا الاستاذ الامام في داره بين اهله وجماعة اسرته، الذين اجتمعوا للحفاوة بعودته، إذا هو يسمع من بعض النساء وسوسة غير وسوسة الحلي، وإذا بصوت يرتفع بذكر الشيخ رشيد رضا، وإذا بكريمته الكبرى (رحمها الله تعالى) تقول قد تسرب من محافل الرجال، إلى خدور ربات الحجال: ان دخيلة هذا الرجل قد تكشفت، وسريرته قد افتضحت، وانه يصحب أستاذه للتجسس عليه، لا لتلقي العلم منه

قال الاستاذ: ماهذا؟ من يقول هذا؟ قالت يقولون او يقلن انه جاسوس عليك

قال لمن؟ ان التجسس في هذا البلد لا يكون الا لاحد رجلين : الخديو وهو قد عاداه لاجلي. واللورد كرومر وهو لم يعرفه ولا يحب ان يعرفه، والا لكنت انا الذي اعرفه به ثم خاف ان يسمع اكثر مما سمع فيغضب فيقول ما يجرح شعور السيدات، فتلافى ذلك بأن التفت إلى اخيه حموده بك فقال له : انظر ياحموده ! انك إذا كنت لا تستطيع ان تكون والسيد رشيد كالاخوين المخلصين فلا يمكنك ان تعيش معي في هذه الدار ، فأخمد بهذه الكلمة النار ، وهو الذي قص علي الخبر

ما كان ينتقده الاستاذ على المنار

كان أحسن الله اليه ينتقد علي في المنار أموراً يذكرها لي عند وجود ما يذكره بها

(أحدها) الصراحة التامة والشدة في إظهار الحق وكان يعبر عن ذلك بقوله ما معناه : انك كثيراً ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين، ويهون قبوله على المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي اليه صديق، وانه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد اعراضهم عنه. وكان يعجبه من مقالاته ما جعلته باسلوب المناظرة كمحاورات المصلح والمقلد فموضوعها أشد ما كتب وطأة على الجامدين المقلدين ولم يسمع من أحد منهم شكوى منها ولا قدحاً في كاتبها

(ثانيها) كان يقول لي مراراً ان المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين حتى العوام ، وقد تحريت موافقته في هذا حتى إن قارئي المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الاولى ما لا يجدون فيما بعدها ولكن بقي اكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحري

(ثالثها) الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الاحيان، وهذا مما كنت أكرهه أنا أيضا فيعرض لي من الضرورة ما يحملني عليه وجل عملي المهم منها كان سريا وقد أشرت الى ذلك في فاتحة المجلد ١٢ من المنار سنة ١٣٢٧ بقولي «سالمنا السياسة فساورت وواثبت، واسلسنا لها فجمحت وتقحمت، وكنا نهم بها في بعض الاحيان، فيصدف بنا عنها الاستاذ الامام ، ولم ننل منها ما نهواه ، الا بعد ان اصطفاه الله »

بعض أقواله فى خطة الاصلاح والتجديد

﴿ والقائم بها على أثره واثر السيد جمال الدين ﴾

كان الاستاذ الامام قدس الله روحه يصرح في المناسبات المختلفة بهذا المعنى للافراد أو الجماعات، حتى صار معروفاً عند من يعنى بهذا الامر، من مسلمي الشرق والغرب، ولاسيما بعد وفاته، واشتهار أبياته، وصار الناس يكتبون هذا ويقولونه لنا: فأصدقاؤنا ومحبو الاصلاح يقولونه ثناء ودعاء، وخصومنا يقولونه تهكماً واستهزاء.

ومن ذلك ان مولانا الاستاذ احمد آزاد المكنى بأبي الكلام، أحد زعماء الهند وعلمائها الاعلام، لما أنشأ مجلته (الهلال) الاوردية الاصلاحية ذكر في صدرها صور الثلاثة مع الكلام عنهم: السيد جمال الدين الافغاني. الشيخ محمد عبده. السيد محمد رشيد رضا. فيبيح لي هذا التاريخ الحر أو يوجب علي أن أثبت فيه ماسمعته منه أو رويته عنه وهو قليل من كثير لا يزيد على عشر كلمات — أعيد قبله ذكر كلمته الخطية في المنار التي سبق نشرها في ضمن كتاب له (ص ٨١٠) وهي

﴿ كلمته الخطية، في خطة المنار التجديدية ﴾

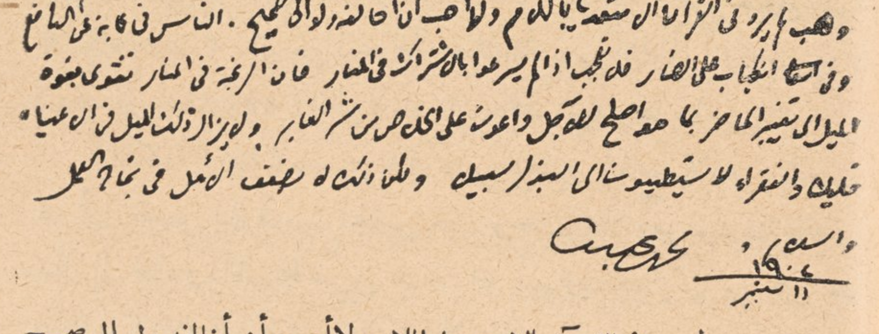

« وهب لم يرد في القرآن الا متعديا باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح. الناس في عماية عن النافع، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب إذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا. والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا. ولكن ذلك لا يضعف الامل في نجاح العمل »

الكلمات العشر

(الكلمة الاولى) قوله لصديقه محمود سامي باشا البارودي انه يرجو ان أكون خلفه في القيام بالاصلاح الذي خلف به السيد جمال الدين ، وقد ذكرته في أول هذه الخاتمة (ص ٩٩٥)

(الكلمة الثانية) قوله لحسين دانش بك الذي كان سكرتير محمود باشا الداماد صهر السلطان العثماني عند ما كان في مصر مع الداماد ونجليه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله في سنة ١٣١٧ . ثم صار سكرتيراً لمصلحة الديون العثمانية في الاستانة وكان شابا بحاثا في الشؤون الدينية ميالا إلى الاصلاح الاسلامي فاغتنم فرصة وجوده بمصر للقاء الاستاذ الامام فصاحب المنار ، وقد أخبرني ان الاستاذ قال له في أثناء حديث معه : انني مارأيت أنهض من هذا الشاب (صاحب المنار) بالتوفيق بين الدين والعقل . وبين الشريعة ومصالح البشر المدنية الموافقة لهذا العصر »

(الكلمة الثالثة) لسماحه السيد محمد توفيق البكري وهو بمعنى كلمته للبارودي. قال لي الاستاذ البكري : كنت راكبا مع شيخنا (الاستاذ الامام) في ليلة من ليالي رمضان بشارع درب الجماميز فذكرت ما من الله عليه من العلم والحكمة وخدمة الاسلام وقلت له : إلى من نرجع فيما خصك الله به من ذلك اذا لم تكن موجوداً ؟ (وقد عنى بذلك وفاته) فقال له : إلى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار

(الكلمة الرابعة) ماصرح به في درس التفسير بالجامع الازهر : تأخرت عن أول الدرس ليلة فأردت الجلوس حيث وجدت محلا وهو بعيد عنه فناداني تعال إلى هنا ، وخاطب الحاضرين بقوله : انه يفهم او يستفيد أكثر من كل واحد منكم (ص ٧٦٩) وقد ذكرني بهذه الكلمة الاستاذ الشيخ حسن منصور من عهد غير بعيد

(الكلمة الخامسة) للاستاذ الشيخ احمد إدريس رفيقه في تفتيش المحاكم الشرعية وهو من أبرع قضاة هذه المحاكم وقد ارتقى إلى المحكمة العليا . ذكر لي انه لما كان معه في الاسكندرية كلمه بعض أصحابه مستنكرين لشيء نشر في المنار عن الدولة العثمانية فقال له بعضهم نرجو أن تمنع صاحب المنار من نشر مثل هذا ،

فقال لي اسمع مايقولون ، انني والله لا أعرف أحداً في الناس مستقل الفكر مثل هذا لرجل ، وانما أنا أكامه في كل موضوع بالدليل

والمراد من ذكر هذه الكلمة هنا انني كنت معه على طريقته وطريقتي في الدين والعلم وهي حرية العقل واستقلال الفكر واتباع الدليل ، وقد اشترطتها في الأخذ عنه من أول يوم (ص١٠٠٣) فقد استفدت منه حكمة وعلماً ، وأدباً جماً ، ولم أقلده في شيء منها تقليدا ، بل كنت أوافقه بالاقتناع كثيراً ، وأخالفه وأناقشه بالدليل قليلا ، لاننا متفقان في المبادىء والمقاصد والغاية والنية ولله الحمد

(الكلمة السادسة) للاستاذ الشيخ محمد شاكر إذ بلغه عن الخديو انه انما يرضى عنه اذا أبعد صاحب المنار عنه فقال : كيف أرضى بابعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان أفكاري (ص٥٨٦)

(الكلمة السابعة) لبطرس باشا غالي وزير الخارجية إذ بلغه عن الخديو مثل مابلغه الشيخ شاكر وان سموه أرسله اليه بذلك وانه اذا ترك صحبة صاحب المنار يفوض له العمل في الازهر . قال انني أفضل ان أعيش مع صاحب المنار في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس إدارة الازهر لان هذا الرجل متحد معي في العقيدة والرأي والخلق والعمل الخ (ص٥٨٦)

(الكلمة الثامنة) ماقاله للشيخ عبد الكريم سلمان وقد ذكرته آنفا من عده إياي مدداً لحياته ، في اتمام ما بدأ ، وتفصيل ما أجمل (ص١٠١٨) وأهمه عنده التفسير كما صرح به في أبياته الآتية

(الكلمة التاسعة) ما قاله لي في سياق الكلام في الاصلاح وما كان عرض له من كتابة وصيته للمسلمين . قال : مرضت مرضاً شديداً اشرفت به على الموت فطلبت دواة وقلما وورقا لأكتب وصية فيما يجب على المسلمين من الاصلاح بعدي ، فلما أحضرت علم أهل البيت انني شعرت بقرب الاجل ، فطفقن يبكين حتى علا نشيجهن فلم أستطع الكتابة حينئذ

قلت لعلك كتبت بعد ذلك . قال بل شعرت بالصحة ورجوت العمل

قلت : هذه الوصية ضرورية للامة وإذا كتبتها في حال الصحة والقوة تكون

ثم. قال «انه لم يبق من حاجة اليها. فالمراد منها صار معروفا» وأومأ اليه ايماء لطيفا...

﴿ الكلمة العاشرة - أبياته قبل الوفاة ﴾

لما مرض الاستاذ الامام مرضه الاخير كنت أعوده بداره في عين شمس كل يوم وأقرأ عليه ما كتبه الشيخ عبد الكريم من رسالة (أعمال مجلس ادارة الازهر) فيصحح فيها ويزيد او ينقص منها، وقد أملى علي تقريره عن امتحان مدرسة دار العلوم وهو في سريره فكتبته. ولما سافر إلى الاسكندرية سافرت معه وكنت أقيم عنده أياما وأعود إلى القاهرة فأنظر في أعمال ادارة المنار ثم أعود إلى الاسكندرية دواليك، ولما اشتد عليه المرض أذيع وأنا في مصر انه توفي، فكدت أقضي من الغم وبت تلك الليلة بعد تكذيب الخبر ولما استيقظت وجدت على مخدتي دما قد خرج من فمي وأنا نائم. وفي الصباح عدت إلى الاسكندرية فلما قابلته قال لي:

قد جاش في نفسي الشعر في غيبتك كأنني لا أقول الشعر إلا في الحبس او المرض - يشير إلى القصيدة التي نظمها في السجن في عاقبة الحوادث العرابية وقد تقدمت (ص ١٥٠) وأنشدني هذه الابيات فكتبتها عنه واحداً بعد واحد وهي:

ولست أبالي ان يقال محمد أبلَّ أم اكتظت عليه المآتم (١)

ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم (٢)

---

(١) أبل المريض شفي من مرضه واكتظت المآتم امتلأت وازدحمت بالناس والمآتم جمع مأتم وهو مجتمع الناس في الحزن وهو في أصل اللغة عام في الحزن والفرح ثم غلب على جماعتهن في المصائب ثم نسيت هذه الغلبة

(٢) قضاء العمائم يعني أهلها على الدين قد يكون بتركهم اقامة كتاب الله وسنة رسوله في هدايته والدعوة اليه على بصيرة وهي الحجة، وباتباعهم للبدع والعادات المضيعة له، وقد يكون بعداوتهم للعلوم والفنون التي هي قوام الدول والامم باسم الدين فيكون المشتغلون بها بعداء عن الدين معتقدين انه آفة العمران بل يمرقون منه ويعادونه وأصحاب العمائم عاجزون عن الجمع لهم بين مصالح الدنيا والدين فلا يبقى على تقاليد الدين الا أفراد لا تقوم لهم به قائمة

وللناس آمال يرجُّون نيلها اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب إن قدرت رُجعى قريبة الى عالم الارواح وانفض خاتم (١)
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيداً يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلما وحكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم

ونشرت الجرائد في خبر وفاته الخمسة الاولى وضبطت الثاني هكذا :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وقال لي بعد كتابتها انه خطر في باله أبيات أخرى فكتبتها عنه . ورأيته قد ترك فيها ألف التأسيس في كلمة القافية كأنه أذهله عنه الألم ولم أنشر منها في المنار إلا هذا البيت الذي نشرته إحدى الجرائد الاسبوعية أيضا وهو قوله في صفة المرشد الرشيد :

ويخرج وحي الله للناس عاريا عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم

ولما أنشدني الابيات طفق الشيخ عبد الرحيم الدمرداش يمازحه كعادته لاجل التسلية فقال له : أنا أشتغل ليلا ونهارا بخدمتك وتكبيس رجليك (وزاد على ذلك كلمة دعابية) ثم توصي للشيخ رشيد وتجعله خليفة لك، ياضيعة الخدمة !!

وهذا البيت الاخير آخر نص صريح من الاستاذ الامام في اتباع مذهب السلف في تفسير القرآن وهو ينبوع الاعتقاد وأصل الدين ،ومراده بالرأي الذي ينهى عنه اتباع الهوى لتاييد المذاهب المقلدة ، أوطلب المنافع الباطلة ،وبالتأويل الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو ام الكتاب ، أوما أجمع عليه اهل الصدر الاول .

فأسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه، ويوفقنا لتحقيق آماله ،ويلهمني الحق الذي يرضيه تعالى في تفسير كتابه ويقدرني على اتمامه، انه على كل شيء قدير

---

(١) انفضاض الخاتم عبارة عن مفارقة الروح للبدن وهي من اشارات الصوفية

الفصل الثامن

في شؤونه الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية

وفيه ٤ مقاصد وخاتمة أما المقاصد فهي (١) قوة عقله وسعة علمه (٢) إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله وعباداته (٣) مرضه الاخير ووفاته (٤) تأبينه

المقصد الاول

قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري، ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر، أما هو فكان يقول عن نفسه انه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٥ رجلا مثله في ذهنه . وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله، ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة في العصور المختلفة مثله. وانك لتسمع كثيراً من أهل العلم بالتواريخ وسير الرجال الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة ، فهو المصداق في عصرنا لقول الشاعر في مدح رجل اسمه كثير* فمثل كثير في الانام قليل* وقال الذين يمتحنون أذهان طلاب العلم وعقولهم من علماء الافرنج : ان في كل مائة منهم ٢٥ أذكياء ومثلهم بلداء، والخمسون الآخرون يتفاوتون في الوسط بين هذين . ولعمري لقد كان هو في الثلاثة الاولى من الربع الاول إن لم يكن هو الاول بل لا اعقل ان يكون في كل مائة مثله في الذكاء ، ولكن السيد جمال الدين كان الاول في كل الف أو الف الف، بل هو الذي لا يكاد يسبقه اولا يلحقه أحد

وقد قال كثير من أهل الرأي والفضل فيه بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأه أحد في هذا العصر. وقال أحمد مختار باشا الغازي أكبر قواد الترك وعلمائهم الرياضيين: اني أحسب ان دماغ الشيخ محمد عبده اكبر من كل ما عرف من أدمغة كبار الرجال، ولو وزنه الذين يعنون بهذا في اوربة لثبت لهم انه أكبر من دماغ بسمارك أدهى ساسة اوربة في عصره، ومن ادمغة اكبر فلاسفهم

وقد راجعناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يساوونه في ذكاء ذهنه، وقلنا له كيف يحصل في الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه في الزمن الطويل؟ فقال إن الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط، وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة إلى الشيء ومعرفة طريقه وغايته قبل طلبه. وهذه حقيقة لا مرية فيها ولكنها لم تذهب بامترائنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان، وإن كان قاله اعتقاداً لا تواضعاً وهضما لنفسه. على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالا عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفونهم. فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية

بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الامراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الاعمال. أتظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة الاجتماعية وكتب التربية والتاريخ العلمي. وقد رابه من مرضه الاخير ملله فيه من المطالعة وقال إنه لم يعهد ذلك في مرض قط، فقلت له هكذا شأن أمراض المعدة، على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الاطباء — ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته ولا علم انه سرطان الكبد

وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها، وأعلى حرارتها، حتى خشي على حياته منها، ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه، حتى قال الطبيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل، ولو حدثت عن مثل ما رأيت منه لما صدقت. وكذلك قال بعض الاطباء الذين زاروه قبل موته بايام قليلة (كالدكتور زلزل المشهور) اذ وصف له سير مرضه من أوله الى يومه ذاك، ووصف له أعراضه

لم يفته منهاشيء، وكان قد دب السم في جميع جسمه ، وبقي عقله حاضرا وذاكرته تملي على لسانه الاجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه وفي غير ذلك

اتفقنا نحن الذين كنا نلازمه على أن لا نحدثه في الجد ولا مسائل العلم والاجتماع. وأن نمنع عائديه من الحديث في ذلك لا سيما بعد اشتداد المرض عليه على قلة من يؤذن لهم برؤيته، ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة إلى الجد ، فاذا ساقت شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة احتجب معناها ، أسرع ذهنه إلى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها ، ونفث في عقدة العويص منها فحل عراها

أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم تواترت فيه نوبات الالم عليه فكان مما أنشده محمد حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار المشهور:

اذا ماغضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقال انني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه، وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس، فلم يلبث الامام أن قال، والالم ينال من كبده ماينال ، ان معناه ظاهر، فانه يريد أنهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم، وأشرعوا رماحهم ، فكان بريقها ولمعانها كالهتك لحجاب الشمس الذي يظهر به نورها ويتألق شعاعها، إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم، فتخرج وهي تقطر دما ، وتسيل مهجا ، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه . فالضمير في قوله قطرت دما عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة، أي على حد قوله تعالى (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) على التفسير المشهور المأثور من ان ضمير (توارت) يرجع الى الشمس . والصحيح أنه يرجع الى الخيل

ناهيك بمن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وامضاء الاعمال في معاهد كثيرة، ولا يشكو تعباً ولا يخف مللا، كان يصبح فيغدو إلى مجلس الشورى مثلا فيجلي المسائل الموضوعة للبحث، سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية ، ويؤلف بينها وبين مصلحة البلاد ، ويؤيدها بالحجج القانونية والعقلية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء ، ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل

طعام الغداء ويذهب الى الازهر، فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها، وعمل عمله فيها، ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره اصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها ، والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين، فينظر في هذه الامور إلى ما بعد العصر، ثم يخرج الى ديوان الاوقاف إن كان اليوم يوم جلسة المجلس الأعلى، أو إلى مجلس إدارة الجمعية الخيرية إن كان يوم جلسته، ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس، ويخرج بعد العشاء قاصداً داره فيجد العفاة واصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم ، ويقرأ في القطار جرائد المساء، وبعد هذا كله قلما كانت داره تخلو ليلة من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة .

ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد جلسة في تلك المجالس الرسمية كان يقرأ فيها أوراق تلك المجالس . ولكنه كان على ذلك العقل الكبير، والعرفان الغزير، كثير النسيان للامور الجزئية كالارقام ، وأسماء الاعلام

علومه ومعارفه

أتقن جميع العلوم الاسلامية، من لغوية وشرعية وعقلية، وكذا الفلسفة القديمة والتاريخ ، وعلوم الحقوق والقوانين ، وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية قبل تعلم اللغة الفرنسية، ثم أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج . وكان يعنى بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح .

فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق الناس فهما للقرآن والحديث ولغيرهما من فصيح الكلام ، وأبلغ الكتاب ، وأخطب الخطباء

قال الشيخ ابراهيم اليازجي اللغوي الاديب النقادة : كان حديثه الذي يلقيه في المجالس كأفصح مايكتب الادباء المترسلون ، وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب عن سيرته في سورية ماكان من دقة فهمه وذوقه للشعر البليغ وطربه بمطربه وشجوه بمشجيه (ص٤٠٩)

أما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها أن كان فيلسوفا حكيما ، اعترف له بذلك

من يعتد بمعرفتهم. واذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الكبراء بمصر (هو علي باشا مبارك) وكان في المجلس بعض اهل العلم وحملة الاقلام من السوريين (هو الدكتور يعقوب افندي صروف محرر المقتطف) فقال ما معناه ان الناس قد ابتذلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله ، وكان أطلق هذا اللقب فى جريدة على بعض الحاضرين !! فجرى ههنا كلام في معنى كلمة فيلسوف .قال يعقوب أفندي :الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم. قال الاستاذ إذاً لم يوجد فيلسوف في الارض . قال هو الذي أتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرها .قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وكذا الثانوية على إلمام بجميع العلوم العصرية ثم يتقنون بعضها ، فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والاطباء وفي التلاميذ أيضاً. ثم سئل هو عن تفسيره فقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وأما علوم التصوف فكان فيها من الراسخين وقد قال لي انني اقرأ الفتوحات المكية كما اقرأ تاريخ ابن الاثير لان لغوامضها مفتاحا من علمه لايخفى عليه شيء منها وقد تقدم شرح هذا في الكلام على تربية الاولى بالتفصيل

وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتهداً وإن كبرت هذه الكلمة على الذين سجلوا على انفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتي المتأخرين . من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين، وناهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على اصول الشريعة وحكمها واسرارها، وقوة حجته في اثبات عقائدها ، ودفع الشبهات عنها، وتطبيق احكامها على مصالح البشر . ولست اعني بكونه إماما مجتهداً في الشريعة انه صاحب مذهب دونه ، أو كان يريد أن يدونه ، وانما اعني ماذكرت آنفا من فهمه الدين اصوله وفروعه بالدلائل والبراهين ، والفقه فيه والوقوف على حكمه، والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والائمة المهديين ، الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهبا جديدا فانما يزيدهم عمى وجهلا وتفرقا واختلافا ،

هذا ما كتبته في ترجمته من المنار مع تنقيح ما . وازيد عليه هنا ما ياتي فاقول انه على نصره للسنة لم يكن واسع العلم برواية الحديث ولا حفظه، ولا كثير العناية بمعرفة الجرح والتعديل فيه — وانما قرأ علم مصطلح الحديث وبعض متون الصحاح والسنن التي تقرأ في الازهر وهي قليلة وتقرأ للتبرك لا للتفقه فالتقصير من الازهر لا منه ، وكان هو يقرأ الحديث للتفقه والتادب بالسنة ويشدد النكير على الازهريين وامثالهم بقراءته للتبرك ويعدها من جناياتهم على الاسلام، وكان يستقصي أخبار السيرة النبوية والشمائل المحمدية، ويعدهما من أركان التشريع والتاريخ الاسلامي. وكان يرى ان المحدثين قد غلطوا في تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق لان أصحاب الاهواء عنوا بترويجها، وكذا الاحاديث المخالفة للقرآن كحديث السحر، وقد جادلته في بعض هذه المسائل وقلت له : ان علماء الجرح والتعديل يقولون بوضع الحديث المخالف لنص القرآن ولغيره من القطعيات ، قال نعم وانها لنعمت القاعدة ولكن لا ترى فيهم من طبقها على جزئياتها؟ ورأيته في الاستدلال بها يوافق مذهب السلف ولعلي ابسط هذه المسألة في ذيل هذا التاريخ فقد طال هذا الجزء جداً

وأما العلوم العصرية فكان يعرف منها الرياضيات ، ويلم بالطبيعيات ، ويتقن الفلسفة العقلية وعلوم التربية والنفس والاخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والامم ومذاهبها، وكان يطالع دائماً ما تجدد عند الافرنج من المصنفات في هذه العلوم وفي شأن الاسلام، وكان عزم على تعلم اللغة الالمانية وشرع فيه لان الالمان سبقوا غيرهم إلى الاخصاء في جميع العلوم فما زلت اثني عزمه عن ذلك حتى قبل، وقد درس علم الخط المسند وكتب فيه كتاباً لاجل تحقيق التاريخ العربي القديم . وسبق هذا في الكلام على اسفاره

يظن بعض الشبان المتفرنجين المغرورين ببضاعتهم المزجاة من مبادي العلوم العصرية أن الاستاذ اذا قيس بعلماء أوربة أو حضر مجالسهم كان يكون كالأبكم بين الناطقين ، وما يدرون انه كان في كل مكان من كل بلد ذلك الامام الذي تشخص اليه الابصار ، وتصغى اذا تكلم الاسماع ، لما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب ، وقد ذكره بعض ملاحدة مصر في مجلة له فزعم ان بعض الناس ترجم له

بعض ما كتبه في مقالات (كتاب الاسلام والنصرانية) واستبعد الجهله بحاله وترجمته أن يكون قرأها باللغة الفرنسية ، ولم يدر انه حذق هذه اللغة وكان من أفصح الناس نطقا بها ، وفهما لها ، بل صرح بعض العارفين به وبها ممن ترجموه انه كان كأفصح أهلها . وقد كان يقرأ لي في كتاب فرنسي في فلسفة الارادة كأنه يقرأ في كتاب مؤلف بالعربية . وترجم عنها في أثناء تعلمها كتاب التربية للفيلسوف هربرت سبنسر لاجل التمرن على الترجمة ثم عرض ترجمته على صديقه قاسم بك أمين الذي شهد له بالامامة بأوسع مافي هذا اللفظ من المعاني ، وكان في الذروة من المصريين الذين حذقوا اللغة الفرنسية فهما ونطقا وإنشاءاً ، فأصلح بعض الكلم فيها . ثم راجع بعض المتقنين للفرنسية والعربية هذه الترجمة وما أصلحه قاسم بك أمين منها فوجد أن قاسما مخطيء فيما أصلحه منها ، وان ما كتبه الاستاذ الامام في بدايته من ترجمتها هو الصواب ، وقد أملى في أثناء مرضه الاخير مقالة بهذه اللغة نشرت في بعض المجلات الفرنسية

ومن قرأ رده على موسيو هانوتو ولاحظ أن ما فيه من الكلام على الفرق بين الآريين والساميين في عقائدهم وتأثيرها في حضارة كل منهما ، وما فيها من عقائد فرق النصرانية المختلفة وغير ذلك مما لا يوجد تفصيله الا في الكتب الافرنجية — من قرأ ذلك ولاحظ ما ذكر عرف سعة اطلاعه على كتب الافرنج واستحضاره لما قرأه عند الحاجة اليه

وناهيك برجل كان الاستاذ ادوارد براون من كبار العلماء المستشرقين المدرسين في جامعة (كمبردج) يكتب له « أستاذي الاكبر ، وأستاذنا الاكبر الافضل الاعلم ، الاعز الاكرم » ويكتب امضاءه في بعضها (أحقر تلامذتك ادوارد براون) ويقول في كتاب التعزية لاخيه : ما رأيت مثل الفقيد المرحوم في الشرق ولا في الغرب فوالله كان وحيدا في العلم ، وحيدا في التقوى والورع ، وحيدا في البصيرة والاطلاع على ظواهر الامور وبواطنها ، وحيدا في جميل الصبر وخلوص النية ، وحيدا في البلاغة والفصاحة ، عالما عاملا محسنا ورعا مجاهدا ، محبا للعلم ملجأ للفقراء والمساكين » الخ (راجع ص ٢٩٨ ج ٣) من هذا التاريخ

المقصد الثاني

من الفصل الثامن

إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله ﷺ وعبادته

تقدم ان الرجل قد ربي تربية صوفية شرعية خالية من البدع، وتقدم قوله ان الغرض من تربية الصوفية أن يكون الدين وجداناً لصاحبه كوجدان الحب والبغض، واللذة والالم، لا يزلزله شك ولا تؤثر فيه شبهة، وهو قد طلب العلوم بارشاد مربيه الصوفي (الشيخ درويش) القائل له ان كل علم من العلوم يفيد النفس كما لا يقربها إلى الله تعالى فكان ينوي بطلبه العلوم حتى الرياضية والفلسفة الكمال الذي يقربه إلى الله عز وجل ويدنيه من مرضاته فكان طلبها عبادة لم تزده إلا إيمانا كان يقرر أن الدين فوق العقل ومعارفه الكسبية، ولكنه صديق له لا عدو، فهو يرشده الى الكمال في معرفته، كما يرشد القلب او الوجدان الى الكمال في فضيلته، ولولا ان ارشاده للبشر من فوقهم لما اذعنوا له ولما كان دينا.

وكان يرى ان اليقين المطلوب في الايمان هو اليقين المنطقي المؤلف من علمين (أحدهما) ان الحق في المسألة كذا (وثانيهما) انه لا يمكن أن يكون إلا كذا. وقد بينت في التفسير وغيره ان هذا هو الكمال في العلم والايمان وهو لا يشترط في صحة الاسلام بل يكفي فيه اليقين اللغوي وهو الجزم الذي لا شك معه ولا ريب فيه بالفعل

وكان هو على يقين منطقي في عقيدته، ووجدان روحي في إيمانه، ويعتقد أن الايمان الصحيح ما ظهر اثره في الاخلاق والاعمال، حتى انه لم يكن يتصور أن يجتمع توحيد الله تعالى مع الذل والصغار وإقرار الباطل والخوف من الاعتصام بالحق في نفس واحدة، فكنا نرى ثمرات الايمان الكامل يانعة في شجرة نفسه المباركة، من الخوف من الله، والرجاء في الله، والتوكل على الله، والحفظ لحدود الله، والخشوع في الصلاة لله، وعند قراءة كتاب الله، ولو استطاع أن يتعدى حدود الله متأولا بالمصلحة لوافق الخديو على مايريد من الاوقاف العامة ليمكنه من إصلاح الازهر (راجع ص٥٧٣)

وكان يعتقد ان الخشوع وحضور القلب في الصلاة واجب فهو ركن من أركان الصلاة أو شرط لصحتها أو قبولها ، وقد ذكرنا أول ماسمعناه منه في هذه المسألة في بيان رأيه في المسلمين والفقهاء وإنكاره عليهم جعلهم الخشوع والتدبر من المندوبات كانكاره على المفسرين جعل أكثر مافي القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الايمان خاصا بالايمان الكامل ، وقوله كأنهم افتوا المسلمين بانهم في اوسع الرخصة من ترك محاسبة أنفسهم على لوازم الايمان التي لا تفارقه وثمراته التي لا تتخلف عنه من الفضائل والاعمال . وقد عاشرنا كثيراً من العلماء الذين يوصفون بكمال العلم والتقوى ، فما كنا نسمع منهم في مجالسهم كلمة مثل كلماته في البر والتقوى وهداية القرآن ، وأخلاق الايمان ، وفوائد عباداته في سعادة الآخرة ، وسيادة الدنيا ، ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنافي الجزع والهلع

تعظيمه للنبي ﷺ وبيانه لعلو قدره

وأما تعظيمه وتكريمه وتوقيره وتعزيره للنبي المجتبى صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وعرفانه لقدره ، واجلاله لمنصبه ، فهو مالم نسمع من أحد وما لم نقرأ ولم نرو عن أحد مثله من علماء عصرنا ولا متصوفتهم ، بل منه مافاق به المتقدمين ، من العلماء المحدثين ، والحكماء العقليين ، ومن الصوفية العارفين : استقصى المحدثون ماروي من مناقبه ومعجزاته ﷺ فكان منها الصحيح والضعيف والموضوع ، ومنها ماهو منفر عن الاسلام ، وشبهة على الايمان ، وجاء الصوفية من اطرائه ﷺ بما يعقل وما لا يعقل ، ومايقبل في الشرع وما لا يقبل ، وأما الفقهاء والمتكلمون فمنهم المنتقدون لذلك ومنهم المقلدون المتأولون

أقم ميزان القسط بين ذلك كله وما بين أستاذنا الامام من فضائله وهدايته ، وأسرار رسالته ، تلك الحقائق التي كان بها ﷺ خاتم النبيين ، والرحمة العامة للعالمين ، والمصلح للفساد الذي فشا في الخلق أجمعين ، من فلاسفة ومليين ، وبدو وحضريين ، وانظر أيهما اهدى الى الايمان ، وأقوم بما يدل عليه القرآن ، وما تفسره السنة النبوية والسيرة المحمدية ، ويؤيده التاريخ العام لجميع الامم والملل ، وتجد هذا مفصلا في رسالة التوحيد تفصيلا

كان تأثير سيرته (ص) في قلبه يلي تأثير القرآن العظيم ، دخلت عليه مرة

بدون استئذان ، وكان وحده في حجرة مقابلة الناس ، فاذا بيده كتاب ينظر فيه ، وإذا بدموعه تتحادر من ماقيه ، تشرق بها وجنته ، وتنطف بها لحيته ، فلما رآني وضع الكتاب ومسح وجهه بيديه . قلت ما هذا الكتاب؟ قال : سيرة النبي ﷺ وقد عقد في مجالسه الخاصة درسا طويلا في عظمة النبي (ص) في نفسه القدسية الكاملة بين فيه استحالة تاثير السحر فيها لعلنا نلخصه في ذيل هذا التاريخ

وكان يعتقد ان الله تعالى خلق روح محمد ﷺ وأودع فيها كليات شريعته الكاملة كما أودع في نواة النخلة كل المواد والخواص التي تنبت نخلة مثلها ، اذا زرعت في الارض الصالحة لها . ثم كان الوحي الالهي له كالماء الذي يمد النخلة ويغذيها بعد أن تنبت إلى أن تكمل وتؤتي أكلها يانعاً طيبا ، يعني ان الوحي كان تعليما شارحا لعقائد وآداب وأحكام أعدالله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ، ودليل ذلك نفورها قبله من كل عقائد الوثنية وأعمالها .

وهذا المعنى بعيد أشد البعد عما رواه بعض الوضاعين المجازفين من ان جبريل عليه السلام كان يتلقى الوحي في السماء من وراء حجاب ثم ظهر له بعد ذلك ان الذي كان يلقيه اليه من وراء الحجاب هو محمد ﷺ فان هذه المجازفة مخالفة لنصوص القرآن القطعية في هذا الموضوع ، وتجد الجاهلين باصول هذا الدين وكتابه المنزل وسيرة النبي ﷺ وسنته الصحيحة يقبلون هذا وما اشبهه لان ركن الدين عندهم الغلو في الاطراء ، وهذا شان كل الملل في اطوار زوال العلم والمعرفة وترك العمل والاعتماد على الاقوال ، التي لاتعب فيها ولاجهاد ، لا يبقى لهم حظ من الدين الا الاطراء بالكلام ، والاتكال على اشخاص الانبياء والاولياء مع ترك الاتباع .

ذكر في رسالة التوحيد خلاصة ماصح من خبر ولادته ﷺ ونشأته في قومه وما كان من استسلام جده عبد المطلب وهو سيد قريش وسيد العرب كلها لأبرهة الحبشي في مسألة مطالبته في رد ماستاق جيشه من إبله ، دون مطالبته بالرجوع عما كان بصدده من هدم بيت الله تعالى وقال « هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش » ثم قال في إثبات رسالته ﷺ وموضوعها وعظمته في تبليغها وتنفيذها ما نصه وفيه أبلغ اثبات لما قلناه :

وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لاصلاح البشر

«فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع ملكا، أو يطلب سلطانا؟ لا مال لا جاه، لا جند لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، او يرقى به الى مقام ما بين الخاصة،

«ماهذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرءوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم، حتى انتدب لارشاد الامم، وكفالته لهم كشف الغمم، بل واحياء الرمم؟ ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره في عمله، وتمده في الانتهاء إلى أمله، قبل بلوغ أجله، ماهو إلا الوحي الالهي يسعى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ماهو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي. أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية مفرقة، ودهرية وزندقة

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم — وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات، بالتطهر من تشبيههم — وفي الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه

«أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به

«صاح بذوي الزعامة، ايهبطوا إلى مصاف العامة، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السماوات والارض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم

«تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي، ان نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين

بهم[١] وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية، إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

«وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له» ويحلوا اغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل، واقتطعتهم دون الامل

«مال على قراء الكتب السماوية، والقائمين على ماأودعته من الشرائع الالهية» فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها إلى غير ماقصد من وحيها اتباعا لشهواتهم. ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يكونوا على نور من ربهم

«ولفت كل انسان الى ماأودع فيه من المواهب الالهية. ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع مابين ايديهم من الاكوان، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة، والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وافكارهم، بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه. وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة الى أولئك المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده - وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل. ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة.

«دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين متخالفين، وإن كانا ممتزجين. وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وايفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق.

(١) اي نسبة العبد الى الرب والمخلوق العاجز الى الخالق القادر

«دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى» وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص للعباد ، في العدل والنصيحة والارشاد .

« قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة . كل هذا كان منه والناس احباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ماجهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة . كل هذا والقوم حواليه اعداء انفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لايفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته . عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لايرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

« لكنه في فقره وضعفه ، كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه . أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته

« ماهذه القوة في ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان في مظنة العجز ؟ ماهذا العلم في تلك الامية ؟ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء ، الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ الى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

« أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم مايكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ماكانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء رشد العرفاء ، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع

أصول الشريعة ، وبخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها، ولن يخلص تاركها
«ماهذا الخطاب المفحم ؟ ماذاك الدليل الملجم ؟ أأقول ماهذا بشراً إن هذا الا ملك كريم ؟ لا لا أقول ذلك . ولكن اقول كما أمره الله ان يصف نفسه « ان هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدق الانبياء ، ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بمايلهي الابصار، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر. ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة، وآية الحق لذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اه

[المؤلف] أتحدى علماء الاسلام كلهم باتيانناعن غيره بمثل هذا البيان لرسالة خاتم النبيين، والرحمة العامة للعالمين، في حقائق جمعت كل مايحتاج اليه البشر لصلاحهم، على اختلاف درجاتهم في العلم والفلسفة والحضارة والشرائع، لا يستطيع ان يردها عاقل، ولا يماري منها مجادل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

عبادته وتهجده

قد علم مما سبق من سيرته الشريفة، ان اكثر أعماله عبادة، فان ساعات نهاره كانت مقسومة على الاعمال المتعدية النفع التي هي افضل من نوافل العبادات، الا في شهر رمضان فقد كان يقول ان هذا شهر لا يتسع لغير العبادة المحضة، كالذكر والصلاة والتلاوة ، وحدثنا الشيخ عبد الرشيد عن السيد جمال الدين انه ما كان يصلي النوافل إلا في ليالي رمضان . ولكن استاذنا كان مواظبا على التهجد في كل ليلة لا يتركه في سفر ولا حضر

انا لم يتح لي ان ابيت بقربه الا مرة واحدة كنا ضيوفا على المرحوم ابراهيم باشا خليل في بلدة فقوس فكنا مهما يطل سهرنا في الليل أجد الاستاذ يقوم من آخر الليل يصلي ويتفقدني عند طلوع الفجر لاجل صلاة الجماعة وكنا نبيت في حجرتين متلاصقتين ، وكان من عادته ان يقدمني للامامة في كل مكان نصلي فيه جماعة

وقد اراد ان يفعل ذلك مع محمد حافظ ابراهيم اذ صحبه في سفره الى الدقهلية

في اثناء حادثة حريق ميت غمر . حدثنا حافظ قال كان عندي شكوك او شبهات في كثير من امور الدين فاتسعت لي الفرص في صحبتي للاستاذ الامام فكنت اسأله عنها فيكشفها بما يقنعني وينشرح له صدري ، وكان يبيت بالقرب من مبيتي حيث نكون ضيوفا فينغص علي نومي بصلاته في آخر الليل. ثم يطرق باب حجرتي عند الصباح لاجل صلاة الفجر وينادبني بقول الشاعر * ياراقد الليل الى كم تنام * قال حافظ فقلت له يامولاي انني لا أستطيع ان احمل الاسلام كله في سفرة واحدة، حملت هذه المرة عقائده ، وسأحمل في الثانية ماشئت من صلاة وصيام؛ وقد اشار حافظ في مرثية التأبين الى تهجده بقوله :

وكم لك في اغفاءة الفجر يقظة ... نفضت عليها لذة الهجعات

ووليت شطر البيت وجهك خاليا ... تناجي إله البيت في الخلوات

وحدثني الاستاذ مصطفى بك الدمياطي عن بسيوني بك الخطيب وكيل وقف المنشاوي باشا، قال له كان الاستاذ الشيخ محمد عبده يكون ضيفا عندنا في سراي المنشاوي بالقرشية ومن عادتي أن أنزل في أواخر الليل للتفتيش، فكنت أسمعه في حجرة نومه يصلي

وحدثني الاستاذ السيد محمد الببلاوي نقيب السادة الاشراف لهذا العهد قال كنت مرة في دار صديقنا احمد باشا تيمور بداره المجاورة لنا بالحلمية فذكرنا الاستاذ الامام وكان في المجلس رجل يكرهه فطعن فيه وهو لا يعرفه، فقلنا ما تنقم منه ؟ قال انه لا يصلي ، قال السيد فقلت له نحن نشهد انه يصلي وقد صليت انا معه، وبينا نحن نتكلم معه دخل علينا فلان ـ وذكر خادما كان يتردد أحيانا على أحمد (باشا) تيمور يخدم عنده مدة ويغيب مدة ـ فسأله اين كنت؟ قال كنت عند علي باشا رفاعه قال ولم تركته؟ قال فررت من ضيف ثقيل اسمه الشيخ محمد عبده، قال وماذا رأيت من ثقله ؟ قال انا خادم السلاملك فكانوا يسهرون سهرا طويلا ثم ينامون فلا يمضى على نومهم الا مدة قليلة حتي يقوم هذا الشيخ ويطلب الوضوء ثم يصلي الى ان يطلع الفجر فيصليها ، فيؤرقني فلا يدع لي من الليل مدة استريح فيها . فلما سمع الرجل الطاعن حديثه قال من اين جئتم بهذا الرجل ؟ فقال له صاحب الدار اننا منذ شهور كثيرة لم نره حتى فاجأنا الآن ، فاستغفر الرجل ربه وأناب،

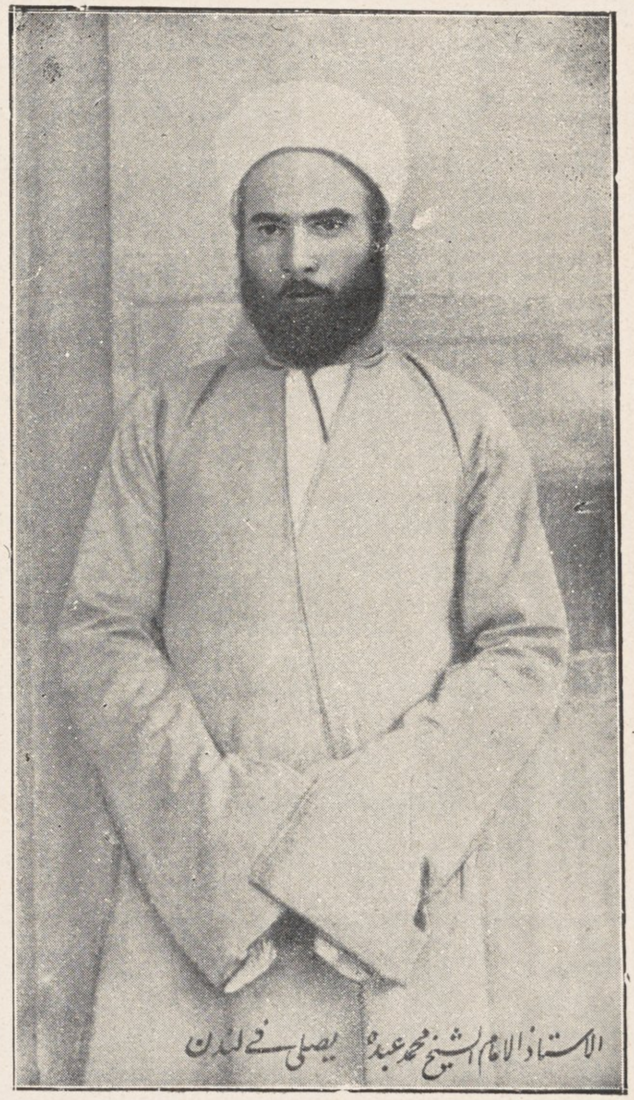

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده يصلي في لندن

وكان مثله كثير من الناس يسمعون من بعض الحاسدين او الدجالين المتجرين بالدين، أقوال الطعن بمبطلي دجلهم من الحكماء الراسخين، والائمة المصلحين، كالشربتلي بمصر، والنبهاني في سورية، فيأخذونها قضية مسلمة، ويذيعونها بغير تهم الجهلية الخاطئة، فمن كان منهم حسن النية، سخر الله له من يظهر له الحقيقة، فيتوب الى الله تعالى ويكون حسن الخاتمة. وقد كتب اليه العلامة الشيخ سليم البخاري لما اطلع على رسالة التوحيد مامضمونه: إنك كنت أبغض الناس لسوء ظن في دينك فأصبحت أحبهم إليَّ لما علمته من دينك و .... فأجابه إنني أشكر لك بغضك وحبك كليهما لانهما عن حسن نية.

بل بلونا الكذب على أمثل هؤلاء الغيورين، وقد اتهم بعضهم الاستاذ بترك الصلاة في أيام طلب العلم اذ كان ناسكا يتوب الى الله تعالى اذا حدث انسانا بشيء من أمر الدنيا، أتهمه بذلك لدى الشيخ المهدي العباسي شيخ الازهر ليحرمه من شهادة العالمية، فسأل عنه رفاقه في طلب العلم فشهدوا له بأنه أشدهم محافظة على الصلوات وقال له الشيخ محمد بخيت منهم اننا دائما نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه، سمعت هذا من لسان الاستاذ الشيخ محمد بخيت الشهير منذ بضع سنين

وقد عثرنا على صورة شمسية للاستاذ الامام أخذت عنه وهو يصلي على ضفاف نهر التيمس في لندره من حيث لايدري وقد أهدى الي نسخة منها بعض أصدقائنا في بيروت ثم أرسل الي صديقنا الامير شكيب نسخة أخرى. وهاهي ذي مثبتة هنا

وأصرح مع هذا بانه كان كثيراً مايجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى في الحضر اذا لم يتيسر له صلاة الاولى بالخشوع والحضور الذي يعتقد وجوبه. وحديث ابن عباس في صحيح مسلم وسنن الشافعي وغيرها صريح في فعل النبي ﷺ لذلك وكونه رخصة كما علله ابن عباس (رض) بقوله: لئلا يحرج أمته، فهذا كان يعده شبهة من لم يعرف ذلك ولاسيما اذا كان سيء الظن أو القصد

وجملة القول ان كل من عرفه معاشرة من أهل دينه وغيرهم من وطني وأجنبي شهدوا له بكمال التقوى والورع والعفة والاستقامة حتى وصفه بعض الافرنج بالقداسة أيضا.

المقصد الثالث

من الفصل الثامن

مرضه ووفاته

كتبت في أثناء اشتداد المرض عليه في الجزء التاسع من مجلد المنار الثامن الذى صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ (ص ٣٥٥) ما نصه :

مرض الاستاذ الامام

لقد مرض أستاذنا منذ أشهر مرضا كنا نظن انه من الامراض الهينة التي كانت تعتاده ، ولكن طال الزمان ورأينا كل من عرض عليه من الاطباء ينهاه عن الاعمال العقلية واجهاد الفكر ويأمره بالحمية والراحة التامة وهو لا يزداد إلا اجهاداً لنفسه وجهاداً لامته ، وكان موضع المرض المعدة والامعاء فانتقل إلى الكبد فاختلف الاطباء حينئذ بين قائل ان المعدة هي الاصل والكبد تأثرت منها ، وقائل ان الكبد بتمددها تضغط على المعدة فتمنعها من وظيفتها ، وأجمعوا على اختلافهم في أي العضوين هو الاصل على وجوب ترك العمل بتاتا والتعجيل بالسفر إلى أوربا ، وكل منهم أشار بترجيح بلاد واختيار أطبائها ، فرضي الاستاذ بالسفر ولكن لم يرض القدر إذ كانت السفن الدورية التي تنقل الناس إلى أوربا لاتقبل زيادة على من سبق إلى أخذ جوازاتها من السائحين والمصطافين إلى ١٤ من الشهر الافرنجي الماضي (يونيو) فأخذ جوازاً وصبر عن السفر ولكنه لم يصبر عن العمل كدأبه وعادته ، فكان يبيت على فراش الآلام ويغدو إلى محل عمله فينظر في الفتاوى وفي أعمال مجلس الشورى ومجلس الاوقاف الاعلى وأعمال الجمعية الخيرية الاسلامية وأوقاف الحنفية ويشتغل مع اللجنة التي يرأسها لوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعي ويحضر امتحان مدرسة دار العلوم وينظر في حاجات العفاة وطلاب المساعدة والشفاعة عند الحكام فيقضي حاجاتهم ، حتى ثقلت عليه وطأة المرض وعجز عن

الخروج ، واشتدت عليه الآلام حتى كان - والذي خلقه حجة على هذه الامة التي زرئت بالكسل والخمول - يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الالم،ولم يكن شيء من ذلك الشغل لنفسه ولا لاهله وولده ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخاراً له أو تأدبا معه، أو عملا بالذوق الذي يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلا انهم كانوا يكلفونه النهوض بأثقالهم وقوفا على سريره وهو مضطجع أو مستلق عليه، وكان يعمل ماقدر ، ويعتذر عما يعجز طالبا الانظار والامهال إلى أن تحسن الحال

جرى على هذه الحال يعمل للناس والمرض يعمل فيه عمله ، وينهك قواه وينحل جسده ، حتى اذا مادنا موعد سفره رآه بعض الاطباء فقال ان المرض ينذر بالخطر ،ولا يجيز له الاقدام على السفر ، فجيء بطبيب آخر فقال قولة الاول، فكتم هذا القول من عرفه من الاصدقاء وذي القربى وساروا به في اليوم التالي إلى الاسكندرية (١٠ ربيع الآخر) ورآه من ليلته بعض أطبائها فقالوا مثل ماقال الاولان،وهو لم يعلم بهذا القول ، بل قيل له ان الاطباء قالوا إن جسمك لا يقوى على مشقة سفر البحر فيجب أن تتريض في الاسكندرية لعلك بتغيير الهواء تجد قوة تمكنك من السفر وعند ذلك هيأ له الصديق الوفي محمد بك راسم دار أخيه في رمل الاسكندرية ونقله اليها

كانت الجرائد اليومية أذاعت خبر سفر الاستاذ إلى أوربة ثم ذكرت انه أرجأ السفر بأمر الاطباء، فعلم القاصي والداني من أهل هذا القطر بمرضه،وظهر من آيات مكانته في نفوس الناس مالم يكن يعلم كله، فكان شغلا شاغلا للعقلاء والفضلاء، من جميع الاصناف والطبقات ، كان أمراء البيت الخديوي ومن حضر من نظار الحكومة لاسيما رئيسهم « القائم مقام الخديوي » وغيرهم من كبراء الامة يترددون على الدار التي يقيم فيها المرة بعد المرة ، وكان بعض الامراء يرسلون اليه أطباءهم،وكانت الرسائل ترد كل يوم في البرق والبريد من جميع أنحاء القطرين — مصر والسودان — تسأل عن صحته وكلما وجد يوما راحة تبشر الجرائد به،

الامة فيصبح الناس مطمئنين ،فاذا سكتت الجرائد يوما عن البشارة لجوا في السؤال مستخبرين

أما نحن — معشر أهليه وأقرب أصدقائه ومريديه — فاننا نتراوح بين اليأس والرجاء ،اذا رأيناه في راحة من الالم يرجح أملنا حتى اذا ماتألم عظم خوفنا ووجلنا، فمثلنا في ذلك مثل مقياس الحرارة كل يوم في صعود وهبوط بحسب مانرى من حاله .ولا غرو فهو كالهواء لحياتنا المعنوية وكالشمس لامتنا المسكينة،ونسال الله تعالى دفع البلاء واللطف في القضاء ، وتعجيل الشفاء ، انه سميع الدعاء. اه

وبعد اسبوع من صدور هذا الجزء من المنار توفاه الله تعالى اليه في الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن هذا الشهر (جمادى الاولى) الموافق ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ فياله من رزء وجلت له القلوب ،وذرفت العيون، وفاضت الشؤون،واعتصم المؤمنون باية (انا لله وان اليه راجعون)

وقد أبنته في جزء المنار العاشر(م ٨)الذي صدر في ١٦ جمادى الاولى بمانصه:

مصاب الاسلام، بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس،وطهارة الارواح،وعلو الهمم،ممايحول دون الموت لما مات أبداً، ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم(إنا لله وإنا اليه راجعون)

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة،والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والالهية، والعلوم الكسبية واللدنية ،مع البيان الساحر ، والادب الباهر،والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب،والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاخلاق القدسية ، والشمائل المحمدية ، والصدق في القول والفعل،والاخلاص في السر والجهر، والوفاء في القرب والبعد، والسخاء في العسر واليسر،والعفة في الشباب والكهولة ،والحلم عند الغيظ والمغاضبة، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة، والترفع على المنافقين والمستكبرين، واللين للحق وأهله،والشدة على الباطل وجنده،

والشجاعة التي تهابها الامراء والعظماء ، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاعمال النافعة ، والمشروعات الرافعة ، والمساعي الجديدة ، والوسائل المفيدة ، والاجتهاد في ترقية الامة ، والدفاع عن الملة ، والدعوة إلى التوحيد والتأليف ، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب ، والتربية الصحيحة للمريدين والجمع بين علوم الدنيا والدين ، ومواساة البائسين والمعوزين ، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الآمال البعيدة ، والمقاصد الحميدة ، التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير ، الذي انطوى فيه العالم الكبير ، تلك الآمال التي تتضاءل دونها همم الملوك والامراء ، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والاغنياء ، الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون ، وعن الثقة بربهم محجوبون ، وعن سنته في خلقه غافلون

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس ، من جميع الطوائف والاجناس ، فعلم علماء الدين ، انهم فقدوا ركنهم الركين ، الذي يحمل عنهم رد الشبهات وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلماء الدنيا انهم خسروا ركنهم الاقوى الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين ، وتكفير الجامدين ، ويثبت أن الاسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين . وشعر طلاب الاصلاح بانهم فقدوا إمامهم العظيم ، الذي كملت فيه صفات الزعيم . وأحس الفقراء والمساكين بأنهم رزئوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين . ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة ، شدة وقع هذه الطامة ، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب والعمل النافع ، مربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف الاسلامية ، المضطلع باصلاح الازهر والمحاكم الشرعية ، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية ، الموفق بين الحكومة والرعية . واعترف اهل الملل بان مصابه مصاب الانسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء ، ويبحث عن مساكن القواعد من النساء ، ليواسيهم بالبر ، من وراء الستر ، وقال لي

ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه وانني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه، ولكنه غاب عن الوجود قبل أن يقضي لبانته من البر والجود،

مرض هذا المصلح العظيم فضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين، من العلماء والامراء والوزراء، والادباء والفضلاء، والفقراء والاغنياء . وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد، بالنيابة عن العاجز والبعيد، سائلين عن صحته او مهنئين بما يقال عن راحته، فكان يحمد الله ان جمل الدهماء من امته يعرفون لخادمها خدمته، ويشكرون للعامل لها عمله، ويقول لئن شفيت لأجهدن النفس في خدمتهم اجمعين، حتى اكون حرضا أو اكون من الهالكين

مرض الاستاذ الامام فلم يعقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام، واحتضر الاستاذ الامام، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام، ومات الاستاذ الامام وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام

نقول مات الاستاذ الامام فنبدي القول ونعيده، ننصر الحس، ونكابر النفس، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام وأضغاث احلام، وماهو الا الحق اليقين، ومصير الاولين والآخرين (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء، فلا تفتنا بعده ولا تحرمنا اجره، واغفر اللهم لنا وله

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، ومآثره وعوارفه ، فلقد ربى أرواحا ، وأصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، وترك علماء وأدباء، وأمات سننا سيئة له أجر إماتتها ، وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها . وعلمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الاسلام ، مع توخي نفع الناس أجمعين . والاخلاص لله رب العالمين .

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر، وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته . فقد كان هجيراه في تلك الكربات والسكرات، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات : (الله أكبر) فلئن كان بفضل الله

كبيرا فينا فالله اكبر . ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا فالله اكبر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

لبى دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى ، فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب ، وذرفت العيون ، واسترجعت الألسنة وحوقلت ، وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا متفقين على ان المصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشيد والغوي ، والعالم والجاهل ، والمفضول والفاضل ، الا كلمة « خسارة لا تعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيرا » أو قول الشاعر

وما كان قيس رزؤه رزء واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

او قول الآخر: ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته في الاسكندرية ، ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت ، وشاركتها الامة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق مثله لغيره ، حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق احد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير ، وقد صلي عليه في الجامع الازهر ودفن في قرافة المجاورين تغمده الله برحمته ورضوانه . وأسكنه فسيح جنانه اهـ

هذا ما أبنته به في المنار عقب الوفاة وجعلته مقدمة لترجمته ، وتركت وصف تأثير مرضه ووفاته في القطر المصري والاحتفال بجنازته بالتفصيل للجرائد المصرية ، وكذا وصف هذا التأثير في العالم الاسلامي وسائر الشرق وبعض تأثيره في الغرب لجرائد الاقطار الاخرى ، وما نظمه الشعراء من الرثاء ، وما كتب من التعازي الرسمية وتعازي العظماء . وقد جمعت اهم ما وصل الي من ذلك في سفر مستقل جعلته الجزء الثالث من هذا التاريخ بلغت صفحاته ٤٢٨ فمن أراد أن يعرف إكبار الفضلاء من الامم المختلفة الاجناس والملل له بما لعله لم يتفق لغيره فلينظره

المقصد الرابع

من الفصل الثامن

في تأبينه ورثائه

نطلق لفظ التأبين على تعداد محاسن الميت وتأثير موته والحزن عليه بالنثر ، والرثاء على هذه المعاني بنظم الشعر ، ويدخل في الاول مامزج فيه النثر بأبيات من الشعر ، وقد أبن الاستاذ الامام كثير من العلماء والادباء من الازهريين وغيرهم بما ألقوه في الجمعيات التي عقدت لذلك وبما نشروه في الصحف ، وقد جمعنا كثيراً منه مع تأبين الصحف المصرية وغيرها ، وما وصل الينا من المراثي والتعازي في الجزء الثالث كما تقدم

حفلة يوم الاربعين

وكان المستعدون لتأبينه ورثائه على قبره عند دفنه كثيرين ولا سيما الأزهريين فرأى صديقه حسن باشا عاصم كثرة ازدحام الناس وماهم فيه من الحزن والكرب مع شدة الحر والتعب من طول المسافة التي مشوها من محطة مصر الى القرافة — وهي عدة اميال — فقام في الناس فقال: ان اصدقاء الفقيد ومريديه استحسنوا ان يؤخر التأبين الى اليوم الاربعين لوفاته، فانصرفوا ايها الناس مأجورين

وقبل مجيء ذلك اليوم فكر اخوانه في الامر فقرروا ان يعين المؤبنون والراثون باسمائهم وينشر ذلك في الجرائد لعلمهم ان عدد الذين يتصدون لذلك من العلماء والشعراء سيكون كثيراً ، ولا يمكن تقديم بعضهم ومنع بعض في اثناء الاجتماع والوقت لا يتسع للجميع ، واتفقوا على ان يكونوا ستة وأعلنوا اسماءهم وموضوع تأبين كل منهم وهم :

(١) حسن باشا عاصم يذكر ملخص تاريخ حياته ولاسيما عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان شريكه في خدمتها ، وكذا جمعية احياء الكتب العربية

(٢) الاستاذ الشيخ احمد ابوخطوة من كبار المدرسين في الازهر والعضو في المحكمة الشرعية الكبرى . يتوسع في مسألتي اصلاحه للازهر والمحاكم

(٣) حسن باشا عبد الرازق احد اعضاء مجلس شورى القوانين يكون من اخص ما يذكره خدمته للامة وللحكومة في المجلس

(٤) قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف ، والعالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع ،يكون اخص ما يبينه سمو أخلاقه وفضائله وإصلاحه في الامة

(٥) حفني بك ناصف القاضي في محكمة مصر الاهلية وأحد كبار الادباء من تلاميذه الذين تخرجوا به في الازهر ثم في دار العلوم يرثيه بقصيدة

(٦) محمد حافظ افندي ابراهيم شاعر مصر الاجتماعي ومن مريدي الامام في الادب يرثيه بقصيدة ايضا ـ وكذلك كان، ونشرت كل ماقيل في الحفلة في الجزء الثالث من هذا التاريخ (ص٢٣٦ ـ ٢٧٤)

وقد سبق لي اقتباس من تأبين الثلاثة المؤبنين له في مقاصد عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية وعمله في اصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف وعمله في مجلس شورى القوانين ، وكنت عازما على اقتباس جمل أخرى مما قاله غيرهم فحال طول الكتاب دون ذلك فانا أحيل القراء على قراءة ذلك كله في الجزء الثالث الخاص بالتأبين والرثاء

حفلة الجامعة المصرية

ومنذ بضع سنين أقيمت له حفلة تأبين اخرى في مدرسة (الجامعة المصرية) قام بالدعوة اليها وتنظيمها لجنة مؤلفة من ١٥ رجلا من طبقات الامة العلمية الراقية ثلثهم من نابغي علماء الازهر ، وقد وضعت اللجنة رسالة في عملها وما ألقي فيها وما ورد عليها من الخطب والقصائد ، وما كتبته في شأنها الجرائد، وطبعناه على نفقتها ووزعناه مجانا ، وقد بينت في مقدمة الطبع الباعث على هذا التأبين وهو شعور الامة بالحاجة الى إحياء ذكره ، وتجديد البحث في تعليمه وهديه « حتى

كان السابق الى اقتراح ذلك في الصحف اليومية ، طالب من طلبة المدارس الثانوية ، لم يدرك عهد الامام ، ولكنه أدرك قيمة ما تركه لها من الصوى والاعلام » (١)

وانني أذكر هنا ما نشرته اللجنة في الجرائد عن عملها وهذا نصه :

احياء ذكرى الاستاذ الامام

فكر جماعة من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاحتفال باحياء ذكراه ، وتألفت لجنة منهم برئاسة زميله حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد بخيت ، وقررت أن تكون الحفلة بدار الجامعة المصرية الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ (وهو يوم وفاته بالحساب الشمسي)

ووضعت اللجنة نظام الحفلة وعينت خطباءها مراعية ما يتسع له الوقت وما يناسب الغرض من الاحتفال بامام مصلح

وستطبع اللجنة مايلقى في الحفلة في كراسة خاصة مع مايرد اليها من الخطب والقصائد المختارة . وهذه أسماء حضرات اعضاء اللجنة :

الشيخ محمد بخيت ـ رئيس . السيد عبد الحميد البكري . السيد محمد رشيد رضا . الشيخ محمد مصطفى المراغي . الشيخ محمد هلالي الابياري . الشيخ عبد المجيد سليم . الشيخ مصطفى عبد الرازق . الشيخ علي مرور الزنكلوني . احمد زكي باشا . حسن عبد الرازق باشا . السيد عبد الرحيم باشا الدمرداش . احمد بك لطفي السيد . حنا بك باخوم . الدكتور طه حسين . الدكتور منصور فهمي (السكرتير)

ولما جاء اليوم الموعود كانت اللجنة قد أتمت الاستعداد للاحتفال في رحبة دار الجامعة المصرية بعد إذن مجلس إدارة الجامعة لها بذلك ، ففرشت أرضها بالرمل الاصفر ، ونصبت في صدر المكان منبر الخطابة وفرشت ارضه بالطنافس العجمية النفيسة ووضعت عليها الارائك والمقاعد الوثيرة ، وصفت من ورائه كراسي الخيزران بعدد ماوزعت من رقاع الدعوة على العلماء وخواص الامة من جميع الطبقات

(١) هو محمود افندي كامل نجل الاستاذ محمد علي كامل المحامي المشهور

وما جاءت الساعة المعينة للبدء في الاحتفال الا وكانت المقاعد كلها قد شغلت بالمدعوين وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي محمد شكري باشا وزير الزراعة جاء من الاسكندرية لاجل حضور الحفلة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن هيئة الوزارة

وزاد أناس تجددوا فأذن لهم فاضطر كثير منهم إلى الوقوف وراء الصفوف فكان المجموع زهاء الف وثلاثمائة نسمة. وقد بدىء الاحتفال بقراءة بعض الحفظة آيات من القرآن الحكيم . وبعد فراغه ابتدر المنبر الاستاذ الشيخ محمد بخيت رئيس لجنة الاحتفال وتلا خطبته الافتتاحية، وتلاه سائر الخطباء على الترتيب المتقدم اه

(المؤلف) المراد بالمتقدم ما ذكر في فاتحة الرسالة المطبوعة وخلاصته أن يليه الاستاذ أحمد لطفي بك السيد بكلمة يقولها باسم الجامعة فالشيخ مصطفى عبد الرازق بخطبة في خلاصة ترجمة الاستاذ الامام فالدكتور منصور فهمي بكلمة يعبر بها عن رأي النابتة العصرية في الامام ، وماله في قلوب أحرار الفكر من المقام ،وأن ينشد بعده محمد حافظ بك ابراهيم قصيدته ، ثم يختم الحفلة صاحب المنار ، بما يتسع له الوقت من الكلام. وقد ابقى بقية من الوقت للاستاذ الشيخ علي الزنكلوني

قد كان ما ألقي في هذه اللجنة على غرار ما ألقي في اللجنة الاولى في التنويه بامامة الرجل وعبقريته وإصلاحه ، قرر ذلك فضيلة رئيسها بالاجمال وشرحه الآخرون بالتفصيل ولاحاجة إلى نشر خلاصته فانه مطبوع يناله كل من أراده برمته

ولكنني سآخذ كلمة من خطاب الاستاذ احمد لطفي بك السيد في الشهادات الآتية :

ذلك انني ذكرت في الجزء الثالث من هذا التاريخ الذي نشرت فيه ماقيل في التأبين الاول وفي الرسالة الخاصة بالثاني أقوالا لبعض رجال العصر المشهورين من الامم والملل المختلفة والبلاد المتفرقة في علو قدر الاستاذ الامام بالعلم والعمل والاصلاح ، والشهادة له بالامامة وتجديد العصر بمالم يشهد بمثله لاحد من الناس فانا أختم هذا المقصد باعادتها مع زيادة عليها من الجزء الثالث وأبدأ بالاجانب وأختم بالمصريين أيهم أقرب إلى الامام وداً ، وأوفى له عهدا

شهادات رجال المصر له

﴿ ما قاله بعض كبراء الانكليز ﴾

(١) شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي

شهد لورد كرومر في تقريره عن مصر والسودان سنة ١٩٠٥ بان الحزب الاسلامي الذي كان زعيمه الشيخ محمد عبده هو الحزب الوسط بين الحزب المحافظ على التقاليد العتيقة الذي يحارب المدنية وينبذها وبين حزب المتفرنجين المارقين من الدين وانه هو الحزب الذى يرجى أن تنهض به البلاد لانه جامع بين الترقي المدني والمحافظة على الدين .

ونقل عنه أنه قال ان هذا الرجل لاذنب له إلا انه أنور أهل بلاده

وقد سئل اللورد عن الشيخ هل كان متساهلا في الاسلام ؟ فقال : بل هو متعصب له أو فيه ولكن بالعقل

وقال له أحد وجهاء المصريين ان كل أعمال جنابكم محصورة في اصلاح الحكومة فنرغب اليكم أن تعملوا اعمالا لترقية المسلمين فانهم لن يتعودوا الاعمال الاجتماعية فقال اللورد اعملوا أنتم وعلي أن أساعدكم فمن لايرقي نفسه لايرقيه غيره . قال المصري انه ليس عندنا رجال يهمهم أمر الامة ويقدرون على العمل النافع لها . فقال اللورد بل عندكم رجلان غيوران مقتدران وهما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوهما بالمال وهما يعملان للبلاد ماتحتاج اليه من الترقي

(٢) كلمة السر ماكولم مكاريث مستشار الحقانية بمصر

نوّه جناب المستشار في تقريره القضائي عن تلك السنة بما كان من خدمته الثمينة لوزارة الحقانية ، في كل ما يتعلق بالشريعة الاسلامية ومحاكمها ثم قال : وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر ، كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها ، وفوق ذلك فقد

قام لنا بخدم جزيلة لاتقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية ، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ، ويناضل عنها ، ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك ، وانه ليصعب تعويض ماخسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه ، وميله لكل ضروب الاصلاح ، والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوربا ومعاهد العلم ، وكانت النظارة تريد أن تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع إنشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته ، فلكل هذه الاسباب أخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمنا طويلا تشعر بخسارتها بفقده . اهـ كلام المستشار

(٣) شهادة الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي

كتب الدكتور ادوارد براون العلامة الانكليزى المدرس في جامعة كمبردج كتاب تعزية لحموده بك قال فيه «مارأيت في الشرق ولا في الغرب مثله» وراجع تتمة كلامه في (ص١٠٣٤)

وكتب إليّ جوابا عن سؤالي إياه أن يرسل لي مانشر في الصحف الانكليزية عن وفاة الامام قال فيه : فوالله مارأيت في جرائدنا في هذه الواقعة العظمى والمصيبة الكبرى إلا ما أستحي عن نقله الى حضرتك بسبب عدم كفايته وقلة اطلاعه على بطون الامور ، كأنهم زعموا ان هذا الاستاذ الاكبر الذي كان في زماننا مثل الاكسير عديم النظير كأحد السياسيين القشريين الخ

﴿ ما قاله بعض كبراء الترك والفرس ﴾

(٤) شهادة احمد مختار باشا الغازي

قال المشير احمد مختار باشا الغازي علامة الترك الشهير ورب السيف والقلم في إكبار علمه وعقله : إنني أعتقد ان دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف ، وانه

لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغـة الرجال العظام الذين عرف الافرنج وزن أدمغتهم . ولما قرأت في الجرائد نبأ وفاته (وكان الغازي يومئذ في أوربة)ضاق علي المكان الذي كنت فيه لان الخسارة به لاعوض لها

(٥) شهادة الدكتور عبدالله جودت الكاتب التركي

أبنه الدكتور عبد الله جودت أحد كتاب الترك المشهورين وأحد مؤسسي جمعية الاجتهاد والترقي في مجلته (اجتهاد) التي كانت تصـدر في مصر باللغتين التركية والفرنسيـة مرتين في العددين التاسع والحادى عشر من السنة الاولى فجعـل عنوان الترجمة (الاموات الذين لايموتون) فقـال في الاول منهما ماترجمته الحرفية :

كان الشيخ محمد عبده بلا خلاف أحد النابغين الذين لايدخلون في طبقات الرجال ، وانما اللانهاية هي الحد الوحيد الذى ينتهي اليه علمهم

ثم قال كان الشيخ محمد عبده مسلما حقيقيا على قدم النبي ﷺ وقال في العدد الآخر : كان الشيخ محمد عبده مسيحا ثانيا منح للعالم الاسلامي الذي كان دويّ سقوطه فيه يصخُّ مسامع ذوى الوجدان ، ويمزق أحشاء أصحاب الايمان

(٦) شهادة الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني

قال في اول تأبينه من جريدته (تربيت) التي تصدر في طهران ماترجمته :

كل من يسمع نعي المعلم الاول والاستاذ الاجل ، والفقيه الأعلم ، والحكيم والفيلسوف الاسلامي الاعظم ، الشيـخ محمد عبده مفتي الديار المصرية المعظم — رضوان الله عليه — ولم يبلغ منه الاسف أقصى درجاته فهو يجهل قدر هذا الرجل الجليل المبرور ومقامه العالي في الشريعة الاسلامية — أو هو ...

﴿ ماقاله بعض علماء تونس وبلاد العرب ﴾

(٧) شهادة الاستاذ العلامة الشهير طاهر بن عاشور

باش مفتي المالكية في تونس لهذا العهد(١)

قال في كتاب التعزية للمؤلف : أقاسمك الأسى والغم على مصيبتنا ومصيبة الاسلام والعلم والحكمة بمفارقة أستاذنا الذي كان علمه نزهة أبصارنا ، وذكره أنس نفوسنا . . . عرفت الاستاذ معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ فعرفت من ملاقاته الاولى رجل العزم والارادة والفكر وبلاغة القول وشدة الفراسة وتكافؤ القوى العملية والفكرية .... (ثم قال بعد ذكر المعتاد من ضعف الاسى والاسف بطول العهد على المصائب : « فأما أسفنا على الاستاذ الامام فلا شك انه يجدّ كلما حارت الافهام في المشكلات ، وخارت القوى في مقاومة البدع وجراثيم التأخر يقابلني تمثال الاستاذ الامام في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفاسيره مهما قرأت سورة في صلاتي فكان ذلك يهزني فخراً ، ويجدد فيّ روح النشاط والعزيمة فصرت الآن يزيدني أسفا على أسفي وغماً على غمي ، حتى سئمت الحياة وصغرت في عيني الدنيا بأسرها

(٨) شهادة الاستاذ محمد بن الخوجه التونسي

قال في مقالة نشرها في جريدة الحاضرة التونسية « فكان أبلغ البلغاء إذا كتب ، وأفصح الفصحاء إذا خطب ، وكان أقوى العلماء والادباء بيانا ، وأجودهم بالحكمة لسانا ، وأوسعهم في معاريض الكلام باعاً ، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا ، وأبعدهم مرمى ، وأسدهم سهما . وكان عظيم الهمة كبير النفس يغالب كرات الزمان بثبات عز عن النظير . ويستصغر الكبائر ، ويستسهل المصاعب ، ويستهين بكل شيء اعترضه في مسيره . ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله : انني لا أخشى شيئا سوى الموت لانه يقطع علي السير . وبالجملة فان الشيخ محمد عبده كان رجلا « والرجال قليل »

(١) وقد كتب ترجمة للامام نشرها في بعض الجرائد

(٩) شهادة الاستاذ محمد الجعايبي التونسي

قال في جريدته الصواب « ولولا أن الناس اعتادوا المبالغات في تابين الاموات لكان تأبيننا للاستاذ الامام، لايشبهه تأبين أحد ممن رماهم سهم الحمام، بعد الانبياء عليهم السلام » اه وقد بلغ تأبينه له ست صفحات

(١٠) شهادة العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)

قال في كتاب التعزية لي بعد ذكر بعض اعماله: ولا غرو فقد جرت سنة العناية الالهية، أن تختص من شاءت بالاختصاصات العلمية ، ولقد أتى هذا الفقيد المقدس من الاقول والاعمال الجليلة ، بما أجمع به القوم انه رجل الدنيا وشمس الفضيلة ، لسان بالحكمة ناطق ، وعزم في احياء الدين صادق ، وثبات في تأييد الحق ، وكمال في صبر على اذاية الخلق ، فهو القائم بوظائف الوراثة النبوية ، والحريص على دينه وأمته حتى في آخر أدواره الحياتية الخ

(١١) شهادة العالم الجليل السيد محمد بن عقيل اشهر السادة العلويين

قال في أول كتاب له في تعزيتي من سنغافورة:

بلغنا نعي مجدد القرن الثالث عشر(١) الاستاذ الحكيم ... ولقد عم الاسف أفئدة جميع المسلمين ومن عرف الفقيد من عقلاء الطوائف الاخرى وإلى الله المشتكى ولقد صدق شيخنا ابن شهاب في قوله

رزئت مصر لا بل الاسلام وأرتنا اقتـدارها الايام

وكتب في رقيم آخر « ثم اني رأيت في بعض الجرائد اقتراحا لبعض محبي مجدد العصر في عمل صورة للاستاذ الامام .... الخ فلم يعجبني ذلك» واقترح كغيره طبع آثاره

---

(١) كذا كتب والصواب الرابع عشر

﴿ ما قاله بعض علماء سورية ولبنان وأدبائهما ﴾

(١٢) شهادة الاستاذ الحكيم السيد عبدالرحمن الكواكبي

سأل سمو الخديو عباس حلمي العالم الحكيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي : كيف رأيت الشيخ محمد عبده ؟ قال ان افريقية أخرجت كثيراً من العلماء في العلوم والفنون المختلفة دون الفلسفة ، ولكنها أخرجت فيلسوفا واحداً بذَّ جميع الفلاسفة وهو ابن خلدون . وكذلك مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء ، دون الفلاسفة الحكماء، ثم أخرجت أخيراً حكيما فاق جميع الحكماء . وهو الشيخ محمد عبده. سمعت هذا من فم الكواكبي ونسيت ان أذكره في الجزء الثالث

وكان الكواكبي يعتقد انه أعلم من أستاذه الافغاني وانه هو الذي كبر صيته بالعلم ، وهذا غلط منه

(١٣) شهادة الدكتور يعقوب صروف السلامة العصري

قال الدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف لما أكثر المؤبنون في حفلة الاربعين من وصف الاستاذ بكلمة فقيد الاسلام وفقيدمصر : اننا لانرضى بأن يكون فقيدكم وحدكم ، بل نقول انه أكبر من ذلك — انه فقيد الشرق كله . وقد بين هذا مفصلا بترجمته في مجلة المقتطف فيراجع في الجزء الثالث من هذا التاريخ

ومنها قوله في أنواع أعماله « وتارة مفسراً قواعدالدين تفسيراً يقبله العقل المستنير ، وتصلح به شؤون الامم ، وينطبق على مصالح الزمان »

ثم قال « وتارة مبيناً بالحجج القاطعة ان الدين لايمنع الارتقاء والاخذ باسباب العمران ، بل يحث عليها . ومظهراً الشوائب والبدع التي دخلت عليه فأضرت أهله ، وهي ليست منه في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها »

(١٤) شهادة الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير

قال في مجلة الضياء « وكان متوقد الفؤاد ثاقب البصيرة قوي الحجة ذرب

اللسان، بليغ العبارة، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشيء المترسلون من الفصحاء. وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الاربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها، ولم يرو مثل ذلك إلا عن استاذه السيد جمال الدين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الخ

(١٥) شهادة الاستاذ جورجي زيدان المؤرخ السوري الشهير

قال في مجلته الهلال بعد نشر مجمل من ترجمته ومناقبه وأعماله: على أن عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية وإنما هي تقوم بمشروعه الاصلاحي الذي لا يتصدى لمثله إلا أفراد لا يقوم منهم في الامة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص من هذه العجالة » ثم بسطه وذكر خطته وخطة أستاذه السيد وضرب له المثل بمصلح النصرانية (لوثير) فقال انه أول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته. وأما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده، وإنما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء »

وقال في محاولته إصلاح الازهر انه لم ينجح فيه إلا قليلا « ولكنه وضع الاساس ولا بد من رجوع الامة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون له الفضل في تأسيسها »

(١٦) شهادة نعوم افندي لبكي الكاتب اللبناني الحر

قال في جريدته المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو) عاصمة (البرازيل) ان فجيعة النصارى بالامام « ليس لانه كاتب وليس لانه خطيب وليس لانه لغوي » ثم بين العلة الصحيحة للفجيعة وهي قوله « هو الذي استخدم كل ما وضعت فيه الطبيعة من المقدرة في سبيل إصلاح الاسلام، فهو مصلح الاسلام، ومن أصلح الاسلام فقد أصلح الشرق، فمحمد عبده هو مصلح الشرق. وهذا ما يجعلنا نخشع لموته ونكبر المصاب، لاننا شرقيون وفينا روح وطني »

﴿ بعض ما قاله المصريون ﴾

(١٧) شهادة صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر

قال رياض باشا وزير مصر الاكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش وكان ملازما لفراش الفقيد في مرض موته : اننا كلنا شاكرون لك فانك لاتخدم رجلا وانما أنت تخدم الامة في هذا الرجل - وقال في موته : خسارة لاتعوض

(١٨) شهادة صاحب السماحة الاستاذ محمد توفيق البكري

لما سمع السيد محمد توفيق البكري نبأ وفاة الاستاذ الامام وهو في أوربة لم يصدق الخبر فلما عاد إلى مصر أخبرنا بانه لم يصدق الخبر إلا بعد عودته إلى مصر وعلل ذلك بانه كان يخال ان الموت لايتجرأ على الشيخ محمد عبده (١) وقال: لقد ترك الشيخ فراغا لايسده أحد ، فانه كان كما قال المتنبي * ملء السهل والجبل * ولو ترك مناصب الحكومة وعمل مستقلا لاحدث انقلابا عظيما . وكان هذا رأى كثير من الناس

(١٩) شهادة ابراهيم باشا نجيب

قال ابراهيم باشا نجيب المصرى وكيل نظارة الداخلية: إن الناس لايعرفون قيمة الشيخ محمد عبده إلا بعد ثمانين سنة — أى بعد انتهاء جيلين في التربية الاجتماعية

(٢٠) شهادة محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

قال في أول مقالة نشرها في جريدة (اجبت) باللغة الفرنسية ماترجمته

لقد خسرت مصر والعالم الاسلامي خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده

(١) وقع هذا المعنى لكثيرين في الاقطار المختلفة ومنه ما كتبه الي أحد المعزين من مدينة الجزائر من انه كاد يقع للناس ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) في موت سيد الانام اذ قال : من قال ان محمداً قد مات ضربت عنقه . قال وان بعض العلماء لايزال ينكر موته الي وقت ارسال هذا الكتاب

مفتي الديار المصرية ، وسيبكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم فانه كان من أكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه إلى مجده السابق

(٢١) شهادة الدكتور عبدالعزيز بك نظمي

قال في أول تأبينه له من مجلة الحكمه مانصه :

رزيء العالم الاسلامي في السابع من جمادى الاولى رزءاً لم يذق مرارته مذ طوت الايام حماة الاسلام الاول : رزيء في امام عظيم وعليم حكيم جمع إلى جهاد الخلفاء الاربعة في اقامة الدين والدنيا اجتهاد الأئمة الاربعة في تقويمهما .... رزيء في خير من سعى بعد رسول الله وخلفائه الراشدين في إعلاء كلمة الله وتجديد ماأخلقت الايام من فضائل الاسلام ودفع مفتريات أعدائه عنه ونفي البدع منه ... رزيء فيمن كان للهدى علماً ، وللعلم مناراً ، وللتشريع حجة ، ولمصالح الامة حافظاً ، ولأيتامها أباً وأي أب ... رزيء في فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه

(٢٢) شهادة حافظ افندى واصف الاديب القبطي المصرى

قال في أول تأبينه من مجلته المحيط « أجمع العقلاء من كل أمة في هذه الديار ان انتقال هذا الفقيد الكريم كان أعظم خسارة خسرتها الامة الاسلامية خصوصاً والمصرية عموما في التاريخ الحديث » ثم بين ذلك

(٢٣) شهادة قاسم بك أمين في تأبينه

إذا أصيبت أمة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه في إصلاح شأن من شؤونها قال قومه: ليس في الوجود انسان لايعوض ووجدوا في الحال بين أهل طائفته او صناعته من يسد الفراغ الذي تركه ويأخذ مكانه، أما الحال عندنا فليس كذلك - مهما قلبنا النظر ، ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض علينا ماخسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لاأقول

ذلك محاباة لصديق كانت محبته من اسباب الشرف والسعادة لشخصي، ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء

وإنما هذا هو الحق الذي يجب إعلانه اعترافا لمصري وصل إلى أسمى مقام لا يمكن أن يناله انسان في هذه الحياة – مقام لم يستمد وجوده من منصب عال في الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس . مقام اهتدى اليه بشعوره ، واكتسبه بجده وعمله ، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته ، وخدم فيه بعلمه وعمله . مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الخطة التي رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هيأه لها – مقام الامامة بأوسع معناها – تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على أن يدعي فيه استحقاقا بعده . الخ

(٢٤) شهادة احمد لطفي بك السيد العالم المصري

قال في حفلة تأبينه في الجامعة المصرية سنة ١٣٤٠ في الكلام على مركز مصر العلمي في مسابقة الامم الحية

على هذا الاعتبار يجب علينا أن نتخذ نهضتنا العلمية الحاضرة بشير الرجوع الى مضمار المسابقة العلمية العامة ، وأن نوطد أنفسنا على العمل بجد للاستعداد الى هذه المسابقة . ومن صنوف العدة أن نتبين حقيقة مركزنا العلمي ، وليس مركزنا العلمي شيئا آخر إلا تقدير ما أنتجت بلادنا من النوابغ الذين هم أركان نهضتنا الحاضرة – أولئك هم مصابيح الماضي ، تنبعث منها أنوار الهداية الساطعة ، فتكشف للحال طريقه الى الامام في ظلمات الاستقبال ، وأكبر هؤلاء النبغاء هو أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده

(٢٥) شهادة سعد باشا زغلول الزعيم المصري الاكبر

قال لي اذا كان شيخنا قد عجز عن إصلاح الازهر وقد أوتي من العلم وقوة الارادة والعزم مالم نؤت فماذا يمكنني انا ان أفعل في إصلاحه

وكنت نشرت في الجزء الثاني من هـذا التاريخ مقالة عنوانها (الشورى والاستبداد) على أنها من مقالات الاستاذ الامام في جريدة الوقائع المصرية فقال لي سعد باشا أنها له ليست للامام وان سبب ترك امضائه لها ان الامام كان أمر محرري الوقائع وهو منهم بترك امضاءاتهم في ذيل مقالاتهم. وقال «انك اذا تأملت هذه المقالة تجدها دون مقالات الامام التي نشرتها معها في موضوع الشورى عبارة ومعنى وتحقيقا» فحذفتها من الطبعة الثانية لهذا الجزء

ولو أراد سعد ان يكتب كلمة فيما يعلمه من مناقب أستاذه لتدون في التاريخ لكتب ماهو أبلغ من كل مارويناه عن غيره لانه أعلم من غيره بسيرته من أول نشأته الفاضلة، إلى نهايتها الكاملة، ومن أقدرهم على بيان مايعلم

(٢٦) شهادة أحمد فتحي زغلول النابغة المصري

كان أحمد فتحي باشا من أعلم الناس بعد أخيه ومربيه سعد باشا بمناقب الاستاذ ولو كتب في بيان امامته لجاء بما يلي ما كان يكتبه شقيقه سعد، ولا أحفظ عنه كلمة مختصرة أدونها هنا إلا قوله: إنا كنا نسمع كلمة الحكمة من الامام فنظن اننا فهمنا مايريده منها - وبعد اختبار السنين نعلم اننا انما كنا فهمنا مدلول اللفظ اللغوي دون مارمى اليه من المقاصد الاجتماعية التي كشفها لنا الزمان اه

أشهد ان أحمد فتحي زغلول كان رجلا كبيراً بمعارفه المصرية وذكائه ولوذعيته وعلو همته، وقدرته الادارية والقضائية — وأشهد ان سعد زغلول كان كبيراً في ذلك أيضا وانه يفضل أخاه في الاخلاق والشمائل والارادة والثبات - وأشهد بالله ان محمداً عبده اكبر من كل منهما، وانهما كانا على معرفتها بقيمة أنفسهما كانا يعلمان بأنه فوقهما في كل شيء، ويعترفان به بكل فخر، وانهما كانا يرجعان اليه في خطوبهما، ويتحاكمان اليه في تنازعهما، ويكونان معه كالولد أمام والده، والتلميذ بين يدي أستاذه وحسبي هذا بديلا من كلمة بليغة من لفظهما أدونهما لهما

خاتمة الكتاب

فيما يجب على الامة لهذا الامام

أنبتت تربة مصر ألوفا كثيرة من العلماء والصلحاء والادباء والقضاة والحكام، ولكننا لا نعرف في تاريخها ذكراً لرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والاصلاح مثل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مواهبه الفطرية والكسبية وكمالاته الشخصية ، وفي صرف حياته العملية كلها الى اصلاح بلاده ووطنه، وترقية امته، وإعلاء شأن ملته ، بدون عمل ما لنفسه وأسرته ، فهو قد خرج من معاهد العلم الى ميدان الجهاد في هذه السبيل - سبيل الله تعالى - الى ان قضى في المعارك نحبه ، ولقي ربه ، شهد له بذلك العلماء الافذاذ على اختلاف علومهم الدينية والدنيوية والعصرية ، واختلاف أوطانهم ومللهم . وترى سيرته الشارحة لهذا مفصلة في هذا الجزء من تاريخه ، وترى الشواهد عليها من كلامه ماثلة في الجزء الثاني له ، والشهادات له فيها متواترة في الجزء الثالث منه -

مثل هذا الرجل العظيم يجب أن يكون مثلا كاملا يقتدى به في علو الهمة ، وقوة الارادة، وفي العلم الصحيح، والعمل الصالح المصلح ، وفي الجهاد لإعلاء شأن الامة في دينها ودنياها، ومدنيتها وحكومتها، فالامم لا ترقى إلا بامثال هؤلاء الرجال

مثل هذا الرجل الكبير يجب أن تحيي الامة ذكره ، وتنشر حكمته ، وتتخذه حجة لها في رقيها واستحقاقها للوقوف مع الامم الراقية ، التي تُدل وتفاخر بعلمائها النابغين وزعمائها المجاهدين وأئمتها المصلحين. كما قال غير واحد من كبار المفكرين

هذا الامام المجدد المصلح يجب على هذه الامة التي نبت من طينتها، ونبغ في بيئتها، فأعلى ذكرها ، ورفع قدرها ، أن تعلي ذكره ، وترفع قدره، وتربي نابتتها على أصول حكمته في التجديد الديني والمدني ، والاصلاح الملي والوطني ، ويجب على جميع شعوب الملة التي جاهد في سبيل إصلاحها، أن تساعد شعبه على ما يعمل لاحياء ذكره ، ودوام الاستفادة من علمه ورأيه

ما كان هذا الشعب الكريم بالذي يرضى لنفسه ان يوصف بالكنود للنعم، ولا بالجحود لفضل المنعم، ولا كان تلاميذ الاستاذ الامام ومريدوه بالابناء العاقين، ولا أصدقاؤه ومحبوه بالغافلين او الخاملين : فاما الشعب فلا يجاهد بدون قائد، وأما اصفياء الامام فقد فكروا في القيام بهذا الواجب عقب المصاب ، وعقدوا له الاجتماع تلو الاجتماع ، وأقروا شيئاً حالت دون تنفيذه الاقدار ، وكان خصمهم أمير البلاد ، ورقيبهم عميد الاحتلال ، ولا زعامة يؤيدها الرأي العام

توفي الامام وكان أكبر كبراء مريديه القادرين على تنظيم هذا العمل غائبين عن مصر - أعني سعد باشا زغلول وأحمد فتحي باشا زغلول - فلما عادا من سفرهما عقدا في دار الاول اجتماعا حضره من اصدقائه الشيخ عبدالكريم سلمان ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، وحسن باشا عاصم، ومحمد بك راسم ، وقاسم بك امين، ومحمدرشيدرضا (الكاتب لهذا) فقرروا أولا أن يشتركوا معي في الرأي ويساعدوني على ما أعلنته من عزمي على تأليف تاريخ له وعلى نشره كما يراه القاريء في مقدمة هذا الكتاب . ثم اجتمعوا وتشاوروا فيما يجب ان يعمل لاحياء ذكره ، فأجمعوا الرأي على إنشاء مدرسة كلية تنسب اليه وتكون التربية والتعليم فيها على رأيه ، وهو ما كان يسعى له بعد تركه للازهر، ويكون المنفذ لخطته فيها صاحب المنار

وإذ كانوا يعلمون أن سلطة الاحتلال تحسب لهذا العمل منهم كل حساب ، عهدوا إلى أحمد فتحي أن يقابل لورد كرومر ويذكر له هذا القرار ، ويسأله عن رأيه فيه ، لكيلا يكون على ريبة منه ، ويجيئهم بما يسمعه منه في جلسة أخرى عينوا موعدها ، فلما وافوها لميقاتها قال لهم : ان اللورد أظهر الاستحسان لهذا الرأي ، ولكنه قال ان من الحكمة أن يبدأ بهذا العمل صغيراً ثم يصعد فيه على سلم التدريج ، وأن يجري فيه على خطة مدرسة (عليكده) في الهند التي أسسها المرحوم السيد احمد خان الشهير ، وساعدته عليه الحكومة الانكليزية ، حتى صارت المدرسة كلية ، قال ووعد اللورد بأن يطلب لنا من حكومة الهند نظام هذه المدرسة ومنهاج دروسها، لنأخذ منه ما نراه موافقا للمدرسة التي نريدها

فهمت اللجنة من فحوى رد اللورد انه لا يرغب فيما ترغب هي فيه من إنشاء

مدرسة كلية راقية على مذهب الاستاذ الامام، الذي اعترف هو بفضله ونبله، ووطنيته الصادقة ، وخدمته للمصلحة العامة ، التي قال فيها : (ان الاوربيين ما فضلوا المصريين إلا بكثرة رجالها) ـ وباعتدال حزبه بين الاحزاب الاسلامية ، وجمعه بين أسباب الحضارة والمحافظة على أصول الدين الاسلامي . وفهمت منه أيضا انه ينبغي أن تكون المدرسة العبدية ، كما يحب هو وترضى دولته اي كالمدرسة الهندية

استاءت اللجنة من هذا الرد ولم يثنها الاستياء عن عزمها ، بل فكرت في جمع المال لانشاء المدرسة بصفة مصغرة كما قال اللورد لانه هو الممكن ، وانتظار مواتاة الزمان لتكبيرها ، ورأت من الشيخ عبد الرحيم الدمرداش المثري أريحية للبدء في التبرع للمشروع ، فقويت العزيمة ، حتى ان اللجنة عهدت إليّ بالبحث عن دار صحية لتستأجرها للمدرسة ، ففعلت

ولكن حدث في اثناء ذلك ان تبرع مصطفى كامل بك الغمراوي بخمسمائة جنيه لمشروع مدرسة جامعة مصرية، وعهد الى سعد بك زغلول بان يتولى الدعوة الى التبرع له والسعي لتنفيذه هو ومن يختار من اصدقائه وغيرهم ، فقبل وألف لجنة لذلك سُمي هو وكيلها، وتركت الرياسة ليختار لها احد الامراء

وتلا هذا ان ولي سعد باشا وزارة المعارف العامة ، فاضطر الى ترك لجنة الجامعة المصرية ، واختير صديقه قاسم بك امين وكيلا للجنة إدارتها مكانه. وكان ذلك بعد سنة من التصدي لانشاء المدرسة باسم الاستاذ الامام ، فلم يبق لهذا المشروع من يشتغل به ، وكاد هذا الرجل العظيم يُنسى هو وأستاذه السيد جمال الدين ، لولا تنويه المنار به في كل جزء من اجزائه، وتنويهه بالسيد أيضا في بعض الاجزاء، ونشر بعض آثاره المطوية ، وطبع الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ، وقضى الله تعالى أن أرجىء إتمام الجزء الاول منه المفصل لترجمته، بما يرى القارىء اسبابه في مقدمته،

ولولا انني من أضعف خلق الله تعالى في السعي لجمع المال وان كان المراد به شريفا ونافعاً ، لما تركت السعي لانشاء المدرسة ، وقد كان اقرب الوسائل له في السنين الاخيرة توجه قلب محبه الشيخ عبد الرحيم باشا الدمرداش رحمه الله تعالى إلى البذل للمنافع العامة ، فلو وجد في هذه الحالة احد من كبراء حزب الاستاذ

الامام المدني يزين له إنشاء المدرسة التي كان من اعضاء اللجنة التي قررتها ، ويرغبه في حبس عقار أو أطيان تفي بنفقتها ، لفعل

سكت أصحاب النفوذ والجاه من اصدقاء الاستاذ الامام عن القيام بالواجب له عليهم ، ولكن الرجل حي لا يموت ، ولا ينسى فضله ، في امة يعلو فيها قدر العلم والحرية ، ويزداد السعي للحياة القومية والوطنية

فهذه مدرسة الجامعة المصرية ، التي عارض وجودها وجود المدرسة العبدية الامامية ، قد اعادت منذ بضع سنين الاحتفال بذكراه ، فقام به فيها لجنة مؤلفة من نابغي علماء الازهر وبعض الوجهاء ومدرسي الجامعة ، فحرك عملهم الجرائد لاعادة التنويه بذكره ، وتعطير الآفاق بذكي نشره . وتبرع الشيخ عبدالرحيم باشا الدمرداش في أثناء ذلك بما يؤتي الجامعة غلة سنوية كافية لنفقة إنشاء كرسي لعلم الاخلاق تخليداً لذكرى الاستاذ الامام فيها . وتلا ذلك اقتراح كثير من فضلاء الامة لاحياء ذكره ، فأشار بعضهم بترميم داره في عين شمس وجعلها من معاهد العلم او الاعمال الخيرية العامة ، وبعضهم غير ذلك

ولما اسندت مشيخة الازهر ورياسة المعاهد الدينية إلى صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من خواص تلاميذ الاستاذ ومريديه في العلم والعقل والاخلاق ، ألف في دار الادارة العامة للمعاهد لجنة خاصة لاجل البحث في أمثل الطرق لاحياء ذكره في الازهر وغيره ، وجعل أعضاءها من تلاميذه الازهريين وسواهم ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، فاجتمعت اللجنة مراراً . وكان من سوء الحظ كما يقال أن استقال هذا الاستاذ من المشيخة ورياسة المعاهد الدينية قبل أن تفرغ من المساعي التمهيدية ، وتقرر ما يجب تنفيذه وينظم في سلك الاعمال الرسمية

وأخيراً قرر مجلس مديرية دمنهور إرسال بعثة علمية إلى ألمانية باسم الاستاذ الامام لاجل الاخصاء في علوم فلسفة الاخلاق والتربية والاجتماع ، وجددت ادارة المعاهد الدينية تقرير قراءة رسالة التوحيد درسا في الازهر وملحقاته ، وانما كان هذا لكثرة فوائدها ، لا لاحياء ذكر مؤلفها

لكن هذا شيء قليل على الامة المصرية ، وقد صارت أمة ذات رأي ووحدة ، وبذل

في سبيل المصلحة العامة، وكان قطب رحى وحدتها، والعامل الاكبر في جمع كلمتها، والزعيم الاكبر لها فيها، هو تلميذه وربيبه الاول سعد باشا زغلول: فمنه تلقى هذه الافكار، ومن زنده استورى هذه النار. إذ ربي في حجره بالدرس والتفكير والقول والعمل. وكان اوفى مريديه وأصدقائه له في زمن محنته، وأشدهم حنينا اليه في مدة غيبته، وأشوقهم إلى اتباعه واللحاق به، وقد نشرنا بعض مكتوباته اليه في منفاه ببيروت وفيها التصريح بهذه المعاني، واننا نثبت هنا صورة شمسية من خطه للكتاب الذي تقدم نشره في صفحة ٢٧٥ فمن لم يستطع قراءته هنا لتصغير كلمه فليقرأه هنالك، وننشر صوراً لمكتوبات أخرى له بخطها الاصلي في أول الكتاب

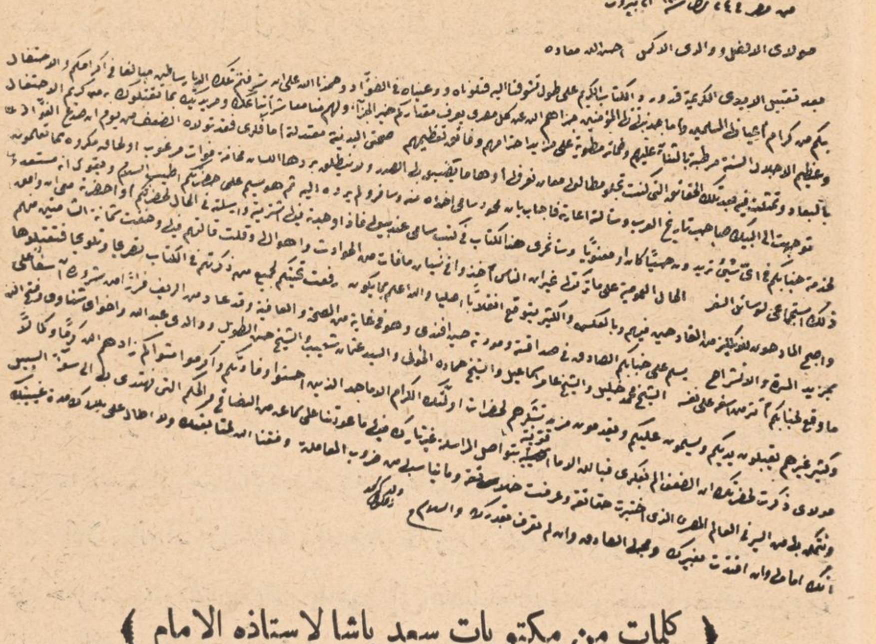

﴿ كلمات من مكتوبات سعد باشا لاستاذه الامام ﴾

كان الامام كلف سعداً بعض الاعمال ومنها ارسال اثاث من بيته بمصر إلى بيروت، فقام بذلك خير قيام فأثنى عليه بكتاب فقال سعد في جوابه :

« اني وما أعمل من خير مما صنعت أيدي مكارمكم فلا أستحق شكراً ولا حمداً، بل إن كان هناك مايدعو إلى المدح فالحمد راجع اليكم، والشكر عائد عليكم، واني أعد الفخار كل الفخار في خدمة جنابكم العالي، وأجد تنبيهي الى القيام باي خدمة نعمة سامية من حضرتكم لا أقدر على الوفاء بواجب شكرها، وعلى هذا

فمولاي يرى في اسناد التفضل والتكرم والاحسان إلي زيادة تنازل منه لا أرى نفسي جديرة بها ، وعهدي بالمولى الجليل أن يتحرى بكراماته موقع الاستحقاق

« وأظن أن حضرته يذكر أني في يوم من الايام التي نزلت بها في بيته ذاكرته في هذا المعنى ، ورجوت من مكارمه أن يجعل طلبه أي أمر مني بصيغة الامر لا بلفظ الرجاء ، فاني أرى في الامر الاول فوائد ترتاح نفسي اليها لا أراها في الثاني »

وكتب اليه الامام كتابا يذكر فيه استبشاره بما رآه في جريدة البرهان ، دالا على فوزه ببعض الاعمال ، فاجابه سعد عن هذا بقوله :

« ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم ، فهو المتربي في نعمتكم ، المغترف من بحار حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم ، البالغ مابلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم ، وكريم تعطفاتكم ، أدامكم الله لكل خير مبدأ »

فاذا كان الزعيم السياسي الاكبر يعد نفسه أثرا من آثاره ، وشعلة من ناره ، وقبسة من أنواره ، وكان يعتقد ان مابلغه وما يبلغه في المستقبل من المراتب فهو أثر تربيته ، وثمر نعمته ، ويمضي كتبه اليه بكلمة ولدكم او صنيعكم ، وإذا كانت الحكومة المصرية قد قررت زهاء مائة الف جنيه لبناء قبره ، ووضع تمثالين للتذكير بشخصه ، أفيكثر منها او يكبر عليها ، او على الوفد الممثل لسياسته ، والعامل باسم زعامته ، ان يقوم بانشاء مدرسة تنسب إلى اسم استاذه ومربيه ، وباعادة تعليمه وتربيته ، ونشر رسائله وكتبه ؟

كلا . انه قد آن للامة وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الامام التي فصلناها في هذا التاريخ وتقرر مايجب عليها من إحياء ذكره ، والاهتداء بارشاده ، وبناء أساس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتتعاون أحزابها وحكومتها على تنفيذ ماقررته ، في الوقت القريب المناسب له ، فانها لهي القواعد الحكيمة التي تحفظ لها عقائدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتها) ونماء ثروتها ، وترسخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي اعترف

عقلاؤها لهذا الاستاذ العليم، وأستاذه الفيلسوف الحكيم، بالزعامة المدنية والسياسية، والامامة الدينية، والتوفيق بين الجامعتين الملية والوطنية

فلو لم يكن لهذه الامة الفخر على غيرها بظهور هذا الامام المجدد منها، لكانت جديرة بان تتقبع تعاليمه الحكيمة لعظم فوائدها، ولما تعطيها من الزعامة التي لا تنحصر منافعها منها، وأعيد التذكير بما هي مستهدفة له من خطر الانحلال، المهدد لما نالته من مبادىء الاستقلال، بانتشار المفاسد المادية، والفوضى الادبية، والانغماس في الشهوات، والاسراف في اللذات، المفني لثروة البلاد، المضني لصحة الاجساد، المزهد في الزواج، المضعف للانتاج

بل أذكرهم بما لا يعزب عن علمهم من اضطراب العالم كله بهذه الفوضى التي ثلت أكثر عروش الممالك، وأشعلت نار الفتن الداخلية في كثير من الامم، وغاضت ينابيع ثروة غالب الدول، وأنذرت الروابط الاجتماعية بالانحلال، وعرى الشعوب الموثقة بالانفصام، وثروة الاقوام الغنية بالزوال، ثم أذكرهم بانه لا يثبت في مهب هذه العواصف إلا الراسخون في الايمان، ولا يصبر على هذه القواصف إلا المتصمون بمتانة الاخلاق، وهو ما مهد مسالكه الاستاذ الامام، وجعل تناوله على طرف الثمام

بل حدث في هذه الاعوام، بوادر انقلاب عام، يرقبه الحكماء، ويشعر به البصراء، وقد فطن له بعض أذكيائنا في سياحته في أوربة، وهو الشعور بشدة الحاجة إلى هداية الدين، وكونه هو العلاج الوحيد لهذه الأدواء الاجتماعية الوبائية من إباحة الاعراض، وفوضى الآداب، وعبادة المادة والشهوات، والتنازع السياسي، والنظام البلشفي، التي تنذر الشعوب زوال الحكم الديمقراطي، وانهيار النظام المالي او الرأسمالي. بل تهددها بحرب شر مما قبلها، كالريح العقيم تدمر كل شيء بأمر ربها. وقد وصف هذا الذكي ما رأى وروى عن أوربة من درء هذا الخطر بالدين، وتمنى لو يظهر الدين الواقي للحضارة الحاضرة من مصر، لكن فضلاء العقلاء في مصر يرون ان بلادهم اشد حاجة الى هذا العلاج من أوربة، فان هذا الوباء يفتك بها وهي أقل مناعة وحصانة ممن سرت اليها العدوى منهم، وانما تفضلهم بأن العلاج موجود فيها وهي في غفلة عنه، بل لما تشعر بالحاجة اليه، وهو القرآن، وما بينه من سنة محمد عليه الصلاة والسلام

تنبأ حكيمنا هو وأستاذه منذ نصف قرن بأن شعوب أوربة ستشعر بالحاجة الى الدين المصلح المعقول ، فتطلبه فلا تجده إلا في القرآن فتأخذه بقوة كعادتها ، حتى لا يبعد أن يضطر المنسوبون اليه منا أن يعودوا إلى طلبه منها (راجع ص ٩٣٩) فان كانت مصر تريد أن تكون أهلا لانقاذ أوربة من فوضى الاباحة والمادية التي تتردى هي فيها من ورائها ، فانها تجد الوسيلة اليها في تعاليم إماميها ، فلتسبق اليها وتجربها في إنقاذ نفسها

وها هو ذا أكبر رجال الدين فيها عقلا، واسدهم رأيا، وهو الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي ظهر نبوغه في أرقى المناصب الدينية فكان قاضي قضاة السودان فرئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر فشيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية ، فقام بها خير قيام - ها هو ذا يفتيها بترسم خطوات الاستاذ الامام وهذا نص ما كتبه في ذلك:

«أعتقد اننا اذا جاوزنا عصر السلف الصالح لانجد رجلا رزق فهما في هداية القرآن ، ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانيـة مثل الامام محمد عبده . ولقد وهبه الله شروط الامامة الدينيه جميعها ، كما منحه البصر في أمور الدنيا ، ومن الحق على المسلمين ان يترسموا خطواته بالاصلاح الديني والدنيوي، اذا أرادوا إعزاز دينهم ، ورفعة أتباعه في دنياهم . »

وانني أختم هذا الـكتاب الذي قضيت به دينا أدبيا كبيرا كان على مصر بتدوين تاريخ الامامين المجددين اللذين يرجع اليهما فضل نهضتها المعنوية ، كما يرجع إلى محمد علي الكبير فضل نهضتها المادية ، باقتراحي عليها قضاء الدين الآخر الذي لاقبل لي به ، وهو العمل بما أرشد اليه الحكيمان بالتربية والتعليم ، وإحياء ذكرهما بتعميم تاريخهما وآثارهما ، وانشاء مدرسة لذلك باسم الاستاذ الامام ، وترميم داره وجعلها من المنافع العامة ، فهذا دين يجب على مصر أداؤه على اختلاف أحزابها ومذاهبها ومشاربها ، لان الامام كان للجميع باتفاق الجميع

احمد الله عز وجل أن أديت الامانة وبلغت الوصية ، ووفيت حق أستاذي وصديقي ، ونصحت لامتي ووطني ، وهو كل ما أملك مما فرضه علي ربي للملتي (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب) وسلام على المرسلين ، وعلى من اصطفى من عباده المصلحين ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ تم الـكتاب في آخر جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ﴾

علاوة

﴿فيها رسوم شمسية لكتب خطية من زعيم مصر الاكبر﴾

سعد باشا زغلول

إلى شيخه ومربيه الاستاذ الامام أيام كان

في بيروت

— ١ —

﴿ رسم شمسي لكتاب من سعد باشا زغلول بمصر إلى شيخه ومربيه الأستاذ الإمام في بيروت في ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الأفضل ووالدي الأكمل أحسن الله مآبه

أكتب إلى السيد الأستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه التي لم يمنع من تواترها على صنائعه تباعد الديار ولا تنائي البلدان معترفاً بالعجز عن وفاء واجب الحمد مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن المكرمات يوليها والمبرات يسديها كما لا يقتضي الخير التماس الثناء ولا يصده عن إسداء [illegible] الجزاء إنما عنيته [illegible] في الإحسان وبر شفيق بالإنسان متفضل دام الله فضله على جميع حكماء الناس في نعمة بكتاب هو الحكم آية المعجز ولا تزال الشافي لما في الصدور الكاشف لحقائق الأمور الهادي إلى سبيل الرشد وإلى صراط مستقيم فلما رآه سرور العين باستقامة أمناه وتدبره متدبراً دقيق معناه مكرراً رقيق مبناه فازداد لي إيماناً بفضل مورده ويقيناً بحكمة من أهداه وشكر الله على صحة من أهداه دامت نامية وارفة الظلال وتقدم احتفالاً لأكرم ببيان معجز الكتاب الكلمة الكرام الذين وإن سوى فضلنا عنهم المروءة وأبواباً من النجدة وما لهم من كمال العقل وما فيهم من تمام العقل فرسمنا [illegible] هم على صفحات القلوب وحفظنا أمثلة مفاخرهم في الصدور وتشوقنا إلى أن تتشرف أبصارنا برؤياهم كما تحلت مسامعنا بمعرفة أخلاقهم ومزاياهم وما نحتاج في إقناع النفوس بعظيم تلك المحبة وإن كانت تمكنت في الأذهان إلى حقيقة البيان لمعرفتهم بمقام فضله وبمقدار حكمته ونباهته كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم وطهارة قلوبهم وغزارة فضلهم وكمال عقلهم ورجاحة عقولهم ونباهة شيمهم وفي توجيه ما ثبت من الثناء في أحدهم غيرهم إلى أسباب أخرى نود أن يسيلي الأستاذ الجليل في كتاب مخصوص إذا وجد من الوقت ساعة

انا نحتاج الى مزيد البيان في هذا الموضوع لنبين كيف يكون تداين المودة بين الافاضل وتبادل الغبطة بين الكرام الاماثل كما رايتنا من قبل في دنيا الاذكياء

كرما بين رجال الفضل الذين لا يبرمون للعقل عقدا ولا ينقضون للكرامة اعتقادا ولقد زادني حياء في السر ومضاء في الحضر ما جاء في وصف اولئك الاماجد

ذوي النفوس الزكية والمكارم العلية وما نشره من بيان حقيقة حوادث الايام سابقتي اليهم سابقتي القيم جاعلي مقادير النعم غير اني عدلت عن داعية

هذا الميل اشفاقا لاحرار ولي النفس حرارة لا ينقاد معها صبر ويطالب الصبر اشتياق لا يثنيه الا الاقصر واحمد الله على صنيع الله اوان التيمم

في ازاهيره كلم من ثمرات معقود معا غذاء للعقل ونزهة للفكر فتلقاها بقلب شاكر وتقبلها بفؤاد حامد وهنالك في الوجدان اجابة من الله التوفيق

الى الاخذ بما يليق والهداية الى اتباع ما فيه آملا من مكارم مولاي دوام تواليه ١ سنفت بي مجلة مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الناصح

ثابتا صدقه شهادة من سلوك الصادقين ولولا التعهد من سمو بال الاستاذ الكريم ومن وثق بي فيما اروي لكان الاسف مضاعفا اذ كما تعلمون

كثير الاحتياج لهذا النحو ومسكت منه ما نقصد من متاعكم الكريم ولم يكن امامي يوم ان بلغني خبر الاعتراف باليمين المعروف الا ما معناه الاسف والاشفاق

من عاقبة هذا الاعتراف فلعل ما بلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل والاحمودين لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف منهم مبلغ الغرف خاطرهم عن غاية المقام

القول فتوجه ذهنهم الى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما ظهر ولهم العذر انهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم والمراد ا

—٣—

غير حقيقة معناه ولم يأولوا تأويل العبارات وحرفوا عن ظواهرها ولم يعترفوا بإعادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده والعبارة في حد ذاتها لا يجب
تأويلها إلى غير المتبادر لاستلزام ظاهرها من الصعوبة على صاحبكم بكونه أزهريا معقوداً أمه الشيخ سماح أفظع منك مفهوما وأشنع تركيبا وكيف يتأتى له إرادة الظاهر
مع علمه بكون ذلك لا يليق إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل أنى ما أوليته من كرائم النعم وجلائل الأمور التي لا تزال متمسكاً بها منفياً فلا لا
وأنت المؤرخ أسفا المحترق حزنا المشفق عليه بيوم وجدت اسمه مكتوبا في قصائد الشام حتى شغفت همته عن همتك وسعيه وأنت أحكم سحره في
نتيجة من التهمة بواسطة المحامين ما بني كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقضه ويتبين هجاءك وجميع مقاماتك في بيت أدواء وزل
طالما رتع في بحبوحة نعمائك فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء علائق الأسف والاشتياق إن أحاطه لم يمس حظا بأنه لدى
يرى أن من الأدلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقا في ولائه حريصا على دوام تذكر أوليائه إذ لم يدعه إلى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة
على النعمة التي غرستم أصولها وأنميتم فروعها ليكون على الدوام متذكرا لحقيقة عبد فلي مسعود أصوره منشئ أما جناب الشيخ محمد عليش فقد علمت ما في
أيسار صورته عن وجه التعيين وكان التلطف في التأديب على ما جرت به عادتكم الرفيعة وقد طالعت هذه الصورة فرأيت أنها من أقوى الأدلة
على شدة ميل صاحب الأصل إلى الصدق ورغبته عن التمويه حيث أوضح حاله صادقا في الإفصاح عن الحق مبرهنا على شدة إخلاصه بإثبات
العبارة التي نقلتها من يدي حضرتكم في الإدارة فإنه إثباتا لا يحيد الأعمى تمام إخلاصه لا يشوبه تمويه ومن هنا يتبين لحضرتكم سعادة منيته وحسن طويته
أما عنوانه الجواب فإن أراد أن يجري على ذلك الأسلوب الاعتماد على معرفتكم بكونه من الصادقين المنقطعين لجنابكم الكريم وعلى كل حال فحضرته لا يستنقص من كريم
عطفكم وحسن صنيعكم فإنه لم يقف هنا وقصف ما عنه الخاص سبب

ان ظنكم فيما ابديته في جريدة البرهان هو الموافق للصواب وعين ما حفظتم الرو ... وانا لكم فهو الترجي في فهمكم المعترف من بما كتبتم المحفوف بعنايتكم المشمول بعين رعايتكم البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم وكرم عطفاتكم ادامكم الله للاخير سيداً

رجعت تحيتكم الى حضرات من ذكرتم اسمائهم واشرتم اليهم فتقبلوها بالاحترام وهم جميعاً يقبلون يديكم ويسلمون عليكم واخص منهم بالذكر حضرة منبع الصفا ومصدر الوفا الذاكر لعطفاتكم في كل حين والدي حسين افندي وحضرة ولدكم الصادق في محبتكم اخينا الشيخ عامر اسماعيل الذي اقتبس غاية الاقتباس مما خصصتموه به في مكاتيبكم الشريف وحضرة الشيخ سليمان العبد والسيد احمد افندي ونحن جميعاً نرفع احسن التحيات وازكاها لحضرات الاوائل الذين تشرفنا بمعرفة اسمائهم من الذين داسوكم فضول الكرامات ونقدم لهم واجبات الاحترام ادامهم الله مثالاً للفضل وعنواناً للكمال ونسلم على حضرات اخينا الفاضل ابراهيم افندي اللقاني وابراهيم افندي جاد ونجلكم ... الكريم وجميع من يحبكم حفظكم الله اهو الفا ... انه اهم ... ما ... الى ... رجو تفصيل احوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف اذا حسن لديكم ذلك كنت ساعياً لم تشهر الى القدوم في الزاد ولاذلك مراقباً ذلك رحم ... حضرة صاحب الكتاب ابنكم فوجه فيه ورود كتابكم الى البلد وكم يحظى الآن وعند العلم بحضور الوجه اليه وارفع لحضرته زيد تشكراتكم دامت معاليكم افندم

صنيعكم سعد

ينتمون

عبده

٨ حجا

ـ ٥ ـ

(رسم كتاب آخر من سعد باشا زغلول إلى شيخه الاستاذ الامام رحمهما الله تعالى في ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠)

حضرة الاستاذ الافضل والوالد الاكمل احسن الله معاده

وبعد تقديم واجبات الاحترام وتقبيل الايدى الكريمة أبدى انه ورد علي كتابكم الشريف المؤرخ في ١٠ منه فتلوته وحمدت الله على
صحة المزاج التي ارجو دوام اعتدالها وشكرت حسن توجهات الاستاذ الى مما يطيب العتب ويحفظ الخدمة آثارا يتولى خواطر
الابناء في بعدهم عن الآباء ويجاريهم على الدهر مادة الغذاء ومرهبات النماء لذلك لم يعد لي الا ذهابه وتربية الافهام
انى وما احمل من خير مما صنعت ايدى مكارمكم فمن استحق شكرا ولا حمدا بل ان كان هناك ما يدعو الى المدح فالحمد راجع اليكم
والشكر عائد عليكم ~~سيدنا~~ وانى احمد الله الذى يحل النعمة في حضرة جنابكم العالى واحب تنبيهى الى القيام بأية خدمة نعمة سابقة
من حضرتكم لا اقدر على الوفاء بواجب شكرها وعلى هذا لم ازل ادعوه ان في الصناع التشفى والشكر والرهان الى زيادة نتنازل منه لاداء
نعمى جديرة بي وعهدى بالمولى الكريم انه يتجرد لكل ما ساء مواضع الاستحقاق وانظر حضرته يذكر انى في يوم من الايام التى نزلت بلدة بنيه
ذاكرة في هذا المعنى ووجدت من مكارمه انه يحمل طلبه اى ارضى بعينه الامر لا ملتفتا الرجا فانى ارى في الاول فوائد تتاح على الولد
ورد اليها في الثانى وهو كتاب حضرتكم المؤرخ ١٧ منها الى حضرة الوالد الشيخ احمد البتى فى سفره وقبله بيوم وصل الكتاب الذى من فيضكم
الكاتب المرسل الى فاستمر وبعثت بخطاب الشيخ محمد خليل اليه في بلده واجبت عنه وارسلت الجواب من مدة ولعله بكونه وصل لجنابكم اما الذى تا
منذ ارسلت الى سكندرية بمعرفة حضرة الوالد الكامل حسيب افندى وكتب الى حضرته من هنا كونه برسل الى بيروت وامامه لكيفية الايصال في يد

خطاب بعث به اليهم بوليصة البوستة اما مصطفى افندى فكانت معه فى شأنه السوزانا وحضرة الشيخ احمد الليثى [illegible] مرة [illegible] لعلنا [illegible]
الرغبة فيه وكم ببه منه ما يشير الى الاشتياق ثم البحث فى اول الامر انه سيتوجه الى البلد ليرى الاهل حين السفر ولكن [illegible] مدة [illegible]
فلمس ابراهيم افندى محمد اى المرتب عن هذا الالتماس امتنا فانكتب ما كتب ولقد عجبت من مكاتبة فى هذه الشؤون مع انه لم يكاتبنا [illegible]
ثم ذكرنا من [illegible] وما انشده احمد بالشكر فيلى ولبث اذ كنت على [illegible] ما يوافق الحق او يقرب من الصواب وما [illegible] ايمان مصطفى
الى الآن الاعدم [illegible] اما عائلة محمد افندى الصدر فلم يكن يوم سفرها معلوما كما اخبرنى به [illegible] البارحة [illegible] وقد [illegible]
احد المعارف من الشاميين بانه يترتب المكان فيه الى بيروت من اصحاب فاذا وجد من يسهم اصبنا اخبرنا فرصة بواسطة [illegible] ولعل ذلك يكون
قريبا حضرة الوالد الكامل منبع الصفا ومصدر الوفا حسين افندى سلم على حضرتكم ويقدم لكم مزيد الاحترام ويقبل يديكم حضرة احبابنا الفاضل الشيخ
عامر واخوانى [illegible] وكل من جرى ذكرهم فى الرسائل السالفة نرجو تبليغ السلام الذى الى حضرة الاخ الفاضل [illegible]
ابراهيم افندى على وسوف [illegible] انه [illegible] للعقد [illegible] مع كونى [illegible] الاخ [illegible] اليك [illegible] المولى
يكون من التى الى الشاهقى فى اعتقاد [illegible] وما [illegible] رقابة [illegible] وافرت [illegible] العلامة [illegible] السلام الى حضرة

المهذب الكامل عارف افندى ونسال لهم البشارة كاملة وصحة شاملة والى حضرة ابراهيم افندى جاد وحضرة الوالد محمد افندى الصدر
وجميع من يحوم المجلس العالى وحضرات عائلتكم الى ولكم من محبتكم والدكم سعد
[illegible] محمود

"ج"

(رسم كتاب ثالث من سعد باشا إلى الاستاذ الامام رحمهما الله تعالى في ٢٧ ج سنة ١٣٠٠)

حضرة الاستاذ الفاضل والمولى الكامل

وبعد تقبيل اليد الكريمة فقد ورد علينا كتابكم المؤرخ ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج وسررت غاية السرور بما احتوى علينا من مهاداة الصورة التي حفظناها في العيون وجعلنا بروازها من المقوى الحافظة لتكون على الدوام نصب الخاطر ولا بدع فهي مثال الكمال ومرآة الجلال ورامزة الوقار وعنوان الاعتبار . وذكرت انك تعرضت لمناحي الاعداء فدعونا الله تعالى لجنابكم بالفوز العظيم والنصر المبين وسألناه عناية تلزم اعمالكم ورعاية ترافق آمالكم . اطلعنا على مقالة السيد في جريدة البصير فعلمنا انك لم تقصد الاعتذار وقد كان لها الوقع الجميل في نفوس المغربية على اختلاف طبقاتهم وقد اتيا له مقالة اخرى هذه المرة في تلك الجريدة عنوانها (مضار الشقاق ومنافع الوفاق) نحا على منوال المعهود وبين فيها اسباب سقوط الامم وموجبات ارتقائها ووعد في آخرها بنشر رسالة تتضمن الصلاح ما يوجب رفعة الامة بعد سقوطها ومن الغريب انه اتى فيها بحقيقتين ربما يخفى بهما منافذ الاستحسان عند اولياء الانكليز الامقدمين والسيومونين في كل محفل حضروه مع كون الرأي مفوضة اليهم ولكنهم لا يعقلون . هذه اخلاق العقدة مرت ايام على الغائبين اذا قيل من الاحوال ما يزلزل اعتقادهم والحمد لله وجوههم غبرة ترهقها قترة وادلى عقلهم سباتاً ثم حيرة وصيرهم يولون من كانوا عنهم يولون خوفاً في الاوقات التي قدم فيها من كانا غائبين فمنها فسدت حالة الناس في هذه العقيدة وسقطت درجة اعتبارها عند من كانوا يعظمون شأنها ويتباهون بكونهم في مقام مقابل من المخلصين بل جاهر الكثير منهم بتوثيقها وتزييفها ولو كانت هذه العقيدة ذات عمق او اساس لما رضيت بالاقامة في مركزها مع

فلكون معنزلة الذهب لا يقدر على هو قدرها ولذا تفوت به بعض ايام وتطلعت النفس من ابواب كثيرة ولا يصل الى ادراك الا القليل
وربما لم الوصول اليه وادراك من بين النظار الذي المتوفيه الى اليقين باعتقادها من لا يجد له الناظر حسابا وزادها =
مرتبة ومقبولة عند الذين اطلاعهم على كتاب من الكتب المؤلفة حديثا في عقائد أهل السنة والجماعة يسمى النظام فانه ظواهر =
عبارات وانقيادات والطلاقة وتعقيدات كشفت للعقول ان لهذه العقيدة نفوذا مبسوطا في مملكة العلم وانه مكانها من الكتب رفيعا والمه
حرصتم اطلعته او تطلع على هذا الكتاب ولا تنا خذون عن تعليمه شرح عليه يكشف نقاب معانيه ويحل رموز مبانيه فلحرصكم شغف شديد
بشرح كتب التوحيد وتوضيح معانيها ونوده ان يكون على اسلوب الحاشية التي علقتموها على العقائد العضدية في اتخاذ اقرب الطرق
الى حل الرموز وتوضيح المقصود الحمد الذي وصل لحضرتكم فقد وردت افادة ارسالية من منذ اسبوع فطلبتم ان توضح لحضرتكم كل ما تنيف على =
ما تطلبونه من المعارف ليكون لكم الحرية التامة في الطلب واني مع حرج خاطري من هذا التعقيل اهمد ان الكتب لم تنيف عليه الاربعة وعشرين

قرشا والقرش لا داعي له اذا اقتضى عليه فانه الشيخ احمد الليثي غائب وهو الذي يتولى ارساله من طنطا مصر الى اسكندرية والذي ارسله هو الى بيروت
هو قريبه حضرة الوجيه الحسيب افندي والى هذه النفقات بالله ارجو من مكارم حضرتكم ان تعفونا من هذا البيان وكلما تحبونه ارساله مرونا به
ونحن نقوم بارساله ونفقاته نقيدها في دفتر مخصوص وفي اي وقت نحاسبكم على مقتضاه والحمد لله عندنا فلوس كثير من افتتاح الى الان لم تسلموا لنا
شيء الى الآن فقد شرعنا ان نتوكل في [illegible] الفقايا ولا غنى حضرتكم وذلك بعونه ومشاركة منبع الصفا وعلى الله نجاح المأمول
من مهمة حضرة الوالد منبع الصفا مع قريبه في شأن ارساله مصطفى بالطريقة التي اشرتم اليها فهو مهتم بها عند توجهه الى اسكندرية ليتكلم مع الخواجا
يسر الله [illegible] في ذلك وسعيد حضرة حسن افندي وقد توجه من يومين وننتظر حضوره هنا [illegible] وهنا [illegible] ننتظر ما يكون [illegible] هذا
مكتوب من حضرة الشيخ محمد المزين يسلم على حضرتكم جميع من تعرفونه [illegible] وحضرة محمد افندي الذلقي والشيخ السعيد [illegible] شاه بندر تجار
الزقازيق وحضرة منبع الصفا والشيخ حسن اخي والسيداوي وثابت افندي وفتحي افندي ونحن نسلم على حضرة عارف افندي وقد [illegible] الرد بزيادة
من مدة زاده الله صحة فوق صحة وبارك في عافيته وعلى حضرة ابراهيم افندي علي وما [illegible] الاجتماع [illegible] وعلى حضرة ابراهيم افندي جاد
وعلى حضرة (استاذنا) محمد افندي الصدر وحضرة [illegible] افندي سيم على جميعهم امتع الله [illegible] البلاد

[illegible] دمتم محبينا [illegible] والسلام كاتبه ولدكم [illegible]

٢٧ ج

فهارس

الجزء الأول

من تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(الفهرس الاول لمواد الفصول ومافيها من المقدمات والمقاصد والخواتيم)

﴿ تصدير الكتاب ﴾

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام ، وشيخنا الاستاذ الامام، ووجه الحاجة اليه،ووجوب المحافظة عليه

المواد التي اعتمدنا عليها في هذا التاريخ

المقدمة، وفيها بيان سبب تأخير هذا الجزء،وصفة تأليفه،وموقعه عند صنوف قرائه

٩ فاتحة ما كتبه الاستاذ الامام من تدوين سيرته

١١ ما دعا اليه من الاصلاح ، وهو جدير بأن يحفظ لفظه ولا ينسى معناه

١٢ جهره بمقاومة الاستبداد في أيام صولته

١٣ الفصل الاول منه ، أهلى

وكلامه فيه على والده ووالدته وأصل بيتهم وظلم الحكام لهم

١٦ كلامه في شرفي النسب والادب وسبب ضياع الانساب

١٨ كلامه في التربية والوراثة

١٩ مفسدة تفضيل الجواري على أهل البيوتات

الفصل الثانى

٢٠ نشأته وتربيته وطلبه للعلم

٢١ تربيته الصوفية وشيخه الشيخ درويش فيها

٢٥ لقاؤه للسيد جمال الدين واتصاله به

خلاصة سيرة السيد جمال الدين

٢٧ ترجمة الاستاذ الامام للسيد جمال الدين

٣٥ ماقاله في حال مصر قبل السيد جمال الدين

٣٧ السيد جمال الدين موجد النهضة السياسية الاجتماعية بمصر

٣٩ ترجمة أديب بك اسحاق لجمال الدين

٤٣ ترجمة سليم بك العنحوري له
٤٩ تخطئة الاستاذ الامام للعنحوري في الطعن بجمال الدين واعترافه بخطئه
٥١ سبب الطعن على السيد جمال الدين
٥٤ السيد جمال الدين في إيران ، والعداوة بينه وبين الشاه ومسألة حصر التنباك
٥٦ ﴿ مكتوب من البصرة إلى السامرة ﴾
(وهو ما أرسله السيد جمال الدين الى ميرزا حسن الشيرازي رئيس مجتهدي الشيعة يهيجه به على الشاه فاضطره إلى إلغاء الامتياز باحتكار التنباك لشركة انكليزية)
٦٣ مقالات السيد في تحريض العلماء على خلع الشاه
٦٩ أحوال فارس الحاضرة (مقالة له)
٧١ السيد جمال عند السلطان عبد الحميد وكلامهما في شاه العجم
٧٣ ﴿ مذهب السيد جمال الدين السياسي ﴾
وفيه كلام الاستاذ في عمله السياسي ، وتأسيسه الحزب الوطني بمصر
٧٦ نفي السيد جمال الدين من مصر بسعي فرنسة وانكلترة
٧٧ كلمة توفيق باشا للسيد جمال الدين في تعليق أمله به
٧٨ الاشارة إلى مقصد السيد من السودان وسيأتي شرحه
٧٩ ﴿ فلسفة السيد جمال الدين ﴾
٨٠ كلمة للاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات
٨٢ ﴿ رأي السيد في الاصلاح الاسلامي ﴾
٨٤ عشق المؤلف السيد وكتابه اليه
٨٨ نهاية أمر السيد في الآستانة
٨٩ صورة السيد قبل مرضه
٩٠ « « بعد العملية الجراحية في فمه
« عتاب الشيخ أبي الهدى لي على مدحي للسيد
٩١ مرض السيد ووفاته ونعي الجرائد له
٩٤ تأبين الشيخ اليازجي للسيد جمال الدين ، وفيها ترجمة له باللغة الفرنسية
٩٩ ترجمة مجلة الهلال للسيد

أعود إلى تاريخ الاستاذ الامام

١٠٢ دخول الاستاذ الامام الامتحان في الازهر

١٠٣ طلبه للعلم بعد التدريس وشهادة العالمية

١٠٤ تعلمه اللغة الفرنسية وما كتبه فيه

الفصل الثالث

١٠٦ في تربيته الروحية وتصوفه

١٠٩ استطراد في حقيقة التصوف وكتبه وتاريخه

١١٣ الموازنة بين الصوفية والفقهاء وبين هدي السلف

١١٦ قول ابن خلدون في الصوفية وغلاتهم وغلاة الرافضة

١١٨ الكرامات والكشف والشطحات

١٢١ كلام ابن تيمية في أصناف الصوفية ومراتبهم الثلاث

١٢٣ ما سرى إلى صوفية المسلمين من صوفية الهنود وغيرهم

١٢٤ ضلالات الصوفية وبدعهم نوعان

١٢٥ تحرير التصوف الشرعي بكتاب (مدارج السالكين)

١٢٦ ﴿ مكانة الاستاذ الامام من التصوف ﴾

وفيه إنقاذ السيد للاستاذ من الغرق في خيال التصوف

١٢٨ أحوال الصوفية وغرورهم، وغرور الناس بهم

١٢٩ تعذر أو تعسر إصلاح طرق الصوفية

١٣١ الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية وهو ماقبل النفي وفيه تمهيد وخمسة مقاصد

« تمهيد للفصل في حظه مما يكون به الرجل عظيما

(المقصد الاول من الفصل الرابع)

١٣٣ تدريسه وبدؤه باصلاح التعليم في الازهر

١٣٤ حادثته مع الشيخ عليش في الازهر

(المقصد الثاني منه)

١٣٥ تدريسه في مدارس الحكومة

﴿ المقصد الثالث منه ﴾

١٣٧ عمله في إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية - وتتمته فيما يأتي من تلخيص كتابه في الثورة العرابية

﴿ المقصد الرابع منه ﴾

١٤٠ عمله في مجلس المعارف الاعلى

﴿ المقصد الخامس منه ﴾

١٤٥ عمله ورأيه في الثورة العرابية
١٤٨ خطبته في وجهاء العرابيين مخطئاً ومجهلا لهم وائتمارهم بقتله
١٥٠ قصيدته في الثورة العرابية

١٥٧ كتاب الثورة العرابية له

١٥٨ خطابه للخديو في أول الكتاب
١٥٩ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة
١٦١ مقدمات الثورة من سيرة اسماعيل باشا
١٦٢ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا
١٦٤ مبدأ الفوضى في الجند المصري
١٦٥ نفوذ الاجانب بمصر وأسبابه وغايته وفيه حكم وعبر بالغة
١٧٠ وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة
« أول إصلاحات رياض باشا إبطال السخرة بنوعيها
١٧٢ عدل رياض في توزيع مياه النيل وإلغاء الضرائب
١٧٣ وضعه ميزانية للحكومة وإبطاله للكرباج والحبس لتحصيل الحقوق
١٧٤ قانون التصفية

عمله في المطبوعات

(وصفه له في كتاب الثورة العرابية ، وهو أغرب أعماله وأدلها على عبقريته)
١٧٦ وضعه للائحة قلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فيها
(وفيها إلزام جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى إخبار ادارة المطبوعات بجميع أعمالها - والمحاكم أن ترسل اليها جميع نتائج أحكامها . وان لادارة الجريدة الرسمية حق انتقاد كل عمل تراه منتقداً حتى أعمال وزارة الداخلية !!)
١٧٧ انتقاد الجريدة الرسمية لطريقة التحرير في الحكومة وتأثيره في إصلاحها
١٧٩ انتقاد الاستاذ رئيس التحرير لنظارة المعارف وتأثيره في إصلاحها
١٨٠ تأثير انتقاده الاعمال العمومية في الاصلاح العام

« دار الكتب العربية ودار العلوم

(سعيه بتأثير الجريدة الرسمية إلى التقريب بينها وبين الازهر وإصلاح التعليم بما يحيي البلاد ويرقي الامة)
١٨١ إصلاح نظام العسكرية والمحاكم
١٨٢ (سيرة الحكومة بالاجمال والخديو توفيق والوزير رياض بالتفصيل) من كتاب الثورة العرابية
١٨٣ شمائل رياض باشا ومعارفه وأخلاقه منه
١٨٥ تأثير سيرة رياض باشا وشمائله في مقدمات الثورة منه

---

١٨٨ (سيرة الخديو توفيق المفضية إلى الثورة) منه
١٩٠ إثارة الخديو الضباط على وزيره رياض منه
١٩١ أسباب تألب الضباط المفضي إلى الثورة منه
١٩٤ مظاهرة الملأ المصري للضباط منه
١٩٥ بدء الثورة بحادثة قصر النيل منه
١٩٧ تشجيع معتمد فرنسة لعرابي منه
١٩٨ نتيجة ما سبق من تباين افكار عرابي ومشايعيه ورياض والخديو فيه
١٩٩ أغراء قنصل فرنسة للضباط بالتمرد وإخراجه من مصر منه

٢٠٠ محاولة الخديو تلافي شر تمرد الضباط (منه)
٢٠١ حال عرابي النفسية وخوفه وجبنه وعمله (منه)

٢٠٣ ﴿مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط﴾ (منه)
٢٠٧ طلب عرابي مجلس نواب وسببه (منه)
٢١٠ مسألة الضباط التسعة عشر (منه)
٢١١ التغير والعزل في الضباط لتوحيد القوة (منه)
٢١٤ قوة ناظر الجهادية ومأمور الضبطية (منه)
٢١٥ تربية الامم وطاعة الجند (منه)
٢١٦ مقاصد سلطان باشا وصفاته ومساعدته لعرابي (منه)

٢١٧ ﴿مناوأة الاستاذ الامام للعرابيين ورأيه في الاصلاح﴾
٢١٩ حادثة عابدين وبها ينتهي تلخيص ما كتبه الاستاذ الامام في أسباب الثورة
٢٢٥ ﴿الشيخ محمد عبده العالم الصحفي المحرر﴾

ما كتبه المستر برودلي محامي العرابيين تحت هذا العنوان من كتابه (الثورة العرابية)
٢٣٢ شهادة برودلي بان مصر لا تستغنى عن مثله اذا قدر لها الاستقلال
٢٣٣ خيانة سلطان باشا لمصر

٢٣٤ مذكرات الاستاذ الامام في الثورة والحرب

وهي مائة مسئلة ونيف نذكر عناوين أهمها

٢٣٥ سلطان باشا ـ خيانته
٢٣٧ مذكرات أواخر سنة ٨١ عن الثورة
٢٣٩ « سنة ٨٢ »
٢٤١ مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو
٢٤٢ المذكرة التي استعفت الوزارة عقبها
٢٤٣ المشير درويش باشا مندوب السلطان
٢٤٥ تسلح الاوربيين استعداداً للمذابح
٢٤٦ بدء المذبحة في الاسكندرية

﴿ عمر باشا لطفي محافظ الاسكندرية وخيانته لوطنه وعبوديته للخديو ﴾

٢٤٧ هو الذي سبب مذبحة الاسكندرية
٢٤٩ طلبه انزال عسكر انكليزي الى الاسكندرية بحجة عجز عرابي عن حفظ الامن

٢٥١ ﴿ كلمة الخديو توفيق في حرق الاسكندرية ﴾
٢٥٢ وصف المهاجرة من الاسكندرية بعد حرقها وضربها
٢٥٤ كتاب تاريخي من الخديو الى عرابي ورد عرابي عليه
٢٥٥ عزل الخديو لعرابي
« الجيش المصري ومتطوعته والجيش الانكليزي
٢٥٦ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنسويين
٢٥٧ انخداع عرابي بغش دسيس الفرنسي له وتركه لقنال السويس
« أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه

٢٥٨ عود إلى خيانة سلطان باشا برشوة العربان بمال الانكليز ضد عرابي

﴿ فوائد ما كتبه الاستاذ الامام في المسألة العرابية ﴾

(وهي بضع عبر في سوء تصرف الاوربيين في البلاد المصرية وجهل أمرائها بطبائع الامم وحقوقها وأخلاق البشر وسياستها وخلو البلاد من الزعماء العقلاء المخلصين، والفرق بين الاستاذ الامام وسلطان باشا في سيرتهما في الثورة ـ واحتقار الخديو وحاشيته ووزراؤه وكبار ضباطه الاعاجم للمصريين ـ وكون الشعب المصري قام بكل ما يمكنه من الواجبات في الثورة ـ وسوء تصرف الدولة العثمانية فيها ـ ورأي الاستاذ الامام في رياض باشا وعرابي باشا)
٢٦٦ (خاتمة هذا المقصد في اتهام الاستاذ وسجنه والحكم عليه بالنفي من مصر)
٢٦٧ الكتاب البليغ الذي أرسله من السجن لاحد مريديه يصف به الحال العامة
٢٦٨ ما ذكره فيه من سعاية اللئام به بكتابة تقرير في الطعن عليه
٢٧٠ وصفه لعواطفه في السجن
٢٧١ رده على تقرير سعيد البستاني ورفاقه الوشاة
٢٧٢ وصفه لصنائعه ومقابلة الاساءة بالاحسان
٢٧٣ ثقته بمستقبله وحسن نيته فيه

٢٧٤ الفصل الخامس

﴿في الطور الثاني من حياته العملية مدة النفي ، وفيه مقدمة ومقصدان﴾

٢٧٤ المقدمة في نفيه وحفاوة أهل بيروت به

﴿بعض مكتوبات سعد زغلول الندب الهمام ، إلى مربيه الاستاذ الامام﴾

٢٧٥ الكتاب الاول وهو مرجوع ما كتبه اليه الامام من بيروت عقب وصوله اليها

٢٧٦ مكتوب آخر من سعد زغلول له

٢٧٨ اعتذار سعد عن شكوى الامام من طعن الشيخ عبد الكريم سلمان عليه

المقصد الاول من الفصل الخامس

٢٨١ عمله مع السيد جمال الدين في أوربة

٢٧٢ كتاب السيد جمال الدين للاستاذ من بور سعيد

٢٨٣ جمعية العروة الوثقى السياسية السرية

٢٨٤ قانون الاصول العملية للجمعية

٢٨٧ اليمين الذي يحلفه المرتبطون بالجمعية ، وهو جدير بتأمل كل مسلم وتدبره واستشعاره عظمة الايمان الوجداني الذي صدر عنه

٢٨٩ الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والوطنية

٢٩٠ ﴿ فاتحة العدد الاول من العروة الوثقى ﴾

وفيها قواعد اجتماعية عامة تمثل داء الشرق ودواءه ، والخطر على الانكليز من تألب الشرق ولا سيما المسلمين عليهم وتمثيل المسألة المصرية والاحتلال الانكليزي بصورة مهيجة مثيرة

٢٩٦ منهج الجريدة

﴿ رعب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها ﴾

٢٩٩ ماقالته الجرائد الانكليزية في العروة الوثقى (منها)

٣٠١ قرار مجلس النظار المصري في منعها (منها)

٣٠٣ ﴿ تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي والشرق ﴾

٣٠٦ ﴿ مقاصد العروة الوثقى الاربعة ﴾ (١) الجامعة الاسلامية (٢) الرابطة الشرقية (٣) المسألة المصرية (٤) المسألة السودانية

٣٠٦ ﴿ مذهبها في الجامعة الاسلامية ، ونموذج من مقالاتها فيها ﴾

٣٠٨ مقالة الجنسية والديانة الاسلامية منها

٣٠٩ الصفات التي تقوم بها الخلافة الاسلامية

٣١٢ وصفه للمتفرنجين المقلدين

٣١٣ مقالة المقابلة بين الاسلام والنصرانية في السيادة والقوة العسكرية، وأسباب مخالفة أتباع كل منهما لتعاليم دينه خلافا للطبيعة

٣١٨ « انحطاط المسلمين وسكونهم وسببه

٣٢١ « التعصب بأنواعه وفلسفته وسبب ذم الافرنج والمتفرنجين للديني منه

٣٢٤ « القضاء والقدر وتأثير عقيدته في الحرب والفرق بينها وبين عقيدة الجبر

٣٢٦ « الفضائل والرذائل وما يترتب عليهما من الاعمال

٣٢٨ « الوحدة الاسلامية وجناية الملوك عليها

٣٣٠ « « والسيادة

« « استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها

٣٣١ المسألة المصرية ولها خمس وسائل

﴿ والمقصد منها جلاء الانكليز عن مصر وجعل حكومتها لاولي العزم من المصريين ﴾

٣٣٢ الوسيلة الاولى اثارة العالم الاسلامي للدفاع عن مصر

﴿ الشواهد من مقالات العروة في وسائل انقاذ مصر واستقلالها ﴾

٣٣٦ (الشاهد الاول) في تحريض المصريين على الانكليز

« مقالة ﴿ هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم ﴾ وفيها مناظرة الاستاذ الامام في لوندره لوزير الحربية الانكليزية وغيره في المسألة المصرية

٣٤٠ (الشاهد الثاني) تحريض العثمانيين والمصريين والهنود على الانكليز

« مقالة الوهم واستعمال الانكليز له واعتمادهم عليه في سياستهم

٣٤٦ (الشاهد الثالث) تحريض الروس والعثمانيين على الانكليز
٣٤٨ (الشاهد الرابع) في دولية المسألة المصرية وعقد المؤتمر الاوربي لها
الحقيقة الناصعة ، في حلل البيان الرائعة ، في تعمية أمر المؤتمر
٣٥٣ وخديعة انكلترة لفرنسة فيه
٣٥٧ (الشاهد الخامس) تحريض الدولة العثمانية على الانكليز
٣٦٠ (الشاهد السادس) في تنبيه الخديو ورجال دولته للخطر
(مقالة) عمى الناس أو تعاميهم في مصر عن مقاصد الانكليز فيها . وفيها الحث على المحبة الوطنية والملية والفتك بالخونة
٣٦٢ (الشاهد السابع) في سياسة أوربة في المسألة المصرية ومكان الحكومتين العثمانية والمصرية منها
٣٦٥ (الشاهد الثامن) في تحريض المسلمين عامة والسلطان والمصريين خاصة على الانكليز
« مقالة زلزال الانكليز في السودان وهي مهيجة أشد التهييج
٣٦٦ المدافعة عن الوطن وخيانته وجزاؤها
٣٦٩ التحريض الخطابي على الجهاد الديني والوطني

٣٧٠ مسألة السودان

(وسياسة الامامين الحكيمين في تهويل أمر المهدوية فيه لاقناع الانكليز بتركه ليجعلاه مركزاً لسياستهما وفيها شواهد)

٣٧١ الشاهد الاول ـ مقالة سياسة انكلترة في الشرق
٣٧٢ « الثاني ـ » انتصار السودانيين على الانكليز وتأثيره
٣٧٥ « ٣ » أماني انكلترة في حركات محمد احمد
٣٧٦ « ٤ » سقوط بربر في يد محمد احمد
٣٧٧ « ٥ » السودان ومصر بعد سقوط بربر
٣٧٨ « ٦ قوة محمد أحمد بسوء تأثير احتلال مصر
٣٧٩ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان

---

٣٨٠ دخول الاستاذ الامام مصر مستخفيا في أثناء نفيه والغرض منه
٣٨٢ العبرة في هذه السياسة

خاتمة هذا المقصد

«آفة الشرق أمراؤه المستبدون، وزعماؤه المترفون، ومرشدوه الجاهلون وفيه ثلاثة مثل»
٣٨٤ «المثال الاول» استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها
٣٨٦ «المثال الثانى» استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها
٣٨٨ «المثال الثالث» رأي العروة في معاقبة الامم للامراء والرؤساء الخونة

المقصد الثانى

٣٩٠ «من الفصل الخامس — عمله في سورية»
٣٩٣ سيرته في بيروت بقلم الاستاذ السيد عبد الباسط فتح الله
٣٩٣ « « بقلم الامير شكيب أرسلان، وفيها استطراد في فهمه للشعر وذوقه وشعوره فيه
٤١٠ أصدقاؤه في مصر ورأيه في الازهر وأهله
خاتمة هذا المقصد
٤١٣ سعيه لاقناع الدولة العثمانية باصلاح التعليم والتربية بلائحة أرسلها إلى شيخ الاسلام في الاستانة، بين فيها الخطر على الدول بفساد التربية والتعليم الرسمي وحلول التعليم الاجنبي محله
٤١٤ كلامه في توقف اصلاح المسلمين على القرآن
٤١٥ رأيه الاخير في الدولة العثمانية

الفصل السادس

٤١٦ في الطور الثالث من حياته العملية، وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة
٤١٦ المقدمة في عودته من سورية الى مصر
٤١٧ حال الاوفياء والجبناء من أصحابه معه بعد عودته
٤١٨ عفو الخديو عنه ومن شفع له عنده وكرهه له
٤١٩ سعيه ليكون معلما في دار العلوم وامتناع الخديو

٤٢٠ المقصد الاول عمله في القضاء الاهلى

٤٢١ حكمه باجتهاده وتنفيذه أحكامه على الاجانب

٤٢٢ عنايته في القضاء بالاخلاق واصلاح ذات بين العائلات وعقاب الفاجرات

٤٢٣ براعته في تحقيق القضايا وفراسته فيها

٤٢٤ كلمته العالية في الارادة والاختيار والتقدير والابداع والنشوء والارتقاء

٤٢٥ المقصد الثانى عمله في الازهر

« أول كلام دار بيننا في اصلاح الازهر

٤٢٧ سعيه لدى الخديو عباس والحكومة في اصلاح الازهر

٤٢٨ اصلاح كتب التدريس في الازهر

٤٢٩ تفصيل بعد اجمال في اصلاح الازهر (كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر)

٤٣٠ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه

٤٣٢ قانون المرتبات

٤٣٣ حال الازهر ومرتبات الشيوخ قبل النظام من بؤس وفقر وظلم ومحاباة

٤٣٦ تبرم كبار العلماء وشكواهم من النظام

٤٣٧ إلحاق التعليم في المسجدين الاحمدي والدسوقي بالازهر لتوحيد النظام

٤٣٨ قانون كساوي التشريف وفوائده وسبب كراهة قدماء الشيوخ له

٤٤٠ نظام التدريس والامتحان وفوائده وما كان من الفوضى قبله

٤٤٣ المسامحة أو عطلة الدراسة والفوضى قبلها

٤٤٤ مساعدة الخديو على تنفيذ القانون بمال الاوقاف

٤٤٦ مكافأة امتحان الطلبة وفوائدها

٤٤٩ العلوم الحديثة وفائدتها

٤٥٥ اصلاح التعليم في الازهر

٤٥٦ دار الكتب في الازهر

٤٥٨ نظام الجرايات المزيل للفوضى والمحاباة

٤٦٠ امتحان التدريس وشهادة العالمية

٤٦٢ العلوم والكتب ونظام التدريس

٤٦٥ مسألة زاوية العميان والعبرة فيها

٤٦٧ إلحاق معهد الاسكندرية بالازهر
٤٧٠ الشيخ محمد شاكر وتعيينه شيخا للاسكندرية وفيها عبر
٤٧٤ مرتبات أولاد العلماء ونفقة الحكومة على الازهر
٤٧٦ الفساد والجهل في أخلاق العلماء وأعمالهم
٤٧٧ شهادة القضاة والمفتين بالزور لاولاد العلماء
٤٧٩ سعي الاستاذ الامام بالرزق لاولاد العلماء
٤٨٠ حالة الازهر الصحية وتعيين طبيب له
٤٨٤ محافظة المجلس والاستاذ الامام على حقوق الازهر وشرفه

الخديو والازهر

﴿ توجه عزم سموه الى قلب نظام الازهر واخراج الاستاذ الامام منه ﴾

٤٨٧ تمهيد لبيان الشغب الذي أحدث في الازهر
٤٨٨ الشغب الذي أحدثه الخديو وانتهى باستقالة السيد البيلاوي وبعض أعضاء المجلس
٤٨٩ ختم المشايخ لعرائض الشكوى من البيلاوي ومجلس ادارة الازهر
٤٩٠ الدسائس لحمل البيلاوي على الاستقالة
٤٩١ حادثة رواق المغاربة وفيها عبرة لمن يعتبر
٤٩٣ خلاصة الكلام في اصلاح الازهر
٤٩٤ سيرة الشيخ حسونه والشيخ سليم في الازهر
٤٩٥ حيلولة الاستاذ الامام دون نفوذ الحكومة في الازهر
٤٩٥ ألقاب الازهر السوءى عند الاستاذ الامام

٤٩٧ غضب الخديو على الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وما اقتضاه من الانتقام
٤٩٩ استعراض الخديو لجيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز لارضاء الانكليز بعزل المفتي
٥٠٠ التمهيد الديني بعد السياسي للانتقام من المفتي
» ما كتبه الشيخ محمد الاحمدي من التمهيد
٥٠١ التمهيد بشخص الشيخ الشربيني
٥٠٢ حديث الشيخ الشربيني في جريدة الجوائب المصرية ونشر المؤيد له

﴿ الازهر الشريف ﴾

٥٠٥ رد الاستاذ الامام على حديث الشربيني (وتفنيده فيه لماقاله في الازهر وما كان يقرأ فيه وقوله ان الطلبة يطعنون في الأئمة. وكلامه في دخول الفلسفة للازهر)

٥١٠ تفنيده لكلامه في استنكار اشتغال العلماء بالسياسة

٥١٣ ﴿ خطبة سمو الخديو فى عابدين ﴾

(وتعريضه فيها بالاستاذ الامام لحمله على الاستعفاء من الازهر وبصاحب المنار لنفيه من مصر)

٥١٥ غرض الحكومة الخديوية من الازهر

٥١٦ تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين

٥١٩ ما كتبه النواب محسن الملك زعيم الهند في خطبة الخديو وإصلاح الازهر. وفيه طعن شديد في الخديو وعلماء الازهر وثناء عظيم على الاستاذ الامام وآمال المسلمين فيه وآلامهم من تركه لاصلاح الازهر

٥٢٦ تعليق جريدة الرياض الهندية على هذه المقالة

٥٢٧ دفاع المنار عن علماء الازهر فيما طعن عليهم النواب

٥٣٠ رد النواب على دفاع المنار عن الازهريين وإثباته عداوتهم للعلم وبيانه لسوء حال المسلمين وما كان يرجى من إصلاح الازهر

٥٤١ حقيقة الازهر. وفيه بيان لجمود العلماء وضرره على العالم الاسلامي. وكون الاستاذ الامام قد انفرد بالسعي لاصلاحه

٥٤٥ ﴿ مذكرة الاستاذ الامام في بيان مواد قانون الازهر التي لم تنفذ ﴾

٥٥٢ صدى استقالة الاستاذ الامام في أوربة

٥٥٤ حال الازهر في عهد الشيخ الشربيني

٥٥٥ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي

٥٥٨ ﴿ الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي ﴾

التقرير الذي رفعه يوسف باشا طلعت الى المابين في الاستانة عن أعمال الخديو ضد السلطان ومقاومة المفتي له

٥٦٧ خلاصة الخلاصة في إصلاح الازهر وما جاء في المقصورة الرشيدية في حاله ومستقبله

علاقة الامام بالامير

٥٦٩ كلمة في صفة الخديو عباس في أول توليته وماعرض له بعده

٥٧٠ كلمتان متضادتان للخديو في الازهريين قالهما لصاحب المنار

٥٧١ سيرة الخديو السياسية والمالية

٥٧٢ أسباب سخط الخديو على الاستاذ وتأثير سخط الخديو عليه في نفسه وفي كلامه ومنها كلمته الصادعة له في حفلة التشريف

٥٧٤ إخلاص الاستاذ للخديو وأصدقاؤه من الامراء وافتراء من اتهمه بعداوة أسرة محمد علي

٥٧٥ حسن علاقة الاستاذ بلورد كرومر في نظر الخديو

﴿ شاهدان عمليان ﴾

على تأييد الاستاذ للخديو ضد الانكليز

٥٧٦ (الاول) مسألة عزل قاضي مصر التركي واستبدال مصري به وإنقاذ الاستاذ للخديو من ورطتها

٥٧٩ (الثاني) مسألة ليون فهمي وإنقاذه إياه منها

٥٨٠ ﴿ علاقة المؤلف بسمو الخديو ﴾

٥٨٤ ذكرى محمد علي وسلوك الخديو في إنشاء مدرسة صناعية باسمه

---

٥٨٥ محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار والتفريق بينه وبين الشيخ محمد عبده

٥٨٦ كلام بطرس باشا غالي والاستاذ الشيخ محمد شاكر مع الاستاذ الامام من قبل الخديو في التفريق وكلام السيد توفيق البكري معي في ذلك من قبل سموه

---

٥٨٧ كلام الشيخ علي يوسف لي في ضرر المنار من مبالغته في مدح الاستاذ الامام

٥٨٨ سعي الخديو لنفي صاحب المنار من مصر

٥٩١ استطراد في سيرة الخديو مع الاستاذ الامام

« وطنية الخديو وسيرته الاولى

٥٩٣ الخديو ومصطفى كامل وحزبه

٥٩٤ الشيخ علي يوسف بين الخديو والامام

٥٩٥ الخديو وبطانة قصره
٥٩٦ أحمد شفيق باشا بين الخديو والامام
٥٩٧ العبرة التاريخية في سيرة الخديو الاخيرة
٥٩٨ خدمة الخديو للاسلام بمساعدة مدرسة الدعوة والارشاد
٥٩٩ شكوى الانكليز وغيرهم من الاجانب للخديو من المدرسة ودفاعه عنها
« اهتمام الخديو بمسألة مسلمي فيلبين
٦٠٠ « « بمسلمي جاوة والسيد محمد بن عقيل

استدراك

على هذا التاريخ بوجود مواد لم تنشر فيه ، والوعد بتأليف ذيل له يستوفي ذلك

المقصد الثالث من الفصل السادس

٦٠٢ عمله في منصب الافتاء وتأثير تقليده الافتاء في الامة وتهانيها له
٦٠٣ تهنئة الشيخ عبد الرحمن قراعة له
٦٠٤ « محمد حافظ ابراهيم له
٦٠٥ عمله في تفتيش المحاكم الشرعية
٦٠٦ تقريره في إصلاح « «
٦٠٧ خطابه لوزير الحقانية فيه
٦٠٨ كلامه في الحاجة إلى المحاكم الشرعية واصلاحها
٦١١ مقدمة ناشر تقرير المحاكم ومافيه من المقاصد العامة
٦١٣ قاعدة بناء الاحكام الشرعية على مصالح البشر
٦١٤ قواعد الاسلام الشرعية التي بها كانت عامة دائمة
٦١٥ اقتراحه توسيع اختصاص المحاكم الشرعية وعدم حصر القضاء في مذهب الحنفية
٦١٦ اقتراحه تأليف كتاب في أحكام المعاملات من جميع المذاهب
٦١٨ كلمة لاحد كبار قضاة الشرع في اصلاحه للمحاكم
٦٢٠ ﴿ علماء الازهر والمحاكم الشرعية ﴾
٦٢٢ ضياع الشريعة بجمود العلماء
٦٢٣ كلمة لورد كرومر في المحاكم الشرعية

٦٢٥ مناقشة مجلس الشورى في أصلاح المحاكم
٦٢٦ كلمة قاضي مصر التركي في استغناء المحاكم الشرعية عن الاصلاح ورد المفتي عليه
٦٢٩ ﴿ هل يعتبر الازهر اليوم بما لم يعتبر به بالامس ﴾

المقصد الخامس من الفصل السادس

٦٣٠ عمله في مصلحة الاوقاف العامة واصلاح المساجد
٦٣١ مشروع اصلاح المساجد ومقاومة الخديو له
٦٣٢ لائحة المساجد : موضوعها وكونها إصلاحا دينياً عاما تزول به مفاسد كثيرة
٦٣٥ « واحالة الخديو لها إلى اللورد كرومر !!!
٦٣٧ ﴿ العبرة البالغة في مقاومة اصلاح المساجد ﴾
٦٣٨ لائحة المساجد وما نفذ منها
٦٣٩ مشروع ترتيب المساجد الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى
٦٤٣ المذكرة المرفوعة إلى المجلس الاعلى بشأن المساجد

فتاوى الاستاذ الامام

٦٤٧ الفتوى عن السؤال الوارد من الهند ومقدمة المفتي لها وموضوعه استعانة المسلمين بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين وحكم من كفر فاعله
٦٤٨ جواب علماء المالكية والشافعية عنها
٦٥٦ حكم تكفير المسلم وما يكفر به
٦٥٧ جواب شيخ الحنابلة
٦٥٩ جواب أحد علماء الحنفية
٦٦٢ ماحققه الاستاذ الامام في المسألة بأدلة القرآن والسنة وعمل الصحابة وفيه (مسألة النهي عن مودة الكفار وموضوعه ومايشترط فيه وانشاء عمر (رض) الدواوين بالرومية والفارسية وجواز تقليد وزارة التنفيذ لغير المسلم)
٦٦٦ فتواه في طوفان نوح هل عم الارض أم لا ؟
٦٦٧ الفتوى الترانسفالية في ذبائح أهل الكتاب ولبس القبعة واقتداء الشافعية بالحنفية
٦٦٩ تقرير محمد بك ابي شادي في الفتوى والطعن على المفتي

٦٧٥ الفتاوى الثلاث الترانسفالية. وما كتبه المنار فيها
٦٧٧ طعام أهل الكتاب
٦٧٩ الفقه في تحريم الميتة والتذكية أنواعها وحقيقتها
٦٨٣ فتوى القاضي أبي بكر بن عربي في طعام أهل الكتاب
٦٨٥ كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة خنق الحيوان للتذكية
٦٨٦ توضيح القول في الموقوذة وادراك ذكاتها
٦٨٨ الخلاف في التسمية على الذبيحة وتأييد الفتوى وحقيقتها وما به الافتاء
٦٩٠ اجتهاد المفتي وتقليده وكون الاستاذ الامام مجتهداً
٦٩٣ واقعة في ذبائح أهل الكتاب في زمن محمد علي باشا
٦٩٤ استحسان الاستاذ الامام لما كتب المنار في مسألة الفتوى وعباراته في الاستحسان وفكاهة راوندية للمويلحي في ذلك
٦٩٤ اشتغال الجرائد بمسألة الفتوى
٦٩٦ مسألة ذبائح أهل الكتاب وتأييد الفتوى بالاجماع
٦٩٩ تهافت المرجف في الفتوى
٧٠١ الفتنة في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله
٧٠٤ تأييد علماء العصر والجرائد للفتوى
٧٠٥ مقالة وعظية لعالم مغربي في موضوع الخلاف في الفتوى
٧٠٨ تأييد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية
٧١٠ الاستدلال على سوء نية المرجف في الفتوى
٧١٢ اهانة المرجف للعلماء وتعريضه بالامير
٧١٤ كتاب من الترانسفال في حقيقة الفتوى والسؤال
٧١٦ تأييد علماء الآفاق للفتوى
٧١٧ مقالة في ذلك من جريدة الرياض الهندية عنوانها (هل ولد السيد احمد خان ثانية بمصر وظهرت جريدته تهذيب الاخلاق بشكل المنار؟)

المقصد السادس من الفصل السادس

٧١٩ عمله في مجلس شورى القوانين وموت رئيس المجلس عمر لطفي باشا فجأة عقب تعيينه عضواً فيه

٧٢٠ كرامات الخرافيين وضعف وطنية المعاصرين
٧٢١ وطنية الاستاذ الامام ووطنية الشيخ علي يوسف
٧٢٣ ماقاله حسن باشا عبد الرازق في عمله في مجلس الشورى

﴿ المقصد السابع من الفصل السادس ﴾

٧٢٦ عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (من المنار)
٧٢٩ كلمة حسن باشا عاصم في عمله في الجمعية
٧٣٠ الاصلاح الدينى والاجتماعي الذي كان يبثه الاستاذ الامام في مدارس الجمعية الخيرية
٧٣٠ الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية وخطاب الامام فيه
٧٣٢ امتحان تلاميذ مدرسة الجمعية وخطبة تلميذ في الموضوع
٧٣٦ الاحتفال الثاني لمدرسة الجمعية بمصر
٧٣٧ خطاب الاستاذ الامام في مقاصد الجمعية من مدارسها وفساد تعليم مدارس الحكومة
٧٣٩ الاحتفال الثالث لمدرسة الجمعية بمصر وخطاب الاستاذ الامام في التربية والتعليم وفيه اثبات ضعف المسلمين بترك التعليم الديني
٧٤٢ مدرسة الجمعية في المحلة الكبري والاحتفال بافتتاحها
٧٤٣ خطاب الاستاذ الامام في الغرض من التعليم الابتدائي
٧٤٤ خطبة صاحب المنار في الاحتفال
٧٤٨ خطاب ابراهيم بك الهلباوي فيه
٧٤٩ خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في الجمعية ومدارسها
٧٥٠ افساد جميع مدارس البلاد للامة
٧٥١ مايجب أن تكون عليه كتب التعليم في المدارس، واقتراح تأليف كتابين في العقائد والعبادات على صاحب المنار واتفاق الاستاذ رئيس الجمعية وحسن باشا عاصم مدير مدارسها على ذلك وخطهما فيه

﴿ المقصد الثامن من الفصل السادس ﴾

٧٥٣ عمله في جمعية احياء الكتب العربية

الفصل السابع

في شؤونه العامة وفيه ثمانية مقاصد

٧٥٥ ﴿المقصد الاول من الفصل السابع تدريسه﴾

٧٥٦ طريقته في التدريس وطريقة أستاذه الافغاني

٧٥٨ (ختام درس المنطق في الازهر) وفيه بيان طرق اصلاحه في الدرس من صفة الالقاء واختيار الكتب وما امتاز به درسه في المنطق من المسائل العقلية والعلمية والخلقية)

٧٦١ ﴿ ملخص خطابه فى ختام درس المنطق ﴾ وفيه بيانه لاعتاق الاسلام للافكار من رق التقليد وتوقفه على الشجاعة ، وان القرآن فرض علينا النظر والاستدلال وإنما علم المنطق منظم لطرق الاستدلال

درس التفسير في الازهر

٧٦٥ اقتراحي إياه عليه وما دار بيننا من الحوار فيه

٧٦٩ صفة درس التفسير وما كان له من التأثير وفكاهاته فيه

٧٧١ شهادتان مكتوبتان فى تأثيره احداهما لعالم غريب

٧٧٢ شهادة نابغي خريجي دار العلوم وهي الثانية

٧٧٤ الدرس العالي الخاص في خارج الازهر

٧٧٧ المقصد الثانى من الفصل السابع — مؤلفاته

٧٧٩ رسالة التوحيد وصفها وتأثيرها فى المسلمين وآراء فضلاء النصارى فيها

٧٨١ تقريظ الشيخ سعيد الشرنبي لرسالة التوحيد

٧٨٢ أقوال علماء المسلمين فيها

٧٨٣ تقريظ الشنقيطي الكبير لها وانتقاده عليها

٧٨٤ تقريظ الشيخ سليم بو حاجب كبير علماء تونس ومفتي المالكية الاكبر فيها

٧٨٥ تقريظ عالم أديب شيعي لها

٧٨٦ تقريظ الامير شكيب لها

٧٨٧ (كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) وفيه من الحقائق الدينية والتاريخية والاصلاحية ما لا يستغنى عن معرفته مسلم فى هذا العصر

المقصد الثالث من الفصل السابع

٧٨٩ دفاعه عن الاسلام ، وكشفه للشبهات والاوهام ، وهو ثلاثة أنواع

« النوع الاول دفاعه الشفوي

٧٩١ إحالته بعض المستفتين والشاكين على صاحب المنار

٧٩٢ كتابان من التلميذ محمد لطفي جمعه في شبهاته وخواطره الدينية

٧٩٧ النوع الثاني دفاعه العلمي الخاص بالمسلمين

٧٩٨ النوع الثالث رده على الطاعنين في الاسلام

٧٩٩ **الرد على هانوتو**

٨٠٢ هانوتو والاسلام — تلخيص المناقشات في موضوع الرد

٨٠٥ الرد على فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة

٨٠٦ كيف كتب الرد على الجامعة في السفر

« مكتوبات الاستاذ الامام لي في شأن كتابة الرد

٨١٠ نشر الرد على الجامعة وتأثيره ورد الجامعة عليه وردنا عليها

٨١١ وقيعة صاحب الجامعة بين الولد وأبيه والمريد وأستاذه

٨١٢ الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح

٨١٦ آخر ما كتبه الاستاذ الامام لصاحب الجامعة

« اعتذار للقراء

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه بالتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب

٨١٧ ترجمة ميرزا باقر الغريبة

٨١٩ جمعية التقريب بين المسلمين وأهل الكتاب

٨٢٠ شهادة مفتش انكليزي لمسلمي الهند ومدارسهم

٨٢٢ خطب القس اسحق طيلر الانكليزي ومقالاته في الاسلام والنصرانية

٨٢٤ المقاله الاولى لاسحق طيلر بعد زيارته لمصر في الموضوع

٧٢٦ مقالته الثانية : القرآن والكتب المنزلة

٨٢٧ خريستفورس جبارة

٨٢٨ حظ اليهود من جمعية التقريب

المقصد الرابع منه

٨٣٠ إغاثته المنكوبين فى أحداث الزمان

» لجنة الاعانة لجرحى وأرامل الجيش المصري المحارب فى السودان

٨٣١ منشور الاستاذ الامام فى الدعوة إلى الاعانة

٨٣٣ تعليق المؤيد على المنشور والدعوة

٨٣٤ انكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد

٨٣٧ رد المؤيد على رسالة الاستاذ

٨٤١ الحكم العدل بين الاستاذ وصاحب المؤيد

٨٤٣ اعانة منكوبى الحريق بميت غمر ومنشور الاستاذ الامام فى الحث على الاعانة

٨٤٦ المقصد الخامس منه في اسفاره

٨٤٧ (سفره إلى الاستانة ودسائس الجواسيس وسعايتهم فيه)

٨٥٠ زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام في الاستانة

٨٥١ حديث شيخ الاسلام والاستاذ الامام في العلم والعلماء

٨٥٣ قول المقطم ان الحديث وقع على العلماء كالصاعقة

٨٥٥ ما كتبه مصطفى كامل فى الانكار على الحديث ورد المنار عليه

٨٥٨ كتاب الاستاذ الامام إلي بعد خروجه من الاستانة

٨٦٠ كتاب أحمد شفيق باشا إلى الاستاذ الامام ، وفيه ما سمعه من باشكاتب السلطان وسفير الانكليز فيه

٨٦١ عودة الاستاذ الامام من الاستانة وأوربة والتهانى الشعرية له بعودته

٨٦٥ (أسفاره إلى أوربة ومقاصده منها)

٨٦٨ اجتماعه بالفيلسوف سبنسر وحديثهما

٨٦٩ تعليق الاستاذ على قول سبنسر ان الحق عند أهل أوربة للقوة لا قيمة له بذاته ، وقوله ان الافكار المادية محقت الفضيلة منهم وجزم بأنه لا علاج لهم الا الدين الاسلامي

٨٧٠ سفره الى تونس والجزائر

٨٧١ سيرته في تونس والجزائر ونصيحته لاهلها

٧٧٤ إلمامه بصقلية ورحلته عنها

٨٧٥ عودته من سفره هذا والتهانى له بها

﴿ سفره إلى السودان وما كان من حفاوة الحكومة والاهالي به ﴾

٨٧٨ كتاب الزبير باشا في دعوته إلى ضيافته

٨٧٩ وصف إقامته في السودان وفوائده للمحاكم والمدارس والاندية والجماعات

٨٨٥ ضيافة الضباط المصريين له في ناديهم وعظته لهم في اجتناب الخمر

المقصد السادس منه

﴿ آراؤه وآماله وأمانيه ﴾

٨٩١ رأيه في السياسة واستعاذته منها

٨٩٣ كلمة شاعر مصر محمد حافظ ابراهيم في حزب الامام والسياسة

٨٩٥ الاميرة نازلي هانم والسياسة

٨٩٦ كتاب الاستاذ الامام إلى السيد جمال الدين بالاستانة

٨٩٧ خلاصة جواب السيد له

٨٩٨ رأيه في مشروع مستر بلنت في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال

كتابان سياسيان من الاستاذ الامام الى مستر بلنت

٨٩٩ الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر

٩٠٠ « « « نموذج الدستور المصري

٩٠٣ قول المنار في الكتابين ورده على المعترضين عليهما

٩٠٥ تلخيص ما طلبه الاستاذ الامام بمصر من الانكليز

٩٠٩ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها

٩١١ « الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك

٩١٣ « في استقلال العرب

٩١٥ « في الشعب المصري والخطر عليه من السكر والزنا

٩١٧ « في التربية والتعليم بمصر

« « في الوطنية والدين

﴿ انتصاره للقبط ودفاعه عن بطرس باشا بداعية الوطنية ﴾ ٩١٨

رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي والفرنسي ٩٢١

كتاب غوستاف لوبون الذي صرح فيه بان العقيدة الكاثوليكية تجعل الفرنسيس أعدى أعداء المسلمين ٩٢٥

رأيه فى اللغة العربية واللغات الاوربية وكتبهما ٩٢٦

رأيه فى الصوفية والفقهاء وتنازعهما ٩٢٧

« فى ديوان الاولياء وتصرفهم الباطن ٩٢٩

« فى البهائية العباسية والشيعة ٩٣٠

حياة الاديان وارتقاؤها وشبهة البهائية فيها ٩٣١

البهائية وداعيتهم ميرزا ابو الفضل ٩٣٢

غلو الدعاة إلى الاصلاح العائق لنجاحهم ٩٣٤

استمالة البهائيه والماسونية لاهل الاديان كلها ٩٣٦

بطلان استدلال البهائية على صحة دينهم بانتشاره ٩٣٧

رأيه فى إعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه ٩٣٨

« فى الاسلام نفسه وكون الافرنج سيهتدون به ٩٣٩

« فى المذاهب وأئمتها ٩٤٠

« فى المسلمين والفقهاء ٩٤١

مستر براون المهتدي الانكليزي ٩٤٢

رأيه في تنقيح كتب الحنفية ٩٤٣

رأيه في تقصير الفقهاء ومفاسد تقليدهم لعبارات الكتب ٩٤٤

آماله وأمانيه

مدرسة كلية اسلامية ٩٤٦

الحج والزيارة ووضع خريتة لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم والحجاز ٩٤٧

تأليف تاريخ للاسلام ٩٤٨

جريدة يومية بصفة خاصة ٩٤٩

المقصد السابع من الفصل السابع

(أخلاقه وشمائله)

٩٥٠ عزة نفسه وعلو همته وتواضعه

٩٥١ مهابته ولطفه وسلامة صدره وصفاء قلبه

٩٥٢ تغليبه لحسن الظن وتغابيه عن الشر

٩٥٣ إيثاره للمصلحة العامة على الخاصة

٩٥٤ وفاؤه لاخوانه ووفاؤهم له

٩٥٧ ثقته بالله دون الخلق

٩٥٨ صدقه وشجاعته

٩٥٩ رؤيان في مقعد الصدق ومقام الصدق له في الآخرة

٩٦٠ شجاعته وعدم خوفه من صائل ولا فاتك

٩٦٣ انصافه في الرأي والعلم والحكم

« اذنه لي بتصحيح كلامه والزيادة فيه

« تصريحه في الدرس بانتقاد الشنقيطي عليه وما أصاب فيه وشكره له

٩٦٦ جوده وسخاؤه

٩٦٧ غيرته على الملة والامة

٩٦٩ مروءته ونجدته

٩٧٠ ثباته على الحق واستقامته

٩٧١ عاداته وزيه

٩٧٣ صفة خلقه ومزاجه وأمراضه

المقصد الثامن منه

٩٧٤ ﴿ مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين ﴾

٩٧٥ ما تشابها وما افترقا فيه

٩٧٦ اشتغالهما منفردين ومجتمعين

٩٧٨ وصف إصلاحهما في المقصورة الرشيدية

٩٨٢ نتيجة إصلاحيهما وتجديديهما
٩٨٤ الطعن على الحكيمين المجددين وسببه والدفاع عنهما
٩٨٦ حال الجرائد المصرية والغميزة بالشيخ محمد عبده
٩٨٧ الشيخ سليمان العبد والاستاذ الامام

٩٨٨ (تحدي الاستاذ الامام للازهر بتجهيله بالتوحيد، المحرك لرميه بانكار التوحيد)
٩٩١ الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده (دفاع عنهما لفاضل تركي)

٩٩٥ خاتمة الفصل السابع

(صحبة المؤلف للاستاذ الامام — سببها ومبدؤها وغايتها)

٩٩٦ لقائي للاستاذ الامام في طرابلس الشام
٩٩٨ هجرتي إلى مصر لصحبته وإنشاء صحيفة اصلاحية
٩٩٩ تلاقينا بمصر أول مرة وتصريحه بان الموالد تقاليد وثنية
١٠٠٠ استشارتي له في انشاء صحيفة وتحاورنا في ذلك
١٠٠٢ رأيه في جرائد مصر وقرائها
١٠٠٣ موافقته لي على انشاء جريدة اصلاحية وشروطه فيها
١٠٠٥ ترويجه للمنار بالثناء عليه
١٠٠٧ مساعدة المنار المادية، وكلمة في حياتي المالية
١٠١١ علاقتي بالاستاذ روحية اصلاحية لاشية فيها
١٠١٣ صفة ما كنا عليه في المعاشرة العادية
١٠١٥ حملي إياه على مكاتبة أبي الهدى الصيادي
« تقريظ الشيخ أبي الهدى لرسالة التوحيد
١٠١٦ حياتنا العملية المعنوية في الاصلاح

١٠١٧ ﴿السعاية والدسائس للتفريق بيننا﴾

١٠١٨ سعي الشيخ عبد الكريم سلمان للتفريق . وانذار الاستاذ الامام له بترك صحبة ٤٠ سنة، وتعليله لكره عبد الكريم لي وتعليلي لذلك
١٠٢٠ صفاء المودة بيني وبين الشيخ عبد الكريم بعده

١٠٢١ الدسيسة الفسائية للتفريق بيننا وكلمة الاستاذ لاخيه حموده بك في ذلك
١٠٢٢ انتقاد الاستاذ الامام على المنار
١٠٢٣ ﴿ بعض أقواله في الاصلاح والتجديد ﴾
(والقائم بخطته فيها على أثره وأثر جمال الدين)
« كلمته الخطية في خطة المنار التجديدية
١٠٢٤ (كلماته العشر المصرحة بان صاحب المنار خليفته في إصلاحه وعلمه)
١٠٢٦ أبياته قبل وفاته في ذلك
١٠٢٨ الفصل الثامن
(في شؤونه الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية وفيه ٤ مقاصد)
« المقصد الاول قوة عقله وسعة علمه
١٠٣١ علومه ومعارفه الاسلامية والعصرية
١٠٣٣ تقصيره في رواية الحديث والجرح والتعديل
المقصد الثاني
١٠٣٥ إيمانه بالله وحبه لله ولرسوله
١٠٣٦ تعظيمه للنبي صلى الله عليه وسلم وبيانه لعلو قدره
١٠٣٧ كلمته في انطواء روحه صلى الله عليه وسلم على كليات الدين
١٠٣٨ وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به لاصلاح البشر
١٠٤١ عبادته وتهجده
١٠٤٣ ترخصه في الجمع بين الصلاتين في الحضر أحيانا
المقصد الثالث
١٠٤٤ مرضه ووفاته
١٠٤٦ مصاب الاسلام بوفاة الاستاذ الامام
١٠٥٠ المقصد الرابع في تأبينه ورثائه
« حفلة يوم الاربعين لتأبينه
١٠٥١ حفلة الجامعة المصرية «

شهادات رجال العصر

١٠٥٤ «من الاجانب والوطنيين المختلفي الملل»

« شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي

« كلمة السر ملكولم مكاريث مستشار الحقانية بمصر

١٠٥٥ « الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي

« « أحمد مختار باشا الغازي المشير العثماني

١٠٥٦ « الدكتور عبد الله جودت الكاتب التركي

« « الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني

١٠٥٧ « الاستاذ العلامة طاهر بن عاشور مفتي المالكية الاكبر بتونس

« « الاستاذ محمد بن الخوجه التونسي

١٠٥٨ « الاستاذ محمد الجعايبي التونسي

« « العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)

« « العالم الجليل السيد محمد بن عقيل أشهر السادة العلويين

١٠٥٩ « الاستاذ الحكيم السيد عبد الرحمن الكواكبي السوري

« « الدكتور يعقوب صروف العلامة العصري «

« « الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير «

١٠٦٠ « الاستاذ جورجي زيدان المؤرخ السوري الشهير

« « نعوم افندي ابكي الكاتب اللبناني الحر

١٠٦١ « صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر

« « صاحب السماحة الاستاذ محمد توفيق البكري

« « ابراهيم باشا نجيب وكيل وزارة الداخلية بمصر

« « محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

١٠٦٢ كلمة الدكتور عبد العزيز نظمي بك
« حافظ افندي واصف الاديب القبطي
« قاسم بك أمين المستشار في محكمة الاستئناف في تأبينه
١٠٦٣ « احمد لطفي بك السيد مدير الجامعة المصرية
« سعد باشا زغلول الزعيم الاكبر
١٠٦٤ « احمد فتحي زغلول النابغة الاشهر

١٠٦٥ خاتمة الكتاب

(فيما يجب على الامة لهذا الامام)

١٠٦٦ تقرير حزب الاستاذ الامام المدني إنشاء مدرسة باسمه عقب وفاته وتعذر تنفيذه
١٠٦٨ عودة الامة إلى إحياء ذكرى الامام بالاحتفال بها وبالبحث في عمل يخلد ذكره
« تأليف شيخ الازهر المراغي لجنة في ادارة المعاهد الدينية لذلك
١٠٦٩ تربية الامام لزعيم الامة السياسي سعد باشا زغلول
« رسم كتاب بخط سعد زغلول باشا للاستاذ الامام وكلمات له من كتب أخرى في اعترافه بفضل الاستاذ الامام عليه وانه هو صنيعته وغرس نعمته
١٠٧٠ الواجب على الامة زعمائها ونوابها وأحزابها وحكومتها التعاون على إحياء ذكراه
١٠٧١ شدة حاجة الامة إلى العمل برأيه في التربية والتعليم وكونه هو الذي يتم به استقلالها ويثبت وينقذها من الفوضى العامة وتنذرها وتنذر العالم كله
« شعور عقلاء أوربة بأنه لا يدرء عنها خطر الفوضى الحاضرة إلا هداية دين معقول ، ولن يجدوا هذا في غير دين القرآن
١٠٧٢ فتوى الاستاذ الاكبر المراغي في أن الاصلاح الذي دعا اليه الامام هو الذي يعز المسلمين في دينهم ويرفع قدرهم في دنياهم
تحديد اقتراحي على مصر في إحياء ذكرى الامام وهو ختام الكتاب

تم الفهرس الاول ويليه الفهرس الثاني

فهرس ثالث للصور والرسوم

الشمسية في الكتاب

(القسم الاول فهرس الصور)

صورة موقظ الشرق وحكيم الاسلام مجدد القرن الرابع عشر السيد جمال الدين الافغاني
« الاستاذ الامام مجدد القرن الرابع عشر الشيخ محمد عبده
« السيد محمد رشيد رضا مؤلف الكتاب سنة ١٣٥٠
٣٩ « السيد جمال الدين وهو واقف يخطب
٨٩ « السيد جمال الدين قبل مرضه في الاستانة
٩٠ « « بعد العملية الجراحية له في فمه
٣٩٢ « الاستاذ الامام وهو في بيروت سنة ١٢٨٣
١٠٤٣ « « « وهو يصلي في لوندرة سنة ١٢٨١
٩٩٨ صورة المؤلف بعد هجرته الى مصر في سنتي ١٣١٧ و ١٣٢٧

(قسم رسوم المخطوطات)

٢٨٢ رسم الكتاب الذي أرسله السيد جمال الدين الى الشيخ محمد عبده من بورسعيد في طريقه من الشرق الى أوربة
٢٣٤ رسم مذكرة للاستاذ الامام في خيانة سلطان باشا
٧٥٢ رسم مذكرة حسن باشا عاصم والشيخ محمد عبده في اقتراحهما على صاحب المنار تاليف كتابين في التوحيد والعبادات لمدارس الجمعية الخيرية
١٠٢٣ رسم كلمة الاستاذ الامام في مجلة المنار وصفة الراغبين فيها
١٠٦٩ كتاب من زعيم مصر السياسي الاكبر سعد باشا زغلول الى مربيه الاستاذ الامام
١٠٧٣ كتاب آخر من السياسي الاكبر سعد باشا الى مربيه الاستاذ الامام
١٠٧٨ « « « «
١٠٨٠ « « « «

فهرس ثالث لاسماء الاعلام في الكتاب

﴿ تنبيه ﴾ الصفر عن يسار الرقم للدلالة على تكرر الاسم في الصفحة التالية

ا

آقا محسن العراقي ٦٣
ابراهيم (من أبناء عمومة الاستاذ الامام) ١٤
« آغا التوتنجي ٢٠٥، ٢١١
« باشا (الشيخ) ٤٧٠.، ٦٩٢.
« التادلي (من كبار علماء المغرب) ٤١١.
« بك توفيق (مدير البحيرة) ٢٣٠
« جاد (من المصريين المنفيين) ٢٨٠.
« جان المعطر (هو ميرزا باقر) ٨١٧
« بك حيدر ٢٠٦، ٢١١، ٢١٩.
« باشا خليل ١٠٤١
« دريد ٢٢٨
« الدسوقي ٤٣٨
« رشدي باشا ٧٢٧
« صافي (الدكتور البيروتي) ٤٠٨
« عثمان الكبير ١٦
« باشا فؤاد ١٠٠٧
« فتحي باشا ٥٩٩
« بك فوزي ٢٢١
« اللقاني ٤٥. ٩٢، ١٣٧، ٢٧٤، ٢٨٠، و ٣٩٩ و٥٥٨ و٩٣٨
« المويلحي ٤٦، ٢٧٣، ٥٨٧ و٦٦٨ و ٦٩٤ و٨٥٩. و٩٢٣
« الهلباوي ١٣٨ و ٧٤٢ و٧٤٨
ابراهيم افندي الوكيل ١٤٨
« اليازجي (الشيخ) ٩٤ و ٩٩ و٣٩٩ و ٤٠٨ و ١٠٣١ و ١٠٥٩
ابن الاثير ١٢٦
« الجوزي ١١٠.
« خلدون ١١٦ و١٢٠ و١٣٦ و٤٢٦
« دريد ٣٦١
« رشد ٥١ و٤٠٤ و٥٣٤. و٧٩٨ و ٨٠٥ و ٨٠٧
« السائب الكلبي ١١٠
« السعود (ملك الحجاز ونجد) ١٠١٠
« سعيد الحافظ ١١٠
« سيده ٧٥٣.
« سينا ٥١ و١١٦
« الفارض ١٤٨
« القيم ١٠٢ و١٢٥ و٤٩٥
« مسكويه ١٣٥
« يعيش القرشي التيمي ٥٣٥
أبو اسحاق الاسفرايني ١١٨.
أبو اسماعيل الهروي ١١٢ و ٢٢٥
أبو بكر القاضي المالكي ٥٣
أبو تراب (عارف افندي تابع السيد جمال الدين) ٣٣ و٤١ و٤٨ و٢٨٢ و٨١٩
أبو الحسن الشاذلي ٥١
أبو السعود بن الشبل ١٠٨

أبو شرقاوي (الشيخ) الصوفي ١٢٦ و٩٥٥
أبو طالب المكي ١١٢
أبو الطيب الحافظ ١٢١
ابو عبدالرحمن السلمي ١١١و ١٢١
أبو عبيدة ١١٠
ابو الفضل الجوزقاني (ميرزا) ٩٣٠و٩٣١
٩٣٣ و ٩٣٥ و ٩٣٦ و ٩٣٧
أبو الفضل الجيزاوي (الشيخ) ٩٢٩
أبو القاسم الكربلائي (الميرزا) ٦٣
أبو مسلم الاصفهاني ٥٣
ابو المعالي (امام الحرمين) ٥٠٦
ابو نصر السراج ١١٢
ابو نعيم (الحافظ) ١١٢
ابو النهى القاوقجي (الشيخ) ٩٩٨
ابو الهدى الصيادي (الشيخ) ٧٣ و٨٥
و٨٨و٩٠و٥٨١.و٨١٤و٧٩٦و٩١٢.
و٩٨١و١٠١١.و١٠١٥
ابو الوفا الشرقاوي (الاستاذ) ٩٥٥
ابو الوفا القوني ٤٦
احمد آزاد المكنى بابي الكلام ١٠٢٣
« ابراهيم (الشيخ) ٧٧٣و٧٧٥
« ادريس (الشيخ) ٦٠٦ و١٠٢٤
« بك ارناؤد ٨٣١
« ابو خطوه (الشيخ) ٥٩٥و٦١٨
٦٢٩و٦٣٢و٦٧٤و١٠٥١
احمد باشا (الشيخ) ٤٦٧و٤٦٩
« احمد البسيوني الحنبلي ٦٥٩

احمد بن تيمية ١٠٢و١٢١و١٢٨و٨١٨
« بن حنبل الامام ١١٢
« باشا تيمور ٧٥٧و٧٧٤و١٠٤٢
« بك الحسيني (السيد) ٥٠٩
« حشمت باشا ٧٢٨
« خان (السيد الهندى) ٧١٧و٨٩١
« باشا الدره مللي ٢١٣
« بك رشوان ٨٧
« الرفاعي (الشيخ) ٤٥٨و٤٦٤و٧٥٦
« زكي باشا ١٠٥٢
« سيوفي باشا ٨٣٠
« شفيق باشا ٥٨١.و٥٨٩و٥٩٦ و٨٦٠
« بك صدقي ٢٠٦
« عباس (الشيخ) ٣٩٦
« علي محمود ١٤٨
« بك عبدالغفار ١٩٢.٢١٤،٢٢١،٣٩٩
« فارس الشدياق ٩٩٧
« فتحي زغلول ٢.و٢٣٦و٥٩١و٧٧٤
٧٧٩و٨٣١و٩١٦ و٩٤٦و٩٤٨ و٩٩٦.
١٠٠٦.و١٠١٣و١٠١٥و١٠٢٠و١٠٦٤
احمد كمال باشا (الامير) ٥٨٤
« لطفي السيد ٥٩١ و١٠٥٢. و١٠٦٣
« بك العريس ٥٧٩و٥٨٣
« محمد الالفي (الشيخ) ٩٥٩
« المحمصاني (الشيخ) ٧٧٥و١٠٢١
« محمود بك ٢٣٦و٩٥٤

احمد مختار باشا (الغازي) ٤١٧ . و٥٨١
و٨٩٥ و١٠٢٩ و١٠٥٥
أحمد مدحت افندي (الكاتب التركي) ٨١٩
أحمد باشا المنشاوي ٩٤٦ و١٠٤٢
أحمد بك النقادي ٧٧
أحمد بك يحيي (باشا) ٦٢٤
أديب بك اسحاق ٣٨ و٤١ و٤٥ و.
و٧٨ و١٨٦ و٢٣٨ و٣٩٩ و٤٠٠ و٤٠٨
ادوارد براون (الدكتور) ٨٦٦
و٩٤٢ و١٠٣٤ و١٠٥٥
اسبيتا بك ١٤٢
اسنا نتون باشا ٨٨٠
استونه باشا ١٤١
اسحاق طيلر (القس) ٨٢٢ و٨٢٤ و٨٢٦
اسماعيل باشا الخديوي ١٥ و٣٥ و. و٤١
و٤٦ و٤٨ و٦٢ و٧٤ و. و١٣٦ و١٤٥ و.
و١٥٧ و١٥٩ و. و١٧٤ و. و١٨٦ و٢٠٩
و٢١١ و٢١٦ و٢٦٠ و٢٩٨ و٣٣٤ و٣٣٧
و٥١١ و٦٢٠ و٧٧٧ و٩٢٤
اسماعيل الحافظ (الشيخ) ٨٥٨، ٩٣٣، ٩٩٨
و١٠٠٣
اسماعيل خليل (الشيخ) ٨٧٧
اسماعيل بك صبري ٢٠٦ و٢٢١
اسماعيل باشا صبري ٧٧٥ و٩٨٩
اسماعيل باشا صديق ٢٠٩ و٢١١
اسماعيل بك الفلكي ١٤٢
الاصم ١١٢

اعتماد السلطنة ٦١
افلاطون ١٠٠
ألفي افندى يوسف ٢٠٦ و٢١١
الكسندر دوماس ١٠٥
امري (القائمقام الانكليزى) ٨٨٠
أمين ابو يوسف (الشيخ) ٢٧٤
أمين غالي باشا ٤٤
أمين باشا فكري ٥٥٥ و٨٣٠ و٩٥٥
الانبابي (الشيخ) ٤١١ و٤٢٦ و. و٤٣٠
و٤٣٢ و٤٣٨ و٤٥٠ و٥٥٥ و٩٤٤

ب

بارنار (مسيو) ١٤٢
بارنج (السير) ٣٤٨ و٤١٩ و٨٩٢
باقر (ميرزا محمد باقر) ٨١٧ـ٨٢٢
بالمر (الجاسوس الانكليزى) ٢٥٠ و٢٥٨.
البيلاوى (السيد شيخ الازهر) ٤٧٤ و٤٨٥
و٤٨٨ . و٤٩١ . و٥٠١ و٥١٠ و٥١٣
و٥٥٥ و٦٢٩ و٩٢٩ و٩٤٨ و١٠٤٢
بدرى باشا بدرخان ٨٥ و١٠١١ و١٠١٢
بديع الزمان الهمذاني ٣٩٨
برودلي (المستر) ٢٢٤ و٢٤٣ و٢٦٦
بسمارك ٣٤٩ و. و٣٦٢
و. و١٢٠٩
البسيوني (الشيخ) ٤١٨
بسيوني بك الخطيب ١٠٤٢
بشارة باشا تقلا ٨٠١ و٨١١ و١٠٠٩
بشارة زلزل (الدكتور) ٣٩٩ و١٠٢٩

بطرس باشا غالي ٢٨٩و٤٩٩و٥٨٦
و٦١٢و٩١٨و٩٢٠. و١٠٢٥
بلانت (المستر ويلفرد) ١٠و٢٢٦
و٢٨٢و٣٦٣و٨٦٦و٨٩٨، و٩٠٠
و٩٠٤و.٩١٤
بليغ باشا ناظر الدائرة السنية ٨٦١
بهاء الدين العاملي ٥٢٥
بهاء الله (إله البابية) ٩٣٣
بهنسي ٤٢
بولسن (الوزير) ٤٧
بولينو باشا ١٧٢
بونهام كارتر ٨٨٠
بويل (الاستاذ) المؤلف الشهير ٨٦٦
البيضاوي (القاضي) ٦٨٦
بيكو نسفيلد ٤٢

ت

تحسين افندي ٣٠
تريكو (المسيو) ٤١و١٦١
توفيق الايوبي (الشيخ) ٨٠٨
توفيق باشا الخديوي ٣٣
و٤١و ٤٨ و٧٤. و ١٠٨ و ١٣٦ .
و١٤٣ و١٤٦ و١٥٧ و١٥٩ و١٦٢
و١٨٢ و٢٣٢ و٢٣٥ و٢٤٤ و٢٥١
و٢٦٠-٢٦٢ و٢٦٤ و٢٩٨ و٣٣٤
و٣٣٧و٣٤٤ و٣٥٠ و٣٦٠ و٣٧٧
و٤١٧-٤١٩ و٤٩٩ و٥٤٣ و٥٦٩
و٥٩٢ و٧٧٧ و٨٩٢ و٨٩٥ و٩٧٦
و٩٩٩

ج

جاد افندي عيد ٨٠٢
جاستون ماسبيرو (مسيو) ١٤٢
جالياردو بك ١٤١
جان جاك روسو ٨٠٥
جورجي زيدان ٧٣و١٠٦٠
جمال الدين الافغاني ٤ و٦ و١٩ و ٢٤.
و٢٧-٣١و٣٥و٣٧. و٤٥-٥٠و٥٢و٥٤
و٥٦ و٦٢و٦٠٠ و٧٤-٧٩ و٨٣ و٨٥و٨٩ و
و٩١-٩٦ و٩٩ - ١٠٤ و١٠٦. و ١٣٠
و١٣٢و١٣٤و١٣٩و١٥٨ و١٦٢و١٦٤.
و١٧٥ و٢٣٢و٢٦٢و٢٦٤و٢٧٤و٢٨١.
و٢٨٩ و٢٩٨و٣٠٣و٣٠٦ و٣٢١و٣٦١
و٣٧٠و٣٨٠و٣٨٢و٣٩٨.و٤٠٥ و٤١٦
و٤١٨ و٤٢٥.و٤٩٦و٥٦٧و٥٦٩و٥٩٠
و٧٥٦و٧٧٧و٨١٧.و٨٤٢و٨٦٥و٨٩٠
و٨٩٢و٨٩٤.-٨٩٦و٩١٧و٩٣٦و٩٥٠
و٩٥٥ و٩٦١ و٩٧٠و٩٧٤-٩٧٦و٩٨٢
و٩٨٤ و٩٨٦و ٩٩١. و ٩٩٤ و٩٩٧ .
و ١٠١١ و١٠٢٣و١٠٢٨ و١٠٤١
جمال الدين أفندى شيخ الاسلام ٤١٢
و٨٥٠
جمال الدين افندى قاضي مصر ٥٧٧
و٦٢٣و٦٢٦
جمال بك نجل رامز بك القاضي التركى ٨١٩

جميلة هانم (الاميرة) ١٩٦ و٢٢٨
جنكيز خان ٣٢٠
الجنيد بن محمد ١١١ و١٢١
جواد الآقا التبريزى ٦٣
جورج افندي كوتشي ٩٢ — ٩٤
جورجي افندي يني ٧٨٠ و ٨٠٥
جول سيمون ٨٠٥
جونار (مسيو) ٨٧٤
جون (القس) ٨٨٨
جوهر قائد المعز العبيدي ٥٠٢
جيجون بك ١٤٢
جيل البحري الانكليزي حامل جنيهات الرشوة ٢٥٨.

ح

الحارث المحاسبي ١١١
حافظ بك عوض ٨٠٩ و ٩٠٣
حامد والي (الشيخ الدكتور) ٧٧٣
الحاوي الطحاوي (الجاسوس العربي على عرابى) ٢٥٩ و ٢٦٥
حبيب الله الرشتي ٦٣
الحجاج بن يوسف ٣٥٩
حسن الاشتياني ٦٣
حسن باشا ضابط بشكطاش ٩٢.
« بك جاد ٣٩٩
« خان ٨٢٠
« خيرالله ١٤
حسن باشا سامي ١٠٠١ و ١٠١١
« الطويل (الشيخ) ٢٥ و٢٧٦ و٤١١
(وراجع حرف ح من تصدير الكتاب)
حسن باشا عاصم ٢ و ٤٩٧، ٥٦٢، ٥٦٩ و ٥٧٣، ٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨٢، ٥٩٤، و ٦٠٢، ٧٢٦، ٧٢٨، ٧٥١، ٨٤٥، ٩٢٣، ١٠٠٧، ١٠٥١
« باشا عبد الرازق ٧٢٣، ١٠١٣، ١٠٥١.
حسن العطار (الشيخ) ٦٩٢
« فهمي افندي شيخ الاسلام ٣٠.
« القويسنى (الشيخ) ٦٩٢
« المرصفى (الشيخ) ٤٣١
« منصور (الشيخ) ٧٧٣ و ٧٧٥، ١٠٢٤
« موسى العقاد ٩٨٦
حسونه النواوي (الشيخ) ١٤٢ و ٤١١ و ٤٢٧ و ٤٣٠ و ٤٣٢ و ٤٣٧ و ٤٧٩، ٤٨٥ و ٤٩٢ _ ٤٩٦ و ٥٠٩، و ٥٥٤ — ٥٥٧ و ٥٧٧، و ٦٠٢ و ٦٢٤ و ٦٢٧ و ٦٢٩، ٩٨٩.
حسين افندي ٢٧٦
« بك ٢٠٦ و ٢١١
« الجسر (الشيخ) ٧٢ و ٨٤ و ٢٨٣ و ٣٠٤ و ٤٠٤ و ٨١٩ و ٩٣٦ و ٩٩٩ و ١٠٠١
حسين دانش بك ١٠٢٤
« رشدى باشا ٥٩٩
الحسين السبط بن علي أمير المؤمنين ٢٧
حسين فخري باشا ١٤١ و ٨٨٥.
« القصبي (السيد) ٩٩٨
« كامل (الامير فالسلطان) ٥٧٤ و

٩٦٩و١٠٠٩
حسين المرصفي (الشيخ) ١٣٧و ١٤٢
« بك مظهر ٢١٩
حفني بك ناصف ١٣٥و ٣٧ و ٧٥٦ و
١٠٥١
حماده الخولي ٢٧٦
حمدي باشا ٣٩٣
حمزة فتح الله الشيخ ٩٨٧
حموده بك عبده ٢و٦و١٥و٤٠١و ٩٥٤
٩٥٦و٩٦٤و١٠١٧و١٠٢١و١٠٥٥
حنا بك باخوم ١٠٥٢
حنين الخوري ٤٥

خ

خضر بك ٣٩٩
خضر خضر بكباشي ١٩٦ و٢٠٥
خريستفورس جباره ٨٢٧
خير الدين الميقاتي (الشيخ) ٩٩٦
خير الله التركماني ١٦
خيري باشا ٣٢و ٢٢٨
خليل ابو حاجب (الوزير التونسي) ٨٧٢
خليل اغا ٥٦٢
خليل باشا حماده ٥٥٧و٥٧٢و٨١٥
خليل بك عفت ٢٢٨
« افندي علي ٢٠٦
« سعاده (الدكتور) ٣٩٩
« مطران صاحب جريدة الجوائب ٥٠١
خورشيد بك بسمي ١٩٧

د

دارون ٨٠
داغر (الشيخ) ٩٥٥
داود (الامير) ١٠٠٩
داود باشا يكن ٢١٣
دبلنيسير ٤٧و١٦٥و١٦٩
درنج (البارون) ١٩١و١٩٥و١٩٧
و١٩٩و٣٢٧و٢٥٦
درويش باشا ٢٤٣و٢٤٨و٢٥٤و٢٦٤
درويش خضر (الشيخ) ٢١و٢٣و١٠٦
درويش بك السيد احمد ٧٢٨
دلسبس ٢٥٧و٢٦٥
دلونكل ٥٩٣
دنلوب (مستشار المعارف) ٥٢٢و٥٥٣
دوست محمد خان ٢٧
دوكورسيل (البارون) ٣٦٣
دوندوكوف (البرنس) ٣٤٦
دي كاستري (الكونت) ١٠٠٦

ذ

ذكاء الملك الايراني ١٠٥٦
ذو الفقار باشا ٢٤٣و٢٥٢

ر

رائف باشا ٣٩٣
الرازي (الامام) ٥٠٦ و٥٢٨و٥٣٤
راشد باشا ٢٥٩
راغب باشا ٤٧و٢٣٦ و٢٥٠
رستم باشا ٩٧
رضا باشا ٢٢٠
رفاعه بك ٦٢٠و ٩٧٦

رفيق بك العظم ٥٩٣ و ٧٧٤ .
رمسيس الاكبر ٣٥٤
روتشيلد ١٦٧ و ١٠١١
روجرس بك ١٤١ و ١٤٢
روفسل ٢٤١
رياض باشا ٤٠ و ٤٤ و ١٣٧ - ١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٦ و ١٦١ و ١٦٥ و ١٦٩ - ١٧٢ و ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٥ - ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨ - ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٦ - ٢١٨ و ٢٢٠ - ٢٢٢ و ٢٢٤ و ٢٣٧ و ٢٦١ و ٢٦٤ و ٢٨٢ و ٥٧٠ و ٥٨٤ و ٥٨٨ و ٦٣٦ و ٨٩٠ و ٩٧٦ و ١٠٠٧ و ١٠٥٤ و ١٠٦١
رياضستون ١٨٦
رفيان (الفيلسوف) ١٠٠

ز

الزبير بن بكار ١١٠
الزبير باشا العباسي ٨٧٧
زرفوداكي ٥٦٢
الزرقاني (الشاعر) ٤٦
الزمخشري ١١٠
زمزم (اخت الاستاذ الامام) ١٦
الزولوس ٣٣٨
زين المرصفي (الشيخ) ١٤٢

س

سالسبري (اللورد) ١٠٠
سالم بوحاجب (الشيخ) ٧٨٤
« باشا سالم ١٤١
سبنسر (الفيلسوف) ٨٦٦ و ٨٦٨ و ١٠٣٤
ستكوفيش ١٩٩
سعد حماده (الحاج) ٤٠٥
سعد باشا زغلول ٢ و ٤ و ١٣٧ و ٢٧٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٤١٢ و ٤١٨ و ٤٥٨ و ٥٥٧ و ٥٩١ و ٥٩٣ و ٧٢٨ و ٧٥٦ و ٧٧٤ و ٨٩٦ و ٩١٨ و ٩٧٠ و ٩٨٣ و ١٠٠٧ و ١٠١٣ و ١٠١٩ و ١٠٦٣ .
السعدي الشيرازي ٥٣١
سعيد باشا (الخديو) ١٥ و ٦٢٧
سعيد البستاني ٢٦٩
سعيد الشرتوني (الشيخ) ٤٠٠ و ٤٠٣ و ٤١١ و ٧٨١ و ٧٩٠
سعيد الموجي (الشيخ) ٦٧٤
سفيان الثوري ١١٢
سقراط ١٠٠
سكوت (مستر) المستشار القضائي ٤٢٠ .
سلاتين باشا ٨٧٩ .
سلطان باشا ١٤٧ و ٢١٦ - ٢١٨ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٣٥ . و ٢٣٨ و ٢٤٠ - ٢٤٣ و ٢٤٨ و ٢٥٨ و ٢٦١ - ٢٦٣ و ٧١٩ و ٧٢١
سلطان افندي محمد (الاستاذ) ١٣٧
سلمان الكيلاني (السيد نقيب بغداد) ٣٠٤
سليم البشري (الشيخ) ٤٢٨ و ٤٣١ و ٤٦٤ و ٤٨٥ و ٤٨٨ . و ٤٩١ و ٤٩٤ . و ٥١٠ و ٥٥٥ - ٥٥٧ و ٥٨٩ و ٦٢١
سليم باشا حموي ٨٥٨
سليم افندي الريدي ٢٠٤
سليم بك عنحوري ٣١ و ٤٢ و ٤٩ و ٥١ و ٥٣ و ٧٨ و ٨٦
سليم نقاش ٤٥ .
سليم البخاري (الشيخ) ١٠٤٣
سليمان باشا اباظه ٢٣٥ و ٤١٧ و ٤٥٤ و ٩٥٤ .

سليمان سامي ٢٤٨و ٢٥٣
سليمان السعيد (الشيخ) ٩٢٩و٩٨٧و ٩٨٩.
سليمان نظمي الفاروقي ٧٧٢
سنتلانا ٢٢٦
سندويش ٢٤٥
سنكونيش ٢٤١
سهل باشا نجل فضل باشا العلوي ٩٢.
سيد علي المرصفي ٨٦٣
سيد وفا افندي ١٣٨
سيمور قائد الاسطول البريطاني ٢٥٠.

ش

شاهين باشا ١٣٧
شبلي شميل (الدكتور) ١٠١
شبلي النعماني (الهندي) ١٩١
شرشل (اللورد) ١٠٠
شريعي باشا ٢٣٥
شريف باشا ٧٤ - ٧٦ و١٦٢-١٦٤
الشريف الرضى ١١٥
الشعرانى ١٢١
شفيق بك منصور ٩١٨.
شكيب ارسلان (الامير) ٢٨٩و٣٠٣
و٣٩١و٣٩٨و٤٠١ و٧٨٦ و٧٩٠.
و٩٦١ و١٠٢٠ و١٠٣١ و١٠٤٣
شمعون اريبب ٨٣١
شمعون موريال (الدكتور) ٨٢٨
شناوى زغلول ٢٧٦
الشنقيطي الكبير (الشيخ محمد محمود) ٧٣٩
و٧٥٤و٧٨٣و٨٦٢ و٩٦٣ و٩٦٥.
شواربي باشا ٢٣٦
شويكار هانم (الاميرة) ٥٩٣
شير علي خان ٢٩و٣٩و٤٣

ص

صادق بك شنن ١٤٢و٢٤٩
صاعد الاندلسى (القاضي) ٥٣٥
صباح الدين (البرنس) ١٠٢٤
صفوت باشا ٣٠
صفية هانم السادات ٤٩٠
صموئيل افندي ينى ٧٨٠

ط

طالس ٥٢٥
طه باشا ٢٢٠
طه البشرى (الشيخ) ٧٥٧
طه حسين (الشيخ فالدكتور) ١٠٥٢
طاهر بن عاشور (الشيخ التونسي) ٧١٦
و١٠٥٧
الطبرى ٦٨٨
الطرطوشي (الامام) ٦٩٢
طلبه باشا ١٤٦و٢١٧و٢٥٣
طلعت باشا (الوزير التركي) ١٩٥
الطيب هاشم (الشيخ) ٨٧٩

ظ

ظافر المدنى (الشيخ) ٢١
الظواهرى (الشيخ) ٤١١ (وراجع محمد الاحمدى)

ع

عالي باشا (الوزير العثماني) ٣٠
عامر اسماعيل (الشيخ فالبك) ٢٧٦ و ٢٨٠
عباس باشا حلمي الخديوى ٣ و٨٨
و١٥٧. و٤٢٦ و٤٩٣ و٤٩٩ و ٥٦٩
و٥٧١ و٥٧٥ و٥٨٠ و ٥٩١_٥٩٣
عباس باشا الاول ١٥
العباس بن عبد المطلب (رض) ١٨
عباس افندى البهائي ٤٠٧ و ٩٣٠.
و٩٣٤ و٩٣٦ و٩٣٨
العباسي (شيخ الازهر) ١٠٣ و١٣٥ و٢٢٢
و٤١١ و٤٣٥ و ٥١٠_٥١٢ و ٦٢١ و٦٢٧
عبد الباسط افندى فتح الله (السيد) ٣٩٠
و٣٩٣ و٤٠١ و٤١٣
عبد الحليم بن سماية (الاستاذ) ٨٧٢
عبد الحليم باشا عاصم ٥٩٥ و٨٦١
عبد الحميد (السلطان) ٥٥ و٧١ و٨٨ و٩٧
و ٥٦٠ و٥٧٦ و٥٨٢ و٦١٦ و٨١٩ و٨٥٧
و٨٦٠ و ٩١٢. و ٩٤٧ و٩٩٣ و ١٠١٠
عبد الحميد البكرى (السيد) ١٠٥٢
عبد الحميد حمروش الحمراوي (الشيخ) ٦٧٤
عبد الحميد الزهراوي (السيد) ٨٧٠
عبد الخالق السادات ٤٩٠ و ٥٩٥
عبد الخير ٢٠٥ .
عبد الرزاق المنزلجي (الدكتور) ١٠١٧
عبد الرؤف سلام (الشيخ) ٨٨٤
عبد الرحمن خان (الامير) ٢٧-٢٩
عبد الرحمن البحراوي ٤٦٤
عبد الرحمن البرقوقي ٧٥٧
عبد الرحمن الشربيني ٤٨٨ و٥٠١
و ٥١٣ - ٥١٥ و ٥١٩ و ٥٥٢ و ٥٥٤
و ٥٥٦ و ٥٨٨.
عبد الرحمن قراعه ٦٠٣
عبد الرحمن القطب ٤٩٤ و ٥٥٧
عبد الرحمن بك كتخداي ٤٦٥
عبد الرحمن الكواكبي ٩١ و ١٢٩ و ٨٥٨
١٠٥٩
عبد الرحيم بك ٨٣١
عبد الرحيم الدمرداش (باشا) ٢ و ٧٣٨
و٧٣٩ و ٨٣١ و١٠١٧. و ١٠٢٧ و١٠٥٢
عبد الرشيد ابراهيم (التصدير (ز) ٩٩٤
و ١٠٤١
عبد السلام المويلحي باشا ٤٦
عبد العال بك ١٩٢. و١٩٥ و٢٠١ و٢٠٤
و٢١٢ و ٢١٤
عبد العزيز (سلطان المغرب) ٨٧٠
عبد العزيز البشري ٧٥٧
عبد العزيز افندي سلطان الطرابلسي ٤١٨
و٩٩٦. و ٩٦٩
عبد العزيز شاويش ٥٩٨. و٧٧٣
عبد العزيز نظمي (الدكتور) ١٠٦٢
عبد العظيم (مشهده بطوس) ٥٥ و ٦٣
عبد الغني سني (الكاتب التركي) ٩٢٥
عبد القادر باشا ٢١٣
عبد القادر الجزائرلي (الامير) ٢٨٣ و ٩٣٩
عبد القادر الجيلي ٩٠ و ١٠١ و ١٠٨

عبدالقادر الرافعي ١٠٣ و ٤١١ و ٤٦٤ و ٧٨٢
عبدالقادر بك القباني ٤٠٠ و ٨٠٢
عبدالقادر المغربي ٥٥ و ٨٢ و ٨٧ و ٩٤٣
عبدالقاهر الجرجاني ٧٥٣
عبدالكريم سلمان (الشيخ) ٢٠ و ١٣٨
و ٢٧٨ و ٢٨٢ و ٤١١ و ٤٢٧ و ٤٣٠ و ٤٣٠ و ٤٦٥
و ٤٦٩ و ٤٧٤ و ٤٨٨ و ٤٩٢ و ٤٩٥ – ٤٩٧ و ٥٠١ و ٥٤٤ و ٥٩٥ و ٦١٥ و ٦١٧
و ٦٢٢ و ٨١٦ و ٩٥٣ و ٩٩٩ و ١٠٠٥
و ١٠١٣ و ١٠١٧ – ١٠٢١ و ١٠٢٥
عبدالكريم بن هوازن ١١٢
عبداللطيف البغدادي ١٦
عبد المؤمن موسى (الشيخ العمدة) ٩٢٩
و ٩٦٣
عبدالمحسن الكاظمي (الشيخ) ٩٦٧
عبدالمجيد سليم (الشيخ) ١٠٥٢
عبدالملك ١٦
عبدالله البركة (الشيخ) ٣٩٠ و ٩٩٩
عبدالله جودت (الدكتور) الكاتب التركي
١٠٥٦
عبدالله زغلول ٢٧٦
عبدالله باشا صفير ٥٩٠
عبدالله باشا فكري ٣٢ و ١٤١ و ٤٠٨
و ٤١٠ و ٩٥٥
عبدالله القدومي (الشيخ) ٦٦٦
عبدالله افندي الكردي ٢١٠
عبدالله المسقاوي (الشيخ) ٩٩٩
عبدالله افندى المغيرة ٥٨٦
عبدالله نديم (السيد) ٤٦ و ٢٣٦ و ٥١٠
و ٦٦٨ و ٧٧٧
عبدالواحد بن زيد ٩٢١
عبدالوهاب النجار ٧٧٣ و ٨٧٦
و ٨٧٩ و ٨٨٣ و ٨٨٩
عبده خير الله ١٣ و ٩٧٥
عثمان رفقي باشا ١٨٥ و ١٩٠ و ١٩٣ و ١٩٨
عثمان شعيب ٢٧٦
عثمان بك غالب ١٤٢ و ٢٢٨
عثمان باشا فاضل ٨٩٤
عثمان مرتضى (باشا) ٤٦٧
عدلي باشا ٥٩٩
عرابى باشا ٤٦ و ١٤٦ – ١٤٩ و ١٥٤
و ١٩٢ . و ١٩٥ و ١٩٧ . و ٢٠١ . و ٢٠٤
و ٢٠٦ . و ٢٠٩ – ٢١٧ و ٢١٩ – ٢٢٧
و ٢٢٩ – ٢٣٢ و ٢٣٨ و ٢٤١ – ٢٤٥ و ٢٤٨
و ٢٥٠ – ٢٦٠ و ٢٦٤ و ٣٤٤ و ٥١٠
و ٧٣٨ . و ٩٥٥ و ١٠٣٢
عزت باشا العابد ٩١
عقال بن شيبة ٩١٠
علي ابراهيم باشا ١٤٣
علي أكبر الشيرازى ٦٠ و ٦٢
علي بن أبي طالب امير المؤمنين ١٧
علي الترمذى السيد ٢٧
علي حيدر باشا ٢٢٩
علي الخواص الصوفي ٩٢١
علي باشا ذوالفقار ٧٦٩
علي بك راغب المصري ٩٢ و ٩٤
علي باشا رفاعه ٦٢٠ و ١٠٤٢
علي سرور الزنكلونى ١٠٥٢
علي شروانى زاده ٣٠
علي عبدالرازق ٧٥٧

علي بك فهمي ١٩٠ و ١٩٢. و ١٩٥ و ٢٠٠.
و ٢٠٦ و ٢١٨. و ٢٢١ و ٢٥٩
علي الليثي ٩٣٩ و ٩٥٥
علي باشا مبارك ١٦ و ١٤١ و ٢١٨. و ٢٢٨
و ٢٣٥
علي بك مظهر ٤٦
علي الميرغني (السيد) ٨٧٩ و ٨٨٩
علي الميلي الغربي (الشيخ) ٦٩٢.
علي يوسف (الشيخ) ٤١٢ و ٤٩٠ و ٥٠٢
و ٥٧٤ و ٥٨٠ - ٥٨٢ و ٥٨٧ - ٥٨٩
و ٥٩٣ - ٥٩٥ و ٦٣٠ و ٧٢١ و ٨٤٢
و ٨٤٨ و ٨٦٠ و ٩٢٣ و ٩٣٧ و ١٠٠٨
عليش (الشيخ) ١٠٦. و ١٣٣. و ١٤٦
و ٩٨١ و ٩٨٦
عمر الابهري ٥٣٤
عمر بن حسام ٥٣٤
عمر الخشاب (السيد) ٧٦٦ و ٧٨٤
عمر بن الخطاب ١٦ و ١٩
عمر لطفى باشا ٢٣٠. و ٢٣٣ و ٢٣٧ و ٢٤٧ -
٢٥٠ و ٧١٩ و ٧٢١
عوض واصف (صاحب المحيط) ١٠٦٢

غ

غرانفيل (اللورد) ٢٣٩ و ٣٧٥ و ٣٨٢
غريغوريوس حداد (مطران الروم
فبطركهم) ٧٨٠
الغزالى ٥١ و ١١٢ و ١٢٥. و ٤٠٤ و ٥٠٣
و ٥٢٨ و ٥٣٤. و ٩٦٢ و ٩٦٥
غلادستون (المستر) ٤١ و ٤٥
غمبتا ٢٣٧ و ٢٣٩
الغوث بن مر ١١٠
غوردون ٢٤١ و ٣٧٢. و ٣٧٧
غورست (السير الدون) ٣ و ٥٨٨ و ٥٩٣
٥٩٩
غوستاف لوبون (الفيلسوف) ٨٦٧ و ٩٢٥

ف

فؤاد باشا (الوزير التركى) ٢٦٤
فائد بك ٤٠٦
فتح الله زغلول (انظر أيضا احمد فتحي) ٢٧٦
فرج بك الزين ٢٠٥. و ٢١٢
فرح أفندي انطون ٨٠٥. و ٨١٠ - ٨١٢
و ٨١٤. و ١٠١٧
فريد باشا ١٧١ و ٢٣٦
فوده بك حسن ٢٢١
فيدال بك ١٤٢
فيض الله الدر بندي ٦٠
فيضي باشا ٥٦١.
فيفيان (مستر) قنصل انكلترة الجنرال ٣٣

ق

قاسم بك أمين ٢ و ٧٧٠ و ٧٧٤. و ١٠٠٧
و ١٠٣٤ و ١٠٥١ و ١٠٦٢
قاسم بن ثاني (الشيخ) حاكم قطر ١٠١٠
قدري باشا ٦٢٧
القمي النيسابوري ٤١٤

ك

الكاشاني الباطني ١١٦
كاليار (المسيو) ٢٤٠
كتشنر (اللورد) ٥٩٩
كرومر (اللورد) ٣ و ١٦٥ و ١٦٩ و ٣٤٨

٤١٨. و٤٦٧و ٤٩٥و ٤٩٩و ٥٠١
٥٥٨ و ٥٦٠و ٥٦٤.و ٥٧١و ٥٧٥
٥٧٧-٥٧٩ و ٥٨١ و ٥٨٤ و ٥٨٨
٥٩٨و ٦٢٣و ٦٣٢و ٦٣٦.و ٧٢٩
٨٤٠و ٨٤٧و ٨٩٢ و ٨٩٥ و ٩٥٣
٩٦٩و٩٩٤و١٠١٦و١٠٢٢و١٠٥٤
كري (المستر) ٨٨٢
كودار بك ٢٤٥
كوكسن ٢٤٥ - ٢٤٧
كولفنى ٢٤٥
كوتقي (المستر) ٢٢٢
كيزو (مؤلف) ١٣٥

ل-م

لارمى باشا ١٤١
لطف الله (البرنس سبط السلطان) ١٠٢٤
ليرونه ديرول (مسيو) ١٤١
ليكس ٢٤٢
ليون (اللورد) ٢٣٩
ليون فهمي ٥٧٦و ٥٧٩
مالت (المستر) ٢٢٢.و٢٣٩_٢٤٢و٢٤٥
مالك الامام ٣١٣و٥٧٢ و ٦١٥
ماهر باشا محافظ مصر ٧٣٠و٧٦٩و٨٣١
مؤيد الملك ٨٢٠
متشل انس (مستر) ٥٨٨
مجاهد (الشيخ) عبده ٢٠
محروس افندي عبده ٩٦٣
محسن الملك (النواب) ٥١٦و ٥٢٠ و٥٢٧
و٥٤٠ و٥٥٠و٥٥٢ و ٦٠٠
محمد بك أباظه ٨٦٢
محمد ابراهيم (الامير) ٥٧٤و٥٩٣
« بك ابو شادي ٦٦٨.و ٦٧١و ٦٧٣.
٦٩٥و ٧١٠و٧١٦و ٩٩٥
« ابو الفضل (الشيخ) ٤٦٤
« احمد المهدي ٧٨و٣٣١و٣٤٧و٣٦٥
و٣٧٠و٣٧٣_٣٧٦و٣٧٨_٣٨٠ و٣٨٢
محمد الاحمدى الظواهرى ٥٠٠ و ٥٠٢
و ٥٠٤ و ٥٢٠ و٥٥٢
محمد أسلم ٢٨
« أعظم خان ٢٨،و ٣٩.و ٤٣
« أفضل خان ٢٨
« اكبر خان ٤٣
« بن الامير ٦٩٢
« أمين ٢٨
« البحيري (الشيخ) ٤٦٤و ٤٩٣و٤٩٥
« بخيت « ١٠٤٣ و١٠٥٢.
« البدوى « ٨٨١
« البسيوني « ٢٥
« بك بيرم ٦٨٥و٩٢٣و٩٣٥
« تقي الاصفهانى ٦٣
« « البجنوردى (الملا) ٦٤
محمد توفيق البكرى (السيد) ١٢٩و٥٦٣و
٥٦٦و٥٨٦.و٦٦٨و١٠٢٤و١٠٦١
« الجعايبي التونسي ١٠٥٨
« حافظ ابراهيم ٦٠٤و ٧٧٥و ٨٠٧ و
٨٠٩و٨٩٢_٨٩٤و٩٥٧و١٠١٧و
١٠٢٠و ١٠٤١و١٠٥١و ١٠٥٣

محمد حسن الشيرازى (الميرزا) ٥٦و٦٣
« حسنين (الشيخ) ٧٧٣
« بن حنيف ١١١
« الحلو (الحاج) ٨٣١
« خضر « ١٤
« الخضرى (الشيخ) ٨٧٦و٨٨٤و٨٨٩
« خليل ٢٧٦،٢٧٩
« بن الخوجه التونسي ٨٧٢و١٠٥٧
« الدلاصي الشيخ ٩٢٩
« بك راسم ٢و٧٩٠و٩٥٥.
« راشد (الشيخ) ٥٦٣و ٥٧٣
« الرافعي « ٩٤٣
« رشيد رضا ٥١و ٥٣ و٥٥و ٦٢و٦٨
و ٧١و ٢٦٠و٤٧٧و ٥١٤ و٥٧٠.
٥٨٦و ٥٨٨_٥٩٠و٦١٧و٦٣٠ و
٧٩٧ و ٨١٠و ٨١٢و ٩٥٦ و
و٩٦٣و١٠٠٤و١٠١٢و١٠١٤و
١٠١٨و١٠٢١_١٠٢٤،١٠٢٧،١٠٥٢
١٠٢٥
محمد رضا الكرماني ٦١
محمد رفيق خان ٢٨
محمد افندي الرملاوي ٢٢٠
محمد افندي الزمر ٢٢٠و ٣٩٩
« زيد بك ٧٧٤
« باشا سيد احمد ٣٢
محمد افندي السيد ٢٢٠
« شاكر (الشيخ) ٤٧٠و٤٧٣ و٥٥٣.
و٥٨٦ و٥٩٥ و ٧٧٠ و٨٧٦ و٩٩٥
محمد شاكر بك ١٩٣
« شاكر (الشيخ) من علماء صفاقس ١٠٥٨
« الشربتلي (الشيخ) ٦٦٨و٦٧٠
و٦٧٤و٦٩٩و٩٨٦و٩٨٩و١٠٤٣
« شكري باشا ١٠٥٣
« بك شوقي ٢٢١
« صالح ١٣٧
« صالح باشا ٧٥٦و٧٧٨
« بك صدقي ٢١١
« صديق خان ٦٨٦
« طلعت حرب باشا ١٠٦١
« عاكف افندي (الكاتب التركي) ٩٩١
« عبد الجواد القاياتي (الشيخ) ٣٠٣
« باشا عبد الوهاب (شيخ دارين) ١٠١٠
« عبده الاستاذ الامام
(لم نبين أرقام اسمه ولا لقبه لكثرتها
والاستغناء عنها بالفهرس الاول)
« عبيد (بكباشي) ١٩٦.
« العروسي (الشيخ) ٦٩٢.
« عز العرب (الشيخ) ٧٧٣
« بن عقيل (السيد) ٦٠٠و١٠٢٨
« علي باشا الكبير ٣٦و١٥٧و١٦٠
و٢٤٧ و٣٣٥ و٣٣٨ و ٥١٠ و٥٢٨
و٥٧٤و٥٨٣و٨١٣و٨٩٩
« علي (الامير) ٥٧٤
« علي خان (الميرزا) ٦١

محمد علي بك المؤيد ٣٠٤
« عمر البنا ٨٧٩
« بك فريد ٥٩٣.
« فريدوجدي ٧٨٢
« كردعلي (الاستاذ) ٧٧٥
« افندي اللبابيدي ٤٠٠
« لطفي جمعه (المحامى) ٧٩١_٧٩٣و٧٩٦
« باشا المحمد المرعي ٩٩٦_٩٩٩
« محب باشا ٥٩٩
« المدني (السيد) ٢١و٢٢
« بك مسعود ٨٠٩و٩٤٨
« مصطفى المراغي (الشيخ) ٨٧٦و١٠٥٢
« المنشاوي ١٥و٩٧٥
« المنيني (الشيخ) ٤٠٤
« المهدي (الشيخ) ٧٥٧و٧٧٣.و١٠٠٥
« المهدي العباسي (الشيخ) ٤١١
و٩٣٩و١٠٤٣
« النجدي (الشيخ) ٤٦٤
« هارون (الشيخ) ٨٧٦و٨٧٩و٨٨٣
« هلال الابياري (الشيخ) ١٠٥١
« وجيه الكيلاني (السيد) ٦٠٠
« بك الوكيل ١٠٠٧ و١٠٠٩
« بك يوسف ٩٧١
محمود بك كاتب أسرار الخديو ٢٢٩
« باشا (الشيخ) ٤٦٩
« حمزة (السيد مفتي الشام) ٩٣٩
« باشا الداماد ١٠٢٤
« بك سالم ٧٧٤.و٨٩٧
محمود باشا سامي البارودي ٤٦و١٣٧
و١٩٧و٢٠٢. و٢١١ و٢١٣ و٢٢٣
و٢٣٠و٢٣٦و٢٤٠ و٢٤٤. و٢٥٧
و٢٧٥و٤١٠و٩٩٥و١٠٢٤
« باشاشكري ١٠٠٩.
« شوكت باشا ٩١٤.
« باشا عزمي ٨٨٦
« الغزنوي (السلطان) ٣١٦
« فهمي باشا ٢٥٧
« افندى كامل نجل الاستاذ محمد على كامل
المحامي ١٠٥٢
« افندى الكحيل ١٥٦و٣٩٠و٣٩٢
محي الدين حماده ٤٠٠و٤٠٥و٧٨١
محي الدين بن العربي ٥١و١٠٨
و١١٦و٩٥٩
مدحت باشا ٣٩٣
مرسي بك فهمي ٨٨٥
مصطفى باشا الأنجا ٨٥و١٠١٢
« بك الباجورى ١٠٠٧و١٠٢١
« حسين مشيط المنفلوطي ٨٦٤
« بك الدمياطي ١٠٤٢
« صادق الرافعي ٨٦٤
« عبد الرازق ٧٥٧و٨٧٥و١٠٥٢
« بك عبد الرحيم ٤٩٩
« العناني (الشيخ) ٧٧٣
« باشا فاضل (الامير) ٧٤٥
« باشا فهمي ٥١٤و٥٩٠
و٨٣١و٩١٥

مصطفى كامل باشا ٥٨٨و٥٩٢-٥٩٤
٦٠٢ و٦٩٥ و٦٩٩ و٧١٠ و٨٠٣
و٨٥٥و٨٥٧و٨٥٩ و٩٣٧ و١٠٠٣
« لطفي المنفلوطي ٧٥٧و٨٦٣
« المنشاوى ١٥و٩٧٥
« باشا وهبي ٣٢
المعتصم (الخليفة العباسي) ٢٢٨
ملكام سرجم المؤرخ الانكليزى ٣١٦
ملكولم مكاريث (مستشار الحقانية) ١٠٥٤
منح بك الصلح ٤٠٧
منسي بك (الميرالاى) ٨٨٠
المنصورى ٤٩١
منصور فهمي (الدكتور) ١٠٥٢.
منو ٢٥٦ منيف باشا ٣٠
مهدى خان الايراني (الدكتور) ٥٨٩و٩٣٧
المهدى الوزاني ٧١٦
موجيل ١٤٢ موتان ١٤٢ مونج ٢٤١
موني (مسيو) ١٤١

ن

نابليون ٦٢١
نادرشاه الايراني ٣٤٦
نازلي هانم (الاميرة) ٤١٨و٨٧٢
و٨٩٤.و٨٩٧
ناصر الدين شاه إيران ٥٤و٧٢و٩٥و٣٤٧
نجم الدين باشا ١٩٣
نسيب ارسلان (الامير) ٤٠١
نسيب فلبيدس ٨٨٧
نسيم بك خلاط ٧٨٠
نعوم افندى ليكي ٨١١و١٠٦٠
النقاوى (السيد) ٤٢
نقولا افندي شحاده ١٠٠٤
نوبار باشا ٧٤ و١٦١ و١٦٥و١٨٦و٢٠٠
و٥١١ نينه ٢٤٨و ٢٥٠

هـ — ي

هادى النجم آبادى ٦٣
هارون الطبيب ٩٣
هانوتو المسيو ٧٩٨ـ ٨٠١. و١٠٣٤
هرتنكتون وزير الحربية ٢٣٧و٣٣٩
هكس ٣٧٤
ولسلي ٢٥٧ ولسن ٩٦٥
وليد بن القاسم ٩١٠
ونجت باشا السير ٨١٦
ونجت اللادى ٨٨٠
يحيي افندي قاضي مصر ٦٢٦و٨٥١
يعقوب خان ٢٩
يعقوب صروف الدكتور ١٠٣٢و١٠٥٩
يوحنا ميرزا ٨١٧
يوسف باشا جدوى ٢٢٨
يوسف الحنبلي ٤٦٤
يوسف سليمان بك ٨٣١
يوسف باشا طلعت ٥٦٠و٦٦٩
يوسف باشا كمال ٢٠٤
يوسف النابلسي ٤٣١
يوسف النبهاني الدجال ٥٩٠و ١٠٤٣

فهرس رابع لاسماء البلدان والاماكن

حرف الالف

أذربيجان ٥٩
الاستانة ٢١ و ٣٠ و٤٠ و٤٤ و ٥٥ و٧٢و٧٦ و٨٢ و٨٨ و٩١و٩٣و٩٥ و٩٧ و٢٣٦ و٢٤٤ و٢٥٨ و٨٤٧. و٨٥٦ و٨٦٤. و ٨٧٠ و٨٩٦
أبو شهر ٤١ و٧٧
الازبكية ٧٢
الازهر . الالقاب التى كان ينبز بها الاستاذ الامام ٤٩٥
(وتركنا بقية أرقام الازهر لكثرتها ومعرفة مواضعها من فصول الكتاب)
اسعد آباد ٢٧
اسكيار نيافيس ٣٦
الاسكندرية . استعداد الاجانب للمذابح فيها وبدء المذبحة وسببها ٢٤٥
» طلب محافظها انزال عسكر انكليزى اليها ٢٤٩
» وصف المهاجرة منها بعد حرقها وضربها ٢٥٢
» كلمة الخديو توفيق في حرقها ٢٥١
» إلحاق التعليم الديني فيها بالازهر ٤٦٧-٤٧٤
الاسماعيلي (جامع) ١٠٠٥
افغانستان ٤٠ و٣١٨
الافغان (و) من التصدير و٢٧و٤٢
اكسفورد ٨٦٦
ام درمان ٨٧٧و٨٨١
الاندلس ٣١٩و٣٢٩و٥٤١
اندومان (جزائر) ٢٩٩
انطلياس (متنزه لبيروت بلبنان) ٩٦١
الاهواز ٥٨
ايتاي البارود ٢١
ايران ٢٩و٥٤و٥٨و٦٤و٩٦و٣٣١ (ز — من التصدير)

ب

باريز ٣٣و٥٥و١٠٠و٢٩٥و٣٨١
بخارى ٢٩
برايتون ٨٦٨
بربر ٣٧٦
برج أبي حيدر ٣٩٦
برقايل (بلدة بعكار) ٩٩٦
بشكطاش ٩٢
البصرة ٥٦و٦٠و٦٢و.٩٦و٣٤٧
بطرسبرج ٥٤و٧٢
بعلبك ٣٩٨ و٤٠٥و٩٩٦

البغالة ٤٣٤
بغداد ١٢١و٢٢٨
بلبيس ٢٦٠و٤٨٤
بلرم ٨٧٤
بلاد الافغان ٣٧و١٠١و٣١٣
بلاد فارس ٠٦٢ و٣١٨
بلاد الهند (راجع الهند)
بلوجستان ٣١٨و٣٥٩
بمباي (الهند) ٧٧
بورسعيد ٢٥٠و٢٨١
بيت المقدس ٢٩٨
بيروت ٤٨و٣٩٠. و٣٩٨ و٤٠٤. و٤٠٧و٤١١و٩٩٨

ت - ج - ح

الترعة التوفيقية ١٨١
التل الكبير ٢٦٠
تونس ٢٥٦و٣٦٣و٣٨١و٣٨٩و٥٥١ و٨٧٠و٨٧٥و٨٩١و٩٥٧و٩٦٥ و١٠١٣و١٠١٧
الجامع الازهر ٢٨و٣٠
جدة ٤٨
جرجا ٣٧٨
الجزائر ٥٥١ و٨٧٠ و٨٧٢ ـ ٨٧٥ و٨٩١ و٩٢٤. و٩٥٧و ١٠١٣ و١٠١٧
جزيرة سيلان ٤٦
جنيف ١٠٥و٨٦٥
الحجاز ٣٥و٤٠و٩٤٧
حصة شبشير ١٦
حضرموت ١٠٤
حلب ١٢٩
حلوان ٤٩٢و٥١٢
حيدر آباد ٣٣و٤١

خ - د - ر - ز - س

خان الخليلي ٢٥و ٩٧٥
خانقين ٦١
خراسان ٥٩
الخرطوم ٣٧٩و٨٨٣
خوارزم ٦٩
درب الجماميز ١٠٢٤
دمشق الشام ٣٩٨و٤٠٤و٤٠٥
دمياط ٢٥٥ و ٢٥٨
دنقلا ٣٦٥
دهلي ٢٩٩
رأس التين السراي ٢٠٢٥
رشيد ٢٥٨
الرمل (الاسكندرية) ٢٥٢و٨٠٦و١٠٤٥
الروملي ٢٣٢
الزقازيق ٢٥٧
زقاق البلاط ٣٩٦ و٤٠٠
زيزينيا ٤٨ و ٢٤٧
السامرة (بالعراق) ٥٦
سرخس ٣٤٧
السند ٣٥٩
السنطة ١٥

سنغافورة ١٠٥٨
سواكن ٣٤٥ و ٣٧٣
السودان: سياسة جمال الدين ومحمد عبده فيه أثناء ثورة المهدي ٣٠٦، و ٣٧٠ – ٣٨٢
« زيارة الاستاذ الامام له وفوائدها ١١٠٦
سورية: حفاوة أهلها بالاستاذ الامام في نفيه وما دار بينه وبين سعد زغلول في ذلك ٢٧٤
سورية: عمل الاستاذ الامام وإصلاحه فيها ٣٩٠ – ٤١٥
« الحفاوة به في عكار وطرابلس منها ٩٩٦
السويس ٢٩ و١٧١ و١٧٤ و٢٥١
سويسرة ١٠٤، و ٨٦٥ و ٨٧٠
سيلان ٤٦ و٤١٠ و٩٩٥

ش - ص - ض - ط - ع

شبراخيت ١٣ و ١٥
شبرا – أو شنبرا ١٦
شندي ٨٧٧
شيخلر مزارلغي (مقبرة المشايخ) ٩٢،
صقلية ٨٧٤
صيدا ٤٠٥
الضلمان من الاناضول ٥٩٧
الطائف ٨٥٠
طبرستان ٥٩
طرابلس الشام ٢١ و٨٤ و٣٠٣ و٣٩٠ و ٣٩٨ و٤٠٥ و٩٣٠ و٩٩٦ و١٠٣٢
طره ١٩٧
طشيوز ٥٦٢
طنطا ٢٠، و٢٤
طهران ٥٨ و ٦٥ و٩٥، و٩٣٨
عابدين (السراى) ٢١٩ و٢٢٢ و٢٣٨؛ ٤١٧، ٦٠٠ و٩٢٢ و ٩٦١
عاصمة الدولة الروسية (تصدير – ز)
عاصمة الدولة العثمانية «
العراق ٣٠٤ و ٥٤١
عشق آباد ٣٤٦
عكار ٩٩٦
عايكره الهند ٥١٧ و ٧١٧
عين شمس ٥٥٩ و٥٧٢ و٥٧٧ و٥٨٦، ٧٧٤ و٨٠٩، ٨٦١، ٩٦٩، ٩٧٢، ١٠٢٥

غ - ف - ق - ك

غزنه ٢٨
الفجاله ٤٣٤
فارس (راجع بلاد فارس)
فروق (الاستانة) ٤٤
فشوده ٥٩٣
فيلبين ٦٠٠
فينا ٨٢
قبرص ٢٣٦ و٢٤٦
القبه (سراي) ١٧١ و ٤٩٢ و ٥٧٠
قبة الغوري ٧٢٨ و ٧٣٠ و٧٣٩ و ٧٥٤
القدس ٤٠٥
القصاصين ٢٥٩
قصر النيل ١٩٦ و ٢٠١ – ٢٠٤ و ٢٠٦
القفقاز ٦٩
القلمون ٣٠٣ و٩٩٨ و ١٠٠١

القنال ٢٥٧ و ٣٣١ و ٣٧١ و ٣٧٤
قندهار ٢٩ و ٣٦٣
كابل ٢٧ و ٣٩ و ٣٨٩
كسلا ٣٨٢ و ٨٨٩
كفر اندوار ٢٥٣ و ٢٥٨
كفر الزيات ٢٢١
كلكته (الهند) ٣٣ و ٢٨١
كمبردج ٨٦٦ و ١٠٣٤ و ١٠٥٥
كنر (افغانستان) ٢٧
كنيسة اورين ١٥ و ٢١ - ٢٣
كوردفان ٣٧٦
الكويت ٣٤٧

ل

لبنان ٣٩٨ و ٤١١
لوندره ٣٣

م

المارستان (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر) ٤٩٥
مازندران ٥٩
محلة نصر ١٣ و ١٦ و ٢٠ و ٢٣ و ١٠٧ و ٩٧٥ و ٩٧٦
المحمره (عربستان) ٣٥٩
المخروب (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر) ٤٩٥
مداغسكر ٣٥١
مرو ٣٤٦
مسكو روسية ٩٦
مشتهر ٥٦٢ و ٦٣١
مشهد شاه عبد العظيم بايران ٦١ و ٩٦
مصر . شهادة انكليزي بعدم استغنائها عن محمد عبده اذا قدر لها الاستقلال ٢٣٢
« وصفها في عهد محمد علي من (العروة الوثقى) ٣٣٢
« حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من كلام الاستاذ الامام) ٣٥
« حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من المقصورة الرشيدية) ٩٧٨
« نفوذ الاجانب الغريب فيها وسببه وغايته ٥٦٥
« احتقار الخديو توفيق ورجاله وكبار ضباطه من الاعاجم للمصريين ٢٦٢ و ٢٥١
« وطنية اهلها وقيامهم بالواجب في مقاومة الانكليز ٢٦٣
« وصف العروة الوثقى البليغ الثوري لاحتلال الانكليز لها ٢٩٢
« منع جريدة العروة الوثقى من دخولها وتغريم من توجد معه ٣٠١
« استفزاز المسلمين لنجدة مصر على الاحتلال ٣١٨
« مسألتها مع الاحتلال وسياسة العروة الوثقى فيها ٣٣١ - ٣٦٩
« مشروع مستر بلنت في استقلالها ورأي الاستاذ الامام فيه ٨٩٨ - ٩٠٥
« رأي الاستاذ الامام في خواص شعبها ٩١٥

مصر. رأى الاستاذ الامام في التربية والتعليم
فيها ٩١٧
« رأيه في وطنيتها واتفاق المسلمين مع
القبط ٩١٧و٩١٨
مكة المكرمة ٢٨. و ٢٩٥
منية طوخ ١٠
مونيخ ٥٤ و ٩٦
ميت غمر ٨٤٣. و١٠٤٢

ن - هـ - ي

نابلس ٦٦٦
الناصرية ١٠٠٥
نجد ٩٠و ٩١٤
نيسابور ٢٩
هراة ٢٨. و ٣٤٧ و ٣٦٣
هرسك و بوسنه ٣٦٣
الهند ٢٨. و ٣٣و٤٣و٦٤و ٢٨١و ٢٩٥
٣٠٢و٣٢٩و ٣٣٤و ٣٨٤
هيكل آمون ٣٥٤
يلديز ٧٢و ٨٤٨

تم

تنبيهات

﴿الاول﴾ اننا وضعنا الفهرس الاول المفصل لمواد الكتاب بهيئة خاصة من اختلاف أنواع الحروف ووضعها للفصول والمقاصد والمسائل ترشد الناظر اليها بسهولة وسرعة أغنتنا عن وضع فهرس آخر لها مرتب على حروف المعجم

ووضعنا فهرساً ثانياً للصور والرسوم الشمسية على قلتها لتسهل مراجعتها على مريدها وفهرساً ثالثا لاسماء الاعلام الشخصية لان كثيراً منها قد يحتاج الناظر في التاريخ الى مراجعته فيما هو خاص بأصحابها . ولم نلتزم ذكر ألقابهم في الفهرس ولا في كل مكان في التاريخ ولا مراعاة التاريخ في اللقب فسعد باشا كان يلقب بالشيخ فالافندى فالبك فالباشا فذكرنا اللقب الاخير في كل مكان لقبناه به . وتركنا ألقاب التعظيم الرسمية وغير الرسمية اتباعا لكتب سلفنا إلا قليلا

وفهرساً رابعاً لاسماء البلاد والمواضع لان منها ما يحتاج إلى مراجعته ولم نعن بالاستقصاء فيه بل تركنا أكثرها تكراراً فيه وفيما قبله كما بيناه في محله

﴿الثاني﴾ يجد القارىء في السطر السابع من فهرس الصور والرسوم (في صفحة ١١١٣) ذكر صورة المؤلف سنة ١٣٥٠ ولكنه يجد بجانبها الصورة نفسها قد كتب تحتها سنة ١٣٤٥ وسبب هذا اننا لما طبعنا الصورة الاولى وهي صورة هذه السنة وجدت غير صالحة فوضعنا مكانها الصورة الاخرى وكان ذلك بعد طبع الفهرس

﴿الثالث﴾ ذكر في السطر ١٣ من صفحة ج من تصدير الكتاب ان الامام أبو محمد ابن حزم كان في القرن السادس والصواب الخامس فانه توفي سنة ٤٥٦ وكان يجب تقديم ذكره على ذكر الغزالي في التجديد وما تذكرت هذا إلا بعد طبع الكراسة فليصحح بالقلم

الاستدراك على الكتاب

كتبت في آخر الكلام على عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر (صفحة ٦٠١) استدراكا قلت انه بقي لدي من مواد هذا المقصد وغيره (ومن سيرة السيد جمال الدين) شيء كثير أرجأته إلى الجزء الرابع الذي سيكون ذيلا لهذا الكتاب ثم ذكرت بعض هذه المواد المرجأة في مواضع أخرى. وأقول هنا ان منها تقريرا اضافيا بخطه في إصلاح المحاكم الاهلية وضعه بطلب الاستشار القضائي، ومنها بعض تقاريره عن مدرسة دار العلوم في إثر توليه لرياسة الامتحان السنوي فيها، ومنها مقاله الذي أملاه باللغة الفرنسية عن مصر وحكومتها في عهده، ومنها مقالات مهمة في المنار وفي جرائد أخرى تتعلق بالازهر وغيره من الموضوعات المهمة كالرد على ما انتقده لورد كرومر على شيخنا في كتابه مصر الحديثة. ومنها مكتوبات بعض العلماء والادباء والكبراء له وقصائد بلغاء الشعراء فيه وفيها كتاب من الشيخ يوسف النبهاني وهو الذي هجا مع أستاذه وتلميذه نفاقا للخديو ولعلنا نأخذ رسمه بالتصوير الشمسي ومنها موضوع فتوى من أهم المسائل الاجتماعية المالية في هذا العصر وهي حكم شراء سندات الدين الدولي. والذى وجدته عندى في أوراقه منه نص السؤال في هذه المسألة المهمة وهو طويل يتضمن المستندات التي يعتمد عليها في الجواب على الطريقة التي كان يضع عليها علماء دار الفتوى (فتوى خانه) في الاستانة أسئلة الاستفتاء التي يوقع عليها شيخ الاسلام بالفتوى إما بكلمة «أولور» التركية اذا أفتى بالايجاب من صحة وجواز، وإما بكلمة «أولماز» اذا أفتى بالسلب أى عدم الصحة أو الجواز ولكنني لم أجد نص الافتاء في أوراقه على هذا السؤال، وبحثت عن هذه الفتوى في سجلات فتاويه الرسمية فلم أجدها

هذا وان مما تركته عمدا من مواد إصلاح الازهر المنشورة في مجلدات المنار رداً لي على كتاب رسمي للعلامة الشيخ سليم البشرى وآخر على كتاب للعلامة الشربيني (رحمهما الله تعالى) فأما الاول فقد شكاني الى الاستاذ الامام نفسه فرغب إلي في زيارته ومصالحته ففعلت، ثم صحت المودة بيني وبينه بعد الاستاذ الامام فكان محبذاً لعملي في مدرسة الدعوة والارشاد. وقد قال لاحمد شفيق باشا إن السيد محمد رشيد هو لسان الاسلام في هذا العصر. وزار المدرسة مشجعا لها

وسأذكر فيه ان شاء الله أشهر أصدقاء الاستاذ الامام ومريديه وتلاميذه الصادقين ومن كان يثق بهم من علماء الازهر وغيرهم (وان من أقدم أصدقائه الاستاذ الشيخ سليمان العبد) وأختمه بالنتيجة الفلسفية التحليلية للتاريخ كله والله الموفق

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

صدرت حديثاً الأجزاء الأول والرابع والخامس والسادس من

تفسير المنار

هو التفسير الوحيد الذى يبين حكم التشريع وأسراره واعجاز القرآن وكونه هداية عامة [illegible] كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وبين ما عليه المسلمون [illegible] ، أن الاسلام دين الحضارة والعمران ، وسبب سعادة الأرواح [illegible] ان مع السهولة فى التعبير واجتناب مزج الكلام باصطلاحات العلوم [illegible] نون بقدر الامكان ، وبسبب ذلك يقرب من فهم العامة ولا يستغنى عنه الخاصة

وقد اشتملت الاجزاء الخمسة الأولى منه على جميع ما قرره الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيما ألقاه من دروس التفسير فى الجامع الأزهر . وصدر منه اثنا عشر جزءاً وثمن كل جزء منه خمسون قرشاً ويضاف إلى كل منها أجرة البريد وأجرة التجليد لمن شاء . للمكاتب والعلماء والطلبة خصم خاص .

تصدر قريباً الطبعة الخامسة من

الوحى المحمدى

ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية الى الاسلام

دين الأخوة الأنسانية والسلام

الكتاب الذى طبع منه طبعتان فى سنة واحدة حين صدوره من ٢٠٠٠٠ نسخة